

ليس الجمال بأثواب تزيننا ...
إن الجمال جمال العلم والأدب

- علي بن أبي طالب



أعد الي روحي التأهية

بقلم ربي تيسير عبد الرحمن

رواية

أعد إلي روعي التائهة

بقلم

رعى تيسير عبد الرحمن

[/https://www.instagram.com/ranoodrami](https://www.instagram.com/ranoodrami)

<http://www.wattpad.com/user/rororami>

قطعة السكر التي لا تملو دونها الحياة....

الفصل الأول

دخلت إلى البيت والفرحة تغمر قلبي، قادتني قدماي بسرعة إلى الأرائك في المعيشة أمامي حيث تجلس كل من أمي وأختي تشاهدان إحدى تلك المسلسلات التركية الرومانسية، فأقبلت إليهما متلهفة، ولأجذب انتباههما عانقتهما صارخة بكل فرح:

- "أمي! ليان! وأخيراً قبلت في مقابلة عمل، لقد وجدت وظيفة!"

سرعان ما بدت الفرحة على محياهما، قالت لي أمي وقد ارتسمت البسمة على ثغرها:

- "آه يا حبيبتي! هذا أفضل خبر سمعته اليوم."

عقبت أختي مستفسرة:

- "أين ستعملين؟"

جلست على الأريكة التي تقبع بجانب الأريكة التي تجلسان عليها لألتقط أنفاسي؛ فقد كان يوماً شاقاً حقاً خضت فيه ثلاث مقابلات للعمل، ثم أجبتها:

- "سأعمل في شركة الفردوس للنسيج والاكسسوارات كمدخلة للبيانات، لن أجنبي راتباً كما كنت أحلم بسبب عدم توفر خبرة لدي، لكنّه راتب جيد كبداية، وقد وعدوني بزيادة إن أجدت عملي وبقيت أعمل لديهم لسنوات قادمة".

ثم أضفت مطمئنة لهما:

- "كما أنني قمت بطباعة منشورات للعمل كمدرسّة خصوصية للغّة الانجليزية، بهذا نستطيع التخفيف من بعض ديوننا وضائقتنا المالية".

هنا سكّت لبرهة ونظرت إليها مستفسرة عن أهم شيء قد يبحث عنه من عاد إلى بيته منهكاً بعد

نهار طويل من السعي، ثم سألت:

- "إذاً، ماذا أعددت للعشاء؟ فأنا حقاً جائعة".

ابتسمت أمي ابتسامة حزن وهي تنظر إليّ مترددة ثم قالت:

" في الواقع أختك لم تقبض راتبها بعد، لذا أعددت معكرونة على العشاء، ساعيني يا ابنتي. "

مسكينة هي أمي تحاول إرضاءنا بكل الوسائل والطرق... لا أذكر متى كانت آخر مرة تناولنا فيها اللحم، فقد تخرجت من الجامعة منذ سنة ولم أجد عملاً، وتقوم أمي بأعمال بسيطة لمعارفها والجيران مثل الخياطة وتخزين الطعام مقابل مبالغ زهيدة، ولا تجني أختي من عملها الكثير؛ فهي تعمل كمعلمة في مدرسة خاصة، وعملها هذا متعب جداً لها ويسبب لها الإرهاق والتوتر وزاد من عصبيتها، فقد أصبح مزاج ليان معكراً في معظم الأحيان وخصوصاً بعد آخر حادث حصل معها، لا أحبّ تذكر هذا الماضي المؤلم. فما حصل قد حصل وانتهى. هنا قاطعت سير أفكارى وأجبت أمي بنظرة حنونة:

" لا عليك فالمعكرونة لذيدة وأنا أحبها".

استأذنت لأنعش جسدي المنهك بحمام سريع، علّه يسترجع شيئاً من الطاقة، وأخرج من عباءتي الواسعة لأرتدي ملابس مريحة قبل العشاء. جلست لأسرح شعري بعد استحمامي، وقتها دخلت أختي إلى الغرفة، وقفت وأسندت كتفها عند الباب، وبصمت مريب نظرت إلى انعكاس صورتي في المرآة، ثمّ أشاحت بنظرها نحو النافذة، وأخيراً قالت:

" أتذكرين الجار الجديد الذي حدثتك عنه؟"

وكيف لي ألا أتذكر وهو الشغل الشاغر للجارات في العمارة كاملة، لم يسكتن وهنّ يتحدثن عن جماله وأناقته كأنه الشاب الوحيد على وجه الكرة الأرضية، ولسبب أو لآخر بقي عالقاً في ذهن ليان. نظرت إليها بعينين ملؤهما الاستفسار، ثمّ أجبتها:

- " نعم. ما به؟"

أجابت بكل برود:

- " لا شيء أردت فقط أن أقول أنه انتقل بشكل رسمي إلى الشقة السفلية. "

سكتت ثم أخذت نفساً عميقاً وأضافت:

- "إيلينا، أنت فتاة جذابة وجميلة ولا يستطيع أي شاب رفضك وكنت أفكر بأن أمي تستحق أن تفرح بإحدانا على الأقل..."

ضربت الفرشاة على طاولة المرأة مقاطعة لكلامها، فأنا لا أريد سماع المزيد من هذا الهذر. أحقاً ما تقوله هذه الفتاة؟! بعد كل ما جرى أقترح علي أن أفكر في الزواج؟ هل فقدت عقلها؟ نظرت إليها من خلال انعكاس المرأة وأجبتها بنبرة صارمة:

- "ليان، إذا كنت تجدينه جذاباً ففكري فيه أنت فأنا لا أفكر في الزواج أبداً." نظرت إليّ ببرود وأدارت ظهرها عني وخرجت من الغرفة قائلة:

- "إيلينا أنا لن أتزوج أبداً فأغلقني الموضوع."

نهضت بسرعة وحاولت أن أستدير لألحق بها لكن قدمي تعثرت بالكروسي الذي كنت أجلس عليه، فناديتها بصوت عال لكنها تجاهلتنى وتابعت سيرها.

جلسنا على طاولة العشاء ولم تحدثني ليان على الإطلاق. كان الجو بيننا مشحوناً حتى أمي لاحظت تغير مزاجنا على الطعام لكنها لم تجرؤ على طرح أي سؤال لأنها تعرف أنها لن تحصل على إجابة مرضية وانتهت ليلتنا على هذا الحال.

نهضت في صباح اليوم التالي كالمجنونة أجهز نفسي وأبحث عن أشياء وأملأ حقيتي. كيف حصل هذا ولم أستيقظ على صوت المنبه؟ ولماذا نسيت أن أجهز عباءتي وحقيتي في الليلة الماضية؟ شجاري مع ليان هو ما جعلني أنسى والآن تأخرت نصف ساعة عن تجهيز نفسي، استيقظت ليان على صوت الفوضى التي أحدثتها، نهضت جالسة في فراشها وهي تشعر بالنعاس ولم تستطع فتح كلتا عينيها حتى، ثم بدأت بالتذمر:

- "آه منك يا بنت! ما بك؟ ما كل هذه الجلبة؟ أنا التي أعمل كمعلمة لم أستيقظ في هذا الوقت المبكر جداً، هدئي من روعك قليلاً."

أعرف أن الوقت مبكر لكن هذا أول يوم لي في العمل، وعليّ أن أكون هناك قبل الموعد المحدد لأترك انطباعاً جيداً عني، ثم أنني سأذهب بالموصلات العامة ولا أعرف كم تستغرق وقتاً لأصل هناك.

ركضت بأقصى سرعة سمحت بها ساقِيّ، كنت أنزل سلالم المبنى بسرعة كبيرة حتى بدت لي كالفز، جريت بسرعة نحو موقف الحافلة حتى لا يفوتني موعدها وما إن وصلت حتى شعرت بإعياء كأنني ركضت في سباق عالمي للجري. تفقدت ساعة يدي وشعرت بارتياح لوصولي قبل موعد الحافلة بدقائق، هنا سمعت من خلفي صوتاً ينادي:
- "يا أنسة."

ولأنه لم يكن هناك أحد غيري يقف في موقف الحافلة عرفت أن المقصود من النداء هي أنا، التفت خلفي لأجد شاباً يبدو أنه في مقتبل الثلاثينيات من العمر، كان شاباً وسيماً جداً بل كلمة وسيم لا تكفي لوصفه، بشعر متموج ناعم وعينين بلون اللوز الذي يمزج بين الأخضر والعسلي. كان يرتدي بزة رسمية أنيقة بلون رمادي، وكان يبدو عليه الثراء والنظافة. كنت أهدق فيه متمسرة حتى تنحج فأفقت من حبل أفكارِي. هل كنت أنفقده؟ يا إلهي هل أحس أنني كنت أنفقده؟ ولسبب ما أحسست بحمرة شديدة تعلقو خديّ. سألت بصوت أشبه بالهمس:
- "عفواً هل ناديتني؟"

مدّ يده إليّ، لم أكن بعد قد أفقت من دهشتي جيّداً، نظرت إلى يده بتعجب فرأيت شيئاً مألوفاً فيها كأن هذا الشيء يشبه تعليقة مفتاحي، لحظة أليست هذه تعليقة مفتاحي؟ وبصورة لا إرادية ودون تفكير فتحت جيب حقيبتِي الخلفي حيث أضع مفتاحي عادة عند الخروج من البيت لكنني لم أجده في الداخل، عدت وحدثت في الشاب الواقف أمامي، هنا كسر جمود اللحظة وقال مجيباً عن التساؤل الذي بدا واضحاً عليّ ملامحي:

- "لقد وقع منك هذا المفتاح عند خروجك من باب المبنى حاولت مناداتك لكنك اختفيت بسرعة فلحقت بك إلى هنا لأعيده إليك."

ثم نظر إلى المفتاح ونظر إلي ومد يده نحوي حاملا مفتاحي فيها وقال:
" تفضلي."

لم أعرف ماذا أقول تمنت بعبارات شكر له، لكنه بقي واقفا، رفعت بصري لأنظر إليه فوجدته يحدق بي، عادت وجنتاي تتوهجان بحمرة شديدة. لا أدري لماذا؛ ربما لأنني كنت منغلقة على نفسي وأشعر بعدم الارتياح لتواجد الشبان من حولي، فهم دائما يحدقون بي وبعضهم يهاجمني بتحرشات لفظية، وكنت أميل دائما إلى الجلوس في أماكن تكثر فيها الفتيات والنساء لأشعر بالأمان. بالمختصر لم أختلط كثيرا بالشبان طيلة حياتي، لذلك أخفقت في عدة مقابلات عمل حتى قبولت في شركة الفردوس حيث قابلتني امرأة واستطعت إظهار مواهبي في الكلام حتى أثرت إعجابها. ثم سمعت صوت الشاب يسألني ليقطع علي حبل أفكار من جديد:

- " هل تسكنين في المبنى رقم 52؟"

سألته وقد بدى الانزعاج واضحا في صوتي؛ فلماذا يريد معرفة مكان سكني؟ :

- " لماذا هذا السؤال؟"

أعتقد أنه أصيب ببعض الارتباك الذي بدا واضحا في ابتسامته المحرجة فقال مبررا:

- " صديقي انتقل للسكن في شقة في ذلك المبنى البارحة وكنت أتساءل فقط لأعرف نوعية الجيران الذين يعيشون حوله هذا كل شيء."

واستطرد قائلاً كأنه يفسر لي سبب وجوده:

- " أنا جئت كي أوصله معي إلى العمل فهو صديقي المقرب ومكان عمله قريب من مكان عملي

ويعتمد علي لذا جئت ... أوه يا إلهي كم أنا وقح نسيت أن أعرفك باسمي أنا أجد كامل."

ومد يده طالبا مصافحتي، في هذه اللحظة وصلت الحافلة نظرت خلفي ونظرت إليه ثم أدت

ظهري عنه وتمت:

" أنا آسفة لكنني لا أعطي اسمي لغرباء التفتيت بهم للتو."

ومشيت متجاهلة ندائه لي بأن أتوقف للحظة، لم أعره انتباهي وصعدت إلى الحافلة وجلست في مقعد بعيد عن أي نافذة تطل عليه. شعرت بنبضات قلبي تتسارع فأول مرة يحصل معي موقف كهذا ماذا كان يريد؟ لم يحدثني عن أموره كأن ذلك يعنيني؟ هزرت رأسي لأخرج منه أي فكرة عنه وركزت كل تفكيري في وظيفتي الجديدة، وهنا تذكرت إعادة مفتاحي إلى الحقيبة في مكانه الآمن حتى لا يضيع مني ثانية.

من شدة جمال المبنى وضخامته فإنني وقفت أمامه مشدوهة للمرة الثانية كأنها أول مرة أراه فيها هل كان بهذا الضخامة البارحة؟ أم أن التوتر بدأ يؤثر علي؟
"هل حقا سأعمل هنا؟"

تساءلت في نفسي بينما عيني مأخوذة بهذا المنظر الذي أمامي. لا بد أن مالكي هذه الشركة فاحشوا الثراء. دخلت المبنى وتوجهت نحو مكتب الاستقبال محاولة إخفاء توتري، كان يجلس خلف المكتب شاب وسيم يبدو أنه في منتصف العشرينيات تقدمت نحوه وألقيت التحية فرد علي بأدب، وأخبرته أنني موظفة جديدة ولا أعرف أي طابق سأعمل فيه. في هذه الأثناء سمعت صوتا مألوفاً يناديني بتعجب:

- "إيلينا!"

نظرت نحو مصدر الصوت لأجد صديقتي العزيزة من أيام الجامعة، سارة. صدمت لرؤيتها، ركضت نحوي واحتضنتني بكل قوتها وهي تكرر قول عبارتها:
- "لا أصدق لا أصدق لا أصدق! أخيراً وجدتك؟ ماذا تفعلين هنا؟ لماذا قطعت أخبارك عني فجأة هكذا؟ ما هي أحوالك؟"

أمطرتني بأسئلة كثيرة ولم أدرِ بأيها أبدأ بالإجابة حتى قلت في النهاية:

- "أنا سأعمل هنا البارحة كانت مقابلتي مع السيدة سلام".

اتسعت ابتسامتها وقاطعتني بمرح:

- " أنت الموظفة الجديدة! يا للصدفة العجيبة ستكونين زميلتي إذن، لقد أبلغوني بقدمك اليوم لكن لم أعرف أنها أنت، ستشارك في المكتب نفسه أليس هذا رائعاً؟"
كان حماسها لرؤيتي والعمل معي لا يقدر بثمن، وكنت سعيدة بذلك فلا أروع من أن تعمل مع وجه تعرفه في مكان جديد عليك.

سارة كانت غاية في الروعة فقد تكبدت عناء شرح طبيعة العمل بحذافيره لي، وأكدت لي على أهمية تجهيز التقرير في موعده المحدد، بل هو أهم ما في هذه الوظيفة فيجب أن يكون جاهزاً في تمام الساعة الثالثة والنصف، فهذه تعليمات مدير الشركة، فهو رجل يحب الدقة بمواعيده حسب ما وصفته سارة.

عرّفت سارة الموظفين الذين معنا في القسم علي وكانوا غاية في اللباقة، إلا أنني شعرت بأن إحدى الموظفين لم تستلظني أو هكذا خيل إلي.

عندما حانت ساعة الاستراحة أخذتني إلى مطعم قريب فقد أصرت سارة على اصطحابي لتناول الغداء معها على حسابها لتعبر لي عن حسن استقبالها وضيافتها لي، ومع إصراري بعدم القبول إلا أنها ألحت علي حتى وافقت وأنا أشعر بخجل شديد.
" إذن ما آخر أخبارك؟ لماذا اختفيت فجأة؟"

سألته بينما كنا نجلس في انتظار وجبتينا. أدركت أنه لا مجال للتهرب منها في النهاية علي إخبارها عاجلاً أم آجلاً وتوضيح الأمور العالقة التي حصلت قبل انقطاع أخباري عنها. حاولت انتقاء كلماتي بعناية وبدأت بالتحدث:

- " حسناً أنا لا أعرف من أين أبدأ"

قاطعته موجهة الحديث لصلب الموضوع بقولها:

- "يمكنك البدء بالحديث عن زفاف شقيقتك الذي لم يعرف أحد سبب إلغائه".

طأطأت برأسي إلى الأسفل وعادت تلك الذكرى لتهاجمني، أحسست بأني أخنق عبراتي لئلا أسمح لها بالمرور، ثم استجمعت كلماتي واستطعت أن أنطق بصوت مختنق:

"زفاف ليان ألغي بسببي".

نظرت إلى وجه سارة فإذا بها صامته لكن عينيها المتسعيتين صدمة تحملان الكثير من الأسئلة، فأجبت استفساراتها الصامته وأكملت:

" كانت ليان أسعد ما يكون مع ... بهاء، لم أكن ألاحظ عليه شيئاً أو لأنني بطبيعة حالي لم أختلط به كثيراً أو بأي أحد آخر. قبل الزفاف بيومين قام أهل بهاء بدعوتنا إلى تناول طعام العشاء في منزلهم، وعند انتهائنا من الطعام استأذنت للذهاب إلى غرفة أخرى لأجيب على مكالمتك... "

قالت سارة مقاطعة لي مجدداً:

" أه صحيح، أذكر ذلك! كانت تلك آخر مكالمة بيني وبينك وبعدها اختفيت فجأة".

أومأت برأسي موافقة وتابعت:

" عندما أنهيت المكالمة التفت ورائي بعدما شعرت بخيال يلاحقني، وإذا به خلفي خطيب شقيقتي السابق.... "

صمت لبرهة وأنا على وشك سرد التالي وكأنني أخرج خنجراً من حلقي، فهذه ليست بالذكرى التي أحب سردها. تابعت :

" لم أفهم ماذا كان يريد لكنني لم أشعر بالراحة من نظراته، حيّاني وفي عينيه كلام لم أعرف بم أرد عليه فأنا لم أتواجد معه في أي ظرف على انفراد قط، وإذا به يعترف بعدما حاولت الابتعاد عنه بقوله بالحرف الواحد: إيلينا أنا أحبك أنت لا ليان. "

اتسعت حدقتا سارة، ولطمت فاهما كمن تكبت صرخة. أشحت بوجهي عنها وأكملت:

" ثم تابع في هذيانه بقوله دعينا نتزوج أنا وأنت فلنهرب من هنا ولنعش معاً..... لم أعرف ماذا لأقول له، كنت مصدومة من كلامه ولم أستطع استيعاب الموقف، ظننت لوهلة أنني كنت أتخيل لكنني تأكدت أن ذلك حقيقة عندما حاصرني نحو الجدار وانحنى نحوي محاولاً احتضاني فوجدت نفسي أصفعه بينما أمره بالابتعاد عني وقد اكتساني الذعر بالكامل، ثم... ثم هممت بالخروج من الغرفة..... "

أغمضت عيني وزفرت بألم:

" عندما هممت بالخروج فوجئت بليان واقفة عند مدخل الباب بتعبيرات وجه لا تفسر، استدارت عائدة إلى حيث هي أمي وحاول بهاء اللحاق بها."

ثم نظرت إلى عيني سارة وأضفت:

" أما أنا فبقيت واقفة في مكاني متسمرة من الصدمة والخوف مما سيأتي لاحقا، لم أجرؤ على التحرك من مكاني. ثم سمعت صراخا وبكاء وقتها استجمعت نفسي وسرت بصعوبة كطفل صغير تعلم المشي للتو حتى وصلت إلى تلك الغرفة، حيث وجدت ليان تلقي بخاتم الخطوبة في وجهه وأمه تستصرخها بأن تهدأ، بعدها وجدت ليان تجرني وأمي التي كانت في حالة من الصدمة إلى خارج المنزل وعدنا إلى البيت بسيارة أجرة، أمي كانت في عالم آخر من الدهول، وأنا لم أجرؤ على التفوه بكلمة، وليان صامتة لا تتكلم حتى أنها لم تذرف دمعة واحدة، عندما وصلنا عزلت ليان نفسها في غرفتنا ليلة كاملة".

ثم قلت مبررة سبب انقطاع أخباري عنها:

- " في تلك الليلة تفاجأت بأني أضعت هاتفي ولا أعرف حتى اليوم أين فقدته ولم أملك من الشجاعة ما يكفي لأخبر أحدا بذلك. أصرت ليان في اليوم التالي على الرحيل . في البداية لم توافق أمي على ذلك. لكن بدأ الناس بالتحدث.... وسرد الإشاعات... وللأسف كانت تلك الإشاعات تتضمنني أنا في الأكثر، بعدها وافقت أمي على الرحيل، وساعدنا خالي في هذه المحنة فهو من وجد لنا بيتا جديدا بعيدا عن الكل. كل ذلك وطيلة ذلك الوقت وليان لم تكلمني طيلة شهر كامل. " هنا عند هذه العبارة اكتشفت أنني كنت أبكي فقد كانت دموعي تغسل وجهي، أمسكت سارة بيدي وقالت:

" لا يا إيلينا هذا ليس ذنبك لا بد أن ليان كانت على يقين بذلك هي لا تتهمك هذا مستحيل."

عندئذ جاء النادل مقاطعا حديثنا وقدم لنا وجبتينا، شكرته سارة ثم نظرت إلي وابتسمت لي بودّ

وقالت مطمئنة لي:

- "ذلك الحثالة هو المذنب في كل شيء وكل من تكلم عنك بالسوء.... فليذهبوا إلى الجحيم!"

ابتسمت وسط دموعي. قربت طبقي أمامي وتابعت:

"هيا تناولي غداءك فهذا المطعم يتميز بطعام لذيذ جدا".

ابتسمت إليها وبدأت في تناول الطعام.

حاولت سارة تغيير مجرى الحديث بالتحدث عن العمل وزملائها بالأخص "كتلة الشر" كما وصفتها سارة وهي إحدى زميلاتها تسمى شهد وهي الأكثر غرورا نظرا لجمالها وأناقتهما وتبعاً لذلك فهي تنظر لمن حولها بنظرة متعالية وأظن أنها نفسها التي لم تستقبلني استقبالا حسنا، وحسب كلام سارة فهي تشعر بالغيرة ممن هنّ أكثر منها جمالا وربتت على كتفي كأنها تقصدني بذلك، وقد شعرت بإحراج فأنا لا أظن أنني أفوقها جمالا. يستحيل أن تشعر فتاة بمثل جمالها بالغيرة مني، لم ينقصها شيء، شعر طويل حريري، قامة ممشوقة، وجه بملامح جذابة آسرة.. أظن أن سارة تبالغ فقط. أنهينا العمل في الوقت المحدد وحن وقت طباعة التقرير، شعرت بأن أحداً ما يقف خلفي، استدردت فإذا بها شهد وفتاة أخرى أظن أن اسمها دانا إذا لم تخني ذاكرتي، فقد تعرفت إلى أشخاص كثيرين في ذلك اليوم ولم أستطع حفظ أسمائهم جميعا من اليوم الأول. كانت شهد تنظر إلي نظرة باردة ثم انتقلت بنظرها إلى سارة وقالت موجهة كلامها إليها:

- "إذن هل الجديدة ستدخل في جدول تسليم التقرير؟ إذا كانت كذلك فأدرجها في الأيام

المخصصة لك ولا تغيري الأيام المخصصة لي".

أضافت دانا مساندة لكلامها:

- "وأنا كذلك".

بينما أنا لم أفهم شيئا. وقفت سارة ببطء وغضب وأجابتهما:

- "لا أظن ذلك يا عزيزتي سيعاد تنظيم الجدول بيننا نحن الأربعة".

أحسست بشرارة بينهن وبدأ الجو يصبح مشحوناً، فقطعت عليهن شجارهن قبل أن يبدأ متسائلة:

"جدول ماذا يا سارة؟"

نظرت إلى سارة وقالت موضحة: " حسنا، مدير الشركة الذي يستلم التقرير منا هو ابن صاحب الشركة، وهو يتصف بالوسامة! بل صفة الوسامة لا تفويه حقه!"
قالت آخر عبارة ببطء وتنهد وعينين حالمتين، وأكملت:
" كنا نتشاجر دائما على إيصال التقرير إليه لذا قمنا بتصميم جدول لترتيب مواعيد تسليم التقرير ليتوزع فيما بيننا".

نظرت إلى ثلاثتهن غير مصدقة لتصرفاتهن وكأنني أحرق في بنات في مدرسة ثانوية، رفعت حاجبي وأدرت ظهري لهن باتجاه جهاز الحاسوب الذي أمامي قائلة:
" لا داعي لتغيير الجدول لست مهتمة بالدخول هناك".
صرخت دانا فرحا مما لفت أنظار الآخرين نحونا وأضافت شهاد:
" لا يمكنك التراجع عن قرارك بعد هذه اللحظة".

ثم غادرتا متجهتين إلى مكتهما وكل ما استطعت التفكير به في تلك اللحظة هو سخافتهن؛ أيعقل فعلا أن يتشاجرن بينهما فقط للنظر إلى وجه رجل وسيم؟!

ليان

جاءتني منار إحدى زميلاتي في المدرسة لتبلغني بأن المدير يود رؤيتي. وقد أشعرتني ذلك بانزعاج كبير؛ فمن بين كل أيام الأسبوع فإن هذا اليوم هو الأكثر إرهاقا، وذلك لأنني أعطي فيه حصصا متتالية ووقت استراحتي متأخر، وحتى في وقتي الخاص هذا أقوم بمتابعة أعمال الطلبة الكتابية. والآن هذا المدير يريد التحدث معي في وقت استراحتي الوحيد لهذا اليوم! حبا بالله ماذا يريد؟
تمتت ببعض عبارات التذمر وقمت متثاقلة لأنزل إلى مكتب المدير في الطابق الأرضي.
ما إن وصلت مكتب المدير وهممت بفتح الباب حتى استوقفتني مساعدة المدير متسائلة:
- " إلى أين يا ليان؟"

أجبتها بكل برود:

- " المدير طلبني "

رفعت رأسها وأمالته إلى الجانب قليلا بحركاتها الاستفزازية المعهودة وقالت:

- " المدير الآن مشغول لديه ضيوف في المكتب، كما ترين نحتاج إلى معلم جديد لمادة الحاسوب إثر

ترك سيرين العمل والمدير الآن يقدم طلبات توظيف لبعض المتقدمين، ما رأيك بانتظاره في مكنتي

ريثما ينهي أعماله؟ "

لا بد أنها تمازحني، هل تتكلم بجدية؟ ألا تعلم أن وقتي محدود ولدي أعمال لإنهائها! زفرت

باعتراض وقلت:

- " لا أظن ذلك فوقتي ضيق ولدي أعمال وهو الذي قام باستدعائي، إما أن أراه الآن أو غدًا "

لم يعجبها ما قلته لكنني بالرغم من ذلك تجاهلتها وطرقت الباب وفتحته.

وجدت المدير جالسًا يتحدث عبر الهاتف وإلى يساره شابان وفتاة، ما إن رأوا أنني فتحت الباب

حتى تركوا طلبات التوظيف من أيديهم وحدقوا بي. تجاهلتهم قدر الإمكان وركزت ناظري على

المدير الذي بقي يتصنع عدم وعيه لوجودي، حاولت جذب انتباهه إلي بسؤال:

- " عفوا هل طلبت رؤيتي؟ "

نظر إلي من زاوية عينيه دون أن يدير وجهه ناحيتي وقال بتعجرف:

- " نعم تفضلي استريحي ريثما أنتهي هنا وسأكلمك بعد لحظات "

شعرت بأن صبري يكاد ينفد لكنني حاولت السيطرة على أعصابي واعرضت قائلة:

- " لكنني مشغولة جدًا الآن وليس لدي وقت استراحة آخر لأنتظر.... "

قاطعني بنبرة حادة فيها شيء من التهديد:

- " أنسة ليان قلت لك استريحي سأكلمك بعد لحظات! "

وأشار بيده إلى أحد المقاعد في مكتبه. في هذه اللحظة انفجرت غاضبة! يا لهذا الشخص! لا أعرف

لماذا يتعامل معي بحقارة ليس لها مبرر؛ فهو دائما ما يتصيد الفرص للإيقاع بي أو توبيخي، أشعر دائما

بكرهه لي دون سبب معين. وبسبب قمة الإرهاق الذي كنت أعاني منه ولأنني عصبي بطبعي وجدت نفسي أصرخ به دون وعي مني:

- " اسمع! ليس لدي وقت لك، فأنا على غرارك لدي كثير من الأعمال لأنجزها فإما أن تكلمني الآن أو تؤجل الموضوع إلى الغد".

في هذه اللحظة لمحت الساعة خلفه مشيرة إلى اقتراب انتهاء موعد استراحتي فأضفت:

- " أو بما أنك أضعت مني وقتاً دون فائدة سأعود إليك غداً".

أدرت نفسي إلى الخارج تاركة إياه في صدمته، وما إن خطت قدمي عتبة الباب حتى سمعت الفتاة في الداخل تعقب على ما حصل:

- " يا إلهي ما أوقحها! كيف سمحت لها بالتحدث معك بهذا الشكل؟ ألسنت أنت المدير؟!"

ظللتنني سحابة غضب أحسست وقتها بأن الزمن توقف نظرت إلى الخلف دون أن أستدير بجسدي، وحدثت بها بازدياء، وخاطبتها بصوت منخفض مسموع ملغوم بالغضب:

- " لو كنت مكانك لدعوت الله ألا أعمل هنا، لأنني سأحرص على جعل حياتك جحيماً".

قلت هذه الكلمات وخرجت دون أن أنتظر ردًا. لكنني لن أنسى نظرة الرعب التي تملكها حينها مما جعلني أشعر بنشوة الانتصار.

.....

عدت من العمل ذاك اليوم يتتابني الإرهاق والغضب، فلم ينس المدير صراخي في وجهه لذا قام باستدعائي في نهاية الدوام وأسمعني اللازم من الكلام، وفي هذه المرة لم أجادله فكرت في أن الاختصار هو أفضل حل معه لإنهاء الخلاف؛ فأنا لم أشأ أن أطرده من وظيفتي لأن كلاً من أمي وأختي تعتمدان علي.

بينما كنت أسبح في أفكار عميقة وأنا أمشي في طريقي إلى البيت وإذ بي أصطدم بأحدهم، وإثر هذا الاصطدام أوقعت كتيبي على الأرض. فصرخت بالشخص دون وعي مني: " ألا ترى أمامك يا هذا؟"

وانحنيت لألتقط أغراضي عن الأرض، فلمحت خيال جسده ينحني أيضًا ويساعدني في جمع كتبي وهو يكرر أسفه مرات عدة، لكنني لم أكن في كامل وعيي لأعيره انتباهها، وفجأة تلامست يداها على الكتاب نفسه تسمرت يدي في موقعها ورفعت بصري إليه لأراه يحدّق بي. مرّت ثوانٍ قبل أن أقطعها بتجهمي عليه قائلة باستنكار:

- "إلّا مَ تنظر يا هذا؟"

لا بدّ أنني تسببت له بإحراج كبير، فقد انتفض عن الأرض بسرعة وبدأ بالتلعثم والاعتذار ثانية، ووجهه تكسوه حمرة شديدة، لان قلبي لمظهره فبدأت بالاعتذار له أنا أيضًا مبررة له بأنني خضت يوما شاقًا جدًّا. فالحق يقال لا ذنب لهذا الشاب حتى أصب جماح غضبي عليه. ابتسم لي ابتسامة ساحرة ثم سألني:

- "هل تقطين في هذه المنطقة؟"

فأشرت إلى المبنى الذي كان إلى يميني وأجبت:

- "نعم. في الواقع أنا أسكن في هذا المبنى".

رفع حاجبيه متفاجئًا وأضاف:

- "يا للمصادفة أنا انتقلت إلى هذا المبنى البارحة".

لم أستطع إخفاء تعابير المفاجأة من وجهي، فهذا هو جارنا الجديد الذي لم تستطع الجارات التوقف عن الحديث عنه، حسنا كنّ على حق فهو غاية في اللباقة والأناقة والوسامة. وهنا خطرت إيلينا في بالي، كيف أجمعه بها وأقنعها فيه؟ يا ليتني لم أهاجمه كالغبية سيظن أنني همجية وبالتالي لن يعطي إيلينا فرصة ولن أستطيع تزويجها أبدًا. تنحنح الشاب ليوقظني من أفكارني فشعرت بخجل شديد واعتذرت منه وعرفته على نفسي:

- "عفوًا أعتذر منك كان ثمة شيء يشغل بالي لا عليك به، أنا أدعى ليان أسكن في الطابق الثالث".

رحب بي بمرح مما جعل خدائي تتوردان بحمرة خفيفة، ثم قال:

"أنا مازن"

ثم ابتسم لي وأضاف:

" هل ترغبين يوماً ما باحتساء مشروب ربما قهوة مثلاً... أعني مع شقيقتي وأمي حتى تُعرفينا أكثر على المنطقة والجيران".

صمتت برهة لأفكر في الموضوع، إذا وافقت على شرب القهوة وجلبت معي إيلينا لربما تعجبه ويفكر بالارتباط بها. حاولت قدر الإمكان إخفاء حماستي من الفكرة ووافقت على عرضه بهدوء ولباقة:

" يسرني ذلك لربما أحضرت شقيقتي أيضاً".

ابتسم سعيداً وهز رأسه موافقاً، لوحته له مودعة ودخلت إلى المبنى أحيك في رأسي خطة لتزويج أختي الصغرى إيلينا.

من أسوأ الأفعال التي قد يقدم عليها شخص ما إطلاع الآخرين على مخططاته، وهذا ما حصل معي، فما إن أخبرت أُمِّي بنيتي في تزويج إيلينا حتى اشتعلت غضباً وبدأت بنهري وحاولت ردعي قائلة بلا انقطاع:

" ليان لا يجوز لك ذلك لا تتدخلي في حياة شقيقتك كفي عن لوم نفسك على قرارها، صدقيني الموضوع أبسط مما تظنين؛ إذا أنت وافقت على منح نفسك فرصة لتقبلي على الزواج فستلين أختك وتقبل على الموضوع أيضاً"

- " لا أُمِّي لا!".

قاطعتها بنبرة غاضبة محاولة قدر الإمكان ألا أرفع صوتي عليها وأضفت:

" لن أفكر في الزواج أبداً وهذا قراري النهائي ولا عدول عنه".

أمسكت بيدي وحاولت إقناعي ثانية:

" اسمعي حبيبتي جارتنا سلوى أرثني صورة لابن أخيها، وقالت أنه سيكون خياراً رائعاً لك".

أشحت بوجهي عنها وحررت يدي من يديها واستدرت متوجهة إلى غرفتي متدمرة:

" آه أُمِّي كفى!".

أغلقت الباب خلفي لكنني ما زلت أسمع صوتها وهي تحاول إقناعي وبدأت بوصف محاسنه و و و
و..... لكنني لم أكن أستمع إليها فهراء الزواج هذا آخر ما يمكن أن أفكر فيه حالياً.

إيلينا

استلمت ليان مرتبها اليوم وقمنا بتقسيمه لسد بعض من التزاماتنا وخصصنا المبلغ الأكثر لسد
جزء مما تراكم علينا من إيجار الشقة، ولم يكن ليحصل ذلك لولا اضطرارنا لدفع الكثير لفسخ
خطوبة ليان، فتراكمت علينا الديون.

ذهبت إلى بيت مالك العقار لأعطيه المبلغ الذي أحمله، طلبت مني أمي الذهاب عوضاً عن ليان،
لأنها تشاجرت معه الشهر الفائت وكدنا أن نطرد من الشقة لولا زوجته التي وقفت إلى جانبنا.
عندما وصلت قرعت الجرس عدة مرات لكن لم يجيني أحد، فهممت أن أغادر حتى أطل علي
أحد أبنائه من نافذة المنزل وسألني عما أريده، أو وضحت له أنني أحد المستأجرين وطلبت رؤية أحد
والديه فأخبرني أن أمه في السوق بينما أبوه جالس عند العم نضال في بقالته التي تقع في نهاية الشارع.
فتوجهت إلى البقالة وأنا أندب حظي، فقد كنت أتمنى أن أجد زوجته في المنزل وهكذا أوفر على
نفسي رؤيته والتعامل معه، نعم كان رجلاً فظاً لا يجيد التعامل مع النساء.

عندما وصلت وجدته يجلس على مقعد خشبي خارج البقالة وإلى جانبه يجلس العم نضال يجتسيان
القهوة معاً، أخذت نفساً عميقاً وتوجهت إليه ودعوت الله في سري ألا يثور غضباً من المبلغ الذي
أحمله. ألقيت التحية على الرجلين ومددت يدي بالظرف الذي يحتوي على المال وقلت:
"تفضل يا أبا زهير".

أخذ الظرف من يدي وفتحته ونظر في داخله وبدأ يعد المبلغ، ثم رفع حاجبيه مستنكراً، وخرجت
من فمه ضحكة تنم عن غضب ونظر إلى العم نضال ثم قال له:
" انظر لهذا، هنّ مديونات لي بأكثر من ذلك وتظن هذه البائسة أن مبلغاً كهذا يكفي لسد دينهن".
ثم رفع رأسه ينظر إلي وتابع بتعجرف:

" اسمعي وقولي لأملك هذا الكلام، أنا لم أجعل المبنى وقفاً ولا صدقة! أريد حقي كاملاً من الإيجار اليوم!"

أجبتة محاولة إخفاء خوفي منه:

" سنعطيك إياه في أقرب فرصة ستحصل على مالك كاملاً أعدك بذلك "

زفر بقوة غاضباً، ثم نهض عن الكرسي واقفاً وبدأ بالصراخ في وجهي أمام كل المارة:

- " اسمعي يا بنت! قلت لك أريد حقي كاملاً اليوم بلا أي نقصان فيما أن أحصل عليه أو تبتن في الشارع".

نهض العم نضال فوراً وأمسك بذراعه محاولاً تهدئته وقال:

" اهدأ يا أبا زهير الناس يحدقون!"

فصرخ قائلاً:

" دعهم يحدقون فليُعرفن على حقيقتهن شهادات يأكلن ويشربن ويبتن على حسابي "

اغرورقت عيناى بالدموع وشعرت بالاختناق والحزى وسمعت الهمسات من المارة. يا ليتني لم آت إلى هنا ليتني وجدت زوجته في البيت وسلمتها المال. همس له العم نضال قائلاً بكلام وصل إلى مسامعي:

" عيب يا أبا زهير! ما هذا الكلام؟ ألا يكفي هذه المسكينة أنها يتيمة أب؟ أرأف بحالهن يا رجل!"
لم يستمع له أبو زهير وأكمل وأبل صياحه في وجهي حتى بدأت أبكي، ثم سمعت صوتاً من خلفي يقول باستنكار:

" أهكذا تتعامل النساء؟! أين الرجولة والشهامة؟"

شعرت أن الصوت مألوف لي، فاستدرت إلى الخلف لأجد ذات الشاب الذي التقيت به ليعيد إلي مفتاحي صباح اليوم. كانت رؤيته صدمة بالنسبة لي فلم أتوقع رؤيته هنا. صاح به أبو زهير:

" ما شأنك أنت؟ لم لا تهتم بأمورك الخاصة يا هذا؟"

نظر الشاب إليه وحدّق به بحدة، ثم قال له:

" هل لي بكلمتين معك على انفراد؟ "

ولم ينتظر منه ردًا بل ساق نفسه داخل البقالة منتظرًا منه اللحاق به، ظهرت ملامح التعجب على وجه أبي زهير ولحق به إلى داخل البقالة بينما بقي العم نضال واقفا إلى جانبي في الخارج. لم تفارق عيناى منظرهما وهما يتحدثان حاولت معرفة عمّ يتكلمان به حتى شتتني العم نضال مستفسرًا:

" هل أنت بخير يا ابنتي؟ "

لم أجه بل أشحت ببصري نحو الأرض وأنا أشعر بالخزي مما حصل أمامه، فقال محاولًا التخفيف عني:

" لا عليك يا ابنتي هذا ليس ذنبك، أبو زهير رجل فظ مع جميع الناس. "

لم أعقب على قوله لكنني هززت رأسي كموافقة على كلامه في كون هذا الرجل فظًا.

خرج أبو زهير من البقالة إنسانا آخر، كأنه ولد من رحم جديد، وهو يتسم ابتسامة عريضة تنم

عن الرضا ونظر إلي وقال:

" لا أدري ما الحسنة التي قمت بعملها في حياتك حتى يُرسل إليك فارس على حصان أبيض. "

لم أفهم بمَ يهذي هذا الرجل حتى خرج الشاب من خلفه وقال موجهاً كلامه لي:

" هل أستطيع السير معك لأوصلك إلى بيتك؟ "

ترددت ولم أجه، مشى من أمامي ثم استدار نحوي وقال:

" هيا "

قررت أنه لا بد من السير معه حتى أفهم منه ما فعله في داخل البقالة، لحقته من خلفه حتى وصلت

إلى محاذاته، لكنني راعيت إبقاء مسافة بيني وبينه. ظننت أنه سيتكلم في أي لحظة لكنه في طريقنا لم

يتحدث مطلقا، فقررت كسر الصمت وبادرت بالسؤال:

" ماذا حصل بينك وبين صاحب البيت في داخل البقالة؟ "

نظر إلي لبرهة ثم نظر أمامه وقال:

" ليس بالأمر المهم لكن لنقل أنك لست بحاجة لدفع الإيجار لذلك الرجل حتى ثلاثة أشهر. "

ما إن استوعبت جملته حتى توقفت عن السير، لاحظ الشاب اختفائي من جانبه فتوقف ونظر إلى الخلف نحوي ثم سألني:

" هل أنت بخير؟ "

بخير؟! أين الخير في ما قال؟ كيف يسألني هذا السؤال؟ آه ستقتلني أختي إن علمت أن شابًا لا نعرفه دفع عنا ديون الإيجار فضلًا عن تكفله بدفع ثلاثة أشهر مقدمًا. حاولت التنفس بعمق لأخفف من توتر تلك اللحظة ولأستجمع أفكارني، ثم قلت:

" تصرفك ينم عن نبل وكرم شديدين من قبلك يا سيدي، لكن اعدرنى علي أن أرفض إحسانك. "

لم يحرك الشاب ساكنًا وبقي صامتًا لبرهة كأنه يحاول انتقاء كلماته، ثم قال أخيرًا:

" أنا آسف لم أשא أن أتسبب لك بأي إحراج كنت أريد تقديم المساعدة فقط. "

هززت رأسي بعناد وقلت:

" رجاء دعنا نعود لاسترداد مالك منه. "

رفع الشاب حاجبيه مستنكرًا ثم قال:

" عفوا؟! "

ثم تقدم نحوي حتى صار أمامي وقال:

" هل تتكلمين بجدية؟! أنت تعلمين في قرارة نفسك أنني لن أستمع إليك. "

أشحت بوجهي عنه وقلت:

" أنا آسفة لم أقصد أن أجدد كرمك لكنني لم أطلب منك المساعدة أنا أنا لا أعرف "

كيف أتصرف الآن. "

ثم بدأت في البكاء، لا أدري لما بكيت بالضبط، ربما لأنني شعرت بالضعف وقلة الحيلة، أو بسبب كبريائي الذي جرح من المال الذي دفعه، أو بسبب إهانات أبي زهير.. أو جاءت كلها مجتمعة معًا.

بقي الشاب واقفا دون كلام، ثم دسّ يده في جيب سترة بزته وأخرج منها بطاقة مدّها أمامي، نظرت إلى البطاقة ثم نظرت إليه، فقال:

"اعتبري ما قمت بدفعه عنك ديناً ومتى ما أصبح في مقدورك سداده اتصلي بي على هذا الرقم هنا." أخذت البطاقة من يده ونظرت إليها، تهت فيما علي قوله لكن عيناى كانتا تحمّلان الكثير من الكلام، وبدأ أنه يقرأ لغة العيون إذ ابتسم لي ابتسامة دافئة ساحرة ثم قال متسائلاً:

"إذن أئن تقولي لي اسمك؟"

ثم أضاف ليزيل نظرة الارتياب التي علت وجهي:

"أليس من حق المدين أن يعلم اسم الدائن؟ حتى نستطيع إكمال إجراءات السداد؟"

أعدت النظر إلى البطاقة فوجدت اسمه بالإضافة إلى رقم هاتفه مدونان عليها "المحامي أمجد صبحي كامل" لمعت كلمة المحامي في عيني، الآن عرفت لم هو ثري مما أثار في نفسي خوفاً أكبر من التعامل معه. حاولت زرع ابتسامة على وجهي ثم قلت بأدب:

"إيلينا سامح"

ابتسم بدفء فتوهجت وجنتاي ثم قال:

"اسم جميل لفتاة جميلة".

هل حقا تغزل بي؟ أو فقط يجاملني؟ أم أنه يحاول مساعدتي لغرض خبيث في نفسه؟ هنا اختفت ابتسامتي فقال مستدركا:

"أنا آسف لم يكن ذلك لائقاً"

نظرت إليه فإذا به يحمر خجلاً. ابتسمت وقلت لأزيل التوتر:

"لا عليك"

ثم أخذت نفساً وأضفت:

"شكراً لك على مساعدتك وأعدك أنني سأعيد إليك مالك في أقرب فرصة ممكنة."

أوماً برأسه بصمت، ثم سار أمامي ولوّح يده لي مودّعاً وقال:

" نلتقي على خير "

ومضى .

استطاعت ابتسامة شق طريقها إلى فمي إثر مغادرته، إنه حقاً شابٌ نبيل فقد أنقذني من الإهانة وربّما أيضاً من المبيت في الشارع، لكن سرعان ما اختفت هذه الابتسامة ليحل مكانها الرعب الذي دبّ في قلبي وأنا أتخيل ردّة فعل ليان مما حصل، انا أعرفها جيّداً لن تتقبّل الأمر، ستغضب وستصفني بالبلاهة والسذاجة وأستطيع تخيل ما قد تقدم على فعله، ماذا عليّ أن أفعل؟ كيف سأشرح لها الموضوع؟ حتّى أمي ستغضب مني .

نظرت إلى البطاقة مجدّداً أتأمّل اسمه لتعود الابتسامة لتسيطر على ثغري مجدّداً، وشعرت بوجتتي تتورّدان وأنا أفكر في نبل وكرم هذا الشاب، ثمّ أظلمت عيناى بفكرة جهنميّة، خبّأت البطاقة في جيب حقيبتي الخلفي وأنا أنسج في مخيلتي مخطّطاً لتنفيذ فكرتي، لن أخبر أمي وليان بما حدث سيكون ذلك سرّي الصّغير، وعندما تستعد ليان لدفع جزء من الإيجار سأتظاهر أنا بالتكفّل في دفعه مبرّرة بأن أبا زهير يريد ذلك لأن التعامل معي أسهل من التّعامل مع ليان، ثمّ أدفع هذا المال للسّيّد أجد دون علم أحد .

طوال طريق عودتي إلى البيت كنت أحيك السيناريو الذي سأنقله إلى أمي وليان حتى أستطيع سرده دون تلعثم فلا تكتشفا أنني أكذب عليهما .

لم أستطع إخراج صورته وصوته من مخيلتي، كنت شاردة معظم الوقت وأنا أتذكر كل حركة وكلمة وابتسامة بادرني بها، فترتسم على شفّتي تلك الابتسامة البلهاء، لم ألاحظ ليان وهي تنظر لي بريية لتقاطع شرودي فجأة بسؤالها الماكر:

" ما سرّ هذه الابتسامة الغبية؟ لا تسرح الفتيات عادة هكذا دون سبب "

أجفّلت من تعليقها السّاخر، نظرت نحوها حيث كانت جالسة في مكانها المعهود على الأريكة بجانب والدتي وفي يدها كوب ساخن من الشاي، أمّا أمي فكانت في عالمها الخاص وهي مشدودة بأحداث ذلك المسلسل، حاولت اختلاق عذر بهدوء حتى لا تشك بشيء فقلت بصوت متقطع:

" لا ... شيء فقط أنا سعيدة لرؤية سارة اليوم ومساعدتها لي ... أخيرا التّم شملنا. "

رفعت ليان حاجبيها ثم ارتشفت قليلاً من الشاي، لكنها لم تعقب على ما قلته حاولت التملص منها وتظاهرت بمتابعة المسلسل حتى أشاحت بوجهها عني لأعود لبستان خيالي حيث بقيت أتذكر لحظة التقائي بالسيد أجد حين توديعه لي اليوم.

ليان

خطوت نحو مبنى المدرسة بثاقل من النعاس الذي أصبح رفيقا دائما لي بسبب الأرق الذي أعانيه ليلا، حاولت جاهدة بكل الوسائل علاجه لكنني لم أستطع والخيار الوحيد المتبقي لدي هو الحصول على دواء مضاد للأرق الذي لا يتم صرفه دون وصفة طبية.... وأنّي لي بالمال الكافي لمراجعة طبيب نفسي! وغير ذلك لا أستطيع أن أبوح بالضيق الذي يعتري صدري لأي أحد كان.

حاولت طرد شبح الذكريات عندما بدأت بتسللها من جديد إلى مخيلتي، فقدت قدمي نحو مطبخ المدرسة لأعد لنفسي كوبا من القهوة لربما أعاد إلي جزء من نشاطي وتمكنت من توجيه تركيزي نحو شيء آخر... وهنا سمعت صوت مساعدة المدير تناديني، التفت ورائي وقلت لها بنبرة هجومية قبل أن تثور علي بسبب تأخري:

" لم يُقرع الجرس بعد لذا لا أعد نفسي متأخرة "

توقفت عن السير وعقدت ذراعيها أمام صدرها ونظرت إلي باستنكار قبل أن تجيبني:

" صباح الخير يا ليان، ليس كلّ من استوقفك أراد بك سوءا "

شعرت بالحجل من نفسي بسبب اندفاعي الهمجي هذا قبل أن أفهم منها ما تريده، لكنني لم أشأ أن أظهر لها ذلك لذا رفعت رأسي بكبرياء وقلت متسائلة:

- " إذن ما الأمر؟ "

اقتربت صوبي ومدّت إلي يدها بمفتاح وقالت وهي تنظر مباشرة في عيني:

"أريد منك أن تسلمي مفتاح مختبر الحاسوب هذا إلى معلم الحاسوب، هل يمكنني الاعتماد عليك؟
كنت سأعطيه المفتاح بنفسني لكن لدي الكثير من الأعمال الكتابية على مكنتي"

ثم ابتسمت لي ابتسامة مزيفة تظهر فيها بياض أسنانها معقبة: "رجاءاً!"

تناولت المفتاح منها ورددت لها الابتسامة ببرود وبدأت بإكمال سيرتي حتى توقفت في منتصف
طريقي وقد خطر في بالي هذا السؤال، التفت ناحية المساعدة فوجدتها ما زالت واقفة في مكانها وفي
عينها نظرة ساخرة، فتحت فمي لأسألها لكنها قاطعتني بإجابتها على سؤالتي الذي كانت على علم
بأنني سأطرحه:

"نعم المدير وظف أستاذ حاسوب جديد يدعى الأستاذ يزن شاهر ستجدينه في غرفة المعلمين"
قالت قولتها ثم استدارت نحو مكنتها دون أن تنتظر مني ردّاً .

وضعت كوب القهوة على الطاولة وقمت بتجهيز كتبي وأوراقتي لأراجع دروسي بعد أن أنهيت المهمة
التي كُلفت بها، فتوجهت نحو غرفة المعلمين. عندما وصلت قمت بطرق الباب الذي كان مفتوحاً؛
لألفت انتباه أي أحد إلي، حيّاني أستاذ علوم الأرض الأستاذ راغب بابتسامة مستفسرة، فأبلغته
بمهمتي بتسليم المفتاح للأستاذ الجديد، فأشار بإصبعه نحو زاوية الغرفة حيث يجلس ذلك الشاب
الذي بدا من هيئته أنه في مقتبل العمر، ربما في منتصف العشرينيات أو أكبر بقليل، أقبلت نحوه
فوجدته يضع سماعات في أذنيه ويقلب بشاشة هاتفه المحمول. تنحنحت بصوت مرتفع لكنه لم يجب
نظرت باتجاه الأستاذ راغب لربما ساعدني فلم أجده، زفرت بعمق واقتربت أكثر وما إن شعر بوقوفي
أمامه حتى نزع السماعات من أذنيه ورفع بصره لتلتقي عيناه الزرقاوان بعيني، ارتبكت للحظة
وكدت أفقد تركيزي وأنا أنظر في عينيه؛ ذلك لأنني أعشق العيون الزرقاء. حاولت رسم ابتسامة
ودّية ومددت له بيدي لأسلمه المفتاح وقلت له:

"عفوًا منك لكن طلبت مني المساعدة تسليمك مفتاح مختبر الحاسوب، تفضل.."

لم يقل شيئاً ولم يبعد عينيه عن عيني مما بدأ يثير في نفسي الريبة من نظراته، وقبل أن أستطيع قول شيء
مد يده ممسكاً بيدي بقوة، تفاجأت من تصرفه وشهقت بصوت مرتفع، حاولت تحرير يدي من

قبضته لكنني لم أفلح، فنظرت نحوه وقد تبدلت نظراتي إلى غضب وسخط وقلت في محاولة للتحكم في انفعالي:

" عفواً.... لو سمحت.... "

لكنه لم يجرّك ساكناً وبقيت عيناه مثبتتان علي، ثم ابتسم بمكر قائلاً:

" أهلاً بك يا آنسة ليان تشرفت بمعرفتك "

اتسعت حدقتا عيني بريبة وبدا الارتباك واضحاً في سؤالي:

" من أين... عرفت.... اسمي؟ "

ازدادت ابتسامته الماكرة اتساعاً ثم نهض واقفاً وهو ما يزال ضاغطاً على يدي بقبضته وأردف قائلاً:

" طيلة الأمس لم أستطع إخراج صورتك من رأسي حين رأيتك تهاجمين المدير بقوة "

استغرق مني الأمر ثوان لأستطيع استيعاب ما يعنيه، وتذكرت استدعاء المدير لي البارحة ووجود

ثلاثة أشخاص في مكتبه وهنا بدأت الصورة تتضح في ذهني لا بدّ أنه كان أحد الثلاثة الجالسين

وشهد على ما حصل.

قرب رأسه ناحيتي ليقطع علي لحظة شرودي حتى أصبحت شفتاه بمحاذاة أذني وتمكنت من

الإحساس بلهيب أنفاسه الحارة تحرق رقبتني مما ولّد شعوراً بالقشعريرة لتسري في أنحاء جسدي، لم

يقترّب مني شاب بهذا الشكل عدا بهاء، ثم همس في أذني قائلاً:

" أتعرفين أمراً! تعجبني الفتاة القوية التي تصنع الصّلابة "

أثارت كلماته الوقحة حفيظتي فشدّدت بيدي أكثر في غيظ حتى استطعت تحريرها، أو أنه سمح لي

بذلك لم أستطع الحكم وقتها. نظرت في عينيه بغضب وقد توردت خدودي بحمرة أعتقد بأنه

لاحظها، لأن ابتسامته ازدادت وتغيرت ملامحه إلى نظرات وقحة، فقلت له بصوت أشبه بالهمس: "

وقح!!!"

واستدرت مسرعة خارج الغرفة وأنا أشعر بعينيّه تخرقان فروة رأسي.

مشيت مهرولة في الممر الذي يفصل بين غرفة المعلمين وغرفة المعلمات التي تتواجد في آخر الممر، ونبضات قلبي لم تهدأ بعد وأنفاسي تزداد تلهثاً. حتى وصلت إلى المكتب الذي جهزت عليه أعمالي، قبضت على كوب القهوة بقوة لأرتشف منه لربما هدأ من روعي، وضعت الكوب جانباً وانحنيت على الطاولة بمرفقيّ يديّ لأغطيّ وجي بكفيّ، وحاولت أخذ نفس عميق لأخرج صورة ذلك الوقح من مخيلتي بعينيهِ الزرقاوين اللامعتين.

في هذه اللحظة دخلت إحدى صديقاتي الغرفة وهي تبسم بسخافة ومرح وقالت بكل انفعال: " آآآآآه ليااان! أنت هنا؟ كنت أبحث عنك... هل سمعت آخر الأخبار؟! المدير وظف معلماً جديداً لمادة الحاسوب.... وآآه كم هو فاتن وجذاب! لو أنك رأيتَه لذبت في بحر عينيه الزرقاوين.... تخيلي أن كل من رأته تاهت في سحره، حتى المساعدة لم تستطع التوقف عن ذكر محاسنه..."

عندما انتهت من كلامها أخيراً نظرت في وجهي واستطاعت رؤية تعابير الاشمئزاز التي علت محياي. فقالت بان دفاع قبل أن تعطيني فرصة لأقول شيئاً: " أعرف أنك لست مهتمّة بأمره وأن كل الشبان مقرفون في نظرك لكن هذا الشاب مختلف هذه المرّة صدّقيني!"

ابتعدت عنها متجهة نحو الكرسي لأجلس قائلة:
" طبعاً مختلف فهو أشد الأشخاص الذين قابلتهم وقاحة."
نظرت إلي هناء بقلق واقتربت مني ووضعت كف يدها على كتفي وسألت بريية:
" هل أنت بخير؟ ماذا تعنين؟ هل التقيت به؟ ماذا حصل؟"
بدأت بفرك صدغي رأسي بأطراف أصابعي وأخذت أنفاسي تهدأ شيئاً فشيئاً. جلست هناء على الكرسي المجاور لي وما زالت نظرات القلق بادية في عينيها ثم قالت:
" ماذا حصل معك؟ ما الأمر؟ لست على طبيعتك"
ابتسمت بارتباك لأزيل مخاوفها وقلت:

" لا شي.... فقط طلبت مني المساعدة تسليمه مفتاح المختبر وتصرف معي بوقاحة.. "

أمسكت بقلمى وبدأت بتصحيح الدفاتر التي أمامي. بينما هناك تنظر نحوي منتظرة مني أن أكمل كلامي، هزت رأسها وقالت متسائلة:

" كيف تصرف معك بوقاحة؟ "

أغلقت الدفتر الذي كنت أتابعه ونظرت في الفراغ أمامي، أخذت نفساً عميقاً وقلت لها حتى أوقف أسئلتها لأنني أعلم أنها لن تتركني بحالي:

" أمسك بيدي عندما مددت له المفتاح وهمس في أذني كلاماً وقحاً. "

لطمت صدرها في صدمة وتابعت وابل أسئلتها:

" ماذا؟ ماذا قال؟ كيف همس في أذنك؟ هل تحرّش بك؟ هل أبلغت المدير عنه؟ "

نظرت نحوها بتهديد وقلت مقاطعة لها:

" إياك أن تقولي لأحد شيئاً... وخصوصاً المدير "

- " لكن ليان! لقد تحرّش بك! و... "

- " أوقفته عند حدّه لا تقلقي... فقط عديني بأن يبقى الأمر سرّاً لا تجعليني أندم أنني أخبرتك "

- " حسناً... حسناً.. لكن قولي لي على الأقل ماذا قال لك؟ "

احمرّت وجنتاي عندما تذكرت لفيح أنفاسه على رقبتى وهمساته التي دغدغت أذني، لاحظت هناك شرودي وتغير ملامحي فابتسمت بخبث وقالت:

" يبدو أنه أثر فيك "

نظرت نحوها بغضب زائف ونهضت عن الكرسي بانفعال وقلت وأنا أهمّ بالخروج من الغرفة:

" سأنزل إلى الساحة لأن الجرس سيقرع بعد لحظات إذا شئت فالحقي بي.. "

أثناء تجوالي بين طلبتي وتعديل هندام أحدهم إذ بهنأ تظهر فجأة بجانبى متظاهرة التجوال بين الطلبة لتهمس لي بصوت خافت: " أستاذ الحاسوب في زاوية الساحة يتفحصك. "

نظرت صوبها بتهديد فرفعت يديها أمام صدرها باستسلام وأكملت سيرها. كنت على علم بمراقبته لي فقد لمحته منذ فترة يحدق بي وتلك الابتسامة الوقحة لا تفارق شفتيه، لكنني قابلت ابتسامته بتجهم وعبوس وقررت تجاهله، لكن مراقبته غير المريحة تلك لا تجعلني أتصرف على طبيعتي، فرجوت الله في سرّي أن تنتهي فقرات الإذاعة بسرعة حتى أختفي من أمام ناظريه.

الفصل الثاني

إيلينا

ركضت مسرعة نحو المطبخ الصّغير المتواجد في نهاية الرّواق وأنا أحاول السيطرة على الفزع الذي دبّ في قلبي، فقد أبلغتني شهد بأن المدير العام كلفني بإعداد القهوة له، مع أنني استهجنّت الأمر؛ فلماذا يطلب مني ذلك مع العلم بوجود موظفين مختصين بهذا العمل؟ ألا أني جديدة ويريد اختباري؟ لا أعلم، لكن المصيبة ليست هنا فقد نسيت شهد إخباري بهذا ومضى على طلبه للقهوة قرابة النصف ساعة، هل حقاً نسيت؟ أم تظاهرت بالنسيان؟! لا أستطيع اتهامها دون بيّنة. وها أنا الآن أنخبط عند الموقد، أبحث في الخزائن العلوية عن مكان حفظ القهوة، وفجأة طرأ في بالي تساؤل آخر هل يشربها مع السّكر أم دونه؟ لم أعرف كيف أتصرف لذا قررت إعدادها دون سكر ووضعت السكر في فنجان صغير وأسرعت الخطى نحو المكتب؛ لأسأل أيّ أحد كيف يجب المدير قهوته، فوقعت عيناى على سارة جالسة خلف مكتبها فانشرح صدري أخيراً.

كانت سارة خارجة منذ الصّباح مع منسق النسيج لتسجل له فاتورة بأنواع النسيج التي يريدّها. هرولت بحذر نحوها وحمدت الله على سلامتها على مضض وسألتها:

" ساعديني سارة، فأنا لا أعرف كيف يجب المدير قهوته هل يجبها حلوة أم مرّة؟"

عقدت ما بين حاجبيها وفغرت فمها في اندهاش، وأجابتنى بسؤالها:

" ما أدراى يا إيلينا! لماذا تسأليني هذا السؤال؟"

فأخبرتها بسرعة عن طلب المدير للقهوة مني كما قالت لي شهد، لكن سارة قاطعتني؛ مدت إصبعها السّبابة أمام فمي لتسكتني ثمّ أضافت:

" إيلينا حبيبتى المدير لا يطلب منا هكذا طلبات نحن بالكاد نراه."

وقفت كالبلهاء أحاول معالجة ما قالت حتى سمعت همهمات وضحكات من خلفي، استدرت نحو مصدر الأصوات فرأيت ذلك المنظر الذي لن أستطيع إزالته من مخيلتي مهما طالت السنين؛ كان كل

من يعمل في هذا الطابق من ذكور وإناث مجتمعين في مكتب واحد، وفي منتصف هذا المكتب كانت تجلس شهد وهي تضع رجلا فوق الأخرى، لتباهى بجمال ساقها ورشاقتها، ثم قالت وسط الضحكات باستهزاء:

" آه يا إيلينا ذهبت حقاً لإعداد القهوة! يا لك من موظفة مطيعة."

ما إن انتهت من قول عبارتها حتى ضجّ المكتب كله بصوت الضحكات والقهقهات، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أخرجت دانا من محفظتها مبلغاً من المال لتدفعه كسداد لرهان كنت أنا ضحيته، وزادت من قهري بكلامها:

" تفضلي يا شهد كنت محقة لم أعرف أنها ساذجة إلى هذا الحد!"

لم أتخيل يوماً أن يتم وضعي في موقف محرج كهذا أو أصبح أضحوكة أمام أحد.. هل حقاً يوجد أشخاص في مثل دناءة شهد! كنت أظن أن سارة تبالغ في وصفها بأنها كتلة من الشر... لقد جرحت كبريائي كثيراً.

جلست في مقعدي مولية جميع من في المكتب ظهري. أحسست بأصابع سارة تمتد لتلمس كتفي وسمعت صوتها تهمس لي:

" هذه المتعالية مريضة نفسياً، هي فعلت ذلك من غيرتها منك، تخاف أن تسرق منها أضواءها... إيلينا هل تسمحين لي أن أتدخل؟"

هزرت رأسي بالنفي يكفيني ما فعلته شهد بي، وإذا سمحت لسارة بالتدخل فستزيد الوضع سوءاً ويتهمني الجميع بالضعف لذا آثرت الاختصار. وقررت عدم التحدث مع أي أحد وبقيت جالسة أنتظر من هذا اليوم أن ينتهي بفارغ الصبر.

جلست على أرجوحة في المنتزه القريب من حيننا، فأنا لم أشأ أن أعود إلى المنزل وأنا أحمل في قلبي هذا الضيق لئلا تشعر أُمِّي وليان بالانزعاج والحزن، لذا قررت تصفية ذهني وتحسين مزاجي... وفجأة شعرت بخطوات شخص خلفي، بقي صوت وقع الأقدام يقترب أكثر فأكثر حتى ظللني خيال

أحدهم، ثم لمحت يداً تمتدّ لتمسك سلسلة الأرجوحة الفارغة إلى جانبي، وبشكل تلقائي دون تفكير أدت رأسي لأرى هوية هذا الشخص، فوجدته السيد أجد.

خفق قلبي بقوة حين التقت أعيننا وارتسمت على خدي حمرة خفيفة عندما رأيتني يتسم لي، ثم دار حول الأرجوحة وسألني وهو مشير إليها:

" هل تسمحين لي؟ "

ففهمت أنه يستأذن مني للجلوس بجانبني. لم أقو على الرفض بسبب إحسانه لي، فأومأت له برأسي بخفة تدل على موافقتي رافقتها تلك الابتسامة الصغيرة التي استطاعت شق طريقها لتحل على شفتي.

جلس على الأرجوحة وبقي صامتاً لبرهة، ولم أجرؤ على النبس بينت شفة، كنت أشعر بالتوتر الشديد، ولم أعرف هل يجدر بي التحدث أم البقاء صامتة. ثم رفع رأسه إلى السماء ينظر نحو بعض الغيوم المتفرقة، ابتسم بخفة ثم قال:

" أحب هذا الوقت من النهار حيث يشارف على الانتهاء ويقترّب الغروب "

ثم أخفض رأسه ونظر نحوي مبتسماً. أشحت وجهي بسرعة عنه وقد شعرت أن خدائي تنوهجان بحمرة شديدة، ثم سمعت صوته يسألني:

" هل أنت بخير؟ أشعر بشيء ما يضايقك "

لم أستطع إخفاء ابتسامتي، لقد استطاع أن يشعر بضيقتي، ربما لأنه يتمتع بحس مرهف أو أنه مهتم بأمري... أو أن الضيق الذي أشعر به بائن على وجهي بشكل ملاحظ، عند هذه الفكرة اختفت ابتسامتي، أخفضت بصري نحو الرمل الناعم على الأرض، ذلك الذي يمنحك شعوراً بالسلام عندما تمرغ قدميك العاريتين بين ذراته، وقلت بصوت خافت:

" لا شيء، أحاول فقط التكيف مع عملي الجديد... "

تجنبت ذكر موقف شهد لي يكفيني أنني أصبحت أضحوكة لزملائي في الطابق، ولم أشأ أن ينظر لي بنفس الطريقة.

بقي السيد أجد صامتاً ونظر إلى الفراغ أمامه كأنه لم يشأ أن يجر جنبي بمعرفة تفاصيل الضيق الذي يعتريني، لكنه قال موجهاً كلامه إليّ وهو ما يزال ينظر نحو الفراغ :

" كل البدايات تكون صعبة وخصوصاً في ما يخص العمل فهل تريدان نصيحتي؟"

ثم أكمل دون أن ينتظر إجابتي :

" عاملي الآخرين باحترام وود لكن لا تبالغ، ولا تكشف أسرارك، كوني مستمعة أكثر من كونك

متحدثة، وتحديث عند الضرورة بشكل عام ولا تخوضي في تفاصيلك الشخصية، لا تكسري دائرة

الثقة الخاصة بك، والنقطة الأهم لا تظهرى ضعفك أمام أحد..."

ثم نظر نحوي مبتسماً، وأضاف :

" كوني حذرة دائماً، فجمالك قد يجعلك إما فريسة للرجال أو ضحية للنساء"

هل فعلاً قال أنني جميلة؟! يا إلهي هل السيد أجد هذا الشاب الثري الوسيم الذي لا ينقصه شيء

يرى أنني "أنا" إيلينا البسيطة جميلة؟!

حلّ الخجل على قسمات وجهي بسرعة وأحسست بخدّي هذه المرّة يشتعلان وكأنّهما سينفجران،

عقدت أصابع يدي من شدة الارتباك وهي عادة سيئة أفعلها بشكل تلقائي عندما أشعر بالخرج أو

الانزعاج، وتجنبت النظر في عينيه. فجأة أحسست بيده تلامس يديّ فخفق قلبي بشدة حتى خشيت

أن يمزق صدري قافراً خارجه. نظرت نحوه متفاجئة، فقال وهو يفك أصابعي المعقودة عن

بعضها:

" هذا ما أقصده بكلامي، لا تكوني فريسة سهلة للرجال، إذا مدح شخص ما بصفة جمالية لديك

فأظهري الصلابة ولا تبدي لأي كان أنّ كلامه أثر فيك."

ثم ضغط على أصابعي بشدة وقال:

" كوني حازمة ولبقة"

ثم أفلت يديّ وسرعان ما أحسست بالبرودة تجتاحها وكأنها متعطّشان للمسته من جديد، لكنني

حاولت جاهدة السيطرة على انفعالاتي المختلطة.

ثم هبّ واقفاً ووضع يديه في جيب بنطاله القماشي وخطى خطوتين نحو الأمام، التفت برأسه نحوي وقال ملوِّحاً لي بالرحيل:

"إذا احتجت لأي نصائح أخرى فأنا هنا، آتي كل يوم لأوصل صديقي إلى ومن العمل... أو بإمكانك التّواصل معي على رقمي الذي أعطيتك إياه سابقاً"

لم أجبه بشي فقط بادلته بابتسامة محرّجة، ثم بدأ بالسير خارجاً من الحديقة لأبقى وحدي أخيراً. نظرت نحو أصابعي التي ما زلت أشعر بدفء لمسته عليها، ولم أستطع مقاومة تلك البسمة البلهاء التي ارتسمت على شفّتي. يا له من شاب! ويا لقوّة تأثيره عليّ! كم أحسد تلك الفتاة التي سينتهي بها المطاف كزوجة له. أخذت نفساً عميقاً وقررت العودة إلى البيت لثلاً تقلق عليّ أمي وليان فأنا لا أحمل هاتفاً لأطمئنهما عليّ.

ما إن فتحت باب الشّقة حتى هاجمني صوت ليان مؤنّباً لي:

"لماذا تأخرت؟ أين كنت كلّ هذا الوقت؟"

أجفّلت من صراخها عليّ، استدردت لأغلق الباب من خلفي وطأطأت رأسي نحو الأسفل وقلت بصوت متحشرج:

"أزمة مواصلات... آسفة"

ولم أزد في كلامي، نظرت إليها بطرف عيني فوجدتها عاقدة يديها أمام صدرها، ونظرات الريبة تعلقن محيّاها، فبادرت بسؤالها عن طعام العشاء لتشتيتها وتغيير الموضوع لكنها قاطعتني قبل أن أبدأ بقولها:

"كعقاب لك على تأخرك ستأخذين صحن الكعك ذاك الذي على الطاولة.."

وأشارت بعينيها نحوه على الطاولة في غرفة الجلوس وأكملت قائلة:

"إلى بيت جيراننا الجدد في الطابق السفليّ كترحيب منا بهم."

سقط فكي مفتوحاً وسط ذهوليّ؛ منذ متى وليان مهتمة بالترحيب بأي جيران جدد! نظرت إليها بانزعاج فقالت دون أن تعطيني فرصة للحديث:

" أنا أساعد أُمِّي في التجهيز للعشاء، كما أنها فكرتها للترحيب بالآخرين، تعرفين أُمِّي تحب الخير كثيراً وتحب الناس".

أعرف تماماً أن ليان تكذب وأن هذه فكرتها وفهمت إلى ما ترمي إليه فهي تظن أن الجيران إذا رأوني سيرغبون في تزويجي لابنهم.... لا أعرف كيف تفكر ليان، أشعر أحياناً أنها سخيضة. لماذا لا تكفّ عن التفكير بمستقبلي وزواجي وتنشغل بإخراج نفسها من كهف حسرتها؟... لم أستطع طبعاً البوح بما يعترية صدري لها وشعرت أنه لا مجال لمجادلتها، فليان هي ليان إذا أمرت فعلى الطرف المقابل التنفيذ دون اعتراض أو كلام، ثم أنني كنت في موقف ضعيف بسبب تأخري فإذا سمعت كلامها ربما تنشغل عني. أخذت الصحن ورميت حقيبتني على الأريكة لأعطيها شعوراً بانزعاجي منها، ونزلت نحو الطابق السفلي حتى وصلت إلى باب شقة جيراننا، وما إن هممت بقرع جرس الباب حتى فُتِحَ فجأة، فأجفلت ورجعت للخلف خطوة، وأجفل الشاب الذي فتح الباب، ثم استدرك نفسه ونظر إليّ وابتسم بإحراج وقال:

" أنا آسف يبدو أنني أجفلتك. لم أعلم أنّ ثمة أحدا يقف خلف الباب..."

قاطعته بابتسامة محرّجة:

" لا عليك "

ومددت بيدي طبق الكعك وتابعت:

" هذا الكعك من أُمِّي لكم كترحيب منها وتتمنى لو تتفضل أمك بشرب الشاي معها يوماً. "

ابتسم الشاب بدفء حتى برزت أسنانه البيضاء، لم أكن منتبهة جيّداً إلى ملامحه في البداية، لكن ما إن ابتسم حتى أشرق وجهه، كان وسيماً ويتمتع بإطلالة مريحة. مدّ يده والتقط الصحن من يدي وغمرني بعبارات الشكر، عندئذ سمعت صوتاً مألوفاً رهفت له أذني وخفق له قلبي:

" آنسة إيلينا؟ "

نظرت نحو مصدر الصوت فإذا به السيّد أجد يخرج من عتبة الباب من خلف الشاب كأنه يهيم بالمغادرة. نظر نحوه جارنا وقال متسائلاً:

" هل تعرفان بعضكما؟ "

فأجابه وهو ينظر إليّ:

" تقابلنا سابقاً. "

ثمّ ابتسم لي فاحمرّ وجهي وبدأ العرق يتصبب من كف يدي، وأحسست بقلبي يخفق بصوت مرتفع حتى خُيّل إليّ أنّهما يسمعانه. تصنعت ابتساماً لأزيل إحراجي واستأذنت بنية بالمغادرة. ودّعتهما على مضض وانطلقت على السلام بخطى سريعة دون أن ألتفت خلفي حتى وصلت باب شقتنا. وقفت مكاني أغمض عينيّ وأنا أتذكر نظراته نحوي وابتسامته السّاحرة وصوته الدافئ.

الفصل الثالث

جلسنا إلى مائدة الطعام لنأكل عشاءنا البسيط بينما كنت شاردة في عالم جديد لم ألفه من قبل، أفكر فيه بالسيّد أجد، ولم أسمع صوت ليان تناديني حتى ضربت الطاولة بكف يدها بقوة فأجفلت وسكبت بعضًا من كوب الشاي الذي كنت أرتشف منه بلا وعي مني على ملابسي فشعرت بحرارته تحرقني.

نظرت أمي نحو ليان مؤنبة لكنها لم تعباً بذلك ونهرتني بكلامها:

" ما بك؟! هذه خامس مرة أناذي باسمك ولا تسمعين! أعطيني رغيفًا من الخبز!"

لم أكن بعد قد أفقت من عالم أحلامي ولم أستطع استيعاب كلامها في البداية، فأخذت أنظر من حولي أبحث عن شيء يشبه الخبز بينما كنت أحاول تذكر شكله، ويبدو أن بطاء استيعابي هذا أثار سخط ليان أكثر فضربت بكفها على جبينها ومسحت به على وجهها لتكظم غيظها ثم أشارت بعينها نحو الصحن الذي بجانبني وهي تضع كف يدها على فمها كمن يقيد نمرًا هائجًا وزجرت بصوت خافت:

" ها هو الصحن إلى يمينك!"

ناولتها رغيفًا وتحاشيت النظر في عينيها، سحبت الرغيف مني بقوة واستطعت أن أشعر بنظراتها الحادة تثقب رأسي، ثم سألتني بنبرة ملؤها الشك:

" ما الذي يشغل تفكيرك في هذه الآونة الأخيرة؟ لاحظت تغيرًا فيك قبل فترة، واليوم بالذات زاد شروذك بعد عودتك من بيت جيراننا"

استشعرت في نبرتها شيئًا من المكر، ولم أرتح لكلامها، لكنّ أمي شزرتها بنظراتها وقالت:

" ليان! اتركي أختك بحالها"

لم تعقب ليان على كلام أمي واكتفت بقضم جزء من رغيف الخبز الذي ناولتها إياه وأشاحت بوجهها بعيداً عني. فاغتنمت الفرصة لأسألها عن يومها لربما أبعثت تفكيرها عني:

" ماذا حصل معك من أحداث اليوم في المدرسة؟ هل ما زال ذاك الطالب عادل على حاله أم تحسن؟

فأنت تبدين مستاءة"

تنهدت بعمق وقالت:

" حمدًا لله بدأت ألمس شيئاً من التغير نحو الأحسن لكنه ما زال بحاجة إلى الكثير من المتابعة، لكن ليس هو ما أثار استيائي اليوم"

نظرت أمي نحوها وسألته بقلق:

" هل المدير...."

ولم تتم سؤالها فقد قاطعتها ليان قائلة وهي ملوحة بيدها في الهواء:

" لا لا ليس ذاك الأخرق... إنه... ثمّة... وظفوا أستاذًا جديدًا للحاسوب.. وهو شخص سيء الأخلاق"

أصابني الفضول لأعرف أكثر فضغطت عليها بسؤال:

" ماذا تعنين بذلك؟ هل قال كلامًا نايياً أمام الطلبة؟"

ارتشفت قليلاً من كوب الشاي الذي أمامها وأسندت ظهرها على الكرسي وأجابت:

" لا... هو فقط..... وقح لا يجيد التعامل مع النساء.."

ثم سكتت ولم تعقب أكثر، كنت أرغب في معرفة المزيد لكن يبدو أنها ليست في مزاج جيد للتحدّث عنه، أو أنه قام بسلوك سيء معها فلم تشأ أن تبوح به، فقررت منحها بعض الخصوصية واكتفيت بتبادل النظرات مع أمي التي علت وجهها نظرات القلق، فأومأت برأسي لها بالألا تضغط عليها بالأسئلة أكثر.

ارتأيت أن أغير مجرى الحديث حتى ألطف من الجو وحدثتها عن بعض المواقف التي حصلت في

المكتب اليوم، متجنباً ذكر موضوع شهد أمامها، يكفيني ما عانيت منه طيلة فترة الظهيرة.

خلدت إلى النوم في وقت متأخر الليلة والسيد أجد لا يفارق خيلتي، لا أدري أي سحر ألقاه عليّ حتى استحوذ بتفكيري كله عليه.

مرّ أسبوع على مزحة شهد معي وبدأ زملائي في المكتب بنسيان تلك الحادثة والتعامل معي بشكل طبيعي حتى شهد بدأت تخفف من إزعاجها لي أو هكذا خيل إليّ.

حرصت على الالتزام بتطبيق نصيحة السيد أجد لي؛ فكنت نادرًا ما أتكلّم مع أحد ولم أخض بتفاصيل حياتي اليومية مع أي كان، إلا سارة فهي الوحيدة التي فتحت قلبي لها، لكنني مع ذلك لم أبح لها بشيء عن السيد أجد.

كنت أحدثها عن ضيقي من تصرّفات ليان التي تحاول إقناعي بشتي الطرق في التفكير بالزواج، وكانت تساندني بقولها ألا أحد يمكنه إقناعي بشيء بالرغم مني. كانت كلماتها كالبلسم، مطمئنة ومشجعة لي.

أمّا بالنسبة للسيد أجد فكنت ألمحه بين الفينة والأخرى عندما يأتي صباحًا ليوصل جارنا إلى عمله أو بعد العصر عندما يعيده إلى الحيّ. كنت أشعر بسعادة عندما أراه وخصوصًا عندما تلتقي نظراتنا، وغالبًا ما تتبع نظراته ابتسامة ودّية تبعث في نفسي شعورًا لطيفًا كأنني أطفو فوق السحاب. فلا يحلو يومي دون استفتاحه بوجهه الوسيم. ومع مرور الوقت بدأت مشاعري تنمو تجاهه وهذا أثار في نفسي القلق والضييق؛ فأنا لست أدري إن كان يبادلني المشاعر ذاتها ولست على يقين من أنني يجب أن أثق به، في النهاية هو شاب غريب عني لا أعرف عنه شيئًا، كما أنه من طبقة أخرى لا أنتمي إليها. وكان علي أن أذكر نفسي بذلك حتى لا أسمح لمشاعري بالتطور أكثر تجاهه.

ليان

قرر المدير إجراء اجتماع للهيئة التدريسية في نهاية الدوام بعد مغادرة الطلبة وذلك لمناقشتنا في الفترات التقويمية وأسس النجاح والرّسوب.

عندما دخلت قاعة الاجتماعات وجدت هناك قد حجزت لي مقعدًا بجانبها، في هذه اللحظة دخل الأستاذ يزن من بعدي ودفعني بكتفه ليمر دون أن يعتذر حتى، تابعته بنظرات لئيمة لكنه لم ينظر

نحوي! يا إلهي ما أشدّ وقاحته! هل دفعني متعمّداً؟ إلى ماذا يرمي بتصرفه السمج هذا؟ تابعت سيرتي حتى وصلت إلى المقعد الفارغ بجانب هناء وما إن جلست حتى اندفعت صوبي بأسئلتها المزعجة:

" ماذا حصل بينكما؟ هل دفعك متعمّداً؟ يبدو أنّكما تشاجرتما. هل هو غاضب منك؟ هل جرى بينكما شيء تخفينه عني؟"

زفرت بصوت مرتفع ونظرت لها بتهديد وقلت بصوت ملغوم:

"هناء! أنا لا أختلط بهذا المخلوق حتى أتشاجر معه! بالله عليك ماذا سأخفي عنك؟ كفي عن هذا الهذر رجاءً"

فألحّت بسؤالها:

" إذن؟ لم دفعك؟"

- " لا أدري هناء! لا أدري! ها هو جالس أمامك اذهبي واسأليه."

ما إن انتهيت من قول عبارتي حتى وجدت نفسي أنظر ناحيته، كان يضع سماعات في أذنيه وينظر نحوي وفي عينيه نظرة ساخرة، فقابلت نظرتيه بتجهم وعبوس فلم يزد ذلك إلا استمتاعاً، فقررت أن أتجنّب النظر إليه؛ فحركاته أثارت الرّيبة في نفوس بعض الزميلات وخيل إليّ أنّي أسمع همسات عني لكنني لم ألتفت إلى مصدر الأصوات لئلا أزيد الشكوك من حولي.

انقضت الدقائق كالساعات وأنا في انتظار قدوم المدير، وكلّ تفكيري منشغل في طريقة لإبعاد نظرات هذا الوقح عني. جاهدت نفسي على ألا أعيره انتباهاً لكنّ ذلك كان صعباً بوجود هناء إلى جانبي لتذكرني بأنه ما يزال مركزاً في نظراته علي وأنه بدأ يلتفت الأنظار نحونا.

أمست الهمسات بالتزايد حتى شعرت بالاختناق، كنت علي وشك المغادرة حتّى دخل المدير أخيراً إلى القاعة وفي عينيه تلك النظرة المعتادة من الاعتزاز كأنه بطل خاض معارك ملحمية وعاد منتصراً. جدّياً لسنا مهتمين بحبك لذاتك أنهي ما جمعنا لأجله وأرحني من هذا العذاب!

ألقى التّحيّة علينا وبدأ بتفقد الجميع حتى يتأكد من حضور الهيئة التدريسية كاملة، وعندما وصلت نظراته نحوي تبذلت لشيء آخر لم أستطع فهمه، هل هي نظرة احتقارية؟ هل هي نظرة استعلاء؟ هل يريد أن يشعرني بأنني أقل قيمة من الباقيين؟ لا أدري لكن نظرتة تلك مع تصرف ذلك الأرعن يزن وهمسات الزملاء من حولي زاد من نفوري وكرهي لوجودي هنا أكثر. أخذت نفسًا عميقًا وحاولت جاهدة ألا أعير أي أحد انتباها.

في أثناء خطاب المدير عن الإخلاص في المهنة حانت مني التفاتة نحو المدعو يزن فوجدته ينظر ناحية المدير كأنه مهتم بما يقول، أحسست وكأن جبلا قد انزاح عن صدري فأنا لم أعد تحت المراقبة. وعندما هممت بإبعاد عيني عنه وضع أصابع يده في مقدمة شعره ليعده عن عيني، وهنا وجدت نفسي أتفحص شعره المنسدل على رقبته وشدة لمعانه وسواده، يا له من شعر جميل لشخص لا يستحقه.

دنوت بنظري نحو ياقة قميصه كان يرتدي قميصًا أبيض اللون ولفت نظري شدة بياض ياقته كأنه قميص جديد، ثم بدأت أتفحصه ككيان كامل لاحظت بروز عضلات ذراعيه وصدرة من خلال ملبسه وتساءلت في نفسي هل يهتم بلياقته البدنية؟ ربما يمارس بعض التمارين ليحصل على جسد كهذا، كرهت الاعتراف لنفسي بهذه الحقيقة لكنه شاب بهي الطلة بكل معنى الكلمة.

ثم حدث ما كان علي توقعه رفعت بصري نحو عينيه الزرقاوين لأجده ينظر نحوي بزهو واستمتاع! آه لقد اكتشف أنني كنت أتفحصه يا للإحراج! احمرت وجنتاي بشدة وشعرت بالحرارة تتصاعد في داخلي. لكن هيهات أن أمنحه نشوة الانتصار، لذا حاولت جاهدة إخفاء انفعالي وأبقيت بصري عليه لكن بنظرات متحدية ويبدو أنه فهم التلميح فقابلني بنظرة مماثلة.

لا أدري كم من الوقت مضى ونحن نخوض معركتنا الباردة ضد بعضنا البعض، أنظر نحوه بسخط وتهديد وهو ينظر إليّ بمكر واستمتاع ليأتي صدى صوت المدير يرن في أذني فيعيدني إلى الواقع الذي نحن فيه الآن، رفعت بصري نحو مصدر صوته، بدا كأن صوته يأتي من بعيد ولم تضح لي معاملة بعد، ولكن ما إن استطعت تمييز ملامحه حتى استطعت استيعاب ما قاله:

" هل أنت معي يا ليان؟ هل كل شيء على ما يرام؟ "

فوجئت بنظرات الكل من حولي تحاصرني كأنني ارتكبت ذنبًا، وكعادتي لا أسمح لأحد بأن يدوس كبريائي، عدلت من جلستي ورفعت ظهري مسندة إياه على ظهر المقعد ورفعت رجلاً فوق الأخرى وابتسمت ابتسامة صفراء في وجه المدير وأجبتة ببرود:

" نعم، كل شيء على ما يرام "

حدّق بي المدير قليلاً بنظرة ارتياب، لكنني ثبتّ ناظري عليه وأنا أتصنع تلك الابتسامة الزائفة، فأشاح ببصره نحو يزن ثم أعاد النظر إليّ بشيء من الريبة. ثم نظر نحو الفراغ أمامه كمن يفكر في شيء ما أو أنّه يجمع كلماته من جديد بعدما قطع حبل أفكاره، وأخيراً تمّ إنقاضي على يد هناء التي طرحت سؤالاً على المدير عن الأعمال الأدائية التي يتم بناءً عليها رصد علامات للطلبة، ليخوض في نقاش جديد يلهيه عني.

نظرت نظرة أخيرة نحو يزن مؤنبة إياه فاستقبل نظرتي بابتسامة واسعة تظهر بياض أسنانه، فأدركت أخيراً في هذه اللحظة أنه لا مجال لي للفوز عليه فهو لا يقهر بسهولة، لذا قررت الانسحاب على غير عادتي، ذلك لأنني لم أرد أن تزيد الشكوك حولي؛ فأخر ما أريده هو أن تنتشر إشاعات قدرة عني، فأنا أعلم أن مجتمع الغيبة لا يرحم. أشحت بوجهي بعيداً عنه لأحدق في أي شيء في القاعة بعيداً عن نظراته الوقحة ونظرات المدير المريبة.

ما إن أنهى المدير الاجتماع حتى كنت أول المغادرين فانطلقت خارج القاعة متجاهلة نداء هناء لي. خرجت صوب ساحة المدرسة أبحث عن الحارس مأمون؛ يجب أن أفرغ الغضب الذي بداخلي بأي طريقة كانت، فوجدته جالساً على المقاعد يحمل في يده حفنة من فتات الخبز يرمي بها إلى الحمام ليطعمه، انطلقت نحوه دون تفكير فأخافت حركتي المفاجأة جميع الحمامات حتى طارت تلوذ بالفرار، نظر الحارس نحوي بشيء من الصدمة تلتها نظرة تأنيب أتبعها بقوله:

" آنسة ليان أخفت الحمامات و.... "

لكنني لم أكن في مزاج يسمح لي بسماع كلامه أو كلام أي شخص من حولي فقاطعته بقولي:

" أعطني مفتاح قاعة الرياضة "

رفع حاجبيه متعجبًا وقبل أن يتفوه بأي كلمة اندفعت قائلة:

" أعرف أن اليوم ليس نهاية الأسبوع لكنني بحاجة إلى المفتاح الآن أرجوك لن أتأخر أعطني نصف ساعة فقط "

تنهد بعمق وأخرج من جيب بنطاله مفتاحًا مربوطًا بخيط أخضر اللون، فتحت يدي أمامه فألقاه فيها وقال مقدمًا النصيحة لي:

" أنسة ليان أرجوك جدي حلاً لما تعانينه أنا برأيي أن تراجعني مختصًا أو ما شابه... "

قاطعته ثانية وأنا أهرول باتجاه الباب الخلفي للساحة:

" توكل على الله يا عم "

الحارس مأمون هو الوحيد الذي يعلم بما يدور معي، ففي الفترة التي تلت انفصالي عن بهاء كنت أعاني من إحباط شديد وشيئت حصنًا مدرعًا من حولي، ولم أسمح لأحد ولا حتى هناء بمعرفة تفاصيل إنهاء خطوبتي وإلغاء زفافي. وكنت أعمد لإفراغ الغضب الذي في داخلي عن طريق لكم الجدار في المطبخ، حتى ضبطني مرة عندما ضربت يدي بقوة فنزفت بشدة، فوجئت يومها برودة فعله حين تستر علي وقال أن أحد الأواني وقعت من الخزانة فوقي وأردت حماية نفسي بيدي فجرحت إثر ذلك، لكن كذفته تلك لم تنطل على الطبيب، وحاول سبر غوري فلم أزد على كلام الحارس بشيء. وعندما عمدت لسؤاله لأعرف سبب تستره علي قال لي يومها أنه يعرف بأنها ليست المرة الأولى التي ألكم فيها الجدار، وأنه رآني عدة مرات أفعلها، وأعرب لي عن تعاطفه معي فعرض علي أن أتأخر في المدرسة في آخر الدوام كل نهاية أسبوع وأختلي مع نفسي في غرفة التمارين الرياضية لأخفف من حدة غضبي واكتئابي بطريقة سليمة لا أتسبب فيها بالأذى لنفسي.

وها أنا أتأخر في المدرسة في نهاية كل أسبوع لأفرغ من طاقتي السلبية، ولم أحدث أحدًا بذلك. لكن اليوم شعرت بأنني على وشك الانفجار فإذا لم أتصرف تجاه غضبي فقد ينتهي بي المطاف إما بأذية نفسي أو بالشجار مع إيلينا أو أمي دون سبب.

انجّهت نحو غرفة التمارين في الطابق السفليّ من المدرسة نزلت السلام من الجهة المؤدية نحو باب المطبخ بعيداً عن قاعة الاجتماعات حتى لا يراني أحد، فتحت الباب على عجلة وأنا أتفقد الممر خلفي لأتأكد من عدم ملاحقة أحدي، ولجت إلى الداخل وجلست على الكراسي على جانبي الصالة، قمت بخلع حجابي وقميصي حتى لا أتعرق في ملابسني وبقيت مرتدية البنطال وقطعة ملابس داخلية قطنية تكشف عن ذراعيّ ومقدمة صدري (تانك) ، وأخرجت من حقيبتي مشدّين لليد وقمت بلف كل من كفيّ يديّ بهما لتحميني من أي إصابات، فأبعد التساؤلات التي طاردتني منذ فترة.

وقفت أمام إحدى أكياس الملاكمة وأخذت نفساً عميقاً لأستطيع التحكم بأنفاسي، ثم بدأت باللّكم بكلتا يدي مرة من اليمين ومرة من اليسار، لم أكن في وعي لما يحصل حولي، ولم أشعر بدخول أحد إلى الصالة حتى سمعت صوتاً يتردد إلى أذني:

" ما هذا؟ ماذا يحصل هنا؟ "

وكردة فعل لا إرادية صرخت بفرع واستدرت خلفي لأوجه لكمة قبل أن أستطيع أن أترجم الموقف من حولي.

لا أدري كيف حصل الأمر، فقد حدث كل شيء بسرعة، لكمت بيدي بكل قوة أملكها على حين غرة من الشخص الذي فاجأني حتى لم أعطه الفرصة ليدراً عن نفسه اللكمة، فوقع أرضاً يصيح من الألم وهو يغطي عينه بيده لم أستوعب الموقف بعد فهجمت نحوه وأمسكت بيده لأتفقد عينه إذا كان بخير أم لا وأنا أردد:

" أنا آسفة لم أقصد كانت ردة فعل..... "

ثم ما لبث أن هدأ عن الصراخ وكشف عن وجهه وهو ما يزال يغطي عينه التي لكمتها وعلى وجهه علامات الألم، ثم رفع حاجبه متعجباً وقال باستهجان:

" ليان! "

وكان غمامة التشويش التي شهدتها بدأت بالانقشاع بعد أن لفظ اسمي لأتنبه بأن هذا الشخص هو
يزن! كان ينظر نحوي بدهشة فلم أفهم سبب نظرتة هذه حتى دنا بنظره نحو الأسفل، إلى الجزء
المكشوف من صدري، وقتها عاد وعيبي إليّ ليصفعني بحقيقة أنني متكشفة أمامه، وبحركة أخرى لا
إرادية لكمته مرة أخرى وأخذت أعطي لحمي بكلتا يدي وأنا أصرخ فيه:
" أيها المنحرف لا تنظر!!! وقح!!!"

وبدأت بالبحث عن حجاي وقيصي، فتذكرت أنني وضعتهما على المقاعد الجانبية، أسرعت الخطى
نحو تلك المقاعد وأمسكت بحجاي وألقيته على رأسي وأمسكت قميصي أرتديه على عجل ويدي
ترتعثان وبين كل فينة وأخرى أراقبه إذا كان ينظر إليّ أم لا، كان يتأوه من الألم وهو مستدير للجهة
الأخرى.

سألته بكل غضب:

" كيف كيف دخلت إلى هنا؟ هل كنت تلاحقني؟!"

اعتدل في جلسته لكنه لم يستدر نحوي وأجاب:

" لا لم أكن أعرف أنك هنا نزلت لأستلم بقية العهدة من المستودع قبل أن يغلق الحارس المدرسة..

المدير أمرني باستلام العهدة اليوم قبل مغادرتي.... سمعت صوتاً غريباً فاتجهت نحو مصدر

الصوت... وجدت الباب مفتوحاً فدخلت"

هاجمته بكلامي بكل وحشية:

" كيف وجدته مفتوحاً أنا أغلقت..."

وهنا لم أكمل عبارتي فقد نظرت نحو الباب لأجده مفتوحاً والمفتاح من الجهة الخارجية للباب! غير

معقول كيف نسيت الباب مفتوحاً؟ الغضب أعمى بصيرتي فنسيت أن أوصد الباب خلفي!

كنت ما زلت أنظر نحو الباب مصدومة حتى أفقت على صوته يسألني:

" هل تسترت؟... أعني هل أستطيع الالتفات الآن؟"

اتجهت نحو الباب وأخرجت المفتاح من مدخل القفل ونظرت نحوه وأجبت:

" لا... لا تنظر "

وخرجت وتركته وحده في الداخل توجهت إلى الساحة الخلفية لأجد مأمون في مكانه على المقاعد ينتظرنى وهو يقرأ في القرآن الكريم، وضعت المفتاح إلى جانبه على المقعد حيث يجلس، فأغلق المصحف ونظر إليّ بابتسامة ودية وقال:

" هل فرغت؟ تعرفين يا ليان؟ ستجدين حلول الكثير من مشاكلك هنا "

وأشار نحو المصحف. ابتسمت له مخفية أحزاني وقلت:

" أنا لم أوصد الباب فالأستاذ يزن يقوم بجولة في الصالة الرياضية "

قطب حاجبيه متعجباً وقال مستفسراً:

" لماذا هل يفكر في ممارسة تمارين هو الآخر "

استدرت مغادرة المدرسة وأجبتته من غير أن ألتفت نحوه:

" لا أدري ولست مهتمة "

الفصل الرابع

" ليان! حمدًا لله أنك بخير أفلقتيني بشدة لقد تأخرت كثيرًا حاولت الاتصال بك عدة مرات لكنك لم تجيبي "

لم أكن أرغب بالحديث في تلك اللحظة لكن خوف أُمي البائن على وجهها جعلني أتعاطف معها فأجبتها على مضمض وأنا أتجه نحو غرفتي:

" نسيت هاتفني في الوضع الصامت ونسيت أن أبلغك بأن المدير اجتمع بنا اليوم، حقك علي.. "

لم أكن أنظر ناحيتها لكنني استشعرت القلق الذي رافق سؤالها:

" ليان هل أنت بخير؟ .. ملبسك ليست مرتبة ... أعني هل تفقدت حجابك قبل الخروج من المدرسة؟ "

لم أرد أن تعرف أُمي بما حصل معي، تواجدي في الصلاة الرياضية لا يعلم به أحد غير الحارس ، فحاولت تصنع ابتسامة لأزيل الشكوك التي بدأت بالتوجس في مخيلتها، وقلت:

" صراحة لا... كان يومي عصيبًا لم أنه نتاجاتي بعد وأنا متأخرة في المنهاج، فككت حجابي في الحصة الأخيرة لأخفف من الضغط الذي كاد يفجرني ونسيت أن أعدله "

ثم أضفت قبل أن أعطيها فرصة للتعقيب على كلامي:

" سأستحم الآن وأحدثك بتفاصيل يومي بعد أن أرتاح "

أغلقت باب الحمام ووقفت تحت المياه الدافئة لتغسل شيئًا من همومي ثم بدأت الدموع تنسكب على خدي، حاولت جاهدة أن أخفي صوت بكائي حتى لا تسمعني أُمي.

كيف نسيت باب الصلاة مفتوحًا؟! يا لي من غبية! لقد رأى مني ما لا رآه بشر غيره من قبل! حتى بهاء لم تستلذ عيناه برؤية كتفي، كلما أغمضت عيني تراءت لي صورته وهو يتفحص جسدي بعينه المصدومتين.. لماذا؟ لماذا حصل معي هذا؟ ولم هو بالذات؟ يا ليتني مت قبل أن أفصح أمامه. كيف

سأذهب غدًا إلى المدرسة وأراه؟ كيف سينظر إلي بعد هذا الموقف المحرج؟ شعرت بغصّة ومرارة..
ألا يكفي ما عايناه وما نعايناه الآن؟ فمن أين جاءني هذا الشاب ليدمر لي ملجأً من همومي؟
بكيت حتى شعرت بعينيّ تتورمان، حاولت غسل وجهي عدة مرات تحت المياه الدافئة لعلّي أخفي
التورم الذي حلّ بعيني على أثر البكاء.

أنهيت استحمامي وتسريح شعري الأسود القصير، وتوجهت نحو المطبخ حيث هي أمي بعد أن
نادت علي، عندما دخلت المطبخ استقبلتني بحديثها وهي تعد الطّعام دون أن تنظر نحوي:
" هل تعرفين من ستأتي لزيارتنا؟ إنها أم مازن "

ثم نظرت إليّ وسألته بعد أن تحولت نظراتها إلى القلق:
" ما بك؟ ما بها عيناك؟ "

جلست على الكرسي وتصنعت ابتسامة وأجبتها:

" لا شيء أمي وقفت تحت المياه الساخنة فترة طويلة وأنا متعبة فتورمت عيناى من المياه "
لم يبدُ أنّها اقتنعت فحاولت إلهاءها فسألته:

" من هي أم مازن؟ هل تعرفها؟ "

نظرت نحوي نظرة مطولة ثم أجابته دون أن تزيع نظراتها عني:
"إنها جارتنا الجديدة "

فتحت عيني مصدومة ووقفت بسرعة وسألته مجدّدًا:

" متى ستأتي؟ "

- " بعد قليل، جاءتني ابنتها تبلغني برغبتهم في زيارتي ردًّا على دعوة إيلينا لها سابقًا عندما أتتها
بصحن الكعك "

نظرت نحو الساعة لأراها ما زالت تشير إلى الثالثة والنصف أي قبل ساعتين من موعد عودة إيلينا
من العمل تقريبًا. فصرخ عقلي بجنون لماذا الآن؟ لم لا توجّلها حتى عودة إيلينا؟ أنا أريدها أن
تراها!

ضربت الطاولة بكفي يدي وانحنيت فوقها بحركة سريعة أجفلت أُمي وقلت معترضة:

"لما لم تعتذري منها؟ وتطلبي منها المجيء مساءً؟"

قطبت أُمي حاجبيها وأجابتني باستنكار:

"سيكون ابنها قد عاد من العمل وقتها وستكون مشغولة بقضاء حاجاته... ليان أرجوك اعتبري

معرفتنا بهم كنوع من الصداقات وأبقي علاقتنا معهم بعيدًا عن مصالحك"

فأجبتها بكل صراحة:

"ومنذ متى أبديت لك اهتماما بتكوين صداقات مع الجيران؟! كل همّي منصبّ على إيلينا و.."

- "كفى يا ليان!"

صراخها في وجهي هكذا فجأة أسكتني للحظة، أشاحت ببصرها عني واستطردت لكن بنبرة

منخفضة هذه المرّة:

"توقفي عن التخطيط لمستقبل شقيقتك، لا تعرفين ما تقحمينها أو ما تقحمين نفسك فيه لا تفعلي

شيئًا قد تندمين عليه مستقبلًا!"

ثم نظرت في عيني وقالت بنبرة مجروحة:

"ليان التكفير عن الماضي لا يكون بإقحام الآخرين على حياة أخرى، الزواج أعمق من ذلك المفهوم

البسيط الذي يدور في ذهنك، الزواج مسؤولية يا ابنتي اتركي أختك تقرر ذلك بإرادتها"

لم أجد الكلمات المناسبة لأرد عليها فعقلي مشوش جراء الأحداث المريرة التي مررت بها اليوم.

استأذنت منها وخرجت من المطبخ نحو غرفة نومي التي أشاركها مع إيلينا، وضعت كتيبي على

المكتب لتحضير دروسي لعلي أهلي تفكيري بشيء آخر، أخرجت هاتفني من الحقيبة لأتفقده فوجدت

خمس مكالمات فائتة من هناء، فأغلقت وأعدته إلى داخل الحقيبة. لم أرغب في التحدث مع أحد

ولست في مزاج يسمح لي بتبرير استفسارات هناء الآن. ألقيت رأسي على المكتب وأغلقت عيني

ويبدو أنني غفوت قليلاً.

رأيته يضع أصابعه في شعره وعينه الزرقاوان تلمعان بمكر وهو ينظر إلي. شعره الأسود يتدلى فوق رقبته بخصل لامعة عضلات صدره تتحرك لأعلى وأسفل وهو يتنفس بهدوء بينما يتابعني بنظراته المتعطشة... فجأة شعرت بيد تلمس كتفي فشهقت ونهضت جالسة متفاجئة ودقات قلبي تتسارع..

- " بسم الله الرحمن الرحيم!.. ما بك يا ابنتي؟ هل كنت نائمة؟"

جاء صوت أُمي ليعيدني إلى وعيي، نظرت إليها بعيني المتفختين وأنا أحاول السيطرة على أنفاسي لتهدأ قليلا وعقتب قائلة:

" يبدو أنني غفوت قليلا، أنا آسفة هل تحتاجين مساعدة في المطبخ؟"

- " لا لقد جاءت جارتنا وأريدك أن تستقبلها معي"

هززت رأسي بينما كنت أردد:

" سألحق بك دعيني أصلح مظهري أولاً".

سبقتني خارجة بينما التقطت فرشاتي وأخذت أسرح شعري من جديد وأحاول إسدال غرة لإخفاء التورم في عيني.

بينما كنت أسرحه تذكرت حلمي، يا إلهي! هل كنت أحلم بيزن في غفوتي القصيرة تلك؟ كلما تذكرت عينيه الزرقاوين الماكرتين دق قلبي بعنف، حاولت طرد كل تلك الأفكار التي تخصه من مخيلتي ونهضت متجهة نحو الباب لأهلي تفكيري بجارتنا لعل أريح عقلي من التفكير بذلك المغرور قليلاً.

عندما خرجت إلى غرفة المعيشة وجدت امرأة تبدو في مقتبل الخمسين تجلس على الأريكة الكبيرة وإلى جوارها فتاة في ريعان الشباب فعرفت أنها ابنتها. ألقىت التحية عليهما واتجهت نحوهما لأسلم باليد استقبلتني كل منهما بابتسامة ودية.

جلست وعرفتُها بنفسِي، وفعلتُا المثل. أم مازن امرأة متقاعدة كانت تعمل معلمة مثلي، أما ابنتها فتدعى نور وهي على وشك التخرج من معهد الفنون. أثارت فضولي تجاهها لأعرف اختصاصها فعرفت أنها مهتمة بالفن التشكيلي.

من حديث أم مازن عرفت الكثير عنهم، فقد غادروا بيتهم الذي احترق بسبب حريق نشب في بيت جيرانهم واضطروا أن يجدوا شقة بإيجار زهيد حتى يتمكنوا من دفع أجور التصليح. عقبَت أمي على ذلك الحادث المؤسف بقولها:

" يا إلهي يبدو أن هذا الحريق كان هائلاً ما دام وصل إلى بيتكم."

لمحت تعابير الأسي على وجه المرأة، لكنها ابتسمت وحمدت الله على قضائه، مشيرة أن من لطف الله بهم أن الحريق نشب والبيتان خاليان من البشر وإلا فإن الفاجعة كادت لتكون أكبر.

وحدثتنا عن والد مازن الذي يعمل في الخارج ولا يأتي هنا إلا مرة أو مرتين في السنة، ثم سألتنا عن عمل والدي، فتبادلنا أنا وأمي النظرات. فاستجمعت قوتي وتوليت الإجابة بنفسِي وقلت:

" أبي توفي منذ أن كنت وشقيقتي صغيرتين وتولت أمي رعايتنا."

ظهرت ملامح التعاطف على محياهما فشعرت بشيء من الضيق، ثم طرحت نور سؤالها:

" ومن كان يتولى مصاريفكم وقتها؟"

نهرتها أمها بنظرات مؤنبة فاحمرّ خذاها خجلاً واعتذرت، فأجبت متصنعة ابتسامة في محاولة لتلطيف الجو:

" لا بأس! إنه خالي من ساعدنا عندما كان عمله جيداً، ثم أفلسَت الشركة التي كان يعمل فيها، لذا شققنا طريقنا للاعتماد على أنفسنا حتى تخرجنا من الجامعة وها أنا أعمل كمعلمة وشقيقتي تعمل في شركة ضخمة لصناعة النسيج كمدخلة للبيانات"

لمعت عيناها بالإعجاب فشعرت بالرضى، تحاشيت طبعاً ذكر الديون التي تراكمت علينا وعلى

خالي بسبب أوضاعنا التي عشناها، فلا أريد إلا ترك الانطباع الجيد عنا لربما نجحت في زرع محبة

إلينا في قلوبها وطلبتها زوجة لمازن، وهنا وجدت نفسي أسأل:

" لم تقولي لي يا خالة ماذا يعمل ابنك؟ "

وقالت وهي تبتسم بأسى:

" إنه يعمل محاسبًا في شركة صناعية لكن يبدو أن أوضاع هذه الشركة تتدهور، وإنني لأدعو الله

يوميا في صلاتي أن تتحسن أوضاعها لئلا يخسر ابني وظيفته "

ربتت أُمي على فخذ المرأة مطمئنة لها وقالت لها بألا تخاف شيئا ففوقنا رب رحيم.

استمرت جلستنا ساعة من الزمن شربنا فيها عصيرا وقهوة مع قطع صغيرة من الشوكولاته تمنيت لو وجدت شيئا آخر لأقدمه أمامهما لأكرمهما لكنني لم أضع في الحسبان أنه سيأتينا ضيوف.

ضحكنا معًا عن بعض المواقف الحياتية وأعجبت بروحيتها الطيبة واطمأنت أكثر من الداخل تجاه مخططي، فإذا انتهى المطاف بإيلينا بين هذه العائلة المحببة فستكون محظوظة بذلك، لا أدري كيف مر

الوقت لكنهما اعتذرتا وأصرتا على العودة إلى شقتها لأن موعد رجوع ابنها مازن من العمل اقترب وتريد أمه استقباله وتجهيز أموره، مع أننا أحببنا الجلسة معها وأردنا تمضية المزيد من الوقت

برفقتها. وقبل أن تغادر أم مازن طلبت منا أن نرد لها الزيارة متى ما وجدنا أنفسنا متفرغات وطلبت منا إحضار إيلينا معنا لتتعرفا عليها.

خرجت من البيت لأشتري خبزا للعشاء قبل عودة إيلينا، فالتقيت بها على مدخل العمارة، ولأن الصدفة تلعب دورها في الحياة تفاجأت بجارنا مازن يترجل من سيارة خصوصية فارهة من المقعد المجاور لمقعد السائق في التوقيت ذاته لعودة إيلينا.

إيلينا

هذه الحافلة الثانية التي أفوتها علي، فالموقف اليوم مزدحم بالركاب ولا أمتلك الجرأة لأركض بينهم وأتدافع معهم لئلا يوقعوني أرضا.

بقيت واقفة قرابة النصف ساعة إلى أن جاءت حافلة أخرى. كنت منهكة و متعبة فالعمل اليوم كان كثيرًا حتى أنني بالكاد استطعت الحديث مع سارة جلست على مقعد من المقاعد الأمامية بجانب النافذة ، كان الألم متمركزًا في أسفل ظهري وقدماي بسبب الوقوف فترة طويلة في الموقف ومع ذلك لم يكن هذا الألم ما يزعجني، بل ما أزعجني خوفي من عدم قدرتي على رؤية السيد أجد اليوم بسبب تأخري؛ فأنا لم أراه صباح اليوم ولا حتى بالأمس بسبب أزمة المواصلات التي عانيت منها اليوم أيضا.

ترجلت من الحافلة وأكملت الطريق المتبقي علي سيرًا على الأقدام وذاك الهاجس يرافقني طوال الطريق ماذا لو لم أراه اليوم أيضًا؟ ثم دق قلبي بقوة فقد لمحت سيارته التي بت أحفظها عن ظهر قلب تصطف أمام مدخل المبنى الذي أعيش فيه.

حاولت السيطرة على الفرحة التي حلت في قلبي وإخفاء تلك الابتسامة الغبية التي تهدد بالخروج لتتبع على شفتي. مشيت بهدوء مصطنع وعياني على الأرض لكنني لم أتمكن من السيطرة عليهما فقد تحركتا تلقائيًا لاختلاس نظرة إلى داخل السيارة، لأراه يجلس خلف المقود وجارنا إلى جانبه يترجل من السيارة بينما السيد أجد مركز في نظراته علي أنا.

شعرت بالارتباك وبدأت أتخبط في مشيتي حتى تفاجأت بليان واقفة أمامي تسد علي مدخل المبنى، ذعرت لرؤيتها لوهلة وأنا أتساءل مع نفسي ماذا لو شكت بشيء لكن سرعان ما هداً خوفي حينما حيتني بحرارة جعلتني أشك بتصرفها، ثم سمعت صوت جارنا من خلفي يلقي التحية علينا ففهمت سبب تصرفها الغريب هذا.

تنحيت قليلا عن المدخل لأفسح المجال له ليمر، لكن ليان لم تكن لتمرره بهذه السهولة دون أن تغتنم هذه الفرصة فقالت:

" أهلا بك يا جارنا... هذه أختي التي جاءتكم بصحن الكعك "

نظرت نحوها مهددة لكنها تجاهلتنني. ابتسم جارنا ابتسامة محرجة وشكرنا على الكعك وألقى نظرة أخيرة نحو ليان ملوًا بيده ومضى نحو السلم ليصعد إلى شقته.

- " ما هذا التصرف الغبي؟ هل فقدت عقلك؟ "

نهرتها بشدة بينما كنت أصر على أسناني، فنظرت نحوي بجدية وقالت:

" ألم تلمحي عينيه وهو يشكرك؟ بدالي كأنه معجب بك "

- " أنت حقاً تهذين!! بالكاد نظر نحوي! ليان إن لم تتوقفي عما تفعلينه ف... "

- " فماذا؟ ها ماذا ستفعلين؟ "

قاطعتني وتلك الجمره بعينيهما متقدة، فأثرت السكوت ولم أجبها، فعقبت قائلة:

" سأذهب إلى المخبز لشراء الخبز هل تريدان مرافقتي؟ "

هزرت رأسي نفيًا واعتذرت منها بحجة أنني متعبة وأحتاج إلى الراحة قليلاً، لم أنتظر منها ردًا،

وليتها ظهري وصعدت نحو الشقة.

الفصل الخامس

في صباح اليوم التالي تفاجأنا بحرارة ليان المرتفعة، لذا اقترحت عليها أمي أن تأخذ إجازة، فصدمننا من ردها، نعم لقد وافقت على أخذ إجازة! وهذا غريب تماما؛ لأن ذلك ليس من شيمها فهي تذهب إلى عملها في كل الظروف مهما كانت، حتى في أشد حالات مرضها. أما اليوم فقررت الأخذ بنصيحة أمي، مع أنني لم أشعر أنها متعبة إلى هذا الحد. بقي بالي مشغولاً عليها طيلة فترة تواجدي في العمل، ثمّة ما يزعجها وأنا متأكدة أنه السبب في مرضها لا نزلة برد، ولأنني لم أمتلك هاتفًا لم أتمكن من التواصل مع أمي للاطمئنان عليها، لكنني في النهاية تشجعت وطلبت من سارة أن تعيرني هاتفها، أعلم أنها لن ترفض إنها طيبة القلب وتحب مساعدتي لكنني لا أريد أن أفرض نفسي عليها كثيرًا فخيرها علي كثير.

طمأنتني أمي أن ليان أحسن حالا مما زرع في قلبي بذرة اطمئنان.

عدت إلى البيت وأنا أحمل معي عصيرًا طازجا اشتريته من أجل ليان، فجسمها بحاجة إلى فيتامينات، وكم ارتحت كثيرًا عندما رأيتهما في المطبخ مع أمي تساعدنا في إعداد العشاء. بدت لي أحسن حالا مما كانت عليه صباحًا. تناولنا طعام العشاء وشربنا العصير الطازج، تسامرنا وقررنا تجاهل البؤس الذي مررنا، وما زلنا نمر به في حياتنا. ضحكنا على بعض الذكريات التي تركت في قلوبنا أثرًا جميلًا وحدثتهما عن زملائي ومواقفهم الطريفة ومضت ليلتنا على خير.

في اليوم التالي تعافت ليان من مرضها وكانت بصحة أفضل. كنت قد انتهيت من تنظيف غرفة الجلوس بالكامل، استلقيت على الأرض لأستريح. اليوم عطلة وفي عطلة نهاية كل أسبوع نقوم بتنظيف شامل للبيت ونقسم الأعمال فيما بيننا.

وقفت ليان فوق رأسي وسألتنني:

"هل أنهيت مهامك؟"

همهمت لها موافقة، فأعقبت بحدة:

" إذا قومي استحمي وارتي شيئاً جميلاً. "

رفعت بصري نحوها وسألتها بريية:

" لما؟ "

أجابت بجدية:

" لأننا مدعوات إلى فنجان قهوة عند جارتنا، قومي بلا ملاحظة! "

بقيت ساكنة مكاني أشتع من الغضب في داخلي، لماذا هي مصرّة على مخطئها الفاشل؟ هل تظن أن

زواجي سيسفي غليلها من الدنيا؟ يا رب اهدها لتخرجني من رأسها.

توقفت في سيرها والتفتت نحوي ونهرتني بقوة صارخة بي:

" قومي يا إيلينا! خذي بنصيحتي؛ لا تريدين أن تعلقني معي! "

كلامها صحيح أنا لست نداء لها، هي تتحلّى بشخصية قوية صلبة على عكسي تماماً فأنا هشة وأبكي

على أتفه الأمور، لذا قررت أن أنصاع لها وقمت متجهة صوب الغرفة لأختار ملابسي، وقررت في

نفسي حتى لو أجبرتني على المجيء معها فعلى الأقل سأبدي استيائي لها، فأسرعت الخطى ودفعتها

بكتفي لأحصل في المقابل على شتيمة منها لكنني لم أهتم، على الأقل نجحت في إغاضتها.

جلست أسرح شعري الطويل وبدأت في تجديله، لكنني لم أكمل عملي فقد أجفلتني ليان بصراخها

علي عندما دخلت الغرفة، التفت نحوها بذعر وقابلتها بغضب قائلة:

" ماذا تريدين؟ أجفلتني!!! "

- " ماذا تفعلين؟ لماذا تجديلين شعرك؟ "

- " ها؟! لأنني معتادة على ذلك! "

أجبتها وعلى محياي نظرة استنكار؛ منذ متى تتدخل ليان بتسريح شعري؟ فاقتربت نحوي وخطفت

الفرشاة من يدي وبدأت بتمشيطة بنفسها وهي تقول:

" أما تملّين من مظهر الشعر المجدل؟ حرام عليك لديك شعر جميل فلم لا تظهرين جماله؟ "

- " لمن يا ليان؟ أنا محجبة!"

- " أعني أمام الجارات! أنت جميلة جدًا! إيلينا دعي جارتنا ترى جمالك."

نظرت إليها من خلال انعكاس صورتها في المرآة وعقبت على كلامها قائلة:

" وأنت جميلة يا ليان."

نظرت نحوي بحنو ثم ابتسمت بحزن، وأضافت لتبعد محور الحديث عنها:

" انظري لهذه الخصل الناعمة الجميلة! الفتيات غيرك يدفعن أموالاً طائلة من أجل الحصول على

شعر مثل شعرك، أريدك أن تظهرني بأجمل صورة أمام جارتنا فهمت؟"

لم أجبها، بصراحة لم أرد الدخول في نقاش عقيم معها فأنا منهكة من أعمال البيت وأمي لا ينقصها

الآن أن تقوم بإخماد نيران مشاجراتنا، لكنني دعوت الله في قلبي أن تعتقني ليان مما تخطط لأجله، أنا

لا أريد الزواج، على الأقل ليس الآن لا أستطيع الارتباط بأحد وتفكيري منصب على شخص آخر

والمصيبة أن هذا الشخص الآخر يصدف أن يكون صديق عريس الأحلام الذي تفكر فيه ليان.

يجب أولاً أن أرد الدين للسيد أجد وأخرجه من عقلي وقلبي ثم بعد ذلك أتشاور مع نفسي إذا كنت

سأنصاع لرغبات ليان التي أظن أنها ستوصلني نحو نهاية مأساوية.

أخذنا معنا صحنًا من الكعك الذي أعدته أُمِّي سابقًا من أجل جيراننا الجدد. طرقت ليان الباب

وأُمِّي واقفة إلى جانبها بينما قلبي يمتعض من القدوم معها. فتحت فتاة عشرينية الباب وعلى ثغرها

ابتسامة واسعة، حيّت ليان بحرارة ومدت يدها لتسلم علي وهي تبسم لي فبادرتها بابتسامة

مصطنعة وأرشدتنا إلى الطريق في الداخل.

اتجهنا نحو غرفة الجلوس حيث تجلس أمها، تبادلنا التحية وبادرتنا باستقبال حار، ثم اعتذرت منا

قائلة:

"سامحني كنت أرغب في الجلوس معكن على الشرفة لأن الإطالة جميلة هناك لكن ابني يستضيف

أحد أصدقائه وهما جالسان فيها حاليًا."

شكرتها ليان بصدق وفهمت من مجرى حديثهن أن أمي وليان قد أخبرتاهما سابقاً أنهما تتمنيان الجلوس في شرفة لاحتساء فنجان قهوة فشقتنا على عكس الشقق في الطابق الثاني لا شرفة لها. خلعت ليان الحجاب عن رأسها ونظرت نحوي كمن تلمح لي أن أفعل مثلها، فخلعته مكرهة، نظرت نحوي الجارة وقالت مبتسمة:

" بسم الله ما شاء الله! هل هذا لون شعرك الطبيعي يا ابنتي؟ "

فأجابتها ليان:

" نعم هذا شعرها الطبيعي بشكله ولونه من يراها يظن أنها تضع خصلاً في شعرها "

فعقبت ابنتها:

" غريب هذا الاختلاف بينكما فأنت تتمتعين بشعر شديد السواد على عكس شقيقتك التي يميل شعرها إلى الأشقر "

- " إيلينا ورثت جمالها من جدي بينما أنا أشبه أمي وجدتي "

قالت الفتاة معقبة على كلام ليان:

" أنتما الاثنتان غاية في الجمال كل منكما لها جمالها الذي يميزها "

أضافت أمها:

" ما شاء الله يا سيدة ماريا لا بد أن العرسان يتشاجرون على بابكم! "

ضحكت أمي بينما ليان ابتسمت ابتسامة صفراء وأجابت:

" لا يا خالتي أنا لا أفكر في الزواج أبداً.... "

ثم نظرت نحوي وقالت وعيناها لا تفارق عيناها:

" أما أختي هذه فلا مانع لديها لكنها في انتظار الشخص المناسب فهي لا تريده إلا أن يكون صالحاً "

ويحافظ على فرضه. "

ابتسمت الجارة ونظرت نحوي بإعجاب وبدأت بتفحص ملامحي فشعرت بالحرج وشيء من

الانزعاج، بينما ابنتها لم تبعد نظراتها المرتابة عن ليان، ثم جاء صوت ابنتها من ناحية المطبخ ينادي:

" أمي، نور، هل لديكما ضيوف؟ "

فأسرعنا أنا وليان في ارتداء حجابينا وفعلت أخته المثل فعرفت أنه يريد أن يفتح المجال لصديقه لأن يمر، ثم قالت له أمه:

" لا بأس يا بني بإمكانك المرور "

أخرج رأسه من خلف الباب ونظر نحونا باستحياء ثم ألقى بنظره على الأرض، بعد ذلك شعرت أن الزمن توقف وأن كل من في الشقة قد اختفوا فور خروج صديقه من خلفه السيد أمجد. التقت أعيننا فتوقف عن سيره. شعرت في عينيه نظرة غريبة كنظرة الملهوف نحو من يجب. حاولت أن أضع عقلي الباطني على هذه الفكرة السخيفة فكيف لشاب بمواصفاته المثالية أن يحب فتاة بسيطة مثلي!

ثم تنحنحت أختي بصوت مرتفع لنعود إلى الواقع فألقى السيد أمجد بنظره نحو الأرض واستأذن للمرور بينما تبعه جارنا ماشيا من خلفه.

شعرت أن خدّاي سينفجران من حمرتها ولم أجرؤ على النظر ناحية ليان؛ لأنني شعرت بعينيها كالصقر تراقبني، ثم سمعت صوت أمي تحدّث الجارة:

" يبدو أن صديق ابنك شاب مرموق "

فأجابت الخالة:

" السيد أمجد؟ آه إنه رجل شهم ونبيل ويساعدنا في إصلاح بيتنا فهو من نشب الحريق في بيته. "

رفعت رأسي عقب آخر عبارة قالتها، ثم تساءلت:

" حريق؟ "

فأجابني ابنتها نور التي علمت اسمها للتو:

" نعم المسكين احترق بيته، وما زالت الشرطة تحقق في أسباب الحريق، إنه يعمل محامياً وتعتقد الشرطة أن الحريق مفتعل بسبب أحد خصومه "

وأكملت أمها:

" وهو حاليا يتفقدنا إذا كنا بحاجة إلى المساعدة أم لا فكما تعرفين يا سيدة ماريا ابني وضعه حرج في عمله في هذه الفترة فهذا ثالث شهر يعمل دون أن يقبض راتبه."

هنا تدخلت ليان كالمعتاد فيما لا يعنيها:

" ما رأيك يا خالة أن يقدم طلب توظيف عندنا في المدرسة؟"

فسألتها الجارة:

- " لماذا هل مدرستكم بحاجة إلى محاسب جديد؟"

- " لا أدري صراحة لكن ربما وظفوه مكان أستاذ الحاسوب، فأنا لا أظن أنه سيصمد في

مدرستنا فهو لا يتحلى بأي أخلاق حميدة تذكر."

من النادر أن تتحدّث ليان عن أستاذ الحاسوب الغامض الذي أشعر أنه يشغل بالها حاليا، أعتقد أنه

تصرف بلؤم معها فهي لا تكره أحدًا بشدة هكذا دون سبب.... لحظة! ليان لا تستلطف أحدًا

أصلا... لا أدري أشعر أحيانًا أن تفكيرها معقد وأعجز عن فهمها.

دونت ليان اسم المدرسة وموقعها ورقمها على دفتر صغير أعطتها إياه نور، ثم شكرتها بإخلاص.

أكملنا جلستنا على الشرفة التي تطل من باب للمطبخ. وأخيرًا شربت أمي فنجان القهوة من شرفة

تطل على الشارع كما كانت تحلم، يا لأحلامها الصغيرة! كم أشعر بالأسى نحوها وأتمنى أن تتبدل

حالتها إلى حال أفضل لأدخل السعادة إلى قلبها المثقل بالهموم.

جلسنا في المساء أمام شاشة التلفاز لتتابع أمي حلقات الإعادة لمسلسلها التركي الذي لا تمل منه، على

الأقل وجدت شيئًا تسلي نفسيها به، وأعددت إبريق الشاي وجلست على مقعدي المعتاد وبدأت في

صب الشاي في الأكواب بينما ليان تجلس كعادتها إلى جانب أمي على الأريكة الكبيرة، وهنا فتحت

فمها كمن تجس نبضي:

" صديق جارنا ذاك شاب ثري ووسيم أيضًا ما رأيك إيلينا؟"

تحاشيت النظر نحوها وأخذت أحرّك السكر في الكؤوس وأجبتها على مضض:

" لا أدري لست مهتمة."

- "هممم... غريب! ظننتكما القيتما قبل هذه المرة فنظراتكما كانت مريبة."

التفتت أُمي نحونا ونظرت إلي تنتظر مني إجابة، فقلت وأنا أحاول السيطرة على انفعالاتي:
"آه نعم تذكرت.... وقع مفتاحي مني في أول يوم لي في العمل ولحقني إلى..... موقف الحافلات
وأعاده إلي.... ربما لهذا السبب نظر نحوي....."

فسألت ليان لتمحص في الموضوع أكثر:

"لما لم تذكرني هذا الموقف سابقاً؟ هل هو سر؟"

نظرت نحوها بانزعاج وأجبت:

"لا ليس سرّاً، لكنّه ليس موقفاً تاريخياً لأتحدّث فيه!"

ثم أضفت بغضب لأحول عجلة الحديث نحوها:

"أنت قولي لنا ماذا حصل بينك وبين أستاذ الحاسوب هذا؟ ولماذا تكرهينه إلى هذا الحد؟ ولما
تتجنّين اتصالات هُنا المتكررة؟ لم تحببي على أي من مكالماتها! المفروض بك أن تطمئنني إلى أنك
بخير الآن. هل لديك تفسير لتصرفاتك؟"

فغرت أُمي فمها بدهشة من جرأتي في الحديث مع ليان أما تلك فاشتعلت النيران في عينيها غضباً،
حاولت ألا أرمش لكي لا تشعر بخوفي منها، كنت مذعورة من تهوري في الكلام معها لكنني لم أرد
الانسحاب، فهي من بدأت هذه المشادة، فما كان منها إلا أنها التقطت جهاز التحكم عن بعد
ورفعت صوت المسلسل عالياً وأدارت وجهها عني ناحية الشاشة. بينما أُمي أُنبتني بلغة العيون
فشعرت بالسخط وتحاشيت التحدّث مع كليهما طيلة السهرة.

لم تمض عطلة نهاية الأسبوع على شكل مرضٍ، فقد تحاشيت أنا وليان الحديث مع بعضنا إلا
للضرورة، لكنني شعرت بأن ما يضايق ليان أكبر من مجرد مشاجرة بيننا، ثمّة شيء تخفيه عنا يسبب
لها الانزعاج، لكننا لم نجرؤ على سؤالها لأننا نعلم تماماً أنها ستصدنا وقد تصب غضبها علينا.

عدنا إلى بداية الأسبوع وملاحقتي للحافلة صباحًا لكي لا تفوتني ولا أتأخر عن العمل. حينما وصلت وجدت سارة غارقة في عالم آخر، فقطعت عليها شرودها وألقيت عليها تحية الصّباح، ابتسمت لي بمرح ثم قالت:

" حسنًا سأعترف لك بشيء ما، لكن عديني أنه سيبقى سرًّا "

فأومأت بحركة بيدي أمام شفتي كمن تغلق شيئًا بمفتاح ثم تظاهرت برميته، فقالت:

" أظن أنني أقع في حب أحدهم "

فقاطتها بفضاظة:

" أهذا هو السرّ؟ سارة صدقيني كل من في المكتب يعلم بمشاعركن أنتنّ الثلاثة تجاه المدير. "

قطبت حاجبيها وأجابت معترضة:

" ماذا؟ لا! أعني ليس المدير! إنما أقصد.. نعم أنا معجبة به لكن إعجابي به كإجابي نحو شخصية

مشهورة أعلم أنه لن يكون من نصيبي! أنا أتحدّث عن شخص آخر "

قربت رأسي منها وسألتها بفضول:

" من؟ "

نظرت نحوها يمينًا ويسارًا للتأكد ألا أحد يستمع لكلامها ثم قالت:

" مهند من قسم التسويق "

فسألتها:

" مهند؟ تقصدين الشاب الطويل ذو اللحية الصغيرة "

فهزّت رأسها بأسى وتنهدت بألم، فسألتها:

" إذا ما المشكلة؟ "

- " المشكلة أنه مغرم بشهد! "

- " كيف عرفت بذلك؟ إذا رأيتيه ينظر نحوها فهذا لا يعني أنه يحبها، فالكل ينظر إليها لا

تسي أنها ترتدي ملابس ضيقة وملفتة "

نظرت سارة في الفراغ أمامها ثم قالت:

" سمعته يتحدث إلى فارس في غرفة التصوير "

حدّثني سارة عمّا سمعته يتكلّم به مع فارس وعن إعجابه الشديد بشهد ورغبته في التقدم للزواج بها وخوفه من رفضها له، فهي بنظره كاملة المواصفات وهو على علم بأنها لن تتنازل بمواصفات أقل من مواصفات المدير مادياً وخلقياً، سأكون كاذبة إذا لم يصبني الفضول لرؤية هذا المدير الغامض الذي تذوب الفتيات بسحره، لكنني لست مهتمة إلى هذا الحد. ومن حديث سارة عن مشاعرها تجاه مهند ومشاعره تجاه شهد شعرت بالشفقة على كليهما ودعوت لها الله أن يختار لها الأفضل.

ليان

خرجت من مكتب المدير بعد أن قدّمت تبرير تغيبي في اليوم السابق للعطلة الأسبوعية، أدهشني تعامله السامح معي على غير عادته، توجهت نحو السلام لأصعد إلى غرفة المعلمات لكن لفت نظري خيال أحدهم في غرفة المحاسبة فاتجهت صوبها لأتأكد مما لمحتة عيني، وهناك رأيتة جارنا مازن يحمل ملفات ويقوم بترتيبها، فوجدت نفسي ألقى عليه التحية وأنا مبتسمة ابتسامة متسائلة:

" صباح الخير، كيف حالك؟ هل وجدت وظيفة عندنا؟ "

رفع رأسه فأشرق وجهه حينما رأني وأجابني بابتسامة لطيفة:

" آنسة ليان! ... صباح الورد.... بعد أن أخذت عنوان المدرسة من نور -طبعا الشكر لك - جئت

البارحة وقدمت فيها طلباً للعمل، فقد علمت أن الهيئة الإدارية لهم دوام أيام السبت. "

- " ممتاز! يبدو أنهم وافقوا على طلبك، هل ستعمل مساعداً للمحاسبة؟ "

- " في الواقع لا، فأنا المحاسب هنا "

- " حقاً؟! وأين بشينة؟ "

- " قيل لي أن المحاسبة القديمة قدمت استقالتها قبل فترة لكنهم طلبوا منها أن تستمر معهم إلى حين قدوم شخص آخر لهذه الوظيفة، وفتُح لي باب التوفيق لأكون هذا الشخص. "

ظهر العبوس على وجهي وأنا أتساءل بصوت مرتفع مع نفسي:

" واو! عجباً لم يقل لي أحد هذا، لماذا لم يخبرني أحد بهذا؟ "

وضع مازن الملفات على المكتب والتفت إلي ثم قال:

" لا يهم، لا تهتمي بذلك .. آمم هل لي بسؤال؟ "

هزرت له رأسي دون أن أنظر إليه وأنا ما زلت أفكر في سبب عدم إخبار أحد لي باستقالة بثينة.

فوجه سؤاله إليّ قائلاً:

" عندما قدمتن إلى بيتنا اليوم الفاتت لما قلت لأمي أنك لا تفكرين أبداً بالزواج؟ "

في هذه اللحظة سمعت صوت هناء يثقب أذني وهي تصرخ عليّ من خارج المكتب، ولم تعطني

فرصة لاستيعاب سؤال مازن، ثم دخلت الغرفة بعنفوان وهاجمتني قائلة:

" أنت بغیضة! يجب أن يتم دفنك حيّة! أين كنت؟ لماذا تتجاهلين اتصالاتي بك؟ أين اختفيت يوم

الأربعاء؟ ولماذا تغييت يوم الخميس؟ ماذا حصل معك؟ هل أنت بخير؟ "

علق فكي وأنا أنظر إليها مدهوشة ببلاهة وأعتقد أن منظر مازن كان مشابهاً لمظهري، سكتت لبرهة

من الوقت ثم ابتسمت بإحراج وهي تنظر إلى مازن، رفعت يدها بمحاذاة صدرها ولوحت له

مرحبة، فجذبتها من كم ملابسها وجررتها نحو الخارج وقلت مؤنبة لها:

" ماذا حصل لك؟ لهذا السبب لم أجب على اتصالاتك! لأنك مزعجة وانفعالية! حباً بالله أنت

تدفعيني إلى الجنون أحياناً! "

تجاهلت توبيخي وفتحت فمها المزعج لتسألني:

" من هذا الشاب الظريف في مكتب المحاسبة؟ "

رفعت إصبعي أمام وجهها بتهديد وقلت:

" إياك! ابتعدي عنه هذا جارنا الذي حدثك عنه وأنا حجزته لإيلينا فلا تفكري به "

قابلت كلامي بنظرة عابسة وقالت متذمّرة:

" آه منك أخذت اللذيذ يزن لك والآن هذا الوسيم لأختك؟ اتركي مجالاً لغيرك "

أجبتها باشمئزاز:

" اللذيذ يزن؟! حقاً هناء؟! أما وجدت أفضل من هذا الوصف؟ إذا كنت تجدينه لذيذاً التهميه

أنت! "

ويبدو أنها لم تسمعني كعادتها فقد عادت إلى أسلوبها المندفع ثانية وأضافت:

" هل رأيت ماذا حصل له؟ يا له من مسكين علق في شجار مع شاب أزعر ولكمه في عينه، تخيلي

عينه الزرقاء الجميلة بهت لونها على أثر الكدمة "

لم أستطع منع نفسي من التعليق فقلت مستهزئة:

" شاب أزعر؟ قلت شاب أزعر؟! هل هذه هي القصة التي سردها لكم؟ "

عضضت على شفتي في غيظ إذن هكذا يصفني هذا المتعجرف! لو كنت أمتلك الجرأة لاعترفت

الآن وفي الإذاعة المدرسية أمام جميع من في المدرسة من عاملين وطلبة بأنني أنا من تسببت له بكدمة

ليصبح أضحوكة المدرسة، لكن لن أستطيع أن أبوح بهذا لأي أحد دون أن يعرفوا التفاصيل المظلمة

خلف تلك الكدمة.

ثم تذكرت شيئاً فالتفت نحو هناء وسألت بغضب:

" هل كنت تعلمين باستقالة بثينة؟ كيف لك ألا تخبريني؟ "

ضيقت عينيها ونظرت إلي بغضب وقالت:

" أخبرتك منذ فترة لكن ذهنك مشغول بالأستاذ يزن وطرق التخلص منه "

أدركت في تلك اللحظة أن هذا المتعجرف قد استحوذ على عقلي وتفكيري، يا إلهي أنا بحاجة إلى

علاج نفسيّ منه الآن!

أمسكت هناء بيدي وسحبني معها نحو الساحة المدرسية لنقوم بتجهيز طلبتنا لطابور الصباح وهي

تردد على مسامعي طوال الطريق عن مسامحتها لتجاهلي لها وعن كونها طيبة القلب وأنني محظوظة بها

وأني يجب أن أحمد الله عليها فهي نعمة عظيمة لي... ولم أتوقف عن تقليب عيني والنفخ ضجرًا من حديثها.

عندما وصلنا إلى الساحة وجدت المدعو يزن يقف إلى جوار سارية العلم ، التقت نظراتنا ولمحت آثار الكدمة على عينه ويبدو أنها بدأت بالتماثل للشفاء لأنها لم تبد بالسوء الذي وصفته هناء. دامت نظراتنا عدة ثوان ثم قطعها بنفسه وتحرك من مكانه مارًا بجانبني لم ينظر إلي بينما كانت عيناى تلاحقه وهو يسير من جانبي حتى ابتعد نحو زاوية الساحة حيث يقف عادة. بقيت على حالي واقفة أرقبه بعينيّ لكنه لم يبادلني النظرات فخلق في داخلي شعورًا غريبًا.

هل هو شعور راحة لأنه تجاهلني؟ أم كان انزعاجًا؟ علام أنزعج؟ أليس هذا ما أردته؟ لكن ما سبب تجاهله لي؟ هل هو غاضب بسبب الكدمة التي تسببت بها له؟ أم شيء آخر؟ هل يعقل أنه لم يعجب بما رآه مني؟ ربما لم يتخيلني بهذا الشكل دون حجاب... ربما.. كان يظن أنه سيرى شيئًا أفضل! فتاة أجمل كإيلينا مثلاً.... شعرت بغصة في قلبي ما كان يجدر بي أن أشعر بها.

التفت أمامي وناديت على طلبتي وبدأت في ترتيبهم حسب الطول وبين الفينة والأخرى تخونني عيناى فتتجهان بنظراتهما نحو تلك الزاوية لتتفقده فأجده على حاله يتجاهلني حتى هناء لاحظت تغير سلوكه معي فقد لمّحت لي مرة أو مرتين بعدم ملاحظته لي بعينه كالمعتاد.

حاولت أن أتخلص من شعوري بالضيق من تصرفه وبدأت أحدث نفسي في سري: أليس هذا ما أردته؟ إذن لما أشعر بالضيق؟ ربما هو غاضب مني لأنني تركته وحده في الصلاة أو لأنني لكتمته مرتين أو....ماذا لو لم يعد معجبًا؟ هذا لا يعني أنني قبيحة! الناس أذواق وربما لم أتوافق مع ذوقه؟ لكن لماذا؟ ألا يمكن لشاب بهي الطلّة وجذاب مثله أن يعجب بي؟ لحظة! ماذا دهاني؟ فليذهب إلى الجحيم! لست بحاجة لإعجابه الكاذب نحوي! يا له من حقير ووضيع لن أتعب عقلي بعد الآن في التفكير به أبدًا!

مرّ اليوم الدّراسي والغصة ما زالت ترافقني، وما زاد مرارتي أنه اعتذر عن حصة الحاسوب لطلبتي... إلى ماذا يرمي من تصرفه هذا؟ الآن بات يتجنب رؤيتي؟ أردت الحصول على إجابة شافية لكن

لم يكن في يدي حيلة لم أشأ أن ألفت الأنظار نحوي بسؤالي عنه أو أعطي انطباعاً خاطئاً وخصوصاً
لهناء.

في نهاية اليوم الدراسي نزلت إلى الطابق الأرضي لأغادر المدرسة فمررت بمختبر الحاسوب أولاً
لعلي أفهم سبب تغير سلوكه معي فلم أجده هناك. هممت بالمغادرة فوجدت مازن يغلق باب مكتب
المحاسبة، حينما رأني ابتسم لي، فاقتربت منه وسألته من باب الاطمئنان:
" كيف كان يومك؟ "

فأجاب:

" جيد... يوجد الكثير من الأعمال التي لم تكن منجزة بشكل كامل لكنني أحببت العمل هنا، بقي لي
إكمال إجراءات الاستقالة من عملي السابق لأستطيع توقيع العقد هنا..... هل تحبين أن أراف... "
ولم يتمّ طرح سؤاله فقد هاجمته بسؤالي أولاً:

" هل رأيت أستاذ الحاسوب؟ "

سكت هنية ثم أجاب بترؤ:

"أنا لا أعرف أستاذ الحاسوب لم أتعرف على أحد من المعلمين اليوم... "

ما الذي دهاني؟ ما شأن مازن لكي أسأله! قاطعته مرة أخرى بقولي:

" أنا آسفة... انس الموضوع.... أتمنى لك التوفيق "

تركته ومضيت مع علمي بأن ثمة كلاماً عالقاً في جوفه يريد البوح به لي، لكن صدقاً لم أكن في مزاج
جيد لأستمع لأحد؛ فذاك المتعجرف يزن أفسد علي يومي.

الفصل السادس

إيلينا

وجدت عرضًا على معلبات من الأسماك بسعر زهيد فتحمست لشرائها مع أن سارة نصحتني بعدم فعل ذلك لكنني آثرت أن أشتريها بسبب رخص ثمنها؛ مرت فترة ليست بالهينة منذ أن وضعنا في معدتنا مصدرًا من مصادر اللحم، لم أقل ذلك لسارة طبعًا حفاظًا على مشاعري من أن نخدش... فأصررت على شرائها مبررة بأنني أحب الأسماك وأن معدتي صلبة لا تتأثر بسهولة.

عدت إلى البيت سعيدة بما أحضرت لكن ما إن دخلت الشقة حتى شعرت بغمامة كثيفة تظلل البيت، اقتربت من ليان التي كانت جالسة وحدها على الأريكة الكبيرة ولاحظت مزاجها المعكر البادي على محياها وهي تنظر في الفراغ أمامها، ألقيت عليها التحية لكنها لم تجبني فجزرت قدمي نحو المطبخ حيث وجدت أمي واقفة عند النافذة، وما إن شعرت بوجودي حتى بدأت بمسح الدموع عن خديها فهرولت نحوها مسرعة وأمسكت بكفي يديها وأنا أنظر إلى وجهها بقلق وسألتها:

" ما الأمر؟ لماذا تبكين؟ ماذا حصل؟ "

- " لا شيء يا حبيبي... اذهبي وغيري ملابسك وجهزي نفسك للعشاء "

أصررت عليها أكثر فقلت:

" ليس قبل أن أفهم ما يجري "

نظرت أمي نحو الأرض ثم قالت بحرقة:

" إنها ليان... لا أدري ما بها! تشاجرت معي دون سبب... فقط قلت لها أتمنى يومًا ما أن تتبدل حالكما إلى حال أفضل.... فلم يكن منها إلا أنها ثارت هكذا وبدأت بالصراخ دون أن أفهم سبب تعكر مزاجها المفاجئ.. لم أعد أعرف كيف أتعامل معها... صدقًا نفذت طاقتي وأنا أعاملها بصبر

وأقول لنفسي باستمرار ستغير طباعها، ستنسى الماضي ستركز على شيء جديد في حياتها يلهمها
لمستقبل جديد لكن لا! هي تأبى التغيير"

ثم ابتعدت من أمام النافذة وجذبت كرسيًا من أمام الطاولة الصغيرة وجلست عليه لتريح قدميها
وأضافت:

"بت أعدد للعشرة قبل أن أتفوه أمامها بكلمة لئلا تثور فجأة لكنني تعبت إلى متى ستغرق نفسها
وتغرقنا معها بهمومها؟ أنا تعبت! أما يكفيني هما؟! عشت حياة صعبة لم تعشها امرأة مثلي.... لم
أذق للراحة طعمًا في حياتي...."

ثم استسلمت لبكاء شديد جعل قلبي يعتصر ألمًا على حالها، فخرجت من المطبخ أشتعل غيظًا من
ليان وعدت إليها لأجدها على حالها، عقدت يداي أمام صدري ونهرتها بقولي:
"ما الذي يجري معك؟ أيعجبك هذا الحال انظري إلى أُمي المسكينة كيف تبكي بحرقة بسببك كفاك
تعذيها لها يا ليان!"

رفعت عينيها صوبي مع ذلك لم تتحرك من مكانها وأجابتنني :

"هل تظنين أن قلبي مرتاح؟ هل تظنين أنني أرقص في داخلي عندما أتسبب بالأسى لهذا البيت؟"
ركعت على ركبتيّ أمامها ووضعت يديّ على فخذيها وقلت لها وعيناها تخاطبها بوجع:
"ليان أرجوك قولي لي ماذا يجري معك؟ ما الذي يجعلك مستاءة إلى هذا الحد؟ قولي لي ماذا أفعل
لأخلصك من شعورك بالألم!"

نظرت إلي بحدة دون أن ترمش وقالت:

"هل حقًا أنت مستعدة لتخليصي من هذا الشعور؟ هل أنت مستعدة للتضحية من أجلي؟"
هزرت رأسي موافقة وأنا على علم بأنني سأندم على ذلك، لكنني تعبت من مسار حياتنا ومن هذه
الحلقة التي نعيشها يوميًا. فقالت وهي ما تزال تنظر نحوي بحدة:
"إذا أقبلت بمخططي لتزويجك من جارنا مازن"

نهضت على قدمي وتنهدت بعمق كنت أعلم أنها ستقول ذلك، ثم جلست إلى جانبها ونظرت نحو أصابعي المعقودة في حجري جراء توترتي وبدأت أحدث نفسي؛ إذا كان زواجي من جارنا سيدخل السعادة إلى قلب ليان ويخرجها من كآبتها فأنا مستعدة للتضحية من أجلها. بدأت الدموع تتجمع في مقلتي عيني لكنني حاولت بشدة ألا أسمح لها بالخروج غطيت وجهي بكفي يدي وقلت لها بغصة:

" إن كان هذا ما تريدين فافعلي ما بوسعك وسأقبل بما تفعلين "

مررت ذراعها من خلفي وجذبتني بكف يدها إلى صدرها واحتضنتني قائلة:

" لن تندمي على قرارك أهدك! أنت أختي الغالية وسعادتك أولى أولوياتي "

لم تتناول أمي طعام العشاء وكذلك الأمر بالنسبة لليان، أما أنا فقد أنهكتني الجوع لأنني لم أكل شيئاً طيلة اليوم، فشهدت سكبت فنجان قهوتها على أوراقي مما اضطرني إلى إعادة طباعتها من جديد. ولولا سارة التي ساعدتني ما كنت لأنهي العمل في الوقت المحدد، ففاتتنا استراحة الغداء ولم نأكل شيئاً، لم نكن أصلاً في مزاج يسمح لنا بالأكل.

جلست إلى طاولة المطبخ بعد عدة محاولات مني لأستدعي أمي وليان لتشاركاني في العشاء، إلا أنها أبتا واتجهت كل منهما إلى فراشها للنوم بوقت باكر جداً على غير العادة حتى أن أمي فوتت على نفسها حلقة من مسلسلها.

جلست وحدي أتناول عشائي من معلبات السمك التي اشتريتها وبعد أن انتهيت قررت الخلود للنوم أنا أيضاً لربما حل علينا فجر جديد يغسل همومنا.

نهضت في صباح اليوم التالي أشعر بالغثيان وألم في معدتي، ربما السمك تم تخزينه بطريقة خاطئة أو بسبب قرب انتهاء صلاحيته أو لأنني أكلته وأنا في قمة الضيق، لم أستطع تحديد السبب. لاحظت أمي شحوب وجهي وهزالي فأصرت علي أن أبقى في البيت وأخذ إجازة مرضية لكنني رفضت؛ ما

زلت موظفة جديدة ولا أستطيع التغيّب الآن سأخلق انطباعاً سيئاً عني، تحاملت على نفسي
واتجهت إلى عملي لربما أتحسن خلال اليوم.

نظرت إليّ سارة بقلق وهي تجمع أغراضها وألحت عليّ بسؤالها:
" هل أنت متأكدة أنك بخير؟ خذي مغادرة وعودي إلى البيت وأنا سأتكفل بإنجاز عمالك، ولا
تقلقي بالنسبة للجولة التي كلفت بها مع منسق النسيج سأطلب من دانا أن ترافقه عوضاً عني، لن
تفرض صدقي هي تحب الخروج من الشركة فهي تعتبرها فرصة لتغيير جو العمل الرتيب"
هززت رأسي باعتراض، أنا أعلم أن سارة تحب الخروج في هذه الجولات كما أن مهند سيرافقهم فيها
ولا أريد حرمانها فرصة التواجد معه في ذات المكان بعيداً عن شهد لذا حاولت جاهدة أن أرسم
ابتسامة على ثغري وقلت:

" سارة أنا بخير حقاً. إذا عدت إلى البيت فسيزداد ألمي ، أما هنا بالكاد أشعر بالألم لأنه ثمة ما يلهيني
عنه"

وأشرت أمامي إلى المكتب حيث تجتمع الأوراق التي سأقوم بطباعة التقارير لها.
لم يكن أمام سارة الوقت لتجادلني أكثر فقد تلقت مكالمة من هاتف المكتب يحثها فيها المنسق
بالاستعجال لئلا يتأخروا في مهمتهم، لذا وجدت نفسها منصاعة للذهاب. ربّبت يدها على كتفي
ودعت لي بالشفاء قبل رحيلها.

وهكذا بقيت وحدي أمام المكتب أعتصر الماء، ومع كل ثانية تمر بدأ يزداد أكثر فأكثر حتى شعرت
بنفسي أتصعب عرقاً، تمنيت لو أن المكتب خال من الموظفين الذكور لخلعت الحجاب لأخفف من
الضغط الذي كاد يفجرني. ويبدو أن صراعي مع الألم كان واضحاً مما جعل دانا تقترب مني
فسألتنني بقلق:

" إيلينا! هل أنت بخير؟ هل تحتاجين إلى مساعدة؟"

أومأت لها برأسي دون أن أتكلم محاولة فرض ابتسامة على وجهي، فوضعت يدها على كتفي وسألت من جديد:

" هل أنت متأكدة أنك على ما يرام؟ "

حاولت أن أتنفس ببطء لعل الألم يخف قليلا، كنت متأكدة من أنني إذا تكلمت فربما أتقيأ. أصرت دانا مرة أخرى فقالت:

" إيلينا لا تبدين لي بصحة جيدة قومي أذهب بك إلى المستوصف القريب من الشركة "

لم أستطع إجابتها بأي كلمة شعرت بحرقه شديدة في رأس معدتي وكأنني سأنفجر فوجدت نفسي أهب بقوة لأجري نحو دورة المياه وما إن استقررت هناك حتى بدأت بالتقيؤ دون انقطاع، لم أتناول شيئاً منذ الصبح فكان كل ما خرج من معدتي سوائل صفراء اللون تترك على أثرها مراراً في الفم، فأثار اشمئزازي. شعرت وكأن معدتي تتمزق والدنيا تدور من حولي.. حاولت الوقوف لكنني انزلقت ووقعت أرضاً فأخذت أبكي من ألمي وقلة حيلتي، وقتها دخلت بعض الزميلات إلى دورة المياه ليجدنني على هذا الحال الذي يرثى له، فأشفقن على حالي وساعدنني بالوصول إلى مكثبي والجلوس على الكرسي.

كنت أشعر بضعف عام والإحراج مما حصل معي، فعبأتي اتسخت بشيء من القياء ومظهري العام لم يكن مرضياً. ثم حصل ما لم أكن أرغب به؛ اقتربت شهد من مكثبي وصرفت الفتيات نحو أعمالهن، جلست في مقعد سارة ونظرت إلي بجديّة وقالت:

" إيلينا اطلبي مغادرة وعودي إلى بيتك "

فرفضت قائلة:

" لا، لا أستطيع لم أنهى طباعة التقرير بعد. "

فقالت بإصرار:

" إذا قام المدير فجأة بجولة تفتيشية وراك على هذا الحال فسوبخك ويتهمك بأنك ستسبب في

تعطيل أعمال الشركة ونقل العدوى إلى زملائك. "

نظرت نحوها بنظرة متضايقة غير مصدقة، كيف سأنقل العدوى وأنا مصابة بتسمم غذائي! ويبدو أن شهد قرأت أفكارى فأضافت:

" لن يعرف المدير سبب ألمك وصدقيني هو ليس سمحًا في التعامل، إنه قاسٍ وبارد كالثلج! وإذا أصررت على طباعة التقرير وأنت على هذا الحال ستخطئين في طباعته وتناوين التويخ وربما خصمًا من الراتب أو الطرد! المدير لا يسامح الأخطاء مهما كانت صغيرة وإلا ماذا تظنين أنه حصل للفتاة التي كانت تعمل قبلك؟ طردها بسبب خطأ تافه."

ثم أضافت بتأن مطمئنة لي:

" لا تقلقي بالنسبة للتقرير أنا سأحرص على طباعته بنفسى."

وجهت إليها نظرة ريبة فقالت لإزالة الشكوك من حولها:

" لا تعتبرى طباعة التقرير مهمة صعبة علي وعلى كل حال فأنا أنهيت أعمالي لهذا اليوم وسأطلب أيضًا من دانا أن تساعدني لإنهائه في الوقت المناسب"

لم أستطع منع نفسي من سؤالها:

" لم قد تفعلين لي ذلك؟ ظننتك لا تستلطفينى"

ابتسمت فظهرت أسنانها البيضاء وأجابت:

" سأكون صريحة معك أنا حقًا لا أستلطفك، لكن لدي مشاعر وأحاسيس فأنا في النهاية بشر أيضًا، نصيحتي لك اغتنمي هذه الفرصة فأنا لا أكون طيبة القلب هكذا دائمًا، هيا قومي وغادري قبل أن أسحب عرضي لك"

ابتسمت لها بإخلاص ووسط ألمي وأيقنت تمامًا أن خلف هذه الشخصية الجليدية قلبًا طيبًا. شكرتها كثيرًا وسلمتها الأوراق التي كنت أعمل عليها واتجهت نحو مكتب رئيس القسم لأطلب مغادرة بداعي المرض، وقبل انصرافي ألقى نظرة أخيرة نحو المكتب لأجد شهد جالسة أمام مكثبي مع دانا تتفحصان الأوراق وتقومان بطباعة التقارير. وقتها شعرت بإحساس مختلف تجاه شهد وعلمت بأن ظني الحسن تجاه البشر لا يخطئ؛ فأنا كنت دائمًا مصرة بأن في معدن كل شخص بذرة طيبة ودائمًا ما

كنت أحاول إقناع سارة بذلك لكنها كانت تأبى أن تصدق أن شهد تحمل في قلبها نوايا طيبة تجاه أحد فهي في نظرها كتلة من الشر، ونما لدي الأمل بتكوين صداقة معها ذات يوم.

ليان

دخلت المدرسة متأخرة ربع ساعة عن مناويتي الصباحية، ولم أتفاجأ برؤية المساعدة تقف أمام الباب الرئيسي للمدرسة وهي تشزرنى بعينها غير راضية عن تأخري ثم قالت موجهة الكلام إلي: " هذا سلوك غير مقبول يا ليان أبداً! خففنا عليكم بالمناوبة فبدلاً من أن تكون يومية مثل بقية المدارس ها قد وزعنا لكم جدولاً لأيام المناوبة وأنت الوحيدة التي لا تلتزم!"

عقدت جبيني وأجبتها متهكمة بينما تابعت سيرى:

" حقاً؟! إذاً اعفني منها وهكذا تريجون أنفسكم من الانشغال بي وبتأخيري الدائم "

لم يعجبها ما قلته فبدأت بالتهديد بالاستجابات وتذكيري بأخلاقيات المهنة، لكنني لم أعبأ بما كانت تهذر به فلدي هموم أخرى تكفيني وكلامها هذا لا يعنيني ما دمت مخلصه مع طلبتي ولا أهملمهم ومطلعة بكل شؤونهم وحريصة عليهم ولا ترد المدرسة أي شكواي علي، لذا جعلتها هي وعباراتها المسمومة آخر همي.

لمحت مازن يقف خارج مكتبه، لوّح لي وعلى محياه ابتسامة محرّجة فلم أتمالك نفسي فقلت له وأنا أخفي ضحكتي:

" لا تبالي بالموقف الذي حصل الآن؛ فهي وأنا دائماً هكذا كالشحم والنار، الكل اعتاد علينا "

هز رأسه وأتبع ابتسامته بضحكة صغيرة لطيفة ودخل مكتبه. في هذه اللحظة لمحت يزن واقفاً على باب غرفة الحاسوب وينظر باتجاهي واتجاه مازن بنظرة مقبلة، ثم ولّاني ظهره ومضى، فشعرت بسخط عليه وحاولت جاهدة تمالك أعصابي، فهرعت نحو الساحة لأبدأ يومي برؤية هناء مع فنجان القهوة الذي أعدته لي سابقاً، لعلّي أزيح صورته السمجة من مخيلتي، وكعادتها استقبلتني بوجهها الطفولي وابتسامتها المشرقة، فابتسمت لها تلقائياً متناسية يزن ومواقفه المريرة.

نزلت في وقت فراغي إلى مختبر الحاسوب لأقوم بطباعة ورقة عمل لطلبتني، حينما وصلت قمت أولاً بالتأكد من عدم تواجد أحد - وأعني بذلك يزن - في داخل الغرفة، وتنفست الصعداء عندما لم أجده هناك، حاولت الإسراع في طباعة الورقة لئلا يأتي وأتصادم معه، فبعد مواقفه الأخيرة معي لم أعد أعرف كيف أعامله أو أتصرف بوجوده.

سحبت الورقة من آلة الطباعة على عجل دون أن أدققها كما اعتدت أن أفعل، ونهضت عن الكرسي مسرعة لأخرج من هذا المكان، كان ذلك قبل أن أشهق تلك الشهقة العنيفة التي تعبر عن مفاجأتي لرؤيته واقفاً عند الباب، متكئاً عليه بكتفه وعاقدًا يديه أمام صدره، منذ متى وهو واقف مكانه هناك؟ تسمرت في مكاني من شدة ذهولي ثم جبت المكان بعيني أبحث عن طريق للخروج. ثم فعل ما لم أتوقعه، تنحى قليلاً عن الباب ثم دفعه بقدمه فأغلقه، وضع يديه في جيب بنطاله ثم خطى بضع خطوات بطيئة باتجاهي، ومع كل خطوة كان يخطوها كان قلبي يخفق بشدة، شعرت بالدم يتجمد في عروقي ولأول مرة في حياتي أشعر أنني محاصرة وقليلة حيلة، حاولت تحريك ساقي لأبتعد عن طريقه لكنهما خذلاني ولم أستطع التحرك حتى أصبح قريباً مني، فازدردت ربيقي وتمكنت أخيراً من تحريك رجلي فخطوت للخلف خطوة، فتقدم هو بدوره خطوة للأمام تحركت ثانية للوراء فتقدم للأمام أكثر.

بقيت أخطو للخلف حتى اصطدمت بالحائط ولم يعد لدي ملجأ للهروب، نظرت أمامي فإذا به واقف على مقربة مني لا يفصله عني سوى الهواء الذي أحسست بثقله بيننا، ثم أخرج يده اليمنى من جيبه ومدّها لتطبق على الحائط فحاولت التحرك نحو اليسار لكنه باغتنني بمد يده الأخرى لأصبح محاصرة في المنتصف فأصبحت كالجر والتائه بين يديه.

قرب جسده أكثر مني فشعرت بحرارة أنفاسه تلمح وجهي، ازدادت ضربات قلبي عنفاً حتى شعرت به يكاد يمزق صدري، حاولت تمالك نفسي وتمكنت أخيراً من لفظ بضع كلمات تائهة: " يزن.... أعني أستاذ يزن ... لو سمحت... "

فتنهذ بعمق فلفحت أنفاسه التي كانت برائحة النعناع ما تبقى من إدراك لدي. ثم عَضَّ على شفته
وقال:

" أريدك! "

شعرت بفراشات تتخبط في أسفل معدتي عقب ما قال فقلت بصوت متحشرج:
" عفواً؟! "

ابتسم بينما لمعت عيناه الزرقاوان بشدة، كان مركزاً في نظراته في عيني ثم دنا بهما نحو شفتي، وبحركة
لا إرادية قمت بعض شفتي السفلى من ارتباكي، فابتلع ريقه بقوة وقال مؤثباً:
" لا تعضي شفتك! ذبحتيني "

أيقظت كلماته حفيظتي فوضعت يديّ على صدره وحاولت إبعاده عني وقلت متصنعة الغضب:
" ابتعد عني عيب عليك! ... نحن في حرم مدرسة "

لكن يبدو أن محاولتي في إبعاده زادتته إصراراً، أبعده عن الحائط ليلا مس شفتي بإصبعه السبابة
ليسكتني قائلاً بصوت رخيم:
" شش.. اسمعي .. أنا هائم بك! "

شعرت بأن خدّاي يتوهجان بشدة ثم نظر في عينيّ وتابع:
" من أول يوم رأيتك فيه عرفت أنك مميزة لذلك أردت بك بشدة، لكن بعد رؤيتي لك في الصالة
الرياضية... "

سكت لبرهة فشعرت بنبضات قلبي تتخبط أكثر حينما تذكرت ذلك الموقف حيث كان ينظر إليّ بينما
كنت متكشفة الرأس ثم أكمل:

" أثرت بي كثيراً فلم أعد أستطيع أن أنظر إليك دون أن..... أشعر برغبتني الشديدة بك "

سألته بصوت مختنق:

" ماذا تقصد؟ "

فابتسم بيأس وقال:

" بالله عليك! أنت تفهمين قصدي! لاحظي هنا أنني أحاول انتقاء كلماتي حتى... لا أأخذش
حياءك أكثر... اسمعي... من الآخر.. تزوجيني!"

دار بي الكون دورة خطفت ذهني عن الواقع لوهلة وأنا أستجمع ما تبقى لي من فهم لأستوعب
كلمته الأخيرة فغرت فمي مشدوهة، حاولت أن أتكلم لكنني تهت في بحر عينيه الزرقاوين وهو
يتأمل حيرتي وكأنها ألقى علي تعويذة خطفت أنفاسي.

ويده التي حررها عن الحائط أمسك بيدي المتراصتين على صدره وقال:

" هل تشعرين بنبضات قلبي كيف تخفق بشدة؟ قلبي لا يخفق هكذا إلا عندما أراك."

أغلقت عيني وقلت له متوسلة:

" أرجوك كفي!"

لم يعد بوسع قلبي احتمال ما يحدث الآن أشعر به يكاد ينفجر. رفع يديّ وأمسك بهما بكلتا يديه
وقربهما من شفتيه وقبل أطراف أصابعي، شعرت بشيء يذوب بداخلي وخدران يسير في عروقي، ثم
تركهما وابتعد خطوة للوراء، وكأنها برودة اجتاحت جسدي عقب ابتعاده عني فشعرت أنني
سأهوي على الأرض فأسندت جسدي على الحائط.

تحرك بخفة نحو الباب ثم التفت إلي بنظرة جديّة بعيداً عن وجهه الساخر، وقال :

" سواء صدقتني أم لم تصدقي أنا وقعت في غرامك يا ليان!"

لم أجهه كنت مصدومة جدًّا ولم أجد كلمات أرد بها عليه، ثم فتح الباب وغادر وتركني وحدي
هائمة.. تائهة.. في النهاية لم أقوَ على الوقوف أكثر فهويت على الأرض جالسة وسط صدى كلماته
التي صنعت العجائب بي.

ماذا يحصل لي؟ ما الذي صنعه بعقلي وقلبي؟ هل تأثرت به؟ هل يعقل أنني بدأت أهييم به؟ لا! بماذا
أهذي؟ مستحيل! رفعت رأسي للأعلى لألتقط أنفاسي فأحسست بدمعة تخونني لتسقط من عيني
وبدأت شفطاي ترتجفان... فقط أريد أن أفهم ماذا يحصل لي؟

الفصل السابع

لا أعلم كيف أكملت يومي وأنجزت نتاجاتي مع طلبتي، أرغمت نفسي على تجاهل ما حصل وركزت في دروسي ومع طلبتي، وعند نهاية الدوام رافقت زميلاتي مع هناء على السلام نتحاور في كيفية شرح إحدى التناجات لتبادل الخبرات، طبعاً رافقها سرد بعض المواقف الطريفة التي تحصل أحياناً في الغرفة الصفية.

وصلنا إلى نهاية السلام ووقفنا في البهو في الطابق الأرضي، وعلى مقربة من باب المبنى الرئيسي كان يقف يزن يتسامر مع مجموعة من المعلمين، فشردت بعيداً عن زميلاتي وأنا أراقبه وهو يتكلم ويضحك، ويبعد خصلات شعره عن عينيه. ثم لوح لهم مودعاً وقبل أن يغادر التفت ناحيتي والتقت عيناه بعيني، فشعرت بخديّ يجمّران خجلاً، فما كان منه إلا أنه غمزني بعينه وانصرف. ازدرمت ريقِي وجبت بعينيّ في الطابق لأتأكد من أن أحداً لم ينتبه إلى تصرفه الجريء فوق بصري على مازن يقف بالقرب من باب مكتبه وينظر إلي بنظرة مبهمة. دعوت الله في سري ألا يكون قد رأني وأنا أراقب يزن، أشحت وجهي عنه وحاولت إخفاء ارتباكي. شددت هناء من حقيبتها وقلت لها مذكرة إياها لأحاول التملص من هنا:

"يكفي حديثاً الآن يجب أن نصل البنك قبل موعد إغلاقه لنستلم مرتبيننا، لدي التزامات عليّ دفعها، أم أنك لا تريدين المجيء معي؟"

فأجابت بكل عنفوان على عاداتها:

"بلى بلى طبعاً سآتي علي دفع الجمعية لزوجتي أخي وإلا فإنها ستقلب الدنيا فوق رأسي!"

استلمت مرتبي قبل موعد إغلاق البنك، واتجهت عائدة إلى البيت وقررت في نفسي بما أنني أحمل راتبي معي فلم لا أضع جزءاً من دين الإيجار لأبي زهير قبل الوصول إلى البيت؟ وجدته في بقالة العم نضال يحتمي القهوة عنده ففاجأني برده عندما قال:

" ما بك يا بنت؟! إيجاركم مدفوع بالكامل بالإضافة إلى الشهر السابق وشهرين قادمين! أم نسيت الشاب الذي تكفل بالدفع نيابة عنكم؟"

فتحت فمي ببلاهة وقابلته بسؤاله:

" أي شاب؟"

نظر إلي وأجاب بطريقة تنم عن نفاد صبره:

" ذاك الشاب الثري من معارف شقيقتك، أم هل ... نسييت إخباركن بذلك؟"

طرح سؤاله وهو مستمتع بنظرة البلاهة البادية على وجهي، فاستدركت نفسي وأجبت حتى لا يستمتع بتناقل كلام لا داعي له:

" بلى تذكرت، يا إلهي كيف نسيت؟ مشاغل الدنيا تنسينا.. حقا علينا ياعم!"

قلت آخر عبارة بتهمك واضح وغادرت قبل أن أفتعل معه مشكلة، فقد كنت بين قاب قوسين أو أدنى من أن ألكمه على أنفه الأحمر المفلطح.

مشيت نحو البيت وأنا أحدث نفسي كالمجنونة، من هو هذا الشاب الذي دفع عنا الإيجار وما صلته بإيلينا؟ يا إلهي هل اقترفت إيلينا ذنباً ما؟ مستحيل أنا أعرفها لو عرّض عليها مال الدنيا فهي لن تخون أمانة ربها وأهلها. من يكون هذا الشاب؟ جال بخاطري كل الشبان الذين أعرفهم في حياتي حتى يزن نفسه، وراودتني نفسي أن أشك أنها على علاقة خفية مع بهاء لكنني عدلت عن ذلك واستغفرت ربي فقد تذكرت أن بهاء ليس ثرياً.. ثم تذكرت صديق جارنا مازن ذاك المحامي الذي تلاقت عيناه مع إيلينا ونظراتها تجاهه، هل يوجد بعدُ آخر للقصة التي روتها إيلينا عنه لم تطلعنا عليها؟ لماذا يتكبد عناء دفع الإيجار عنا؟ إلا إذا أخذ من إيلينا شيئاً في المقابل، عند هذه الفكرة بدأ البركان الذي في داخلي يثور، نعم أنا غاضبة، لأنه لا يوجد سبب لأن تخفي إيلينا عنا شيئاً مهماً كهذا إن لم تكن اقترفت ذنباً. أسرع الخطى نحو البيت وفي رأسي هدف واحد علي أن أفهم الموضوع منها بكل تفاصيله واليوم!

إيلينا

عدت إلى البيت في سيارة أجرة، كنت في حالة مزرية ولم أقوى على ركوب المواصلات العامة، وتمنيت ألا أمرض بعد هذا فقد كلفني الأجرة مصروف الأسبوع كاملاً. عندما ولجت إلى داخل الشقة استقبلتني أمي وقد علا القلق وجهها الحزين، واطمأنت علي بأسئلتها عن صحتي وما حصل معي، ثم تعلقت بمرفقي بلطف وقادتني إلى فراشي في الغرفة، كانت ليان جالسة إلى مكتبها تعد دروسها وعندما رأته انتفضت بسرعة وأمسكت بي من يدي الأخرى وساعدت أمي في خلع عباءتي المتسخة بالقيء وحجاب رأسي. سألتني عما حصل معي فذكرت أنني أشك بإصابتي بتسمم غذائي، فاتجهت نحو المطبخ وهي تنوي رمي ما تبقى من معلبات الأسماك التي اشتريتها ونهرتني من بعيد وأنبتني ونبهت علي ألا أشتري شيئاً من لوازم البيت وأن هذه وظيفتها، أما أمي فقالت لي:

" سأذهب لأهرس لك ثومًا وأضعه في اللبن لربما تحسنت، وسأغسل عباءتك لئلا تجف البقع أكثر فيستحيل علي إزالتها، انتظريني ثواني يا صغيرتي وأعود إليك "

أحضرت أختي دواءً من صيدلية قريبة، شربت اللبن وحبّة دواء ونمت. لا أدري كم ساعة نمتها لكنني عندما استيقظت وجدت الشمس قد غربت وشعرت بالضيق لتفويت صلاتي، قمت واغتسلت لأزيل رائحة القيء العالقة بي وأديت ما فاتني من فروض.

جاءت أمي وليان إلى الغرفة للاطمئنان علي. ارتحت ملامح وجهيهما لدى رؤيتي أحسن حالا، وأكدت علي أمي أن أريح معدتي ليومين لئلا تهيج ثانية، فأومأت موافقة. ثم اقتربت ليان وجلست إلى جانبي وقالت تحاطبني:

" استلمت مرتبي اليوم "

قلت متعجبة وأنا أنظر نحوها:

" حقًا؟ أليس ذلك مبكرًا قليلًا؟ أعني بقي ثلاثة أيام على انتهاء الشهر. "

هزت ليان كتفيها كتعبير عن عدم معرفتها بالسبب وعدم اكترائها في آن، ثم أضافت:
" كنت سأطلب منك أن تذهبي لدفع الإيجار لصاحب البيت لكن بما أنك متعبة سأذهب أنا."
لدى سماعي عبارتها نهضتُ واقفة، خفق قلبي بشدة وتسارعت أنفاسي من قرارها المفاجئ، لا
يمكن أن أسمح لها بالذهاب لدفع الإيجار! ستعلم وقتها بالسر الذي أخفيته عنهما.
هرولت متجاوزة كيانها الواقف أمامي وسبقتها إلى باب الغرفة، كنت أشعر بالوهن لكنني تحاملت
على نفسي وقلت:

" لقد تحسنت لا تقلقي، سأذهب أنا لا ينقصنا أن تتشاجري معه الآن! أو انتظري إلى الغد وسأمر
عليه قبل ذهابي إلى العمل وأعطيه المال! لما العجلة؟"
تقدمت نحوي وحاولت إبعادي عن مخرج الغرفة قائلة:

" لا! ستجلسين هنا مرتاحة وأذهب بنفسي هذه المرة، ولا تقلقي لن أتشاجر معه إكراماً لك، ومهما
هذر وتوعد وصرخ فلن أناقشه، هذا وعد."

اعتلى الرعب ملامح وجهي فلحقت بها إلى غرفة الجلوس وقبل أن تصل إلى الباب أمسكت بيدها
من الخلف، فالتفتت نحوي وقلت متوسلة:

" أرجوك دعيني أذهب أنا أرجوك!"

فردت علي بلهجة غريبة:

" ما بك ألا تثقين بي؟ وعدتك ألا أتشاجر معه ووعد الحردين!"

أمسكت بي أمي وهدأتني مطمئنة لي بأن أثق بليان هذه المرة وإذا أخلفت بوعدا ستجبرها على
الاعتذار منه أمام كل سكان المبنى، لكن ليس هذا سبب خوفي، وصلت ليان إلى الباب ووضعت
يدها على المقبض وقالت دون أن تستدير نحونا:

" إلا إذا...."

ثم أدارت رأسها ونظرت نحوي بحدة وأردفت:

" هل ثمة ما تريدين إخباري به؟..... هل يجب أن أعرف شيئاً قبل ذهابي يا إيلينا؟"

شحب وجهي وهزل جسدي أكثر، تعجبت أُمي من كلام لِيان فقالت متسائلة:
" ماذا تقصدين يا ابنتي؟ هل من خطب ما؟ "

اقتربت لِيان مني وأمسكت بأصابعي المعقودة أمامي لتفكها وقالت:
" توقفي عن هذه الحركة فهي تفضحك عندما تقترفين ذنبًا. "

لم أجبها بشيء شعرت بأنني على وشك التقيؤ مجددًا لكن هذه المرة ليس مرضًا وإنما خوفًا. نظرت إلى
لِيان مقطبة الجبين وقالت:

" الآن بت متأكدة من كلام أبي زهير. "

تدخلت أُمي وبدأت بطرح أسئلتها واحدًا تلو الآخر:

" أي كلام؟ متى ذهبت إلى أبي زهير؟ ماذا قال لك؟ ما الأمر؟ ماذا يحصل في هذا البيت لماذا لا
تجيب إحداكما؟! "

وليتها ظهري وتسمرت مكاني، سارت لِيان من جانبي وتعمدت أن تدفعني بكتفها ثم جلست على
الأريكة الكبيرة وأُمي تراقبها بنفاد صبر، رفعت قدمًا فوق الأخرى ثم قالت مجيبة لاستفسارات
أُمي وهي تنظر في عيني:

" ذهبت لدفع مبلغ من المال لصاحب البيت وأنا عائدة من المدرسة فاحزري بما أجابني؟ "

لطمت أُمي صدرها وهي تحاول تمالك نفسها متسائلة:

" ماذا؟ قولي! نشفت دمي! "

نهضت عن الأريكة واتجهت نحوي وأجابت:

" قال لي أن أحد الشبان الأثرياء من معارف إيلينا تكفل بدفع الإيجار عنا مع زيادة ثلاثة شهور بدءًا
من بداية هذا الشهر! "

ازداد الشحوب على وجه أُمي وخشيت عليها من أن يصيبها مكروه وسألتهني بإصرار:

" إيلينا هل هذا صحيح؟ إيلينا أجيبيني! "

لم أجبها.. لم أعرف ماذا أقول أو كيف أتصرف، شعرت بأن جسدي يرتجف، فهاجمتني لِيان بسؤالها:

" من يكون هذا الشخص يا إيلينا؟ اعترفي! "

جفّ حلقي ولم أستطع الرد فاستطردت:

" دعيني أحزر هل هو ذاك المحامي صديق جارنا؟ "

رفعت بصري مصدومة من استنتاجها، فهاجمتني ثانية بكلامها وكأنها قرأت أفكاري:

" منذ متى تعرفت عليه؟ ما الذي يدور بينكما؟ "

بدأت الدموع تتجمع في مقلتي عيني، فاغتاظت ليان من عدم إعطائها إجابة من أي نوع، فجدبتني من شعري وبدأت الصراخ في وجهي بينما أمي تحاول تخليصي من قبضتها، وأمطرتني باتهامات باطلة:

" ما الذي يجعل شابًا لا تعرفينه يدفع عنك مبلغًا كبيرًا كهذا؟ هل تقيمين معه علاقات محرمة مقابل المال؟! "

فخرج صوتي ضعيفًا وسط دموعي وأنا أحاول التملص من بين يديها:

" لا لا لا! لم أقترف ذنبا أقسم على ذلك! "

صرخت أمي باكية:

" حبًا بالله يا ليان! اتركيها! دعينا نسمع منها! "

دفعتني بقوة بين أحضان أمي ثم زجرت بغضب:

" تفضلي، قولي ما عندك! "

بدأت بمسح دموعي وأنا في أحضان أمي أبكي بحرقة وهي تمسح على ظهري بحنو، كان لا بد من سرد كل شيء فلا فائدة من إخفاء الموضوع بعد الآن، حاولت أن أتكلم بصوت مفهوم وعبارات واضحة حتى لا أغضبها أكثر:

" وجدت أبا زهير.... عند العم نضال... في البقالة.. عندما رأى المبلغ لا يسد ديننا بدأ.... بدأ بالصراخ في وجهي.... ونعتي بصفات بشعة وهددني بالمبيت في الشارع إن لم نقم بسده كامل

حقه..... ثم تدخل السيد أمجد في الموضوع ودفع له المال..... لكنني ... لكنني حاولت الرفض فقال لي أن اعتبره دينًا له ومتى ما أصبح معي مال أردته له"

صرخت ليان بي غير مصدقة:

" هراء! أنت كاذبة! هل تتوقعين مني تصديق هذه القصة؟ وكيف ستدفعين له المال أصلاً؟ هل

أعطاك تاريخًا معينًا أو عنوان بيته أو عمله؟ وعلى ماذا سيحصل كضمان لسد دينه؟"

أجبتها بصوت ضعيف خائف:

" لا لم يعطني أي تفاصيل عنه سوى..... سوى بطاقة تعريفية له."

جحظت عينها غيظًا ومدت يدها أمامي تطلب البطاقة قائلة:

" هاتيها! أريد رؤيتها بعيني!"

فما كان مني إلا أن أذعنت لطلبها، لم يكن لدي خيار آخر. اتجهت إلى حقيقتي الموضوعية إلى جانب فراشي كما تركتها قبل أن أغفو، وأخرجت البطاقة من محفظتي. عدت إليها وهي تراقبني كالصقر الذي يتحين الفرصة للانقضاض على فريسته، سحبت البطاقة من يدي بقوة أجفلتني واتجهت نحو المطبخ فلاحقنا بها.

ظننت أنها سترمي بها في سلة المهملات لكنها فاجأتني حين بدأت تدون الرقم على هاتفها المحمول، ثم وضعت الهاتف على أذنها فأيقنت بأنها تتصل به، أردت ردها لكن أمني منعتني، نظرت إليها فرأيت في عينيها لومًا وتأنيبًا، فأذعنت بالسكوت.

فجأة سمعت صوت ليان تتحدث عبر الهاتف فسرقت من قلبي خفقة دوى لها أرجاء جسدي:

" مرحبًا، هل أنت السيد أمجد كامل؟"

سألته وهي تنظر في البطاقة أمامها على الطاولة ثم نظرت نحوي بسخط وقالت:

" معك أخت إيلينا الكبرى..... لا إنها بخير..... هل يمكنك أن تلتقي بنا في بيتنا؟ الآن....."

نعم الآن..... ستعرف حالما تصل... حسنا سنكون في انتظارك."

أقفلت الخط ثم وضعت هاتفها على الطاولة وهمت بمغادرة المطبخ موجهة كلامها إلينا فقالت:

" البساءات وغطاء للرأس مسافة طريق ويكون عندنا "

ثم دفعتني بكتفها وسبقتني إلى الغرفة لترتدي حجابها. نظرت إلى أمي بمرارة لكنها لم تقل شيئاً
وسحبت نفسها هي أيضاً إلى غرفتها، بينما وقفت حائرة عاجزة لا أعلم ما قد يحصل، فرفعت رأسي
إلى السماء ودعوت ربي أن يفرجها من حيث لا أحسب.

أحسست بالدقائق تمر كالساعات وأنا في انتظار ما قد يحصل إذا خطى السيد أجد بقدمه عتبة البيت.
كنت جالسة على الأريكة في الغرفة رأسي مطأطأ إلى الأسفل خوفاً من لقاء نظرات ليان الساخطة،
ثم رن هاتف ليان فدب في قلبي الرعب، أجابت على المكالمة وتحدثت باختصار:
" الطابق الثالث.. فوق شقة أم مازن "

وما هي إلا لحظات وسمعنا الجرس يُقرع، نهضت لأجيب لكن ليان حدتني بنظرة مهددة،
وأمرتني بالجلوس ففعلت، واتجهت هي صوب الباب، فتحتته وإذا به يقف هناك خلفه، اشتعل قلبي
وخفق بشدة لدى رؤيته. فتحت له ليان المجال ليمر فدخل وعيناه على الأرض، تفقدت ليان الممر
لتأكد من عدم ملاحظة أحد لدخوله ثم أغلقت الباب.

سبقت السيد أجد إلى حيث نحن وأشارت إليه ليجلس على الأريكة الكبيرة مقابلي، كنت واقفة
احتراماً له أنظر نحو الأسفل فرفعت بصري والتقت نظراتنا، فتنحنحت أختي بصوت مرتفع
فصوب نظره نحو الأرض وجلس على الأريكة.

أشارت ليان إلى أمي وقالت:

" هذه أمي صاحبة البيت "

هز رأسه بأدب وألقى التحية عليها، فردت له أمي التحية باستحياء.

جلست ليان على الأريكة الصغيرة التي أجلس عليها عادة إلى جانب الأريكة التي استراح عليها، ثم
سألته من باب الأدب:

" شاي أم قهوة؟ "

انحنى بظهره إلى الأمام ووضع مرفقي يديه على فخذيته وشبك أصابع يديه ثم نظر باتجاه ليان وأجابها بسؤاله:

"لما لا نبدأ بالموضوع الذي أحضرتني من أجله؟"

فأومأت إلي ليان بأن أنفض وقالت لي:

"إيلينا أعدي لضيفنا فنجان قهوة"

نهضت بسرعة نحو المطبخ ثم توقفت في منتصف الطريق والتفت وسألت:

"كيف يفضل ضيفنا السكر؟"

فأجاب على مضض:

"لا بأس لا تغلبي نفسك ليس لي ذوق معين في القهوة"

فمضيت إلى المطبخ أصوغ ما قال في عقلي، ثم سمعت ليان تقول له:

"قيل لي أنك قمت بدفع مبلغ من المال عنا لصاحب العقار، هل هذا صحيح؟"

لم أكن أستطيع رؤية ما يدور بينهما لكنني حاولت استراق السمع ما أمكن فسمعته يجيبها:

"أجل قمت بفعل ذلك. هل ... حصل شيء ما؟"

- "لا، أنا فقط أريد أن أفهم لماذا فعلت ذلك؟"

- "لماذا؟ ... لا أعرف بما أجيبك؟ رأيت ذاك الرجل يصرخ في وجه أختك ويخرجها أمام

الناس ويهدد بطردها من البيت فلم يهن لي أن أتركها هكذا بلا تقديم مساعدة."

- "لكن لماذا؟ على ماذا ستحصل في المقابل؟"

هل حقاً سألته هذا السؤال، لا يا ليان لا! رد عليها سؤالها قائلاً:

"على ماذا سأحصل؟"

شعرت في نبرته شيئاً من الانزعاج ثم حاولت أن أسمع إجابته قدر الإمكان:

- "هل يُسأل أهل الخير لم يقدمون المساعدة؟"

- " لا أقصد هذا، لكن أنت تعرف أن هذا المبلغ ليس بالمبلغ اليسير لدفعه، ماذا لو لم تتمكن من إرجاع هذا الدين "

- " أعلم ذلك، اسمعي أختك أصرت على أن يكون دينًا بالنسبة لي إذا لم تتمكنوا من دفعه فأنا أسامحكم. "

- " هكذا؟ لله؟ المبلغ كبير! "

لطمت خدي في خجل من إجابات ليان المتهورة، هل هكذا تخاطب شخصًا قدم المساعدة دون مقابل؟ ثم سمعته يجيب بإجابة أجمت لسانها:

- " أنستي... هذا المال ليس لي بل هو أمانة من ربي لأستعمله في الخير ومساعدة الآخرين، واعدريني على هذا الكلام لكن هل يوحى مظهري بأن هذا المبلغ قد يكلفني خسائر مادية؟! "

لو كنت واقفة أمامها لأظهرت الشماتة في وجهها، انتهيت من إعداد القهوة واتجهت إلى غرفة الجلوس وقدمت القهوة له وشعرت به يتفحص ملامحي لكنني لم أجرؤ على رفع عيني أمامه، ثم قمت بتقديم القهوة لأمي وأختي وجلست إلى جانب أمي.

وكان ليان لم تستسلم لكلامه فقالت جملة مبهمه توصل بها رسالة قذرة إليه:

" عادة الشبان يقدمون مألًا للفتيات كغطاء على أشياء أخرى. "

فتحت أمي عينيها بذهول وسط جراءة ليان في الكلام وشزرتها بعينيها وهتفت بصوت منخفض باسمها، فتناول السيد أجد فنجانه بهدوء وارتشف منه رشفة، ثم نظر نحو أمي وقال:

" الآنسة إيلينا فتاة مهذبة وأنا أشيد بحسن أخلاقها، ربيتها أحسن تربية، فنعم الأم أنت. "

احمرت خدود أمي لإطرائه على تربيتي، أما أنا فحاولت إخفاء ابتسامتي التي كانت تتوسل أن ترتسم على شفتي. ثم نظر نحو ليان وقال:

" أختك مهذبة وشريفة لم ألتق يومًا في حياتي فتاة في مثل حيائها وأدبها، فلا داعي لخدش صورة أختك فهي لم تقترف ذنبًا قط، ولهذا السبب..... "

عدل من جلسته ونظر في عيني مبتسماً وقال موجهاً الكلام لأمي:

" فإنني أرغب يا سيدتي بطلب الزواج من ابنتك "

وقع طلبه كالصاعقة على رؤوسنا فسكتنا ونحن ننظر إليه، ودام صمتنا فترة من الوقت ونحن نعالج عبارته الأخيرة. شعرت بالخجل يجتاحني وبدا الارتباك واضحاً علي في جلستي ونظراتي، لم أتخيل يوماً أن يطلبني أنا إيلينا البسيطة للزواج! نعم أعجبت به لكنني لم أتخيل أن يبادلني الشعور وبالطبع لم أظن أنه سيقدم على هذه الخطوة، هل هذا يعني أنه معجب بي بحق؟ شعرت بشعور غريب يسري في جسدي لم أشعر به من قبل، لكن كنت على يقين من أن ثمة شيئاً سعيداً يتراقص في داخلي. انتظرت من ليان أو أمي الردّ على ما قال لكن كلتاهما ضائعتان في صدمتهما، في النهاية قالت ليان أخيراً:

" تريد الزواج بشقيقتي! سيدي نحن لا نعرفك حتى! وهذا.... هذا زواج ليس علاقة عابرة"
فأجابها بكل ثقة:

" حسناً لكم الحرية في السؤال عني والتفكير جيداً، لكن أنا أريد من الإجابة أن تصدر من قناعة إيلينا"

وأخيراً تدخلت أمي في الجلسة وقالت:

" سيدي لن نعطيك إجابة الآن اسمح لنا أن نفكر جيداً في عرضك هذا، أرجوك أن تتفهم أنني لا أملك إلا هاتين البنتين وسعادتهما هي كل حياتي "

ابتسم بحنو وأجابها:

" بالتأكيد سيدتي هذا من حقك "

ثم نظر إلي وخاطبني قائلاً:

" أتمنى أن تفكري جيداً في عرضي وأنا أعدك أن أكرمك وأسعدك إذا قبلت "

بقيت ليان ساكئة والانزعاج يعلو قسماً وجهها. لم يطل السيد أمجد بالجلوس، استأذن وغادر البيت لكنه ترك ذلك الأثر الجميل خلفه. لم تعلق ليان على ما حصل لكنها خرجت من البيت فجأة

دون أن تقول لنا وجهتها. خالطني شعور بعدم الراحة من تصرف ليان كنت أرغب في أن أففز أمامهم جميعًا وأقول أنني موافقة على الزواج منه لكن كما قالت ليان نحن لا نعرفه فهو غريب، كما أنني خشيت من غضبها إذا عبرت عما في صدري فأثرت السكوت والصبر على ما يخبئه لي الغد.

الفصل الثامن

ليان

خرجت أهيم على وجهي في الشارع وأنا أحاول تمالك أعصابي لئلا تنفجر، أسئلة عديدة أخذت تتخبط في ذهني... من أين ظهر هذا الشاب فجأة؟.. وكيف وصل الأمر به إلى طلب يد إيلينا هكذا؟.. ماذا عن مازن؟.. ومخططي في تزويج إيلينا منه؟... عندما أخطط لشيء ما فإنني أمقت فكرة أن تفسد مخططاتي هكذا!

تملكني الشعور بالغضب فوجهت كل مشاعري السلبية إلى ذلك المحامي، ودون تفكير مني وجدت نفسي أسير إلى داخل المبنى ثانية وقادنتي قدماي إلى شقة أم مازن. قرعت الجرس مرتين متتاليتين من شدة انفعالي ففتح مازن نفسه الباب، تفاجأ لدى رؤيتي وألقى علي التحية، لكنني كنت في عالم آخر من الانزعاج فلم أرد له التحية بل بادرت به بسؤالتي بجفاء:

" هل أمك هنا؟"

أجاب متردداً:

" كلاً أنا وحدي في البيت... هل تريدان أن أوصل لها رسالة؟"

لم أجبه على سؤاله وإنما وجهت له سؤالاً آخر:

" هل علمت ما فعله صاحبك ذاك؟"

قطب حاجبيه باستنكار وقال مستفسراً:

" أي صاحب؟"

فأجبه بانفعال:

" ذلك المحامي! ... طلب يد أختي للزواج!"

قلت عبارتي بضيق واضح، فزم شفثيه قبل أن يجيب:

" تقصدين أمجد؟ طلب يد أختك؟ حسناً هنيئاً لها!"

ابتسمت بغضب وقلت:

" هنيئًا لها؟ هل هذا كل ما لديك لتقوله؟ "

فأجاب وقد بدت الحيرة واضحة في نبرته:

" ماذا تريد مني أن أقول؟ أجد شخص رائع وإنسان ناجح ومحبوب أختك ستعيش ملكة عنده "

لم يعجبني رده فغضبت وقلت باندفاع:

" ماذا عنك أنت؟ ما مشاعرك تجاه الموضوع؟ "

- " وما علاقتي أنا؟ كيف سأشعر؟ سأكون سعيدًا لسعادة صديقي "

- " ليس هذا ما أعنيه!.... ألا يزعجك أن يتزوجها هو؟ أعني ألا تعجبك إيلينا؟ ظننت

أنك.... أنكم.... أحببتموها! "

صمت لبرهة من الوقت وهو يحاول انتقاء كلماته ثم قال والخرج باد على محياه:

" أنا آسف يا ليان لكن أنا لست معجبًا بأختك... أعني لا أفكر فيها بتلك الطريقة "

أزعجني كلامه بشدة فقلت دون تفكير:

" لماذا؟ ألا تراها جميلة؟ "

احمرّ خجلًا من ردّي الوقح معه، لكنني كنت غاضبة ولا أعني ما أقول، ثمّ أجاب محرّجًا بعد تردد:

" ليس هذا السبب وإنما..... أنا معجب بأخرى "

فسألته دون تفكير:

" من؟ "

ظهر الاندهاش على محيّاها لكن ليس بقدر دهشتي أنا من جرّأتي؟ ما بي؟ ماذا حصل لي؟ هل نقل إلي

يزن عدوى الوقاحة؟

زفرت نفسًا بضيق، ثم تجنبت النظر إليه معتذرة منه على وقاحتي، لكنه قرر إجابتي على سؤالي

ففاجأني بقوله:

" هل تريد حقًا أن تعرفي من هي؟ لكن أجيبيني أولاً... ما علاقتك بيزن أستاذ الحاسوب؟ "

عقدت يديّ أمام صدري وسألته بضيق:

" لماذا هذا السؤال؟ وعن أي علاقة تتحدّث؟ "

نظر في عينيّ مطوّلاً ثم أجاب بجدية:

" لأنك أنت من أعجبت بها "

التفتّ من حولي يمناً ويسرة لأبحث عنم يكلمها، لكن لم أجد أحداً غيري، عقدت جبيني وأنا

أعيد النظر في عينيه لأتأكد أنه يحدّثني، وبعد أن أيقنت أنه يعينني بكلامه فغرت فمي في دهشة

وعدت خطوة للوراء، ثم أضاف:

" أنا معجب بك منذ فترة! لا أعرف لما ظننتني معجباً بشقيقتك! لكن عندما قالت لي أمي أنك لا

تفكرين بالزواج شعرت بالإحباط و... "

رفعت يدي في وجهه ليسكت فعقلي يكاد ينفجر من كل الأحداث التي مرت معي اليوم ولم أعد

استطيع معالجة صدمة أخرى. قلت وأنا أهم بالانصراف:

" رجاء توقف عن الكلام... أنا لا... لا أعرف ماذا أقول... رأسي مشوش... ساحمني

"... "

تركته دون أن أعطيه فرصة ليتكلم، صعدت السلم ركضاً وصولاً إلى شقتنا، التقطت أنفاسي وأنا

أمسك بمقبض الباب وحاولت استيعاب الكم الهائل من الصدمات التي انهالت علي اليوم فشعرت

برأسي يكاد ينفجر. فقررت أن ألتجأ إلى ربي وأصلي فرضي وغداً يوم جديد أصفي فيه ذهني لأحكم

على مجرى حياتي وحياة شقيقتي الصغرى.

خاصمني النوم بسبب أفكار المتخبطة والتي حاولت جاهدة معالجتها واحداً واحداً... تلك

الصفعات التي انهالت علي اليوم من قصة ذاك المحامي الذي أفصح عن إعجابه بإيلينا، وما كان

ليطلب يدها لولا تهوري في إحضاره إلى بيتنا، إلى مازن وبالصاعقة التي ألقاها فوق رأسي عندما

أعرب عن إعجابه بي! لماذا لم أر الأمور بوضوح هكذا من قبل؟ هل تفكيري بتزويج إيلينا منه أعماني

عن فهم طبيعة مشاعره تجاهي؟ أم أن السبب هو استحواذ يزن على إدراكي لما يدور حولي؟ آه منك

يا يزن وما صنعته في داخل قلبي! لا أذكر أنني حملت مشاعر كهذه تجاه بهاء، أحببته بشدة لكن لم أكن أشعر أنني غائبة عن الوعي بمجرد النظر إلى عينيه! لأنه يملك عينين زرقاوين؟ العيون الزرقاء نقطة ضعفي! أم لأنه ببساطة يزعجني وأرغب في لكمه ثانية على وجهه الوسيم؟! كلما عدت بذاكرتي لما حصل بيننا اليوم في مختبر الحاسوب شعرت بأن أنفاسي تتثاقل وقلبي يخفق بسرعة وتلك الفراشات تعيد تجوالها في معدتي فتعطيني شعورًا لا أستطيع وصفه، نظرت إلى أطراف أصابعي حيث وزع قبلاته عليها، وسرعان ما اختنقت بهوائي. موضوع يزن هذا قصة بحال ذاتها لا أستطيع أن أعالجها الآن، أولاً علي النظر في موضوع ذاك المحامي ومشاعر مازن التي لم أستطع التعامل معها اليوم..

ما الذي دهاني؟ ماذا جن على عقلي فطرت بابيه اليوم؟ يبدو أن تقبيل يزن لأصابع يدي أسكر ذهني لذا تصرفت بغرابة على غير عادتي.

حل علي الفجر وأنا على حالي، لم تغفُ عيني ولا للحظة. قمت واصلت الفجر وأيقظت كلاً من أمي وإيلينا ثم صنعت لنفسي كوباً عملاقاً من القهوة لأتخلص من الصداع الذي أنشأ مستعمرة ليقيم في رأسي، اتجهت نحو غرفتي أرتدي ملابسني على غير العادة مما لفت انتباه إيلينا وأمي. تجرأت إيلينا بعد تردد دام وقتاً وسألتنني:

" ليان ماذا تفعلين؟ "

أجبتها على مضض:

" أرتدي ملابسني لأذهب إلى المدرسة "

- " لكن... ما زال الوقت مبكراً "

- " أعلم لن أخرج الآن عندما يحل الشروق سأخرج لربما أنعشني هواء الصباح إذا ما ذهبت "

إلى المدرسة سيراً على الأقدام "

لم تجادلني إيلينا أكثر وانسحبت إلى فراشها وهي تراقبني، أما أمي فكأني أم سألتني إذا ما كنت

بحاجة إلى شيء ما لتصنعه لي، ابتسمت لها وطلبت منها أن تستريح في فراشها.

جلست إلى طاولة المطبخ أرتشف ما تبقى من قهوتي ثم نهضت بعد شروق الشمس وأقفلت الباب خلفي. كان الهواء منعشًا والجو ساكنًا لم يكن الطريق مزدحمًا كما اعتدته لأن الوقت كان مبكرًا جدًا وليس من عاداتي الخروج في هذا الوقت. مشيت طريقي إلى المدرسة وأنا أتنفس بعمق لأجدد طاقتي وأتخلص من غمامة قلبي.

وصلت مبنى المدرسة وخطوت بقدمي إلى الداخل، كانت دهشة المستخدمين لا توصف لرؤيتي حتى أنني سبقت الطاقم الإداري في وصولي هنا، تجاهلت نظراتهم المزعجة وعمدت إلى السلام لأصعد إلى غرفتي الصفية لأجلس فيها.

أغلقت الباب خلفي وإذا به يُفتح ثانية، فأجفلت واستدرت خلفي تلقائيًا، فتفاجأت برؤية يزن يلج إلى داخل الغرفة. اتسعت حدقتاي وهاجمته باستنكار:

" ماذا تفعل في المدرسة في هذا الوقت المبكر؟ وماذا تريد مني؟ "

مشى إلى الداخل وجلس على الكرسي الخاص بي، ثم أجاب وهو ينظر إلى السبورة يقرأ بعضًا من أسطر درس البارحة الذي نسيت محوه:

" بيتي بعيد جدًا لذا آتي مبكرًا إلى المدرسة دائمًا. أنت ماذا تفعلين هنا؟ ليس من عادتك القدوم إلى المدرسة في هذا الوقت؟ واو هل تدرسين الطلاب عن الخصائص الوراثية والمكتسبة؟ "

- " نعم، بشكل مبسط لم أنت هنا؟ "

أشار إلي أن أجلس على الطاولة فشرته بحدة فرقع يديه مستسلمًا ونهض عن الكرسي وقال:

" إذن تريد الجلوس على الكرسي؟ "

- " حبًا في الله يزن ماذا تريد؟ "

التفت نحوي وقد تغيرت تعابير وجهه وقال:

" ماذا أريد؟ لم تعطيني جوابًا "

مددت رأسي بعدم فهم وسألته :

" جوابًا لماذا؟ "

اقترب مني وهو باسط كفيه على بعضهما أمام صدره وقال:

" عرضت عليك الزواج بي البارحة!"

رفعت حاجبيّ مصدومة وعدت للخلف خطوة، كنت أظنه يهذر البارحة بكلام لا يقصده أو أنه

كان يلهو بي.. أم أنه ما زال كذلك؟! لكن الزواج ليس مزحة!

مد يده ليمسك بيدي فصفعت يده ونهرته بشدة:

" لا... لن تلمسني إياك أن تجرؤ على التفكير بأني سلعة رخيصة متى ما أردت تلمسني! التزم

حدودك"

ثم تجاوزته ومشيت إلى الكرسي لم أقف على الوقوف من هول ما يحصل معي، حاولت التقاط أنفاسي

بصعوبة ثم سألته:

" ما الذي يجعلك واثقًا من أنني أريدك زوجًا لي؟"

وقف قبالي ووضع يديه في جيب بنطاله وقال:

" لأنني أحبك"

غطيت فمي بيدي وأغلقت عيني ونهرته بقولي:

" كفّ عن قول هذا الكلام الفارغ! أنا لا أعرف عنك شيئًا!"

اقترب من الطاولة بينما أراقبه بوجل، ودقات قلبي تكاد تفجر صدري من قوتها، ركع على ركبتيه

أمامي وأسند يده على الطاولة ونظر إلي بعينه الزرقاوين نظرة جدية مطوّلة ثم قال:

" هل تظنين أن مشاعري تجاهك مهزلة؟"

- " لا! أنا أظنها غير حقيقية"

فخطف يدي بسرعة ووضعها على صدره بقوة وقال:

" ألا تشعرين بضربات قلبي كيف تتسارع أمامك؟"

حاولت سحب يدي عبثًا وأنا أتوسله قائلة:

" يزن كفى أرجوك هذا لا يصح! كفّ عن تصرفاتك الوقحة أنا لست فتاة هوى، ثم أنت لا تعرفني حتى! لا يمكنك أن تحب شخصاً لا تعرفه!"
اعترض قائلاً:

" بلى! أنا أحبك يا ليان! أنا مغرم بك! أرجوك أعطيني فرصة لأعبر لك عن مشاعري الصادقة تجاهك! ألم تسمعي يوماً بالحب من أول نظرة؟"
ثم نهض واقفاً وجذبني من يدي بقوة نحوه وكدت أصطدم به لولا أنني مددت يدي الأخرى نحو صدره لأمنع اصطدام جسدينا. انحنى بقامته الطويلة أمامي وقرب رأسه من أذني وهمس فيها:
" أنا أتعذب بسببك! مشاعري تجاهك تزداد اشتعالاً، أريحي قلبي.. "
ثم تنهد بصعوبة وهمس:

" ليان! تزوجيني! "

أدرت وجهي إلى الجانب ناحيته حيث هو رأسه يتدلى بجانب أذني لأرى تعابير وجهه، كان ينظر إلي بعينين حالمتين وخداه متوردان على غير العادة، لم أستطع أن أطيل النظر إليه، شعرت بالحرج والارتباك من قربه الشديد مني، ومن نظراته المربكة، تذكرت أنني ما زلت أضع يدي على صدره فاشتعل رأسي وشعرت بحرارة تجتاح جسدي وأنا أستشعر صدره الصلب يعلو ويهبط وهو يتنفس بصعوبة. أزاح رأسه قليلاً وأماله أمامي بينما ركزت في نظري للأسفل حاولت تجاهل نظراته التي تسكر عقلي، ما الذي دهاني؟ أنا فتاة ملتزمة لا أرمي نفسي في أحضان الشبان هكذا لكنني لا أستطيع التحرك! جسدي أصبح ثقيلاً ومخدرًا.

ابتلع ريقه وتنهد مرّة أخرى لأشعر بطعم أنفاسه الحارة مرّة أخرى تلفح شفتي فشعرت بهما ترتجفان حاولت السيطرة عليهما فعضضت شفتي السفلى بغير وعي مني، فزفر بقوة وقال بصوت ثقيل:
" كفى! لم أعد أحمّل "

أمسك بذقني ورفع رأسي محاذاته وانحنى ناحية شفتي يريد تقبيلها، فصرخ عقلي بي أن أوقفه، لكن جسدي مسكر يأبى أن يتحرك! نظرت إلى شفتيه وهما تقتربان أكثر فأكثر، كانت حركته بطيئة كأنه

يريد أن يتأكد ألا مانع لدي من قربه المحرم هذا.. وما كدت أشعر بلمسة شفثيه حتى فُتح الباب على مصراعيه فدفعته عني بعيداً تلقائياً. سمعت صوت هناء تصدح بمرح لكنها لم تتم جملتها:

" لولو! ماذا جاء بك في وقت....."

من هول مفاجأتي استدرت نحو النافذة ويدي على خصري ألتقط أنفاسي بصعوبة، بينما يزن يمسح شفثيه بأصابعه، سلطت هناء نظرات مصدومة متنقلة بيننا ثم تساءلت بصوت مخرج:

" هل قاطعت شيئاً؟"

التفت ناحيتها وأنا أتنفس بصعوبة وأجبتها بالرغم مني:

" كلا! الأستاذ يزن كان يهم بالخروج أصلاً."

لم ينظر يزن إلى أي منا. تنحنح وهز رأسه موافقاً وغادر مسرعاً دون تفكير.

وقفت هناء تنظر نحوي مصدومة فتحت فمها عدة مرات لتتكلم لكنها لم تجد ما تقوله ثم في النهاية تشجعت وطرحت سؤالها:

" ماذا كان يجري هنا؟ ليان؟ هل كنت في وضع حميمي معه؟"

نهرتها بشدة واتجهت نحو الباب أغلقه بينما قلت لها:

" ششش اسكتي! الباب مفتوح!"

توجهت نحو مقعدي أمسح على وجهي ثم أخذت أشد على قبضتي يدي لأخفف من ارتجافها، تبعني هناء وجلست على الطاولة ونظرات القلق والريبة بادية على وجهها، تحاشيت النظر في عينيها خجلاً مما كاد يحصل، ثم أصرت على سؤالتي بغضب:

" ليان! ماذا يجري بينك وبين أستاذ الحاسوب؟! قلت لي سابقاً أنك لا تختلطين به! أهكذا عدم الاختلاط به في قاموسك؟"

وضعت يدي على فمي وبدأت أشهق باكية والدموع تنساب على خدي ثم غطيت وجهي كاملاً بكلتا يدي وأخذت أبكي بحرقة ثم قلت مستسلمة:

" لا أدري لا أدري لا أدري! صدقًا لا .. أدري... ههنا أنا... بصراحة.. أنا لم أعد أفهم ما يريد هذا الأحمق مني!... تعبت لم يعد بمقدوري أن أقف في وجه الدنيا بمفردتي!"

رقت لي فوضعت يدها تربت على كتفي وقالت:

" ليان أنا هنا بجانبك لست وحدك، قولي لي ماذا يجري معك؟"

نظرت إليها بعينين ممتلئتين بالدموع ترددت في البداية لأنني لست معتادة على البوح بها في داخلي

لأحد لكنني يائسة الآن أحتاج إلى أحد أفضي له بما يحمل قلبي فقلت بتردد:

" عديني بأن يبقى ما سأقوله لك بيننا"

نظرت نحوي بحدة وقالت:

" ليان أنت صديقتي المقربة هل تظنين أنني يطيب لي إفشاء أسرارك؟"

بدأت بسرد موقف تغير وزن معي وتجنبت ذكر السبب، ثم إحضار المحامي إلى بيتنا لأنه دفع إيجارنا

لصاحب البيت وطلبه الزواج بإيلينا ومشاعر مازن لي، وعودة وزن إلى الساحة بقوة ليطلب يدي

للزواج مرتين! ولا أدري مدى صدقه في عرضه هذا... ثم محاولته تقبيلي وعدم قدرتي على صده.

أعلم أنني لم أعالج مشاكل بالبوخ بها لكنني شعرت بجبل ضخّم ينزاح عن صدري لدى مشاركتي

همومي مع ههنا.

كانت معالم ههنا كأنها مصابة بالشلل من صدمتها. أخيرا عادت الحياة إليها فعدلت جلستها ونظرت

نحو النافذة وقالت:

" بالنسبة لشقيقتك إذا كان المحامي يتمتع بصفات حميدة فلم لا؟ تأكدي من جيرانكم أنه أهل

للزواج أم لا هذه محولة"

عندما صاغتها بهذه العبارات شعرت أن الموضوع أسهل مما كان عقلي يصوره لي، ثم أضافت:

" أما بالنسبة ليزن أعني إذا كان حقًا يحبّك، وربما هو كذلك! فهو جاف مع بقية الإناث في

المدرسة بمن فيهن أنا! يا لحسرتي!"

ثم غطت وجهها تصطنع البكاء، فأرغمتني على الابتسام، وأكملت:

" إذا كنت مولعة بالشخصيات الجامحة مثله فاقبلي بعرضه .. لنرى أين سيصل معك بتصرفاته الغريبة... أما إذا كنت تبحثين عن حياة هادئة رتيبة فعليك إعطاء المحاسب فرصة ونسيان أمر يزن" تنهدت بقوة وقلت:

" وماذا لو لم أرد إعطاء نفسي فرصة لأيٍّ منهما إطلاقاً؟"

ربت هنا على كتفي وقالت بصدق:

" لا يمكنك أن توقفي حياتك من أجل إنسان، مهما كان ما فعله معك بهاء فهو لا يستحق أن تعيشي في دوامة الحسرة إلى الأبد! لك الحق في أن تبدئي حياتك من جديد... لكن.. ليان خذي نصيحتي

وضعيها حلقة في أذنك؛ إياك أن ترتبتي بشخص وقلبك يهوى آخر."

قطبت حاجبي متظاهرة بعدم فهم مرادها، فأملت رأسها وقالت:

" إذا كنت تشعرين بشيء تجاه يزن فأبقي مازناً بعيداً عن الساحة"

قلت معترضة:

" أنا لا أشعر بشيء تجاه يزن!"

- " آه نعم حقاً؟ لهذا السبب قبلك؟"

- " كاد أن يفعلها .. كاد يا هناء"

- " اسمعي برأيي اذهبي واستسمحي من مازن عن أسلوبك الجاف معه وخذي منه

معلومات عن المحامي وأعلميه بأنك بحاجة للوقت لمعالجة بعض الأمور في حياتك ولا

تعطيه رفضاً أو قبولاً من أي نوع، أما يزن فعليك أن توقفيه عند حده!... إنه يتماذى معك

لأنك تسمحين له! هذا حرام! ليان لا تسمحني لنفسك أن تغوصي في المحرمات، أقول هذا

من خوفي عليك.. إذا أردت إعطاء نفسك فرصة جديدة مع أي منهما فلا تبنيها على أساس

باطل.. كوني حازمة معه!"

شردت مع ضميري بصمت لأفكر في كلماتها. ثم طلبت مني أن أبقى في الغرفة الصفية ولا أقوم

بحضور الطابور الصباحي ووعدتني بالاهتمام بطلبتي وإذا ما سألتني أحدهم ستقول أنني متعبة

ولم أستطع النزول، لم يكن لدي طاقة لأجادها أو للرفض، أذعنت لها وقررت أن هذا أفضل لي حتى لا أرى يزن الآن فقلبي لم يبرد بعد من تصرفه ولا أستطيع رؤيته الآن.

لأول مرة في حياتي لم أستطع التركيز في حصصي، ولم أتمكن من إكمال نتاجاتي، فكلما هممت بالشرح أو بمتابعة الطلبة تعود بي ذاكرتي إلى ما حصل هناك أمام السبورة. أه كيف سأخلص من هذا الشعور؟

نزل طلبتي إلى الصالة الرياضية في حصة التربية الرياضية مع معلمتهم الخاصة بتدريس تلك المادة، الأنسة عبير، فأثرت البقاء في غرفتي الصفية وحدي.. لم أرد أن أرى أحداً أو أتكلم مع أحد... فكرت بيزن من جديد وما كاد أن يحصل بيننا صباحاً، فشعرت بالحسرة على نفسي.. لماذا كنت ضعيفة هكذا؟! لما لم أدفعه عني وأضعه عند حده؟! كيف سمحت له بأن يكسر حاجزي ويدخل إلى منطقتي الخاصة؟

أنا التي كنت دائماً أنتقد الفتيات اللاتي يسمحن لأنفسهن بالغوص في ملذات المحرمات، كنت أتباهى بنفسي كيف أن بهاء لم يستطع أن ينال مني إلا قبلاً على الحديد، وحافظت على عفتي معه، كيف سمحت لنفسي أن أتعامل برخص هكذا؟!

أذنت لنفسي بالبكاء لربما مسحت مني بعضاً من شعوري بالذنب قمت وتوضأت وجلست أقرأ في القرآن وأستغفر الله وأدعوه أن يتوب علي وأن يمدني بالقوة لمواجهة يزن وعدم الوقوع في فخاخه ثانية، استغفرت وبكيت ورجوت ودعوت فلم أتنبه إلى أن وقت الفراغ قد مضى ولم يبق منه إلا خمس دقائق فذهبت مسرعة وغسلت وجهي مراراً لأخفي آثار البكاء من عيني لكنني لم أنجح في ذلك. نظرت في المرأة فوجدتها متورمتين بسبب البكاء.

حاولت جاهدة أن أخفي وجهي عن معلمة التربية الرياضية عبير عند إعادتها طلبتي فتظاهرت بغوصي في كتبهم على مقاعدهم وكأنني كنت منشغلة بمتابعة أعمالهم في وقت الفراغ.

في نهاية اليوم الدراسي أصرت عليّ هناء أن تأخذ طلبة الانتظار عندها لأستطيع تصفية ذهني لحل أموري العالقة، ومع محاولاتي العديدة بالرفض استسلمت لها، لم أكن أرغب في إتعاها مع طلبتي

يكفيها أن لديها هي الأخرى التزامات مع بعض من طلبة الانتظار عندها من متابعة وتقوية.
نصحتني هناء أن أبدأ بمعالجة أموري مع مازن أولاً. فأخذت بنصيحتها وقررت أن الآن أفضل
وقت لرؤيته بينما الكل منشغل بإنهاء أعماله من أجل مغادرة المدرسة.
نزلت السلام وأنا أدعو بكل الآيات التي أحفظها عن التيسير، وصلت مكتبه فوجدته مغلقاً أخذت
نفساً عميقاً وطرقت الباب وانتظرت الرد ففتح الباب قليلاً ونظر من خلفه وعندما رأني تفاجأ، ثم
استدرك نفسه وقال:

" ليان؟!... تفضلي ادخلي لكن اسمحي لي سأغلق الباب خلفك "

ولجت إلى الداخل وأغلق مازن بدوره الباب واعتذر مني قائلاً:

" أنا آسف فهذا الطابق يضج بالأصوات الكثيرة في نهاية الدوام بسبب مغادرة الطلبة وقدم أولياء
الأمر وغيرها فأفقد تركيزي في عملي لذا أضطر إلى إغلاق الباب... ما بها عينك؟"
هزرت رأسي بتفهم وأجبت:

" لا شيء أنا متعبة فقط "

ثم بدأت أجوب الغرفة بعيني بتوتر واضح، أحس مازن ارتباكي وقال:

" لا بأس بوحى بما جئت لأجله وسأقبله مهما كان. "

طأطأت رأسي إلى الأسفل ثم قلت بعد أن حاولت انتقاء عباراتي بشكل حكيم قدر الإمكان:

" أولاً أنا آسفة بخصوص موقف البارحة... عاملتك بوقاحة لست معتادة عليها... وتماديت كثيراً
في الحديث. "

زم شفتيه ورفع حاجبيه كأنه يوافقني على ما قلت، أخذت نفساً وأكملت:

" حياتي ليست كما... أريد... أعني لدي في قلبي أسى كبير.... وأردت على الأقل أن تفرح أُمي

بإيلينا إذا زوجته لرجل نبيل يستحقها"

فقاطعني وهو ينظر إلي مبتسماً:

" ترين أنني نبيل؟ شكرًا لك أخرجتيني، لكن أجد أيضًا شخص نبيل وكريم وشهم ويحمل كثيرًا من الصفات الرائعة، ولا أقول ذلك لأنه صديقي بل لأنني خبرته في مواقف حرجة وكان خير معين ثم أنه يحب كثيرًا مساعدة الآخرين ولا يتباهى بذلك أبدًا"

أخذت نفسًا عميقًا وسألته:

" يعني توصي به كزوج محترم لأختي الصغرى؟"

فأجاب واثقًا:

" أوصي به زوجًا لأي بنت محترمة تستحقه."

ثم جلس على طرف طاولة المكتب وسألني:

" ماذا عنك؟ ألا تفكرين بالارتباط؟"

زفرت ببطء وعقدت ذراعي أمام صدري وقلت له:

" أرجوك دعني حاليًا أنهي موضوع أختي لأنني أحتاج وقتًا لتصفية ذهني من كثير من الأشياء حولي."

فسأل بجرأة أدهشتني:

" مثل الأستاذ يزن؟"

جف حلقي ولم أعرف بما أجيب ثم سألته سؤالًا مبالغًا:

" قلت لي أنك لم تتعرف على طاقم المعلمين كيف عرفته؟"

ابتسم بهدوء ونهض ودار حول طاولته ليستقر على الكرسي خلف المكتب وقال:

" نظراته لك ملفتة لذا سألت عن اسمه، هل بينكما قصة معينة؟"

غطيت عيني بأصابع يدي وهزرت رأسي باعتراض وقلت نافية أي تخيلات في ذهنه:

" كلاً هو فقط لا شيء"

- " إذن أنت لست مرتبطة؟"

- " نعم، ولا أفكر حاليًا بالارتباط."

تعمدت قول عبارتي هذه لئلا يقدم على شيء لست مستعدة له، ثم قلت لأنهي وقفتي هنا وأخرج من المكتب قبل أن أحتق أكثر:

" على كل حال أنا جئت أعتذر فأرجو أن تتقبل اعتذاري "

ابتسم ونظر في وجهي متمعناً ملامحي فشعرت بالخجل وقال:

" لم أنضايق من موقفك لا تقلقي، أنا إنسان متفهم بدرجة عالية "

أرغمت نفسي على الابتسام رغم إحراجي منه واستأذنت للخروج، فتحت باب المكتب لأغادر، فشهقت بقوة لدى فتحي للباب، إذ أنني وجدت يزن واقفاً أمامي وعلى وجهه تعابير لا تُفسّر، نظر إلى مازن في الداخل نظرة تحدّ ثم وجد نظره إلي وقال :

" هل لي بكلمتين معك؟ "

وسبقني إلى مختبر الحاسوب، أغمضت عيني وضربت رأسي بقبضة يدي، لست مستعدة لرؤيته الآن! لا أملك ما يكفيني من القوة للتعامل معه، أريد حل المواضيع المتشابكة كل على حدى. لكنني أعلم أنني إذا لم ألحق به فإنه سيأتي إلى غرفتي الصفية ولا أريد أن يراه أحد هناك لأنهم سيبدؤون بتناقل إشاعات لست نداء لها. لذا لم يكن ثمة بد من معالجة الأمر معه الآن. لحقته إلى مختبر الحاسوب، عندما دخلت أمرني بإغلاق الباب.. كان يقف أمام النافذة مقابلي، لكنني رفضت إغلاقه، فتقدّم نحوي وأغلقه بيده ثم نظر إلي بجدية وقال:

" لا تخافي لن ألمسك؟ "

لم يزح عينيه عني وهو يتفحصني فضاق صدري وهبت بوجهه :

" ماذا تريد؟ "

فأجابني بسؤاله؟

" لما عينك متورّمتان؟ هل كنت تبكين؟ "

أغلقت عيني وأجبت بصلاية مصطنعة:

" لا "

- " كاذبة! "

أدهشني بكلامه فأدرت وجهي بعيداً عنه، ثم قال:

" أنت بكيتِ بسببي ... أنا آسف لم يكن من حقّي أن أقرب منك هكذا "

تفاجأت لا اعتذاره لكنني أبيت النظر في عينيه لئلا أفقد سيطرتي على نفسي وأذوب بسحره ثانية،

وأكمل كلامه:

" لا أدري ماذا يحصل لي عندما أراك وكأن ... وكأن شيئاً يشتعل في قلبي فيغطي كل إدراك سليم في

ذهني ، أنا أعرف مؤهلاتي ليس غروراً وإنما ثقة بما أملك. لو عرضت نفسي على أي بنت هنا غيرك

لقبلت بي حتى المتزوجات منهن ولقبلنني بعلاقات غير شرعية أيضاً! لن أقول لك أساء بعض

الشخصيات هنا ممن فرضن أنفسهن علي لكي لا أفضحهن! لكنني بالرغم من كل ذلك ابتغيتك

أنت! وصدقيني أنني لا أنوي بك سوءاً.. كوني لي بالحلال وعلى سنة الله ورسوله! كفي عن صدي

بجفاء فذلك يؤلمني "

أخذ نفساً عميقاً ثم اختلست نظرة إليه وأنا أحاول التفكير بمن فرضت نفسها عليه وفي داخلي

شعرت بغصة منها، لكن لماذا؟ حاولت إقناع نفسي بأن هذا لا يعنيني.

تجرات أخيراً وقلت معاتبه:

" أنت جرحت حياتي وعفتي! أنا لست من هذا النوع من الفتيات، إنني ملتزمة وأؤدي فروضي

ولا أكون صداقات مع الشَّبَّان، أعترف أنني سليطة لسان وأنني أتفوه بأي كلام دون أن أعير أياً

كان أمامي قيمة لكن هكذا هي أنا! تريت في ظروف صعبة أخرجت مني معدناً صلباً، لذا قد لا

تستطيع التعامل معي فأنا أنصحك أن تتعد عني لأنني لست سهلة المعشر "

ابتسم مبتهجاً فظهرت غمازة له على جانب خده لم أعرف أنه يمتلك غمازة، لماذا؟ لماذا هو جذاب

هكذا؟ إنه يصعب علي مهمتي.

نظر إلي مستمتعاً وقال وهو يهز رأسه:

" آسف قلبي تم بيعه ولن أتمكن من استرداده.. سأحصل عليك وأتزوجك.. صدقيني سأعمل
جاهدًا على ذلك... وبالنسبة لهذا المحاسب فلينس وجود ليان في الدنيا فهي ملك لغيره "

تشرذقت في رريقي عقب كلامه وقلت وأنا أحاول استعادة صوتي:

" من أين جئت بهذه الفكرة؟ "

رفع حاجبيه وقال:

" فقط عرفت "

اتجه نحو الباب، فتحه، وقبل أن يخرج نظر إلي وابتسم بلطف وقال:

" أنت لي! "

وغادر ليتركني مع قلبي الهائم وأنا أحاول الثبات على قدمي.

الفصل التاسع

إيلينا

حاولت أن أنام عقب مغادرة ليان البيت لكنني لم أفلح في ذلك، لا أدري كيف نمت فجأة في الليلة السابقة... ربما كانت رحمة من ربّي أن أنام لثلاث أجن بأفكاري.... مللت من التقلب في فراشي لذا نهضت لأرتدي عباةتي وحجابي استعدادًا للعمل.

حاولت أمي إقناعي بتناول الفطور معها لكنني اعتذرت لها؛ لم تكن لي شهية بتناول الطعام، ربما بسبب الألم الذي عانيت منه البارحة أو بسبب قصة السيد أمجد، في النهاية جلست معها لشرب الشاي حتى لا تشعر بالوحدة أكثر، يكفيها ما تعانیه بسببنا.

استغلت أمي فرصة غياب ليان ثم سألتني:

" إيلينا صغيرتي، ما رأيك بعرض المحامي البارحة؟"

تهدت بصعوبة، لا أجد رداً أقوله الآن، فأنا ما زلت مصدومة، جزء مني يصرخ في داخلي لأن أقبل وأغير حياتي إلى شيء أسعد... لكن ذاك الجزء الآخر المظلم في داخلي يردعني... كيف لي أن أتزوج بعد الذي عانته ليان بسببي؟ ومن جهة أخرى هل سأكون حقاً سعيدة؟ لم أر في حياتي سبباً يجعل أي فتاة تقبل بالارتباط، فغالباً ما تنتهي قصص الزواج بالطلاق أو الموت وبقاء الطرف الآخر وحده يعاني ويكابد الحياة، ونحن مثال حي على ذلك، فكل حياتنا كانت همماً وغمماً، أنا لا أعرف كيف استطعنا أنا وليان الاستمرار في الدراسة رغم كل القهر الذي كابدناه!...

إنها أمي، هذه الملاك التي وهبها الله لنا التي طالما سهرت الليالي لأجلنا لكي نعيش حياة طبيعية كغيرنا من البشر، هي من ساندتنا ومهدت لنا الطريق.. اغرورقت عيناى بالدموع ونظرت إليها بحب واضح في عيني وابتسمت رغم دموعي وقلت:

" كما ترين أنت يا أمي إذا أردت ذلك الزواج سأقبل وإذا لم تريدي لن أوافق "

مدت يدها لترت على يدي بحنو أمومي وبكت هي الأخرى، أعرف يا أمي أنك تتألين كثيرًا في داخلك آه ليتني أمتلك من القوة ما يقهر أحزانك! ابتسمت وقالت:

" هذه حياتك يا عزيزتي، فكري جيّدًا وقرري المناسب لك، استهدي بالله واستخيري واستشيري ما ندم من استشار ولا خاب من استخار "

عند نهاية عبارتها هذه استأذنت منها أن أمضي نحو عملي، قررت أنه لا بدّ لي من استشارة سارة في الموضوع، لكن يجب أن أسرد لها القصة بكاملها حتى أسمع حكمها على القصة لربما وجدت لديها الجواب الشافي، لو كان معي هاتف لتكلمت معها الآن.

ترجلت من الحافلة وقلبي مثقل بالهموم، دخلت مبنى الشركة وأنا لا أعلم لي بما يجيئه لي هذا اليوم. خرجت من المصعد الذي يشير إلى الطابق الرابع حيث أعمل، وولجت إلى القسم الكبير الخاص بنا مشيت على الأرض الرخامية وقد لفت انتباهي بعض النظرات الغريبة التي رمقني بها البعض من الزملاء والزميلات منها ما هو ساخر والآخر حائق، لم أستطع فهم ما يدور لكنني لم أشعر بالراحة لنظراتهم، فآثرت النظر نحو الأرض لأكمل سيرتي لكنني سمعت همسًا من أحدهم يقول:

" شريفة مكة! "

التفت خلفي لأتحقق من صاحب العبارة فوجدتهم جميعهم يلاحقونني بعيونهم بنظرات مخيفة، شعرت بغصة في قلبي ثم أحسست بيد تقبض على يدي؛ التفت من جديد لأتفاجأ بسارة التي رمقتهم بسخط ثم صرخت بهم قائلة:

" اتجهوا إلى أعمالكم ولتهتموا بشؤونكم الخاصة "

ثم سحبتني بسرعة نحو المكتب الخاص بنا، بينما كان ذهني مشوشًا بما يحصل حولي، التفتت إلي وسألتنني:

" أين ذهبت البارحة؟ لماذا غادرت العمل؟ "

أجبتها وعلى محياي نظرة تعجب واضحة:

" كنت متعبة جدًا فأخذت مغادرة "

فسألني بحدة أكثر:

" قبل طباعة التقرير يا إيلينا؟ لماذا لم تقومي بطباعته قبل مغادرتك؟ "

فوجئت بسؤالها الغريب هذا فأجبته دون تردد:

" شهد ودانا تكفلتا البارحة بطباعته، أصلاً شهد من أصرت علي لأن أغادر عندما رأته أكابد الألم

وعرضت علي مساعدتها ووعدتني بطباعة التقرير، ماذا حصل؟ "

ضربت سارة فخذيها بكفي يديها بمرارة وقالت:

" ماذا حصل؟! قلت لك سابقاً لا تثقي بهذه الفتاة يا إيلينا لما لا تستمعين إلي؟ إذا كنت متعبة إلى

هذه الدرجة لماذا سمحت لي بالذهاب إلى الجولة البارحة؟ هل شهد أهل لثقتك لتطليبي منها

مساعدتك؟ ولا تلجئين إلي أنا صديقتك؟! "

- " سارة قولي لي ماذا حصل؟ "

مسحت وجهها بكفي يديها وزفرت بقوة وقالت:

" المدير غاضب عليك بسبب مغادرتك أمس! وشهد الثعبان أخبرته أنك خرجت في موعد غرامي

وتظاهرت بالمرض لأجل المغادرة وأنها سمعتك تتحدثين بالهاتف وتتفقين على موعد مع هذا

الشخص المجهول "

من بين كل الصدمات التي صفعتني في هذه الفترة فهذا كان أعظمها، خرجت كلماتها كالصاعقة

فوق رأسي وألجمت لساني، جحظت عيناى ذهولاً بما قالت وجف حلقي وأنا أحاول استيعاب هذه

التهمة النكراء.

ثم فجأة جاءت امرأة ثلاثينية جميلة شعرت أنني رأيتها سابقاً وتقدمت نحوي ثم سألتني:

" أنت إيلينا سامح؟ "

كانت الصدمة التي وقعت علي كبيرة فلم أستطع الردّ، فأجابته شهد وهي تخطو بخطواتها الرشيقة

نحونا وهي تخلع سترتها الرسمية البيضاء من فوق ثوبها الأسود الضيق القصير الذي يكشف عن

ذراعيها وساقها الطويلتين:

" نعم هذه هي "

أكملت سيرها نحو مكتبها، ووضعت حقيبتها وسترتها على ظهر الكرسي ثم سحبتة وجلست بكبرياء وهي تلوح بشعرها، نظرت إلي بمكر واستدارت نحو مكتبها.
تنهدت المرأة وقالت:

" المدير ينتظرك في مكتبه لو سمحت رافقيني "

وسارت أمامي بكعبها العالي وجسدها الرشيق، التفت نحو سارة بخوف جليّ على وجهي فلم تستطع إلا أن ترمقني بنظرات التعاطف والشفقة.

ألحت علي المرأة بأن ألقها فمشيت خلفها، التفت إلى شهد بغصة فقابلتني بابتسامة شامته.
أدركت أن هذه المرأة سكرتيرة المدير الخاصة، فما إن وصلنا المكتب حتى استقرت على الكرسي وأشارت إلي بيدها لأن أدخل. ازدربت رريقي بصعوبة وطرقت الباب فلم أسمع ردًا، التفت نحو السكرتيرة فأومأت إليّ بأن أدخل.

فتحت الباب ودخلت بترؤ فوجدت نفسي في مكتب ضخم للغاية... كان أول ما لمحته مدفأة حطب كبيرة، وخطر في بالي تساؤل سريع؛ هل يستخدمها في الشتاء أم هي مجرد منظر؟ أما مكتب المدير فكان يتوسط الغرفة وأمامه طقم من الأرائك الجلدية الفاخرة. كانت الغرفة بشكل عام شبه مظلمة لأن الستائر التي تحيط بالجدران كلها مغلقة إلا جزءًا من تلك الستارة خلف مكتب المدير حيث كانت مفتوحة بشكل ضئيل يسمح لكمية بسيطة من أشعة الشمس بالدخول وكانت تتمركز حول المكتب فقط، أما المدير فكان يجلس على الكرسي وهو يوليني ظهره باتجاه النافذة فلم أستطع رؤية وجهه. ثم قال بصوت قوي:

" أغلقي الباب خلفك "

فأذعنت له بسرعة، كنت أرتجف خوفًا فهذه أول مرة أدخل فيها مكتبه، بدأت الحديث بصوت مرتجف ضعيف:

" طلبت رؤيتي س...سيدي... "

فقاطعني بحدة بسؤاله بينما لم يلتفت إلي أبدًا:

" هل تعرفين كيف بُنيت هذه المنشأة؟"

حاولت تنظيم أنفاسي المبعثرة ذعرا مرارًا وأنا أشعر أن وجهي شحِب مما سيقوله تاليًا، وعندما لم يجد مني إجابة قال:

" بالتضحية! بالجهد والتعب... بالقدرة على التحمل! بالحرمان! من يسعى ينال، ومن يزرع يجني الثمار...ومن يلهو ويلعب لا يتسبب بدمار نفسه فقط بل بدمار من حوله أيضًا"
أحسست بوقع كلامه الثقيل كالمهدة فوق رأسي، فحاولت درء جزء من غضبه عني فقلت بصوت ضعيف مختنق:

" أنا آسفة سيدي كنت مريضة و متعبة و و زميلتي عرضت علي المساعدة..."

لكنه لم يعطني فرصة لأكمل كلامي فقال بجفاء:

" حجة المرض هذه انسيها إذا أردت الخروج بمواعيد غرامية فاخرجي، لست مهتمًا بحياتك الشخصية لكن لا تحبي وتمعشقي على حساب العمل فكري في عواقب أفعالك أولًا. أوكلت إليك مهمة وهي أهم مهمة في وظيفتك كلها.. طباعة التقرير! هل تعرفين في أي ساعة غادر الموظفون البارحة بسبيك؟"

انسابت دموعي قهراً فقلت للدفاع عن نفسي:

" أنا لم أخرج في موعد غرامي يا سيدي كنت مريضة أنا لست من هذا النوع من الفتيات"

رد علي بجفاء مرة أخرى:

" لست مهتمًا من أي نوع من الفتيات أنت، ما يهمني هو عمل الشركة وأن يسير كل شيء كما أريد...الإهمال في العمل عقوبته الطرد لكن هذه المرة سأتغاضى عن إهمالك وأعطيك فرصة.. لكن

تأديبًا لك على غلطتك الجسيمة فسيتم خصم راتبك لهذا الشهر كاملاً"

لم أستطع مقاومة دموعي التي باتت الآن تغسل وجهي فقلت متوسلة:

" سيدي..."

لكنه قاطعني بحدة قائلاً من خلف المكتب:

" انصرفي إلى عملك لم يعد ثمة ما يُقال هنا"

بدأت بالنحيب والبكاء بصوت مسموع لم أستطع كتمه، وأدركت بأنه لن يستمع إلي مهما قلت، حتى أنه لم يلتفت إلي وهو يؤنّبني، لقد ازدراني فشعرت بحقارة قدرتي أمامه وعندما هممت بالرحيل جاء صوته كتنبية أخير لي:

" صحيح! .. رجاءً زودي الشركة برقم نستطيع فيه التواصل معك لئلا تقع أخطاء أخرى في المستقبل"

غادرت المكتب وأنا أبكي بمرارة، نظرت إلي السكرتيرة بشفقة لكنها لم تقل شيئاً. يا الله ما أشد لؤم هذه الفتاة التي تسمى شهد! ليس من عادتي أن أذم أحداً لكن هذه الفتاة فعلاً ثعبان سام. كيف خطر لها أن تستغل ضعفي من أجل مكاسبها؟ يا إلهي هل يوجد بشر بهذه الدناءة؟!!

عدت إلى المكتب فهاجمتني عيون من حولي، لم أكثرث لهم فالإهانة التي تلقيتها من المدير تكفي لتشعرنى بضالة حجمي بالنسبة لهذه الشركة .

أسرعت سارة نحوي ولفت ذراعيها حولي تضميني ونهرت الكل بصراخها عليهم:

" ما بكم؟ كلُّ إلى عمله... انشغلوا بأموركم الخاصة بدل القيل والقال!"

ثم نظرت نحو شهد وقالت بتهديد:

" سيأتيك يومك يا أفعى"

زمت شهد شفيتها باستمتاع ونظرت إلي من فوقي لأسفلي بابتسامة خبيثة متكبرة، فلم أتمالك نفسي وقلت لها بسخط:

" لا أقول لك إلا كما قال يعقوب عليه السلام لأبنائه: فصبر جميل والله المستعان"

رفعت حاجبيها بسخرية وضحكت بصوت عال مع دانا وقالت:

" حسناً يا شريفة مكة!"

فازدهر المكتب بأصوات الضحكات والقهقهات، فما كان مني إلا أنني غادرت القسم بأكمله، ومن حيرتي لم أدر أين أذهب.

لحقت بي سارة وحاولت تهدأني، لم أستطع الوقوف من شدة غيظي فجلست على السلام أبكي ورأسي في حجري. لقد أهانتني واتهمتني في شرفي وطهارتي وهما أغلى ما أملك قد تكون أحوالي غير ميسورة مادية لكنني غنية بروحي وأخلاقي.

لن أسامحها أبداً. أخذت أدعو الله أن يرد لي اعتباري وينصرني أما سارة فجلست إلى جانبي تربت على ظهري وتدعو على شهد بكل غل وكرامية، وأخذت تعذني أن فعلتها لن تمضي هكذا بسهولة وستقلب مكائدها ضدها يوماً ما.

بكيك وقتاً من الزمن وطيلة هذه الفترة لم تتركني سارة أبداً، لكنها كانت ترجوني أن نعود إلى الداخل فقد أصبحنا فرجة لكل من يمر من هذا الطريق.. في النهاية استسلمت لرغبتني في البقاء. هدأت عن البكاء لكنني ما زلت أدفن رأسي في حجري، فاستغلت سارة فرصة سكوتي وسألتنني بتردد:

" ماذا قال لك المدير؟ لا تقولي لي أنه طردك من العمل!"

استنشقت بصعوبة ثم أجبتها وأنا على حالي ذاته:

"كلاً... وبخني بشدة وهددني بالطرد لكنه لم يفعل بل... خصم مرتبي كاملاً لهذا الشهر" ثم عدت أبكي وأنتحب وأضفت:

" كنت أنتظر نهاية الشهر بفارغ الصبر لأتلقى أول مرتب لي لكي أعين أمي وأختي في مصروف البيت ونسد جزءاً من ديوننا المتراكمة، أما الآن فكل جهدي ضاع سدى وفوق ذلك أتهمت في عرضي.."

أكملت نحبي بينما لم تجد سارة ما تواسيني به من كلمات، أخذت تصبرني وتقول لي:

" لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً."

ثم فجأة لم أعد أشعر بذراع سارة تطوقني وشعرت بخيالها تنتفض واقفة بسرعة، ثم سمعتها تردد:

"... سيدي!"

سمعت صوتًا رجوليًا مألوفًا يخاطبها:

"ماذا تفعلين هنا؟ عودي إلى عملك"

رجعت في ذاكرتي إلى الورااء فعرفت صاحب الصوت.. إنه المدير الذي وبخني للتو، شعرت بالدم يتجمد في عروقي ولم أقو على رفع رأسي فأبقيت رأسي بين ذراعي في حجري، سمعت سارة تردد بخوف بائن في نبرتها:

"ح.. حاضر سيدي!"

لكنها لم تتحرك من مكانها ربما من خوفها علي. لم أعرف ما يجري حولي لأنني لم أرفع رأسي، ولم أستطع تحديد سبب صمتها، ثم سمعت المدير مرة أخرى يكلمها:

"ماذا يجري هنا؟"

بدأت سارة تتخبط في الكلام ولم تعطه إجابة شافية فكانت تهذر بكلام غير مفهوم:

"أمم أه... هذا... آآآ... يعني... ماآ... المكتب... س... سنذهب"

لم أر ردة فعل المدير لإجابتها لكنني تخيلته ينظر إليها ببلاهة من ردها غير المفهوم. فأجابها:

"عودا إلى العمل لدينا عمل كثير اليوم يجب إنجازه"

ثم سمعت صوت وقع أقدامه تتحرك ثم ابتعد الصوت، أيقنت أنه كان ينزل السلام وقتها لأنني عندما رفعت رأسي لمحت مؤخرة رأسه تختفي نزولاً عبر السلام.

جلست سارة إلى جانبي لتلقظ أنفاسها كان وجهها شاحبًا ثم قالت وهي تحاول استجماع شتاتها:

"آه يا ويلى تحدّث معي خارج نطاق العمل، آه يا ربي أريد ماء جفّ حلقي!.... آآه يا ربي لماذا هو

جذاب هكذا؟! ساحيني يا إيلينا لا أستطيع أن أكرهه"

صفت نفسي ذهنيًا من سطحية سارة في التفكير وقلت لها غير مكترثة بمشاعرها تجاهه:

" على ماذا تحيينه؟ إنه سليلط وظالم لقد أهانني . الشكل ليس كل شيء يا سارة، ماذا استفدنا من وسامته إذا كانت أخلاقه ذميمة؟"

فقالت مدافعة عنه:

" لا يا إيلينا هو ليس ذميم أخلاق إنما هو صعب المراس ودقيق في عمله كثيرًا! ثم أنه يدير شركة كبيرة، لهذا ليس لديه وقت لسماع أعذار أحد عند التقصير... هيا إيلينا ضعي نفسك مكانه" فهاجمتها بردي:

" لا يا سارة لو كنت مكانه لما تصرفت مثل ما تصرف، كنت سأسمع للطرف الثاني لربما كان هناك جانب آخر للقصة"

- " حبييتي إيلينا ليس كل الناس يمتلكون طيبة قلبك ليتعاملوا بهذا الأساس! هذا في النهاية رجل أعمال يريد لعمله أن يسير بدقة، كما أنه جذاب كثيرًا... آه ساححيني لا أستطيع ذم هذا السحر" ثم استدركت نفسها وقالت:

" والآن قومي قبل أن يرانا هنا مجددًا فنطرد من الشركة كلتانا"

سار يومي بشكل اعتيادي بعدما حصل . لم تتركني تلك الغصة التي تخنقني بين الفينة والأخرى . سألت سارة بعد أن أخذت دانا التقرير للمدير:

" متى غادرتم الشركة في أمس؟"

- " لم أشأ أن أقول لك لئلا تشعرني بالسوء..... غادرنا الساعة السادسة"

قلت وأنا أغطي فمي من الندم:

" آه يا إلهي! لو كنت أعلم لتحاملت على نفسي أكثر ولما حصل ما حصل."

فأردفت سارة معارضة لي:

" لا! اجعلي هذا درسًا لك لكي لا تعتمدني على تلك الأفعى ثانية أبدًا، وإذا - لا سمح الله -

تكررت معك فالجئي إلي، أنا صديقتك! اطلبي العون مني لا من غيري. أنت تعرفين يا إيلينا أنني

لن أرفض لك طلبًا."

اعتذرت منها ووعدتها بالأجل إلى غيرها. استغللت فرصة أنني أنهيت أعمالي وأنا في انتظار مغادرة العمل، وما دمت هدأت قررت أن أستشير سارة بموضوع السيد أمجد. حدثتها أولاً عن موقفه عندما قدّم لي المساعدة في دفع الإيجار لصاحب البيت، ثم فاجأها بطلب يدي للزواج، تحمست سارة لدى سماعها هذا الخبر وكانت فرحتها كبيرة كأنه تقدم لطلب يدها هي. لم أستطع إخفاء انزعاجي من فكرة الزواج كلها وأوضح لها أنني أخشى على مشاعر ليان، ولا أريد أن أكون أنانية فأتزوج بعدما أفسدت زواجها. فشجعتني بقولها:

" ماذا لو كان ارتباطك بهذا الشاب هو المفتاح لتغير ليان وإقبالها على فكرة الزواج؟ فكري بالموضوع من هذا الجانب "

لم يخطر في بالي التفكير بهذه الطريقة! لكن ربما تكون سارة محقة لربما حقاً منحت ليان نفسها فرصة للزواج إذا ما تشجعت بدوري وقبلت بالسيد أمجد. عندما تخيلت نفسي زوجة له شعرت بحرارة تجتاح جسدي وبدأت الحمرة تكسو خدودي. فابتسمت سارة مرحاً وقالت:

" يبدو أن هناك من وقع في الحب! "

لكزتها مازحة وابتسمت بخجل، يا إلهي لا أصدق أنني سأوافق على الزواج به! شجعتني سارة بقوة على القبول وخصوصاً عندما علمت بمواصفاته المادية وأجبرتني على وصف مظهره لها، حاولت أن أثير انتباهها إلى الجانب الوجداني لكن المظاهر عمت بصيرتها، هكذا هي سارة منذ اليوم الذي تعرفت فيه عليها تهوى المظاهر الخارجية وتتناسى الجوهر، مع أنني حاولت تغيير نظرتها مراراً لكنني لم أتمكن من ذلك.

" موظفة وضيعة ومدير ظالم! "

أبدت ليان استياءها الشديد على ما حصل معي . ثم سألتها إذا ما كانت تلقت اتصالات من الشركة البارحة فأنا لا أحمل هاتفًا وأودعت لديهم في بياناتي رقم ليان، تفقدت هاتفها في حيرة ثم وجدت رقمًا غريبًا في قائمة الأرقام المحظورة، فنظرت إلي باستياء وأسف شديدين وقالت:

" سامحيني فعّلت هاتفي على حظر الأرقام المجهولة... حقك علي ... سأفك حظر الأرقام المجهولة بدءًا من الآن.. أنا حقًا آسفة يا إيلينا!"

واستطردت:

" يارب! أتمنى أن تحصلي على انتقامك من تلك المدعوة شهد ومن مديرك هذا! ما اسمه حتى أستطيع أن أدعو عليه في صلاتي؟"

نظرت إليها ببلاهة وأنا أفكر... لم يخطر في بالي يومًا أن أسأل عن اسمه، بالنسبة لي هو الملقب بالمدير فقط! فأجبت بتعجب شديد من نفسي:

" لا أعرف! لم أسأل يومًا عن اسمه"

نظرت نحوي أمني وليان باستنكار واضح وقالت ليان معقبة:

" تعملين لديه من قرابة الشهر ولا تعرفين اسمه؟! هل يعاني دماغك من خطب؟"

تجاهلت إهانتها وأكملت تناول عشائي، ثم قالت لتغيير مسار الحديث:

" تحدثت مع مازن في المدرسة اليوم لأسأله عن صديقه المحامي"

شعرت بقلبي يهوي بين ساقي نظرت إليها لتكمل كلامها، وسألتها أمي بفضول:

" وماذا قال؟"

وجهت بصرها نحوي لتستشف مشاعري تجاه الموضوع:

" لقد مدح به كثيرًا وأشاد به كزوج صالح ما رأيك يا إيلينا؟"

احمر وجهي بسرعة وأوقعت رغيف الخبز من يدي على الطاولة وتلعثمت في كلامي وأنا لا أدري بما أجيب:

" أنا؟ أنا ... أنا ... لا ... لا أعرف ... ما ترينه أنت مناسبًا فسأقبل به"

- " هذه حياتك يا عزيزتي، فإذا وافقت فسأدعمك في قرارك "

ابتسمت بخجل وحافظت على سكوتي بينما أنظر إلى أصابعي المعقودة في حجري، فضحكت أُمي بفرحة لم أرها منذ فترة وقالت:

" يا حبيبتي! أنت موافقة! هنيئًا لك عساه يكون بداية خير لك "

وهنأني ليان أيضًا وفي عينيها كلام لم تبح به، لكنني أيقنت أنها سعيدة من أجلي.

ثم تفاجأت بها ترفع هاتفها بمحاذاة أذنها، بقيت صامتة لفترة كأنها تنتظر من الطرف الآخر أن يجيب، ثم تحدثت قائلة:

" نعم يا خالي لقد وافقت بإمكانك أن تتصل به وتعلمه أن يأتي ليتقدم لطلب يدها رسميًا رتب معه موعدًا، أنا أعتمد عليك. "

ثم أغلقت الهاتف وبادرت بسؤالها بدهشة:

" أنت قلت لخالي؟! "

- " بالطبع قلت له ممن سيأتي لطلب يدك؟ مني أنا؟ يجب أن يتواجد رجل من عائلتنا في جلسات مهمة كهذه. "

شعرت بفراشات تتخبط في معدتي من شدة حماسي.. يا إلهي! أصبح كل شيء محتومًا، سأغدو زوجة للسيد أجد! ومن شدة فرحتي لم أستطع إكمال عشائي.

نمت تلك الليلة وأنا في ترقب شديد للغد وما يخبئه لي ودعوت الله كثيرًا أن تمضي أموري على خير.

قبل أن أستسلم للنوم نهضت واصلت في جوف الليل وطلبت العون والتيسير والتوفيق من ربي، ونمت بعدها قريرة وقد وكلت أموري لله.

ليان

وصلت إلى المدرسة قبل قرع الجرس بعشر دقائق، فلمحت مازنًا على باب مكتبه ينظر إلي نظرة غريبة، أشار إلي برأسه أن أتقدم نحو مكتبه، أصابني الفضول من تصرفه الغريب هذا، وقبل أن أتجه

إليه التفت من حولي لأتأكد من انشغال الكل لئلا يراني أحد أخطو نحو مكتبه فأثير الشكوك حولي بكثرة دخولي مكتبه.

عندما ولجت إلى الداخل ألقى التحية لكنه لم يرد ثم قال مستفسراً:

" ظننت أنه لا شيء بينك وبين أستاذ الحاسوب ذاك "

أملت برأسي للأمام وعلى محياي نظرة استنكار تخفي الرعب الذي دب في قلبي، فأكمل:

" جاء إلى مكتبي فور وصولي قائلاً لي أن أبقى بعيداً عنك لأنه طلب يدك وأنت وافقت وأنتما الآن مخطوبان بالسر إلى حين إعلان الخبر "

فتحت فمي بدهشة مما قال، ثم مسحت وجهي بيدي وتنفست بعمق، خرجت من المكتب على عجلة كالنمر الهائج دون أن أعطيه رداً واتجهت نحو مختبر الحاسوب لأبحث عنه فلم أجده، شعرت بالغضب يتصاعد في داخلي أكثر فأكثر، ثم جاءني هناء راكضة، أمسكت بطرف ملابسي وقالت:

" اسمعيني ليان.. "

قاطعتها بحدة وقلت :

" ليس الآن هناء! أنا أبحث عن هذا المدعو يزن! "

- " أنا جئت لك شيئاً بخصوصه "

التفت إليها وقد شحب وجهي خوفاً مما قد تقول، هل يعقل أنه يتناقل في المدرسة هذه الإشاعة التي ألقاها على مسامع مازن؟ سألتها بنفاد صبر:

" قولي بسرعة! "

اعتلى الرعب قسماً وجهها خوفاً من أن ألقى غضبي عليها، لكنها تشجعت وقالت:

" إنه يجلس في غرفتك الصفية ينتظرك، خشيت أن يراه أحد هناك فأغلقت باب الغرفة عليه.. "

لم أستمع إلى بقية كلامها فقد جررت قدمي بسرعة على السلام وصولاً إلى حيث هو وتبعني هناء.

فتحت الباب بغضب وهاجمته بكلامي بينما هناء تهم بإغلاق الباب حتى لا يسمعنا أحد:

" هل أنت مجنون؟ قلت لمازن أننا مخطوبان بالسّر؟! ماذا دهالك؟"

شهقت هناء من صدمتها. كان يقف أمام السبورة بقامته الطويلة، يدها في جيب بنطاله الجينز، نظر إلى هناء وقال:

" لو سمحت آنسة هناء اتركينا على انفراد"

فقاطعتة قائلة:

" لا! هي باقية!"

نظر نحوي بتحد وقال:

" حسنًا لم أكن سألمسك احترامًا لدموعك الغالية البارحة، لكن إذا بقيت هي سأحصل على قبلي المختنقة أمامها."

سقط فم هناء متفاجئة من وقاحتها في الكلام لكن ليس بقدر دهشتي أنا. اقترب مني فابتعدت للخلف، فاقترب أكثر، مددت يدي أمامه لأمنعه، فأمسك بيدي بقوة! فأيقنت أنه سيفعلها حقًا، ما هذا المجنون؟! من أي طينة قد جُبل قليل الحياء هذا؟! التفّت نحو هناء بسرعة وأمرتها قائلة:

" هناء اخرجي دعينا وحدنا!"

ظهر الاستياء على وجهها، فنظرت إليها بغضب وقلت بإلحاح:

" هناء! اخرجي"

اتجهت نحو الباب مكرهة وهي تتمم بعبارات الاستياء، يا لها من مجنونة هي الأخرى تريد أن تراه وهو يقبلني وهي التي نصحتني بالابتعاد عن المحرمات؟ يا لها من غريبة أطوار! التفّت نحوه أخيرًا وقلت:

" ها قد خرجت اترك يدي الآن"

أفلت يدي ثم قال:

" لماذا أنت مستاءة؟ عاجلاً أم آجلاً ستتزوج!"

دفنت رأسي في كفي يدي ثم جلست على طرف مقعد من مقاعد الطلبة وقلت بتعب:

" يزن أرجوك، اعتقني! اتركني بحالي! قلت لك أنا الآن لا أفكر بالارتباط فإنه هذه المهزلة "
وضع يده على صدره باستياء وقال:

" مهزلة؟! عفواً يا لؤلؤتي مشاعري ليست مهزلة، وإنما صادقة، قلت لك سأ تزوجك ومهما حصل
فأنت لي "

لؤلؤتي؟! حقاً؟! لماذا خفق قلبي بعنف عندما قالها، لم أستطع الرد عليه فقلت له في النهاية:
" اسمع أنا الآن لست في مزاج للتفكير في هذه الأمور لدي بعض المشاغل في حياتي دعني أحلها
أولاً ثم نعود إلى ما نحن فيه الآن "

- " وأين نحن الآن؟ هل يمكنك أن تصفي لي بدقة؟ "

- " بصراحة ... لا أعرف ذهني مشوش حالياً وأنت تصعب الأمور علي أكثر! اتركني لأفكر بترو
بمفردتي ... رجاء "

زفر بانزعاج ثم نظر إلى الأرضية أمامه وقال:

" سأعطيك مهلة أسبوع لأتركك دون أن أزعجك ثم بعدها أريد إجابة، اتفقنا؟ وإذا لم أحصل على
تلك الإجابة فلا أدري أي جنون قد يصدق به عقلي! "

ثم غادر الغرفة وتركني في حيرة من تصرفاته وما قد يفعله بعد أسبوع من الآن إذا ما قمت بصدده.
ماذا أفعل؟ على الأقل لدي أسبوع كامل لأفكر بهدوء.

أطلت هناء برأسها فقابلتها بنظرة ساخطة وقلت مؤنبة لها:

" لما لم تخرجي عندما طلبت منك أول مرة؟ "

فقال بانزعاج:

" اسكتي ضيعت علي مشاهدة القبلة..... هل قبلك؟ "

نهضت بضجر وهممت بالنزول إلى الساحة المدرسية ولم أجبها. فلحقت بي وهي تصر على سؤالها
فقررت عقابها وعدم إخبارها بأي شيء وتركتها في حيرتها.

الفصل العاشر

إيلينا

انطلقت إلى عملي متجاهلة أحداث البارحة، قلبت صفحات أفكاري لأطوي عني غمي فأنا لم أذنب في شيء وحاولت إقناع نفسي بأنني غير مهتمة بما يظنونه بي وأن الحق سيظهر يوماً فلا بدّ من الصّبر.

جلست إلى مكثبي بعد أن استقبلتني سارة بابتسامتها المشرقة واطمأنت على أحوالي ثم استفسرت

مني عن موضوع السيد أجد. ابتسمت بحياء وقلت:

"أعلمنا خالي بالأمر وتركناه يتفق معه على موعد."

تحمست سارة أكثر وقالت بفرحة لم تستطع إخفاءها:

"يارب يا إيلينا أتلمي حقاً أن تتم خطبتك حتى تشتاظ هذه الشيطانة غيظاً وتأكل نفسها"

لم أقاوم الضحك على عباراتها وقلت:

"سارة أنا لن أتزوج كيداً بأحد"

لم تأبه سارة لكلامي وأخذت تتخيل ردة فعل شهد إذا تمت خطبتي وتيسرت أموري.

زودت سارة برقم ليان بناء على طلب الأخيرة، وذلك لتلافي وقوع حوادث مؤلمة كالبارحة وطلبت

منها أن ترسل إليها رسالة تعلمها أن هذا رقمها. وما هي إلا ساعة ويرن هاتف سارة المحمول

لتجد أن هوية المتصل هي أختي. أعطتني الهاتف لأرد عليها، بعد أن ألقيت عليها التحية قالت:

"جهزي نفسك اليوم مساءً سيأتي المحامي مع عائلته لطلب يدك رسمياً. اتفق معه خالي"

شعرت بالارتباك وخفق قلبي بشدة، لم ينتظر نهاية الأسبوع بل يريد للأمر أن تتم الآن، يبدو أن

إعجابه بي أكبر مما تصورت أو أن لديه أعمالاً يرتبط بها في نهاية الأسبوع.

راجعت سارة التقرير من بعدي لتتأكد من عدم وقوع أخطاء يمكن أن يتسبب بها ارتباكي وشوقي

لقدوم السيد أجد اليوم.

مرّ كل شيء على ما يرام في العمل، لم يضايقني أحد من زملائي، حتّى أن زميلاتي عدن للتعامل معي ببشّر كأن شيئاً لم يحصل، إلا شهد طبعاً فقد كانت ترميني بنظرات متعالية كلما التقت نظراتنا.

في أثناء العشاء لاحظنا شرود أمي قليلاً، فبادرتها ليان بقولها:

"أمي! ما الأمر؟ هل أنت قلقة على إيلينا؟ لا تقلقي حتى لو تزوجت فستأتي دائماً لزيارتنا"

ابتسمت أمي وقالت:

"لا، ليس هذا السبب في شرودي... أعني نعم أنا قلقة، لكن ثمة شيء آخر"

نظرنا نحوها بفضول فنظرت إلى ليان وقالت بعد تردد:

"جارتنا أم مازن.."

تغير وجه ليان قليلاً كأنها على علم بما ستقوله أمي، فأكملت أمي كلامها:

"جاءتني اليوم عندما كنتما في العمل و..... وطلبتك لابنها مازن"

فغرت فمي بهدهشة ولم أستطع إخفاء تلك البسمة البلهاء عن وجهي، يا لسخرية الأقدار! كادت أن تنحر نفسها لتزوجني لهذا الجار وها هو يريد لها هي زوجة له! زفرت ليان بانزعاج فأملت رأسي قليلاً للأمام وشجعتها بقولي:

"ليان! هذا خبر رائع الشاب مواصفاته رائعة ولولا ذلك ما كنت لتريديه أن يكون زوجاً لي"

هزت رأسها بضيق وقالت:

"الأمر ليس هكذا..... بصراحة ثمة شيء أخفيه عنكما"

تبادلنا انا وأمي نظرات القلق، ثم قالت:

"أستاذ الحاسوب الذي حدثتكن عنه..... حسناً هو...."

قالت أمي وقد شحب لونها:

"ماذا؟ قولي"

وضعت أصابع يديها على صدغيها وأغلقت عينيها وقالت:

" طلبني للزواج عدة مرات، وهدد مازن بالبقاء بعيداً عني لأنه استشعر رغبته بالارتباط بي " لم نجد ما نقوله لها فالصدمة ألجمتنا، فتابعت عندما لم تجد منا رداً:

" قال له أنه أننا مخطوبان في السر إلى حين أن نعلن الخبر "

شعرت أن أمي سيغشى عليها، ضاعت بين كلماتها، ثم في النهاية استعادت صوتها وسألتها:

" منذ متى وأنت تعرفين برغبة مازن بالزواج بك؟ وما سبب تكتمك عن أستاذ الحاسوب هذا؟ لم

تقولي لنا شيئاً من قبل عنه؟ ليان ماذا يحصل معك؟ "

- " بعد أن طلب المحامي يد إيلينا علمت بمشاعره تجاهي ... أمي أنا لا أريد الدخول بهذه الدوامه

الآن دعينا ننهي موضوع إيلينا أولاً ثم نتفرغ للأمور الأخرى لأن رأسي يكاد ينفجر، فلا تثقلي علي

أكثر أرجوك، قولي لها أننا الآن منشغلات بخطبة إيلينا ثم بتروّ نظري في مواضيع أخرى "

لم تجرؤ أمي على مناقشتها خوفاً من تغير مزاجها ونحن في انتظار قدوم الجماعة، لكن القلق لم يُمَح

عن ملاحظتها وهي تطالع ليان بين الفينة والأخرى.

حلّ المساء ومع كل دقيقة تمر كان ارتباكي يزداد شيئاً فشيئاً، كنا جالسين في غرفة الجلوس مع خالي

وزوجته في انتظار قدوم السيد أجد وعائلته. أما أبناء خالي فقد بقوا في غرفتنا ونبهت عليهم ليان

بعدم الخروج مطلقاً وإلا حرمتهم نصيبهم من الشوكولاته التي اشترتها خصيصاً لهم.

كان لدينا ثلاثة أبناء من خالنا أكبرهم سنّاً ذو العشر سنوات وكنت أساعده في دراسة اللغة

الانجليزية كل فترة.

الدقائق مرت علي كدهر عصف بلؤم على ظهري فأمسيت كالنخل الخاوية، قابعة مكاني بلا حراك

وكلي أمل أن يقتلع أحد عني توتري وينهي مخاوفي... ثم.. سمعنا أخيراً جرس الباب يُقرع لأعود

إلى الواقع الذي نحن فيه الآن. ازداد خفقان قلبي وتوتري. نظرت إلي ليان مطمئنة لي وأشارت إلي

بأن أهدأ وأتنفس بعمق.

استقبل خالي ضيوفنا، كان أول من تقدم رجل كبير في السن، تلتها امرأة خمسينية يبدو عليها أنها تهتم

بنفسها؛ فجسدها رشيق ونحيل وترتدي ملابس أنيقة وشعرها مصبوغ بالأشقر. خفت ألا أثير

إعجابها إذا رأيتني محجبة. كانت غاية في الجمال والأناقة حتى أنني شعرت أنها لفتت أنظار أُمِّي إليها. تلاهم دخولاً السيد أُمجد.

أغلق خالي الباب وطلب منهم أن يتقدموا للجلوس عندنا في الغرفة، استقبلنا أمه بالتصافح باليد بينما ألقينا تحية شفوية على أبيه.

أرشدهم خالي إلى أماكنهم من الجلسة، ما إن جلسوا حتى أخذوا يطالعون الشقة بأعينهم، فشعرت بالخرج كونها شقة قديمة تظهر الرطوبة فيها في أماكن معينة. ثم أعاد خالي طرح التحية عليهم ليلفت أنظارهم نحونا، ثم أشارت إلي ليان أن أتحرك لصنع القهوة.

قمت باستحياء إلى المطبخ لأعد القهوة فلمحت المرأة تهمس في أذن السيد أُمجد شيئاً وهي تنظر نحوي فهز رأسه مبتسماً، ربما كانت تسأله عمّا إذا كنت أنا المقصودة من قدومهم هنا.

بدووا بالسؤال عن الأحوال سمعتهم أثناء تواجدي في المطبخ يعرفون عن أنفسهم؛ والد السيد أُمجد يعمل في مجال العقارات من بيع وشراء، أما أمه فهي ربة منزل مثل أُمِّي، لديه ثلاثة إخوة متزوجون وهم مغتربون في الخارج، وله أختان إحدهما متزوجة والأخرى مغتربة بداعي الدراسة. والسيد أُمجد هو الابن الأوسط في العائلة.

عدت إليهم مع صينية القهوة وأنا أدعو في سري بكل أدعية التيسير التي أعرفها حتى لا أدلق القهوة أمامهم من شدة ارتباكهم. تناول مني والده فنجاناً وهو يتسّم إلي. ثم تابعت خط سيرهم نحو أمه فمدت يدها لتمسك بذقني وقالت لي:

" باسم الله ما شاء الله! أرقيك يا ابنتي بأسماء الله من كل عين حاسدة"

تصبغت خدودي بدفء ولم أتمكن من إخفاء خجلي، شكرتها بصوت ضعيف مُخرج. ثم توجهت نحو السيد أُمجد الذي كان يتابعني بعينين ملؤهما الحب، فشعرت بقلبي يذوب. ابتسم لي وشكرني فهزرت رأسي خجلاً. ثم قدمت القهوة لخالي وزوجته وأُمِّي وأختي. وأخيراً جلست أضُم أثواب الحياء خلف نظراتي المتوترة.

نظرت المرأة إلى أُمِّي وقالت لها مبتسمة:

" لديك ابنتان محبتان فليحفظهما لك الله "

ابتسمت أُمِّي لها وشكرتها ومدحت بدورها السيد أمجد وأشادت بأخلاقه العالية.
بعد برهة من الحديث الضائع دخل والده أخيراً في صلب الموضوع وطلب يدي للزواج من ابنه.
نظر إلي خالي ليحصل على رد مني فصمتُ بخجل وابتسمت، فأعلمهم بقبولي الزواج، تحدثوا في
تفاصيل المهر وطلبوا منا أن نطلب ما نشاء، لكن خالي أصر على أن يكون المهر كما اعتاد عليه الناس
في المتوسط لا أكثر. مشيراً إلى أن هذه رغبتِي.

وافق الجميع وتمت الأمور على خير ما يرام فقرأنا الفاتحة على نية التيسير، ابتهج والداه كثيراً ثم
أمطرانني بالتهليلات والمباركات.

تم الاتفاق بين والده وأُمِّي على أن يصطحبنا السيد أمجد غداً ليشتري لي خاتماً ألبسه في الخطوبة ثم
يأخذنا إلى بيتهم كي نتناول طعام العشاء عندهم، للتعرف أكثر على العائلتين وكسر الحواجز فيما
بيننا والاتفاق على أمور تخص الزفاف.

اعتذر خالي عن مرافقتنا بسبب مناوبته المسائية في العمل، فبعدما خسر وظيفته السابقة وجد وظيفة
للعمل في متجر تجاري، كموظف على الكاش مقابل مرتب بسيط يسد به حاجات البيت، وهذا
المتجر معروف بأنه يُفتح حتى منتصف الليل.

قدّمت العصير لهم وعينا السيد أمجد لا تفارقني.. لأول مرة أشعر بشعور لطيف كهذا، نما لدي
الأمل بأن أغدو أكثر سعادة وأسعد عائلتي أيضاً. مع حلول الاطمئنان على قلبي انتهت أمسيتنا على
خير.

رافق خالي عائلة السيد أمجد إلى الباب بينما نحن واقفات نلقي تحية الوداع، وسبقهم إلى الباب،
وكان آخر من يتحرك السيد أمجد، وقبل أن يلحقهم من خلفهم تعمد أن يمر بجانبِي ومد يده
ليلمس أصابعي فزرع في داخلي إحساساً لطيفاً، شعرت بالخجل وابتسمت بحياء متجنباً النظر في
عينيه ثم همس لي بصوت منخفض:

" انتظر ك غداً على أحرّ من الجمر."

الحب إحساس جميل حقًا. هل هذا هو الشعور الذي كانت تشعر به ليان فترة خطوبتها؟ الآن بعد أن تجرعت منه عرفت سبب تعاسة شقيقتي إنه لمن المؤلم ألا ينتهي بك المطاف مع من تحب. عند هذه الفكرة أخذت أدعو الله أن تيسر أموري ولا تحصل مصيبة تعيق هذا الزواج.

هتفت ليان باسمي ونحن في الفراش نستعد للنوم:

"إيلينا؟ هل نمت؟"

التفت نحوها وهممت:

"ما الأمر؟"

فجأة بدأت ببوح ما في قلبها مما أثار صدمتي، فقالت:

"تعرفين؟ بدأت أقتنع بكلامكم وكلام هناء... بهاء لا يستحق أن أعيش بكآبة إلى الأبد بسببه...

أعني هو سيتزوج وكأنه لم يحصل شيء، وأنا... سأبقى تعيسة وحدي..."

ثم استدارت ناحيتي ونظرت إلي بحزن وألم وقالت:

"أريد أن أبوح لك بسر"

استدرت بجسدي كاملاً ناحيتها ووجهت لها كامل اهتمامي، فقالت:

"أنا... أعتقد... أنني.. بدأت أقع في حب يزن... أستاذ الحاسوب"

فغرت فمي بدهشة لكن لم أعقب لأترك المجال لها للتكلم، خشيت إذا تكلمت أن تراجع فليس من

عادة ليان مشاركة مشاعرها ولم أشأ خسارة هذه اللحظة معها، ثم أضافت:

"لكنني لا أعرف عنه شيئاً! عدا عن كونه مزعجاً إلى حد يدفعني لصفعه!... أما مازن فلا أشعر

بشيء تجاهه! مع أنه فاجأني بمشاعره تجاهي... ومن جهة أخرى فالارتباط به أكثر أماناً من الارتباط

ببزن... إيلينا أنا ضائعة ولا أدري ماذا أفعل..."

لم أعرف بما أنصحها فأنا لا أعرف هذا المدعو يزن أما مازن فهو جارنا وتعرفنا على أهله... نظرت

إليها وقلت بصدق:

" اتبعي ما يمليه عليك المنطق وضعي مشاعرك جانباً.. قارني حسنات كل منها واختاري من هو أفضل "

دمعت عينها وقالت بألم:

" وماذا لو ندمت على اختياري؟ ماذا لو تأذيت مرة أخرى لست مستعدة لأن يكسر قلبي مرة أخرى "

مددت يدي وتحسست يدها كأنني أطمئنتها فابتسمت لي بحنو وسط دموعها وقالت:

" أتمنى لك السعادة يا إيلينا من كل قلبي وعسى أن يكون زواجك بداية للفرح الذي طالما حُرمتنا منه "

أمسكنا بأيدي بعضنا جيداً وبدأت دموعنا تنهال وتنسكب ونحن ننظر نحو بعضنا فلم نجد أنفسنا إلا وقد غفونا على هذا الحال.

احتضنتني سارة بقوة وهي تغرد فرحاً بالتهنئات والمباركات مما أثار فضول بعض الزميلات فاجتمعن لمعرفة ما يدور فبدأت سارة بتزويدهن بخبر خطبتي، ومعلومات عن خطيبي وكونه محامياً وسيماً وتحديث عن كرمه وروعته، كأنها عاشت كل لحظة معه! بعد ذلك عرفت لماذا تقوم سارة بمدحه كثيراً، حتى يصل الخبر إلى شهد فتغيظها. ويبدو أن خطبتها نجحت لأن المكتب كان يعج بكل الفتيات في القسم، إلا من شهد التي كانت تنظر إلينا من زاوية مكتبها ونظرة الحقد تلك تعلقو محياها. حتى دانا أصابها الفضول لتتعرف عليه فجلست بيننا. ثم أخيراً تحدثت شهد بغيظ وقالت متسائلة:

" وأين هو خاتم الخطوبة إذا كنت فعلاً قد ارتبطت؟ وكيف لنا أن نصدقك أنه محام، ربما كان تاجر خضراوات "

فتحت سارة فمها لترد عليها لكنني سبقتها فأجبتها قبلها بقولي:

" لماذا؟ هل تجارة الخضروات عيب؟ وما مصلحتي بالكذب أصلاً؟ لا يهمني أن تصدقي أو لا، أما بالنسبة للخاتم فسنبتاعه اليوم "

وهكذا جلبت شهد لنفسها العتاب من بعض الفتيات بتعقيبهن على أن العمل لا يعيب صاحبه مهما كان نوعه، وأن هذه النظرة سطحية جداً. فما كان منها إلا أنها التزمت الصمت وجلست أمام مكتبها تصم آذانها عنا.

صدقا إنني أكره الأخلاق الذميمة، ولا أتصرف بكيد أبداً، لكن لم أستطع أن أمنع نفسي من الشعور بالانتصار عليها هذه المرة، هي من جلبت كراهيتي لها بتصرفاتها المقيتة.

تفاجأت لدى عودتي بأن ليان ابتاعت لي عباءة جديدة لأرتديها أمام أهل السيد أمجد، وأصرت علي أن أرتديها لأن هذا اليوم مميز وليس كغيره وقالت لي:

" يجب أن تظهر في أبهى طلة لك اليوم "

أصرت على وضع بعض الكحل في عيني مع أنني لست معتادة على وضع مساحيق التجميل لكنني رضخت لها. ووضعت لمساتها على وجهي بعناية دون أن تثقل بمساحيق التجميل لأبدو طبيعية. وصل السيد أمجد لاصطحابنا معه فاتصل بليان لتنزل للقاءه.

عندما وصلنا ألقينا التحية عليه وعلى أمه التي كانت تجلس في المقعد الأمامي بجانبه، عندما ولجنا إلى داخل سيارته الفارهة لفت أنظارنا نظافتها وجمالها ونعومة فرشها، ثم التفت إلي وفي يده صندوق طلب مني التقاطه فأمسكته وأنا أنظر نحوه متسائلة، فقال توضيحاً لي:

" هذا هاتف هدية مني لك، حتى أستطيع التواصل معك بدل إزعاج شقيقتك "

ابتسمت ليان محرجة، حاولتُ رفض الهدية متذرة بأن هذا كثير فضحك وقال:

" ما بك سأغدو زوجك! يجب أن تعتادي أنني سأجلب لك الكثير من الأشياء فاطلبي ولا تحجلي " يا إلهي عندما قال " سأغدو زوجك " شعرت وكأن قلبي يهوي بين ساقي، لم أجبه وشكرته محرجة.

وصلنا محل المجوهرات ، لوهلة شعرت بانعدام ثقتي بنفسي فأنا لم أدخل محلاً ضخماً كهذا من قبل ويبدو أنه مخصص لأصحاب النفوذ والأثرياء، مد السيد أمجد يده لي وسحبني بلطف معه إلى الداخل.

طلب مني أن أختار خاتماً لكنني لم أعرف ماذا أختار فبقيت واقفة كالبلهاء لا أملك الجرأة للنظر نحو المجوهرات حتى، عندما لاحظ ترددي تقدم نحو الشاب المسؤول عن بيع المجوهرات وتمتم له بشيء فابتعد الشاب قليلاً إلى زاوية المتجر ثم عاد وفي يده علبة صغيرة قدمها للسيد أمجد. تقدم نحوي ثم طلب أن أمد يدي أمامه وفتح العلبة لأرى خاتماً في غاية الروعة مصنوعاً من الذهب، تتوسطه قطعة مجوهرات كما كنت أراها في المسلسلات، ثم قال وهو يضع الخاتم في إصبعي:

" كنت أعلم أنك ستترددين هكذا لذا حجزت هذا الخاتم قبل إحضارك هنا آملاً أن يعجبك "

كان الخاتم مثاليًا والتف حول إصبعي بشكل جميل لم أتخيله قبلاً، ثم قلت له:

" شكراً لك إنه جميل جداً "

فابتسم وقال معترضاً:

" بل يدك الجميلة جعلته يبدو أكثر جمالاً. "

ابتسمت بخجل له ثم تقدمت ليان وأمي لتريا الخاتم وابتسمتا لي محتضنتين مهنتين.

اتجهنا نحو منزل عائلته في سيارته. ويا له من منزل! لم أتخيل يوماً أن تطأ قدمي مكاناً كهذا، كان المدخل مليئاً بأشجار الصنوبر المقلمة وأشجار الورد الجوري، وكانت عتبة البيت مكونة من سلام صغيرة من الرخام صعدا العتبة ودخلنا إلى البهو العملاق. شعرت بالارتباك الشديد عند دخولنا هنا وكنت متأكدة بأن أمي وأختي تبادلاني الشعور.

حاولت أمه تلطيف الأجواء علينا فسبقتنا إلى مدخل الصالة الذي كان على شكل قوس تتوسطه ديكورات جميلة ورحبت بنا بحرارة في بيتها. تقدم زوجها من الداخل وحيانا بدوره مرحبا ببشاشة، وألح علينا بالدخول.

جلسنا على الأرائك الفخمة في الصالة الكبيرة وكانت ملونة باللونين الأسود والخمري، ومن أمامنا موقد حطب يشبه إلى حد ما موقد الحطب الذي رأيته في مكتب المدير. ومن خلفنا طاولة كبيرة فاخرة، مدت أمامها كراسٍ خشبية مفروشة بفرش باللون الخمري. سئلتنا عن أحوالنا وأبدى والد السيد أجد اهتمامًا برؤية الخاتم، وعندما رآه ارتسمت على وجهه علامة الرضا وقال:

" ذوقك جميل يا ابنتي "

فقلت أمه:

" في الواقع هي رفضت اختيار الخاتم فاختاره أجد عنها "

ظهر التعجب على محياه وقال مخاطبًا لي:

" يا ابنتي اطلبي ما شئت منه أجد رجل كريم ويجب إسعاد أحبابه "

شعرت بالإطراء من تضميني من بين أحبابه، ثم نظر إلى أمي وأختي وقال لهما مؤكدًا:

" أجد فرد من عائلتكم الآن فلا تجلوا أن تطلبوا منه شيئًا وسيكون عند حسن ظنكم أعدكم "

شكرته أمي بحياء بائن، ثم تحدثنا بمواضيع متفرقة أثناء تجهيز الخدم الطعام على الطاولة من خلفنا. ثم استأذنوا منا للنهوض نحو الطعام.

عندما رأينا أنواع الطعام المقدمة شعرت وكأن أفواهنا تسيل من مظهره الشهي. جلس والده في مقدمة الطاولة وإلى الجانب جلست ليان بجانب أمي أما أمه فجلست قبالة زوجها في الجهة الأخرى وجلست أنا بجانب السيد أجد. بدأنا بتناول الطعام بعد ذكر اسم الله.

التفت والد السيد أجد نحوه وقال:

" صحيح أنت لم تقل لنا ماذا تعمل مخطوبتك؟ "

ابتلع السيد أجد اللقمة بصعوبة كأنه لم يتوقع السؤال ثم قال:

" ... أنا لا أعرف .. "

ثم نظر نحوي وقال:

" لم يخطر في بالي يوماً أن أسأها. "

فضحكت أمه وليان أما والده قطب جبينه وقال:

" تخطب فتاة لا تعرف طبيعة عملها؟ "

ثم نظر إلي وسألني:

" ماذا تعملين يا ابنتي؟ "

وضعت الشوكة من يدي ومسحت فمي بالمنديل الذي وضعتة الخادمة في حجري وقلت:

" أعمل مدخلة بيانات في شركة للنسيج.... شركة الفردوس للنسيج "

كان والده على وشك وضع لقمة في فمه قبل أن يتوقف عن ذلك، أما أمه فتشردت بكأس الماء الذي كانت ترتشف منه، أما بالنسبة للسيد أمجد فأوقع شوكتة أرضاً فركضت إحدى الخادومات من

المطبخ والتقطت الشوكة عن الأرض وأسرعت نحو المطبخ لتأتيه بشوكة أخرى.

تبادلنا أنا وأمي وليان نظرات التعجب، فابتسم السيد أمجد وقال بأسلوب حاد:

" لا يهم ماذا تعمل وأين تعمل لأنها ستترك العمل بعد زواجنا أصلاً. "

فغرت فمي بدهشة وأجبت معترضة:

" لا لن أترك عملي "

التفت نحوي مستنكراً وقال:

" عندما تغدين زوجتي لن تحتاجي إلى العمل سأؤمن لك كل احتياجاتك "

فأصررت على موقفني معترضة:

" لا.. أنا آسفة لدى أُمي وأختي ارتباطات ولن أتخلي عنهما بعد الزواج! "

فلوح يديه أمامي قائلاً مخفياً انفعاله قدر الإمكان:

" إيلينا سأتكفل بكل حاجات أمك وأختك لن تتخلي عنهما فأنا إلى جانبكن! "

هزرت رأسي معترضة فتبادل والداه النظرات، ثم مد والده يده نحوه وقال يهدئه:

" سنتناقش في هذا الموضوع لاحقاً يا بني، أما الآن فلننه عشاءنا "

شعرت بشيء يخفيه عني السيد أجد وعائلته، ماذا يدور في باله؟ لماذا انتفض هكذا عندما علم بعلمي في شركة الفردوس؟ ردة فعلهم كانت ملفتة بشكل ملاحظ.

أنهينا عشاءنا وتوجهت مع السيد أجد إلى الشرفة التي كانت تطل من ذات الصالة. وقف إلى جانبي وأنا أنظر إلى المشهد الجميل أمامي فهذا المكان هادئ وجميل ولا يشبه في شيء حارتنا الشعبية التي نعيش فيها.

ثم قال:

" ما رأيك هل أعجبك المنظر؟ "

ابتسمت وقلت له:

" سيد أجد شكراً لك على كل شيء أنت أحسنت إكرامنا "

فقال مستنكراً وقد طبعت على وجهه ابتسامة مرحة:

" سيد؟! أرجوك يا إيلينا نحن مخطوبان عزيزتي ناديني باسمي! "

شعرت بالحمرة تعلقو خدي، أشحت بوجهي عنه ثم رددت بعد تردد طويل:

" أ..أجد "

ابتسم بمرح وأمسك بيدي وقربها من شفتيه وقبلها بحرارة أذابت قلبي وسرقت إحساسي. ثم قال وهو ما يزال ممسكاً بيدي:

" ما رأيك أن نجعل فترة الخطوبة قصيرة ونعجل بالزواج؟ "

رفعت رأسي ناحيته فوجدته ينظر نحوي وفي عينيه نظرة حبيب ملهوف. استدرت أمامي وقلت له:

" كما تريد ما تراه مناسباً. "

تأخر الوقت وحان وقت عودتنا إلى البيت ، ذهبت نحو دورة المياه قبل مغادرتنا، وعند خروجي تفاجأت بإحدى الخادמות واقفة على مقربة من الباب تنظر نحوي باستياء وحقد، حاولت أن أسألها ما بها لكن نظراتها أرعبتني ولم أستطع مخاطبتها فأثرت الابتعاد من أمامها. التفت خلفي

فوجدتها ما زالت تنظر نحوي بغضب ثم تفوهت بكلمة أظن أنني لم أسمعها جيداً.. لكن كأنني سمعتها تقول: "سارقة"

أوصلنا أمجد بسيارته.. وأصرت عليّ أمي أن أجلس في الأمام إلى جانبه مع محاولتي الرفض لتجلس هي احتراماً لها، لكنها أبت وجلست في الخلف. لم أستطع إخراج صورة تلك الخادمة من بالي. لماذا كانت تنظر إلي بحقد هكذا؟ وماذا عنت بكلامها عندما نعتني بالسارقة؟ هل سمعتها بشكل سليم أصلاً؟

وصلنا إلى حارتنا والمبنى الذي نعيش فيه، ترحلنا من السيارة وودعنا أمجد وطلب إلى ليان أن تتأكد من تفعيل هاتفها الجديد بشكل جيد وأن تعلمني استخدامه. ألقى تحية أخيرة علينا وغادر. تنهدت ليان بصوت مرتفع عندما أغلقنا باب الشقة وقالت بانفعال شديد:

"أخيراً يا رب! غداً عطلة سأنام إلى الظهر وإياكما أن توقظاني قبل ذلك"

وسبقتهني إلى الغرفة لتغيير ملابسها، أما أمي فوقفت قبالي ومدت ذراعها لتلامس ذراعي بيديها وقالت متسائلة بغاية الاطمئنان علي:

"هل أنت متأكدة من رغبتك في تعجيل الزواج؟ وهل فعلاً لا تمنعين العيش في بيت العائلة؟ إذا شعرت بالخرج من الرفض قولي الآن حتى..."

فقاطعتها بمد يدي نحو خدها برفق وقلت:

"أمي! أبواه رائعان وقد أحسنا إكرامنا لا مانع لدي من العيش مع أبويه في نفس البيت إذا كانت هذه رغبته"

ابتسمت لي بحزن وأمسكت دمعته من فضح أحاسيسها وقالت:

"هنيئاً لك به فهو شاب مثالي ولن أستطيع تخيل شخص أفضل منه ليحظى بابنتي الغالية والحبيبة."

بينما كانت ليان ترشدني إلى كيفية استخدام جهاز الهاتف المحمول الذي أهدانيه أمجد، جاء صوت أمي تحدثني وقد كنت أستشعر منذ دخلنا البيت أنها تريد قول شيء ما:

" إيلينا!... حبيبتى أنت تعرفين... إذا تزوجت يصبح زوجك ولي أمرك وأتمنى لو أنك تلبين رغبته في في ترك الوظيفة لئلا يتسبب عنادك في مشاكل معه "

التفت نحوها ورفضت وأنا أهز رأسي وأجبتها:

" كلا أمي لن أتركك أنت وليان دون أن أساعدكما "

فقاطعتني ليان بقولها:

" سنكون بخير ، أنا من رأيي استمعي إلى نصيحة أمي وعاجلي بتقديم استقالتك... سنكون بخير سنتدبر أمورنا "

شعرت بغصة في قلبي وأصررت على موقفي من الرفض وحملت نفسي واتجهت إلى فراشي لأنام. ثم سمعت نغمة تصدر من جهازي الجديد، نظرت إلى شاشته المضيئة فوجدت علامة عند الرسائل فأيقنت بوصول رسالة لي، ضغطت عليها فإذا بها من أمجد يتمنى لي ليلة سعيدة ويقول فيها:

" تصبحين على خير يا ملاكي "

رفرف قلبي متحمسًا، حاولت أن أطبع له ردًا لكنني كنت بطيئة في الكتابة لأنني لست معتادة على لوحة المفاتيح الخاصة بالأجهزة التي تعمل باللمس، فجهازى الذي ضاع مني قبل سنة تقريبًا كان من الهواتف الرخيصة الذي يحتوي أزرارًا، أمّا هذا فهو صعب الاستخدام قليلًا بالنسبة إلي. في النهاية كتبت له:

" تصبح على خير يا سبب سعادتي "

مرت العطلة بالأعمال الروتينية، تحدثت معي أمجد عدة مرات يطمئن إلى أحوالي، وفي آخر مكالمة جرت بيننا كنت في المطبخ أحدثه لئلا أزعج ليان، فهي عمدت إلى النوم مبكرة لأن غدًا دوام. قال لي:

" اشتقت إليك.... ما رأيك لو نخرج غدًا في موعد بعد انتهاء دوامك؟ "

ابتسمت بصمت وقلت:

" كما تشاء..... أمجد هل ما زلت مصرًا على موقفك بتركي للعمل؟ "

- " إيلينا! ... "
- " قل لي على الأقل ما السبب؟ "
- " أرجوك يا إيلينا استمعي إلي، أنت لست بحاجة إلى الوظيفة وأعدك بأنني سأتكفل بأمك وأختك " حاولت أن أرجوه لكي يغير رأيه لكنه أبى. في النهاية طلب مني أن أغلق الموضوع الآن ونتحدث فيه لاحقاً، ثم فجأة قال لي:

" إيلينا ... أريد أن أعترف لك بشيء... أنا أحبك! "

شعرت بضربات قلبي تشتد وكأنها حلقي جف، لم أستطع الرد فنادى باسمي ليتأكد من أنني ما زلت معه في المكالمة ثم تشجعت أخيراً وأجبتة:

" وأنا أيضاً "

ابتسمت وأنا موقنة أنني أبتسم كالبلهاء، كانت هذه الجملة أجمل ما سمعت منذ فترة.

صرخت سارة من شدة حماسها لدى رؤية خاتم الخطوبة وعلقت دانا بقولها:

" هل هذه ألماسة في وسط الخاتم؟! "

فقال أخرى:

" نعم إنها ألماسة، انظري إليها! ليست مجوهرات تقليدية "

اجتمعت الفتيات مرة أخرى اليوم من أجل رؤية خاتم الخطوبة، حتى جهازي المحمول لفت أنظارهن إلى أنه أحدث طراز. طلبن مني أن أريهن صورة لأجد لكن للأسف لم يكن في جهازي صور بعد فأنا لم أتعلم استخدامه إلا من يومين ولم ألتق بأجد في العطلة.

فجأة ظهرت شهد من العدم وقالت لي:

" رئيس الشركة يود رؤيتك يا إيلينا "

التفتنا جميعاً نحوها ثم هاجمتها سارة بسخط قائلة:

" ما المصيبة التي قمت بتلبسها لها هذه المرة؟ "

رفعت حاجبيها بمكر وقالت:

" اسألها!"

وولت عائدة إلى مكتبها. نظرت نحو سارة غير مصدقة، حاولت أن أفكر في سبب استدعاء الرئيس لي.

قمت واستفسرت عن مكان مكتبه فأرشدتني سارة إلى أنه في الطابق الخامس، لكنها حاولت ردعي عن الذهاب بقولها:

" ماذا لو كانت كاذبة؟ لم يردنا اتصال من مكتبه يطلبك فيها، هل تعرفين ما معنى أن تدخل مكتب الرئيس؟! إنه مؤسس الشركة!"

كانت عيناى تصرخان بمقدار الذعر الذي احتل جزءا كبيرا من قلبي، وفكى متصلب بشدة كأنه على وشك تحطيم أسناني التي تراوغ جاهدة لتصطك ببعضها لتفضح مشاعري المرتعدة، لكنني حاولت أن أسيطر على الخوف الذي كاد يوقف قلبي. طمأنتها إلى أنني سأكون بخير. وهكذا سرت باتجاه المصعد وضغطت الزر المشير إلى الطابق الخامس.

عندما وصلت وجدت امرأة أنيقة تجلس إلى خلف مكتبها فأيقنت أنها السكرتيرة الخاصة بالرئيس. وقفت أمام مكتبها وألقيت عليها التحية. نظرت نحوي دون أن ترد. فشعرت بالارتباك من برودها؛ لم تكن بالساحة ذاتها التي تتمتع بها السكرتيرة المدير. ثم وجدت صوتي قد عاد إلي فسألتها:

" عفواً هل طلبني الرئيس؟"

سألته بجفاء:

" أنت إيلينا سامح؟"

أومأت برأسي موافقة، فأشارت إلي بيدها أن أتبعها. طرقت الباب ثم فتحته وقالت:

" سيدي، الأنسة إيلينا سامح هنا"

تطرق صوته وهو يتسلل نحو أذني من داخل مكتبه يأذن لي بالدخول.

مررت من جانب السكرتيرة بعدما أشارت إلي. ثم غادرت مغلقة الباب خلفها.

خلف المكتب جلس رجل خمسيني. كان جذابًا بكل ما تحمله كلمة جذاب من معنى، له شعر رمادي مصنف بطريقة أنيقة وعينه خضراوان جميلتان لوزيتا الشكل ووجهه مشرق وسيم. يا إلهي! إذا كان هذا جمال الأب فكيف بجمال الابن؟ نظر نحوي وأشار إلي بالجلوس على أحد المقاعد الجلدية الفاخرة أمامه. أذعنت له وجلست والارتباك واضح على ملامحي. نظر إلي يتفرس ملامحي كأنه يدرسها، ثم رفع ورقة من فوق مكتبه وقال:

" هل يخصك هذا المنشور بشيء؟ "

نظرت إلى المنشور بتمعن فوجدته ذات المنشور الذي قمت بطباعته منذ فترة لأعمل كمدرسة خصوصية للغة الانجليزية. شحب وجهي خوفاً وبدأت أحاول تجميع كلماتي لأدفع عن نفسي أي مكائد حاكتها شهد ضدي:

" سيدي..... هذا المنشور من باب ... مصدر رزق إضافي بعد العمل... لم أكن أبحث عن وظيفة أخرى ... أرجوك يا سيدي لا أريد خسارة عملي هنا"

نظر إلي الرئيس بعمق وقال:

" اهدئي... خذي نفساً... هل أطلب لك كأس ماء؟ "

استغربت كلامه لكنني أومأت إليه بالرفض، فتابع:

" لم آت بك إلى هنا لأحقق معك.... ما هو مدى إتقانك للغة الانجليزية؟ هل حقاً أنت ماهرة بها؟ "

أومأت برأسي مرة أخرى لكن هذه المرة كانت إيماءة موافقة.

هز رأسه وقال:

" اسمعيني جيداً لدي عرض لك... لي حفيدان توأمان بعمر التاسعة ووالدتهما مهملة كثيراً بدراستهما، تعرفين النساء يعشقن التسوق والزيارات، أما عند تربية وتعليم الأبناء يختفي دورها"

قال آخر عبارة بتهكم وشيء من الانزعاج، ثم أردف:

" هنا يأتي دورك أريد منك متابعة هذين الطفلين في الدراسة وخصوصاً فيما يخص اللغة الانجليزية "

فغرت فمي بدهشة لم أتوقع أنه طلبني إلى مكتبه لأجل هذا السبب، ثم أضاف موضحاً:
" لا تقلقي! ستأخذين حسابك كاملاً على الساعة في المقابل، ولن يكون جزءاً من مرتبك سيُعطى
لك بعد كل جلسة، كما أنني سأحرص على إيصالك إلى بيتي بسيارة الشركة وإعادتك إلى بيتك. ما
رأيك هل تبدئين اليوم بعد نهاية الدوام؟ سأبلغ السائق بانتظار قدومك "
غرقت في عالمي الخاص عندما أستسلم للدهشة، وهنا تخونني الكلمات وتهرب مني كحمام يفر من
ركض أرجل الأطفال البريئة في الباحة، ولم أستطع الرد من فوري، ثم رفع حاجبيه ينتظر مني
إجابة، بينما عيناى متسمرتان كالصنم في وجهه الوسيم.. كان عرضه مغرياً! هكذا أستطيع سد جزء
من ديوننا وسيكون عوضاً عن المرتب الذي حرمني منه ابنه الظالم بالباطل، لكن... ماذا سيكون
موقف ليان وأمي؟ لكنني خشيت أنني إذا رفضت فقد أجلب لنفسي السخط من الرئيس هذه المرة.
نظرت في عينيه مترددة ثم أخيراً عادت الحياة إلى لساني المتخشب فقلت:
" كما تشاء سيدي سأفعل ما تريد "

ابتسم ليظهر لمعان أسنانه البيضاء وشكرني آذناً لي بالعودة إلى مكنتي. سرت وأنا ما زلت أعايش
الذهول الذي كنت فيه، وصلت المكتب فاستقبلتني سارة بقلق وقالت:
" هل كلام هذه الأفعى صحيح؟ هل فعلاً سيطردك الرئيس بسبب منشوراتك بخصوص العمل
كمدرسة خاصة؟ "

نظرت إلى شهد فوجدت في يدها نسخة من منشوري كانت تنظر بخبث نحوي. أعدت النظر إلى
سارة وقلت:

" كلا! يريدني أن أدرّس حفيديه في بيته "

سقط فم سارة من الدهول وانتفضت شهد واقفة وقد اعتلى وجهها علامات الدهشة أما دانا
فصرخت بألم:

" لاااا! قلت حفيدين؟ المدير متزوج؟ لم أكن أعلم يا حسرتي! "

ثم عاد الإدراك إلى سارة التي بدأت بلطم خديها عقب كلام دانا وجلستا في حسرتهما بينما شهد
ألجمت الصدمة لسانها فلم تجد ما ترد به علي.

هاتف ليان وأعلمتها بالخبر، طبعاً غضبت مني لقبولي لهذه الوظيفة وصرخت بي وتوعدت بأن
تحاسبني فور عودتي، لكنني هدأتها عندما قلت لها أنهم سيتكفلون بإيصالي إلى البيت وأني إذا لم أقم
بتدريس هذين الطفلين فسأقوم بتدريس غيرهم فما الفرق؟ طلبت منها أن تعلم أمي بالخبر.
أما أمجد فأرسلت إليه رسالة بتأجيل موعدنا حتى المساء لأنني عملاً إضافياً لي وتجنبت ذكر طبيعته
لئلا يثور غاضباً بدوره.

خرجت من الشركة في نهاية الدوام وأنا أبحث عن السيارة التي ستقلني. لمحت شاباً يتقدم نحوي
يرتدي زياً أزرق اللون وقال متسائلاً:

" عفواً منك هل أنت إيلينا سامح؟ "

أومأت موافقة فقال:

" لو سمحت اتبعيني. "

تبعته إلى سيارة سوداء جميلة وحديثة سبقني إلى الباب الخلفي وقام بفتحه لي، فشعرت بشيء من
الغرابة فأنا لست معتادة على ذلك، شكرته وجلست في الداخل.

دار من حول السيارة من الأمام ليركبها وما إن بدأ بتشغيل المحرك حتى أطل شخص عليه من
النافذة الأمامية للسائق يرتدي بزة رسمية سوداء اللون ولم أتبين ملامحه لأن رأسه مرتفع عن النافذة
لكنني سمعت صوته يقول:

" إلى أين أنت ذاهب؟ "

فأجاب السائق متنفصاً:

" سيدي!... لقد أمرني الرئيس بإيصال هذه الفتاة إلى القصر "

استمعت ثانية إلى كلامه وأنا أحاول تذكر أين سمعت صوته:

" نفذ الوقود من سيارتي "

- " هل أتصل بمحمود ليأتيك؟ "

- " كلا أريد الركوب معك فلدي بعض الأشغال الهامة، قل له أن يعبئ السيارة ويحضرها إلى القصر. "

ثم سكت هنية وأضاف:

" أريد الركوب في المقعد الخلفي "

انتفض السائق مرة أخرى والتفت إلي وقال معتذراً:

" ساحيني أنستي هل يمكنك الركوب في المقعد الأمامي؟ ... السيد المدير لا يجلس بجانب أحد ... "

أنت تفهمين قصدي صحيح؟ حقتك علي ساحيني "

الآن عرفت لما صوته مألوف! إنه المدير الذي وبخني الأسبوع الفائت. شعرت بغصة من تكبره وعدم رغبته في مشاركة المقعد الخلفي، تراجلت من السيارة لأصعد من الباب الأمامي. حانت مني التفاتة نحوه فوجدته يوليني ظهره ويضع الهاتف على أذنه.

ركبت في المقعد الأمامي وركب السائق إلى جانبي بعد أن قام بفتح الباب الخلفي للمدير. جلست بارتباك واضح فأنا ذاهبة إلى بيت رئيسي لأدرس أبناء ابنه الذي وبخني والذي يصدف أيضاً أنه يجلس خلفي.

وصلنا المكان المنشود، كان أمامنا بوابة حديدية عملاقة، ضغط السائق على زر بجانب البوابة، ثم سمعت صوتاً غريباً كصوت جرس وفتحت البوابة على مصراعها قاد السائق السيارة في الممر المؤدي إلى بيت المدير.

كانت تحيط بالمر أشجار كثيرة، رأيت حديقة بغاية الروعة لم أر في مثلها في حياتي، وكان يتوسط الحديقة نافورة مياه ضخمة ينضح منها الماء بشكل جميل. لم أشعر بالسيارة تتوقف وعيني مأخوذة بهذا الجمال. ثم سمعت صوت السائق يعيدني إلى الواقع يقول لي:

" بإمكانك النزول أنستي ها هو مدخل القصر أمامك "

نظرت من خلال المرآة الجانبية لأبحث عن المدير فلم أجده خلفي، متى ترجل من السيارة؟ هل كان ذهني غائبا عما يدور حولي بسبب انشغاله بتأمل هذا الجمال؟

خرجت من السيارة وأنا أنظر نحو هذا القصر مأخوذة بروعته وعظمته اقتربت، من المدخل الذي كان يرتفع قليلا بعتبة رخامية لامعة وقمت بدق الجرس وما هي إلا ثوان حتى فتحت امرأة خمسينية الباب كانت ترتدي زياً ملوئاً بالأبيض والرمادي نظرت نحوي بتساؤل، وبداء لي أنها كانت تتساءل عن كيفية دخولي إلى هنا فقلت لأزيل غمامة التعجب التي حلت فوقها:

" عفواً أنا أدعى إيلينا سامح طلب مني الرئيس القدوم من أجل الدروس الخصوصية لحفيديه "

أومأت برأسها متفهمة وأدخلتني وطلبت مني أن أرافقها. مشيت خلفها في البهو الضخم على الأرض الرخامية اللامعة حيث استطعت رؤية انعكاس صورتي من خلالها. وصلنا إلى صالة كبيرة تحيط بها من اليمين و اليسار سلم تقود إلى الطابق الثاني ويتوسط الغرفة طقم من الأرائك الفارهة باللون الأبيض. أشارت إلي أن أجلس ريثما تعود إلي.

جلست في انتظارها بضع دقائق وأنا أعقد أصابع يدي ارتباكاً، ثم عادت لكن لم تكن وحدها فقد قدمت معها امرأة فائقة الجمال، بدت أكبر مني بقليل لها شعر كستنائي طويل يشابه لون شعري إلى حد ما، وتتمتع بعينين خضراوين جميلتين. كانت تضع بعضاً من مساحيق التجميل وترتدي ثوباً أزرق اللون طويلاً بذيل تجره خلفها.

نهضت احتراماً لها. عندما وصلت أمامي ابتسمت إلي بود ومدت يدها لتصافحني وعرفتني بنفسها
قائلة:

" مرحباً بك.. أنا مايا والدة الطفلين. "

ابتسمت بارتباك بائن أمامها وصافحتها. نظرت إلى يدي ولمحت خاتمي فقالت بإعجاب:

" خاتم جميل! هل أنت مخطوبة؟ "

هزرت رأسي وقلت:

" خطبت مؤخراً. "

ثم قالت مردفة:

" يبدو أنه معجب بك كثيرًا ليشتري لك خاتمًا كهذا "

شعرت بأن هذا الخاتم يكلف ثروة من كلامها هل يعقل أنه باهظ الثمن إلى هذا الحد؟ ثم قُطع حبل أفكاره بظهور طفلين بديعين أحدهما ولد والأخرى فتاة. تقدمتا ناحيتي وأمرتهما والدتهما بإلقاء التحية علي، ثم طلبت مني الجلوس واستراحت إلى جانبي ثم قالت:

" هذان طفلاي جاد وماسة، وهما في الصف الرابع حدثت معي كثير من الأشياء فلم أستطع متابعتها في الدراسة وأنا أريد منك أن تقومي بمتابعتها وتدرّسها اللغة الانجليزية بكثافة فهما لا يفقهان فيها شيئًا. هل يمكنني الاعتماد عليك؟ "

ابتسمت لها بود. فشكرتني وأمرت المرأة التي كانت معها بأن يتم إكرام ضيافتي. تركتني بصحبة الطفلين ومضت. أخذت الكتب التي كانت تحملها الفتاة وابتسمت لهما بودّ وعرفتتهما باسمي، شرعت بفتح كتبهما لأطلع على المادة فبادرني جاد بسؤاله:

" أنستي لماذا ترتردين حجابًا؟ "

نهرته أخته بشدة وقالت له:

" عيب يا جاد سأشكوك لأُمِّي "

حاولت تهدئة الفتاة وأعربت لها أنني لم أتصايق من سؤاله. ثم شرعت في تعليمهما.

في أثناء الجلسة لمحت شيئًا أبيض اللون يتحرك فأجفلت، نظر جاد وماسة إلى الناحية التي كنت أنظر نحوها فظهرت قطعة شيرازية جميلة، فلطمت ماسة فمها وقالت مؤنبة لأخيها:

" تركت باب الحديقة مفتوحًا؟! ستغضب جدتي إذا علمت بدخول مسك! "

ركض جاد صوبها ليمسكها لكن يبدو أن حركته هذه أجفلت القطة، ففرت هاربة أسفل الأريكة التي نجلس عليها. كتمت صرخة في داخلي عندما فرت هاربة تحتي بسرعة.

بدأ الطفلان بتبادل اللوم بينهما فتدخلت في نقاشهما وقلت:

"اهدأ أرجوكما... سأحاول إخراجها لكما ثم تمسكان بها وتعيدها خارجاً قبل أن يكتشف أحد دخولها"

أشارا إلي بموافقتهما، ركعت على ركبتيّ وانحنيت بجذعي إلى الأسفل فوجدتها جالسة إلى الخلف مرتعدة، هتفت لها لتقترب مني لكنها بقيت جالسة مكانها ولم تبرحه، حاولت مرة أخرى أن أناديها بتحبب فجأة سمعت صوتاً رجولياً مألوفاً يسأل:

" ماذا يحصل هنا؟"

تنبعت إلى أنني راكعة أرضاً بحركة محرّجة غير لائقة، فانتفضت ناهضة بسرعة، التفت ورائي لأجد شاباً بدا لي في أواخر العشرينيات، بعينين رماديتين جميلتين، وبشفيتين ممتلئتين، وفك جذاب تغطيه لحية خفيفة جذابة، كان مثالياً وشديد الجاذبية! تفرس بوجهي بعينيه الرماديتين متفحصاً، ثم تنبعت إلى قربي منه فابتعدت للخلف قليلاً فاصطدمت ساقي بالأريكة وفقدت توازني ووقعت جالسة عليها، فشعرت بالإحراج مما حصل معي، فنهضت من فوري مرة أخرى لكن القطة فاجأتني بخروجها من تحت عباءتي راكضة، مما جعلني أصرخ خوفاً! فقفزت ماسة مجفلة أما جاد فحاول إخفاء ضحكته.

غطيت فمي محرّجة وتسمرت موقعي كالبلهاء. وجّه نظره إلى الطفلين محتدداً وقال:

" هذا وقت الدراسة وليس وقت اللهو يا جاد، أخرج القطة من المنزل قبل أن تراها أمي!"

فجرى جاد مطيعاً له خلفها، أعاد نظره إلي يتفحصني كاملة فشعرت بالضيق وأخذت أعقد أصابع يديّ مجدداً ثم ولانا ظهره واختفى. جلست لألتقط أنفاسي واعتذرت إلى ماسة قائلة:

" أنا آسفة هل والدك غاضب عليك؟"

فأجابني من فورها:

" هذا ليس أبي! هذا خالي شادي وهو يعمل مديراً في شركة جدي "

ارتسمت تعابير غبية على وجهي بينما أربط الخيوط ببعضها لأكتشف بأن أمهما ليست زوجة المدير، بل هي أخته وابنة صاحب الشركة وهذان طفلاها. كم ستشعر سارة بالراحة لدى معرفتها بهذا

الخبر. شردت من جديد وأنا أتأمل في مخيلتي عينيهِ الرماديتين ووجهه الساحر، لقد كانت سارة محقة بوصفه غاية في الوسامة والجاذبية، لهذا السبب تذوب في سحره عندما تطأ مكتبه. عدت إلى الواقع الذي أنا فيه لدى عودة جاد وأكملت مهمتي بتعليمهما. ركزت كما طُلب مني سابقاً على تدريس اللغة الانجليزية فبدأت معها بالأساسيات بعد علمي بعدم تمكنهما منها. بعد مدة من الوقت أنهيت عملي معهما لليوم. فجاءتني أمهما وهي تبتسم لي بود ومدت إلي ظرفاً يحتوي مبلغاً من المال لقاء عملي فشكرتها. عندما هممت بالخروج قدمت امرأة خمسينية أنيقة باتجاهنا ومعها شابة جميلة تشبه السيدة مايا قليلاً. تساءلت المرأة وهي تنظر نحوي باستعلاء:

" من هذه؟ "

فأجابت مبتسمة:

" أمي هذه تدعى الأنسة إيلينا وهي من أحضرها أبي لتتابع دراسة جاد وماسة " من كلامها عرفت أن هذه المرأة هي زوجة الرئيس فألقيت عليها التحية بارتباك ومددت يدي لأصافحها. فنظرت نحو يدي باستحقار والتفتت نحو ابنتها متجاهلة وجودي وقالت لها: " استعدي! نصف ساعة ونخرج من أجل المباركة " شعرت بالخرج الشديد من موقفها الفظ معي فوضعت يدي التي مددتها لها فوق اليد الأخرى، فأقبلت الشابة الأخرى نحوي بسرعة وخطفت يدي لتنظر إلى الخاتم بعينين لامعتين، وقالت بمرح:

" واو! خاتم جميل! هل أنت مخطوبة؟ "

فأجابت السيدة مايا عني:

" نعم خطبت مؤخراً... الآن دعيني أرافقها خارجاً يا ديمة حتى تصل بيتها قبل غروب الشمس " أشارت إلي أن أسير معها، ثم بدأت تحدثني قائلة:
" آه لو أستطيع أريك زوجي لتتعرفني عليه "

ثم قامت بفتح الباب كنت أنظر إلى الأرض عند موضع قدمي فسمعتها تقول:

" يا للمصادفة كنت للتو أكلمها عنك آنسة إيلينا هذا زوجي "

رفعت رأسي لأراه فتوقف كل شيء من حولي وشعرت بقلبي ينقبض بقوة لم أشهد لها مثيلاً، وكأن
وتداً جليدياً قد غُرز فيه عميقاً لتأذن لروحي أن تخرج من جسدي، وسمعت صدى صوت السيدة

مايا وقد بدا بعيداً وهي تقول:

" المحامي أمجد "

الفصل الحادي عشر

إذا قلت أنني كنت مصدومة فإنني لم أجِد التعبير المناسب؛ ما شعرت به في تلك اللحظة شعور لا يوصف، ربما لم يتم اكتشاف الكلمات التي تعبر عن مكنوناتي وقتها! من بين كل الرجال على وجه الأرض لم يكن زوجها ووالد أبنائها إلا هو.. أمجد!

كان يقف أمامي وقد تملكته الصدمة من رؤيتي، عدت بذاكرتي إلى الوراء لأتذكر إصراره على تركي العمل في شركة الفردوس، حديث نور أخت مازن عن احتراق منزله كيف لم أنتبه إلى تلك النقطة وذهبت من بالي! ثم عاودتني نظرة الخادمة الساخطة نحوي وهي تنعتني بالسارقة.

أحسست بأنني أفقد القدرة على الوقوف وكأنني سأخر أرضاً في أي لحظة، وكدت أن أستسلم البكاء، لكنني تنبعت إلى وقوف زوجته بجانبه تضع يدها على كتفه وباليد الثانية تمسح على صدره... لا! لا! لا! لا! لا أستطيع أن أنظر أكثر. اعتصر قلبي ألماً بشدة.

فتح فمه عدة مرات ليتكلم لكنه عجز عن الكلام، ثم نطقت زوجته بكلام لم أستطع فهمه، كان ذهني غائباً في عالم من الذهول فلم أر نفسي وإلا وأنا أخطو مبتعدة من أمامهما، وقفت تنادي باسمي لكنني تجاهلتها وأكملت سيرتي بغير وعي.

وقف أمامي السائق وفتح لي الباب الخلفي للسيارة لكنني لم أتجه نحوه، قادتني قدمي مشياً في الممر الطويل وهو يهتف إلي لينبهني إليه، مع ذلك لم أكن في إدراك لما حولي، شعرت أن الأصوات من حولي تختفي والألوان تبهت من أمامي.

سرت بغير هدى حتى وجدت نفسي خطوات خارج البوابة الكبيرة التي كانت مفتوحة كأنها في انتظار خروجي. فجأة سمعت صوته يناديني! توقفت عن المسير والتفت خلفي.

كان واقفاً أمام البوابة يلتقط أنفاسه.. اقترب مني ووقف أمامي ثم قال:

" دعيني أوصلك إلى البيت وأشرح لك كل شيء "

لم أرد عليه بل قابلته بنظرة ألم وأنا أحارب بتلك الدمعة حتى لا تسقط من عيني . مد يده نحوي
ليمسك بيدي فصفعت يده بعيداً عني واستطعت أخيراً أن أجد صوتي فقلت بمرارة:
"لا!... لا تلمسني!"

رمقته بنظرة سخط متألمة ووليته ظهري . حاولت أن أعبر الطريق إلى الجهة الأخرى لأبتعد من أمامه
ففاجأني سيارة مسرعة كادت تدهسني خارجة من أبواب القصر . صرخ أجمد خائفاً:
" انتبه!"

توقفت السيارة بسرعة محدثة صوت احتكاك تسبب في مزيد من الطنين في أذنيّ، فُتح الباب الأمامي
من جهة السائق وخرج منها شاب لم أستطع إدراك ملامحه فالصورة أصبحت غير واضحة أمامي
رأيت خياله يتقدم نحوي هو وأجمد . كنت واقفة مشدوهة من كل ما جرى حتى هذه اللحظة . ثم
سمعت صوته يكلمني:
" هل أصابك مكروه؟"

أمعنت النظر فيه حتى أدركت أخيراً أنه مديري الذي رأيته داخل القصر . رأيت شفثيه تتحركان
لكنني لم أعرف بما كان يتكلم؛ لم أمتلك من الوعي ما يكفيني لأستدرك عما إذا كان يحدثني أم لا .
تجاهلت كليهما وأكملت سيرتي مبتعدة عن ذلك القصر ، لعلي أجد سيارة أجرة تقلني..... طال بي
الوقت وأنا هائمة في الطريق حتى استطعت في النهاية إيجاد سيارة أجرة .

كانت الشمس قد غربت، وبدأ الظلام يعانق السماء معتصرا ما تبقى من حمرة غروب شمسها
الحزينة التي توارت بدورها مخبئة ألمها وحسرتها مما عايشته في لحظاتي الأخيرة قبل أن أسحب نفسي
من ذاك الجحيم كما تقتلع بيديك خنجرا قد غرز عميقا في قلبك الدامي، جلست في المقعد الخلفي
وأنا أحاول استيعاب الصدمة التي كادت تودي بحياتي اليوم . ثم استطعت أن أسمع سائق السيارة
يهتف لي، رفعت رأسي لأتأكد مما سمعت فقال:

" أنستي ما بك؟ هتفت لك عدة مرات .. هاتفك لا يتوقف عن الرنين!"

هاتفني؟! تذكرت وقتها بأن أجد أهداني هاتفًا، فتحت حقيبتني وأخرجته ونظرت إلى الشاشة فوجدت خمسًا وعشرين مكالمة فائتة، فتحت قائمة الاتصال لأجد معظم هذه المكالمات من أجد والباقي من ليان، ترددت كثيرًا لكنني قررت وضع هاتفني في الوضع الصامت وأعدته إلى حقيبتني مقررًا تجاهل كل ما حولي.

نزلت من سيارة الأجرة وقدمت له الظرف الذي أخذته بكل المبلغ الموجود فيه فأصابه الدهول، هتف إلي ليعيد إلي الباقي لكنني رفضت وتوجهت إلى داخل المبنى. صعدت السلم بصعوبة وأنا أشعر بقدمي ضعيفتين لا تحملاني، فتحت الباب فاندفعت ليان وأمي نحوي وصرخت بي ليان: " أين كنت حتى هذا الوقت؟ كنت سأهم بالبحث عنك!"

نظرت إليها لأجدها ترتدي حجابها، وعلى محاياها هي وأمي نظرات القلق، ثم قالت أُمي بخوف بائن على وجهها:

" ما بك؟ إيلينا ما الأمر؟"

أدركت وقتها أن دموعي تسيل، منذ متى وأنا أبكي؟ وقتها انفجرت بنحيب مريير وشعرت بنفسني أهوي أرضًا لولا ليان وأمي اللتان أمسكتا بي بسرعة واتجهتا بي نحو الأرائك البالية لأجلس عليها. جلست أُمي إلى جانبي وطوقتني بذراعيها وسألت بإصرار:

" ما بك؟ إيلينا قولي لي ما بك؟"

استطعت أن أنطق وسط دموعي بألم وحسرة:

" إنه ... إنه متزوج... أجد ولداه الحفيدان هو والدهما..... إنه متزوج يا أُمي!"

سقطت الصدمة كالصاعقة على رأس أُمي وليان فقالت ليان متسائلة لتتأكد مما سمعت:

" أجد خطيبك.. متزوج؟"

أومأت برأسي بقوة متحسرة، أخذت أبكي وألطم رأسي وصدري... لماذا يا أجد؟ حطمت قلبي! لماذا يا رب؟

ثم سألت مرة أخرى:

" ولديه أولاد؟ "

فقلت بمرار وغصة في حلقي:

" حفيدا رئيس الشركة.. "

شحب وجه أُمِّي. أرادت أن تقف لكنها فقدت توازنها ووقعت جالسة على الأريكة بعيني شاخصتين، فصرخنا أنا وليان خوفاً عليها وبدأنا بالبكاء والصياح ونحن ننادي عليها لكن لم تستجب. ثم دق بابنا بعنف مراراً، إلى أن فُتِحَ لتطل علينا جارتنا التي تعيش مقابلنا مع بناتها قادمة على أصواتنا ونحن نصرخ. ركضت باتجاهنا وأمسكت أُمِّي وأخذت تصفَعها بخفة ثم صرخت في لِيان:

" هاتي ماءً! بسرعة!! "

التفتت نحوي ووجهت لي كلامها بصوت عال لتوقظني من صدمتي:

" اذهبي وأحضري عطرًا! قومي يا ابنتي! "

أسرعت الخُطى نحو غرفتنا وفتشت في حقيبة لِيان عن عطر فوجدت زجاجة صغيرة لديها، أخذتها وجريت إلى الجارة بسرعة.

كانت تمسح وجه أُمِّي بالماء من الكأس الذي أحضرته لِيان ثم خطفت زجاجة العطر من يدي، فتحتها ومدتها أمام أنف أُمِّي لتستنشقها حتى بدأ وعيها يعود إليها تدريجيًا، ثم ساعدتها في المشي لتوصلها إلى فراشها، ثم تفاجأت بوقوف أم مازن على باب بيتنا وخلفها ابنتها وابنها وهم يتساءلون عم يجري هنا.

فاتجهت لِيان نحوهم ثم صرخت بهازن لتفاجأني:

" قلت لي هو أهل للزواج؟ وأشدت به كزوج صالح؟ لم تذكر لنا أنه متزوج! "

اصفر وجه أمه ونظرت نحوه بقلق، ألجمت الصدمة لسانه ولم يتمكن من إجابتها، فصرخت به:

" ابتعد من هنا فأخر شخص أريد رؤيته هو أنت! "

وقف هائماً لا يدري بما يرد اعتذرت أم مازن وطلبت من ليان أن تطمئننها إلى حالة أمي وحاولت
حث ابنها على التحرك، لكنه كان واقفاً مصدوماً لم يستطع إبعاد عينيه عنها فولته ظهرها وتركته
ذاهبة إلى غرفة أمي.

بعد أن اطمأنت إلى أن أمي بخير جلست في فراشي أكمل نحبي وبكائي حاولت ليان عدة مرات
مواساتي لكن لم يكن بيدها صنع شيء لي. كنت غارقة في حزني وتعاستي وأنا أنظر نحو الهاتف
المحمول الذي وجدت أنه من الأفضل لي أن أغلقه وفوقه وضعت خاتم خطوبتي. رأيت أحلامي
تتحطم وصورة السعادة التي سأعيشها تتكسر أمامي. لم أستطع التخلص من الألم الذي داس قلبي
بوحشية، وكلما أغلقت عيني رأيت صورته وزوجته وهي تمسح بيدها على صدره.

لماذا يا أمجد؟... لديك زوجة مثالية وخالية من العيوب والدها رجل أعمال ناجح وأنجبت منها
طفلين بديعين مثل الزهور... لماذا تخونها بزواجك من فتاة أخرى؟... مثلي؟ لماذا لم أدرك أن شخصاً
مثله متزوج؟ طبعاً سيكون متزوجاً بكل مواصفاته التي يحملها.

لما عليّ أن أعاني؟ ثم وكأن الأفكار الشيطانية بدأت بالتسلل إلى ذهني لتهمس لي: من أنا لأفرح
أصلاً؟ لست إلا نكرة! كان الأمل الوحيد لي بتغيير حالي ودخول السعادة إلى بيتنا! بنيت أحلاماً
كبيرة عليه، أما الآن فأنا لا أرى إلا الفراغ. وقلبي.... يؤلمني بشدة!

لم يغمض لي جفن لجأت إلى ربي أصلي لعل قلبي يهدأ ويسكن لكن عبثاً.. كل ما تذكرته عادت
السهام لتهاجم قلبي فتغرز عميقاً فيه..

حل الصباح علي وأنا على نفس حالي، وقررت ألا أذهب إلى العمل لم أمتلك من القدرة والطاقة ما
يمكنني من مواجهة الدنيا أمامي.

قبلتني ليان على جيني وألحت علي بسؤالها عما إذا كنت بحاجة إلى أي دعم لتقدمه لي، فاعتذرت
إليها رافضة أي شيء لم أكن في مزاج حتى لأبادلها بابتسامة. وعند خروجها سمعتها توصي أمي بي.

حاولت أمي أيضًا أن تخرجني من فراشي وطلبت مني مرارًا أن أتناول الطعام لكنني أصررت على الرفض. وكلما ظننت أن دموعي قد جفّت، تعاود الانهار بغزارة حينما أتذكر صورته. كنت هائمة بعالم الأحزان، سمعت جرس البيت يقرع لكنني لم أهتم بمعرفة من يكون. تلا ذلك مجيء أمي إلي وعلى وجهها علامات القلق، ثم قالت بتردد:

" ابنتي إنه أجد وأمه "

رفضت مقابله لكنها أصرت علي أن أنهض لأواجهه، فالهرب من مشاكي لن يوصلني إلا إلى طريق مسدود. وبعد محاولات بإقناعي دامت وقتًا نهضت وارتديت عبائتي التي ألقيتها البارحة على علاقة الباب مع حجابي وسرت خلف أمي باتجاه مصير محتوم.

عندما رأني نهض واقفًا بسرعة وقال متلهفًا:

" إيلينا.. "

تجنبت النظر في عينيه وقادنتني قدماي إلى الطاولة في منتصف الغرفة، ووضعت صندوق هاتفي وفوقها علبة صغيرة خبأت فيها خاتمي أمامهما. شعرت به ينظر إلي ثم قلت أخيرًا:

" عندما أجمع ما يكفي من المال سأسد لك دينك كاملاً... "

وقفت أمه وأمسكت بيدي وقالت متوسلة:

" أرجوك يا حبيبي ... لا تفعل ذلك ... أجد يريدك زوجة له ونحن نريدك ابنة لنا. "

سحبت يدي من بين يديها وعضضت شفتي لأقاوم دموعي، تنهد أجد بصعوبة وقال موجهًا كلامه لأمي وأمه:

" هل لي بالجلوس معها على انفراد؟ "

أذعنت له أمي وطلبت من أمه أن ترافقها إلى المطبخ. عندما اختفتا اقترب مني أجد فابتعدت تلقائيًا، فقال:

" إيلينا أرجوك لا تقسي علي؟ "

فرفعت بصري إليه بسخط وقلت:

" متى كنت ستعلمني بزواجك؟ "

تحاشى النظر إلى عيني وقال:

" كنت خائفاً إذا اكتشفت أنني متزوج ألا تقبلي بي. لكنني أحببتك وأريدك زوجة "

هببت فيه فجأة بقوة:

" كلا! لن أكون تلك الفتاة التي تدمر حياة أخرى وتسلب أباً من أطفاله..... كيف طاواعتك

نفسك أن تتزوج على زوجتك؟ ماذا ينقصها؟ إنها مثالية.. ولا يعيبها شيء.. لم تجد غيري لتجعلها

نداً لها؟ من أنا بجانبها؟ "

فقاطعني قائلاً محتدماً:

" لا تستهيني بنفسك إيلينا فلديك جوهر قلة من الناس تملكه.... وليست كل قصص الزواج

سعيدة كما يبدو... أنا لن أقول لك ذمماً عن زوجتي فهي أم أطفالي وستري وغطائي.. لكنني لم

أقترف ذنباً برغبتى بالزواج ممن هي أفضل منها "

غطيت وجهي لأخفي دموعي التي انسكبت بحرارة وقلت له:

" أرجوك كفى هذراً لست أفضل من أحد.... فلننه هذا الأمر... أنا لا أريد لهذا الزواج أن يتم! "

فاستجداني متألماً:

"إيلينا! لا! "

أزحت يدي عن عيني ونظرت نحوه فوجدت عينيه ممتلئتين بالدموع. تنهد بألم وقال مع أول دمعة

سقطت من عينه:

" أنا اشتريتك بكل الأثمان! ساحيني ودعينا نؤسس أسرة، وإذا كنت تخشين على عائلتي فأنا لن

أقصر بحقهم أيضاً! "

عضضت شفتي ألماً وحسرة وقلت مصرة:

" لا .. قلت لك لن أكون هادمة بيوت، لن تطاوعني نفسي أن أتسبب بالألم لغيري ... سيدي

لديك ... لديك عائلة محببة فأياً كانت المشاكل التي تواجهها فقم بحلها وعد لبيتك وأولادك "

قال بآلم:

" سيدي؟! حقاً يا إيلينا؟! لا تفعلي بي هذا لا تحطمي قلبي!"

- " أسفة سبق وأن تحطم قلبي وضاعت أحلامي وكما وعدتك سأعيد إليك مالك كاملاً دون نقصان"

ركع على ركبتيه أمامي وأمسك بيدي وبكى بحرارة وتوسلني لأن أتغاضى عن فكرة عدولي عن الزواج وأخذ يقبلها مترجياً، شعرت بدموعه على كفي يدي تبللها.
سحبت يديّ واعتذرت منه ورجوته أن يغادر البيت وعدت إلى غرفتي وأطبقت الباب على نفسي وأكملت بكائي خلفه في حجري بعدما استسلمت للجلوس أرضاً.
طرق عدة مرات على بابي وتوسلني مراراً لأن أخرج وأراه. ثم سمعت صوت والدتي وأمه تقنعانه بتركي حتى أستطيع الحكم عندما أهدأ.

سمعت تمتمات طالت وجدالاً من حولي، لكنني لم أكن في وعي يسمح لي بأن أتبين ما يقال خلف الباب. ثم سمعت صوت باب البيت يغلق في النهاية.
أدركت أنه غادر أخيراً فعدت إلى بكائي المرير ثانية وأنا أشعر بأنني لن أشفى من حزني أبداً. تركتني أمي ولم تحاول إزعاجي كانت تطمئن علي بين الفينة والأخرى لكنها لم تجرؤ على الحديث معي بخصوص الموضوع حتى أستكين بمفردي وأهدأ.

ليان

وصلت المدرسة وإيلينا لا تغادر تفكيرى... شعرت بالحنق من الدنيا كلها؛ من مازن وأمجد ومن نفسي... تقدم المدير خارج مكتبه لدى رؤيتي ونادى باسمي قائلاً:

" آنسة ليان... تعالي إلى مكنتي أريدك بكلمتين"

أكملت سيرى دون أن أستدير إليه حتى، ورفعت يدي بوجهه دون أن أنظر إليه وقلت بجفاء واضح في نبرتي:

" ليس الآن!"

توجهت نحو مكتب مازن، كان الباب مفتوحًا فدخلت بعنفوان ونظرت إليه بحدة، عندما لمحني نهض واقفًا وقال:

" اسمعي مني أولًا"

عقدت يدي أمام صدري ونظرت إليه أنتظر منه أن يتكلم ورفعت حاجبي استنكارًا، ويبدو أنه صدم من ردة فعلي، لعله ظن أنني سأصرخ به وأرفض الاستماع إليه، وعندما طال بشروده هببت فيه بغضب:

" قل!"

فعاد إلى وعيه ثم نظر ناحية الباب فوجد المدير واقفًا عند الباب وعلى محياه بدا الانزعاج واضحًا، التفتُّ إليه ثم عاودت النظر إلى مازن وقلت:

" سيدي المدير أريد المحاسب بكلمتين"

أصر المدير على الوقوف ليعرف ما يدور من أسرار تضرر بسمعة المدرسة، ففهمت من كلامه أنه يظن أنني على علاقة غرامية مع مازن، فتجاهلت وقوفه وعدت إلى مازن أوجه له كلامي:

" لماذا لم تقل لي أن أمجد متزوج وله أولاد؟... لقد حطمت شقيقتي!"

نظر إلي منبهًا أن المدير ما زال واقفًا، وعندما أحس أنني لم أعد أهتم بسماع أحد لجدالنا رضح وأجابني:

" حقيقة كون أمجد متزوجًا ليس عيبًا، فهو رجل ويستطيع الزواج بثانية وثالثة ورابعة..."

فقاطعته بحدة:

" يكون عيبًا في حال إخفائه ذلك! كان من حق إيلينا أن تعلم بهذا لكي تستطيع أن تقرر إذا ما أرادت الارتباط برجل متزوج أم لا، أنا لا أجد سببًا لإخفائه الموضوع إلا كونه جبانًا وخسيسًا"

فرد علي مازن وبلهجته غضب مكتوم:

" لو سمحت يا ليان! ما زلت على موقفى من مدح أمجد، إنه إنسان بكل ما تحمله الإنسانية من معنى وهو يحمل الكثير من الصفات الرائعة، فإذا أخفى حقيقة زواجه ذلك لأنه أحب أختك بشدة وخشي حرمانه منها"

- " وها قد حُرْم منها.. وكما أحب أختي سيحب غيرها"

- " على العكس أمجد لا يجب أحدًا بسهولة هو دائمًا يبحث عن نقاء الروح وهذا ما وجده في شقيقتك"

ابتسمت بسخرية وأنا أحارب دموعي وقلت معقبة:

" والآن تلوّث هذه الروح والشكر لكم على ذلك..... لا تفكر في أن تحدثني أو حتى تلقي علي

التحية، من ساهم في تحطيم أختي فهو ألد أعدائي"

قلت آخر عبارة وخرجت من المكتب بعدما دفعت المدير بكتفي حيث كان شاردًا في صدمته، كأنه لم يتوقع أن يكون الموضوع بهذا الشكل.

لمحت يزن يقف خارج المكتب وعلى محياه نظرة غامضة لم أفهمها، تابعني بعينيه لكنني لم أكن في مزاج لأنظر إليه حتى، صعدت إلى غرفتي الصفية وأغلقت الباب وانهلكت بالبكاء بشدة على كل التعاسة التي مررنا بها وعاد بي شريط الذكريات لأتجرع المر في مراحل حياتي السابقة.

جلست على الكرسي ودفنت رأسي بين ذراعي وأنا أبكي بألم على حال إيلينا، تلك الفتاة النقية الطاهرة صاحبة القلب الطيب.. هي لا تستحق أن تتعذب ولا أن تبكي. كنت حريصة طوال حياتي على إسعادها وعدم السماح لشيء أو أحد بإيذائها... حاولت دائمًا جاهدة أن أخفي عنها أسوأ الأسرار القذرة التي ما كان قلبها ليتحملها. أمّا الآن فقد هدمت حصوني التي بذلت جهدًا في بنائها لحمايتها.

هل يارب ستعود إيلينا إلى مرحها المعتاد؟ أم ستبقى هذه وصمة في قلبها؟ دعوت ربي أن يطيب خاطرها ويشفي جرحها بأسرع فرصة. فأنا مستعدة لأتحمل الألم إذا ما حل بي ولكن ليس لإيلينا أو أمي.

تجاهلت النزول إلى الطابور الصباحي وعزلت نفسي في غرفتي الصيفية أحاول تهدئة نفسي لأستطيع الانخراط مع طلبتي والتفكير بترؤ في المجهول الذي سيأتي علينا.

إيلينا

لا أدري كيف غفوت، ربما بسبب البكاء بشدة، استيقظت لأجد الليل قد حلّ، أصابني الاستياء لضياح صلاتي، يجب ألا أسمح لمشاكل حياتي بالتأثير في فروضي. قمت أتوضأ لأؤدي صلاتي، كانت ليان وأمي في المطبخ عندما أحست ليان بحركتي أطلت لتراني ثم قالت:

" عندما تنهين صلاتك تعالي نتحدّث قليلاً "

استمعت إليها فما أن قمت بقضاء صلواتي حتى كنت جالسة عندهما في المطبخ على الكرسي المتوسط بينهما بدأت أمي الحديث بقولها:

" أعلم أنك غاضبة من أمجد لكن أريدك أن تفكري جيداً، هل زواجه سيكون عائقاً لك؟ لا تنسي أنه يتمتع بمواصفات وأخلاق حميدة "

فهاجمتها ليان مستنكرة:

" مثل الكذب؟! بم تهذرين يا أمي؟ "

فأجابتها بطريقة حادة:

" هو لم يكذب بل لم يقل شيئاً أصلاً.... إنه يجبها بشدة لم تري دموعه وهو يبكي من أجلها.. أنا برأيي أن تعطيه فرصة فهو يستحق ذلك "

ثم نظرت نحوي وقالت:

" إيلينا حبيبي الشبان أمثاله قليلون لن تجدي أحداً سيحرص على سعادتك أكثر منه "

لم يعجب ليان كلام أمي فهبت فيها قائلة:

" أمي! تشجعين ابنتك على الارتباط برجل متزوج! لا ومتزوج أيضًا بابنة رئيس ابنتك؟ أمي
عودي إلى رشدك فكما وجدنا أمجد ستجد إيلينا غيره في مثل مواصفاته لم تنقطع الدنيا من الرجال
الصالحين!"

فقال أمي محتدة:

" وتضيع حياتها في انتظار هذه الفرصة؟ ... الفرصة تأتي مرة واحدة في العمر"
فتحت ليان فمها لتهاجم بدورها، فقاطعت جداهما العقيم بقراري النهائي الذي لا عدول عنه:
"كفى! كلاكما كفى!.... أنا لا أكره أمجد يا ليان ولا أجده ذميم أخلاق، لكن يا أمي لن أرتبط به
وهذا قراري.. لن أهدم زواجه لأجل أنايتي! طفلاه لا يستحقان رؤية والدهما يجرح أمهما بارتباطه
بامرأة أخرى... لا أريد أكون سببًا في تعاسة غيري الموضوع منتهٍ بالنسبة لي"
وضعت النقاط على الحروف ثم نهضت وعدت إلى غرفتي لأجلس بمفردي وأصفي أحزاني وأصلي
ركعتين لعل الله يربط على قلبي.

الفصل الثاني عشر

" ماذا تفعلين؟ "

جاءني استجواب ليان مفاجئاً بينما كنت أرتمي ملاسبي، فأجبت على مضض:

" أستعد للذهاب إلى العمل. "

ردت علي وفي نبرتها شيء من الحدة:

" لا لن تذهبي! لست في حالة تسمح لك بمواجهة أعباء العمل! "

استدرت ناحيتها، كانت واقفة على باب الغرفة بعدما أيقظتها لصلاة الفجر، وبالتأكيد هي لم تتوقع

أن تعود إلى الغرفة لتجدني أستعد للذهاب إلى العمل، حاولت تصنع الصلابة وأجبتها:

" ليان! إذا بقيت في البيت فلن يرتاح قلبي، سأجد في العمل ما يلهمي تفكيري لئلا أجن وأفقد

أعصابي. "

ثم أردفت بعد أن وجهت نظري إلى الأرض وقد بدأت الدموع تتجمع في عيني لتصعب علي

الرؤية:

" يكفيني أنني خسرت قلبي لا أريد خسارة وظيفتي أيضاً، نحن في أمس الحاجة إليها "

اقتربت نحوي ووضعت كف يدها على خدي تمسح عليه بحنو وابتسمت بحزن وقالت:

" لا داعي لعملك في تلك الشركة، ستعيد إليك ذكريات مريرة! ولا يهم إذا تأخرت في إيجاد عمل

آخر فأنا مستعدة للتضحية من أجل راحتك، سأجد أنا عملاً آخر بعد دوام المدرسة "

اعترضت على عرضها بشدة، لا، لا يمكنني أن أعاملها بأنانية هكذا نحن مشتركات في هذه المسألة،

يكفيها أنها حملت مسؤولية هذه العائلة على أكتافها منذ الصغر، عندما كان خالي يأخذ أمي إلى

جلسات علاج الاكتئاب، ما عانته ليان في صغرها لم يعانیه رجل بعمر الخمسين. لن أسمح لها أن

تقسو على نفسها أكثر! روحها معذبة وأنا أعلم الناس بذلك بالرغم من تحملها وعدم مشاركتها آلامها.

بعد إصرار عنيف مني رضخت ليان لرغبتني في عدم ترك العمل، واشترطت علي أن ترافقني إلى موقف الحافلة مع أن طريقها إلى المدرسة من اتجاه آخر، لكنني وافقت لعلمي برغبتها في التخفيف عني ولم أشأ أن أخذها.

عندما وطأت قدمي المكتب ركضت سارة نحوي وعلى محاياها علامات القلق، نظرت إلى إصبعي الخالي من الخاتم وسألت:

" هاتفك مغلق منذ البارحة وليان لا ترد على مكالماتي ماذا حصل معك؟ لما تغيبت هكذا أمس فجأة؟ هل كل شيء على ما يرام؟"

هززت رأسي نفيًا، وطلبت منها أن أجلس في مكثبي بعد أن لاحظت أن من حولي ينظرون إلي. قادتني إلى المكتب دون أن تزيد حرفًا، ولم أكد أجلس حتى سمعت شهدًا تخاطب بعض الزميلات حولها:

" قلت لكم لن تستمر في خطبتها، يبدو أنه علم بعلاقاتها السابقة... ههه كم أكره هذا النوع من الفتيات اللاتي يختبئن في لباسٍ ساترٍ يخفي حقيقة أنهن فاجرات!"
التفتت سارة إليها ونهرتها بشدة بقولها:

" شهد! احترمي نفسك أنت تقذفينها! ويلك من الله!"

لم أنتظر رد شهد فما إن أنهت سارة جملتها حتى كنت واقفة أمامها، ودون تفكير رفعت يدي وصفعتها بشدة، كانت تحمل معها مجموعة من الأوراق التي تطايرت حولها إثر الصفعة. ولا أعتقد ان أحدًا في القسم كله لم يلاحظ ذلك، فاجتمع الكل من حولنا بين شامت ومتفاجئ ومستمتع. وضعت شهد يدها على خدها مصدومة وأرادت أن ترد لي الصفعة فقفزت سارة نحوها وأمسكت بيدها وهي تنظر نحوها مهددة، حاولت شهد إفلات يدها من قبضة سارة ثم صرخت بغل:

" اتركيني! لن أسامحك أيتها القذرة الفقيرة! اذهبي انظري إلى نفسك وأنت ترتدين عباءتك الباهتة اللون ذاتها دون تغيير! صرنا نتوقع لباسك قبل دخولك إلى المكتب! لهذا تلجئين إلى أصحاب النفوذ لينفقوا عليك من أموالهم بسخاء مقابل أعمال خسيصة!"

أنا في العادة لست متوحشة لكن ما رمتني به كثير! اهتممني بالقذارة وعايرتني بفقرتي، ففقدت القدرة على إمساك أعصابي وانقضضت نحوها، وأمسكت بشعرها بوحشية وأنا أبكي صارخة:

" الفقر ليس عيباً أيتها المتعجرفة وأنا لست بفاجرة!"

حاولت بعض الزميلات فكنا عن بعضنا بينما شهد تبكي وتصرخ وترفضني حتى أتركها، وتعال في المكتب ضحكات من بعض الشبان، حتى قطعت اللحظة بصراخ أحدهم بانفعال:

" ماذا يجري هنا؟"

جرى الكل إلى مكتبه وانقشعوا كما ينقشع الضباب، وأخذت سارة تهدئي حتى استطاعت فك يدي من شعر شهد. نظرت إلى يدي وأنا ألهث لأجد بعضاً من شعرها عالقاً بين أصابعي. بكت شهد بمرارة وارتفع صوتها في العويل وهي تخاطب شخصاً لم أدرك وجوده بعد:

" لقد هاجمتني كالمجنونة لأن خطيها رماها.. وعندما رأنتني في طريقها انقضت عليّ هكذا دون سبب!"

نظرت إليها سارة بحقد لكنها لم تستطع أن تنطق ولو بحرف، ثم فهمت سبب انعقاد لسانها عندما وجه ذلك الشخص خطابه إلي:

" إلى مكنتي! حالاً!"

التفت نحو مصدر الصوت عند الباب الزجاجي المؤدي إلى الممر الذي يصل إلى مكتب المدير، فوجدته ذاته واقفاً هناك ينظر إلي بملامح غضب ظاهرة. بدأ الوعي بالعودة إليّ تدريجياً وشعرت بدمي يتوقف عن الغليان في رأسي ليحل البرد والارتعاش على جسدي، عاد إدراكي إليّ ليهاجمني بفضاعة ما فعلت! التفت نحو سارة وقد اعتلى وجهي الرعب مما قد يحصل لي، فغطت فمها وأجهشت في البكاء بصمت.

نفضت يديّ وأخذت نفساً عميقاً وسرت بخطى مترنحة خائفة نحو مكتب المدير، رمقتني شهد في طريقي بنظرة احتقار وعيناها متورمتان من أثر بكائها.

توقفت أمام باب مكتب المدير الذي سبقني إلى الداخل وأنا خائفة مما قد يفعل بي لحظة دخولي المكتب، دعوت الله بسري أن يخرجني من هذه الورطة، أطلت عليّ السكرتيرة وفي عينيها نظرة شفقة أرعبتني لتقول لي:

" المدير ينتظرك في الداخل."

هممت السكرتيرة بإغلاق الباب بنفسها بعد دخولي، فاتجهت بأنظاري نحو الباب متوسلة بعينيّ ألا يتم إغلاقه. ثم شعرت بالقشعريرة تسري في جسدي عندما أدركت بأنني أصبحت الآن بمفردي معه في مكتبه.

كان يجلس على كرسيه وهو يوليني ظهره مثل المرة الماضية، ثم دار بكرسيه هذه المرة ليواجهني بنظراته الباردة الخارجة من عينيه الرماديتين الحادثتين، كان في يده قلم يلوح به بين أصابعه مما زاد من توترتي، نظر إلي متفحصاً من رأسي إلى أخمص قدمي، حاولت ازدراد ريقني لكن لم أستطع كأن شيئاً عالماً في حلقي ليمنعني حتى من التنفس، ثم قال بصوت رخيم:

" اقتربي"

وتلقائياً ودون جدال سارت قدماي باتجاهه إذعائاً كأنها بانتظار أوامره لأتحرك، وقفت أمام مكتبه بارتباك وخوف بائنين على وجهي، حتى أنني شعرت بلوني يتحول إلى الأصفر كثمرة ليمون عجفاء تركت بإهمال لتتعفن وسط الركام، تجمدت الدماء في عروقي وبدأت أعقد أصابع يديّ وأخذت الدموع تهددني بفضح خوفي البائن.

نظر إلى أصابعي المعقودة ثم زمّ شفثيه ونهض عن المكتب، دار حوله حتى وصل إلى محاذاتي ثم تابع سيره ليدور حولي من يساري إلى يميني من الخلف وعيناها تتفرسان في وجهي وملابسي، حتى شعرت بانعدام ثقتي بنفسي.

ثم استقر أمامي كان طويلاً بالنسبة إلي فإذا أردت النظر إلى وجهه كان علي أن أرفع رأسي عالياً.

وقعت عيناى على حذائه الفاخر النظيف ودون تفكير قارنته بحذائي القديم الذي قمت بخياطة نعله قبل فترة، حاولت أن أتكلم بصعوبة فخرجت أول كلمة لي مع أول دمعة قائلة:

" سيدي..... أنا!.... "

ولم أستطع النطق أكثر فقد أزيلت حصوني كلها وخرجت دموعي رغماً عني، لم يبرح مكانه وهو واقف أمامي يدها في جيب بنطاله القماشي ثم أمرني بصوته القوي:

" أنظري في عيني! "

شعرت كأنني على وشك الإغماء، أخذت أرفع رأسي ببطء نحوه، فلمحت قميصه الأسود المفتوح الياقة ليُظهر أمامي مقدمة صدره، فأربكني أكثر حينما لمحت تفاحة آدم في جوفه ليذكرني بسلطته كرجل قانع مهيب، ثم في النهاية وجدت عيناى طريقهما نحو عينيه الرماديتين.

كان يتأمل عينيّ كأنه يحاول قراءة أفكارى ثم سألني ببرود:

" هل تقابلنا سابقاً؟ "

لم أجه كنت في حالة ذعر شديد. ثم قرر أن يعود إلى الموضوع الرئيسي من استدعائي إلى مكتبه عندما لم يجد مني ردًا، أبقى نظره علي ورفع إحدى حاجبيه ليزيده جاذبية فوق جاذبيته لكنني لم أكن في موقف مناسب للإعجاب بمظهره. ثم أخيراً قال:

" هل لديك تفسير لما حصل خارجاً؟ "

حاول ذلك الجزء الصغير من داخلي أن يحثني على البوح بكل شيء لكن الجزء الأكبر مني ذلك الجزء المرتعد أبى أن يتحرك أو يصدر صوتاً.

فزفر عميقاً باستياء على سكوتي الخانق ثم التفت نحو مكتبه وسار باتجاهه وهو يقول:

" إذن اشرحي سبب تعيبك البارحة دون إذن، هل لديك تقرير يبرر غيابك؟ "

أبى لساني أن يستجيب ثانية، فجلس على كرسيه واتكأ بذقنه على يده وقال بنفاد صبر:

" أنا أحاول ان أفهم ما يجري معك حتى أستطيع التعامل مع ... أيّ ما فعلته، لكن يبدو أنه لا

يوجد ما تبررين به سلوكك غير المقبول، لذا تفضلي رجاء بتوقيع استقالتك "

ومد أمامي ورقة كان يحتفظ بها على مكتبه كأنه قد قام بتجهيزها سابقاً، أخذت أبكي دون توقف..
بكييت على ضعفي.. بكييت.. حسرة على حالي الذي وصل بي إلى المذلة بهذا الشكل، تقدمت أمام
المكتب أكثر، حاولت أن أنظر نحو ورقة استقالتي فلم أستطع رؤية ما كتب فيها بسبب دموعي التي
غطت مجال رؤيتي .

مدّ إليّ بقلمه لألتقطه منه لأطيع أمره دون نقاش. مددت يدي المرتعشة وأمسكت القلم بضعف
ووهن ثم ورده اتصال من هاتف مكتبه، رفع الساعة ووضعها على أذنه.
حاولت مسح دموعي وأنا أبحث في الورقة عن مكان اسمي لتوقيع الاستقالة، وعندما لمحته قربت
القلم لأوقع عليها ففاجأني بوضع يده على الورقة مكان توقيعي كأنه يمنعني.
رفعت بصري إليه لأراه يضع الهاتف على أذنه وهو يتأملني بنظراته الغامضة، ثم تتم ببضع عبارات
وأغلق ساعة الهاتف، سحب القلم من يدي فأجفني ثم قال لي:

" اذهبي إلى مكتب الرئيس فهو في انتظارك."

حاولت جاهدة فهم سبب تغير موقفه فبقيت واقفة أنظر إليه متفاجئة، رفع بصره نحوي بتلك
العينين الأسرتين وقال:

" ما زلت واقفة؟ ألم تسمعي ما قلت؟"

استيقظت فجأة من حالة التيه التي كنت أشعر بها واعتذرت منه ومضيت مغادرة مكتبه، لكنني لم
أرجع في الاتجاه ذاته الذي جئت منه، لم أشأ أن أواجه أيًا ممن أعمل معهم في القسم لذا التجهت نحو
الممر الآخر الذي ينتهي إلى سلام من الجهة الخلفية وإلى جانب السلام يوجد مصعد، فارتأيت أن
أركبه صعوداً إلى الطابق الخامس. أعلم أنه يفصلني عنه طابق واحد لكن قدماي بالكاد حملتاني.
وصلت إلى مكتب السكرتيرة فنظرت نحوي بجفاء مثل المرة الماضية، لكن هذه المرة أشارت إلي
بيدها أن أتوجه إلى داخل المكتب فتوجست خيفة من داخلي.

وقفت أمام باب غرفة الرئيس الذي كان مفتوحًا وطرقته بصوت مسموع، كان يتحدث في الهاتف وهو منسجم بمرح. عندما سمع طريقي نظر نحوي فأشار إلي بيده أن أدخل بينما تابع حديثه في الهاتف:

" أرى أن تضع حدًا لتصرفاته الرعناء وتزوجه صدقني هكذا سيعقل قليلاً..."

ثم ضحك بخفة وقال منهيًا المكالمة:

" حسنًا علي أن أنهى المكالمة الآن فلدي عمل أقوم به"

ودّع الشخص الذي على الطرف الآخر من المكالمة ثم نظر إلي بابتسامته التي لم تفارقه، وقال معقبًا:

" إنه لمن الصعب التعامل مع الشاب في سن الزواج إذا كان متمردًا، ما رأيك في الموضوع؟"

لم أجبه لم أعرف ماذا أقول له وأصلاً كان بالي مشغولاً بهموم أخرى.

تنهد وهز رأسه، ثم سألني ببشاشة:

" على كل حال كيف أنت اليوم؟"

هزرت رأسي وأجبت بصوت ضعيف حامدة الله، ثم أخذ يتأرجح في كرسيه يمناً ويسرة بحركة

خفيفة وقال:

" أين كنت البارحة؟ استدعيتك لكن قيل لي أنك كنت متغيبية. هل أنت بخير؟"

هزرت رأسي مرة أخرى دون أن أجيب. ثم أضاف:

" اسمعي يا ابنتي سبب استدعائي لك هنا أنني أريدك أن تعلمي في بيتي في تعليم حفيدي حتى نهاية

هذه السنة، الطفلان أحباك بشدة وكل ما علمتهما إياه أتقناه بشكل تام، ما رأيك؟"

شعرت بالضيق لدى ذكره الموضوع ورجوع تلك الذكرى الأليمة تتجسد أمامي، أشحت بصري

بعيداً.. لا أدري ماذا أقول لأرفض، فألح مرة أخرى بقوله:

" ستأخذين حقك كاملاً بالإضافة إلى أنني سأزيد مرتبك في الشركة، وكما وعدتك سابقاً سنتكفل

بإيصالك، ماذا قلت؟"

أعاد إلحاحه مرة أخرى عندما لم يجد مني ردًا:

" أعدك يا ابنتي أن تتحسن أحوالك ولن تضطري إلى طباعة منشورات أخرى إذا قبلت العمل لدي! سأكرمك وستستطيعين سد ما عليك من التزامات، فقط وافقي "

شعرت أنه لا مهرب من إلحاحه المتكرر وفكرت في أنني إذا لم أقبل فلربما يناديني المدير ثانية لأقدم استقالتي، ونحن لسنا في وضع يسمح لنا بالاعتماد على مرتب ليان وحده، لكن عندما أتذكر أن هذين الطفلين هما ابنا أجد أشعر بمغص وامتعاض من الفكرة كلها، ثم طرأت في بالي فكرة، إذا وافقت وأرغمت نفسي على تقبل عملي في تدريس أبناء خطيبي السابق لربما استطعت أن أعالج جرحي، بإرغام عيني على رؤيته مع زوجته وهكذا بدل الهروب من مشاكلي أواجهها فأتلخص منها. رفعت وجهي مقابل المدير ثم أخذت نفسًا وأجبت:

" لك ما تشاء يا سيدي، لكن أرجوك لا تسمح للمدير بطردي من العمل "

ظهر التعجب على محياه الوسيم، ثم قبل أن أعطيه فرصة ليسألني عن السبب اعتذرت منه لأقوم بإنجاز عملي المتراكم وغادرت غرفته وتركته وسط حيرته.

ليان

أجرى معنا المدير اجتماعًا في بداية اليوم الدراسي، أنا حقًا لا أفهم كيف يفكر هذا الرجل! لقد تسبب في ضياع الحصة الأولى على الطلبة. كان الاجتماع بخصوص الأنشطة الرياضية التي أعلنت عنها الوزارة كمسابقة سابقًا وأراد المدير لنخبة من طلبة المدرسة المشاركة. وأخذ يستطلع آراءنا في أفضل أنواع الأنشطة الرياضية التي علينا العمل عليها لتدريب الطلبة، فاستأذن يزن ليقدّم اقتراحًا قائلاً:

" ما رأيك بالملاكمة إنها رياضة قوية تسمح للطلاب بتفريغ بعض من انفعالاته السلبية "

ثم نظر نحوي مبتهجًا، الوضع! إنه يلمح إلي! إلى أين تريد الوصول يا يزن بسماجتك؟ تجاهلته وأبعدت ناظري عنه.

لكن المدير رفض الاقتراح متذرعًا بأنها رياضة غير آمنة، فهز يزن رأسه وقال:

" صحيح نسيت هذا الجانب قد يؤذون بعضهم، مثلاً قد تأتي ضربة طائشة في عين أحدهم " أخذت نفساً عميقاً لأتحكم بغضبي الذي بدأ يتصاعد تجاهه ثم أعاد النظر إلي وعلى ملامحه تلك الابتسامة الماكرة، فتظاهرت بأنني أنظر في شاشة هاتفني المحمول لأبعد عيني عن الماكرتين عني. أنهى المدير الاجتماع عند بداية الحصّة الثانية وعندما هممت بالمغادرة مع باقي الطاقم ناداني المدير قائلاً:

" ليان أريدك في مكنتي، الآن!"

أردت أن أعترض متذرة بأن لدي حصّة للطلبة لكنه لم يعطني فرصة وسبقني إلى مكنته، فاضطرت إلى اللحاق به.

وقفت على باب مكنته بنظرات تشير إلى عدم رغبتني في الحديث معه، لكنه تجاهل نظراتي وقال:

" ادخلي وأغلقني الباب خلفك "

ففعلت كما أمر، أقنعت نفسي أنني لربما إذا استمعت إليه هذه المرة ربما، ربما! عتقني مبكراً.

قلت بنفاد صبر جليّ في نبرتي:

" أرجوك تكلم بسرعة لدي حصّة "

كان جالساً في كرسيه بصمت غريب بينما يحك ذقنه بيده ثم بعد تردد تجرأ وطرح سؤاله:

" ترد إشاعات في المدرسة أنك مرتبطة فما مدى صحة هذه الإشاعات؟ "

شحب وجهي، وقفزت إلى قلبي رعشة مخيفة، تلعثمت قبل أن أستطيع الرد:

" من أين أحضرت هذا الكلام؟ وما الفرق الذي سيشكله لديك؟ "

زفر نفساً طويلاً كمن خاض يوماً طويلاً في العمل، مع أننا ما زلنا في بداية الدوام! وأخذ يخفف من

إحكام ربطة عنقه بانزعاج واضح على محياه، ثم أجابني أخيراً:

" أنا لا أعرف كيف أوصل إليك الموضوع أكثر... إلى متى ستعمين عيني عن الرؤية بوضوح؟ "

قاطعته وقد نفذ ما تبقى لدي من صبر:

" ترجم قولك بكلام مفهوم أو اتركني أذهب "

فنهض واقفاً بسرعة أجفلتني قليلاً وأجاب محتدماً:

"عقب انفصالك عن خطيبك السابق.... شعر زملاؤك بالأسى نحوك... لكن بالنسبة إلي كنت أشعر بسعادة غامرة"

عندما بدأ الحديث عن خطيبي السابق، شعرت بالحنق، لذا ارتأيت تركه يتكلم لأخرج من مكتبه، فهممت بالاتجاه نحو الباب، لكن عبارته الأخيرة استوقفتني فاستدرت نحوه وأنا على وشك الانقضاض عليه بلساني، لكنه قاطعني قبل أن أبدأ:

" ذلك... لأنه ترك المجال لي مفتوحاً لأحصل عليك."

أخذت كلماته وقتاً في دماغي لأترجمها.. لم أتوقع أبداً أن يقول كلاماً مثل هذا! فتسمرت في مكاني وعلق لساني في سقف حلقي من هول الصدمة، فقال مؤكداً:

" نعم... ليان أنا معجب بك منذ وطأت قدمك هذا المبنى، لكنك عميت عينيك عن مشاعري تجاهك"

غطيت فمي بيدي أحاول البحث عن حروفي التي تاهت مني حتى استطعت أن أجيبه بأي شيء خطر لي فقلت مستنكرة:

" لكنك متزوج! ولديك أولاد!..و.."

فقاطعني بقوله:

" كما قال لك مازن سابقاً، الرجل يستطيع الزواج بثانية وثالثة ورابعة، هل لديك مانع من الارتباط بي؟! "

أحسست في نبرته نوعاً من التهديد هل يعقل أن يطردني من العمل إذا رفضته؟! هذا وارد. تحركت شفتاي دون أن أحكم عقلي أولاً بقولي:

" نعم يوجد مانع... ما سمعته صحيح، أنا... مرتبطة!"

نظر إلي بحنق غير مصدق وليتأكد من عدم كذبي ألح بالسؤال:

" بمن؟ "

تنفست بصعوبة فوجدت شففتاي تخوناني مرة أخرى وتنطق باسمه دون وعي:
" يزن!"

حان وقت الاستراحة الخاصة بالطلبة، واصطحبت طلبتي إلى الساحة المدرسية لتناول فطورهم. جلست بينهم أراقبهم وذهني شارد برودة فعل المدير صباحا، والذي بدا الضيق واضحا على محياه، هنأني بعبارات التهئة بغير ود، كأنه يرغب نفسه على ذلك، بدا لي مكشرا عن أنيابه. المشكلة ليست فقط برودة فعله بل... كيف نطقت باسم يزن؟! ماذا علي أن أفعل الآن؟ كيف أنهي هذه الدوامة التي أدخلت نفسي فيها؟

والمعتاد جاء صوت هناء يصدح بإزعاج لينتشلني من شرودي وهي تركض نحوي، وما إن وصلتني حتى أمسكتني من ياقة قميصي وأخذت تصرخ بي قائلة بغضب:
" كيف لا يكون لي علم بخطبتك من يزن؟! أعرف بالخبر من المساعدة وليس من صديقتي؟! ماذا حل بك يا ليان؟ ألم تعودني تأتميني على أسرارك؟"
ألجمت الصدمة لساني لكنني سرعان ما وجدت صوتي فوضعت يدي على فمها لأسكتها ثم سألتها بحذر:

" من أين عرفت المساعدة بهذا الخبر؟"
فقلت بحنق بعد أن أبعدت يدي عن فمها:
" الكل في المدرسة يتحدث في الموضوع"
اصفر لوني وأخذت ألطم وجهي مرارا وأنا أتمم مع نفسي بندم، ثم نظرت نحو هناء وأنا على وشك الإغماء وقلت:

" أنا لم أرتبط بيزن! قلت ذلك للمدير حتى أبعد شره عني!"

قابلتني هناء بنظرة مستنكرة وقد غسل الدهول وجهها، فتعلقت بذراعها وأجبرتها على الجلوس بجانبها، تاركة طلبتها في الجهة الأخرى من الساحة من غير رقابة، حتى أهمس لها بما جرى معي في مكتب المدير.

لن أنسى وجه هناء الذي كادت ملاحظها أن تسقط من أثر الصدمة، فسألته وهي تقضم أظافرها بتوتر؛ كيف سأتعامل مع الخبر إذا ما وصل إلى يزن؟ فلطمت خدي بحسرة وانتفضت أتجول جيئة وذهاباً لأفكر بطريقة للتخلص من هذا الكابوس.

مكثت في استراحتي الخاصة في الغرفة المخصصة للمعلمات وأنا أهيم على وجهي من فداحة ما أذعت به للمدير، كنت على يقين من أنه هو من قام بنشر هذه الإشاعة بنفسه ليتأكد من صدق كلامي. انتشر الخبر في الطابق كدخان الحريق، وسمم عقول الجميع به، لاحقتني بعض من زميلاتي إلى غرفتي للتهنئة وإشباع فضولهن بأسئلة لم أفتح مجالاً لأسمعها، متدرة بحصصي ونتاجاتي. كنت وحدي في الغرفة، لأن زميلتي ميار تم استدعاؤها لمقابلة أحد أولياء الأمور، فتخللني شعور طفيف بالراحة؛ لأتخلص من أسئلتها التي حقا لا أحمل إجابات لها!

لاحظت باب غرفة المعلمات يطرق وثم يُفتح بتأنٍ، وكان علي أن أتوقع القادم! جال بنظره في الغرفة ليتأكد من خلوها من أحد سواي ثم سمح لنفسه بالدخول دون إذن وأغلق الباب ووقف متكئاً عليه، نظر إلي باستمتاع وقال:

"إذن متى كنت ستزفين هذا الخبر السعيد إلي؟ هل يعقل أن يهنأني الأساتذة بخطبتي التي علموا بها قبلي؟"

غطيت وجهي بكفي يدي وأنا أقول:

"يا ويلى! تباً لك يا سيد عصام أيها المدير الأخرق!"

ظللتني خياله من خلف الطاولة ثم أحسست بسخونة يديه تلمسان أصابعي ليزيحها عن وجهي ويتفرس ملامحي بعينيه الزرقاوين وهما تلمعان بشدة، صفعت يديه بعيداً وأنا أقول:

" لا تغتر بنفسك! لقد كذبت!.. اضطررت أن أقول له ذلك حتى.... حتى أبعد شره عني..... لقد اعترف لي بمشاعره نحوي "

رفع حاجبيه مستنكرًا قائلاً:

" وقح! يحاول أخذ ما ليس له؟! ألا يكفيك ذلك المحاسب الذي يحاول جاهدًا خطفك مني؟" رفعت إصبعي أمامه بتهديد قائلة:

" لست ملكًا لأحد.. هل سمعت؟ اسمع أريد منك معروفًا.. " التفت إلي ينتظر سؤالي فطرحتة قائلة:

" تظاهر أنك خطيبي لفترة معينة، ثم ستظاهر بأننا انفصلنا" رفع حاجبيه وعلى محياه ابتسامة نكراء ثم قال:

" وعلى ماذا سأحصل في المقابل؟"

نظرت إليه بتهديد ثم أعاد سؤاله بثقة مهددًا:

" حقًا! على ماذا سأحصل في المقابل؟ إلا إذا أردتني أن أكذب الخبر!"

نظرة الاستمتاع لم تغادره وهو يتأمل وجهي الباهت، فاستدار نحو الباب ليخرج فهرولت نحوه دون تفكير وأمسكت بذراعه لأوقفه. وقلت بيأس:

" اطلب ما تريد.. لكن بحدود المعقول!"

سكت هنية ثم نظر إلى يدي المسكة بذراعه فشعرت بالخرج من تصرفي فتركتها، ووجهت ناظري نحو الأرض بارتباك شديد، فاقترب مني ومد يده خلف ظهري وجذبني إليه بقوة فشعرت بصلاية صدره على جسدي فاحمرت وجتتاي بشدة، وضعت يدي على ذراعه لأحاول التخلص من قبضته لكنه أحكم علي أكثر.

قرب رأسه من رقبتي المغطاة بحجابي ثم همس لأشعر بأنفاسه الحارة تحترق حجابي:

" أصبح لدي إدمان على رائحتك الزكية"

حاولت تخليص نفسي مجددًا وأنا أردد:

" يكفي وقاحة اتركني!"

ضربته بقوة على كتفه فنلت سخطه، جرتي بقوة نحو الحائط وأمسك بيديّ ورفعهما عاليًا فوق رأسي وأحكم قبضته عليهما فألمني، قرب رأسه من رأسي وأخذ يحدثني وهو ينظر نحو شفتي:

" سيتهي بك المطاف مخطوبة إلي بالفعل"

شعرت بخدران في ساقِي وكنت على يقين أنه إذا تركني هذه المرة فسأقع أرضًا.

مدّ يده الأخرى نحو شفتيّ وأخذ يمسح عليهما بأصابعه، كانت نظراته إلي تحمل انتصارا واستمئعا بمظهري المحرج كجرو صغير تائه، ثم قرب وجهه مني فاختنقت كلماتي في جوفي، مما أعطاه الإذن بالتمادي فطبع قبلة سريعة صغيرة قريبًا من زاوية فمي، فشعرت بالحنق لإخطائه موضعها متعمدًا ليغيظني، ابتلعت ريقِي بصعوبة وأنا أنظر نحو شفتيه فقلت دون وعي:

" أرجوك!"

ابتسم بمكر وقال متممًا جملتي من مخيلته:

" أرجوك قبلي؟"

سكتّ ولم أستطع الرد أردت أن أقول له لا اغرب عن وجهي! جزء صغير مني يصرخ محتنقا لأتوقف في منتصف الطريق قبل أن أستسلم ليذكرني بحرمة ما أنا فيه! لكن ذلك الجزء الشيطاني المستعمر الجزء الأكبر من إدراكي يصرخ بي أن أحرص لعله يريحني وأشعر بلمسة شفتيه، أردت بشدة أن أجرب الشعور ولو مرة، لأسكت فضولي نحوه فقط...

فلما لم يجد مني ردًا تنهد برغبة مسيطرة وأطبق شفتيه على خاصتي بقوة، استسلمت له ولم أقاوم وقد ذبحت صوت ضميري الذي يهتف لي من الأعماق متوسلا، ومن قوة رغبته قام بعض شفتي لتخرج تلك التنهيدة من فمي فتزيده رغبة، أحسست بطعم فمه الممزوج بين الكرز والنعناع فجن إحساسي وشعرت بأنني فقدت السيطرة على نفسي لا محالة، أردت منه المزيد، كم رغبت في أن يتوقف الزمن هنا في هذه اللحظة بالذات، لكن حصل ما خالف توقعي فقد قطع قبلته وابتعد قليلا عني، فشعرت بالضيق يعتصر قلبي، فلم أرد له أن ينهيها. نظر في عيني وقال:

" هذا الجزء الأول من أجري مقابل تظاهري بكوني خطيبك... أما الجزء الثاني فسيكون بعد انتهاء
مخططك "

ثم ترك يديّ المعلقين فوق رأسي وابتعد نحو الباب، ففقدت توازني وكدت أقع لولا اتكائي على
الحائط.

ابتسم بوجه متورد، ووضع يده على مقبض الباب ثم قال بإحساس قوي:

" طعم شفيتك أذكي مما تخيلت "

غطيت فمي بيد وأخفيت عينيّ بيدي الأخرى محرجة مما حصل، ثم سمعت صوت الباب يغلق،
فتحت عينيّ فوجدته قد غادر الغرفة وتركني وحدي بساقيّ الضعيفتين وقلبي المرهف وصدري
الثقيل . وضعت يدي على شفتيّ أتحمسهما وأنا أحاول التقاط أنفاسي، هذه أول قبلة أحصل عليها
في حياتي، لم أستطع احتمال هذا الشعور الذي رافقها ما الذي تفعله يا يزن بحواسي وتفكيرتي؟ أي
سحر ألقينه على قلبي؟

وهنا عاد صوت ضميري إلى الحياة معاتباً لهواني تجاه أخلاقي، هل فعلاً استسلمت لشياطيني؟!
أقنعت نفسي عندما خانتني دموعي بأن الحق كاملاً يقع عليه، لكن ضميري صفعني وهو يوبخني
بأنني من فتح له المجال.. فأنا لم أفعل شيئاً لأدراً عن نفسي تماديه علي، هو يظنني رخيصة فنال مني
مراده! لقد خسرت... تهت عن الدرب الصحيح! كيف سأواجه ربي؟ بأي وجه؟! كيف سيسامحني
وقد هنت على نفسي! لم أظن يوماً أنني سأكون ضعيفة هكذا، يا لحسرتي على نفسي!

الفصل الثالث عشر

"ماذا قلت؟!"

صرخت هناء كعادتها بجنون فأغلقت فمها بكف يدي وأنا أشزرها قائلة بصوت منخفض أشبه بالهمس:

"اسكتي فضحتيني!"

ثم فتحت فمها الغبي لتسألني مبعدة يدي:

"ليان! هل أنت مدركة لما فعلته؟ إذا رخيت حصنك فسيأتي لطلب المزيد هل جُنتت؟ كيف

تسمحين له بتقبيلك؟! أنت فتاة ملتزمة!"

قاطعتها بانزعاج:

"هناء اخرسي! لا تجعليني أندم لأنني أخبرتك! رجاء يكفيني المصيبة التي أوقعت نفسي فيها، هل

تظنني سعيدة بما فعل؟!"

جلست هناء على طرف الطاولة وأنبتني قائلة:

"أجل! أظن ذلك فهو لم يأخذ منك شيئاً رغباً عنك أنت استسلمت له وسمحت له بفعل ذلك"

حدجتها بعيني محذرة، فضربت كتفي بقبضة يدها بخفة وقالت:

"حسناً.....لم تقولي لي كيف كانت القبلة؟"

قلبت بعيني وأجبته بامتعاض:

"مقرفة مثله!"

- "أها واضح جداً من تورد وجنتيك! واو! لم أكن أعلم أن القبل تنعش البشرة هكذا!"

نهضت أصرخ فيها وأنا أتجه صوب الباب لأخرج سموها من رأسي:

"هناء! اسكتي! لا ينقصني إلا مزاحك الثقيل!"

فجرت خلفي وأمسكت بيدي وأعادتنني إلى داخل الغرفة الصفية على محياها هذه المرة نظرة جدية، ثم قالت محذرة بصوت منخفض:

"ليان! أرجوك انتبهي إلى نفسك! إذا كان هذا الجزء الأول من المكافأة فما هو الجزء الثاني؟ أنا لست مرتاحة إلى ما يفعله معك ماذا لو... جرك نحو شيء أكبر؟!"

شهقت بقوة وبدأ الرعب يتسلل إلى أوصالي كلام هناء صحيح ماذا لو كان ينوي على فعلة أكبر ويظن أنني إذا استسلمت لقبته قد أذعن لشيء آخر؟

فتركتها وجريت نحو مختبر الحاسوب قبل أن يغلقه ويخرج من المدرسة، وعند وصولي إلى السلام التقت عيناى بعيني مازن الذي كان يغلق باب غرفة المحاسبة وهو يهم بالخروج، فتحولت نظرتي إلى برود وجفاء وتجاهلته وأكملت سيرتي.

لكنه وجه إلي كلامه ليقطع سبيلي قائلاً:

"مبارك خطوبتك يا ليان. مع أنني لم ألمح الأستاذ يزن أبداً في حيناً ولم أسمع أحداً من سكان المبنى يتحدثون في الموضوع"

شعرت برعشة تسري في جسدي، إلام يلمح بكلامه؟ لم ألتفت إليه ولم أجبه بشيء بل واصلت سيرتي حتى وصلت إلى مختبر الحاسوب.

وصلت أمام الباب وفتحته على مصراعيه فوجدت يزن مع معلمة التربية الرياضية عبير يتحدثان بمرح، فشعرت بغصة تخترق قلبي، نظرت نحوها بحدة فابتلعت ريقها، ممتاز! نجحت في دب الرعب في قلبها. فودعت يزن ملوحة له مبتسمة وخرجت.

عبير فتاة جذابة ممتلئة تلفت الأنظار بمكياجها الصارخ ولباسها الضيق، مما بث شعوراً سيئاً في داخلي فأنا على عكسها نحيلة ولا أمتلك مقوماتها، ثم وجهت نظري إليه بغضب فرفع حاجبيه مستنكراً وقال:

"تجيدين تمثيل دور المخطوبة الغيورة أم أنك حقاً تغارين؟!"

رفعت إصبعي بوجهه بتهديد ثم قلت مهاجمة له:

" اسمع! جئتك بكلمتين..... اشترطت عليك أن تطلب مني مقابلًا ضمن الحدود فإذا كنت تنوي من الجزء الثاني من المقابل غرضًا خسيسًا فانس الاتفاق"

ضيق عينيه وقال يصطنع عدم الفهم:

" ماذا تقصدين بالغرض الخسيس؟ أنا لا أريد مالك"

" يزن! أنت تفهم ما أرمي إليه!"

ابتسم بمكر وأجاب وهو يرسم علامات المرح على محياه:

" لا، لا أفهم تفضلي اشرح لي"

أخذت نفسًا قويًا وزفرته بغضب، هذا المغرور مصر على التظاهر بالغباء إذن سأجيبه بنفس أسلوبه القذر، أغلقت الباب خلفي، ثم التفت إليه وقلت له بنبرة جادة:

" أنا لن أقيم معك علاقة محرمة إذا كان هذا ما تخطط له"

علق فمه مفتوحًا بدهشة من جرأتي في الكلام كأنه لم يتوقع أن أرد عليه، تنحنح عدة مرات ثم قال:

" ليان! من أين خطرت في بالك هذه الفكرة؟"

تحاشيت النظر في وجهه ثم تابع:

" لؤلؤتي اسمعيني... أنا لن أقدم على هذا العمل أبدًا فلا تحشيني، معاذ الله أن أخطو هذا الدرب!"

- "وكأنني أصدقك! أنا لا أثق بك البتة!... لقد تماديت يا أحمق!... فعلتها ثانية، خدشت

حيائي!"

عند نهاية جملتي هذه كنت قد استسلمت لدموعي التي انسكبت كالسيل على وجعتي، فأخذت أمسح بها بظهر يدي بقلة حيلة، لم أر تعابير وجهه، كان ما زال يقف أمامي متسمرا كأنه دهش من بكائي المفاجئ.

هتف لي مرات لعلي أوجه انتباهي إليه:

"ليان!.. ليان.. أرجوك! لؤلؤة!"

أعطيته ظهري متجهة نحو الباب لأخرج، لكنه استوقفني بعبارته قائلاً:

"طريق الحرام سهل... بل أسهل مما تظنين!"

كنت ممسكة بمقبض الباب وقلبي يخفق بشدة، انتظرتة ليكمل ما يريد قوله، لكنه صمت قليلا قبل أن يقترب مني ثم توقف متكئا على الحائط بجانب الباب، لو رفعت بصري قليلا لالتقت نظرانا، لكنني جبت ولم أجرؤ على فعل ذلك، راقبت يده وهي تدخل جيب بنطاله ثم قرر أخيرا أن يتكلم فأردف بقوله:

"في السابق كنت مستعدا للسير في ذلك الطريق، فشاب مثلي وفي مواصفاتي يعد صيدا ثمينا لضعيفات النفوس"

قطبت حاجبي غير مرتاحة لكلامه، فتابع:

"لكنني رُزقت بملاك حارس... ملاك أبعدني عن ذلك الطريق قبل أن أهوي فيه ولا أتمكن من العودة، عاهدت نفسي أن أسير في طريق مستقيم، وألا يقف شيء في طريقي، جعلت لنفسي هدفا بدل الانتقام من حياتي المنحطة بمزيد من الانحطاط... ثم التقيت بك"

رفعت بصري نحوه ففوجئت بنظراته الشغوفة وهو يتأمل عيني، ثم أكمل:

"هل تعرفين فرحة الضائع في ليلة مقفرة وسط صحراء مجهولة حينما يلمح نجما في السماء؟ أنت بالنسبة لي تلك النجمة، وأنا ذلك الضائع... أقسم لك ألا أتجراً عليك... لن أوذيك أبدا يا ليان، ولا تخشي شيئا حقا لن أطلبك بشيء مما في بالك، أصلا ما حاجتي في استعجال رزقي؟ على كل حال سترفين لي عن قريب، ستصبحين زوجتي بأسرع مما تتخيلين!"

حافظت على جمود نظراتي نحوه بالرغم من أن قلبي يكاد يقفز خارج ضلوعي من حديثه المفاجئ لي، ثم أسرعت بالخروج من المكان قبل أن يلحظ تأثير كلماته علي، وما إن وصلت الشارع مقابل المدرسة حتى تمكنت من إخراج نفس لم أكن أدري أنني أختنق به كل ذلك الوقت.

إيلينا

عدت إلى مكتبي وأنا غارقة في عالمي الخاص من البؤس، لم أعر أحدا انتباها ولم أعبأ بنظراتهم الموجهة نحوي بينما هم يتهايمون فيما بينهم. ثم شعرت بالاختناق فلم أجد سارة في المكتب.

جلست على الكرسي فأحاطتني مجموعة من زميلاتي يُردنَ الاطمئنان على حالي، فأجبتهن باختصار شديد، كنت حريصة على ألا أرضي فضولهن تجاه أي شيء، ثم تجرأت إحداهن وطرحَت التساؤل الذي يشغل بالهن:

" إيلينا لماذا انفصلت عن خطيبك؟ "

جلست أمام جهاز الحاسوب وأجبتها ببرود:

" لم لم يكن كما أريد "

ثم جاء صوت سارة لتبعد فضولهن من حولي:

" إلى أعمالكن واطركنها في حالها! "

فابتعدت الفتيات إلى أعمالهن دون نقاش، نظرت نحوها وسألتهَا:

" أين كنت؟ "

فأجبتني بسؤال آخر:

" ماذا حصل معك؟ لم أجذك في مكتب المدير "

نظرت نحوها بتساؤل واضح وقلت:

" كيف عرفت؟ هل كنت في مكتبه؟ "

لم تستطع إجابتي بسبب ولوج شهد إلى المكتب بكل عنفوان وغضب وقالت موجهة كلامها إلينا نحن الاثنتين:

" لن يمر تصرفك هكذا دون أن آخذ اعتباري أيتها القذرة! أما بالنسبة لك يا سارة فقد بدأت حربًا لست ندًا لها "

تجاهلتها سارة وقالت لها بسخرية:

" اذهبي وقومي بتركيب وصلات في شعرك بدل الذي نُتف بين أصابع إيلينا "

فازدهر المكتب بضحكات البعض، حاولت شهد إسكاتهم بنظرات ثابتة تجاههم لكنهم لم يعبؤوا بها وكأن جرأتي في شدِّ شعرها أكسبتهم ثقة في الرد عليها وعدم الخوف منها.

نظرت إلى سارة متسائلة:

" عمّ تتكلم؟ أي حرب؟ سارة ماذا فعلت؟"

نظرت أمامها إلى شاشة الحاسوب وأمالت رأسها قليلاً على كتفها وقالت:

" لا شيء فقط... لم أحتمل أن تخسري عملك بسببها فذهبت إلى مكتب المدير وقلت له كل ما جرى... فعاقبها بخصم جزء من راتبها لهذا الشهر! هل تصدقين أنني استطعت التحدث إليه دون أن يغمى عليّ من شدة جاذبيته؟ سأقول لك السر....لأنني لم أنظر في عينيه"

كنت مصدومة جداً من أن أرد عليها حتى، حاولت إخراج بعض كلمات الشكر من فمي وبعض العبارات لتأنيبها لفعلتها.. ويبدو أنها استطاعت ترجمة كلامي، فنظرت إلي بابتسامة صادقة وربتت على كف يدي، فلم أستطع مبادرتها إلا برد ابتسامة لها وعدنا إلى جدول أعمالنا المزدحم.

غادر كل من في القسم ساعة الاستراحة وخلا المكتب كله إلا مني ومن سارة التي كانت تنظر إلي تنتظر ردًا على سؤالها الذي طرحته علي لتسألني عم حصل بيني وبين أمجد، وبعد تردد دام وقتًا حاولت تجميع كلماتي لأرصها في جمل مفهومة قائلة:

" عندما ذهبت اليوم الفأنت إلى بيت الرئيس لأدرّس حفيديه... هما لم يكونا ابنا المدير.... بل هو خالهما"

تنفست سارة الصعداء لدى علمها بالأمر وأصدرت صوتًا مثل الصرير ينم عن حماسها لمعرفة عدم وجود أولاد له، فقلت لأعيدها إلى حالة الارتباب التي كانت عليها:

" لكنني لا أعلم إذا كان متزوجًا فثمة شابة أخرى في القصر كانت برفقة والدته، كانت تشبه والدته الطفلين لكن لا أعلم لي إذا كانت أخته أو شيئًا آخر"

ظهر الاكتئاب في عينها ثانية ثم قالت:

" أتمنى أن تكون أخته.. أكمل قاطعتك كثيرًا"

ثم قلت وأنا على وشك البكاء من جديد:

" ابنة رئيس الشركة هي.. زوجة أمجد وهو والد طفليها"

شهقت سارة باختناق ونهضت عن كرسيها واقتربت مني، ركعت على ركبتيها أمامي ومدت يدها لتمسح بها على خدي وقالت بأسى:

"إيلينا حبيبتى... لم أتوقع ذلك.... لماذا؟ كيف؟ أنا لا أصدق! أنت بريئة ولطيفة ولا تستحقين هذه الضربة.... سأدعو عليه أعدك"

فأجبتها بسرعة:

"لا! سارة! لديه أطفال! ما ذنبها؟"

رقت لي ثم قالت:

"يا لقلبك الطيب يا إيلينا! لا تخشي شيئاً فأنا واثقة من أن الأفضل سيأتي وأن ما بعد ظلام الليل إلا فجرًا مشرقًا. قد تشعرين الآن بالحزن العميق وأن الدنيا قد توقفت عند هذا الحد.. لكنك ستسعين وتتخطين هذه العقبة. أصلًا احمدى الله أنك اكتشفت الآن وليس عقب زواجك، وقتها نسميها مصيبة، حمدًا لله خرجت منها بأقل الأضرار"

قلت بعد أن تنهدت بعمق:

"بعد أن تحطم قلبي"

أمسكت بيدي اللتين كانتا في حجري وقالت مطمئنة في محاولة بث الأمل في قلبي الميت:

"لا لم يتحطم بل مجروح وسيتعافى من جرحه، ويأتيك الشخص المنشود ولو على فرس أبيض فقط تفاعلي بالخير تجديه"

زرعت كلمات سارة بذرة أمل في قلبي وتمنيت لو أنها تنبت مسرعة لأتخطى حزني وصدمتي، لعلي أجد سلواي ويعود إلي سكون قلبي.

مرّ باقي يومي في العمل دون مشاحنات إلا من بعض نظرات حاقدة من شهد وقذفها لي بألقاب مسيئة، لكنني قررت تجاهلها وعدم الإصغاء إليها فقد استنفذت هي والسيد شادي كل طاقتي المتبقية لدي.... شعرت بالغثيان قليلاً، فتذكرت أنني لم أتناول الطعام منذ يومين على الإطلاق. قاومت تعبي وأنهيت بقية أعمالي ثم تذكرت أنني لم أبلغ أمي أو ليان بقراري للذهاب إلى القصر،

فطلبت بحياء ظاهر على ملامحي من سارة أن تعيرني هاتفها فناولتني إياه وهي تنظر نحوي متصنعة الغضب قائلة:

" قلت لك إذا أردت طلب شيء مني فلا تعامليني كالغرباء بل اطلبي بجرأة لن أقول لك لا، يسعدني أن أقدم لك المساعدة يا إيلينا!"

شكرتها بعبارات كثيرة لكنني لم أستطع نزع خجلي عن وجهي ثم قمت بالاتصال بليان وأعلمتها بالخبر لأحصل في المقابل منها على الرفض والصراخ من الطرف الآخر. شعرت بالخوف من مجابتهما لكن خوفاً أكبر كان من الانسحاب من قراري أمام رئيس الشركة، لذا وجدت نفسي أتفاوض معها حتى في النهاية أخذت أمني الهاتف منها وكلمتها وحاولت إقناعها كانت رافضة في البداية لكنها اقتنعت أخيراً. فأثرت إنهاء المكالمة قبل عودة ليان إلى الخط لتمدني.

ثم ودعت سارة وعاجلت بالخروج قبل أن أعطي ليان الفرصة لإعادة الاتصال. نزلت السلام مسرعة حتى وصلت مخرج المبنى وقفت على باب الهث وألتقطت انفاسي، ثم لمحت ذات السائق يقف بجانب سيارة الشركة وبدأت أخطو نحو السيارة.

بينما كنت أنزل السلام الخارجية للمبنى لمحت المدير من بعد ينزل السلام من مدخل آخر للشركة، كان يتحدث في الهاتف المحمول ويضع نظراته الشمسية، ثم كأنه لمحني فاستدار بوجهه ناحيتي وأنزل النظارة عن عينيه لتلتقي نظراتنا من بعيد. أنا بنظراتي الضعيفة الواهنة وهو بنظراته القوية الواثقة.

تابع نزول السلام وهو لا يبعد عينيه عني حتى وصل إلى سيارة فضية فارهة، وقف قبالتها وتابعتني بنظرة غير مريحة فتعمدت تجاهله وأكملت سيري حتى وصلت السيارة، فتح السائق الباب الخلفي لي، بينما شعرت بالارتياح لدخولي السيارة وهروبي من مرأى عينيه، إنه مخيف جداً.

لم أكن أعلم إذا ما كان ما يزال ينظر إلي حينما استقرت في الداخل، لكن عقلي قرر تجاهل التفكير به فوراً عند انطلاق السيارة لأتذكر أمجد من جديد فيخفق قلبي بمرارة... لقد اشتقت إليه... لكنه

متزوج ولديه أولاد، آه كيف سأأخلص من مشاعري تجاهه!؟

طوال الطريق المؤدي إلى القصر بقيت أردد لنفسي أنني سأتحطى الأمر وأخرجه من قلبي وعقلي
بالسرعة التي احتلها سابقاً.

عندما وصلت القصر تأملت باهتمام تلك الحديقة البديعة و النافورة الجميلة التي تتوسطها، ثم
تخيلت أجد يجلس على المقعد الخشبي المثبت بأرجوحة قريباً منها وهو يقرأ في كتاب، فرهف قلبي
شوقاً إليه. هزرت رأسي لأخرجه من تفكيري. يجب أن أجد حلاً للتخلص من مشاعري لئلا أنتهي
بإيذاء نفسي أكثر.

أرشدتني مدبرة المنزل التي استقبلتني سابقاً إلى ذلك الركن من المنزل مرة أخرى، عرفت أنها مدبرة
المنزل لأنها عرّفتني عن نفسها واسمها هالة بينما كانت تسير بمحاذاة وصولاً إلى وجهتنا.
طلبت مني أن أرتاح على الأرائك بينما تحضر الطفلين، ولم يطل غيابها فقد أقبلت من بعيد وهما
يبتسمان ببراءة لي، فرددت لهما الابتسامة ذاتها.

المنطق يميل علي أن أكرههما، لكن شيئاً بداخلي كان سعيداً برؤيتهما. شعرت نحوهما بعاطفة غريبة،
لم أستطع فهم سبب استلطافي لهما، ربما لأنهما ابنا الرجل الذي أحبه، ذاك الرجل الذي احتل قلبي
وتربع على عرشه.. ذاك الذي صان زوجته من الدم أمامي.. أي شخصية يتمتع بها! أي ذوق! أي
إحساس!

حاولت التركيز في المادة التي سأقوم بتدريسها لهما، والحمد لله نجحت في الانسجام معها. وفي أثناء
وقت الدرس سمعت صوت رئيس الشركة قادمًا من ناحية السلام فالتفت لتلقائياً نحوه كان
يتحدث إلى ابنته السيدة مايا، تلك الحسنة زوجة أجد، ثم لمحني فلوح بيده لي مبتسماً. فشعرت
بالخجل.

اقتربا من مجلسنا، وحينما أصبحا على مقربة منا وقفت بسرعة احتراماً، فأشار إلي بيده أن أجلس
قائلاً:

" أرجوك استريحي... كيف تريهما؟ هل يعذبانك في الدراسة؟"

ابتسمت بحياء بينما أبقيت بصري موجهاً إلى الطفلين وقلت مجيبة له:

"إنهما بديعان!"

ابتسمت السيدة مايا وقالت بمرح:

"لقد تعلقا بك بشكل غريب فهما لا يجبان أحداً بهذه السهولة"

ثم سمعت صوتاً خفقت له قلبي بشدة يقول:

"كيف حالك يا عمي؟"

رفعت رأسي لأرى أمجد واقفاً خلف زوجته ينظر إلي، فاستقبلته زوجته باشتياق وبادلته بقبلة على خده فشعرت بطعنة في صدري. حاولت تحريك عيني بعيداً عنه لكن لم أستطع، كان يبادل زوجته القبلة على خدها وعيناه عليّ. شعرت بالسخط من نفسي ماذا جاء بي إلى هنا؟ أنا لست قوية كفاية لأواجهه أو لأراه يعانق زوجته هذا كثير علي!

ثم لفت انتباهي السيد شادي، المدير، قادماً من الباب الزجاجي الكبير خلف أمجد وزوجته، عندما وصل إلى المجلس نظر نحوي بنظرة ثابتة مشبوهة كأنه يقول لي الآن عرفت أين رأيتك.

ثم وجه حديثه إلى أبيه قائلاً:

"وقع لي هذه المعاملة رجاء"

أخرج نظاراته من جيب سترته وأخذ يقرأ الأوراق التي مد بها ابنه إليه، بينما أخذ الأخير ينظر نحوي ويتطلع إلى الكتب والأوراق التي أمامي. ثم استقر نظره علي. التقت نظراتنا لأقع في أسر عينيه الرماديتين، وتلك الرموش التي تحيط بها لتعطي انطباعاً وكأن عينيه مكحلتان. هل هذا بشر أم ملاك! كيف يمكن لرجل أن يحمل كل هذه الجاذبية والوسامة في آن!

قُطع تواصلنا البصري على صدى صوت ذكوري يأتي من آخر البهو ليطل شاب قمحي البشرة وسيم الطلة بملامح مرسومة. قدم باسمنا نحونا قائلاً ببشاشة:

"عمي هشام يا غالي! كيف حالك؟"

يا إلهي لم أكن أعلم أن رئيس الشركة يُدعى هشاماً ليان محقة في نعتي بأن ثمة خللاً في دماغي.

ثم اقترب من السيد شادي وربت على كتفه وقال:

"خيرًا إن شاء الله! عساها جمعة خير، لما أنتم مجتمعون هنا؟"

ثم التفت نحوي ورفع حاجبيه وعلى محياه علامات المرح، يا إلهي كم هو وسيم! لم كل الشبان في هذه العائلة وسيمون؟ ثم التفت نحو السيد شادي ليقول:

"ألن تعرفني على الحسناء هنا؟"

فغرت السيدة مايا فمها، وظهر الانزعاج جليًا على ملامح أمجد بينما كست الحمرة خديّ بشدة.

فخلع السيد هشام نظاراته ونظر إليه مؤنبًا قائلاً:

"عيب يا فارس هذه ضيفتنا"

وضع السيد شادي يده على ظهره وقال له مخاطبًا:

"فارس امشٍ معي من هنا، هذه ليست بنت هوى لتشاكسها، فهي معلمة التوأمين"

التفت إلى أمجد، لأراه، فكان ينظر نحو المدعو فارس بغیظ، ثم التفت إلي، فلم أطل النظر إليه

وحولت نظري نحو أصابعي المعقودة في حجري. وأخيرا طلب السيد هشام من الجميع التحرك من

هذا المكان ليتسنى لي تعليم الطفلين في هدوء ونبه على ابنته أن تطمئن إلى إكرام ضيافتي.

ألقيت نظرة أخيرة نحوهم فالتفت ذاك المدعو فارس نحوي ولوح لي بيده بمرح، لكنني لم أبادله

تحيته وأبعدت بصري عنه نحو الصغيرين أستجمع أفكارني من جديد لأستطيع القيام بمهمتي هنا.

سرت نحو السيارة التي اصطففت أمام القصر في انتظار إيصالي إلى البيت، وقبل أن يقوم السائق

بفتح الباب الخلفي قدم فارس من بعيد ثم طلب من السائق الابتعاد وقام بفتح الباب بنفسه، كدت

أترجع إلى داخل القصر لأتجنب لقاءه لكنه هتف لي:

"تفضلي يا أنستي إلى داخل السيارة!"

فأيقنت أنه لا مجال لي لأهرب، مشيت بحرص وأنا أنظر نحو الأرضية الرخامية التي تفرش الممر

الطويل ودخلت السيارة مارة من جانبه فأغلق بابها بيده، ثم أطل علي من النافذة وقال مبتسمًا:

"أنا أدعى فارس عثمان، وصاحب البيت هذا يكون عمي"

ومد يده إلي ليصافحني، فتنحنحت في جلستي وقلت له دون أن أنظر ناحيته:

" أنا آسفة لكنني لا أصافح الرجال "

أبعد يده مستسلماً وابتسم ابتسامة واسعة وقال :

" جميلة ومهذبة، هذا مثير للإعجاب. سيكون لك مستقبل جميل أعدك "

ثم ابتعد عن السيارة وأنا أحاول فهم ما عني في عبارته الأخيرة. بعدها انطلقت بي السيارة عائدة إلى

بيتي. شعرت بمعدتي تؤلمني لتعود بي ذاكرتي لتهاجمني بحقيقة أنني لم أكل شيئاً، حتى الضيافة التي

أُكْرِمْتُ بها في بيت السيد هشام لم أضع شيئاً منها في حلقي.

لكنني لست في مزاج يسمح لي بالأكل... قلبي يؤلمني وكلما عادت بي ذاكرتي إلى مشهد أمجد

وزوجته وقبلاتهما على الحديد أشعر بطعنات متواصلة في صدري، في النهاية لم أستطع إمساك تلك

العبرات التي انهمرت من عيني شوقاً وحسرة على أول حب في قلبي.. أمجد الذي فقدته إلى الأبد.

الفصل الرابع عشر

حاولت أن أكظم غيظي قبل أن أقول بنبرة محملة بالغضب محاولة السيطرة على أعصابي لئلا أصرخ في وجه أمي:

" طال غيابها يا أمي! "

نظرت إلى الساعة لتجدها قاربت السادسة والنصف ثم أجابتنني:

" لا تقلقي أنا متأكدة من كونها بخير "

لم أستطع إمساك لساني عن عتابها فقلت:

" هذه غلطتك أنت! سمحت لها بالذهاب، ماذا لو أصابها مكروه؟ ماذا لو ازداد ألمها من رؤية

أمجد؟ ماذا لو... اختلى أحدهم بها وآذاها؟ أقسم أنني سأقتله! "

نهرتني وفي نبرتها ظهر الذعر جلياً:

" ليان اهدئي! لا ترمي فألاً سيئاً كهذا على أختك! أمسكي لسانك عن قول ما لا يلزم. هل تظنينني

سعيدة بعملها هناك؟ طبعاً قلبي يتقطع عليها، لكن ربما كانت هذه أنجح وسيلة في تخطي ألمها.. ربما

استطاعت إخراجها من قلبها إذا ما اعتادت على رؤيته مع زوجته، أو ربما تتقبل فكرة زواجه وترضى

به زوجاً لها! "

فأضفت بتهكم:

" أو ربما تعتصر أماً حتى آخر يوم في حياتها، من قال أنه لنسيان شخص علينا مواجهته؟! يجب

الابتعاد عنه أمياً وإخراجه من العين والبال "

نظرت إلي أمي غير مقتنعة ووأردفت بتهكم:

" فتصيبها العقدة من كل حياتها ولا تستطيع التعامل مع ألمها لتختبئ خلف قناع القوة الذي تظهره

أمام الجميع؟ "

نظرت إليها بتحدٍّ، فهمت المقصود من كلامها فهي تشير إلى علاقتي السابقة ببهاء، نهضت من جانبها واتجهت نحو غرفتي وأوصدت الباب على نفسي، جلست في مكنتي محاولة إخراج الضيق من كلمات أمي من صدري.

ثم مرّ في خاطري يزن وما فعله اليوم معي فشعرت بمعدتي تنقبض وكلما أغلقت عينيّ تذكرت طعم شفّتيه وملمسهما، فخفق قلبي بقوة مشتاقاً لإعادة تلك اللحظة، لكن عقلي صرخ بي لأن أخرج من تفكيري وعدم السماح له بالاقتراب مني ثانية. ما الذي يحصل لي؟ لماذا يتعش قلبي عندما أتذكره؟ أخذت أحدث نفسي؛ لا يا ليان أمسكي نفسك لا تنجرفي خلفه، إنه ثعلب ماكر وأنا متأكدة أنه ينوي بي سوءاً.

قبل أن أغرق في مزيد من الأفكار أجفلت على صوت نغمة تخرج من جهازي المحمول الذي كان على المنضدة أمامي، فأمسكت به لأنفقده فوجدت رسالة من رقم مجهول، فتحتها وغطيت فمي إثر شهقة أسقطت قلبي من فحوى الرسالة التي كان نصها يقول:

" اشتقت لك لؤلؤتي "

أنا متأكدة من أن المرسل هو يزن! لكن كيف حصل على رقمي؟ لم أعرف به أريد حتى رسوت في النهاية على سؤاله:

" من أنت؟ "

فجاء رده سريعاً ليقول:

" لا تتصنعي عدم معرفتك من أكون، لكن إذا أبيت فسأعطيك تلميحاً: شفتان بطعم السكر "

تصاعد الدم إلى رأسي بشدة عقب رسالته فشعرت بأني على وشك الإغماء، فطبتعت ردي له:

" من أين حصلت على رقمي؟ "

" سهل من ملفات المدرسة! "

أخذت نفساً عميقاً وقررت أن أتجاهل الرد هذه المرة لكنه بدا مصرّاً على إزعاجي، فأرسل رسالة جديدة يسألني فيها:

" ماذا تفعلين الآن؟ بالنسبة إلي أنا جالس في غرفتي على الشرفة أرتشف من قهوتي وأنا أفكر فيك " ظهرت ابتسامة سخيصة على ثغري فحاولت التخلص منها لكنني لم أستطع، ثم أجبتة:
" أما أنا فتصلي رسائل مزعجة من شاب وقح لا يتركني بحالي "
فجاء رده ساخرًا:

"قولي لي اسمه حتى أبرحه ضربا"

ازدادت ابتسامتي السخيفة اتساعًا لكنني لم أجبه، ثم أرسل إلي رسالة جديدة، وعندما فتحتها توقف قلبي وشعرت بفراشات تتطاير في معدتي، فقد أرسل إلي صورة له وهو جالس على كرسي خشبي وقميصه مفتوح حتى مقدمة صدره ويبتسم بمرح وتحتها كتب عبارة:
" أحبك لؤلؤتي "

تصاعدت الدماء نحو وجنتي وأنا أنظر إلى صورته بتمعن، إنه مثالي في كل شيء، ذاك الشعر الحريري الأسود تلك العينان الزرقاوان اللامعتان بنظراته الجذابة، جسده الرشيق وطول قامته! توسلني الجزء المتيقظ مني أن أتوقف عن النظر إليه، ثم أجفلت على صوت الباب يفتح فوق الهاتف من يدي، أسرعت بالتقاطه وأطفأت شاشته على الفور، نظرت إلى خلفي، فوجدت أمي تقف متكئة على عتبة الباب بكف يدها وفي عينيها نظرة شك، ثم سألتني:

" لماذا تغير لونك هكذا؟ ماذا تخفين عني؟ "

شحب وجهي أكثر وشعرت بحلقي يجف فتم إنقاذي أخيرًا على صوت باب البيت يفتح لتطل منه إيلينا. فهرولت إليها متناسية استجواب أمي. وقفنا قبالتها فتحاشت النظر في وجهينا وقالت:
" أنا آسفة على التأخير.... قصر السيد هشام بعيد عن حيننا.. سأدخل قليلًا لأستريح لا تنتظراني على العشاء "

بدالي أن إيلينا منهكة بشكل ملاحظ ووجهها شاحب بشدة وقد أصابها الهزال، أردت التأكد من كونها بخير فقلت لها:

" اذهبي واستريحي وسنتظرك على العشاء فنحن لسنا جائعتين الآن "

لوحث لي بيدها من الخلف دون أن تلتفت نحوي وقالت:

" اصنعا ما يحلو لكما لن أتناول الطعام لست جائعة "

شعرت بالحنق من قسوتها على نفسها لكن ما باليد حيلة، أنا أتفهم شعورها تمامًا لقد عشت هذه الفترة سابقًا وعاشت ما هو أسوأ منها، وعندما بدأ خيط الماضي يجربي نحو تلك الدوامة توقفت عن التفكير، فلن أرضى لمآسي الماضي أن تغرقني نحو حياة بلا روح، كل شيء تغير الآن ونحن نعيش ظروفًا جديدة لا علاقة لها بالماضي السحيق.

لحقت بإيلينا إلى الغرفة فوجدتها ممددة في فراشها وهي ما تزال ترتدي عباؤها، حاولت تقديم المساعدة لها بخلع ملابسها، لكنها رفضت وأصررت على البقاء بمفردها. كنت أحمل في قلبي الكثير من اللوم والعتاب لها لكنني أثرت على تركها وحدها وألا أزيد من الأذى الذي تعانيه الآن. جلست مع أمي على مائدة الطعام فخيّل إلي أنني أسمع صوت إيلينا تهذي باسمي بصوت ضعيف. فتركت المائدة دون تفكير واتجهت نحو الغرفة لأجدها غارقة في عرقها وهي تهذي بصوت شبه مسموع، اقتربت منها بسرعة وجثوت أمامها أحاول تحديد سبب وهنأ بينها قلبي ممتلىء بالذعر، قمت بهزها ومناداتها ولكنها كانت غائبة في عالم آخر، شعرت بأنني أتخبط ولا أدري ما أفعل حتى سمعت صوت أمي من جانبي تصرخ بي:

" هاتي لي السكر! "

لم أكن أدرك أنها لحقتني ولم أشعر بوجودها فكل همي كان منصبًا على إيلينا، حينما تمكن دماغي من فهم ما طلبت مني جريت نحو المطبخ وأنا أتخبط بين الجدران وأحضرت وعاء السكر لأعود به نحو أمي، أخذت أمي تغرف من السكر بحفنة صغيرة وتضعه في فم إيلينا بينما رأسها في حجرها. كنت أصيح بلا وعي خوفًا عليها ثم تنبّهت إلى دموعنا وبكائنا المرير فوق رأسها. أخذت أدعو الله ألا يصيبها مكروه فأنا لا أستطيع العيش دونها، بكيت بمرارة وحسرة، ثم ما لبثت تعود إلى وعيها تدريجيًا فحاولت النهوض جالسة، فأسندتها أمي على صدرها وقالت:

" لقد مررت بنوبة انخفاض السكر يا ابنتي، أرجوك لا تعذبي روحنا أكثر عليك "

لم يكن صعباً فهم سبب انخفاض السكر لديها فهي لم تأكل شيئاً منذ فترة، فذهبت صوب المطبخ وأحضرت لها إناء من الطعام الذي أعدته أُمِّي وأخذت أطعمها بيدي وأُمِّي تمسح على شعرها بحنو، تتمننا لها مراراً أننا إلى جانبها في محنتها وأن قلبها سيسفَى وأخذنا نحثها على تخيل مستقبل مشرق. فشعرت بأن كلامنا أعطاها طاقة إيجابية قليلاً.

قامت واغتسلت لتتخلص من آثار ما أصابها من نوبة انخفاض السكر. وجلست معنا في المتصفى بيننا على الأريكة الكبيرة واعتذرت لنا عما سببته من ذعر لنا ووعدتنا بعدم إهمال صحتها ثانية.

تقلبت كثيراً في فراشي وأنا أحاول النوم فكلما مر بخاطري يزن خفق قلبي بعنف وسرت الدماء جرياً في عروقي، لم أستطع مقاومة فتح شاشة جهازي المحمول، التفت نحو إيلينا، فرأيتها تغط في سبات، لا بد أنها مرهقة مما حصل معها.

أخذت أقلب هاتفي حتى أخرجت منه صورة يزن التي أرسلها إلي وأخذت أتمعن فيه حتى أشبع رغبة عيني في رؤيته، فما لبثت أن وجدت نفسي أعط في النوم بدوري وأنا أضم جهازي على صورته نحو صدري.

جلست مع هناء في غرفتي الصفية صباحاً قبل الطابور الصباحي نحدد التاجات التي سنقوم بتنفيذها اليوم مع الطلبة، لمحت باب الغرفة يفتح بهدوء، ثم أطل يزن بابتسامته الغبية ينظر إلي بسعادة متجاهلاً وجود هناء ثم تقدم نحوي ونظراتنا عليه نرقب ما يهيم بفعله.

وضع أُمَامِي كوباً ساخناً من القهوة وقال باستمتاع:

" صباح الخير يا لؤلؤتي تفضلي كوب القهوة هذا مني، فأنا أعلم أنك تحبين شرب القهوة صباحاً "

ثم أضاف على لساني بعد أن رأى تجاهلي الصريح له:

" شكراً لك يا عزيزي، لم تكبّدت عناء صنعه لي؟! "

حاولت هناء إخفاء ضحكتها على أثر مزحته، فنظرت نحوه شزرًا وقلت بجفاء:

" لا تتعب نفسك هناء تعلم بأمر التمثيلية "

سقطت ملامحه متفاجئًا لكنه أبى أن يخسر جولته في الحرب أمامي، فقال بإصرار:

" على الأقل تذوقها وجامليني "

فرفعت الكوب وأشارت إليه أنني سأفعل ما يريد هذه المرة فقط لأتخلص من إزعاجه، فارتشفت منه رشفة هنية، كان مذاق القهوة لذيذًا لم أعرف أنه يجيد تحضيرها هكذا ثم ابتسمت له بزيف وقلت:

" ارتحت الآن! ها قد شربت منها "

فخطف الكوب من أمامي ورفعته، قربه من فمه وارتشف بدوره رشفة من ذات الموضع الذي وضعت شفتي عليه، ثم أعاده أمامي وفي عينيه نظرة مشتتة.

ساد الصمت قليلًا في الغرفة ونحن نحاول ترجمة الموقف. ثم غمزني بعينه وخرج من الغرفة، ما إن اختفى حتى انفجرت هناء بصوتها المدوي قائلة:

" يا إلهي! هل تعرفين ماذا فعل؟ لقد أرسل إليك قبلة غير مباشرة! "

لم أكن بعد قد استوعبت الصدمة لكنني نظرت نحوها بغل وقلت منبهة إياها:

" لا أدري ما أصنع بصوتك الجمهوري هذا! اسكتي فضحتيني! هل تريد نشر الخبر في

المدرسة؟! "

اعتذرت مني مرارًا، مبررة أنها مصدومة من تصرفاته الجريئة، فضحكت في سري على جهلها من جرأته في أشياء أخرى مثل إرسال صورته إلى البارحة.

نهضت هناء وحشني على النزول إلى الساحة المدرسية لتجهيز الطلبة لطابور الصباح، فطلبت منها أن تسبقني ريثما أجمع كتيبي وأشياي، ثم وقعت عيني على كوب القهوة. رفعته ونظرت إليه ... إلى الموضع الذي شرب منه من بعدي، تأكدت من اختفاء هناء من الغرفة وارتشفت من الموضع ذاته ثانية، وأعدت الكوب على الطاولة ومضيت نحو الساحة المدرسية.

إيلينا

وصلت إلى القصر بعد نهاية دوامي، شعرت اليوم أنني أحسن حالاً من الناحية الصحية، لكن المرار في قلبي لم يغادرني.

أخذتني السيدة هالة - مدبرة المنزل - هذه المرة إلى الحديقة بسبب وجود بعض الضيوف لدى صاحبة البيت.

جلست أتأمل جمال الحديقة وحسنها بينما كان التوأمان يقومان بحل بعض المهام التي وكلتھما بها، وإذ بي أشعر بخيال أحدهم يغطي أشعة الشمس التي كانت مائلة في السماء مشيرة إلى اقتراب انتهاء وقت العصر، رفعت رأسي ناحيته فصدمت بوقوف السيد شادي أمام الطاولة التي يدرس عليها الطفلان، أمال جسده قليلاً إلى الأمام ليقراً ما كتب في واجب جاد ثم رفع ظهره وربت على رأس الصغير وقال موجهاً كلامه ونظره إليهما:

" حافظا على تقدمكما في الدراسة ولا تعذبا معلمتكما "

ثم رفع بصره نحوي فسرت قشعريرة في جسدي ثم قال متسائلاً:

" هل أحسن الخدم ضيافتك؟ "

من شدة ارتباكي لم أستطع النطق فهزرت رأسي إيجاباً. توقف مكانه ينظر نحوي فشعرت بالضيق، فأنا لا أرتاح لمراقبة أحدي ثم سألني:

" ما اسمك مجدداً؟ "

أجبت بصوت ضعيف:

" إيلينا... سيدي "

فأوماً برأسه بحركة لم أفهم مدلولها ثم فاجأني بسؤاله التالي:

" وكم عمرك؟ "

شعرت بالارتباك يزداد في قلبي وأجبت وأنا أتلعثم:

" أنا في الثالثة... والعشرين... سيدي "

فتح فمه ليقول شيئاً ثم تراجع، نظر إلي ثانية يتفحص ملامحي فشعرت بالخجل منه، وحركت عيني بعيداً عنه حتى استقرتاً على أصابعي المعقودة بخجل على الطاولة، فمد يده ولامس أصابع يدي فاجتاحني برودة غريبة، ثم قال وهو ما يزال ينظر نحو عيني:

"توقفي عن هذه الحركة ها أنت تفعليها ثانية"

حاولت تذكر متى رأني أفعّلها سابقاً حتى تذكرت لقائي الأخير به في مكتبه. ثم مد يده الأخرى وأخذ يفك أصابعي بينما شعرت بقلبي يهوي أسفل معدتي، رفعت بصري نحوه فرأيت ما زال يرقبني بتلك العينين الرماديتين الأسرتين، وسامته وجاذبته تعيق ذهني عن التفكير، لما عليه أن يمتلك حاجبين كهذين لتزييدا من سحر وجاذبية عينيه.

طالت فترة تحديقنا بعيون بعضنا ثم أفلت يدي فجأة على أثر صوت مألوف ينادي باسمه، كانت الدماء تسري بسرعة في جسدي فلم أتنبه إلى صوت الشخص القادم حتى رفعت رأسي والتقت عيناى به ثانية، فارس ابن عم السيد شادي، زرع على شفثيه ابتسامة وهو ينظر إلي ثم قال مخاطباً السيد شادي:

"وصلتك بعض الطرود التي عليك الاطلاع عليها، هلا سرت معي؟"

ودون أن ينظر نحوي ثانية التفت مبتعداً كأنه يتعمد تجاهلي، وسار فارس إلى جانبه، لكنه على غراره التفت نحوي ولوح لي مبتسماً مثل المرة الماضية، فازداد شعوري بالخجل وآثرت تجاهله ثانية. عدت إلى الواقع حيث أنا، نظرت إلى الطفلين بعيونهما المليئة بنظرات مستمتعة لأستقبل أسئلتها المحرجة فقال جاد:

"هل ينوي العم فارس الزواج بك؟"

صعقت من سؤاله وقبل أن أتمكن من التفكير في رد هاجمته ماسة قائلة:

"لا! خالي أولى بها"

فقال جاد معترضاً:

" لكنني سمعت العم فارس البارحة يتحدث مع خالتي ديمة ويسأل عن الأنسة إيلينا، لكنها قالت له أنها مخطوبة فشعر بالاستياء لأنه أراد أن يتقدم لها"

غطيت وجهي بكفي يدي محرجة مما يتفوه به هذان الطفلان ثم قلت لهما مقاطعة:

" عيب يا صغيري أن نتحدث في أمور الكبار، ما رأيكما لو نرجع للدراسة؟"

فقلت ماسة معترضة:

" ليس قبل أن تقولي لنا، لو عرض عليك الزواج بخالي أو العم فارس فمن ستختارين؟"

علق فكي متفاجئة بجرأة هذه الصغيرة فقال جاد مجيباً عني:

" طبعاً العم فارس فهو سهل المعشر عكس خالي، فلا شيء يرضيه سيتعجبها إذا اختارته زوجاً"

رفعت يدي لإنهاء هذا النقاش العقيم:

" أنا لن أتزوج أيًا منهما، هذه إجابتي! هل يمكننا العودة إلى الدراسة الآن؟"

ثم سمعت صوتاً خطف إحساسي يقول:

" هل تزعجان معلمتكما بدل الإنصات إليها في الدراسة؟"

نهض الطفلان عن كرسيهما وركضا باتجاه صاحب الصوت يعانقه فرحاً بقدمه، فرفع رأسه

ناحيته، ليخفق قلبي بشدة وابتسم ملقياً التحية.

لماذا يا أمجد؟ لما جئت الآن لست مستعدة للقائك، تسمرت في موضعي ولم أتجرأ أن أنظر نحوه،

أبقيت تركيزي نحو الواجبات التي كلفت بها التوأمين وأخذت أظهار بقراءة ما كتبنا باهتمام، ثم

جاء صوته يقطع علي تصنعي القوة:

" كيف حالك اليوم؟ هل تحتاجين إلى مساعدة في شيء؟"

نهضت وأنا أحزم الكتب والأوراق من حولي وقلت بجفاء مصطنع:

" كلاً شكراً لك، أنا أنهيت مهمتي لهذا اليوم على كل حال... اسمح لي سأمضي من هنا"

تنهد بأسى واضح. حاول إيقافي لكن زوجته جاءت مقبلة نحوي من الباب الخلفي للمنزل، رحبت

بي بحرارة وشكرتني على وقتي مع الطفلين، ثم أمرت السيدة هالة التي كانت ترافقها بإرشادي نحو

سيارة الشركة لإيصالي واتجهت نحو زوجها، التفت خلفي، أرقب لقاءهما فاستقبلته مادة ذراعيها تحتضن صدره إليها لكنه لم يعرها انتباها فقد كانت عيناه مسلطتين علي، فقررت الإسراع بالمضي من هنا حتى لا أحرق قلبي أكثر.

وصلت بي السيارة حتى البوابة الخارجية ثم فجأة وردت السائق مكالمة هاتفية، فأجاب، سمعته يزفر باعتراض:

" بماذا تهذر يا أسامة السيد أمرني بإيصال الفتاة إلى بيتها؟..... متى أمرتك بذلك؟.... هل قلت لها بأن السيد..... أها؟..... وبقيت مصرّة؟! حسنًا ها أنا عائد إلى داخل القصر "

تعجبت لما يحصل حولي، التفت السائق نحوي وقال وعلى محياه الامتعاض:

" أنا آسف أنستي.. السيدة انتصار أمرتني بإيصال ضيوفها الآن.... وهي تريد أن يجلسوا وحدهم دون.... دون إزعاج من الغرباء "

فهمت المقصود من كلامه ومددت يدي نحو مقبض الباب لأفتحه وأتجه خارجًا، شعرت بالضيق الشديد من هذا الموقف المخرج لي، أخذ السائق يعتذر مني ويطلب إلي أن أنتظره في القصر ريثما ينهي عمله، لكنني رفضت حفاظًا على ما تبقى لي من كرامة. حاول مرارًا أن يقنعني بالعودة إلى الداخل، لكنني أبيت وترجلت من السيارة وكدت أتحرك مبتعدة من أمامها ففاجأتني سيارة حمراء كبيرة تتوقف لتصبح بمحاذاتي. فتح سائقها النافذة الأمامية منها لأجد فارس ثم قال يخاطب السائق:

" لا بأس يا أحمد امضِ إلى عملك أنا سأوصل الأنسة إلى بيتها "

ثم طلب مني الركوب في سيارته فترددت كثيرًا، حاول إقناعي بالطلب إلي أن أجلس في المقعد الخلفي لئلا أشعر بالانزعاج منه، وبعد محاولات كثيرة للرفض رضخت له وركبت السيارة في المقعد الخلفي مثل ما طلب.

قاد بي السيارة بعد أن أعلمته بوجهتي، لم يحدثنني طوال الطريق كأنه يحرص على إشعاري بالراحة، ثم وصل بي إلى حينا، شكرته باستحياء وقبل أن أترجل من السيارة قال ملفتًا انتباهي إلى حديثه:

" أنستي !... أرى أنك فتاة بريئة ونقية... "

احمرت وجنتاي من كلامه لكنني لم أعقب في انتظار ما سيقول ثم أضاف:
" لهذا أريد فقط أن أنبهك إلى شيء ما..... أم شادي السيدة انتصار... حسنًا هي ليست شخصًا
ودودًا. وتكاد تنعدم من الأخلاق الحميدة.. لذا أريدك فقط أن تتبهي منها ومن مكائدها فهي تحتقر
من هم أقل منها ماديًا واجتماعيًا... حذارٍ أن تقعي في فخاخها السامة"
كانت الدهشة واضحة علي بسبب ما سمعت، لم أدري بما أريد عليه فاكتفيت بهز رأسي، وترجلت من
السيارة، نظر نحوي من النافذة وقال:
" أستودعك الله أيتها الحسنة"
ثم حرك سيارته مبتعدًا وقد ترك في قلبي شعورًا لطيفًا بعد وصفه لي بالحسنة فاستطاعت ابتسامته
صغيرة أن ترسم على شفتي.

الفصل الخامس عشر

عقب مغادرة الطلبة المدرسة شرعت بحزم كتبي وحقبتي استعدادًا للنزول إلى الصالة الرياضية، اليوم هو الخميس موعدي لممارسة بعض التمارين، ربما أستطيع تخيل وجه يزن على كيس الملاكمة لألكمه خارج مخيلتي.

شعرت فجأة بشيء ينقر على ظهري فأجفلت والتفت بسرعة لأكتشف أنه إصبعه السبابة، فغطى فمه ليخفي ضحكته وهو يقول بمرح:

" أه حبيبتى أجفلتك! اسم الله عليك "

دفعته بعيدًا بعنف وأشرت إليه بإصبعي السبابة مهددة وقلت له وأنا أصر على أسناني:

" يزن! حبًا في الله لو كان في داخلك ذرة أخلاق توقف عن التربص بي! لقد تعدت حدودك كثيرًا وإذا لم تتوقف فسألوي لك يدك وألكمك بشدة "

ففتح ذراعيه على مصراعيهما وقال ساخرًا:

" تفضلي الكميني "

كدت ألكمه لكنني شعرت بزيارة غير مرغوبة، فتبدلت لهجتي إلى اللطافة فجأة مما أثار التساؤل على ملامح يزن الذي أحسست أنه تاه، فقلت:

" يزن! كف عن المزاح الثقيل؟ ماذا ستفعل اليوم عصرًا؟ هل يمكنك أن تمر علينا لشرب الشاي أو القهوة؟ "

كانت معالم يزن متصلبة من الصدمة فلم يعرف بم يجيب، ثم تظاهرت بأنني تفاجأت من الواقف خلف الباب فقلت متصنعة الغفلة:

" أوه! سيد عصام! لم ألمحك هناك. هل يوجد شيء تريده؟ "

خطى نحو مدخل الغرفة الصفية ونظر إلينا والشك والريبة مستعمران في مقلتيه، وهناك بين جفنيه لمحت شيئاً آخر.. هل هي الغيرة؟ ربما، لكنني لم أكن مرتاحة لزيارته المفاجئة.

حدّق فينا فترة من الزمن فكادت أختنق من صمته القاتل، اقتربت أكثر بمحاذاة يزن فشعرت به ينتفض بخفة، كأنه لم يتوقع حركتي المفاجئة، ثم أخيراً قال بتساؤل مريب:

" ما دمت خطبتها مؤخرًا. لماذا لا توصلها إلى بيتها بدل افتراق دربيكما؟ "

اعتلت البلاهة وجه يزن فقد باغته المدير بسؤاله المفاجئ على حين غرة، فتوليت الإجابة بنفسى متصنعة الكذب:

" لأن هذا شرط والدتي... تعرف... الأمهات متحفظات بعض الشيء "

نظر المدير إلي بنظرة تحمل معاني التكذيب كأنه لا يصدق كلامي فقال فجأة متسائلاً:

" هل أنتما حقًا مخطوبان؟ أم أنك قلت ذلك لإسكاتي؟ "

اصفر لوني من هجومه المباغت، لم أتوقع يومًا أن يواجهني في كذبتى! أعني أنني أعلم أنه يشك بمصداقيتها لكن أن يواجهني فهذا ما لم أتوقعه.

وقبل أن أستطيع التفكير في رد أمسك يزن بيدي ليحتضنها في كفه، ثم رفع حاجبًا أمام المدير وقال باستنكار:

" عفواً؟! أي نوع من الأغبياء يتصنعون موضوعًا بهذه الجديّة؟ وتريد إسكاتك عن ماذا بالضبط؟ لو كنا نمثل هل كنت لأتجرأ على فعل هذا؟ "

ثم انحنى واحتضن خدي بقبلة، فصعقت لفعله الجريء، لكن الصدمة الحقيقية كانت على وجه المدير، بقي واقفا مكانه كالأبله ولم يجد ما يرد به علينا، حتى في النهاية شزر يزن بعينيه ومضى خارجًا منبهاً علينا الخروج من المدرسة ليتمكن الحارس من إغلاقها لكنه وجه حديثه إلينا متجنبًا النظر نحونا.

عدت لوعبي بعد فترة ذهول من جرأته، التفت إليه وفي عيني تساؤل وعتاب، فأحنى رأسه للجانب قليلاً وقال:

" أه ليان! بحق الله لا تغضبي كنت مضطراً للفعل ذلك، رأيت ردة فعله! صدقيني لن يتعرض لك ثانية الآن"

أقنعت نفسي أنه محق في كلامه ورجوت الله من داخلي أن يتركني هذا المدير في حالي، ثم تنبعت إلى يدي التي يمسكها بيده متشبثاً بها ثم قلت وأنا مشيرة نحوها:
" احم.. لو سمحت ..."

نظر إلى يدي وتنهد بمرار وأسى ثم تصنع وجهًا حزينا وقال:
" دعيها في يدي وقتاً أطول، سأشعر بالبرد إذا أفلتها الآن"
فأجبتته وأنا على وشك تغيير نبرتي بسبب نفاذ صبري:
" يزن!... أرجوك!... أريد الخروج من هنا"
فقال مقاطعاً:

" إلى الصالة الرياضية؟"

وجهت له نظرة متفاجئة تلتها نظرة تهديد، فابتسم ابتسامة مشاكسة، ثم سحبت يدي بقوة من قبضته ووليته ظهري وأخذت أكمل توضيب أشيائي، ثم جاء صوته بنبرة غريبة لم أعهد لها ليفاجأني بكلامه:

" ليان! عندما تبدلت طريقة كلامك فجأة.... شعرت... شعرت بحصون قلبي تذوب!"
لم ألتفت ناحيته ولم أقل شيئاً، توقفت عن توضيب حقيقتي وبدأت أتنفس بصعوبة، ثم أكمل حديثه قائلاً:

" لم أستطع مقاومة خيالي عندما حلق بي وأنا أرى نفسي جالسا بينك وبين عائلتك.... لماذا لا تريجين قلبي الهائم بك وترضي بي زوجاً؟"

فقدت القدرة على التركيز وأصبح الهواء أكثر ثقلا من حولي ثم قال منهيأ ألمي وألمه:
" ما رأيك لو ننفذ الجزء الثاني من المخطط الآن؟"

التفت نحوه أحاول السيطرة على الفزع الذي دب في قلبي مما ينوي فعله، أمال رأسه قليلا إلى الأمام وقال:

" قلت لك لن أوذيك فامسحي هذه التعابير عن وجهك... "

عقدت يدي أمام صدري أخفي ارتباكي وقلت:

" حسنا تكلم "

- " سأصحبك في موعد "

- " موعد؟ ... أين؟ "

- " إلى حيث تريد... ما رأيك أن نذهب إلى مطعم؟ "

- " أنا وأنت؟ وحدنا! في مطعم؟ "

- " ليان! ما بك؟ المطعم مكان عام ثم أنت تدينين لي مقابل تصنعي دور خطييك لا تنسي "

نظرت أمامي نحو الفراغ أفكر في عرضه، لكنه قطع أفكاري لينهي عذاب قلوبنا ويضعني أمام الأمر الواقع بقوله:

" بعد هذا الموعد عليك أن تقرري إما أن ترتبطين بي وترضيني كزوج أو..... ترفضين فيفترق

دربانا..... لكن إذا كانت إجابتك الرفض فسأقدم استقالتي "

جحظت عيني ذهولا من قراره فأضاف مبررا:

" يقتلني أن أراك أمامي وأنا أعلم أنك لست لي... لذا فكري في عرضي جيدا "

لماذا شعرت بغصة في قلبي عقب كلامه عن استقالته؟ أليس هذا ما أردت؟ ألم أرد أن أتخلص منه

مهما كلفني الثمن؟ لكنني لا أتخيل خروجه من حياتي، أنا لا أريد خروجه من حياتي! أنا أريده! لكن

كيف سأعترف بذلك لنفسي قبل أن أعترف به له؟

حاولت إيجاد صوتي حتى استطعت سؤاله:

" ... متى..... الموعد؟ "

- " الآن! "

- "الآن؟! يعني حالا؟"

- "نعم الآن .. سأنتظرك في الأسفل أمام الباب الرئيسي للمدرسة"

خرج يزن من الغرفة دون أن ينتظر مني ردًا هل يظن أنه قرر عني؟ يبدو أنه قرر عني.. هل يجب علي تجاهله؟ لكنه سيزيد من إصراره وعناده وأنا ليس لدي طاقة لآتصادم معه، اليوم هو نهاية أسبوع حافل، ومررت بالكثير من القهر والأحداث وآخر شيء أريده أن أتشاجر معه.

قررت الإذعان لطلبه لربما يكون نهاية الدوامة التي نعيشها يوميًا، واتصلت بجارتنا أم ثريا التي تعيش في الشقة المقابلة لشقتنا وطلبت منها أن تعلم أمي بخروجي مع هناء لتناول طعام الغداء ولم أزد.

نزلت السلم، فوجدته واقفًا أمام الباب ينظر إلى الخارج، استطعت أن أسترق نظرة نحو طول قامته وكتفيه العريضين وشعره الأسود اللامع، ثم وكأنه شعر بي أخطو على مقربة منه التفت إلي يرسم ابتسامة على محياه.. لم تكن ابتسامة ماكرة كما اعتدت منه، كانت مجرد ابتسامة عفوية نابعة من القلب، توردت وجنتاي خجلًا من وسامته بهذه الابتسامة واستطعت رؤية تلك الغمزة التي أذابت إحساسي وسرقت خفقة من قلبي.

وصلت محاذاته وأخذت نفسًا عميقًا وأنا أنظر أمامي لأتجنب لقاء أعيننا وقلت متسائلة:

"إذن إلى أين سننطلق؟"

مد يده طالبًا إمساك يدي فترددت في القبول، فلم ينتظر مني الرضوخ له بل مدها أكثر ليمسك بيدي رغمًا عني ثم سار بي حتى الرصيف الذي يمكث أمام المدرسة وأخرج من جيب بنطاله الجينز مفتاح سيارة وقام بالضغط على زر إلغاء القفل، فنظرت إليه متعجبة وقلت:

"لديك سيارة؟!"

فأجاب مبتسمًا رافعًا حاجبيه:

"نعم لدي سيارة لكنك تتجاهلينني كثيرًا لتتبهني لذلك"

لم أجد ما أرد به عليه من عبارات فالتزمت الصمت.

ثم فتح لي الباب من المقعد الأمامي فشعرت بالاضطراب، ودون اعتراض ولجت إلى داخلها، راقبته وهو يستدير من أمام السيارة ويفتح الباب من جهة السائق وولج إلى داخلها بدوره. شعرت بالارتباك يغطي معلمي حاولت تفحص السيارة فوجدتها جميلة من الداخل ونظيفة وكبيرة فقلت لأكسر حاجز الصمت:

"سيارة جميلة"

ابتسم دون أن ينظر إلي وهو يقوم بتشغيلها لتنتقل، وقال:

"إنها ميراث"

اختصرت الكلام ولم أزد حديثاً عنها، حاولت الحفاظ على ثبات عيني على الطريق لكنهما كانتا تخونانني فتتحركان نحو اليسار تتفحصانه وهو يقود، كم كان مظهره مثيراً. عيناه الزرقاوان ترقبان الطريق بنظرات جدية... شفثاه الممتلئتان الجميلتان مغلقتان لأول مرة في حياته مما بث بعض السكينة والهدوء.. عضلات جسده الرشيق تبرز من أسفل قميصه الذي التف حول صدره ووسطه بطريقة جذابة. وقبل أن أتمكن من إكمال تفحصه بالكامل قاطع يزن سير عيني على جسده قائلاً:

"هل يعجبك ما تنظرين إليه؟"

فاحمرت وجنتاي بشدة واستدرت نحو الجهة الثانية لأتجنب المواجهة، لكنني استطعت تبين ابتسامته في قوله:

"أنا أمازحك... انظري وأشبعي رغباتك بي.. خذي راحتك"

نظرت إليه شزرا فبادلني نظرة سريعة غامزاً وأكمل قيادته، شعرت بثقل الهواء في السيارة، وقررت تجنب النظر نحوه حتى لا أقع في مواقف محرجة مماثلة.

وصلنا إلى مكان لا أعرفه، ترجل من السيارة ودار حولها حتى وصل إلى الباب بمحاذاة وقام بفتحه لي ترجلت بدوري خارجة منها وأنا أحمل حقبيتي أما كتيبي ومعدات المدرسة فأبقيتها داخل السيارة، تفحصت المنطقة بعيني فشعرت برقيي الحي الذي اصطحبني إليه، فعلمت أنه أحد الأحياء الخاصة بتلك الطبقة الغنية التي لا أنتمي إليها.

وقف إلى جانبي وأمسك بيدي وسحبني نحو باب مطعم فاخر، جلست بعيني في المكان مندهشة
بجمال التصميم، كانت الموائد مرتبة ومنظمة يغطي طاولاتها شرشف بيضاء وتتوسط كلاً منها
مزهريات سوداء مطرزة تحمل في داخلها أزهاراً جميلة باللون الأبيض، أرشدني إلى إحدى
الطاولات، وسحب لي كرسيًا طالبًا مني الجلوس ثم جلس مقابلي ونظر إلي بابتسامة تنم عن
الرضا.

حاولت جاهدة أن أفرش تعابير جدية على وجهي لأتجنب أن أظهر بمظهر الغيبة التي لا تحسن
الجلوس في هذه الأماكن، لكن يبدو أنه استشعر انزعاجي فقال متسائلاً:

" هل أنت على ما يرام؟ "

لم أكد أفتح فمي إلا وقد أقبل النادل مع قائمة الطعام، شكره يزن، فأومأ النادل برأسه وابتعد قليلاً
لتقرر أو ليقرر يزن أي طعام سنتناوله، رفع رأسه نحوي وسألني:

" ماذا تحبين أن تأكلي؟ "

نفخت مقداراً صغيراً من الهواء وأنا أحاول إخفاء انزعاجي وتوتري من هذا المكان وأجبتته أخيراً:
" صراحة لا أعرف، لست معتادة على هذه الأماكن، فأنا لا أرتادها أبداً "

زم شفتيه وهو يحرق بي ثم قال مراعيًا انتقاء كلماته:

" هل يريحك أن أختار طبقينا؟ "

أومأت له برأسي، وأطلقت سراح عيني لتتجولا في المكان من جديد أراقب الأشخاص الجالسين
من حولي، بينما يزن قام بطلب شريحتين من اللحم البقري المقلي مع صلصة الفطر والباستا.

انتظرنا تجهيز طبقينا بصمت ثم قرر يزن قطع هذا الصمت ليبدأ في الكلام:

" إذن يا لؤلؤتي قولي الآن من هو؟ "

نظرت نحوه بتساؤل واضح ورفعت حاجبًا وسألته بعدم فهم:

" من هو؟ "

فأجاب بثقة:

" الشخص الذي تسبب في صنع هذه الشخصية الجلدية "

عادت بي الذكريات إلى معاناتي، فأخذت نفساً عميقاً وقررت التحدث عن علاقتي السابقة ببهاء فالكل في المدرسة مطلع على قصة إلغاء الزفاف، صحيح أنهم يجهلون سبب الانفصال لكن يبقى هو الحديث الأكثر أمناً، فقلت بحذر:

" كنت مخطوبة سابقاً لكننا انفصلنا "

فتمتم متفهماً:

" ممم... وما سبب الانفصال؟ "

ظهرت ملامح الانزعاج في عينيّ لكنه أصر أن يعلم فقلت باختصار:

" لقد... خانني... أعني.. هو لم يقم بخيانتني بمعناها الدارج... لكن اختار أن يحرق قلبي باعترافه

بمشاعره لمن هي أجمل مني "

فرغ حاجبيه مستنكراً وقال:

" لا! تمزحين! هذا لا يستحق أن يرتبط بأحد! إذا كان الجمال معياراً أساسياً لديه فلن يستقر على

فتاة "

ثم سكت هنية وقال:

" ليان! أنت جميلة فإذا أعجبته أخرى لا يعني ذلك أنها أجمل منك بالضرورة، وإنما يعني أنه رجل

ساقط فقط "

وضعت أصابع يدي على فمي لأخفي ابتسامتي من نعت بهاء بالساقط، لقد استحق هذه الإهانة، ثم

أضف مشاكساً:

" يبدو أنه لم يتذوق طعم السكر على شفثيك ليفرط بك "

تحولت ابتسامتي إلى شهقة محتنقة، ثم رميته بنظرات ساخطة فعدل من جلسته وابتسم بمكر وعيناه

لا تفارق عيني. ثم قال:

" ألهذا السبب تمارسين الملاكمة؟ يبدو أنه ترك جرحاً عميقاً خلفه "

لم أجهه وتحاشيت النظر في عينيه، ثم قدم النادل لينقذني مع أطباق الطعام ومدّها على الطاولة أمامنا. تناول وزن الشوكة والسكين وشرع بتقطيع اللحم في طبقه فلفت انتباهي قوله " باسم الله " قبل أن يدخل اللقمة إلى فمه، فحرك في داخلي شيئاً وجدانيّاً تجاهه. لو أنه استقبلني بهذا الجانب منذ البداية ألم يكن ليترك أثراً في داخلي؟ ثم نظر إلي وقال:

" لم لا تأكلين؟ "

فكست الحمرة وجهي وقلت:

" لا أجيد تناول الطعام بهذه الطريقة "

ثم تجنبت النظر في عينيه لئلا يسخر مني، لم أنخيل في حياتي أنني سأتناول شريحة من اللحم، ولو فعلت لا أظن أنني سأكلها بالشوكة والسكين! على الأقل ليس بالطريقة المتداولة بين هذا المجتمع، فما كان منه إلا أنه مد يده وخطف طبقي من أمامي ثم قام بتقطيع اللحم فيه إلى قطع صغير لتتسع في داخل الفم وعندما أنهى عمله حمل الطبق ثانية ووضعته أمامي.

رفعت بصري لأنظر إليه متفاجئة بأنه لم يسخر من جهلي، ثم قال مشيراً إلى الطبق:

" كلي... فجسمك بحاجة إلى الطاقة... ثم أن الطعام لذيد هنا "

شكرته ورفعت الشوكة التي أمامي، كانت تلمع بشدة حتى أنني كرهت أن أكل بها لئلا تتسخ، سميت الله ووضعت قطعة من اللحم في فمي ليطير إحساسي إلى عالم آخر، يا إلهي ما أشهى قطعة اللحم هذه، فقد ذابت في فمي تاركة إحساساً يدغدغ مشاعري! كانت أذ لقمة أدخلها فمي على الإطلاق، حاولت تذوق صلصة الفطر مع اللحم فطار إحساسي إلى مكان أبعد. لم أشعر بالطبق كيف أكلته وكيف أنهيته.

عندما فرغت من تناوله استيقظ إحساسي ليذكرني بأنني ما زلت في المطعم مع وزن، فتحركت عيناى

صوبه لأراه يبتسم مبرزاً أسنانه البيضاء برضى، ثم قال:

" يا لك من جميلة وعفوية! "

شعرت بالخجل الشديد، هل كنت أكل بنهم؟ لا أدري قطعة اللحم هذه أخذتني إلى عالم آخر من الإحساس فأجبتته بكبرياء:

" كنت جائعة فأنا لم أتناول طعام العشاء البارحة "

فقال معلقًا باستمتاع:

" وهل ينقصك حمية غذائية؟ جسمك يحتاج إلى بعض الشحوم حتى لا تمرضي "

فأجبتته مستنكرة:

" مثل عبير؟! "

عقد حاجبيه وقال متسائلًا:

" من عبير؟ "

- " لا تتصنع الغباء معلمة التربية الرياضية "

- " آه كيس الطحين؟! "

أملت رأسي وتساءلت باستنكار:

" كيس طحين؟ "

فأجاب بعفوية:

" هكذا يلقبها الأساتذة، فهي تضع كماً هائلاً من مساحيق التجميل على وجهها حتى بالكاد يميز

أحد معالمها، هل تقارنينها بك؟ حقاً يا ليان؟ هل أنت عمياء عن جاذبيتك؟ "

لم أستطع الرد عليه فقد أخرجني، ثم أضاف:

" اسمعي بغض النظر عن المظهر، أنا أحببت روحك "

فنطق عقلي الباطني ليهدم ثقتي: انتظر حتى ترى إيلينا فتنساني لأجلها.

وكانه استشعر بشيء يزعجني فمد يده وأمسك بيدي التي على الطاولة وأخذ يمسح عليها بأصابعه

مداعبًا وقال:

" الأهم من كل شيء أنني أحب ليان "

حضر النادل وأخذ الأطباق الفارغة من أمامنا وسألنا إذا أردنا تحلية فأجابه يزن بموافقة.

أخذ القائمة من يد النادل، ثم نظر إلي وقال:

"هل أختار لك حلوى على ذوقي؟ لن تندمي"

كنت مترددة في الموافقة فقد شبعت بالفعل وليس من عادتي أن أكل زيادة عن الشبع، لكن سأدخل في نقاش عقيم معه إذا رفضت فأذعنت له.

طلب لنا قطعتين من الكعك بالشكولاه، نظرت إلى إبداع منظرها كانت ظريفة جداً ومتناسكة وما إن أدخلت الشوكة فيها حتى شعرت بطراوتها ونبع من داخلها شكولاه سائلة يرهف لها القلب.

وضعت اللقمة في فمي فشعرت أنني أطير فوق السحاب، ولم أتمالك نفسي فقلت أنتزل بها:

"يا الله! طعمها طيب إلى أبعد الحدود! ما أشهاها!"

ابتسم يزن ضاحكاً من عفويتي، ماذا أفعل؟ لم أستطع المقاومة فأنا لم أجرب طعمًا كهذا في حياتي

كلها، ثم أشار بإصبعه قريبا من شفتيه قائلاً:

"لؤلؤة لديك هنا..... شيء..... عالق..... من الشكولاه"

حاولت مسح الشكولاه من جانب شفتي كما أشار لكن يبدو أنني أخطأت الموضع، فمد يده نحو

شفتي ومسحها بإبهامه بينما سبابته تتكئ على شفتي، فتحرك في داخلي إحساس بالرغبة تجاهه.

وشعرت بوجهي يتورد إثر لمسته الحارة لي، ثم وضع إصبعه في فمه ليلعق الشكولاه التي مسحها من

شفتي. فانفجرت في داخلي أحاسيس غريبة محملة بريح الشوق والرغبة ليسكر ذهني ويشعل قلبي

بالاشتياق للمسته.

ابتلعت ريقى بصعوبة، لكنني حاولت تجاهله وعدت لتناول ما تبقى من قطعة الكعك الخاصة بي

وعاد إحساسي ليطير نحو السحاب وأنا أستشعر لذتها وقوامها الغني الذي يذوب في الفم، أخذت

أتناولها بتأنٍ لأتلذذ بكل جزء منها، بينما جلس يزن يراقبني باستمتاع، ولم يلمس كعكته أبداً. كان

يتكى على الطاولة بمرفقه ويريح رأسه على كف يده وهو يتأمل شعوري بالسعادة وأنا أتناولها.

أكلتها حتى آخر قطعة ثم مسحت فمي بمنديل مده يزن نحوي، ثم عدلت جلستي ونصبت قدما فوق الأخرى وقلت لتغيير جو الاستمتاع الذي يحيط به:

" أنا لا أكل الكعك عادة لأحافظ على صحتي، وأكلت هذه القطعة فقط إكراماً لك "

فأجاب وهو يكبت ضحكته:

" أها؟! حقاً؟! وأكلتها بهذه اللذة إكراماً لي "

لم أجبه وتظاهرت بأني أتفقد شاشة هاتفي المحمول، لأخرج من هذا الجو المربك. سبقته خارجاً بينما قام بدفع الحساب، ثم خرج ليلاقيني ثم مد لي يده بعلبة كرتونية مغلقة، نظرت إليه متسائلة فقال:

" هذه نصيبي من قطعة الكعك لم يهن لي أن أكلها عندما لمحت فرحتك أثناء تناولها، خذها معك واستمتعي بها مع أهلك في البيت "

نظرت نحوه بضيق شديد وقلت:

" ربها كلفك الغداء هنا مرتبك لهذا الشهر كاملاً "

فنظر نحوي باستنكار وقال:

" وإن يكن؟ لست مهتماً المهم أنني جعلتك سعيدة اليوم، المال آخر همي. أنا إنسان أسعى لإيجاد سعادتي وسعادة من أحب "

ثم سبقني ماشياً بينما استوقفني آخر كلمتين قاهماً، هل يعقل أنه فعلاً يجنني؟ أم أنه يتلاعب بعواظي؟ عندما شعر بغياي عنه التفت وأشار إلي بيده قائلاً:

" لماذا ما زلت واقفة؟ تعالي ثمة مكان أرغب باصطحابك إليه "

عدت إلى وعيي فأسرعت الخطى نحوه ومشيت إلى محاذاته. وصل بي إلى حديقة كبيرة مليئة بالأشجار التي تحيط بها من جهاتها جميعها، ومن داخلها انتصبت أشجار متفرقة تتساقط أوراقها الصفراء والحمراء أرضاً لتكشف عريها الخجول، وتحت كل شجرة تمكث مقاعد خشبية وقد فرشت الأرض بعشب أخضر يميل إلى الاصفرار بشكل جميل لتروي قصة عشق حزين. نظرت إلى

المكان باندهاش شديد فحشني على الإسراع إلى حيث أجمل بقعة في الحديقة كما وصفها، حتى وصل بي إلى جسر حجري مقوس تسبح تحته بحيرة صغيرة، وعلى ضفاف البحيرة نمت أعشاب خضراء صغيرة تفتت من مائها. التفت إلي مبتسماً وأمسك بيدي وجرني معه نحو الجسر فمشينا عليه وأنا أنظر من حولي مأخوذة بهذا الجمال الساحر، وقف على حافة الجسر ونظر إلى البحيرة من فوق وقال:

" أحب التواجد هنا كثيراً فالمكان جميل وهادئ وبعيد عن صخب المدينة "

استشعرت الهدوء الموجود ونسمات الخريف اللطيفة، وتبينت الفرق الكبير بين هذا المكان وحيثنا الشعبي الصاخب، حيث درجات الحرارة هناك ما تزال مرتفعة تنسينا أننا في فصل الخريف. وجهت نظري إليه، كان متكئاً على حافة الجسر على مرفقيه وقد انحنى بجسده إلى الأمام، ينظر حوله بتأمل كبير، ثم تجرأت أخيراً وقلت له:

" حسناً أنا كشفت لك أحد أسرار ماضي المظلم ماذا بالنسبة لك؟ حدثني عن شيء يخصك "

بقي يتأمل المنظر أمامه وبعد مدة من الزمن أجاب:

" أنا وحيد والديّ وعاشت تجربة انفصال أسري وأنا في سن السابعة، لكن جدي لم يسمح لأمي بالانفصال عن أبي وأعادها رغماً عنها وأقسمت على ألا تنجب منه ثانية فبقيت وحدي "

رق قلبي له لكنني لم أستطع منع نفسي من سؤاله:

" لماذا ... كادا أن ينفصلا؟ "

ألقي بنظره إلى الأسفل وزفر بعمق وقال:

" لأن أبي كان يخونها... وقد شهدت على ذلك بعيني، فقد رأيت في وضع حميمي مع امرأة أخرى " رفعت يدي لأغطي فمي من شدة الدهشة، شعرت أن القصة تخفي الكثير من المعالم التي تعمد يزن إخفاءها فلم أجرؤ على دفعه للمزيد من الكلام، كانت شجاعة منه أنه استطاع البوح بهكذا سر. ثم رفع ظهره منتصباً وأداره لحافة الجسر واتكأ عليه بمرفقيه من الخلف ونظر إلي مبتسماً ليزيل غمامة الضيق التي اعترته وقال ليغير مجرى الحديث عنه:

" وأنت؟ ماذا يفعل والداك؟ "

تنهدت بعمق وقلت:

" لا أب لدي... أعيش مع أمي وأختي الصغرى وأنا المعيل الرئيسي في العائلة "

لانت نظراته نحوي، ثم ابتسم لي وقال:

" هنيئاً لك هذا البر، قلت لك سابقاً أنت إنسانة مميزة يا ليان "

ثم ابتعد عن حافة الجسر واقترب مني أكثر ومد يده ممسكاً بأصابعي يداعبها ثم قال:

" سواء صدقتني أم لا أنا أحبك بشدة ومع كل ثانية تمر يزداد حبي لك "

فقلت له مقاطعة:

" يزن أرجوك "

قال بصوت ثقيل:

" أنت تذبحينني عندما تذكرين اسمي على لسانك. "

ابتسمت بمكر وأخذت أردد:

" يزن... يزن... يزن "

تبسم ضاحكاً ثم قرب رأسه أكثر ناحيتي وباغتني بقبلة طبعها على خدي فأسكتني ، حاولت أن

أشزره لكنني وجدت نفسي أبتسم له عوضاً عن ذلك، ماذا حلّ بي؟ هذا من تأثير الكعك أنا

متأكدة.

انفرجت أساريره بابتسامة واسعة على أثر ابتسامتي فاقترب ثانية وقبلني على خدي الثاني، فشعرت

هذه المرة بقلبي يدوب، ثم قبلني على رأسي، وتلقائياً وجدت نفسي أمسك بياقة قميصه دون وعي،

استشعر أنفي رائحة عطره الزكية بسبب قربه مني ثم نظر في عينيّ بشغف وقرب رأسه أكثر مني

وقرب شفتيه من شفتيّ وهمس أمامهما قائلاً:

" أحبك "

لم أستطع مقاومته فشددت على ياقة قميصه ففهم المغزى، ولا مس شفتيّ بشفتيه بقبلة خفيفة ثم

أتبعها بأخرى حتى كاد يستنفد صبري، فقربت رأسي منه أكثر وتمسكت بشفتيه لئلا ينهي القبلة

فشعرت به يبتسم، أخذ يقبلني بحرارة وعاطفة سرت في أنحاء جسدي ثم عض شفتي مرة أخرى ليسرق تلك التنهيدة ثانية من فمي، ثم أبعد رأسه عني وقال بصوت منخفض:

" ليان! كفى نحن في مكان عام "

فأجبتة متوسلة لأصدم نفسي:

" لكن لا أحد هنا! "

ابتلع ريقه ووضع جبينه على جبیني وأغلق عينيه وقال:

" لا أستطيع الاستمرار هكذا! مشاعري نحوك في ازدياد، لا أريد ان أنجرف بأحاسيسي، ليان

أرجوك ارحميني، قلبي يتعذب! "

تنهدت بأسى، كنت أرغب فيه بشدة لكنني خشيت أن أجره نحو خطيئة كبرى لا نقدر على عواقبها، فأبعدت رأسي وخطوت للخلف قليلاً، ثم نظرت إليه بخجل عندما بدأ وعيي يستيقظ لينبهني بأنني رميت نفسي عليه وقلت بصوت خافت:

" ما رأيك لو عدنا الآن؟ تأخر الوقت ستقلق أُمي علي "

ابتسم لي بخفة ومضى من جانبي وقال لي قبل أن يسبقني نزولاً عن الجسر:

" أثرت إعجابي بجراتك قبل قليل "

فغطيت وجهي بيدي ونهرته بخجل قائلة:

" اسكت أيها الأحمق! هذا من تأثير الكعك لا أدري ماذا دسست لي فيه "

فقال ضاحكاً:

" جرعات من الحب! "

ثم مشى أمامي يسبقني نحو المخرج عائداً إلى السيارة، فمشيت من خلفه أتبعه.

أوصلني إلى آخر حيينا كما طلبت منه لئلا يلمحني أحد أترجل من سيارته، فيبدأ القال والقييل، ألقى إلي تحية الوداع ولوحت له بيدي وانطلقت أعد خطواتي نحو البيت، سمعت نغمة هاتفني تصدح

لتنبهني لقدوم رسالة جديدة أخرجت هاتفي وتفقدت الرسالة فكان المرسل هو نفسه، وكتب في
فحوى الرسالة:

" لا تنسي أن تفكري في عرضي للزواج بك، أريد منك ردًا خلال أسبوع "
خفق قلبي بشدة ووقفت محتارة في أمري، أخذت نفسًا عميقًا ورفعت رأسي إلى السماء لأصفي
ذهني وأستطيع التفكير بترؤ. ثم أكملت طريقي نحو البيت.

الفصل السادس عشر

كان يومي في العمل عصيباً بعض الشيء، غادرت سارة المكتب منذ الصباح في جولات مع منسق النسيج، وبقيت وحدي تحت رحمة شهد، فاستغلت عدم وجود سارة لتنتقم مني، فأوصدت علي باب دورة المياه، ولم يساعدني أحد إلا بعد ساعة فتأخرت بسببها في إنجاز أعمالي وكدت أتأخر في طباعة التقرير لولا مساعدة قدمتها لي بعض من صديقات سارة.

إلى متى سأحتمل تصرفات شهد وطغيانها؟ حاولت جاهدة تمالك نفسي وألا أبكي من ازدرائها الدائم لي.

وصلت القصر كالمعتاد في نفس التوقيت وجلست في انتظار التوأمين في الصالة الكبيرة، نظرت نحو الباب الزجاجي فلمحت بركة سباحة كبيرة في الجهة الأمامية من الحديقة، لم أنتبه إلى وجودها قبل الآن.

أعجبتني تفاصيلها، وتحيلت شعور الاستلقاء على مقعد خشبي من المقاعد التي تمتد للنوم عليها تحت مظلة كبيرة، بينما كأس عصير مثلج يقبع على الطاولة في انتظار رشفة تطفئ حر الصيف، لكنني تذكرت أننا في فصل الخريف لذا ربما لا يتم استعمال هذه البركة بكثرة في هذا الوقت.

سمعت صوت وقع أقدام، فالتفت تلقائياً نحو الجهة اليسرى من السلام لأجد السيد شادي ينزلها بينما يقوم بارتداء سترة رسمية فوق قميصه الأسود المخطط بدا أنه على عجلة من أمره، أخذت أراقبه وأنا مأخوذة بوسامته وجاذبيته كأنه أحد مشاهير السينما، ثم سار من الاتجاه الذي يقود إلى المجلس حيث أنتظر الطفلين، استوقفه جلوسي هناك، نظر إلي بعينيه الرماديتين الأسرتين فشعرت بحرارة تجتاح جسدي يا لقوة تأثيره فكأنما حوله هالة من الرهبة تحيط به ليدب الارتباك في قلوب من حوله.

وجه كلامه إلي وهو يتفحصني بعينيه الباردتين فزاد من إحساسي بالرهبة:

" أين جاد وماسة؟ "

فأومأت بعدم معرفتي، ثم أضاف:

" هل ترغبين في تغيير مكان الجلسات التدريسية إلى مكان أفضل لك؟ "

فأطرقت برأسي بخجل قائلة:

" لا شكرًا أنا مرتاحة "

فجأة قدمت تلك المرأة ذاتها التي رأيتها مرة والتي عرفت أنها والددة السيد شادي وضعت يدها

تربت على كتف ابنها، وقالت وهي تنظر نحوي ببرود وتهديد:

" بني! امض إلى عملك لئلا تتأخر هذا ليس وقت الحديث مع عامة الناس "

شعرت بالحنق من أسلوبها الفظ معي، هي لا تعرفني فلم تعاملني بتكبر هكذا؟ هل لأن مظهري

يوشي بالبساطة؟ ولا أرثدي ملابس غالية الثمن؟

مضى السيد شادي دون زيادة حرف، أما أمه فنظرت نحوي باحتقار قبل أن تضع هاتفها المحمول

على أذنها، ثم بدأت بالحديث من خلاله وتحركت مبتعدة بيننا كانت تتغنج في ضحكها وتمشي

باستعلاء.

حضر الطفلان أخيرا واعتذرا عن تأخيرهما وبدأت أراجع معها دروسهما، حتى قدمت تلك الأنسة

الشابة التي سمعت السيدة مايا تقول اسمها سابقًا، ديمة.

اقتربت منا وهي تبسم بعفوية وجلست إلى جانب ماسة، لتراقب سير الأمور ثم لفت انتباهها شيء

ما فاخفت ابتسامتها لتحل على ملاحظها نظرة الحيرة، فقالت متسائلة:

" ألم تكوني مخطوبة سابقًا؟ أين خاتمك؟ "

نظرت إلى إصبعي حيث تنظر هي، وبحركة تلقائية مسحت بيدي الأخرى موضع الخاتم، ثم قلت

وأنا أحاول التحكم في حزني:

" لقد انفصلنا "

ظهرت ملامح الشفقة على وجهها وسألت بفضول:

" لماذا؟ ألم يكن شابًا جيدًا؟ "

فأجبتها على مضض:

" لا، إنه شاب رائع لكننا لم نتفق..... لم يكن كما أريد "

ولم أزد في عبارتي شيئًا ويبدو أنها أحست أنني لن أتكلم أكثر فقالت مواسية لي:

" لا تقلقي سيأتيك غيره ما زلت في ريعان شبابك، كما أنك جميلة ولن تضيع عليك الفرص "

ثم غمزتني بمرح، وأضافت بعدها:

" أنا لم أعرفك بنفسى بعد، أنا ديمة الأخت الصغرى في العائلة. "

ومدت يدها لتصافحني فرددت لها يد المصافحة وعرفتها باسمي، ثم أخذت تداعب شعر ماسة

قائلة:

" أنت ربما تتساءلين عن سبب تواجد أختي في قصر العائلة بينما هي متزوجة، حسنًا المشكلة أن

بيتهم احترق بكل ما فيه. لكن حمدًا لله لم يكن أحد في البيت ذاك اليوم، أصر أبي عليهم أن يمكثوا

عندنا مما جلب السعادة إلى قلبي فأنا متعلقة بهذين الطفلين وأحبهما كثيرًا، أبوهما ينام هنا أحيانًا

وأحيانًا أخرى ينام في بيت والده "

فأضاف جاد:

" طبعًا لو أن جدتي لا تتدخل به كثيرًا لما نام خارج القصر "

نظرت إلى جاد أؤنبه بعيني فلا يجوز أن يتحدث عن أسرار عائلته أمامي، فأنا أعد غريبة عليهم، أما

الآنسة ديمة فوبخته قائلة:

" عيب يا جاد لا تتدخل في حديث الكبار "

فقال بحق:

" وهل تظنون أننا غيبان لا نفهم؟! نحن نسمع شجار والدينا دائمًا ومشاكلهما في ازدياد بسبب

جدتي! أنا أكرهها حرمتني من رؤية أبي لشهر كامل! "

لم أعرف ماذا أو كيف أتصرف عقب كلامه، حاولت الأنسة ديمة أن تزرع ابتسامه على وجهها رغم إحساسها بالإحراج من كلام ابن اختها. ونظرت إلي وقالت وفي عينيها رجاء:

" أرجوك انسي كل ما قاله... "

لم أسمح لها بإكمال عبارتها فقاطعتها مطمئنة لها:

" لا تقلقي فأنا لا أحب الخوض في خصوصيات الآخرين، اعتبريني لم أسمع شيئاً "

لكن لم أستطع إبعاد ذلك عن ذهني نهائياً.. هل يعقل أنه يفكر بالزواج ثانية لأنه لا يجد عند زوجته الأولى السكينة التي يبحث عنها؟ أو أنه يريد أن يتسبب لها ولأمها بالقهر بزواجه بأخرى؟ لا زلت

لا أفهم سبب رغبته بالزواج.... لكن هل تعلم زوجته بإقدامه على هذه الخطوة يا ترى؟

أنهيت دروس جاد وماسة لهذا اليوم ونهضت بهدف الرحيل، وعندما بدأت بالمسير مع السيدة هالة

استوقفنا فارس الذي كان مقبلاً من بعيد ثم أمرها بأن تطلع عمه على زيارته فتركنا ومضت

شعرت بالارتباك منه.

وقف ينظر إلي مبتسماً لكن لم تكن نظراته متفحصة أو باردة مثل السيد شادي. بقيت واقفة مكاني

أنتظر السيدة هالة وهو بدوره بقي واقفاً مقابلي، رفع يده يلقي علي التحية وسألني عن حالي، لكنني

لم أستطع إجابته فقد جاءت تلك القطة البيضاء ثانية تركض مذعورة حتى مرت من تحت عباةتي

فصرخت دون تفكير، وقفزت في تحبط حتى اصطدم كتفي بمزهريه فخارية فسقطت أرضاً

وكُسرت.

أقبل جاد من بعيد يسأل عن القطة لكنه فوجئ بالمزهريه المكسورة لكن ليس بمثل صدمتي، كنت

واقفة أعطي وجهي بكلتا يدي ثم هبطتُ نزولاً ألم شتاتها، صرخ فارس بجاد ليلحق القطة

ويخرجها من المنزل، ثم تقدم نحوي وهبط أمامي وأمسك بيديّ يبعدهما عن حطام المزهريه ثم قال

معاتباً:

" ماذا تفعلين؟ ستؤذين نفسك! "

بدأت بالتلعثم وأنا لا أدري كيف أتصرف:

" أنا .. أنا .. آسفة.... لم أقصد "

قاطعني بنبرة جادة وقال:

" انهضي وعودي إلى الأرائك بسرعة تحركي! اذهبي واجلسي عليها!"

نظرت إليه بذعر ولم أتحرك، فأعاد ثانية ملحًا:

" تحركي! قومي بسرعة قبل أن يأتي أحد!"

نهضت وفعلت مثل ما أمر، فقدمت السيدة هالة مع صاحبة البيت تهرولان بسرعة ثم سألت

الأخيرة وفي نبرتها هجوم:

" ما الأمر ماذا جرى هنا؟ "

عندها لمحت حطام المزهريّة أرضًا فشهقت بقوة وضربت على صدرها، تجمد الدم في عروقي

وشحب لوني، نظرت نحوي وفي عينيها اتهام كبير:

" هذه المزهريّة تساوي الكثير لقد اشتريتها من المزاد إنها أثريّة!"

بدأ جسدي يرتعش من الخوف فنهض فارس على قدميه وسار حتى أصبح أمامها يسد نظراتها

المشتعلة عني وقال:

" ما بك؟ كل هذا على مزهريّة؟ ولماذا تنظرين إلى الفتاة هكذا؟ أنا الذي كسرتها"

ظهر الاندهاش جليًا على محياي فوجهت أنظارها إليه وقالت:

" فارس! هل تعلم كم كلفتني هذه المزهريّة؟"

فقاطعها بقوله:

" مهما كلفت فأنا مستعد لدفع ثمنها ولو كلفتني ثروة لكن أرجوك لا تغضبني، فقد كان حادثًا، أنا

آسف يا زوجة عمي لم أكن أقصد"

نظرت نحوه بنظرة احتقار قبل أن توليه ظهرها ومضت وهي تحدث نفسها بصوت مرتفع أنها

ستجعل السيد هشام يتفاهم مع أخيه حول طيش ابنه.

شعرت بالضيق عليه فاقتربت منه لأعتذر له، لكنه مدّ إصبعه السبابة أمام شفثيه لأسكت مشيراً بيده الثانية نحو مدبرة المنزل التي تقف فوق رأس خادمة تقوم بجمع الحطام، حتى لا تسمعاً شيئاً. حافظت على سكوتي كما طلب ثم رافقتني السيدة هالة إلى الباب لأغادر وعيني لا تفارق فارس، كنت قلقة مما يمكن أن تتسبب به السيدة من مشاكل له. وكأن مدبرة المنزل تفكر في نفس الطريقة فلم تستطع تجاهل التعليق على ما حصل، فما إن فتحت الباب حتى قالت بصوت مرتفع تحدث نفسها:

" فليكن الله في عونك يا سيد فارس، فالسيدة انتصار ستتسبب لك بمشكلة لها أول وليس لها آخر!"

ازداد شعوري بالضيق ولم يغادرني طوال الطريق، أخذت أدعو له من كل قلبي أن يسلمه الله من برائتها، لماذا فعل ذلك؟ لماذا ألقى اللوم على نفسه؟ لماذا دافع عني؟ شعرت بغصة في حلقي والأسف عليه.

عندما ولجت داخل البيت وجدت ليان وأمي في المطبخ ثم نادتنني أمي بصوت مرح قائلة:

" تعالي يا ابنتي تذوقي هذا الكعك الذي أحضرته أختك معها"

اقتربت منها ونظرت إلى الطاولة فوجدت نصف قطعة من الكعك المغطى بالشوكولاه، فنظرت نحوهما متسائلة، فقالت أمي موضحة:

" خرجت ليان اليوم برفقة صديقتها وأحضرت لنا هذه القطعة من صديقتها تلك، لم أستطع

مقاومتها فأكلت نصفها وأبقيت لك النصف الثاني"

ابتسمت في وجهها بحنو منذ فترة، لم أستطع رؤية هذه الابتسامة على شفثي أمي حاولت أن أعتذر عن أكلها لكنها أصرتا وتوعدتنني ليان أن تغضب مني إذا لم أتذوقها، فجلست على الكرسي مستسلمة لهما، تناولت الشوكة وأدخلتها فيها لأخرج منها لقمة فأدهشني قوامها الطري، وضعتها في فمي لأتذوقها فذابت في داخله على الفور تاركة خلفها إحساساً ممتعاً بين أسناني، أغمضت عيني أستلذ بها ووجدت نفسي ألتهم المزيد منها حتى أنهيتها.

التفت نحو ليان أسألهما:

" من أين أحضرتها؟ "

فقالت باختصار:

" إنها من هناء، هل أعجبتك؟ "

فأومأت رأسي بشدة موافقة، كانت أشهى ما دخل فمي على الإطلاق.

حل المساء وتمددنا على فراشنا للاستعداد للنوم، كنت قد قصصت عليهما سابقاً موقف حطام المزهريّة الأثرية واندفاع ابن عم العائلة ليصلق التهمة بنفسه ويعد شر سيدة البيت عني. دعت له أمي بالخير، وليان مدحت بشهامته.

عندما استلقينا على الفراش حدثت ليان أيضاً عن موقفه عندما تبرع بإيصالي فقالت مداعبة:

" إيلينا حبيبتى! أعتقد أنه يفعل ذلك من باب الإعجاب "

احمر وجهي خجلاً ورفضت الاقتناع بكلامها، إنه يمتلك العديد من المواصفات التي تؤهله للارتباط بأفضل فتاة وبالطبع هي ليست أنا، كما أنني لم أخطئ صدمتي من علاقتي السابقة بمجد. حاولت ليان بث الأمل في نفسي بأنه يمكن أن يكون هو الشخص المنشود الذي سيخرجني من أحزاني. حاولت منع قلبي من الانصياع لكلماتها، ماذا لو صُدمتُ ثانية؟ ماذا لو لم يكن معجباً بي

أصلاً؟ ماذا لو كان زير نساء ويغازل أي فتاة يراها؟

ثم أيقظتني ليان من بحر أفكارى لتفاجئني بكلامها:

" سأبوح لك بسر لا تقوليه لأي كان خصوصاً أمي "

التفت ناحيتها وأرخيت لها سمعي، نظرت إلى السقف وقالت:

" أنا لم أكن برفقة هناء، لقد كنت مع يزن "

- " ليان! كنت برفقة شاب! "

- " شششش! اسكتي هذا ليس وقت المواعظ أريد أن أبوح لك بالأمر لأرتاح فلا تجعليني أعدل عن

قراري! "

فصمت وانتظرت منها أن تتكلم، فلما رأيت تجاوبي معها أكملت:
" كان بيننا اتفاق وجزاؤه من الاتفاق أن أخرج معه في موعد، لكن ربما يكون هذا آخر لقاء بيننا أو ربما.... آه يا إيلينا! لا أعرف ما أقول.... لقد طلب يدي للزواج للمرة الثالثة وهذه المرة... أعطاني مهلة للتفكير في قراري فإذا رفضته سيقدم استقالته وبيتعد"
التفتت نحوي وعيناها تحملان الكثير من الأسى والحيرة وقالت:
" إيلينا! لقد وجد طريقة يكسر بها الجليد الذي غلفت قلبي به، لا أستطيع تركه يرحل أنا... معجبة به كثيرا! بل أبعد من ذلك!"

صدمت من اعترافها بمشاعرها تجاهه، وهنا قررت أن أتدخل وأملي رأبي فقلت:
" إذا كان يجبك وأنت تبادلينه المشاعر فاقبلي به وأريحي قلبك! ما الفائدة من الرفض إذا كنتما على الصعيد ذاته؟"

- " ماذا لو آذاني؟"
- " ماذا لو لم يفعل؟ لماذا تظنين الأسوء دومًا؟ إذا كانت رفقته تدخل السعادة إلى قلبك فأنا برأبي استخيري واقبلي به"

نظرت مطولا إلي ثم ابتسمت لي بحنو ووعدتني أن تفكر في الموضوع. بعدها دخلنا في نوم عميق. رأيت في منامي بعض الأحداث التي لم أفهمها رأيت السيدة انتصار تحمل فأسًا لتضربني به على رأسي بينما كان جاد يبكي ثم رأيت فارس يقف أمامها فتضربه بالفأس بدلا عني، استيقظت فرعة من هذا الكابوس، نظرت إلى الساعة فوجدتها مشيرة نحو الساعة الثانية ليلا، حاولت العودة للنوم بعد جهد فالكابوس هذا سبب لي الأرق، حاولت مرارًا إقناع نفسي أنني متأثرة بأحداث البارحة لهذا حلمت بذلك.

خرجت مع ليان في اليوم التالي إلى السوق الشعبية لشترى بعض المؤن للبيت من أرز وسكر وخضار. وبينما كنا نتقل من محل إلى محل بحثًا عن خضراوات جيدة بسعر زهيد وإذ بليان تقف فجأة مصدومة وهي تثبت نظرها على شخص لفت انتباهها، اقترب ذلك الشخص منا بعد أن

لاحظ ليان، ثم ألقى تحية عليها، كان شاباً طويل القامة أسود الشعر وله عينان بزرقة البحر. كان وسيئاً جداً لدرجة جعلت حدودي تحمّر. حاولت ليان الخروج من ارتباكها فأشارت إلي لتعرّفه بي
قائلة:

" هذه أختي إيلينا "

نظر إلي الشاب وعلى محياه ابتسامة وقال معرفاً عن نفسه:

" مرحباً أنا يزن زميلها في المدرسة "

يزن! أين سمعت هذا الاسم؟ ثم ألقّت عليه ليان تحية الوداع وهتفت لي لنكمل سيرنا. التفتت خلفي بعد أن أدركت من يكون فرأيته يتبع ليان بنظراته دون أن يفارقها، ثم التفتت نحوها وقبل أن أفكر اندفعت قائلة:

" هذا هو أستاذ الحاسوب؟ طبعاً ستهيمن به! إنه جذاب! ليان كيف يمكن لك أن ترفض شاباً مثله؟! "

- " اسكتي إيلينا نحن في الشارع سنتحدث لاحقاً في موضوعه "

رضخت لها ولم أناقشها، لمحت خديها المتوردين، فحاولت إخماد ابتسامتي لئلا أثير سخطها، فعلا له تأثير عليها! ليتها ترضى به فتريح قلبها من التعذيب.
عندما وصلنا إلى البيت تفاجأنا بأمي واقفة عند الباب في انتظارنا، وعلى وجهها ملامح لا تُفسر، ثم هبت في ليان على حين غرة:

" ما موضوع هذه الإشاعة التي تنتشر في المدرسة عن كونك مخطوبة؟ "

سقط فكي ذهولاً، أما ليان شحب لونها فسألت ببلاهة بعيداً عن طبيعة شخصيتها:

" ها؟ ماذا؟ من أين أحضرت هذا الكلام؟ "

فزفرت أمي باستياء قائلة:

" من جارتنا أم مازن! أعربت لي عن رغبتها في أن تسامحي ابنها وتصفح لي غدره بك بإخفاء قصة أجدعنا، وأصرت على رغبتها بارتباطك به، فسألتني عم إذا كنت فعلاً مخطوبة لأستاذ الحاسوب كما

يقال في المدرسة، اعترفي الآن ما القصة من هذه الإشاعة؟ هل لفقتها لأجل ممارسة القذارة معه دون أن يعلم أحد؟"

شعرت بالاستياء من كلام أمي وقذفها ليان دون بينة، وشعرت بالشفقة على الأخيرة، كان العرق يتصبب منها ذعرًا أما وجهها فكان في غارقا في عوالم مختلفة من الصدمات، مدت أمي يديها نحو ذراعي ليان وهزتها بشدة وهي تصرخ بها قائلة:

" أنا لم أربك لتمارسي الرذيلة! قولي لي وأريخيني! ما القصة؟ هل يبتزك؟ أم تلجئين إليه لتفريغ حزنك بسبب بهاء؟!"

ألقت ليان بالأكياس التي تحملها أرضًا وصرخت بوجه أمي:

" كفى! كفى!.. أنا لم أقترف ذنبًا!.. أعني أنا لم أمارس معه الفاحشة!.. كان اتفاقًا... بالتراضي!..

اشترطت عليه ألا يستغل الاتفاق في أشياء قذرة، وقد وافق! فهمت الآن؟"

- " اتفاق ماذا؟ بماذا تهدين؟ فسري لي ما سبب هذا الاتفاق؟ لأنك إذا لم تفسري لي شيئًا أقسم أنني

سأزوجك لمن أريد ولن ألتفت إلى رغبتك في الموضوع بعد ذلك!"

جلست ليان على الأريكة واتكأت بمرفقيها على فخذيها ودفنت رأسها بين كفيها ثم بدأت بالتحدث لتجلي الغم من تفكير أمي:

" أنا طلبت منه أن يتظاهر بكونه خطيبي... ل... لأتخلص من... آه!.. لأوهم المدير أنني

مرتبطة... فهو اعترف بأن تصرفاته اللئيمة معي من باب حبه لي!... لكن ذلك الأحمق يزن.. لقد

استغل اللعبة ليطلب يدي للزواج فعلا.. وهذه المرة الثالثة التي يفاتحني فيها بالموضوع "

تغيرت ملامح أمي من الغضب إلى الدهول إلى الاستياء ثم إلى تأنيب الضمير، اقتربت من ليان

وجلست إلى جانبها وقالت:

" لماذا لم تقولي لنا؟ لكننا قدمنا لك المساعدة.. لماذا تصرين دائمًا أن تخفي عنا أحداثًا مهمة في حياتك

نحن عائلتك التي تحبك وتهتم لأمرك!"

نهضت ليان واقفة ولمحت دمعة حائرة تسقط من عينيها وقالت:

" أنا لا أعرف كيف أتصرف... إنه يربكني! ... بصراحة لا أعرف ما الخطوة الصحيحة التي عليّ أن أخطوها... سواء معه أو مع غيره!.. أنا .. متعبة.. بعد إذنكما أريد البقاء وحدي الآن رجاء "

جرت رجليها وحبست نفسها في الغرفة، ألقيت نظرة إلى أمي أؤنبها إلى هجومها عليها بهذا الشكل قبل أن تفهم القصة من طرفها. فتجنبت أمي النظر إلي. وبقيت هائمة في أحزانها ثانية.

مر ما تبقى لنا من عطلة نهاية الأسبوع على هذا الحال، ليان تتجنبنا وبات كلامها أقل من المعتاد حتى أن أكلها خف تدريجيًا. وأمي تسبح في مستنقع الحيرة والضياغ، وكلما سألتني عن أستاذ الحاسوب ذاك أقنعها بأنني جاهلة بأمره تماما مثلها.

صليت ودعوت لها من كل قلبي بالسعادة وإنارة بصيرتها إلى ما هو خير لها.

ليان

جلست على طاولتي صباح الأحد أواجه النافذة، وأراقب السماء التي افترشت ببعض الغيوم الرمادية بينما أتساءل إن كانت لها قصة حزينة موارية خلف تلك الغيوم مثلي، كنت قد خرجت من البيت مبكرة لأنني لم أستطع النوم فقد أصابني الأرق، ووصلت إلى المدرسة في وقت مبكر جدا. سمعت صرير الباب يفتح ثم صوته يصدح ليكون أول من يكلمني حتى هذه اللحظة، ليقول:

" يا صباح الخير والسعد!.. ظننتك لا تحبين الجلوس على الطاولة "

التفت قليلاً إلى الخلف نحوه، ثم عدت ببصري لأوجهه نحو النافذة، صعد يزن على الطاولة وجلس إلى جانبي صامتاً معه كوب من القهوة مده إلي لأشرب منه، فأخذته منه وأنا ألفظ عبارات شكر بسيطة.

نظرت إليه فوجدته ينظر إلى السماء من خلال النافذة، عيناه الزرقاوان تلمعان بطريقة ملفتة، ثم وجدت نفسي أسأله:

" ما رأيك بإيلينا؟ "

قطب جبينه ثم سألني وقد بدت الحيرة جلية على وجهه:

"من إيلينا؟ هل أعرفها؟ آسف ذكريني"

- "إنها أختي التي كانت معي في السوق، هل أعجبتك؟"

حكّ حاجبه وزم شفّتيه وقال:

"بصراحة.. لم أهتم بدراسة تفاصيلها جيداً! أعني نعم.. لا أدري.. ههه، لكن لا أفهم لماذا

تسأليني إذا أعجبتني أم لا؟"

ابتلعت إجابتي لتخفني، وتجنبت النظر إليه، جاهدت لأحافظ على نظراتي موجهة أمامي وأنا

أحاول التفكير في الأمور من حولي، تنهد بعمق وقال:

"هل لي بسؤال؟..... هل أختك هي الفتاة التي أحبها خطيبك السابق عوضاً عنك؟"

التفت نحوه مذهولة من اكتشافه، ثم قال وهو ينظر في عيني:

"ليان! أنا لست شاباً سطحياً لأترك فتاة وأجري خلف أخرى بسبب جمالها! قلت لك أنا أحبك

أنت، أول ما لفتني فيك شخصيتك الفريدة! نعم أعجبت بمظهرك الأنثوي الشرس، لكن عندما

حاولت سبر غورك اكتشفت فيك أشياء محببة يهاها قلبي، ولم أجد هذه الصفات إلا فيك أنت!"

زفرت أنفاساً مضطربة، وبدأ التوتر يزحف في جسدي وهو يعطيني شعوراً بالقشعريرة مما سأقول

تالياً، شعرت بأن هذه اللحظة المناسبة للبت في الموضوع وعلي أن أنهيه الآن، وضعت كوب القهوة

جانباً والتفت نحوه ثانية. نظر في عيني كأنه على علم بأنني سأقول شيئاً مهماً، ثم وجدت فمي يخرج

عباراته لأقول:

"أنا.... موافقة على الزواج منك"

تلقي إجابتي بداية مذهولاً واتسعت عيناه بصدمة، ثم بدأ وعيه بالعودة تدريجياً إلى دماغه فوجدته

ينتفض عن الطاولة واقفاً وعلى محياه ارتسمت علامات الابتهاج، ثم دفع الكرسي المستريح أمام

الطاولة برجله مندفعاً، فأجفطني، التفت نحوي محتضناً فكه بيده ليكبت صرخته، ثم فاجأني بدمعة

لمعت هاربة من طرف عينه واستسلم للبكاء، وبشفتين مرتجفتين استطاع أن يصوغ عبارة قال فيها:

"أخيراً قبلت! لا أصدق أخشى أن تصيبي سكتة قلبية قبل فرحتي بك"

مددت يدي بتردد نحو كتفه لأمسح عليه مستغلة لحظة ضعفه، بينما يبكي كطفل صغير، أردت احتضانه بقوة لأمسح الدموع عن وجنتيه المحمرتين، لكنني لم أملك جرأة كافية للقيام بذلك، وعوضاً عن ذلك راقبته بلهفة وهو يمسح دموعه بنفسه، وأخيراً أكد لي مشاعره بجملته التي رن صداها بحرارة في أذني، وعلقت في ذهني لتثبت نفسها في جدران ذاكرتي:

" أحبك من كل قلبي! "

الفصل السابع عشر

قدمت سارة وهي تحمل معها كوبين من القهوة، وعلى محياها ارتسمت تعابير الابتهاج جلست إلى جانبي بعد أن ناولتني كوبا وقالت بمرح:

" بينما كنت أعد القهوة تحدث معي مهند في المطبخ وسألني عن الحال وابتسم لي قبل عودته إلى مكتبه، قلبي يطير فوق السحاب الآن!"

لم أستطع منع نفسي من الابتسام على براءتها وبساطتها وتمنيت لها أن تجد الخير أينما كان، ثم ورد مكتبنا مكاملة رفعت سارة سماعه الهاتف لتستقبلها وألقت التحية، ثم تغير لونها إلى الشحوب قليلا، تمتت ببعض العبارات منهيمة المكاملة وأغلقت الساعة. نظرت إلي والقلق مرسوم على وجهها ثم قالت:

" هذه سكرتيرة المدير تطلبك للذهاب إلى مكتبه"

خفق قلبي خوفاً... هذه ثالث مرة أدخل فيها مكتبه خلال فترة قصيرة... ما القصة الآن؟ تذكرت المزهرية التي كسرت قبل يومين فتجمدت الدماء في عروقي. نهضت مترددة وسرت باتجاه مكتبه وأنا أندب حظي في هذه الحياة.

استقبلتني السكرتيرة وفتحت لي باب غرفته فوجدتني إلى الداخل، لمحت المدير يقف خلف المكتب أمام النافذة الزجاجية الكبيرة، ودون أن يلتفت إلي طلب مني الاقتراب، ففعلت كما أمر. التفت نحوي ونظر إلي متفحصاً ببرود، ثم دار حول المكتب ليصبح أمامي بخطوات بطيئة دوى صداها في أرجاء المكتب ليزيد من رهبتي من لقاءه، اتكأ على طاولته الكبيرة وهو ما يزال يتفحصني بنظراته الثاقبة ثم قال:

" ما القصة بينك وبين فارس؟"

تفاجأت من سؤاله الذي جاء دون مقدمات، حاولت إيجاد كلماتي للرد عليه فلم أعرف بما أجيب، ثم قال عندما وجد حيرتي في اختيار كلماتي:

" فارس ليس شابًا يصلح للارتباط، إنه زير نساء "

شعرت بغصة في حلقي وقلبي من كلامه المزعج فهمت أنه يظن أن هناك علاقة بيني وبين ابن عمه فأجبتته محاولة استجماع شجاعتي:

" ليس هناك شيء بيني وبينه... أنا قبلت بالوظيفة في القصر من أجل إعالة عائلتي..... وليس من أجل التورط في قصص أخرى "

تسمرت نظراته علي محملة بالشك والريبة ثم اعتدل بقامته الطويلة واقفا، وأخذ يسير بمسار شبه دائري من حولي كأنه جهاز كشف للكذب ليتفحصني إن كنت أكذب أم لا، فشعرت أنني سأهوي أرضًا من شدة الخوف، لا أعرف لماذا أشعر بالذعر كلما رأيته. بالرغم جاذبيته الشديدة إلا أنني لم أكن أرتاح له.

استقر أخيرًا إلى يميني وكان يقف قريبًا جدًا مني مما أثار حفيظتي، شعرت به يتفحص جسدي من خلال عباءتي بعينه. مع أنني كنت أرثدي عباءة واسعة نوعا ما لأخفي معالم جسدي لكنني شعرت به ينظر إلي كأنها عباءة شفافة. رفعت كف يدي على كتفي ويدي الثانية أحطتها حول وسطي لأخفي معالم أنوثتي وابتلعت ريقتي بصعوبة.

رفعت بصري قليلا لأواجه نظراته كان يرفع إحدى حاجبيه وهو ينظر إلي بنظرات غير مفهومة.

ماذا يريد؟ لم هو صامت؟ هل ستركني أمضي نحو مكنتي؟

لمحت عينيه تسبران شفتي كأنهما تخضعان لاختبار صعب، ثم رفع بصره لتلتقي نظراتنا... مهما حدثت نفسي أنني لا أفتنن بالمظاهر إلا أن عينيه الرماديتين أسرتاني... فأشحت بنظري بعيدًا.

اقترب مني أكثر ومد يده نحو ذقني ليرفع رأسي بطرف إصبعه لتلتقي نظراتنا من جديد، كرهت لمسه لي، ليس إلا لأنني فتاة متحفظة، أردت صفع يده بعيدا لكنني جنبت من هالته المهيبه التي تحيط

به.

أخذ يتأملني بعمق، فشعرت بكهرباء تسري في عروقي على أثر لمسته ووسط سحر عينيه ثم قال:
" انظري جيداً في اختياراتك في الحياة قبل إقدامك على أي خطوة.. "

لم أفهم ما عناه في تلك اللحظة، رجعت خطوة للوراء حتى تخلصت من لمسة إصبعه السحرية.
حاولت التقاط أنفاسي لكن لم أستطع كأنه أمر كل حواسي بالتعطل عن العمل بنظرات عينيه
الغامضة.

تحرك قليلاً حتى أصبح أمامي لا يفصل جسدينا عن بعضهما إلا بضعة إنشات، ولأنه كان طويل
القامة لم أر وجهه بل وقعت عيناى على الجزء المكشوف من مقدمة صدره والتي يغطيها قليل من
الشعر لتذكرني بهيمته كرجل، فأحسست بنفسى أضطرب أكثر، لست معتادة على مواقف محرجة
ك هذه. ولأنه كان قريباً بشكل لا أسمح به عادة تمكنت رائحة عطره المسكرة من استيطان ذهني. ثم
أمال رأسه قليلاً إلى الأمام وهمس مضيفاً لعبارته الغامضة السابقة:

" لا تكونى عمياء عن الفرص الأفضل أمامك. مفهوم؟! "

لا غير مفهوم! هذا ما صرخ به عقلي فأنا لا أفهم ما يريد، حاولت جاهدة التقاط أنفاسي، ثم
أشحت بوجهي بعيداً عنه، فشعوري بانعدام الراحة يزيد كل ثانية. أنا أكره الرجال المتعجرفين
أمثاله والذين يظنون أنهم يملكون الكون بقرعة من أصابعهم.

تأملني بنظرات متفحصة، ولم أعد أفهم إن كان ينتظر منى إجابة أو أنه ببساطة بارد هكذا، وأخيراً
أطلق سراحي بخطوة نحو مكتبه عائداً إليه، استراح على كرسيه ولم يتحدث معي وأخذ يقلب
بالأوراق الموجودة على سطح المكتب، ووقفت مكاني في حيرة من أمري لا أدري هل أمضي من هنا
أم أبقى في انتظاره حتى يأمرني بالرحيل؟

طال صمته وقتاً فاستطعت إيجاد كلماتي بعد أن استجمعت قواي للسؤال:

" سيدي هل أعود إلى المكتب؟ "

رفع رأسه عن الأوراق ليواجهني بنظراته الباردة وأشار بيده نحو الباب دون أن ينطق بحرف،
وهكذا وجدت قدمي طريقيها نحو الخارج، يا له من متعجرف! أبقاني واقفة بلا حراك ليتسلى

بجبروته علي، أنا حقًا لا أعرف ماذا تجد فيه سارة والبقية حتى يقعن في غرامه! فأجابني عقلي
الباطني ربما جاذبيته التي ألجمت لسانك! إنه ليس ببشر في مظهره بل ملاك! فأجبت عقلي الباطني
باستهزاء:

" ملاك بقلب شيطان "

توقف أحد العاملين عن عمله وهو ينظر نحوي متعجبا، فأدركت أنني لفظت عبارتي بصوت
مسموع، فاحمرت وجنتاي خجلاً ومضيت نحو مكتبي دون أن أنظر خلفي.
وصلت القصر في الموعد المحدد ثم أقبل جاد وماسة مبتسمين، ألقيا التحية علي ثم قال جاد:

" هل تعرفين ماذا حصل مع العم فارس؟ "

فنظرت له أخته بتهديد وقالت:

" كم مرة نهتك أمني عن التدخل في شؤون الكبار؟ "

فتجاهلها جاد وأكمل كلامه:

" المسكين أحضرت جدتي والديه وطالبتها بدفع ثمن الزهرية ووبخاه على طيشه، لكن الحق يقال
جدي أراد أن يسامحه، لكن جدتي اللئيمة أصرت على استرداد حقها فحصلت منهم على شيك بقيمة
المبلغ المطلوب، هل تعرفين كم ثمنها؟ "

أومأت رأسي نفيًا فأجاب:

" عشرون ألفاً! هل تصدقين قلة العقل؟! مجنونة! من يشتري مزهرية بهذا الثمن؟ "

كاد أن يغمى علي لدى ذكره لسعرها يا إلهي! لماذا تكبد فارس ثمن دفعها عني؟ لماذا لم يتراجع
ويبلغهم بأني من كسرهما، شعرت بشيء يمغصني من داخلي، ونما في داخلي الاستياء وددت لو أنني
أستطيع صنع شيء له في المقابل لكن ما بيدي حيلة، فمن أين أحضر مبلغا كهذا؟

حاولت الانخراط مع الطفلين في الدراسة بعدما أصرت علي جاد بكنم الموضوع وعدم التحدث
فيه نهائياً.

قدم فارس إلى القصر مرة أخرى، يبدو أن هذا الشاب لا يتعظ من المواقف السيئة، لكنه لم يدخل من البهو بل كان في الحديقة برفقة السيد شادي، آه! كلما تذكرت موقف السيد شادي معي اليوم شعرت بامتعاض منه ومشاعري السلبية تنمو تجاهه أكثر، لن أنسى أنه اتهمني بمواعدة الشبان وخصم مرتب شهر كامل مني، وكاد أن يجبرني على توقيع استقالتي، أما موقف اليوم بوقاحة نظراته ثم ازدرائه كان كالشعرة التي قسمت ظهر البعير.

نظرت باتجاهها بينما كان الطفلان منشغلين بفرض كلفتها بإنجازها، فالتفت فارس ناحيتنا ولوح لي وعلى محياه علامات المرح، شعرت بالخجل وأشحت وجهي لكن لم أستطع مقاومة تلك الابتسامة السخيفة التي تربعت على ثغري تلقائياً، لكن سرعان ما تلاشت وشعرت بشحوب يعتريني فقد لمحت أجدد واقفاً أمام السلام وينظر نحوي بتجهم واضح، ثم نظر باتجاه الحديقة بالنظرة ذاتها، تحاشيت النظر نحوه، ثم بدأ عقلي الباطني يحدثني: لا شأن له بك ولا في حياتك لماذا شعرت بالذعر لدى رؤيته للموقف؟ ما بينكما انتهى وعليك أن تخرجيه من قلبك كما أخرجتيه من عقلك! حاولت جاهدة تصنع الوجه غير المبالي، نظرت باتجاهه ثانية لكنه لم يكن موجوداً، أين اختفى؟ هل كنت أتخيل وجوده؟ لا مستحيل.

فجأة سمعت صوت الأنسة ديمة يغرد من فوق رأسي، التفت خلفي فوجدتها تمد يد المصافحة تحييني مبتهجة، فرددت لها الابتسامة بخجل وصافحتها بدوري، جلست ونظرت إلى الطاولة وقالت متسائلة باستياء:

" لقد لاحظت أن الأطباق والكؤوس التي تقدم إليك ترجع إلى المطبخ كما هي لماذا؟ نحن نحب إكرام ضيوفنا، أم أنك تخشين أن ندس لك شيئاً فيها؟"
فأجبت بسرعة بإحراج:

" كلا ليس الأمر كما تتصورين أنا ... لست معتادة ثم أنني أحصل على أجري لقاء عملي "
- " إيلينا! أجرك شيء وإكرامك كضيفه شيء آخر، هيا اشربي كأس العصير إذا علم أبي بتصرفك فإنه سيستاء منك "

تناولت كأس العصير عن الطاولة وارتشفت منه حتى أخرج أي أفكار مضللة من رأسها، ثم نظرت باتجاه الحديقة وابتسمت بعفوية وقالت:

" كثر زيارات فارس على غير العادة... كان في السابق يهوى التغزل بالفتيات لكن إحداهن تسببت له بمشكلة كبيرة، فكره معشر النساء فترة، لكن الآن لاحظت أنه... تغير.. أعني يبدو أن قلبه وجد ضالته "

ثم نظرت إلي وقالت:

" فارس معجب بك بطريقة لم أشهده بها من قبل "

كنت أرتشف من العصير وعند ذكرها جملتها الأخيرة تشرذقت في العصير وكدت أختنق فأخذت تضرب على ظهري وتسمي الله علي، أما ماسة وجاد فازرق وجههما خوفاً.

لم أعد أنتبه لما يدور حولي وأنا أسعل بشدة، ثم ما لبث السعال يخف تدريجياً واستطعت سماع صوت ذكوري مألوف يقول:

" ناوليها كأس الماء لتشرب "

ناولتني الأنسة ديمة الماء فشربت حتى خف ألم حنجرتي، نظرت أمامي فتبينت صاحب الصوت، كان السيد هشام، فشعرت بحرج كبير من الموقف، ثم لمحت خلفه كلاً من أمجد وفارس ينظران نحوي بقلق.

تحاشيت النظر في أعين الجميع وأنا أشعر بالخجل منهم واعتذرت منهم جميعاً. تنفس السيد هشام الصعداء ثم قال:

" حمداً لله على سلامتك ما دمت اطمأنت على حالك سأتركك الآن لتكلمي عمك ... "

ثم نادى بصوت مرتفع:

" هيا يا شادي! "

رفعت بصري بحثاً عنه فهو لم يكن واقفاً بينهم ثم جاء من الحديقة وهو يتكلم من خلال هاتفه المحمول، ما أقوى أعصابه! شهد اختناق أحدهم ولم يعبأ بذلك! " أو أنه لا يعبأ بك أنت بالذات

فأنت بالنسبة له حثالة!" أغمضت عيني بقوة لأسكت عقلي الباطني عن الحديث، ثم سمعت أمجد يقول مخاطبًا الجميع:

"أرى أن تذهبوا جميعًا للتصرف في شؤونكم واتركوها لتنهي عملها دون إزعاج"

قال آخر كلمة وهو ينظر نحو فارس بحدة، فرفع يديه مستسلمًا وقال:

"كانت برفقة ديمة عندما اختنقت لماذا تنظر إلي هكذا؟ كنت مع شادي! لا تقلق لن أزعج دراسة أولادك اهدأ يا رجل!"

أقبلت السيدة مايا في توقيت مناسب لتحرير فارس من نظرات أمجد الثاقبة، وقالت مخاطب أمجد: "أريدك في موضوع"

فظهر الانزعاج جليًا على محياه وقال دون أن يكثر بأحد حوله:

"ليس الآن لدي أعمال!"

- "أذن عندما تنهي أعمالك"

- "لن أعود إلى هنا الليلة، سأذهب عند أهلي وأبيت عندهم"

ولاهما ظهره وخرج، رفعت بصري نحوها بحذر فشعرت بها تحتق بدموعها التي تحاول كبتها، ثم عادت أدراجها ومضت نحو السلام لتصعد إلى الطابق الثاني فلحقت بها ديمة، التفت نحو الطفلين فرأيت التعاسة في وجهيهما، مسكينان! لماذا عليهما أن يشهدا مشاكل أسرية في هذا العمر؟ جلس فارس على الأرائك الجانبية وقال:

"أتمنى ألا نكون قد أزعجناك أو أنك شعرت بعدم الراحة..."

فقاطعته وأنا أنظر إلى الطفلين بجانبني:

"كل شيء على ما يرام، الحياة ليست مثالية دائمًا وكما يوجد مشاكل يوجد لها حلول" فقال معقبًا:

"والحل هنا ببيت الزعيمة التي تتسبب في المشاكل لأهل هذا البيت"

نظرت ماسة نحوه نظرة شذرة فابتسم محرّجًا وقال:

" ماسة حلوتي سأعطيك حلوى دون معرفة أمك إذا أبقيت فمك مغلقاً ولم تخبري أحداً بما قلت. "

فابتسمت وقالت:

" سرّك في بئر عميق "

لم أقاوم الابتسام على كلامها، نظرت نحو فارس الذي كان ينظر نحوي وأعتقد أنني لمحت في عينيه افتناناً، ثم كأنني باغته في نظرتي فتوردت وجنتاه وألقى بنظره على الأرض، ثم نهض محرّجاً وهو يحك رقبتة واعتذر وانصرف خارجاً. أعلم أنه قيل أمامي مرتين بأنه زير نساء لكن شيئاً في قلبي تحرك ناحيته، هل هو الإعجاب؟ ربما أنا معجبة ببشرته القمحية وقسماته الجذابة وشخصيته المرحّة، لكن عليّ ألاّ أتمادى في مشاعري تجاهه فأنا لم أشفى بعد من جرح أمجد لي ولم أستطع أيضاً إخراجه من قلبي نهائياً، لذا لن أفكر في أحد الآن، سأترك قلبي للأيام لعل جرحي يلتئم.

عدت إلى البيت، ليتم استقبالي من قبل خالي وزوجته وصدمت من رؤيتهما، سألتها باندهاش:

" أهلاً وسهلاً! ما سر هذه الزيارة البديعة؟ "

فأقبلت ليان من داخل الغرفة وهي ترتدي قميصاً أسود صدره مرصع بخرز أبيض وتنورة طويلة باللون الخمري وشالة ملونة بدرجات من اللون الخمري فسألتها باندهاش:

" ليان تبدين غاية في الجمال! هل أنت ذاهبة إلى مكان ما؟ "

فابتسمت ونظرت نحو أمي التي خرجت من المطبخ لاستقبالي والفرحة بادية على وجهها ثم قالت:

" لا لن أخرج إلى أي مكان بل أنا في انتظار يزن ووالديه "

استغرق الأمر مني ثوانٍ لأفهم عبارتها ثم شهقت متفاجئة فأومأت برأسها إيجاباً، فقفزت من الفرحة نحوها وعانقتها بحرارة وقلت:

" أنت وافقت على الزواج منه؟! آه كم أنا سعيدة من أجلك! "

احتضنتني ليان بدورها ودعت لي هامسة في أذني أن أهتدي إلى سعادي كما وجدتها بدورها.

لم أغير ملابسي بسبب ضيق الوقت فقط أخذت أعدل من وضعية حجابي وجلسنا في انتظار قدوم ضيوف ليان، حانت مني نظرة نحوها ومع أنها كانت سعيدة جداً إلا أن الارتباك كان واضحاً على

محيّاها، ثم رنّ هاتفها فأعطته لخالي بسرعة وهي تقبض على كفيها بارتباك، فتحدث خالي من خلال الهاتف وأرشد الشخص الذي على الجهة الثانية من المكالمة إلى رقم المبنى والطابق الذي نعيش فيه. أخذت ليان تجوب في الغرفة جيئةً وذهاباً للتخلص من توترها، ثم سمعنا فجأة صوت قرع الجرس، فذهب خالي صوب الباب ليفتحه، وكان أول شخص يلج امرأة خمسينية جميلة بعينين زرقاوين كانت على غرار والدة أمجد امرأة محجبة، وكانت ترتدي عباءة طويلة مطرزة وجميلة وأقبل بعدها ذاك المعلم يزن يحمل في يده باقة من الأزهار البيضاء، ثم أقبل أخيراً رجل خمسيني وسيم الطلة، كان التجهم والعبوس واضحاً على ملامحه، لكنني حاولت تبرير ذلك بطبيعة وجهه الجامدة. رحب بهم خالي واقتادهم نحو غرفة الجلوس ألقينا التحية عليهم بدورنا وصافحنا أمه باليد ثم مد يزن باقة الأزهار نحو ليان قائلاً لها:

" راعيت اختيار هذا النوع من الأزهار بالذات "

فابتسمت بعفوية تجاهه أما أنا لم أفهم السر من وراء هذه الأزهار.

جلست أمه بحياء وهي مبتسمة لنا أما والده فأخذ ينظر حوله نحو جدران البيت والسقف نظرة متعالية متجهماً. فشعرت بالضيق منه. ثم حياهم خالي ثانية وأخذ يطلع إلى أحوالهم. قامت ليان من فورها لتعد القهوة فساد صمت قاتل على الأجواء وحاولت أمه أن تلتطف الأجواء بسؤالها عن عمر ليان والصف الذي تدرسه فأجابتها أمي لدى دخول ليان الغرفة مع القهوة:

" إنها في الخامسة والعشرين من العمر وتقوم بتعليم مرحلة أساسية دنيا "

فابتسمت الأم مجدداً. تقدمت ليان نحو الضيوف وبدأت بوالد يزن. نظر نحوها باستعلاء ثم اعتذر عن شرب القهوة فابتلع يزن ريقه بامتعاض. شعرت ليان بالخرج ثم سارت نحو أمه مضطربة من ردة فعل الرجل، أخذت منها فنجاناً وهي تبتسم لها بود ثم قدمت فنجاناً لخطيبها فتناول الفنجان وهمس لها بشيء لم نسمعه لكن وجهها تورد خجلاً وأكملت ضيافتها للبقية. كانت مراقبة ليان وهي كالأنثى أخيراً شيئاً ممتعا بالنسبة لي.

استراحت مكانها جالسة وساد الصمت ثانية، ثم تنحى يزن وهو ينظر إلى والده فانتبه إليه الأخير ثم قال وكأنه يتكلم رغماً عنه:

" جئنا إليكم في نية طلب ابنتكم للزواج من ابنا الوحيد يزن، ما رأي ابنتك يا سيد..... "

فقال خالي مجيئاً له:

" ادعني بأبي سالم... هذه البنت هي ابنة أختي ولكنها في مقام ابنة لي "

فقطب الرجل حاجبيه وقال مستفسراً:

" أها! وأين الوالد؟ هل يعمل خارجاً أو متأخراً؟ "

فنظر خالي نحو أمي بارتباك لكن ليان تولت الإجابة قائلة:

" لا أب لدينا نحن عائلة مكونة من ثلاثة أشخاص أنا وأمي وأختي وهذا خالي وهذه زوجته "

نظر الرجل نحوها بتحد وقابلته ليان بذات النظرة، فلكرتها في فخذها لتتوقف عن النظر إليه بهذا الشكل، ثم قاطعهم خالي قائلاً:

" يشر لنا طلبكم يا سيدي وأنا متأكد من أنها متفقدان على ذلك "

وأشار إلى يزن وليان، ثم سأله زوجته خالي فجأة:

" أي مادة تدرّس يا يزن؟ "

وقبل أن يجيبها تدخل والده قائلاً:

" المفترض به ألا يعمل معلماً من الأساس، لكنه اختار هذه المهنة بالرغم منا كما اختار أشياء أخرى، كان الأولى به أن يعمل مديراً للفنادق التي أملكها فهو وحيد وهو الوريث الوحيد لأملاكي من بعدي "

سقطت أفواهنا ذهولاً مما قال ونظرت ليان نحو يزن بصدمة لم تستطع إخفاءها، أما بالنسبة له فقد أخذ يعدل من وضعية جلوسه وهو يشعر بعدم الراحة، ثم نهضت ليان فجأة وقالت توجه كلامها إلى خالي:

" أريدك بكلمتين على انفراد "

غابا لثوان في المطبخ.. لم نستطع تيين ما يقال بينهما، لكنني سمعت أصوات جدالهما... في النهاية خرج خالي محرّجًا وقال:

" أرجو المعذرة منكم لكن الفتاة تريد التفكير في الموضوع قبل البت فيه "

وهنا نهض يزن متفاجئًا وتساءل بنبرة غضب:

" نعم؟! "

ثم أراد السير باتجاه المطبخ فحاولت أمه إيقافه فأمسكت بطرف قميصه تهدئه، لكنه قام بشد ذراعه فتخلص من قبضتها وهروا نحو المطبخ فلحقتُ به، وجدنا ليان واقفة بجانب الطاولة تعض على أظافرها فاقترح عليها المطبخ وقبض على كتفها وقال غاضبًا:

" ماذا حصل لك؟ لماذا تراجع عن قرارك؟ ليان قلت لك كفي عن تعذيبي! "

جاءت أمي وزوجة خالي إلى باب المطبخ والقلق باد على وجهيهما، وتبعتهما أمه وهي تتوجس خيفة، فقالت ليان مهاجمة إياه:

" لما لم تقل لي أنك من عائلة غنية؟! "

- " ما الفرق الذي سيشكله معرفتك بهذا؟ "

- " الفرق أنني لن أتزوج بشاب ثري! "

اصفر وجه يزن ثم أمال رأسه قليلاً أمامها وقال:

" أنا يزن كما أنا.. وضعي لن يغير من مشاعري تجاهك! أنا أريدك زوجة لي حتى لو رفضت "

أشاحت وجهها عنه باستياء، فهبط على ركبتيه وأمسك بكفي يديها وأخذ يرجوها قائلاً:

" أرجوك لا تميّتي قلبي أنا بحاجة إليك! أتوسل إليك لا تدفعيني بعيداً عنك أنت حبي الأول

والوحيد! "

ثم جاء صوت أمه ترجوها باكياً:

" أرجوك يا ابنتي وافقي لا تحرميني من فرحة ابني، فأنا لم أره بتلك الضحكة التي تنبع من قلبه إلا بعد دخولك حياته أصبحت الهاجز الوحيد في باله، لو أنك ترين وجهه وهو يحدثني عنك، ابني مغرم بك!"

تأثرت كثيرًا لكلامها فانسابت دمعة من عيني، نظرت نحو ليان أرجوها أن تكف عن تعذيبنا جميعًا بأفكارها المجنونة وعنادها المتواصل.

ثم صاح بها يزن متوسلاً قائلاً:

" أقسم أنني لن أبرح مكاني حتى توافقي حتى وإن اضطررت أن أنام في مطبخكم الليلة"

فهبطت ليان أرضًا على ركبتيها لتواجه نظراته المريرة، وأمسكت وجهه بكفي يديها وقالت:

" إذا وعدتني بألا تتغير معاملتك معي وألا تعيرني بوضعي الحالي.."

وضع إصبعه السبابة على شفثتها ليسكتها وقال:

" مجنونة! لو لم أكن أحب البساطة لما اخترت مهنة التعليم. هذا سبب والسبب الآخر.. لأکید لأبي"

ثم أشار بإصبعه نحو شفثته وقال:

" هذا سر لا تقولي له"

فابتسمت ليان رغم دموعها التي انسابت على خديها فقال:

" قلبي الضعيف لا يحتمل رؤية الدموع في عينيك لولا وقوف الجماهير على الباب لوجدت طريقة

أرضيك فيها"

فتنحنحت أمه بخجل مؤنبة إياه، أما أمي فأخذت تمسح دموعها بابتسامة محرجة، ثم عدنا إلى

المجلس حيث كان خالي ووالد يزن ينتظران. وبدا على وجه والده نفاذ الصبر، لكنه لم يعلق بشيء.

أصر يزن على الجلوس بجانب ليان وجلوس زوجة خالي بجانب أمه ثم قرأنا الفاتحة على نية التيسير

بعد تأكد خالي من موافقة ليان بالزواج من يزن، ثم تلاها الحديث بالمهر وبناء على طلب ليان فلم

يكن المهر مرتفعاً فطلبه خالي ضمن الحدود المتعارف عليها في المجتمع العادي.

طلبت أمه أن يعيشا بعد الزواج في بيت العائلة لأنه ابنها الوحيد ولا تريد تركه يبتعد عنها ووعدت، ليان بأنها ستحصل على كامل راحتها وحصولها على غرفة خاصة بها مع حمام في نفس الغرفة وستعاملها كابنة لها. نظرت ليان نحو يزن مترددة لكنها وافقت بعد أن رأت التوسل في عينيه لثلا تعدل عن قرارها بالزواج، ثم سأهلم خالي:

" متى سيكون الزفاف؟ في العطلة الصيفية؟"

فأجاب يزن قبل أن يسمح لوالده بالرد:

" لا طبعًا الصيف موعد بعيد جدًا! سيقام الزفاف نهاية هذا الأسبوع"

ألجمت الصدمة من إعلانه ألسنتنا جميعًا فنظر له والده بامتعاض وقال:

" ألا تريد فترة لتتعرفا على بعضكما جيدًا في البداية؟"

فزم شفتيه ونظر نحو ليان وأجاب:

" كل ما أريد معرفته عنها قد عرفته، وأي مستجدات سنعرفها بعد الزواج، وأنا أريد لهذا الزواج أن

يتم بأقصى سرعة لأضمن بقاءها في حياتي"

سكت الجميع وتبادلنا النظرات ثم أنقذ خالي الموقف بقوله:

" نحن لا نمانع ما دامت هذه رغبة البنت، فإذا وافقت فنحن موافقون"

فاتجهت أنظار الجميع نحو ليان فشعرت المسكينة بالضيق، ثم قالت:

" إذا رفضت قراره سيوجع رأسي فلا مانع لدي وما يراه يزن مناسبًا فأنا موافقة"

تهللت أسارينا بالفرح وأطلقت زوجة خالي زغاريد الفرح، فمن كان ليظن أن ليان ستخرج من

كآبتها وتزوج؟!!

خفق قلبي بشدة فرحًا لها وحننًا على فراقها، فهي ستبقى عندنا أسبوعًا فقط وتغادرنا فبكيت

وبكت أمي واحتضنتها وباركت لهما الزواج كما احتضنتها أمه وقبلتها على جبينها.

انتهت الأمسية الحافلة على خير وخلدنا إلى النوم وليان تعيش أجواء من الرهبة والترقب لما يجئها لها

الغد، فدعوت الله ورجوته في سري أن يهديها إلى سعادتها ويتمم زواجها بالخير والبركات.

الفصل الثامن عشر

كانت فرحة هناء لا تقدر بثمن حينما أطلعتها على تفاصيل خطبتي التي تمت في الأمس، احتضنتني وأخذت تقفز بسعادة وحماس كبيرين، ثم بعد أن هدأت شرعت في البكاء! فلم أعد أفهم كيف يعمل دماغها؛ مرة تضحك ومرة تبكي فسألتها عن سبب بكائها فقالت:

"عديني بألا تترك العمل بعد الزواج.. أخشى أن يصير عليك يزن بترك الوظيفة بسبب وضعه المادي، لن أحتمل فراقك!"

رق قلبي لها فاحتضنتها بدوري وقلت مطمئنة لها:

"أيتها الغبية، لن أترك عملي! ما زالت الديون متراكمة على عائلتي ولن أتخلي عنهم! أمي وأختي أولى مسؤولياتي حتى الممات!"

علقت بصرها علي وفي عينيها كلام، ضاق به لسانها ففجرت به فلم تتمكن من الاحتفاظ به لنفسها فقالت:

"ما دام يزن ينحدر من عائلة غنية كما فاجأتيني قبل قليل، فلماذا لا يساعد عائلتك في ضائقها المالية؟"

كانت نظرتي المحتدة نحوها كافية لدب الرعب في أوصالها، تأكدت من خلو الممر من أحد قبل أن أغلق باب غرفتي الصفية ثانية، ثم همست لها بفحيح غاضب:

"يزن لا يعلم شيئاً عن ديوننا! وإياك أن تتلفظي بشيء أمامه! لا أريده أن يظن أنني وافقت عليه بسبب ثرائه! يكفيني نظرات والده المتغطرة نحونا! بالكاد وافق على هذه الزيجة، فكيف لو علم بحاجتنا لسد ديوننا؟ ستثور ثأرته وقد يتسبب في تعطيل الزواج! وقتها سألومك أنت ولن أسامحك، فهمت؟"

وعدتني بحفظ سري والرعب لا يغادر نظرات عينيها إن تسبب فمها الكبير في إفشال ارتباطي بيزن.

شاع خبر زفافي نهاية الأسبوع كسرعة البرق وأخذ الكل من حولي يرشقني بالتهنئات، منها ما هو متصنع، ومنها ما هو نابع من القلب، وسمعت عددا من الزميلات في غرفة المعلمات يتمتمن عن حسرتن بارتباط يزن بي، ورغباتهن ولو بنظرة من قبله، فلم أجرؤ على الدخول عندهن وآثرت البقاء خارجاً في الممر في وقت فراغي. انتهى بي الحال لأجلس على حافة النافذة أتابع أعمال طلبتي الكتابية.

فوجئت بصعود المدير إلى الطابق فتوقف عن سيره عندما رأيته واقتراب من حيث أجلس، وضع يداً على وسطه والأخرى أخذ يدلك بها رقبتة من الخلف، كدلالة على ارتبائك، ثم قال لي:

" هنيئاً لك اقتراب موعد زفافك، صراحة لم أصدق أبداً أنك ارتبطت بيزن.. لكن يبدو أن الموضوع فعلاً جدي... على كل حال جئت أهنتك وأتمنى لك الخير معه "

تصنعت ابتسامة وشكرته، ثم ولاني ظهره وقال قبل أن يمضي:

" إنه رجل محظوظ وأنا أغبطه عليك "

شعرت بخديّ تتوردان خجلاً لكنني لم أجبه، ثم مضى في طريقه.

استغللت ما تبقى من وقت فراغي ونزلت إلى الطابق الأرضي لأتوجه إلى مكتب المساعدة لمتابعة سجل حضور الطلبة وتوقيعها عليه بهدف المتابعة الشهرية... أعلم أنني متأخرة في تسليم مهامتي

لكن أن أصل متأخراً خير من ألا أصل. مازحتني مؤنبة على تأخيري قائلة:

" لأنك عروستنا سأسامحك على التأخير في إنجاز المهام "

فقابلتها بابتسامة صفراء مصطنعة ثم وجهت سؤالها إلي بقولها:

" إذن أين سيتم الزفاف؟ لكي نحضر من أجل تهنئتك "

فابتسمت محرجة وأجبت:

" لا أدري بعد لكن عند الاتفاق على مكان سنقوم بتوزيع دعوات لحضور حفل الزفاف "

رفعت حاجبيها مستنكرة، ورمت جملة تركت مرارا في أذني:
"لن يجد صالة أفراح في أسبوع! يجب أن يتم الحجز قبل أشهر! لا داعي للخجل من الإفصاح عن
مكان الحفل حتى لو كان على سطح بيته! لسنا هنا لنحكم، بل لنقف معك ونساندك"
من نسي أن يوجه لها لكمة على أنفها؟! يا لها من متغطسة! أفسدت علي مزاجي.
أنهيت مهمتي عندها وهممت بالخروج، فلمحت مازن يقف عند الباب أو ما إلي برأسه أن أتبعه،
فلحقته إلى مكتبه وأنا أحافظ على تعابير الجمود على محياي.
استراح في مكتبه بوقاره المعهود ثم قال وهو ينظر في عيني:
"هنيئا لك زواجك من يزن، مع أنني لدي تحفظات على شخصيته، لكن أتمنى لك السعادة من كل
قلبي، كنت أتمنى لو كنت مكانه، لكن الحياة لم تنصفني هذه المرة ولا أعلم هل سأجد من تحتل قلبي
مثلا فعلت أم لا!"
حل الخجل والارتباك على ملاحني من كلامه لي، ثم أضاف:
"أتمنى أن تسامحيني يوماً، وأنا أعدك بأنني سأحتفظ بمكانة خاصة لك في قلبي مدى الحياة، لكن
هل لي بسؤال؟ لو لم يحصل موقف أجد برمته هل كنت لتقبلي بي أنا أم هو؟"
طأطأت رأسي إلى الأسفل أشعر بالضيق عليه وأجبتة:
"بالنسبة إلى إيلينا فأنا أسامحك لأنها بدأت تشفى من حزنها على أجد، أما مشاعرك فأنا احترمتها،
لكن قلبي اختار يزن منذ البداية.. فهو الشخص المنشود.. ولو ارتبطت بك وقتها لكان شرًا لك..
لأنني.. سأرتبط برجل بينما قلبي معلق بآخر، ربما حصلت قصة إيلينا لتحريك من قدر مفعج لك"
هز رأسه مرارا وهو يزم شفثيه يحاول إقناع نفسه بالحقيقة المؤلمة، اعتذرت منه وألقيت عليه تحية
الوداع ومضيت خارج مكتبه للعودة إلى غرفتي الصفية وإلى طلبتي، وأنا أحمل في قلبي غصة تجاهه
ودعوت له أن يجد سلواه مع امرأة أخرى لينساني، فأنا أعلم الناس بشعور الحب من طرف واحد
فقد عشت هذه التجربة سابقاً.

عند نهاية دوام الطلبة ومغادرتهم جميعاً أخذت أوضب أغراضي فشعرت بذرايعن تطوقاني من وسطي من الخلف ثم قرب رأسه من رقبتني وأخذ يشمها فغدغ إحسامي، حاولت فك يديه عني منبهة إياه بقولي:

" يزن! نحن ما زلنا في حرم المدرسة!"

فأزاح جزءاً من حجابي عن رقبتني وأخذ يتحسسها بأنفه ثم طبع قبلة صغيرة عليها جعلت جلدي يقشعر لها، حاولت التملص من قبضته فنجحت في تحرير نفسي وعدلت حجابي وأنا أنظر نحوه مؤنبة وقلت:

" نهاية الأسبوع اقتربت فلا تستعجل برزقك "

فقال مشاكساً:

" لا أستطيع مقاومتك فأنت كالمخدر "

شزرتة بنظراتي ونبهت عليه أن يتمالك نفسه، فتقدم نحوي وأمسك بي من وسطي ورفعني بخفة على الطاولة، كان تصرفاً جريئاً من قبله فاخنتقت بشهقتي المتفاجئة، اقترب مني ثم قال لي:

" اليوم سنخرج لشراء الذهب فكوني مستعدة، وحاوولي الخروج غداً مع أمك لشراء كل متاعك من أجل الزواج، وإذا أردت مني توصيلة فسأخدمك "

خفق قلبي بشدة فالموضوع بات جدياً أكثر من ذي قبل أغمضت عيني وقلت له:

" انتظر لحظة حتى يستوعب دماغني كل هذا فأنا ما زلت لا أصدق "

فجأة شعرت بلمسة شفثيه على خدي فطبع قبلة خفيفة ثم قال:

" هل استوعب دماغك الآن؟ "

ابتسمت له محاولة إخفاء خجلي ولكزت كتفه بخفة ليتوقف عن مشاكستي، فابتسم بمرح كطفل

صغير ثم مد ذراعيه حولي واحتضنني بقوة قائلاً:

" يا الله! أنا أسعد إنسان على وجه الأرض! لو أنك تدخلين قلبي وترين بستان الفرح فيه الآن! ليان

أنا أحبك حباً جماً!"

رددت له حضنه وطوقت ذراعيّ حول رقبتة وقلت بصوت منخفض:

" وأنا أيضًا أحبك "

وكان كلماتي أنعشت حسه فأبعد رأسه قليلاً لينظر في وجهي، كساني الخجل بالكامل وتجنبت النظر في عينيه، فأمسك بوجهي بكفي يديه وقبلني على خدي ثانية، ثم همس لي بنبرة ملؤها الشغف:

" أحبك! "

أثارت كلمته إحساسي أكثر تجاهه فتمسكت بياقة قميصه بقوة، فناله شعور النصر أكثر ليطلع هذه المرة قبلة مباغته على شفتي، أتبعها بقوله:

" فعلاً شفتان بطعم السكر! "

نجحت أخيراً في إبعاده عني حتى أنزل عن الطاولة وأكمل توضيب أغراضي، فأخبرني أنه يريد أن يقبض علينا أحدهم في هذا الوضع المحرج.

سألته وقد رنّ كلام المساعدة السابق في أذني:

" إذن هل قررت في أي صالة أفراح سيتم الزفاف؟ "

تقدم خطوة إلى الأمام، وأمال رأسه إلى الجانب قليلاً واتكأ بمرفقه على الطاولة وقال مجيئاً:

" لا بد أنك تمازحيني! والدي يملك سلسلة من الفنادق وتساأليني عن صالة أفراح؟ "

شردت بكلامه قليلاً ثم التفت نحوه وفتحت فمي، لكن لم أستطع التكلم فقال مجيئاً أفكاري:

" نعم بالطبع سيقام الزفاف في إحدى هذه الفنادق! أنا وحيدهما، لن يرضى والداي بصالة أفراح

عادية! ثم لم أستغرق شهراً في الترتيب لإقامة فرحي في الفندق حتى ألجأ الآن إلى صالة أفراح! "

ثم سبقني نحو الباب بينما كلمة شهر تركت رنيناً غير معهود في أذني... هل قال فعلاً شهر؟ لكنني

كنت وقتها أمقته بشدة! ما أدراه بأني سأقبل الزواج به؟ هذا الشاب إما أنه مجنون أو أنه ... مجنون!

التفت نحوي حينما لاحظ تأخري، واستعجلني قائلاً:

" هيا سأوصلك إلى بيتك، سأنتظرك في السيارة "

شعرت في تلك اللحظة بأني أحلم هل فعلا سأغدو زوجة ليزن الذي اكتشفت مؤخرًا حقيقة كونه وحيد والديه الثريين؟! وسيقام زفافي في فندق؟ لماذا أشعر أن فرحتي لن تكتمل؟ هل يمكن أن يحصل ما يعطل زواجي؟ لست مستعدة لأن أعيش في تلك الدوامة ثانية. ثم فجأة ران الضيق على قلبي مع محاولتي الجاهدة في إخراجه لكن عبثًا حاولت.

إيلينا

قادتني مدبرة المنزل إلى الحديقة اليوم، ففوجئت بتزيينها بالبالونات وأكاليل الأزهار، ووجود جمع غفير من الناس فتوقفت عن المسير بينما اعترتني الحيرة، ثم سمعت صوت السيدة مايا يأتي من خلفي ترحب بي قائلة:

"مرحبا بك يا إيلينا! لدينا اليوم مفاجأة... لن تعطي دروسا لجاد وماسة لأن اليوم هو ذكرى ميلادهما وأردنا أن تحتفلي بهما معنا!"

نظرت نحوها ببلاهة قبل أن يستوعب عقلي الموضوع ثم حاولت أن أزرع ابتسامة على شفتيّ وسط ذهولي فهنأتها بذكرى ميلادهما التاسع، ثم تذكرت أمرًا في غاية الأهمية فظهر الضيق على وجهي بسرعة فتنبهت السيدة مايا إلى تغير تعابيري فسألتنني عن الخطب، نظرت نحوها بانكسار وقلت:

"لو قلت لي البارحة لكنت أحضرت لهما هدية"

فقاطعتني بقولها:

"لهذا لم أقل لك، حتى لا تتكبدي عناء إحضار هدية لهما فأكبر هدية قد تفرحهما هو حضورك لحفل يوم ميلادهما"

ابتسمت رغما عني مع أن الضيق الذي اعتراني لم يفارقني، ثم طوقت ذراعي بيدها وسارت معي إلى وسط الحديقة حيث يجتمع الضيوف ويلعب الأطفال.

عندما رأني التوأمان ركضا نحوي بسعادة غامرة واحتضانني بمرح وشكراني على قدومي. ابتسمت لهما من قلبي فأنا أحببتهما بدوري أيضًا.

أرشدتني السيدة مايا إلى مقعد لأجلس بينما يقوم لاعب خفة بعرض أعماله أمام المشاهدين من كبار وصغار، أعجبت ببراغته في خفة يده، ثم لفت انتباهي السيد شادي يتحدث مع رجل يحمل معه بالونات كثيرة ويضحكان معاً.

هذه أول مرة أراه فيها مبتسماً، لم أكن أعلم أن وجهه القاسي هذا يستطيع الضحك، بدا لي مختلفاً وجذاباً أكثر، وينبعث منه الدفء.. إيلينا ركزي! أشحت نظري عنه لأسكت عقلي الباطني عقب آخر فكرة صرح بها. السيد شادي رجل متعطر و متكبر ويجب ألا أسمح لنفسي بمدحه أو التفكير بجاذبيته، إنه رجل بلا قلب فتذكري ذلك.

ثم فجأة قُطِعَ حبل أفكارني بصوت فارس الذي جلس إلى كرسي بجانبني فقال:

" لقد خبأ القطعة النقدية في كم قميصه أنا متأكد من ذلك، ما رأيك أنت؟ "

نظرت نحوه ببلاهة أحاول ترجمة ما قال، ثم نظرت أمامي حيث يشير بإصبعه ففهمت أنه يتكلم عن لاعب الخفة، غيبة لماذا ظننته يتكلم عن السيد شادي؟!

ابتسمت بإحراج وأومات بكتفي بحركة تنم عن عدم معرفتي، فرد لي بالابتسامة بدوره وظهرت أسنانه البيضاء، ولم أستطع منع عقلي الباطني من التعليق قائلاً: يا إلهي ما أشد وسامته! ثم احمر خدائي خجلاً والتفت أمامي لأبعد ناظري عنه، ثم سألتني:

" ماذا تعملين؟ أعني ما هي وظيفتك خارج عملك هنا؟ "

- " أنا أعمل في الشركة كمدخلة بيانات "

- " أها! من هناك استطاع عمي اصطيادك! إنه محظوظ جداً "

شعرت بالارتباك من كلامه المعسول فأخذت أعقد أصابع يديّ خجلاً، نظرت نحوه فوجدته يتكئ على الطاولة بمرفقه ويريح رأسه على أصابع يده بينما يتأملني بعينه.

ما هذه النظرة التي يتطلع إلي بها؟ هل هي إعجاب؟ لا مستحيل أنى لهذا الجذاب الخالي من العيوب أن يعجب بي؟! ثم بدأ يتحدث ثانية بقوله:

" أتعرفين؟ أنا بدأت أفكر منذ فترة في تأسيس أسرة..... "

خفق قلبي بقوة على أثر جملته لكنه لم يستطع إكمالها فقد جاء صوت السيد شادي ليقطع عليه ما كان سيقوله، فقال:

" فارس! قم انهض معي لدينا عمل "

كتمت غصة في نفسي، أما فارس فزفر بقوة منزعجا وقال:

" ألا يمكن تأجيله؟ "

نظر نحوه ببرود ثم وضع هاتفه المحمول على أذنه وقال:

" لا "

ثم أضاف مخاطبا الشخص الذي على الطرف الثاني من المكالمة:

" نحن في طريقنا "

ثم مضى دون أن ينتظر كلمة أخرى من فارس، فنهض الأخير والامتعاض يعلو قسماً وجهه، اعتذر مني ومضى خلف السيد شادي.

استطعت أن أخرج أنفاسي المكبوتة غيظاً من هذا المدعو شادي، ثم شهقت ذعراً فجأة فقد لمحت أجد واقفاً من بعد ينظر إلي بنظرة، غامضة لكنني عرفت أنها ليست نظرة مرحبة، فشعرت بحلقي يجف. تركت المكان لأبحث عن كأس ماء فأرشدتني مدبرة المنزل إلى المطبخ من الجهة الخلفية للحديقة فاتجهت صوبه، وجدت زجاجات ماء محضرة على المنضدة الرخامية الكبيرة، تناولت إحدى تلك الزجاجات وأخذت أشرب منها ثم استدرت لأعود إلى الحديقة، ففوجئت بأجد يقف خلفي مباشرة فأجفلت وقلت فوراً:

" بسم الله! أخفتني... لو سمحت أريد أن أمر! "

اعترض طريقي عندما حاولت المرور من جانبه، نظرت إليه محتدة فقال فجأة:

" حقاً يا إيلينا؟! فارس! إنه زير نساء! "

- " ليس هناك شيء بيني وبينه "

- " لماذا تفعلين ذلك؟ هل تريدين الانتقام مني؟ "

رفعت بصري نحوه وقلت:

" الانتقام؟ لو كنت أريد الانتقام لحدثت زوجتك بما حصل بيننا، سيد أجد لا يوجد بيني وبينك شيء حتى تتدخل في أموري الخاصة أو لتتدخل بمن سأرتبط، لن أبقى أبكي الدهر عليك سأرتبط يوماً ما وعليك أن تعتاد على هذه الفكرة"

مد يده أمامي ليمنعني من المرور وقال متوسلاً:

" إيلينا أرجوك! لا أحتمل كرهك لي "

فطأطأت رأسي إلى الأسفل وقلت له بحزن:

" زوجتك امرأة رائعة وطفلك بديعان فلا تخسرهما.. خذ نصيحتي وأصلح زواجك فإذا عادت إليك سعادتك بينهم فأنا سأكون أسعد منك..... ثم.....أنني.... لا أكرهك.. كيف لي أن أكره من علمني كيف أحب؟! "

ثم أبعدت يده من أمامي وتركته دون أن أنتظر منه تعقيباً على كلامي، وعدت إلى الحديقة وأنا أحاول التقاط أنفاسي، يجب علي أن أخرج من قلبي وبسرعة لأتخلص من هذا العذاب.

انتهت عروض الخفة وجاء عقبها تمثيلية صامتة مضحكة لمجموعة من المهرجين فضحكت على بعض منها. كنت أشاهد المهرجين بانسجام ثم سمعت أحداً يخاطبني:

" أنت المعلمة الخصوصية للطفلين صحيح؟ "

نظرت إلى جانبي فرأيت امرأة خمسينية تبسم لي، فرددت لها ابتسامتي وأومأت موافقة وعرفتها باسمي ثم طرحت سؤالاً غريباً علي:

" هل أنت مرتبطة يا ابنتي؟ "

شعرت بالارتباك من سؤالها فأجبتها محرجة بالنفي، ثم اتسعت ابتسامتها وسألتنني:

" تبدين فتاة مهذبة، هل تحافظين على صلاتك يا حلوتي؟ "

فأومأت لها قائلة بكل ثقة:

" طبعاً يا خالة إنها أهم شيء عندي "

فربت على كتفي ودعت لي بالتوفيق، ثم قدمت السيدة انتصار وقالت تخاطب المرأة:

" رهام حبيبي كيف حالك؟ تعالي نحسي القهوة معاً عند نساء الجمعية هناك "

وأشارت بيدها إلى طاولة أخرى بعيدة، ظهر الامتعاض على وجه المرأة لكنها ابتسمت لها بزيف
وذهبت معها. ففاجأتني الأنسة ديمة بجلوسها إلى جانبي مكان السيدة رهام وقالت وهي تغمز لي:

" فارس حدث أمه عنك لهذا جاءت تحدثك، ويبدو أنك نلت إعجابها "

التفتّ نحو ديمة مصدومة وقلت غير مصدقة:

" هذه أم فارس؟! "

فأومأت برأسها إيجاباً وقالت:

" هل سنفرح به يا ترى؟ "

فهمت من كلامها أنها تجس نبضي لتعرف مشاعري تجاه الموضوع فقلت مراعية اختيار كلماتي:

" لكنك قلت لي سابقاً أنه زير نساء "

فقال تجيبيني:

" نعم وقلت لك أنه -كان- كذلك... لقد تمادى مرة في غزله بخادمة كانت تعمل في بيت والديه

فاتهمته بالتحرش الجسدي بها، وكاد أن يسجن لولا محامي العائلة الذي أظهر كذبها، كنت أعرف

أنها كاذبة فارس تربى معنا منذ الصغر وأكبر ما يمكن أن يفعله هو التغزل لفظياً بأي فتاة تفتح له

المجال... المهم بعد هذه الحادثة أقسم على كره النساء لكن عندما التقى بك تغير شيء في داخله..

ربما تأثر بوقارك وهدوئك مع جمالك طبعاً لذا هو يفكر الآن جدياً بالارتباط بك، ما رأيك الآن؟ "

حافظت على صمتي ولم أتكلم كان وقع كلامها كبيراً علي ولا أريد التورط الآن بعلاقة أخرى، ما

زال قلبي مجروحاً فقلت:

" أنا لا أستطيع التفكير في الموضوع الآن لقد انفصلت عن خطيبي منذ فترة قصيرة، كما أنني

مشغولة الآن بزفاف شقيقتي "

زمت شفيتها وأجابت:

" لديك شقيقة ستتزوج! هنيئا لها ومتى الفرح؟ "

- " نهاية هذا الأسبوع "

فمدت يدها لتقبض على كف يدي الذي كان على الطاولة وقالت:

" أتمنى لها السعادة من قلبي كما أتمنى لك أن تستقري بدورك وتجدي قلبك الضائع "

ابتسمت لها هذه المرة بإخلاص ولم أزد حرفاً، التفتت نحو التمثيلية من جديد لأكمل متابعتها لعلني أتمكن من إخراج كل هذه القصص المتشابكة من رأسي، فلكل شيء وقته والزمن هو الكفيل بحل كل أموري التي أعجز عن التفكير بحل لها الآن.

عندما عدت إلى البيت وجدت الباب موصداً، فأخذت أقرع الجرس ففتحت أم ثريا باب بيتها وقالت تحدثني وهي تمد يدها لي بمفتاح شقتنا:

" إيلينا حبيبتي! أمك ليست هنا خرجت مع شقيقتك وأهل خطيبها للتجهيز لزفافها وطلبت مني إعطاءك المفتاح لدى عودتك، تفضلي يا صغيرتي "

شكرتها مبتسمة وولجت إلى داخل البيت فقررت أن أستغل غيابها لأستحم وأغفو قليلاً فقد كنت مرهقة جداً من قلة النوم وعملي في وظيفتين عدا عن الأحداث المتشابكة في حياتي.

استيقظت على صوت ليان تهتف باسمي، فرأيتها تبسم فوق رأسي وقالت:

" أتمنى ألا تكوني قد تناولت طعامك بعد فقد أحضرنا لك وجبة عشاء "

نهضت جالسة أسأل عن الوقت ونظرت من خلال النافذة لأرى الليل قد حل ثم وضعت في حجري طبقاً مغلقاً فنظرت إليها بعينين نعستين أتساءل عم في داخل الطبق فقالت موضحة لي بينما أخذت تخلع حجابها وتستعد لتغيير ملابسها:

" خرجنا مع يزن وأمه لشراء بعض تجهيزات الزفاف وأخذنا إلى مطعم لتناول طعام العشاء فيه وطلب لك وجبة مغلقة لناخذها معنا "

ثم تقدمت نحوي ومدت يدها أمامي وقالت:

" انظري هذا هو خاتمي هل أعجبك؟ "

قمت بفرك عيني لأرى بوضوح ونظرت إلى إصبعها جيداً فرأيت خاتماً مصنوعاً من الذهب الأبيض مرصعاً بحجارة صغيرة لامعة فسأتها بدهشة:

" هل هذه ألماسات؟ "

فهزت رأسها إيجاباً وقالت:

" لقد فاجأني به! اشتراه منذ وضع في رأسه فكرة الارتباط بي، مجنون صحيح؟ "

فابتسمت بصدق وقلت:

" مجنون عاشق "

نظرت نحو الخاتم من جديد تتأمله وقالت:

" يا له من شاب! استطاع أن يوقعني في حبه بطريقة الملتوية "

لم أفهم ما عنته ولم أرد أن أفهم لئلا تصدمني لكنني فرحت لها من كل قلبي فقد مرت فترة ليست بالهينة منذ رأيت ليان متحمسة بهذا الشكل، ومن نظرات يزن نحوها وتوسله لها للزواج به عرفت أنه هائم بها، دعوت لها من كل قلبي أن تجد سعادتها حقاً معه ودعوت لنفسي أن تهدأ روعي مثلها وأجد من يقدرني بهذا الشكل يوماً ما.

لا أدري كيف مر الأسبوع سريعاً.. خرجت مع ليان بهدف تجهيز بعض الملابس الجديدة وشعرت بالخجل من دخولي معها محلات تجهيز العرائس، لم أستطع أن أتخيل شعور الفتيات اللاتي يرتدين هذه الملابس. أخذت الفتاة التي تعمل في المتجر تنصح ليان ببعض القطع التي تضيفي جمالا وأنوثة على أي فتاة تلبسها وبأي مقاس كانت. كما قمنا بتجهيز بعض مساحيق التجميل والعطور وبعض الكماليات وعدنا إلى السيارة حيث ينتظرنا يزن فقام بإيصالنا إلى القصر الخاص بهم، وطلب من ليان أن ترتب ملابسها في الخزانة.

تقدمت مجموعة من الخادמות اللاتي يرتدين لباساً موحدًا وحملن الأكياس من السيارة نحو القصر أما نحن فأرشدنا يزن إلى الباب الرئيسي لتناول طعام العشاء مع والديه قبل الشروع في ترتيب

الملابس، كانت صالة الجلوس عملاقة وأنيقة جدًا وتحتوي الكثير من التحف. لم يكن والده متواجدًا بسبب صفقة عمل فتناولنا العشاء برفقة أمه. وبعد انتهائنا من تناول العشاء تركنا أمينا تجلسان على انفراد وصعد بنا يزن نحو الطابق الثاني إلى غرفته التي كانت كبيرة جدًا بحجم شقتنا كلها، لم نستطع أنا وليان إخفاء دهشتنا من جمال غرفته وإطلالتها حيث أن غرفته تحتوي حاميًا خاصًا به وشرفة للجلوس عليها، نظرت ليان نحو كرسي خشبي هناك وابتسمت بخفة ففهمت أن هذا الكرسي يعني لها شيئًا، أما خزانة ملابسه فكانت غرفة بحالها.

استأذن منا يزن لتركننا نرتب الملابس في الخزانة فبدأنا بالعمل من فورنا ثم أخذت ليان تسرد لي بعض مواقف يزن معها ومن بينها حصوله على رقمها من ملفات المدرسة وإرسال صورة له جالسًا على كرسي خشبي في شرفته، وأرتني الصورة على جهازها المحمول ففهمت سبب سعادتها لدى رؤيتها الكرسي.

أتمنا مهمتنا بوقت قياسي ثم جلسنا على السرير ننظر حولنا في الغرفة فقالت ليان:

" هل سأكون غيبية إذا قلت لك أنني رغم سعادتي إلا أنني مرتبكة جدا من هذا الزواج؟! "

فقلت من باب المداعبة:

" بل ستكونين غيبية إذا لم شعري بالارتباك "

فنظرت إلي وضحكت فضحكتُ بعدها، ثم انسكبت دمعة ضالة من عينيها فمسحتها وهي تحاول منع أخرى من الخروج فربت على ظهرها بحنو وحاولت إقناعها بأن كل شيء سيكون بخير وأنها ستجد سكينه قلبها معه، وأن أحزانها ستنتهي فور دخولها هذا البيت. قربت رأسها من رأسي ومدت ذراعها تحتضني بقوة وأخذنا نبكي بصمت.

الفصل التاسع عشر

خطفتني ذكريات الأمس وأنا جالسة على الطاولة في المطعم حينما قدّم لي يزن خاتم الخطوبة، كان ذلك حينما اصطحبنا لتناول طعام العشاء، فقد لفتني أنه أصر على شراء كسوتي من الذهب ولم يتطرق إلى شراء الخواتم، حاولت صياغة أي تبرير في مخيلتي لكنني لم أجد، فأقنعت نفسي أنه ربما نسي أو أراد شراءه من مكان آخر. حتى فاجأني بتقديمه لي في علبة صغيرة بجانب العصير في المطعم، وتحول الإضاءة فيه إلى أضواء خافتة مع موسيقى هادئة، فقط من أجل إضفاء جو من الرومانسية لي.

لم أكن أعلم أن هذا المجنون يزن يخترن كل هذه الرومانسية في داخله! أعادتني هناء إلى الواقع بصوتها الرنان وهي تستصرخني أن ترى الخاتم، فمددت يدي إليها لأحصل على صرخة متحمسة منها وبدأت تقفز كالمجنونة، ثم حضتني بقوة وقالت لي: " رأيت؟! قلت لك من أول يوم قدم فيه يزن أنه يختلف عن سواه لكن لم تصدقيني، آه حبيبي لولو ستصبحين سيدة! هل يمكنني أن ألقبك يا خالة عندما تعودين من إجازتك؟" شزرتها بعيني على مزحتها السمجة فانفجرت ضحكًا، كنت أعلم أنها تمازحني لتلطف الأجواء، فابتسمت لها بدوري وأنا ألفظ بصوت خافت شتيمة لها بقولي: وضيعة! فلطمتني على ذراعي مازحة.

ذكرتني بأن أقدم طلب إجازتي ابتداء من الغد حتى أستطيع التجهيز للزفاف، فنزلت من فوري باتجاه مكتب المدير لأطلب إجازة بداعي الزواج. وفي طريقي اجتمع عدد من المعلمات والموظفات من حولي لرؤية الخاتم وهن متحمسات، وأخذت البعض منهن تهمس لي نصائح سريعة لإغواء يزن فشعرت بالإحراج، وقررت تجاهل هذه النصائح يكفيني ارتباكًا أن حياتي ستقلب رأسًا على عقب، هذا عدا عن كون يزن وحده مليئًا بالمفاجآت!

ودعت طلبتي واجتمعوا حولي وهم يبكون متوسلين ألا أتركهم فوعدهم بالعودة فور انتهاء إجازتي وطلبت منهم الدعاء لي بالتوفيق وعدم إزعاج المعلمة البديلة. وقفت على باب المدرسة بينما كان يزن في انتظاري في داخل سيارته والتفت نحو هناء والدموع في عينيها فربت على كتفها وقلت:

" كفى يا حمقاء سأعود بعد انتهاء إجازتي، لا تصعبي الأمر علي أكثر!"

هزت رأسها بشدة وهي تمسح دموعها ثم احتضنتني بقوة وهي تدعولي بالتوفيق. ودعتها وتحركت باتجاه السيارة، نظرت إلى مبنى المدرسة مرة أخيرة أحدث نفسي بأنني سأخطو هذا المبنى ثانية لكن من بيتي الجديد مع يزن، فشعرت أن الهواء أصبح ثقیلاً من حولي فطردت كل هذه الأفكار من رأسي وولجت إلى السيارة لأعود إلى البيت لأتم تجهيز أموري.

لكن كان ليزن مخططات أخرى فقد فاجأني باصطحابي إلى خياط العائلة للتأكد من مقاساتي لأجل تجهيز فستان العرس الذي بدأ العمل به قبل فترة. نظرت مشدوهة إلى يزن الذي قال مبرراً:

" تصميم فستان الأعراس يحتاج إلى وقت لذا كلفته بإعداده مسبقاً "

فتحت فمي بذهول وسألته:

" كيف عرفت مقاسي؟ ومتى بدأت بتجهيزه؟ وكيف تخطو هذه الخطوة الجريئة قبل إعطائي لك رداً بالموافقة؟"

نظر نحوي مقطب الحاجبين وأجاب:

" اتبعت حدسي!"

حدجته بنظرة مؤنبة لكنه استطرد متجاهلاً عتابي:

" بدأت بتجهيزه قبل أسبوعين، ولا تقلقي يا حبيبتني فعندما أصر على أمر ما فإنني مستعد للتضحية من أجله، هل كنت تظنين بأنني سأتركك بحالك؟ قلت لك سابقاً أنت لي "

توردت وجنتاي وأشحت بصري عنه محرجة، فربت على ظهري وقال:

" قومي الآن إلى داخل غرفة المقاس لتجربيه عليك للتأكد من قياساته وتعديل اللازم، أما أنا سأنتظرك هنا"

ولجت إلى الداخل بارتباك شديد، وطلبت مني الفتيات في الداخل خلع ملابسني الخارجية ليساعدني على ارتداء الفستان لتجربيه ففعلت كما طلبن لكن ناولني مشدداً يُلبس تحت الفستان أولاً حتى لا أشعر بعدم الارتياح لوقوفني أمامهن بملابسي الداخلية فارتديته، ووقفت أمام المرأة بينما أخذن يساعدني في ارتداء الفستان، كان رائعاً وجميلاً لم أتخيل يوماً أنني سأرتدي فستاناً جميلاً كهذا.. كانت له أكمام من الدانتيل مطرزة بأوراق وورود بيضاء وكان صدره مطرزا بذات التطريز الخاص بالأكمام وكان له ذيل يمتد إلى الورااء بشكل ملفت وجميل شعرت. أنه مثالي جداً لكن قياساته كان بحاجة إلى بعض التعديلات مثل إنقاص خصره قليلاً وتعديل طوله ليتناسب مع الحذاء الذي خصص له.

عدت إلى يزن وأنا منبهرة به وبدوقه، فقال متبسماً غامزاً:

" لم تري بعد شيئاً من عجائب يزن"

ثم قال منبهاً إلى موضوع مهم:

" حفل الزفاف سيكون مختلطاً لذا ستكونين محببة طيلة الحفل، هل لديك تحفظات أو اعتراض من

أي نوع؟"

فأجبت:

" من قرر أنه سيكون مختلطاً؟"

فقال متردداً مؤكداً ظني:

" إنه أبي... لكن لا تقلقي أعدك أن أحرص على كونك الأجهل ولا تضعي بهجتك.."

فقاطعته بقولي:

" لست مهتمة حقًا... أعني كنت متحمسة سابقًا في تجربتي السابقة وأردت لكل شيء أن يسير كما أخطط... أما الآن فأنا أريد أن تسير أموري دون مفاجآت.. لذا لا فرق لديّ... على كل حال ثوب الزفاف بديع الجمال وسيغطي على كل النواقص "

فقال معقبًا:

" بل أنت بديعة الجمال التي ستبهرين الجميع بإطلالتك التي لا مثيل لها "

ابتسمت بعفوية من مجاملته لي وارتاح جزء مني لكون الحفل مختلفًا فلن أضطر للبحث عن تسريحة تليق بالشعر القصير، فالحق يقال العروس تحتاج شعرا طويلا فهذا أجمل في رأيي.

عدنا إلى الشقة ودعوته لتناول مشروب دافئ معي ومع أمي بالرغم من رفضه وإصراره علي أن أطلب منها تجهيز نفسها على وجه السرعة ليأخذنا إلى الفندق الذي سيقام فيه حفل الزفاف لكسب الوقت، لكنني أصرت عليه أن نريح أنفسنا وأغير ملابسنا ونؤدي فرضنا قبل الذهاب حتى اقتنع.

بينما كنت أجهز نفسي أدى صلاة العصر في غرفة الجلوس ثم سامرته أمي بينما أنهيت فرضي أنا الأخرى ونزلنا إلى السيارة لينطلق بنا نحو الفندق لأبدي رأيي في أي تعديلات أريدها في الباحة المخصصة للحفل.

صراحة لم أجد ما أعلق به كان كل شيء في نظري مثاليًا، ونظرتي المتواضعة البسيطة لن تضاهي هذا الجمال الذي رأيته... كانت الطاولات زجاجية لامعة وضع في منتصفها مزهريات تحتوي أزهارًا بديعة، وتم وضع كراسٍ بيضاء إلى كل طاولة وعلى امتداد الطاولات منطقة خاصة للرقص تم تحديدها في مربع يحتوي أضواءً ملونة. تقع أمام المرقص أريكة بيضاء كبيرة على جانبيها وسائد صغيرة دائرية وأمامها طاولة زجاجية، فعلمت أن هذه منطقة جلوس العروسين.. ويزين الساحة من كل مكان أكاليل الورود البيضاء إما على الأشجار أو في الباحات. وعلى جانب منطقة الرقص بركة ماء كبيرة زُيّنت حوافها بتماثيل جميلة.

نظرت إلى أمي التي كانت مأخوذة بهذا الإبداع الذي أمامها ثم التفتت إلي بدورها والدموع تتجمع في عينيها وقالت:

" هذه المرة سأفرح بك ولن تكون هناك عقبات في طريقك أنا متأكدة من ذلك تمامًا "

ألقيت نفسي في أحضانها أصارع دموعي حتى لا تكشف ضعفي وخوفي، وطلبت منها الدعاء من كل قلبها لي بالتيسير والتمام.

أراد يزن أن يصحبنا إلى مطعم لتتناول طعام العشاء لكننا هذه المرة أصررنا على الرفض لنجتمع مع كعائلة على مائدة الطعام مع أختي في آخر يومين لي في البيت معهما.

فلم يجادلني كثيرًا وعندما أوصلنا إلى شقتنا أحت عليه أُمي أن يشاركنا عشاءنا البسيط لكنه اعتذر بحجة أنه مرهق، لكنني شعرت بأنه يريد أن يترك لي المجال لأختلي مع عائلتي قبل أن أفارقهما نحو حياة جديدة.

إيلينا

اعتذرت من السيدة مايا عن درس غد بسبب تجهيزات زفاف ليان، كما أنني لم يتبق لي إلا يوم واحد لشراء ثوب للحفل، كان ردها غاية في الروعة فقد وافقت ودعت لأختي بالخير والتيسير.

اختارت لي ليان ثوبًا جميلًا بلون السومو من الشيفون والحريير ذو أكمام له رقبة دائرية ويلتف حول خصره حزام من خامة الثوب ذاتها، واختارت معه حذاء ذا لون كريمي وكعب عال.

مدت لي بشالة بدرجة لون قريية من الثوب وقالت لي متسائلة:

" هل أعجبتك؟ "

ثم نظرت في وجهي فرأيتني أبكي، اقتربت مني لتسألني عن الخطب، فمسحت دموعي وعبرت لها عن فرحتي بزواجها، لكنني كنت في داخلي أعتصر ألمًا على فراقها، فلا يفصلنا عن زفافها سوى الغد.

حاولت إضفاء جو من المرح وأنا أنظر في الأثواب التي يمكن لامرأة في سن أُمي ارتداؤها في زفاف ابنتها لأبعد تفكير ليان عن سبب بكائي، وقد نجحت في ذلك.

عندما عدنا إلى البيت فوجئنا بليان تخرج لكل منا هاتفًا محمولًا قامت بشرائهما من مهرها، نظرت لها أمي بتعابير حزينة محرجة، فقالت:

" رجاء لا تعانداني لقد ابتعت هذين الهاتفين حتى أستطيع التحدث معكما متى شئت بدل إزعاج جارتنا بمكالماتي وهكذا أستطيع الاطمئنان عليكما دائمًا. هل سترفضان هديتي لكما قبل زفافي؟" لم نستطع جدالها ورضخنا لها مكرهتين، هذا ما لها وعليها ألا تصرفه علينا لكننا استسلمنا لرغبتها. كما أنها أصرت على إيداع بعض المال لأمي لنسد جزءًا من ديوننا، وبعد جدال عقيم وقع أمرها كالسيف دون تهاون.

انطلقنا في صباح اليوم التالي نحو الصالون الذي قام يزن بحجز موعد فيه سابقًا لنا مع أمه. كان المكان من الداخل راقياً جداً ونظيفاً ويحتوي على كثير من الفتيات المتخصصات في تجهيز العرائس، ولم يكن يشبه في شيء أيًا من الصالونات الشعبية التي اعتدناها. وبناء على رغبة يزن فإن مديرة الصالون هي المسؤولة عن تجهيز ليان، لا أعلم كم من الوقت مضى ونحن نتحضر استعدادًا للحفل. وكانت ليان آخر من يتم تجهيزها بيننا لكن عندما عرضتها المصففة علينا لم نصدق لوهلة أن هذه ليان فقد كانت تشبه مشاهير السينما بجهاها ورونقها، وفتانها كان مثاليًا ورائعًا كانت الأجل في الصالون كله وسلبت العقول من حولنا، مما زرع عند والدة يزن نوعًا من الابتهاج والاعتزاز كأنها تفاخر بكونها زوجة ابنها.

قدمت السيارة التي كان فيها سائق خاص للعائلة، قامت بإيصالنا أولاً إلى البيت ليستلم يزن عروسه من ولي أمرها حسب ما جرت عليه العادات. أقمنا حفلاً صغيراً بيننا وبين الجارات وبعض من أقاربنا في شقتنا حتى وصلت كوكبة السيارات في الخارج وسمعنا أصوات زواميرها إعلاناً بقدوم العريس، أخذنا ليان نحو الخارج ليقوم خالي - بعد توكيله من عمي المغترب - بتسليمها إلى عريسها. ولو أنني أستطيع وصف نظرات يزن لها وقتها.. كانت نظرات لا تقدر بثمن، كمن وجد كنزاً له وهو غير مصدق.

أمسك بيدها واقتادها نحو السيارة الخاصة بنقلهما، أما نحن فأرسلت أمه سائق العائلة ليقلنا مع عائلة خالي. كنت أزداد اضطرابًا مع اقترابنا من الفندق وجزء في داخلي ما زال غير مصدق لما يجري حولنا.

حاولت طرد الأفكار السلبية من رأسي وجاهدت لكي أنفءل خيرًا وأزرع بستانا من الأمل في داخلي. حين وصلنا وجدنا فرقة تعزف على المزمار والطبول وآلة الدف ومعهم مغنٌ رئيسي أخذوا يغنون ويهتفون للعريس. لم أستطع رؤية الكثير بسبب تجمع الناس أمامي فغطوا عني مجال الرؤية لكنني لمحت أحدهم يمسك بيد يزن ليراقص أصدقاءه وأقاربه ويدبك معهم ثم عاد إلى مكانه جانب ليان وأكملو مسيرهم وفتحوا لنا المجال لنمر أخيرًا.

تم أخذ ليان ويزن نحو المأذون لتوقيع عقد الزواج وعلمت أن الشهود هم صديق له وعمه. كنا نجلس في الباحة الكبيرة بينما نسبات الخريف تداعب الأجواء، والموسيقى الهادئة تهدئ من روع النفوس. تقدمت أم يزن لتأخذ أمي من يدها لتعرفها بمعارفها وأفراد العائلة أما أنا فتوجهت نحو الباب الذي ستخرج منه ليان لأكون جاهزة لاستقبالها ودعمها. ثم تم الإعلان في مكبرات الصوت أن العروسين على وشك القدوم، فتجمع بجانبني وأمامي على شكل صفين متقابلين معارف وأقارب لاستقبال العروسين وكانت أمي إلى جانبي، ثم وضعت أغنية أفراح لدخول العروسين وفتحت الأبواب وخرج يزن وليان ممسكة بذراعه، وفي يدها باقة ورود حمراء كانا مثاليين وجميلين جدًا، يزن بجاذبيته التي أذابت عقول الفتيات وليان بجماها التي خطفت الأنفاس. وقعت عينا ليان علي وعلى أمي فلوحت لنا بباقة الورد مبتهجة، حاولت كتم دموعي حتى لا أفسد فرحتها. تقدا حتى وصلا المكان المخصص للرقص، ثم تم تشغيل أغنية لم أعرف اسمها إلا من الذين تحدثوا بها حولي بعنوان " حلوة الحلوات " وأخذوا يرقصان عليها رقصة رومانسية.

كان يزن بارعًا جدًا في الرقص فقد كان يمايل بجسد ليان ببراعة ويمسك بيدها ليقوم بتدويرها ثم الإمساك بها من وسطها، كان يبدو سعيدًا جدًا وعيناه تملآن الكثير من معاني الفرح، ثم حملها من وسطها ليسرق ضحكة منها وابتسامه مني وأخذ يدور بها ثم أنزلها أرضًا وأكمل رقصه معها.

شعرت كأنه مغرم بها منذ سنوات، وكان يلفظ بين شفثيه كلمات الأغنية ويشير إليها بعينيه، أدركت لحظتها بأنه تائه في حبها. فشعرت بالسعادة من أجلها وتمنيت دوام حبه لها. وصلت الأغنية إلى نهاياتها، وعبر الأثير انطلقت أنغام أغنية أخرى ليرقص على نغماتها عدد من الأشخاص حول العروسين.

تقدمت حتى أشارك ليان فرحتها لكن فجأة... توقفت في طريقي وشعرت كأن الأصوات تختفي من حولي من شدة صدمتي وكأن الزمن توقف وكل من في الباحة اختفوا إلا هو كان واقفاً مقابلي، والدهشة ترسم على محياه لنقول بصوت واحد متناغم:

" أنت! "

- " أنت! "

ثم استدركت ما حولي وهزرت رأسي وأنا مغمضة عينيّ وفتحتها من جديد لأؤكد مما رأيت وسمعت ثم قلت باندهاش جلي في نبرتي:

" سيد شادي؟ ماذا تفعل هنا؟ "

نظر إلي بحيرة وقال:

" أنا هنا لحضور حفل زفاف صديقي المقرب، ماذا تفعلين أنت هنا؟ "

شعرت كأنني أهوي في القاع السحيق عقب جملته، حاولت إيجاد صوتي الذي تاه مني وأخذت أنظر من حولي لعلني أجد بعض الحروف عالقة في وجوه الناس فأستطيع الرد، حتى استطعت في النهاية الرسو على جملة كانت شبه مفهومة:

" العروس... إنها... أختها... أعني.... أنا... أختي "

ثم أخذت أعقد أصابعي بتوتر شديد، حرك رأسه للأعلى والأسفل قليلاً يترجم ما قلت، ثم اقترب من أمامي ومد يده نحوي وفك أصابعي عن بعضها وقال:

" نهيتك سابقاً عن هذه الحركة "

ثم نظر نحوي متفحصًا بينما شعرت بالارتباك وعدم الراحة من نظراته، لكنني أكاد أقسم أن وجنتيه كانت متوردتان وهو يتأملني، أو أن ذلك من تأثير الأضواء. شعرت به يريد قول شيء لكنه أثر العكس ومضى من أمامي ليترك خلفه رائحة عطره الزكية التي صفعت إحساسي، وتأثير حضوره القوي ليزرع في قلبي الرهبة منه أكثر من ذي قبل.

ليان

كان يزن بارعًا جدًا في الرقص حتى أنه كان يرقص أفضل مني، وبين كل فينة وأخرى يتمايل بجسده الطويل الرشيق أمامي ليسرق ضحكاتي، ثم أخذت أبحث بعيني عن إيلينا لتشاركنا الرقص، لمحت بعضًا من الوجوه المألوفة لي من صديقات وزميلات، حتى أنني لمحت المدير عصام يجلس إلى إحدى الطاولات مع بعض زملاء من طاقم المدرسة من إداريين، ولمحت مازن مع أهله من بعيد فشعرت بارتبائي يزداد.

اقتربت رفيقة دربي هناء تشاركني الرقص بسعادة وتقدمت مجموعة من زميلاتي وصديقاتي وشاركننا، ثم أخيرًا لمحت إيلينا تقف عند حافة المرقص، تصفق بيديها مع أنغام الأغاني فاتجهت نحوها وسحبته من يدها وحاولت إجبارها على الرقص، لكنها كانت خجولة جدًا وأبت، فجرها يزن من يدها وأخذ يرقص حولها لإخراجها من قوقعة خجلها لكن فعلته هذه زادت حياء، لتخطفها هناء أخيرًا وتبادر بالرقص معها، وأخذت تحاول حثها على التمايل بكتفيتها، لكن شيئًا ما كان يشغل بالها ولم أستطع معرفة ماهيته، أو ربما كانت تشعر بالخجل الشديد فقط. قمنا بتقطيع الكعك وإطعام كل منا للآخر وشربنا رشفة من ذات الكأس. وعدنا إلى الرقص لكنني تعبت فأثرت الجلوس، لم أكن معتادة على ارتداء الكعب العالي، جلس يزن إلى جانبي وأخذ يهمس في أذني بين كل فينة وأخرى مقدار حبه لي، فأشعر بالخجل وأغطي ابتسامتي البلهاء. تقدم منا شاب بهي الطلة هو ذاته من شهد على زواجنا، كان وسيماً بعينين رماديتين وشعر كستنائي مائل إلى الأشقر، فهمس لي يزن في أذني ليعرفني به:

" هذا ملاكي الحارس.. أخي الذي لم تلده أمي شادي "

ملاكي الحارس؟! ألم يحدثني عنه سابقا؟ لماذا ظننت وقتها أنه يتحدث عن امرأة؟ أهذا الذي ساعده على الثبات على الطريق الصحيح؟ يبدو جادا بالنسبة لي، أو مات برأسي أرحب به وبارك لنا زفافنا، وأضاف يزن قائلاً:

" إنه المدير التنفيذي في شركة والده، شركة الفردوس للنسيج "

وهنا عند آخر كلمتين رفعت رأسي أنظر نحو يزن مصدومة، مما استرعى انتباهه فهمس لي يسألني عن الخطب، لكنني هزرت رأسي أصطنع ابتسامة وألح له أن كل شيء على ما يرام، فأخذت عيناى تجوب في المكان بشكل تلقائي بحثاً عن إيلينا لأتأكد من كونها بخير، ربما هذا السبب وراء ارتباكها، وجود مديرها في الحفل! المشكلة أنني لم أجدها. أين اختفت؟ لكنني لم أستطع البحث عنها أكثر بسبب قدوم معارف نحونا بهدف تقديم المباركات والتهنئات لنا.

انتهى حفل الزفاف وأنا أتنفس الصعداء لمروره على خير. تقدمت مني أمي وأنا أقف أمام السيارة التي ستقودني نحو بيت (زوجي) يزن واحتضنتني بقوة وهي تبكي بحرقة، فانهرت باكية معها حزناً على فراقها، ثم أخيراً لمحت إيلينا من بعد تقف على باب الفندق، مددت لها يدي لتتقدم نحوي لكنها أبت وهزت رأسها معترضة، ثم هتف يزن من داخل السيارة باسمي لأركب، نظرت نحوها ونظرت نحو السيارة حيث يجلس، ثم لوح لها بيدي بابتسامة صغيرة وما إن استدرت لأركب حتى صرخت باسمي بانفعال شديد مما لفت أنظار البعض إليها من بينهم صديق يزن الذي كان يهم بركوب سيارته مع من أظنهم أفراد أسرته.

التفت نحوها لأجدها تركض باتجاهي باكية ففتحت لها ذراعِي لأستقبلها بين أحضاني بقوة، حبيبتى الصغيرة الغالية على قلبي، سكني، ودفء روعي إيلينا التي تكبدت الصعاب لأحميها من مر الماضي.

لو كان بيدي لاحتفظت بها في قلبي، أخذت أربت على ظهرها وهي تبكي بحرقة حتى أن صوتها علا في النحيب، حاولت تصيرها بأني سآتي دوماً لزيارتها وسأطمئن عليها دوماً، حتى هدأ

صوتها لكن عيناها لم تهدأ عن إذراف الدموع، مددت يدي لأمسح دموعها بمنديل مده لي يزن، وأخذت أحدثها لتهدأ:

" إيلينا حبيبتي أقسم لك أنكما ستملان مني وتأمراي أن أعود إلى بيت زوجي "

فضحكت بآلم وسط دموعها ثم قلت:

" أحتاج إليك صلبة قوية حتى تعتني بآمي إنها أمانة بين يديك الآن، هل أستطيع ائتمانك عليها؟ "

فأومأت برأسها إيجابآ، مسحت على خدها وقبلتها على جبينها وطلبت منها أن تدعو لي بالخير وأوليتها ظهري وركبت في السيارة إلى جانب يزن ولوحت لهما مودعة.

وصلت السيارة القصر وساعدني يزن على الخروج من السيارة وأمسك بيدي وسار بي نحو الباب، فتحه ليستقبلنا والداه، أبوه كان يحمل تعابير مبهمة أما أمه فاستقبلتني بابتسامة واسعة وأمسكتني من ذراعيّ وقبلتني على جيني و قالت لنا بينما تابعنا سيرنا نحو غرفة يزن التي سيشاركني فيها:

" جهزنا لكم العشاء في الغرفة "

شكرناها وقابلناها بابتسامة دافئة، وصلنا حيث السلام وقبل أن أتمكن من صعودها تفاجأت بيزن ينحني ويمد يده من أسفل ركبتيّ ويده الأخرى خلف ظهري ليرفعني ويحملني، فشعرت بالخجل من تصرفه أمام والديه والخدم، وهتفت باسمه مؤنبة، لكنه تجاهل خجلي وصعد السلام وهو يحملني حتى وصلنا الغرفة. لم أشعر أنه يستثقل حمله لي بدالي كأنه يحمل دمية فكان ظهره مستقيآ، طلب مني فتح الباب، ثم خطى بي نحو الداخل وأنزلني جالسة على السرير، ثم عاد يتجه نحو الباب.. قام بإغلاقه.. وإقاله، فشعرت بقلبي يثبّ نحو حلقي، ثم قام بخلع سترته وفك ربطة عنقه وجزء من أزرار قميصه وتقدم أمامي قائلاً بصوت ثقيل ملهوف:

" أخيراً أصبحت لي أنت الآن حلالي، أستطيع صنع ما أشتهي بك "

شعرت بأنني سيغشى علي، انحنى نحوي واضعآ كفيّ يديه على السرير وأبقاني في المنتصف وهمس لي قائلاً:

" اذهبي وغيري الثوب وارتي ما علقته لك في الحمام "

قمت مطيعة له نحو الحمام، عندما ولجت صدمت بحجمه، هل هذا حمام أم غرفة استحمام! وقعت عيني على العلاقة على الحائط لأجد قميص نوم أبيض اللون طويلا معلقا... كنت متوترة بشدة بينما أحاول الخروج من فستان الزفاف دون تمزيقه، حتى تمكنت أخيرا من خلعه وتناولت القميص وارتديته، وقفت أمام المرأة فشعرت بالخجل كونه مكشوف الصدر، كيف سأخرج به أمامه؟ حاولت التقاط أنفاسي وعدلت من وضع شعري لأضفي عليه الحيوية بعد حبسه في الحجاب مدة يوم كامل. تنفست بعمق وأخذت أهدي من روعي بتذكير نفسي بأن الأضواء خافتة في الغرفة وربما تخفف من توترتي وخرجت من الحمام... فرأيته يجلس على كرسي أمام طاولة صغيرة عليها ويقابلها كرسي آخر، وفوق الطاولة وجبة طعام مغلفة، فلما التفت إلي نظر نحوي مشدوهاً وابتلع ريقه، ثم نهض عن الكرسي واتجه نحوي وأخذ يتفحصني بنظراته التي باتت الآن مظلمة بالرغبة، اقتادني نحو السرير لآتمدد عليه، بينما قلبي يخفق بشدة مضطربا، ثم انحنى بجسده فوقي وطبع قبلة على خدي نزولا نحو رقبتني فدغدغت شعرات لحيته الصغيرة جلدي الناعم، لأهتف باسمه بأنين محرج، ثم نهض عني وخلع قميصه، كانت المرة الأولى التي أراه فيها عاري الصدر، ولم يخيب ظني بصدوره المفتول بالعضلات فشعرت بالدم يغلي في رأسي، لكن سرعان ما لمحت شيئا في أسفل معدته على اليمين فنهضت جالسة على السرير أتفحص ما رأته عيني ثم قلت متسائلة بقلق:

" ما هذه العلامة؟ "

كانت تبدو مثل حذوة الفرس بلون مغاير للون جلده، فأغمض عيني وقال:

" لا شيء مجرد حادث حصل معي في الصغر، وقعت على جمرة "

فهاجمته بسؤال:

" على شكل حذوة؟ "

أوما برأسه بنفاد صبر وقال وهو يسيطر على انفعالاته:

" ليان! ليس هذا بالوقت المناسب، لا تقتلي ليلتي! انتظرت هذه اللحظة منذ اليوم الأول من لقائي

بك "

فتوردت وجنتاي خجلاً، ثم اقترب مني وقال:

" اليوم يوم مميز لأنك ستغدين امرأة وليست أي امرأة بل امرأتي أنا"

شعرت بثقل الهواء بيننا، فأغمضت عينيّ ولم أملك إلا أن أسلم نفسي له.

الفصل العشرون

عدنا إلى البيت في ذات السيارة التي أرسلتها لنا أم يزن منهكتين، جلسنا على الأريكة الكبيرة برفقة عائلة خالي، وحاولنا إقناعهم بالمبيت عندنا لهذه الليلة لكنهم رفضوا وآثروا العودة إلى البيت فور قدوم سيارة الأجرة التي ستقلهم.

نظرت نحوي زوجة خالي وقالت وهي متسائلة بتردد:

" تلك السيدة التي عرّفني بها والتي تعملين عندها كمدرسة خصوصية لأولادها هي زوجة أمجد؟ "

حدجها خالي بنظرات ثاقبة فشعرت بالخرج، تصنعتُ ابتسامة لأزيل جو التوتر وقلت مجيبة لها استفسارها:

" نعم، هي ذاتها إنها امرأة رائعة جدًّا وطفلاها بهيان وأنا أحبهما " تنهد خالي بأسى بينما هي أضافت:

" لكن شقيقها جذاب جدًّا هو مديرك حسب ما فهمت صحيح؟ " فأومأت برأسي موافقة، لكن خالي نظر إليها في عينيه شرر وقال:

" قلت جذاب؟! هل كنت تتفحصينه؟ "

رفعتُ رجلا فوق الأخرى بانزعاج وأدارت وجهها عنه وقالت محتدة:

" إنه ليس بحاجة إلى التعمن لتكتشف جاذبيته، فلتحرسه عين الله لفت الأنظار نحوه! الحق يقال " زفر خالي بامتعاض لكنه لم يزد قولاً، أما أنا زممت شفتي بارتباك من كلامها المخرج وتبادلت النظرات مع أمي التي كانت تغطي فمها لتكبت ابتسامة حتى لا يراها خالي فيستاء أكثر. بعدما غادرت عائلة خالي الشقة عائدين إلى بيتهم وثر كنا وحدنا، نظرت أمي إلي وقالت:

" اذهبي واخلدي للنوم يا صغيرتي لترجي جسديك "

تنهدت تنهيدة كبيرة وقمت بثقل أجري نفسي نحو الغرفة لأخرج من ثوبي الجميل إلى منامتي، كنت منهكة بشدة ولا أعرف كيف استجمعت قوتي لأنهي أموري وأنظف وجهي جيدًا من أي آثار لمساحيق التجميل وخلدت إلى فراشي.

رحلت عيناى تلقائيا نحو فراش لىان لأجده خاليا كحديقة يتيمة اقتلعت أزهارها، فتعود الحقيقة المرة تذكرني بأنها لن تعيش هنا مجددا، فنهضت عن فراشي وزحفت نحو فراشها وجلست عليه، أمسكت بوسادتها واحتضنتها أشم منها رائحة لىان العالقة بها، فأخذت أبكي بمرار وألم على حبيبتي التي تركتني وحدي. بكيت بالساعات حتى أصبح بكائي نحيبًا.

ركبت موج الذكريات لأبصر مواقفنا معا... شجاراتنا المتكررة.. ضحكاتنا.. تسامرنا في أنصاف الليالي.... ثم لا أدري كيف حل النعاس بعيني فنمت في فراشها محتضنة وسادتها.

في الصباح التالي ركبت رأسي مصرّة على أمي أن نتصل بها للاطمئنان عليها، وهي تصدني بشدة بيننا تعد لنا الفطور وتكرر قولها لي:

" عيب يا ابنتي! ربما تكون الآن برفقة زوجها، لا تنسي أنها عروس، انتظري قليلا لربما هي اتصلت بنا"

أخذت أتأفف معترضة لكن لم أنجح في إقناعها. أبقيت هاتفي وهاتف أمي إلى جانبنا على مائدة الإفطار لعل لىان تهاتف أحد الهاتفين، حاولت أمي مرات عدة إقناعي بوضعها بعيدًا، لكنني رفضت بشدة، فأذعنت أمي مستسلمة لرغبتى، وكلما وضعت لقمة خبز في فمي أنظر نحو الهاتفين في انتظار اتصالها.

ثم أخيرا أضاءت شاشة هاتف أمي بمكالمة من لىان، فنهضت مثل السجين الذي رأى النور أخيرًا وقبضت على الهاتف بيدي ففوجئت بها تتصل بنا بمكالمة صوت وصورة، ضغطت على زر الاستقبال فرأيتها.. رأيت وجه أختي الجميل! كان شعرها مبعثرًا قليلًا وكانت ترتدي عباءة بيّية من الستان فوق منامتها الحريرية، وبدالي أنها جالسة على السرير.. عندما رأته اتسعت ابتسامتها.

دمعت عيني فرحا فرحبت بها بصوت ضعيف مشتاق وسألته عن حالها، اقتربت أُمي من الشاشة ولوحت لليان بسعادة، وغمزتها بعينها قائلة:

" كيف كان السبع؟ "

حدجتُ أُمي بنظرة استنكار، عيب أن تسألها هذا السؤال وأنا جالسة إلى جانبها، فضحكت ليان محرجة وأومات برأسها دون أن تقول شيئاً كأنها توصل رسالة لأُمي تقول فيها أن كل شيء على ما يرام.

سألته عن حالنا وما نفعل، فحولنا شاشة الهاتف نحو فطورنا ودعوناها مازحتين للانضمام إلينا، فدعت لنا بلقمة هنية.

ثم سمعنا صوت باب يفتح عندها وصوت يزن يحدثها بأن الفطور جاهز فأعدت نظرها إلينا ولوحت لنا مودعة توصل لنا سلاماً من زوجها، لوحنا لها مودعتين وأنهت المكالمة فاعتصر قلبي ألماً فأنا لم أشبع بعد منها، حاولت أُمي إقناعي بأنني سأعتاد على غيابها وستسير حياتنا بشكل طبيعي. أمسكت سارة بيدي في صباح اليوم التالي لتواسيني على فراق ليان وتهنئي على فرحها في آن. وشجعتني أن أخطو على حذوها وأتزوج أنا أيضاً. فجال في خاطري فارس فجأة، لماذا رأيت وجه فارس في مخيلتي؟ احمرت وجنتاي فشهقت سارة مبتسمة وقالت:

" يبدو أن هناك من خطف تفكير إيلينا! "

شعرت بوجهي يغلي، فوضعت يدي على خدي لأخفي خجلي وابتسمت ببلاهة وأنا أنكر اتهامها. ثم لكزتني في خاصرتي تمازحني لأبوح بما أخفيه، حتى استسلمت لها لأتخلص من دغدغاتها التي أجبرتني على الضحك، وآخر ما أريده أن ألفت الأنظار نحوي بضحكاتي.

مسحت دموعي من أثر الضحك ثم أخذت نفساً عميقاً وزفرته على مهل ونظرت إليها بخجل وقلت:

" اسمه فارس "

فقاطعتني باستهجان:

" فارس من قسم التصوير؟ "

قطبت حاجبي وأجبتها بسرعة نافية معتقدها:

" ماذا؟ لا، ليس فارس هذا بل شخص آخر، إنه إنه ابن عم المدير شادي "

فسألتني ملهوفة:

" هل هو جذاب ووسيم مثله؟ "

شردت قليلا وأنا أقارن بينها ثم قلت أخيرا:

" لكل منهما جماله الخاص، فارس قمحي البشرة وله ملامح مرسومة "

ثم قربت رأسها أكثر مني وسألت بالحاح:

" لم تحببي على سؤالي! هل هو جذاب؟ "

احمر وجهي خجلاً فأبعدت وجهها عني بكف يدي قائلة:

" عيب يا سارة أنا لا أحب التغزل بالرجال، ثم أنني لست متأكدة مما أشعر به نحوه أو ما يشعر به "

نحوي.. قيل لي أنه يجب مغازلة النساء عادة، لكن أخت السيد شادي مصرة على أنه معجب بي "

بشكل يختلف عما عهدته منه... لا أعلم "

قالت سارة معقبة:

" لا تدرين ربما كان طوق النجاة لك لتبدئي حياة جديدة وتخطي مشاعرك نهائياً تجاه خطيبك "

السابق، تخيلي أن ينتهي بك المطاف زوجة له وأنا زوجة لشادي.. أعني السيد شادي! "

مازحتها بقولي:

" وماذا عن مهند؟ "

- " لآعب احتياط "

انفجرت بالضحك على كلامها وتقلب مشاعرها باستمرار بين السيد شادي وبين مهند، لكن الحق "

يقال مهند لا يضاهي السيد شادي بشيء لا من ناحية الجمال ولا الجاذبية، آه كل ما عادت بي "

الذكرى إلى رؤيته مصادفة في حفل زفاف ليان فإن قلبي يخفق بقوة لم أعهد لها من قبل، لكن لماذا؟
هل أخشاه إلى هذه الدرجة؟

عندما قلت لسارة عن كون المدير صديق يزن المقرب أخذت تتحجب وتندب حظها على عدم حضورها لحفل زفاف ليان وألقت اللوم على والديها اللذين منعها من الحضور بسبب بعد مسافة الفندق وتأخر الوقت.

أمطرتني بأسئلتها عن لباسه.. وعم كان يفعل.. ومن جاء برفقته.. وهل شارك في الرقص على المرقص.. بينما لم أستطع إجابتها على أي من أسئلتها بسبب حلول موعد مغادرتي نحو القصر إلى عملي الآخر. ووعدتها بإجابتها على أسئلتها في اليوم التالي.

نزلت السلام جرياً فقد أخرجتني سارة بتعلقها بي متوسلة لأخبرها المزيد عن السيد شادي فوصلت إلى السيارة وأنا ألفظ أنفاسي بصعوبة حتى أن السائق خشي علي فسألني عم إذا كنت بخير، فأشرت له بيدي أنني بخير دون أن أتكلم، بينما أستجمع أنفاسي، يدي على خاصرتي أمسكها لأخفف من حدة الألم.

قبل أن ألعج إلى داخل السيارة سمعت صوتاً مألوفاً وكيف لي أن أنساه إنه السيد شادي، يخاطب السائق قائلاً:

" سأركب معك اليوم سيارتي بحاجة إلى صيانة دهان.. اتصل بأحمد وقل له أن يتولى أمرها"
تسمرت مكاني ولم أتحرك، أسرع السائق بفتح الباب الخلفي للسيد شادي، مر من جانبي والتقت نظراته بنظراتي فشعرت بالارتباك وأزحت بصري بعيداً عنه، ثم فاجأني بدخوله إلى السيارة تاركاً مجالاً إلى جانبه ثم قال يوجه كلامه إلي:
" أئن تصعدي؟"

نظرت نحوه والحيرة بادية على وجهي كالبلهاء، ثم وجه نظرة حادة نحو السائق، وكأن الأخير يفهم لغة عيونهم، فاضطرب المسكين وأشار إلى المقعد الخلفي بيده إلى جانب السيد شادي وقال:
" أنستي تفضلي رجاء!"

وأخيراً عادت الحياة إلى قدمي فتقدمت بخطى خائفة مترقبة، خشيت أن يغضب إذا أطلت الوقوف بغباء هكذا. دخلت السيارة وأنا أحمل رعباً كبيراً في قلبي، ماذا حصل لكبيرائه حتى سمح لأحد بمشاركته في المقعد؟ أليس هو من رفض الجلوس إلى جانبي في المرة الماضية التي ركب فيها معي بذات السيارة؟!!

حاولت الحفاظ على مسافة آمنة بيننا، راعيت الجلوس في أقصى الجانب الأيمن ملصقة جسدي بالباب قدر الإمكان، وحرصت على إبقاء عيني على الطريق من خلال النافذة، لكن كان من الصعب علي ألا ألمح انعكاس صورته على زجاج المرآة وأتأمل ملامحه، جاذبيته تسحر العيون فعلاً، فكأنها تنسكب منه هالة من الهيمنة والرجولة تجعل العين متعطشة للنظر إليه، ثم.. حصل ما لم أتوقعه.. التفت رأسه نحوي لينظر إلي فاشتعل وجهي بحرارة ودعوت الله ألا يكون قد لمح انعكاسي وأنا أتأمله، ثم قال لي:

" هنيئاً زواج شقيقتك "

ارتأيت أنه من العيب أن أجيبه وأنا أدير رأسي نحو الجهة المعاكسة له، فالتفت نحوه وتصنعت ابتسامة صغيرة على ثغري لأخفي ارتباكي وأومأت برأسي، ثم قال معقّباً:

" لم أرَ يزن بهذه السعادة من قبل، كان ينهك خلايا دماغي وهو يحدثني عن رغبته الزواج بها ورفضها المتواصل له.. لماذا كانت ترفضه؟ "

رفعت كتفي أشير بعدم معرفتي وقلت باختصار:

" ليان نادراً ما تبوح بما يعترى صدرها.. لم تكن تحدثنا عنه لقد فوجئنا بالخبر "

- " أها! أختك هذه تبدو قوية الشخصية "

هذه المرة تجنبت إجابته، وأبقيت نظري نحو الأمام أتنفس بصعوبة من شدة ارتباكي، ثم شعرت بلمسة أصابعه الباردة تضرب إحساسي، فنظرت إلى يده التي وضعها على أصابعي المعقودة في حجري فاحمر وجهي أكثر، ثم قال:

" سيكون من الأفضل لو أنك تحاولين تصنع الصلابة، من أجلك أنت... من أجل حمايتك من ذئاب المجتمع.. تعلمي القليل من قوة أختك "

ثم رفع يدي اليسرى يفكها عن اليمنى ووضعها على فخذي، لكن أصابعه لامست فخذي بخفة، ربما لم يكن قاصدا لكنني لم أمس قط من أي رجل في حياتي لذا كرد فعل تلقائي ضممت رجلي دون تفكير وسحبت يدي بخشونة أذهلته، لأضعها على ذراعي اليمنى، بينما يده بقيت معلقة في الهواء كأنه صدم من ردة فعلي.

تنحنح وعدل جلسته ثم وضع يده على ربطة عنقه يعدلها وقال:

" لم أكن أنوي شرًا لم أقصد ملامستك "

شعرت بقلبي يمزق صدري خارجًا منه من شدة الخجل الذي كاد يحرق كل خلية حسية تنبض في جسدي، قلبت عيني بارتباك شديد وأنا أنظر حولي لأتجنب النظر إليه، وأخذت أعض على لساني سخطًا على غبائي.

تجنب السيد شادي التحدث معي طيلة الطريق حتى وصلنا إلى القصر، ترجل السائق وفتح الباب له ليترجل من السيارة وسار نحو الباب الرئيسي دون أن يلتفت نحوي، ثم تبعته بخروجي وعندما لمحتني مدبرة المنزل أبقّت الباب مفتوحًا تنتظر قدومي إلى داخل القصر.

جلست بصحبة الطفلين الذين أعربا لي عن اشتياقهما إلي، وأخذت أراجع دروس يوم الخميس قبل البدء بالدروس الجديدة. أقبلت السيدة مايا مع ديمة لتهنئاني بزواج أختي، وقالت الأولى:

" لم نكن نعلم أن العروس هي أختك، لقد صدمنا عندما رأيناك في الحفل، لكن اسمحي لي أن أقول أنك وأختك آيتان من الجمال - عين الله تحرسكما - خشيت عليكما من العين الحاسدة "

شكرتها وأنا أبتسم بخجل وقالت ديمة مضيئة إلى كلامها:

" كان هم يزن الأول والأخير عروسته، كان كثير السرحان وأكل رأس شادي وهو يحدّثه عنها " نظرت نحوها السيدة مايا بريية وقالت:

" من أين تعرفين هذا؟ "

فقالت غير مبالية:

" أنا أعلم كل شيء في هذا البيت هل نسيت أن أبي عاقبني بعدم الخروج من القصر بسبب رسوبي في

مادة الاقتصاد؟ فكان علي أن أسلي نفسي بأن أشتّم أخبار من يخطو عتبة القصر "

- " هذا يسمى وقاحة يا ديمة يوجد أسرار للآخرين عليك احترامها! "

رمقت ديمة أختها الكبرى بنظرة استنكار غير مبالية بالقيمة التي حاولت غرسها فيها، وأخرجت

هاتفها من جيبها وسارت مبتعدة وهي تقول كيدًا بها:

" سأذهب لأسلي نفسي بقصص جديدة "

التفتت السيدة مايا إلي من جديد واعتذرت مني عن تصرفات شقيقتها غير المسؤولة، ونبهت

طفليها إلى عدم الاقتداء بها، ثم استأذنتني لتتركني أكمل عملي مع التوأمين.

فوجئت بفارس يقبل من خلفي فألقى التحية علي، رددت له التحية بحياء فلفت انتباهه هاتفني

المحمول الذي وضعته على الطاولة لأنفق أي رسائل أو أخبار من ليان، وسأل مشيرًا إليه:

" هل هذا هاتفك؟ "

أومأت برأسي بخفة، فطلب مني الإذن ليمسكه، شعرت بالغرابة من طلبه لكنني ناولته إياه فأخذ

يضغط على شاشته، ولم أعي ما يصنع حتى سمعت رنين هاتف، فأخرج هاتفه من جيبه وضغط

عليه منهيا صوت الرنين. وقال يعيد الهاتف إلي:

" هكذا أصبح معك رقمي ومتى ما احتجت إلي فقط اتصلي "

سقطت تعابير وجهي رعبًا من فعلته فقال مسرعًا يهدئ توتري:

" لا تقلقي أقسم أنني لن أزعجك أبدًا لكنني احتجت إلى رقمك لحاجة في نفسي، لكن أقسم لك

بألا أسيء إليك بأي شكل كان! "

ازدادت صعوبة تنفسي وقابلته بنظرة محتدة، ثم قلت مجادلة:

" وما هي الحاجة؟ من حقي أن أعرف! "

نظر نحو الطفلين ثم قال لي:

" سأقول لك لكن ليس الآن "

ثم أشار لي بيده ملوحًا واختفى، شعرت بقلبي يقفز إلى حلقي رعبًا. حاولت استدراك نفسي والعودة إلى دروسي مع الطفلين لكن ذهني كان منشغلًا به وبها فعل ولم أستطع التركيز. اعتذرت منهما ووعدتهم بالتعويض عنهما في الغد وطلبت منهما استدعاء والدتهما لأستأذن منها لأغادر لكن نبهت عليهما أولاً أن يحفظا السر ولا يقولوا لأحد ما رأيا فارس يقوم بعمله.

اعتذرت من السيدة مايا وبررت لها مغادرتي بتعبي من أجواء الخريف التي بدأت تميل إلى البرودة ولم أنتظر منها استدعاء السيدة هالة فسرت نحو المخرج بنفسي، لألتقي بفارس في طريقي فأشار إلي أن أدخل المطبخ من باب البهو ففعلت بداعي الفضول.

عندما دخلت وجدته وحده واقفا متكئا على الحائط بجانب الباب ويده في جيب بنطاله وعلى وجهه رسم ابتسامة سخيفة، عقدت يديّ أمام صدري وقابلته بنظرة جدية، وانتظرت منه تبريرا فقال:
" اسمعيني جيدا حتى النهاية.. سأبوح لك بالحقيقة عني، حتى نكون على بينة ولا أخفي عنك أسراراً.. أنا كنت زير نساء سابقاً... "

ثم سكت ليلاحظ تعابير وجهي تجاه كلامه ثم عقب:

" لكنني تبت وكل شيء تغير وسني اقترب من الثلاثين .. وأنا أكبر إخوتي وبدأت أميل إلى الاستقرار.. فكنت أكلف أمي منذ فترة أن تجدي الفتاة المناسبة، لم أطلب منها مواصفات إلا كونها مهذبة وملتزمة.... وقد وجدت فيك أنت هذه الصفتين بالإضافة إلى صفات أخرى رائعة.... "

بدأت ملامحي تلين والحنج يعلو رويدًا رويدًا على قسماات وجهي، ثم تابع:

" وأنا أخذت رقمك حتى تحدثك أمي وتطلبك زوجة لي من ولي أمرك، فهل ستقبلين؟ بالمناسبة أنا أحافظ على أداء فروضي! "

سقط فكي مذهولا بكلامه وأخذت أترنح في وقفتي ثم وضعت كفي على النصف الأيسر من وجهي أفكر في رد ثم قلت بحياء شديد:

" لا أعرف أنا لا أدري لقد فاجأتني "

فقال مقاطعا:

" إذا كان لديك اعتراض فقط قولي لا وسأحذف رقمك على الفور، لكنك ستكسر قلبي إذا رفضت "

أخذت أعقد أصابع يدي بارتباك واضح ولم أعرف بم أجيبه، ليست لدي خبرة في الحديث مع الشبان في هذه الأمور، حتى أجد طلب يدي من أمي وأختي. لكن في داخلي لم أرد أن أرفض، كما أنني لن أرمي نفسي عليه طأطأت رأسي بحياء ثم قلت:

" تكلموا مع أمي في الموضوع ورأيي من رأي عائلتي "

لمحت ابتسامته العريضة تشق ثغره ثم تنهد بقوة وقال:

" أتمنى أن توافق عائلتك إذن..... حسناً سأخرج من الباب الخارجي للمطبخ حتى لا يلمحنا أحد فيفهم الموضوع بشكل خاطئ، أنتظر ردكم على أحر من الجمر "

ثم خرج وهممت بالرجوع إلى البهو وذهني ما زال مسكراً بهذه اللحظة، فكدت أصطدم بأحد أمامي، شهقت ذعراً ثم رفعت رأسي لأتأكد من هويته، فكان كما توقعت.. السيد شادي! كان ينظر نحوي بنظرة مبهمه... باردة.. غامضة! حاولت المرور من جانبه، فأحنى رأسه ليقرب مني ووضع كف يده على دعامة الباب ليسد علي الطريق، شعرت بأنفاسه الحارة تغزو بشرة خدي الناعم وقال بصوت خافت يحمل في طياته الحنق، بينما عيناه تقدحان بالشرر:

" لماذا هو بالذات؟ "

فتحت فمي ببلاهة وأنا أنظر نحو عينيه الرماديتين الآسرتين، ثم رفع رأسه واعتدل قائماً ومضى من أمامي، شعرت كأنني سأهوي أرضاً من شدة الخوف حاولت أن أجز ساقِي نحو السيارة وأنا أعالج الصدمات التي انهالت علي من لحظة انطلاقي نحو القصر حتى هذه اللحظة.

شردت كثيراً أثناء العشاء بتفاصيل يومي، كيف أتصرف مع فارس الآن. هل حقاً نيته تجاهي سليمة؟ ماذا عن السيد شادي؟ ماذا عنى بسؤاله ذاك؟ ولماذا كان ينظر نحوي بغضب؟ ما الذي

يريده؟ ما الذي أريده أنا؟ إذا كانت نوايا فارس سليمة تجاهي فهل أنا مستعدة للارتباط به وتخطي حزني من أجد؟ ماذا أشعر تجاه فارس؟ هل يعجبني؟ بالطبع يعجبني فهو غاية في الجاذبية.... لكن هل إعجابي به كافٍ لقبولي الزواج منه؟ هل بدأت أحبه؟ أم أن مشاعري ما زالت تهيم نحو أجد؟ لكن فارس شاب مميز وسهل المعشر....

ظنت أمي سبب شرودي هو حزني على فراق ليان، فأخذت تصبرني وتواسيني. فخرجت من قوقعة أفكاري لدى سماعي صوتها وارتأيت تأجيل التفكير بهذه المواضيع إلى وقت آخر. فاجأتنا ليان مساءً بقرار سفرها في شهر عسل أو أسبوع العسل فإجازتها تنتهي بعد أسبوع، هذا أحد مساوئ العمل في مدرسة خاصة ووعدتنا بالقدوم صباحًا لتوديعنا. تحدثنا إليها مطولاً وأعربنا عن اشتياقنا الشديد لها، ثم قفز يزن أمام شاشة الهاتف فأبعدت وجهي عن الكاميرا حتى لا يراني مكشوفة الشعر، وطبع قبلة على خد ليان وألقى التحية على أمي، فلطمته ليان على صدره مؤنبة إياه على سلوكه وقالت له:

" إيلينا تكلمني مع أمي! التزم الأدب!"

فأرسل قبلة لأمي وقال لها:

" ابتك هذه خجولة إذا قلت لها أحبك يغمى عليها! تحدثي معها لتخرجيها من عقدها!"

شعرت بالخجل الشديد من كلامه مع أنني لا أمت للموضوع بصلة، أما ليان فدفعته من ذراعه

ليختفي من أمامها ثم نظرت إلينا بخجل مبتسمة وحاولت تغيير الموضوع بسؤالها عن أحوال

العمل، وأخبار مديري.. أو كما أسمته بين قوسين (ملاك يزن الحارس)!

أنا أعترض! هذا الرجل يوصف بأي شيء إلا الملاك! من أين جاء يزن بهذا الوصف له؟ أما كان من

الأجدر أن يطلق عليه لقب النمر الجليدي! أو ما شابه؟!

تمنينا لهما ليلة سعيدة وأنهيانا المكالمة لتعود إلى زوجها، ثم نظرت نحوي أمي بحنو وقالت:

" اذهبي ونامي يا صغيرتي حتى تستيقظي مبكرًا لتوديع ليان"

خلدت إلى النوم وقد عادت أمواج أفكاري العاتية تلاطم رأسي، وعدت بذاكرتي إلى موقف فارس اليوم وحديثه معي في المطبخ فشعرت بقلبي يخفق بشدة.. هل فعلاً بدأت أقع في حب فارس؟ أم أن هذه مشاعر عابرة؟ ربما كانت مجرد أحاسيس غبية شعرت بها بسبب جاذبيته وتعامله اللطيف معي وعرضه الزواج بي! لا أريد أن أقع في ذات الفخ الذي وقعت فيه مع أمجد.. يجب أن أتروى قبل إصدار حكم على عرضه، لكن متى ستتصل أمه لأتبين صدقه؟

نظرت إلى شاشة هاتفي وأخذت أتمعن في رقمه في سجل الاتصال وأنا أحاول تخيل كيف ستكون الحياة لو كان صادقاً في مشاعره ونواياه، بدأ قلبي يخفق وأخذت الابتسامة تفرض نفسها بقوة على شفتي.. ثم استسلمت لنوم عميق..

رأيت فارس في منامي يبتسم ويعبر عن حبه لي.. ورأيت في ذات المنام أنني أرتدي ثوب زفاف أبيض وأسير نحو فارس ليستقبلني بيده ويسير معي بسعادة، تماماً كسعادة ليان ويزن.

الفصل الحادي والعشرون

جلست أمام طاولة المطبخ في انتظار قدوم ليان من أجل توديعها ثم أنطلق نحو عملي، كنت أرتشف من كأس الشاي وأنا أتذكر حلمي بفارس ومواقف البارحة، حاولت إقناع نفسي بأنني حلمت به بسبب تأثري بكلامه لا غير.

كلما فكرت بفارس يقتحم السيد شادي مخيلتي، فجال في خاطري سؤاله المبهم، لماذا طرح علي سؤالاً كهذا؟ هل يعقل أنه يشعر بالغيرة من فارس؟ لا! لا.. لا! مستحيل! علامَ سيشعر بالغيرة؟ من أكون مقارنة به و بمؤهلاته ليغار؟ ربما هو متضايق من فكرة ارتباط ابن عمه بفتاة فقيرة، هامشية، جبانة وخجولة مثلي، ربما أراد له زوجة بمعايير اجتماعية ومادية أفضل! عندما نظرت إلى الموضوع من هذه الزاوية نما شعوري بالاحتقار تجاه نفسي، ثم أخذت أحدث نفسي أن هذا السبب الأنسب لتفسير كلامه.

سمعت صوت طرق الباب ليصفع أفكارى بعيداً، نهضت عن الكرسي لأتجه ركضاً نحوه لأفتح له ليان لكن سبقتني أمي التي كانت قد بدأت في تنظيف البيت. رأيتها تحتضن ليان بحنو، تقدمت منها فلما رأته مدت ذراعيها نحوي وسارت باتجاهي وعانقتني بحرارة. اصطحبناها إلى المعيشة، ثم بدأنا بسؤالها عن حالها وعن عائلة زوجها، فأعلمتنا أن والد زوجها سافر في رحلة عمل، أما حماها فهي امرأة رائعة تعاملها بلطف وحنو. ثم حدثنا عن مشاعرنا التي تنامت أكثر تجاهه بعد زواجها منه وكيف أنها بدأت تتعلق به، وتعتاد على مفاجآته المضحكة، أخذت أتخيل بدوري لو قبلت بعرض فارس فهل سأكون سعيدة مثلها؟ ابتسمت بخفة وأنا أفكر فيه وأتذكر موقفه معي في المطبخ البارحة. ثم ورد ليان اتصال من زوجها، فنهضت واقفة لتوديعنا ثانية فأصررنا على النزول معها إلى الخارج لتودع أمي يزن وتتمنى له رحلة طيبة.

عندما وصلنا فوجئت بالسيارة التي تصطف على باب العمارة، أنا أعرفها جيدا لا يمكن لي أن أخلط بينها وبين أخرى، يبدو دهانها جديداً لكنها ذاتها أنا متأكدة! سيارة السيد شادي!

وهنا توقفت عن المسير فنظرت إلى ليان أسألها:

" لماذا لم تذهبا في سيارة يزن أو سيارة العائلة؟ "

فأجابتنني:

" لم نستطع أخذ سيارة يزن لأننا سنحتاج من يأتي ويعيدها أما سيارة العائلة انطلقت إلى الميناء

لاستقبال والد يزن من رحلته البحرية "

ثم حثتني على الاقتراب من السيارة وهمست في أذني قائلة:

" لا تخافي لن يعضك لست في مبنى الشركة لتشعري بالرهبة منه "

ماذا عنت بكلامها؟ هل عرفت أنني ذعرت من الاقتراب بسبب السيد شادي؟ صحيح.. نسيت أن

أسألها في الأمس كيف علمت بأنه مديري من الأساس؟ أنا لم ألمح أمام يزن بكوني موظفة لديه!

وبالتأكيد السيد شادي لم يكن مهتما بالتعرف على أختي من قبل...

استجمعت شجاعتي الكاذبة وتقدمت بحياء لألقي التحية ليزن، فنظر نحوي من نافذة المقعد

الأمامي وقال:

" مرحبا يا إيلينا كيف حالك؟ "

ابتسمت له وحولت نظري نحو يديّ المعقودتين ثم تذكرت أن السيد شادي يكره هذه الحركة

فعددت ذراعيّ على صدري وأخذت أنظر في الفراغ أمامي لأتجنب النظر إلى أي منهم، سمعت

صوت يزن يقول:

" شادي هذه حماي أم ليان. "

سمعت صوته يرحب بها، ثم قدم يزن اقتراحا لأمي استرعى انتباهي:

" عمتي ما رأيك لو اصطحبنا إيلينا معنا؟ هي في كل الحالات ستذهب إلى عملها وهكذا سيوصلها

شادي "

شعرت بقلبي يهوي بين ساقبي ولم أستطع التحكم في انفعالاتي المفاجأة التي فضحت شعوري بالذعر من فكرته، لكن أمي حاولت الرفض بأدب مشيرة إلى أنها لا ترغب في تأخير السيد شادي عن عمله ليوصلني، فضحك يزن وقال:

" عمتي كيف سيتأخر؟ إنها تعمل لديه في الشركة!"

كنت أعلم أن أمي تتظاهر بجهلها عن حقيقة كونه مديري، ربما أرادت حمايتي من الشعور بالغرابة إن ركبت معه في السيارة، التفتت نحوي وقالت لي بدهشة مصطنعة وكأنها لم تسمع من ليان في مكالمة الأمس:

" لم تقولي لي أن السيد شادي هو مديرك!"

لم أستطع الرد عليها فقاطع السيد شادي هذه اللحظة منهيًا الجدل:

" لا بأس يا خالة، دعيتها تتركب هكذا يتسنى لها توديع أختها وتذهب إلى عملها"

وبعد محاولات عدة من يزن وليان استطاعا إجباري على الركوب في المقعد الخلفي بجانب ليان. أما أمي فودعتني بابتسامة مشفقة.

انطلقت بنا السيارة نحو المطار. وأخذت ليان يدي لتحتضنها طوال الطريق.

عندما وصلنا نزلنا جميعا من السيارة وأخرج السيد شادي ويزن الحقائب من الصندوق الخلفي للسيارة. ودّعني ليان مرة أخرى وعانقتني بحرارة ولمحت دمعة حائرة سقطت من عينها، فحاولت التحكم بمشاعري لئلا أبكي أمامها فأفسد عليها رحلتها.

مضيا من أمامنا ودخلا إلى المطار، عاد السيد شادي إلى السيارة وسمعت صوت أحد أبوابها يفتح، ثم هتف لي:

" تفضلي"

التفت إلى الخلف بدوري ففوجئت بأنه يشير إلي أن أجلس إلى جانبه في المقعد الأمامي بدل المقعد الخلفي، كرهت الفكرة من أساسها، لكنني لم أجادله، لم أشأ أن أغضبه فهو يخيفني بمجرد نظره إلي،

مررت من أمامه لأركب فعلقت في أنفي رائحة عطره الفواحة، لتجبرني على الغوص في بحر جاذبيته.

أغلق باب السيارة بهدوء، ولم تغادره عيناى وهو يسير بوقار نحو الجهة الأخرى، ثم استقر في مقعد السائق إلى جانبي، حاولت عدة مرات أن ألفظ له عبارات شكر على إيصاله لي، لكنني كنت أجبن في آخر لحظة فأتراجع، ثم في النهاية تحاملت على نفسي وتجرات ونطقت أخيراً:

"شكراً... على... إيصالي.. لم تكن.. مجبراً"

لكنه لم يجبني بل أدار عجلة الكلام نحو موضوع آخر، فقال متسائلاً بنبرة جادة:

"هل تواصلت معكم أم فارس؟"

صدمت من سؤاله فلم أجبه، ألقى نظره الحاد نحوي ثم رفع أحد حاجبيه وأوماً برأسه ينتظر إجابة، فأجبت برعب على الفور:

"لا!"

ثم أخذت أتصارع مع نفسي لأسأله هذا السؤال الذي كاد يذبحني، فنطق لساني قبل أن أستطيع إيقافه:

"وما هو الفرق الذي يحدثه لديك إذا تواصلت أو لم تفعل؟"

صنعت نفسي ذهنياً على جراتي! كيف طرحت هذا السؤال ماذا دهاني؟
فزفر بحنق وأجاب:

"فعلاً.. كلامك صحيح ما الفرق؟ انسي الأمر لست مهتماً أصلاً"

شعرت بغصة في قلبي من إجابته الجافة ومن أسلوبه المتعجرف، وبدأ عقلي الباطني ينهرني بقوله:
ماذا توقعت؟ أن يعترف بمشاعره تجاهك؟ فجادلته بأنني لست مهتمة بمشاعره وأنني لا أشعر
تجاهه بشيء حتى لو كان وسيماً وجذاباً فالجوهر عندي الأهم. أنا بالتأكيد لا أشعر بشيء تجاهه... أنا
معجبة بفارس، يا إلهي هل حقاً أنا معجبة بفارس؟ لماذا أشعر بشيء ينعش قلبي كلما جال في

خاطري؟ كلما تذكرته شعرت ببستان من الورد يتفتح في قلبي يا له من شعور جميل يشابه شعوري نحو أمجد سابقاً، لكن أتمنى أن يصدق فعلاً في كلامه ونواياه معي حتى لا أندم ولا أتحسر. حافظ السيد شادي على صمته بقية الطريق لكن جو الصمت هذا لم يكن مريحاً، ولم أعرف كيف أتصرف بوجوده.

وصلنا كراج الشركة الأمامي حيث يجب السيد شادي عادة صف سيارته فيه بدل الكراج الداخلي، ثم أوقف السيارة فمدت يدي نحو الباب لأفتحه على عجلة فقال لي مقاطعاً خروجي: "لما أنت مستعجلة؟ أنا سأفتح لك الباب" - "لا شكراً سأخرج بمفردي"

وما إن فتحت الباب حتى انحنى نحوي وأمسك بمقبضه وأغلقه بقوة، فأجفنتني، فتحت عيني لأجد ذراعه ما زالت ممتدة ليمسك الباب ابتلعت ريقى بصعوبة والتفت نحوه فوجدت رأسه قريباً جداً مني، كان ينظر نحوي بجفاء وغيظ مع مسحة من البرود، ثم أخذ يتفرس في معالم وجهي، أخيراً قال بنبرة ملؤها الجد:

"لست معتاداً على تكرار كلامي مرتين"

أومأت برأسي بذعر جلي، ولم أحتمل النظر في عينيه فترة أطول فحولت نظراتي إلى الأسفل لأتجنب النظر نحو عينيه، لكنني ندمت على هذه الفكرة، فقد وقعت عيني على ياقة قميصه المفتوحة.. ثانية.. فشعرت بالحرج الشديد فقررت في النهاية إغماض عيني. بعدها شعرت بظله يختفي من فوقني، اختلست النظر فوجدته يقف عند الباب من الخارج وقد فتحه لي ثم أمرني بقوله:

"ترجلي من السيارة"

استمعت لكلامه على الفور وترجلت خارجه، فأغلق الباب وعيناه تراقباني كالصقر الذي يتحين الفرصة للانقضاض على فريسته. ثم خطا نحو الأمام وتركني وحدي في المصف خائفة مذعورة.

بقي بالي مشغولاً طيلة الصباح وفترة الظهر باتصال أم فارس الذي لم يحصل، ألم يعدني باتصال أمه بي البارحة؟ لماذا لم تتصل حتى الآن؟ هل يعقل أنه عرض عليها الفكرة ورفضت؟ أو أنه يتلاعب بي! لكن الأنسة ديمة أكدت سابقاً أن أمه على اطلاع بنوايا ابنها، أو ربما فارس طلب منها أن تقول لي ذلك حتى أثق به، ما الذي دهاني؟ لماذا لا أستطيع التفكير في شيء آخر غير فارس؟ فكري يا إيلينا بأي شيء أي شيء... هنا كعادته تدخل عقلي الباطني بتفكيري لأتذكر السيد شادي فضربت رأسي حتى أخرج أي تفكير عنه من ذهني، مما لفت نظر كل من سارة ودانا نحوي فشعرت بالخجل، حاولت سارة سبر غوري لتفهم ما يدور في داخلي لكنني أقنعتها أن السبب وراء تصرفاتي الغريبة هو تفكيري الدائم بليان.

جلست مع ماسة وجاد في الحديقة مجدداً، كان الجو مائلاً إلى البرودة بعض الشيء لكنني تلفحت بشال أعطتني إياه السيدة هالة التي كررت أسفها مرات عدة لجلوسي هناك في هذا الجو وذلك بسبب ورشة تغيير ديكور الإضاءة والثريات التي طالبت السيدة انتصار بالعمل بها اليوم، أوضحت لها بابتسامة لطيفة أنني لست مستاءة لكنني خشيت على الطفلين من نزلة برد. عندما شارف الدرس على الانتهاء لمحت فارس يقف أمام الطاولة التي نجلس عليها على بعد عدة أمتار، اقترب وعلى وجهه علامات لم أستطع فهمها ثم وضع يديه في جيب بنطاله وقال:

" هل لي بكلمتين معك على انفراد؟ "

طلبت من الطفلين حل واجب كلفتهما به ريثما أنظر في موضوع فارس قليلاً، ابتعدت مسافة قصيرة عنها وأبقيت حذري في متابعتها عن بعد. أخرج يداً من جيب بنطاله وأخذ يحك ذقنه في ارتباك ثم قال:

" ساحيني البارحة لم تستطع أمي التواصل معكم لقد حدث أمر طارئ "

نظرت إليه بترقب شديد أنتظر منه أن يكمل كلامه فتابع قائلاً:

" لقد جاءتنا صفقة عمل.... في الخارج..... وعلي .. أن أذهب مع أبي في سفره لأن الصفقة تحتاج إلى توقيعني فأنا المدير في شركة والدي "

فتحت فمي ببلاهة فأنا لم تساءل يوماً عن طبيعة عمل فارس، لماذا غابت هذه الفكرة عن بالي؟ فتجرات على طرح سؤالي:

" هل تعمل مثل السيد شادي؟ "

فابتسم رافعا حاجبيه وقال:

" شيء من هذا القبيل غير أن مجال عملنا في المطبوعات والورق ولدي إخوة لهم مناصب في الشركة فهي موزعة بيننا، أما شادي فهو المسؤول الأول والأخير في شركة عمي بسبب كونه وحيداً بين أئنين "

رفعت حاجبي وأومأت برأسي أبدي له فهمي ثم قال:

" عودة إلى موضوعنا... الرحلة قريبة وأعني بقريبة .. بعد ساعتين أي أنني يجب أن أتجه الآن إلى المطار "

جحظت عيناى صدمة من كلامه، وبدأ الهواء يمسي ثقيلًا، ثم أنهى حديثه قائلاً:

" هل تنتظريني حتى أعود من رحلتي صباح الأحد لأتقدم لطلب يدك من أهلك؟ "

عدت بنظري نحو الطفلين، كانا منهمكين في الفرض الدراسي، ثم قلت دون أن أنظر نحوه: " موعداً الأحد إذن "

ثم نظرت إليه فرأيتته بيتسم لي فرددت له ابتسامته وتركته عائدة إلى جاد وماسة لأتابع عمليهما، بقي واقفاً بضع لحظات يراقبني كأنه يشحن ذاكرته بصورتي لتظل مطبوعة في ذهنه فترة رحلته ثم استدار وابتعد ليلقي نظرة أخيرة نحوي ولوح مودعاً واختفى.

أنهيت دراسة الطفلين وأخذنا نجتمع الكتب والأوراق، ففوجئت بقطرة ماء تلامس يدي، رفعت رأسي عالياً فرأيت السماء ملبدة بالغيوم وبدأ المطر يهطل، فجمعنا أشياءنا على عجلة وركضنا نحو الباب الخلفي من جهة المطبخ لنحتمي من ماء المطر لئلا نبتل ونصاب بنزلة برد، وما إن دخلنا حتى

اشتدت الأمطار بغزارة، يا إلهي لم أكن على علم بأنها ستمطر اليوم! المشكلة أنني لم أرتدي ملابس دافئة، فما زلت أتدثر بعباءتي الصيفية.

اتجهت نحو السيدة هالة لتطلب من السائق إعادتي إلى البيت، ثم فجأة سمعت صوت السيد هشام يأتي من ناحية السلام من أمامي يقول لي:

" أي سائق يا ابنتي؟ ألا ترين الأمطار في الخارج؟ اجلسي وانتظري ريثما يخف سقوط الأمطار ثم سأكلف السائق بتوصيلك "

حاولت الرفض فطلبت منه أن أذهب لإيجاد سيارة أجرة فضحك بخفة وقال:

" يا صغيرتي أنا لست خائفا على السيارة أنا أخشى على روحك أنت! الحوادث تكثر في الطرقات عند بداية هطول أول موسم للأمطار، انتظري ساعة حتى تهدأ وسنعيدك، إذا كنت تخشين من خوف والديك عليك فتحدثي إليهما وطمئنيهما إلى تأخرك "

ثم مضى من أمامي مبتعداً ولم أملك إلا الانصياع لرغبته، فتناولت هاتفي من داخل حقيبتني واتصلت بأمي أعلمها بما حصل فقالت لي:

" خيراً ما فعل رئيسك، الجو مخيف في الخارج، سأنتظرك يا حبيبتي لا تخرجي من بيتهم إلا عند انتهاء هطول الأمطار، واتصلي بي لدى ركوبك السيارة "

- " لكن.. أمي هل ستكونين بخير وحدك؟ "

- " لا تقلقي علي سأشاهد مسلسلاً تركياً، فقد اهديت إلى قناة فضائية تعرض الكثير من هذه

المسلسلات! "

تبسمت ضاحكة من كلامها وتمنيت لها مشاهدة طيبة، أنهيت المكالمة بعد أن دعت لي بالتيسير والتوفيق. وجلست أنتظر انتهاء هطول المطر، وجدت رسائل وصلتني فقممت بفتحها لأجد ليان قد أرسلت لي مجموعة من الصور لها وليزن على شاطئ في إحدى البلاد الاستوائية التي لا يحل الخريف عليها الآن، كانت تبدو سعيدة جداً فأخذت أتصفح الصورة تلو الصورة وأنا أنظر إليها سعيدة بحالها مرتاحة البال أن قد وجدت ليان سكناً لروحها.

قدم السيد هشام ليقطع علي انسجامي مع صور ليان ليطلب مني الانضمام معهم لتناول وجبة العشاء، لكنني رفضت بشدة بسبب إحراجي منهم، فنظر إلي مؤنبًا وقال:
" عيب يا ابنتي! قمت عن المائدة بنفسني حتى أدعوك ولم أقبل بإرسال هالة إليك! .. جئتك بقدمي، قومي ولا ترفضني طلبي "

ثم قدمت ديمة وسحبتني من يدي وهي تقول:

" قومي يا إيلينا! أبي سيتغير مزاجه إذا رفضت كرم ضيافته "

وجرتني معها نحو مائدة الطعام، نظر الكل إلي وأعني بالكل كل أفراد العائلة من كبيرهم إلى صغيرهم، حتى أجد كان يشاركهم العشاء، تنحنحت السيدة انتصار بانزعاج، لكن ديمة تجاهلتها وسحبتني إلى الطاولة لأجلس جانبها يسارًا وإلى يميني جاد، أما مقابلي فكان السيد شادي، تقدم السيد هشام وجلس في المقدمة من الطاولة حيث ديمة إلى يمينه والسيدة انتصار بجانب السيد شادي إلى يساره.

ثم قال السيد هشام مرحبًا بي:

" ها قد حل النور على وجبة العشاء "

فابتسمت بإحراج وقلت له:

" النور نورك يا سيدي "

ثم باشر الجميع بالأكل.. عداي. فقد كنت محرجة جدًا فلكرتني الأنسة ديمة برجلها وأشارت بعينها إلى صحن الطعام أمامي، فالتقطت الملعقة وبدأت في تناول الحساء. شعرت بأجد ينظر إلي بين الفينة والأخرى لكنني تجاهلت نظراته قدر الإمكان.

ثم تكلم السيد هشام ليكسر الحاجز بيننا وبدأ بطرح أسئلته ليتعرف علي قليلاً قائلاً:

" إذن بمَ يعمل والدك يا ابنتي؟ "

ابتلعت ملعقة الحساء وأجبتته بترؤ:

" لا أب لدي، أنا أعيش مع أمي وكانت أختي تعيش معنا قبل زواجها "

لفظت السيدة انتصار مع تصنع سعلة منها بكلمة أثارت حنقي :
" لقيطة "

حدجها السيد هشام بنظرة حادة فتابعت عشاءها، ثم نظر إلي بابتسامة محرجة وقال:
" متى توفي والدك؟ "

- " عندما كنت في الخامسة "

- " ومن رعاكم في طفولتكم؟ "

رفعت ظهري لأستند على الكرسي وأجبت:

" انتقلت أُمي إلى بيت جدي الذي كان شديد المرض لكن خالي هو من أعاننا حتى أفلست الشركة
التي يعمل عندها فاضطررنا إلى الاعتماد على أنفسنا وبتوفيق الله عشنا"
فأبدت السيدة انتصار تعليقًا جارحًا آخر بصوت منخفض:
" أوه ! وجه شؤم أيضًا "

تنحى السيد هشام ونظر نحوها ثانية، ثم قال لي متجاهلاً قلة أدمها:

" ألم يكن جدك يعمل؟ "

فأجبت:

" كلا كان مريضًا جدًّا وطاعنًا في السن، لقد أنجب أُمي وخالي في سن كبيرة وأنهكه المرض فاضطر
لترك عمله لتعمل جدتي وخالي في سن صغيرة عوضًا عنه بينما أُمي كانت تعتنى به "
ثم سألتني:

" بم كان يعمل جدك قبل أن يمرض؟ "

نظرت إلى الجالسين حول المائدة كانوا يتابعون القصة باهتمام، عدا السيد شادي الذي كان يتناول
طعامه بهدوء دون أن يلتفت حوله، ثم نظرت إلى السيد هشام وأجبت به بخجل:
" كان يعمل بائعًا للذرة.. على عربة متجولة "

وكان على وشك إدخال لقمة من الطعام في فمه فتوقف ونظر إلي مبتسماً بينما عيناه شاردتان في شيء آخر ثم قال:

" سأقول لك سرّاً "

أبقيت التواصل البصري معه أبدي اهتمامي بمعرفة السر فقال:

" أنا أحب بائعي الذرة! "

فابتسمت ضاحكة بالإضافة إلى ابنتيه وأجد، ثم تابع:

" أحبهم لسبب!... "

رفع رأسه وأنزل الشوكة من يده وبدأ يحكي لي القصة وراء ذلك فقال:

" صدقي أو لا تصدقي كنت طفلاً يتيماً فقيراً معدماً ولم يكن لي أحد في هذه الدنيا سوى شقيقي

الصغير عثمان، والد فارس لأعتني به "

لم أستطع تصديق أن هذا الرجل الذي يتمتع بثراء فاحش كان فقيراً معدماً يوماً ما، ثم تابع:

" عندما أقول لك (فقير) فإنني أعني بذلك أن لا بيت يؤويننا.. كنا ننام في الحدائق العامة وعند

هطول الأمطار شتاء كنا نختبئ في أنابيب مهجورة لنقي أنفسنا من البرد. حتى دخلت يوماً ما بيتنا

أسرق كسرة خبز لأخي الذي كاد يموت جوعاً، فأمسكوا بي واقتادوني نحو صاحب البيت

ليتصرف بي، كان رجلاً كبيراً في السن لا أولاد ولا أهل له فهو لم يكن مسموحاً له بالزواج بسبب

مرض في قلبه فمنعه الأطباء من الزواج.

عندما جروني إليه، لمح قطعة الخبز في يدي مع العلم بأنه كان بإمكانني سرقة شيء آخر.. لكنني لم أكن

أفكر بالسرقة بداعي السرقة كنت خائفاً على حياة أخي، فأخذت أرجو الرجل أن أعطي أخي قطعة

الخبز ليأكل ثم ليصنع بي ما شاء، فهل تعلمين ماذا فعل؟ "

كنت مندججة بأحداث القصة كأنني أقرأ رواية فقلت دون تفكير متسائلة:

" ماذا فعل؟ "

فأجاب وعلى ثغره ابتسامة:

" كفلني وكفل أخي واهتم بنا ووصى لنا عند موته بالثمن من أملاكه فسعى لنا محاميه - الذي بات ابنه الآن محامياً للعائلة فأنا لا أنسى المعروف - بتنفيذ الوصية قبل تقسيم الميراث، فاستثمرت أمواله التي ورثناها بمشاريع صغيرة وسعيت في دراستي لأحصل على منحة لأقوم بتدريس أخي على نفقة الميراث، ثم بدأت مشاريعي تلقى نجاحًا وتزوجت وزوجت أخي وأنفقت عليه من مشاريعي وأخذت أساعده لأن مشاريعه لم تلق الربح الذي أمله.

بنيت الفردوس من العدم، شركتي الغالية والتي استثمرت فيها كل ما أملك وخاطرت بالكثير لأجلها، ومن الأرباح التي حصلت عليها اشترت لأخي شركة للمطبوعات وقام بالعمل الدؤوب عليها حتى وصلت إلى النجاح الذي هي عليه الآن"

كنت أصغي له مشدوهة من عظمة ما جرى معه وأيقنت أنها تياسير رحمانية، ثم تذكرت سبب سرده للقصة فسألته بفضول:

" لم تقل لي لماذا تحب بائعي الذرة؟"

أشار بإصبعه نحوي مبتسما وقال:

" أعجبتني، فأنت لا تهملين التفاصيل! سأشرح لك، عندما كنت أعاني الفقر والجوع وقبل إقدامي على السرقة كان ثمة بائع ذرة يبيعها على عربة، لم يكن ثريا، ولم يمتلك متجرا له كان يبيعها في الأحياء الفقيرة، كان دائما يهتف لي ليعطيني يومياً حبتين كبيرتين من الذرة بالمجان لي ولأخي لتسد جوعنا.... لكنه اختفى فجأة من الحي ولم أعد أراه وعندئذ حل بنا الجوع"

نظر في الفراغ أمامه كأنه يتخيل صورته وقال:

" لن أنساه ما دمت حياً ولو أستطيع رد جميله لي لفعلت، كان اسمه بشير صالح حامد، ويكنى بأبي النور لأن ابنه اسمه نور الدين"

ثم التقط شوكتة ليكمل عشاءه بينما نظرت نحوه والصدمة تسري في دمائي ثم قلت فجأة:

" هذا جدي رحمه الله"

سقطت الشوكة من يده في الطبق، ونظر إلي الكل مصدومين فتابعتم موضحة:

" جدي كان يدعى بشير حامد ويكنى بأبي النور، خالي اسمه نور الدين "

فقال مقاطعاً لي:

" وكان له ابنة اسمها.. "

فقلت معه بصوت واحد:

" ماريا "

ابتسمت بخجل وقلت:

" إنها أمي! "

غطى الرجل أنفه وفمه بيده مصدوماً ونظر إلي والدموع تتجمع في عينيه ثم قال:

" مستحيل... يا ابنتي هل تعلمين معنى ذلك؟ أنا أقسمت على رد جميله إلي ما دمت حياً! "

فقلت بحياء وأنا أنظر في الوجوه التي من حولي والتي تنفرس بي بصمت:

" ها قد رددت جميله بقبولي للعمل لديك، وهذا يكفيني "

فهز رأسه معترضاً وتناول منديله من على حجره ليمسح دمعته التي خائته بخروجها وقال:

" كلا، أنت لا تفهمين ما عناه ذلك الرجل لي... مكافأته يجب أن تكون أكبر من ذلك "

نظر نحو ابنه الذي بادله النظر متسائلاً إلى ما يلمح له، ثم قال بثقة بعد أن رفع ظهره معتدلاً على

مسند الكرسي:

" سأزوجك من ابني الوحيد، شادي! "

تشرى السيد شادي في طعامه، أما ديمة فغطت فمها تكبت ضحكتها المتفاجئة، وأجد أوقع ملعقة

الحساء من يده، أما زوجته وطفلاها فقد ألجمت الصدمة ألسنتهم، أما.. بالنسبة للسيدة انتصار..

فكأنها أفاقت من ذهولها لينفجر البركان الذي اشتعل داخلها لتصرخ في زوجها:

" ماذا؟! مستحيل! هذا ابني الوحيد! وتريد تزويجه إلى متشردة! لا وألف لا لن أقبل! "

نظر نحوها السيد هشام بغضب وقال:

" اسكتي ولا تسبي ضيوفي في بيتي، لا شأن لك بقراراتي! "

فقال محتجة بغضب:

" هذا ابني وليس قطعة أثاث!"

ثم تدخل السيد شادي في النقاش قائلاً:

" أبي لم تأخذ رأيي في الموضوع..."

فأشار إليه السيد هشام دون أن ينظر نحوه ونظره معلق نحو زوجته بتحد:

" لا تتدخل فيما لا يعينك"

فسقط فمه ذهولا وقال:

" أنا الذي يعينني الموضوع فأنت تقرر عني قراراً مصيرياً!"

وعادت زوجته إلى الساحة لتهاجم بدورها بقوة:

" تأخرتُ في تزويجه لأنني لم تعجبني أي فتاة من حوله لتأخذه مني! والآن تريدني أن أرميه

للقبلة!"

فنهض السيد هشام واقفاً وقال مهددا لها:

" قلت لك لا تهيني ضيوفاً في بيتي وإلا.."

وهنا وجدت نفسي أخرج من قوقعتي الخاصة لأصرخ بالجميع قائلة:

" يكفي!!!!!"

فتحولت أنظار الجميع نحوي، فأخذت نفساً وقلت بسرعة قبل أن أفقد شجاعتي التي سرت بي

فجأة:

" أنا آسفة يا سيدي، لن أقبل عرضك!"

ثم نظرت نحو السيد شادي الذي كان يبادلني نظرات مبهمة وعدت ببصري نحو السيد هشام

وقلت:

" لكم مني كل الاحترام... لكن أنا لا أنظر نحو ابنك بهذه الطريقة، لست... لست معجبة به...

ولن أرتبط به..... أرجو منك العفو"

ثم نهضت عن المائدة وتجنبت النظر في أعين الكل وطلبت من السيدة هالة التي كانت قد أطلت من المطبخ على الأصوات التي علت في الشجار أن تصحبني خارجًا لأعود إلى البيت، معذرة من الجميع حولي.

.....

في ذات الليلة أخذت السيدة انتصار تجوب الصالة ذهابًا وإيابًا بعصبية شديدة بينما ابنتها ديمة تمتع نفسها بتقليب شاشة هاتفها المحمول، وأخذت السيدة تحدث نفسها بضيق:

" تلك النذلة الفقيرة الحقيرة! ترفض ابني وتتكبر عليه! تلك الحشرة تظن نفسها أفضل من ابني؟! سأنتقم منها أقسم على ذلك أقسم!"

فقالَت الأنسة ديمة بضجر:

" أه أمي أكلت رأسي كفى! البنت لا تريده لماذا أنت غاضبة؟ ألم تصنعي مشكلة ومشهدًا على

العشاء حتى تمنعي هذا الزواج؟! "

فأجابت بحنق شديد:

" بلى! لكن نحن من يرفض لا هي مقامنا أعلى من مقامها! من تكون؟ إنها حشرة! ابني كل الفتيات

مستعدات للتضحية بأنفسهن من أجل ابتسامة منه!"

فقالَت الأنسة ديمة لتهدئ من روع أمها:

" أمي اهدئي هي لم ترفضه لأنها ترى نفسها أفضل منه، سأبوح لك بالحقيقة لكن لا تقولي لأحد.. "

فنظرت نحوها السيدة انتصار متسائلة بغضب فقالت الأنسة ديمة بعد أن نظرت حولها للتأكد من

عدم سماع أحد لكلامها:

" هي رفضته لأن قلبها معلق بآخر، إنه فارس... بينها قصة حب عذري عندما يعود من السفر

سيطلب يدها للزواج "

اعتلت الدهشة ملامح السيدة انتصار، وقالت متسائلة غير مصدقة:

" من أين جئت بهذا الكلام؟ "

فأجابت بثقة:

" هو قال لي، ورأيتها في الحديقة اليوم وهو يعدها بأن يتقدم لطلب يدها بعد عودته من السفر " تجمدت ملامح السيدة انتصار مشدوهة بما سمعت ثم غادرت ابنتها الصالة نحو غرفتها لتريح جسدها وتحصل على قليل من النوم بينما أمها جلست على حافة الأريكة وهي تترجم ما قالته ابنتها لتظهر تلك الابتسامة الخبيثة على محياها وهي تحيك لإيلينا شرا بهدف الانتقام منها.

الفصل الثاني والعشرون

أحسست بدغدغة تزحف على ذراعي فاستيقظت من فوري لأجد المشاكس يزن يطبع قبلات هنا وهناك عليها، كنت قد غفوت سابقاً في الجناح المخصص لنا في الفندق على السرير الكبير، ويقابله باب الشرفة الذي تركته مفتوحاً لتداعب النسيمات اللطيفة الأجواء، ويبدو أنها تسببت في إدخال النعاس إلى عيني فغفوت قليلاً.

نهضت جالسة وأنا أفتح وأغلق عينيّ مراراً لتعتاد على ضوء الشمس الذي يتسلل من باب الشرفة المفتوح، أما يزن فأخذ يكمل مداعبته لي لطبع قبلات على رقبتي وخلف أذني وخدي، ثم وضعت يدي على صدره لأبعده عني وقلت له بصوت نعس ثقيل:

" يزن ليس الآن! أريد الاطمئنان على أمي وإيلينا"

وجذبت هاتفي عن المنضدة فأمسك بيدي ليمنعني قائلاً بتذمر:

" اتصلي بهما في وقت آخر"

فاعترضت بقولي:

" لكنني لم أطمئنهما عليّ اليوم ستقلقان!"

خطف الهاتف من يدي وألقاه على السرير، ثم باغتني بحمله لي بين ذراعيه لأستقر جالسة في حجره، احمر وجهي على الفور، لماذا لا أستطيع الاعتياد على لمساته وأحضاناه بعد؟ ما زلت أحمر خجلاً كلما همس لي بكلمة، علي أن أستعيد جبروتي وثباتي، فأنا لست كالفتيات الساذجات.. وكأن ذات الفكرة تدور في رأسه فقال مقترباً مني هامساً في أذني:

" كفاك حياءً لؤلؤة، عليك الاعتياد على وجودي حولك في كل دقيقة من حياتك وحتى مماتك! لن يفرقني عنك إلا الموت."

أغمضت عينيّ لأخفي خجلي وقلت:

" رجاء يزن أمهلني وقتًا حتى أعتاد على كل هذا، فهذه تجربة جديدة علي لم أجربها سابقًا....

ثم..... أنا... لم أكن أعلم أنك..... تتمتع بكل هذه الجاذبية"

وأشحت وجهي بعيدًا بعد اعترافي فضحك مقهقها وقال:

" لا يا عم! وهل كنت أرثدي حجابًا و جلبابا لكي لا تلحظي جاذبتي!"

نظرت نحوه مؤنبة وقلت:

" أنت تفهم قصدي! يزن كفى!"

فضحك مرة أخرى بصوت منخفض هذه المرة ثم نظر في عيني وقال والرغبة تحل في عينيه:

" أنا المحظوظ فيك.. سرقت كل تفكيري وحواسي، خشيت أن أؤذي نفسي من شدة محبتي لك..."

كما أنك جميلة جدا بلا حجاب.. هل ذكرت لك أنني أعشق الشعر القصير؟"

فضحكت بدوري وقلت:

"أنت تقول ذلك لأنك تحبني"

فهز رأسه معترضًا وأجاب:

" كلا. أنت جذابة وأنا لا أحبك.... بل أعشقتك! أهيم بك.. تائه.. حائر في بحر حبك الذي يزداد

عمقًا كل لحظة وكل ثانية! لؤلؤة... أنا متيم بك"

كاد وجهي ينفجر من شدة حمرة، وطبعت على محياي تلك الابتسامة البلهاء التي لا تتماشى مع قوتي

وجبروتي، فعضضت على شفتي لأمنع نفسي من الابتسام، فقال بصوت ثقيل:

" كم مرة نهيتك عن عض شفتك أمامي؟ هل تريدني ذبحي؟"

نهض واقفًا وهو ما يزال يحملني ودار بي حول السرير وألقاني عليه، خلع قميصه لأتأمل من جديد

عضلات صدره وبطنه البارزة وكلما رحلت عيني إلى تلك العلامة يعود التساؤل يجول في بالي عن

سبب هذه العلامة ولماذا تشبه حدوة الفرس بالذات؟ ثم تلاشت هذه الأفكار فور تغطيته مجال

النور بجسده المتكى فوقي، قرأت في عينيه رغبة ولهفة لم أعهد لها يوما من عيني بهاء.

قرب رأسه مني ليزرع بستانا من الحب على وجنتي، ثم رن هاتفي فجأة فزجر باستياء، حاولت إقناعه بالتوقف قليلا لأرى هوية المتصل لكنه أبى.

أصر هاتفي على الرنين مجدداً فنهض مستاءً بغضب وهو يمرر أصابعه في خصلات شعره، شعرت بتأنيب الضمير تجاهه.

التقطت هاتفي ورفضت المكالمة التي كانت واردة من أمي، فنظر نحوي متعجباً من سلوكي، ثم قلت مطمئنة لأعيده إلى جوه:

" سأرد عليها لاحقاً..... "

ثم اقترب مني مجدداً وهو يبتسم وما إن جلس على السرير وقبل أن يستطيع لمسي مجدداً رن هاتفي مرة أخرى، ففز Bazعاج.

أمسكت الهاتف لأرفض المكالمة مرة أخرى لكنه أوقفني قائلاً:

" ربما تريدك في موضوع مهم وإلا لما أصرت على الرنين، استقبلي المكالمة لأنها ستقطع علي لحظتي مجدداً أنا متأكد "

حاولت تصنع ابتسامة لأزيل الغمامة من صدره لكنني لم أستطع، استقبلت المكالمة ووضعت الهاتف على أذني وقبل أن أتمكن من قول شيء بادرت هي بقولها:

" ليان حبيبتي! أعلم أن الوقت ربما غير لائق الآن وأنت مع زوجك لكن أريدك في موضوع مهم "

شحب وجهي ولاحظت يزن تغير لوني فاقترب مني ووضع يده على كتفي ليطمئن أن كل شيء بخير، ثم قلت مقاطعة لها وقلبي يخفق بشدة خوفاً مما ستقوله:

" ما الأمر؟ هل أصاب إيلينا مكروه؟ "

فقلت:

" لا.... الأمر هو... "

فقلت وقد شعرت بالدم يجف في عروقي:

" قولي ما الأمر؟ "

فأجابت على الفور:

" سأمحيني يا ابنتي لكن سأطلب منك أن تعودي من رحلتك قبل يوم الجمعة لأن زفاف أختك نهاية هذا الأسبوع "

تسمر وجهي من الصدمة وأنا أحاول فهم عبارات أمي، إيلينا؟.. زفاف؟... ستتزوج أختي؟.. متى خطبت؟ ممن؟ فبادرتها بسؤال متفاجئة لأرى الدهشة مطبوعة على ملامح يزن عقب سؤالي:
" ماذا؟ إيلينا ستتزوج؟ "

إيلينا

أنهيت ارتداء ملابسني لأتجه نحو عملي، ففوجئت بجرس الباب يُقرع، تبادلت مع أمي نظرات التساؤل عمن يمكن له القدوم إلى بيتنا في هذا الوقت المبكر جدًا من الصباح، فاتجهت صوبه لاستقبال الطارق، وكانت صدمتي في رؤية من يقف خلف الباب... آخر شخص توقعته رؤيته على عتبة شقتنا... السيدة انتصار أم السيد شادي!
قالت موجهة حديثها إلي حينما طال بي الصمت من صدمتي برؤيتها:
" هل تبقين ضيوفك في العادة خارجًا هكذا؟ "

استجمعت شتاتي واعتذرت منها ودعوته إلى الداخل، ولجت رجلها عتبة الباب وأخذت تنظر حولها باشمئزاز واضح على محياها، سرت أمامها وأشرت إليها بالجلوس على الأرائك في غرفة المعيشة، أطلت أمي من المطبخ يعتربها الفضول لمعرفة الضيف القادم.
تقدمت ومحياها مرسوم بعلامات التساؤل عن هوية هذه المرأة فقلت لأعرفها عليها:
" أمي هذه السيدة انتصار زوجة السيد هشام "

فمدت يدها لتصافح السيدة مبتسمة بود لها، فمدت السيدة انتصار يدها وصافحت أمي بأطراف أصابعها بتعالٍ وكبر، نظرت نحوي أمي ملجومة من تصرفها الوقح، فتصنعت ابتسامة لأخفف من جو التوتر.

نظرت السيدة نحوي وقالت:

"أريدك في كلمتين.... على انفراد"

عندما نطقت بآخر كلمتين نظرت نحو أُمي بجفاء، فاعتذرت أُمي منها بخجل شديد وقالت عائدة إلى المطبخ:

"س... سأعد القهوة... رجاء خذي راحتك"

جلست على الأريكة المقابلة لها فأشارت إلي أن أجلس على الأريكة الملاصقة لأريكتها، فنهضت واستمعت لأمرها. نظرت نحوها بحدة أنتظر منها البوح بسبب مجيئها، وخصوصا بعد إهاناتها المتكررة لي البارحة. ابتسمت بخبث وقد لمعت أسنانها البيضاء وقالت أخيرا:

"لن أطيل عليك، سأدخل في صلب الموضوع، جئتك أطلب يدك للزواج من ابني شادي"

ازدادت ابتسامتها الخبيثة اتساعا عندما لاحظت دهشتي، استدركت نفسي وأجبتها ببرود:

"لكنك كنت الأشد اعتراضًا البارحة ثم أنك شمتيني بصفات مسيئة"

فابتسمت ضاحكة بخفة ورفعت رجلاً فوق الأخرى وقالت:

"أعلم، لكن زوجي مصر على هذا الزواج.. وعندما يقرر هشام شيئاً لا يتراجع أبدا! وفي النهاية

المرأة تسمع لكلام زوجها"

لم أرتح لنبرتها في الحديث وأنا متأكدة تماما من كونها لا تهتم لطاعة الزوجة لزوجها، لكن لم غيرت رأيها هكذا فجأة؟ أخذت نفسا عميقا وزفرته على مهل وأجبتها:

"إذا كان السيد هشام أرسلك إلى هنا فأنا مستعدة للذهاب إليه برجلي ورفض العرض مرة أخرى"

هزت رأسها وهي تبسم بخبث وقالت:

"زوجي لا يعلم أنني هنا، جئتك بمحض إرادتي"

توجست في داخلي خيفة منها ومن نواياها، لكن أبيت إظهار خوفي منها حتى لا تغتر بجبروتها أكثر وأجبتها متصنعة الصلابة:

"سيدتي أقدر لك مجيئك، لكن اعذريني أنا أرفض الارتباط بابنك"

رفعت إحدى حاجبيها باستنكار ثم زمت شفيتها وقالت:

" لماذا؟..... أسبب فارس؟"

اتسعت حدقتا عيني بسؤالها المباغت فأجبته بسؤالني:

" ف... فارس؟ عم.. تتكلمين؟"

هزت رأسها تظهر استياءها وقالت:

" أنت تعلمين تماما عم أنكلم.. ديمة قالت لي كل شيء! هل كنت تظنين أيتها المسكينة أن فارس

حقا سيأتي لطلب يدك؟ إنه يتلاعب بك كما تلاعب بمشاعر الفتيات من قبلك، فارس معروف جدا

في العائلة فهو زير نساء! نقطة وانتهى السطر"

شعرت بغصة تعلو سقف حلقي هل يمكن أن يكون كلامها صحيحا؟ ربما تكون كاذبة لكنني

رفضت الرضوخ لها فقلت:

" وإن يكن، ففي كل الحالات أنا رافضة لفكرة الزواج هذه فاعذريني وأرجو منك التكرم بالمغادرة،

فلدي عمل أذهب إليه"

صرت أسنانها بتعال شديد ولم تتحرك من مكانها ثم قالت بلهجة خيفة أشبه بفحيح الأفعى:

" اسمعي أيتها الفتاة، بما أنك تصرين على موقفك فسألجأ إلى طريقة أخرى... دعيني أصوغها بهذه

الكلمات، إما أن تقبلي بابني زوجاً لك أو تتسبين في طلاق شقيقتك الغالية"

شعرت بالدم يتجمد في عروقي حاولت التقاط أنفاسي وقلت متسائلة:

" ماذا تعنين؟"

فتبسمت ضاحكة من جديد وقالت:

" السيد هاني والد يزن هو صديق مقرب من العائلة وعلاقتي به وثيقة جدا فهو أحد الشركاء

المساهمين في الجمعية الخيرية التي أديرها... كما أنه كان أشد الناس رفضا لفكرة زواج ابنه الوحيد

بفتاة..... لا قيمة لها... لكنه رضخ لرغبة ابنه بسبب الضغط الذي شكله عليه مع كل معارف

الشباب، لكنه يبحث عن ثغرة في هذه العروس ليطلقها من ابنه"

ثم أخرجت هاتفها المحمول من حقيبتها وقلبت بشاشته، نظرت إلي بخبث واضح ومدت الجهاز نحوي وقالت تريني صورة ما:

"كالخيانة الزوجية مثلاً!"

نظرت إلى شاشة هاتفها المحمول فرأيت صورة لليان تقف على جسر ما في حديقة تمسك بياقة شاب بينما تلاصق رأسها على رأسه، نظرت إلى وجه الشاب جيداً لأرى مازن جارنا!! ماذا؟ مستحيل! متى خرجت معه؟ لم تقل لي ليان أبداً أنها تبادل مازن أي مشاعر نحوه؟ ما الذي يجري معها؟ إنها تحب يزن!! أنا لا أفهم!

أعدت نظري نحو تلك الثعبان فقالت بابتسامة توحى بالشر الذي يقبع في داخلها:

"طبعاً في حال موافقتك على الزواج فإن هذه الصورة لن تصل إلى السيد هاني وهذا وعد مني لكن في حال إصرارك على الرفض... ف... ههههه... ستعود أختك الحبيبة إلى بيت أمها مطلقة مهانة... مفضوحة! ... إذن ما قرارك؟"

شعرت بشحوب وجهي يزداد وأصبح التنفس صعباً كأنني أغرق، وبدأت أتصب عرقاً رغم برودة الجو، أغلقت عيني وتذكرت فرحة ليان عند قدوم يزن لطلب يدها وفرحتها في حفل زفافها ونظراتها المحببة نحو زوجها.... تذكرت كلامها عن حبها المتنامي نحوه.... وتعلقها المتزايد به، بدأت أذرف الدموع وأنا أذكر نفسي بالصعاب التي خاضتها ليان في طفولتنا وتضحياتها المستمرة من أجلي، لن أسمح لأحد بسرقة فرحتها لن أسمح لهذه الشيطان بإيذائها حتى لو رميت نفسي في النار تضحية لأجلها.

رفعت رأسي والدموع في عيني وأجبتها وصوتي يحمل الكثير من الألم:

"أنا.... موافقة.... لكن إذا تسببت لها بالأذى بعد ذلك فلن أسامحك! أقسم وقتها بأن أنتقم منك!"

أعدت هاتفها إلى داخل حقيبتها تبسم بانتصار وقالت بصوت مرتفع لتُسمع أمي في المطبخ:

"آه تهانينا لك يا صغيرتي لا أصدق أنني سأحصل على ابنة ثالثة!"

فخرجت أمي من المطبخ والدهشة تعلو محياها وتساءلت بفضول:

"تهانينا على ماذا؟"

فأجابت السيدة:

"ابتنتك وافقت على الزواج من ابني الحبيب شادي!"

ثم تصنعت البكاء بفرح، ذهلت أمي ولم تجد كلمات ترد بها عليها ثم نظرت إلي وقالت متسائلة:

"ولماذا تبكين يا ابنتي؟"

فأجابت تلك الثعبان تصطنع السعادة:

"دموع فرح يا عزيزتي فقد طلبها زوجي البارحة لابني لكنها كانت خجولة ولم تعطي ردًا وجئت

اليوم من أجل أن أتوسلها لترضى، فابني متيم بها!"

نزلت أمي على ركبتها أمامي وأمسكت بوجهي ووجهت سؤالها إلي:

"هل حقًا ما تقوله هذه السيدة؟ هل كنت على علم بنيته بالزواج منك؟"

تجنبت الكلام حتى لا تشعر بكذبي، فأومأت لها برأسي مكرهة فاحتضنتني بسعادة وقالت:

"ما هذه الأخبار السعيدة؟ لماذا لم تقولي لي منذ البارحة بدل أن تصدميني بهذا الخبر الآن؟"

فأجابت تلك الوضيعة عني:

"هي خشيت عليك إذا تزوجت بدورها فستبقين وحيدة"

اشتد عناق أمي لي بحرارة وقالت لي مطمئنة:

"لا يا حبيبتي لا تمنعي نفسك من الزواج لأجلي! لي رب يرعاني، وهنا حولي الجيران ولدي أخي

ليعتني بي، أرجوك يا عزيزتي لا ترفض فكرة الزواج، دعيني أفرح بك أنت أيضا ليرتاح قلبي إلى

مصير حياتكما"

أخذت أبكي بحرقة في أحضانها، هي لم تفهم سبب بكائي طبعًا، ولم أقل لها شيئًا بدوري بل سرت

مع التيار.

بعد أن هدأت وتوقفت دموعي ابتسمت السيدة انتصار بخبث ثانية وقالت:

" سنقيم حفل الزفاف في عطلة نهاية الأسبوع "

فنظرت لها أمي متفاجئة وقالت:

" لكن ألن تطلبوا يدها بشكل رسمي؟ "

فهزت السيدة انتصار رأسها مستنكرة وقالت:

" أنا آسفة يا سيدة لا داعي لذلك حصلت على الموافقة من الفتاة لن نحتاج إلى تدخل أحد خارج

نطاق الأسرتين لو سمحت.. ثم أن حفل الزفاف لن يحضره إلا أفراد الأسرتين طبعًا مع عائلة يزن

فهو بات فردا من عائلتكم الآن، لا نريد معازيم كثر للحفل، وهذه رغبة زوجي "

نظرت أمي نحوي باستهجان من كلامها فوضعت يدي على كفها لأطمئنها ولكي لا تناقشها ثم

تابعت:

" بالنسبة للمهر سيكون بالمبلغ الذي يراه زوجي مناسبًا وستستلمه ابنتك كاملاً ولا أريد منها أن

تتعب نفسها في التجهيز للزفاف فنحن سنتكفل في كل شيء! فقط عليكم أن تحضروا إلى القصر يوم

الجمعة صباحًا لنزين العروس وأمها ونحتفل بها بعد عقد القران... لا تنسي لا يوجد معازيم فقط

العائلتين "

كانت أمي تصارع عواطفها من الصدمة البادية عليها كأنها صفعت بالماء الحار، نهضت السيدة

انتصار واستأذنت لتمضي، فسرت معها نحو الباب وخرجت دون أن تلتفت نحونا.

عدت إلى أمي لأتأكد من كونها بخير فتقدمت نحوي وقالت وهي تحاول السيطرة على انفعالها:

" هل فقدت هذه المرأة عقلها، لا تقولي لي أنك موافقة على هذه السخافة! "

نظرت إليها نظرة جادة مطولة ثم قلت:

" طبعًا أنا موافقة ليس مهمًا أن أقيم حفل زفاف كبير، المهم أن أستر في بيت زوجي دافئ، فالسيد

هشام رجل شهم وابنه.... وابنه شاب.... ح.. حنون "

أجبرت نفسي على التلطف بآخر كلمة رغما عني فأنا لا أرى فيه شابًا نحونا إنه مخيف ومتغطرس كأمه

تماما.

غطت أمتي وجهها بكفي يديها وقالت:

" كيف أقول لمعارفي وأقاربي إيلينا تزوجت دون أن أدعوهم؟ "

ربت على كتفها وقلت:

" بسيطة قولي لهم أن عائلتهم لم ترد حفلا كبيرا، وكان الزفاف مقتصرًا على عقد القران فقط "

لم أستطع إقناعها بسهولة، ثم ارتأيت أن أتركها بمفردها لتحلل الموضوع وأمضي نحو عملي فقد

تأخرت كثيرًا ولا ينقصني غضب السيد شادي الآن.

كنت غارقة وسط أفكارتي التي كانت تحوم فوق رأسي كقصص ملحمية تتصارع في أيها سينجح في

قتل آمالي وأحلامي، عندها وصلتنى رسالة على هاتفي من رقم مجهول، فتحتها لأصدم بمحتواها:

" زواجك بابني يجب أن يبقى سرًا عن كل من تعرفينه في الشركة وإلا..... "

ثم وصلتنى رسالة أخرى تحتوي صورة ليان ومازن التي أرتنى إياها السيدة انتصار، طبعًا علمت

أنها هي من أرسلت الرسالة، لكن من أين حصلت على رقم هاتفي؟! بل من أين جاءني هذه

المصيبة؟ أغمضت عيني وأخذت أدلك صدغي بأصابعي لأخفف من ألم رأسي الذي كاد ينفجر.

خطوت المبنى حائرة ضائعة لا حياة على وجهي، عندما جلست وثبتت سارة نحوي للاطمئنان علي

قائلة:

" إيلينا تبدين شاحبة ما الأمر؟ هل أنت بخير؟ ولماذا تأخرت؟ "

لم أجبها كنت شاردة في عالم آخر من القهر والضيق، ثم ورد اتصال هاتفي للمكتب فرفعت سارة

الساعة واستمعت للجهة المقابلة، ثم نظرت إلي بقلق وقالت بعد أن أغلقت الساعة منهيبة المكالمة:

" السيد هشام، رئيس الشركة يطلبك إلى مكتبه "

حركت عيني نحوها أستوعب ما قالت، ثم دون أن أتكلم نهضت وتوجهت نحو مكتبه وتجنبت

النظر أو التحدث مع أي كان.

وصلت إلى المكتب ونظرت نحو السكرتيرة ببرود وسألتها:

" هل طلبني السيد هشام؟ "

فأشارت إلي بجفاء أن أدخل مكتبه، قرعت الباب بأصابع متييسة كالموتى وولجت فور سماعي له الإذن بالدخول، عندما رأني قال:

" يا سبحان الله آخر مرة دخلت مكتبي كنت أشجع هاني على تزويج ابنه دون علمي أن العروس هي أختك "

فنظرت إليه ببلاهة أحاول تذكر متى كانت آخر مرة دخلت فيها مكتبه، فتذكرت ذلك حينما طلب مني أن أعود إلى القصر لتعليم حفيديه، كان يتكلم من خلال الهاتف لكن لم يخطر في بالي أنه كان يتحدث عن زوج أختي يا للصدف العجيبة!

ثم قلت له لأعيد العجلة نحو الموضوع الرئيسي من استدعائه لي:

" لقد طلبت رؤيتي "

فصفق بيده مرة واحدة ونهض عن الكرسي وتوجه نحوي ووقف أمامي، فشعرت برهبة ثم قال متسائلاً بلهفة:

" هل حقاً ما تقوله انتصار؟ هل قبلت بشادي زوجاً لك؟ "

ازدرمت ريقى بمرار ثم أومأت برأسي دون أن أظهر على وجهي أي انفعال من أي نوع كان، ثم ابتسم ووضع يديه على ذراعيّ فرفعت رأسي أنظر إليه، كان يبتسم إلي ابتسامة حزينة ثم قال:

" سأحرص على إسعادك يا ابنتي، لو ضايقتك شخص فسأقف له بالمرصاد أقسم لك أنني سأغير حياتك إلى الأفضل "

كان محقاً في نقطة واحدة في كلامه، نعم ستتغير حياتي لكن ليس نحو الأفضل.

أمرني بالعودة إلى البيت لأخذ إجازة قبل الزواج، فوافقت دون جدال، شعرت بأن الإجازة أفضل لي حتى أتجنب مخالطة أي بشر من حولي، ففي داخلي شيء يتعفن على وشك أن يقضي على كل ما تبقى لي من عزم.

عدت إلى المكتب لأحمل حقيبي وأغادر فأوقفني سارة على الفور وشدتني من ذراعي متسائلة بقلق:

" إلى أين؟ إيلينا مابك؟ ما الأمر؟ "

اضطرت لأن أكذب عليها مكرهة حتى أحمي ليان من تهديد السيدة انتصار فقلت:

" لوحظ تقاعس في عملي..... بسبب... حزني على فراق ليان... فأذن لي السيد هشام بإجازة حتى نهاية الأسبوع "

فعلقت شهد بسخط:

" رباه! إذا كل واحد فينا سيأخذ إجازة على حزنه على فراق أخ أو أخت ستغدو الشركة أضحوكة! "

نظرت نحوها بغضب فما أمرّ به يكفيني، حينها وجدت نفسي أستلهم شجاعة لا أدري من أين

جاءتني، لكن يقولون الضغط يولد الانفجار، فأجبتها بجفاء قاتل:

" اهتمي بشؤونك بدل القيل والقال من تابع الناس مات همًّا! ولا تأكل نيران الحاسد إلا صاحبها "

نهضت متفاجئة عن كرسيها وقالت تهاجمي بصوت مرتفع:

" حاسد! تظنينني أحسدك؟! على ماذا؟ ههه! هل نظرت في المرأة جيدًا "

فأجبتها وأنا ما زلت متعلقة بهذه الشجاعة:

" طبعًا نظرت! وفخورة بما رأيت ولو تجرأت وارتديت أعني خلعت مثلك لضاع بريقك الزائف "

لم أنتبه إلى وقوف السيد شادي خلف شهد إلا بعد أن أنهيت كلامي فأغمضت عيني وعضضت على

شفتي بندم على جملتي، فنظرت شهد خلفها لترى سبب تغير حالي ففوجئت به يقف خلف مكتبها

ويداه في جيبه وينظر بيني وبينها نظرة مبهمة، محملة ببروده المعتاد، ازدردت ريقها وتنحنحت

وتظاهرت بأخذ بعض الأوراق إلى قسم التصوير، ثم هربت لتتركني وحدي أواجهه.

نظرت إلى سارة التي كانت متسمرّة في مكانها وهي تنظر إلي بخوف بائن على وجهها، فتجاهلت

وقوفه وألقيت تحية وداع لها ومضيت خارج المكتب.

ظننت أنني نجوت بجلدي فما إن وصلت السلام حتى سمعت صوته يناديني لأعود إلى مكتبه.

نظرت خلفي فوجدته يقف على عتبة الباب ثم استدار عائدًا إلى مكتبه يسبقني إليه.

زفرت بغضب وأسى على حالي، ثم سرت عائدة من حيث خرجت فوجدت الجميع يرقبني كأنهم يشاهدون مسرحية من نوع ما، فازداد شعوري بالحنق.

لم أنتظر من السكرتيرة أن تسمح لي بالدخول، وجدت نفسي أقتحم المكتب وأقف على بعد منه وأقول:

" تكلم بسرعة لو سمحت لأنني سأمضي من هنا"

لحقت بي السكرتيرة وعلى وجهها علامات الفزع من قلة احترامي وولوجي بهذه الطريقة الهمجية، كان السيد شادي يقف عند النافذة فقال لها:

" سمية أغلقي الباب واتركينا وحدنا"

استمعت إليه على الفور وأغلقت الباب خلفها، ثم زفرت بقوة واقترب من حيث أقف وهو يقلب كفيه، فشعرت بشجاعتي تجبو والفرع يزداد، لكنني حاولت التحكم بفرعي وأخذت أصارعه ذهنيًا، فلم أتنبه إلى وصوله أمامي مباشرة، حتى قال:

" يبدو أنك أخذت بنصيحتي!"

رفعت رأسي أنظر نحوه لأنظر منه التوضيح فابتسم بخفة أخرجتني، لم أكن أعلم أن ابتسامته جذابة هكذا، لا إيلينا! ركزي!
هز رأسه وقال:

" عندما يحين موعد نهاية الأسبوع سأؤكد بنفسني من كلامك للآنسة شهد"

قطبت حاجبي في عدم فهم، فازدادت ابتسامته اتساعًا ليقول:

" ألم توافقي على الزواج مني؟ أم أن أمي تكذب؟"

شحب وجهي ثم احمر فجأة، ثم بدأ يخوض صراع الألوان.. الآن فهمت ما يرمي إليه، تراجعت خطوة إلى الوراء وأنا أمسك بعباءتي خوفًا منه. فابتعد سائرًا نحو مكتبه متسائلًا:

" لم تقولي لي... إلى أين كنت ذاهبة؟"

فأجبتته بامتعاض:

" السيد هشام أذن لي بإجازة من أجل الزوا... .."

وهنا توقفت بسرعة، لم أتمم آخر كلمة فقد شعرت بالحنج من نطقها أمامه، فرفع بصره نحوي

وقال:

" حسنًا يمكنك المغادرة من أجل إجازتك.. "

فاستدرت للخروج ووضعت يدي على المقبض لأفتح الباب فتمم عبارته وقال:

" للزواج!"

أغمضت عيني وأخذت نفسًا عميقًا وخرجت مولية ظهري له وتركت الباب مفتوحًا وغادرت

المبنى.

الفصل الثالث والعشرون

زفرت بغضب وقد نفذ صبري:

" ألم يرد بعد؟ هل يطيل عليك بالرد هكذا عادة؟"

مسح يزن جبينه بيده ونفخ زفيره متعباً وأجاب:

" لا! لا يطيل علي بالرد هكذا عادة"

فقلت بحدة متسائلة:

" إذن أين هو؟ ولم خطر في باله فكرة الزواج هذه؟ ولم يقل أو يلح لك بشيء؟ أليس صديقك

الذي لا يخفي عنك شيئاً؟"

فرمى الهاتف من يده على السرير وقال بنفاد صبر هو الآخر:

" ليان! أرجوك دعينا نحزم أمتعتنا ونعود إلى الديار ونفهم هناك ما حصل في غيابنا!"

اتكأت على حافة الطاولة بجانب كرسيه الذي يجلس عليه، شعرت بالأسى نحوه، ما زال عريساً في

شهر العسل ويريد الاستمتاع بصحبة زوجته لا أن يصيبه الهم بسبب مشاكل عائلتها التي لا تنتهي.

طأطأت رأسي إلى الأسفل وأجبت:

" أنا آسفة لا ذنب لك حتى أفسد عليك إجازتك.."

رفع بصره بعينه الزرقاوين اللامعتين تحت أشعة الشمس التي تنساب بخيوطها الذهبية نحو الغرفة

من الشرفة المفتوحة، فازدانت عيناه بلألئ براقه جعلت من زرقتهما تتمرّد على كل معاني الجمال،

وأجاب:

" هل تمازحيني؟ وجودك في حياتي يعتبر إجازة لي من كل الهموم!"

ابتسمت بصدق نحوه ثم أضاف:

" ثم أننا لن نستطيع الاستمتاع بوقتنا هنا وبالنا منشغل بما يدور بين إيلينا وشادي! وبالنسبة لرحلتنا

يمكننا تعويضها لاحقاً في العطل المدرسية لا تقلقي!"

وضعت يدي على شعره أمرر أصابعي بين خصلاته الناعمة مبتسمة له ولأول مرة أبادر أولاً بعرض
مشاعري نحوه ونطقت دون تفكير:

" أحبك "

فنهض واقفاً وقال متحمساً كأنه طفل صغير أحضرت له حلوى:

" أعيدها! "

فتبسمت من جديد وقد علت الحمرة خديّ وقلت مرة أخرى:

" أحبك "

فانفرت أساريره بابتسامة مهللة ومد يده ليمسك بكف يدي وطبع عليها قبلة حنونة، ثم لف
ذراعيه حول وسطي وقال:

" ما رأيك لو نقضي وقتاً ممتعاً أولاً ثم نحزم أمتعتنا؟ "

فضحكت على اقتراحه وأخفضت بصري نحو الأسفل وأجبت:

" لا مانع لدي "

إيلينا

أويت إلى فراشي فراشي لأصارع دموعي، كذبت على أمي حتى لا تقلق علي وقلت لها أنني أعاني

من نزلة برد، حتى لا تشعر بقهري وانزعاجي. كانت بين الفينة والأخرى تأتي للاطمئنان علي ثم

تسألني عن الزفاف الذي لا أعرف عنه شيئاً، تمنيت لو تنشق الأرض وتبتلعني وتنتهي هذه

السلسلة. ثم بدأت بطرح تساؤلاتها الواحد تلو الآخر:

" ألم تشعر يوماً بمشاعره تجاهك؟ متى رغب بك ابنها؟ هل تعلمين وأخفيت الموضوع عني؟

أليس هو ذاته صديق يزن الذي شهد على الزواج؟ لحظة أليس هو مديرك الذي خصم مرتبك؟

كيف لك أن تحبني عني موضوعاً مهماً كهذا؟ لا بد أنه لمحك في أثناء دروسك الخصوصية مع ابني

أخته، لكن من غريب ألا أحد من العائلة لمَّح إلى ذلك سابقاً... ألهذا قام بتوصيلك إلى العمل؟ لماذا لم يتحدث بشيء إلى يزن على الأقل؟ بدت ليان متفاجئة جداً من موضوع الزفاف هذا " كنت أدفن رأسي بين كفي يديّ مضجرة من أسئلتها المتتالية وعند آخر جملة سمعتها رفعت رأسي فقطعت عليها أفكارها أسألها باستهجان واضح:

" قلت لليان؟!!! أمي! لقد أفسدت عليها إجازتها!"

نظرت نحوي تشزرنى وقالت:

" كيف لي ألا أخبرها؟ هل تريدني أن تعود لتكتشف أن أختها الصغرى تزوجت دون علمها و حضورها لزفافها؟!"

لم أجادلها فهي كانت على حق. لكن المسكينة لم تفرح بعد! أفسدنا عليها إجازتها، شعرت بالندم في قلبي والحسرة عليها وعلى نفسي.

عادت ليان من سفرها في ليلة ذاك اليوم وجاءت إلينا تظمئن على الأحوال وتستفسر عن سبب الزواج، لم تراعي أمي تعبها من مشاق السفر فسردت لها كل شيء قالتها السيدة انتصار لتقابل الموضوع بسخط مثل أمي، فشعرت بالانزعاج والضيق فأنا لا أريد الحديث في الموضوع بتاتا، لو تعرفين يا ليان سبب قبولي هذا الزواج لما عاتبتي.

لكنني آثرت البقاء صامتة وأختصر الجدل معها. ثم وردها اتصال من زوجها، طالت المكالمة مدة من الزمن ثم أنهتها ونظرت نحونا وقالت:

" يبدو أنه يريد الزواج بناء على رغبة أبيه"

نظرت أمي نحوها متسائلة فقالت ليان موضحة:

" طلب يزن منه أن يلتقي به، فقال له أنها رغبة أبيه لأنه أصر على زواجه بإيلينا فرضخ لطلب والده"

لوحث أمي بيديها متعجبة وقالت:

" لكن لماذا والده مصر هكذا؟ "

هنا عند هذا الحد لم يعد في وسعي احتمال كلمة أخرى فنهضت غاضبة وقلت دون اهتمام لوقع
كلماتي فقد ضاقت بي الأرض بما رحبت:

" هذا يكفي! رجاء يكفي!! أنا لا أعرف ما الذي يزعجكما إلى هذه الدرجة؟ ألسنت راضية بكل
قراراتهم؟ أقمتم حفلاً كبيراً أم لم أقم... دعوت الأهل والأصحاب أم لم أفعل.... عشت فترة
خطوبة و جهزت لزفافي أم لم أجهز... هذا كله لا يهمني! ما يهمني هو أن ينتهي هذا الزفاف على خير
وأمضي في حياتي، لقد تعبت حقاً، أرجوكم ارحماني!"
بررت أمي موقفها بقولها:

" حبيبتي نحن نطمح للأفضل لك، لا أريدك أن تقارني نفسك بليان غدا وتندمين على إضاعة
الفرصة بفرحك، ثم لا يمكنك الزواج دون ولي ففي زفاف شقيقتك قام عمك بتوكيل خالك
بالأمر بسبب تواجدته في بلاد الغربية"
أجبتها بحدة:

" لا يهمني ولن أقارن وضعي مع ليان، أنت تعرفين تماما أنني فتاة لا تهتم بالشكليات، لذا كفى،
أغلقوا على الموضوع رجاء ودعونا نتحدث عن شيء آخر كسؤال ليان عن أحوالها وإجازتها التي
حرمنها منها"

ثم جلست أتنهد بانزعاج، نظرت ليان نحو أمي وأومأت لها أن تغلق الموضوع ولا تزعجاني به
ثانية، ثم انتظرت مغادرة أمي نحو المطبخ فقالت لي:

" حسنا دعينا نتحدث في موضوع مهم آخر "

ونظرت نحوي نظرات جدية وقالت:

" إيلينا! هل تعين ما سيحصل ليلة زفافك؟ "

نظرت إليها بحيرة وخجل وقلت لها صراحة:

" ليس تمامًا.... هل الأمر مخيف؟ "

فضحكت بخفة وقالت:

" تعالي اقربي سأشرح لك "

قضيت الليل كله وقد نزع النوم من عيني، يا ليتها لم تخبرني، كيف سأنام وأنا أفكر بما قالت؟ هل أنا إيلينا الخجولة المتحفظة مستعدة لهذه الخطوة في حياتي؟ الآن بت أرى الأمر أكثر جدية مما تخيلت! يا إلهي سأغدو زوجة للسيد شادي حقاً!

دخلت في صراع للحصول على هواء لأتنفس وحاولت إغماض عيني لربما نمت لكن كل محاولاتي ضاعت عبثاً، فحل علي الفجر وأنا مستيقظة أفكر بالمصير الذي ينتظرنني..

مر الأسبوع بسرعة البرق وقطعت أخباري عن الكل من حولي حتى سارة كنت أتجاهل اتصالاتها المتكررة، فقد وصل بي الاكتئاب حدّاً لم أعد أستطيع تحمله، وفي صباح يوم الجمعة.... اليوم المنتظر كنا نستعد للذهاب إلى القصر.

كنا نعد الدقائق في انتظار قدوم ليان لتوصلنا مع زوجها، فقرع جرس الباب فجأة، أسرعت أمي صوبه وقد لاحظت ارتباكها الشديد قبل أن تفتحه.

فوجئت بالقادم نحوي عند استقباله من أمي، جف حلقي وأنا أنظر في عينيه، بالرغم من بعد المسافات ومرور تلك السنين إلا أنني لم أنس تفاصيله، وكيف أنساه وهو يشبه إلى حد كبير أبي، ابتلعت ريقى بصعوبة وقلت مندهشة:

" عمي؟! "

نظرت نحو أمي التي تجنبت النظر إلي، ثم قال لي بعد نظراتي الملتهبة عنها:

" لا تقلقي يا إيلينا أنا جئت من أجل مصلحتك... بنيتي لا يمكن لك الزواج دون ولي، وسأكون وليك عند عقد القران، ففي النهاية قطعت مسافات فقط من أجل ذلك "

لم أجه وأثرت الصمت ولم آبه حتى بتحيته أو إكرام مثواه، ثم رن هاتف أمني فجأة، نظرت نحوي وقالت:

"إنها ليان.... هيا يا ابنتي سننطلق"

نزلنا إلى الشارع الرئيسي لتوصلنا سيارة زوجها، ولم تكن صدمتها في رؤية عمي أقل حالا مني وتجنبت هي الأخرى أي تواصل لفظي معه، أما زوجها يزن فأبدى اهتماما بالتعرف إليه، فسأله عن مكان سكنه وعدد أبنائه وسبب تخلفه عن حضور زفاف ليان ولماذا وكل ذلك إلى خالي... حتى انفجرت ليان بحنق لتسكت كل من في السيارة قائلة:

"يكفي!! يزن لو سمحت! هو ليس هنا لتحقق معه سيكون ولي إيلينا في الزواج ثم يغادر ويعود إلى عائلته في بلاد الغربية. وانتهى مفهوم؟.... وأعني بذلك كليكما! مفهوم؟!"

سكت يزن ولم يصف حرفاً آخر أما عمي فألجمته صدمته من ليان ولم يجرواً على مناقشتها. وصلنا القصر وواعدنا يزن بالرجوع في الوقت المناسب بعد تجهيز ليان للحفل، حاولت التمسك بها لتبقى معنا لكنها اعتذرت مبينة أن السيدة انتصار لم تطلب منها البقاء لتجهيزها، فغادرت وأخذت قطعة من قلبي معها...

رحب السيد هشام بعمي وعرف الأخير عن نفسه قائلاً:

"أدعى أسامة وأنا عمها... وسأكون ولي إيلينا عند عقد الزواج"

أمر السيد هشام الخدم أن يكرموا ضيافته وطلب منه أن يستريح في غرفة خاصة أعدها الخدم للضيوف معتذراً منه لأن لديه الكثير لعمله من أجل تحضيرات الزفاف، فابتهج عمي لذلك وانطلق معهم نحو تلك الغرفة.

تم أخذي مع أمني إلى مبنى آخر في ذات الملكية تابع للقصر كان يبدو مثل مبنى خاص للمناسبات والاجتماعات، سارت بنا سيدة ممشوقة القوام حسنة المظهر نحو الطابق الثاني حيث يوجد مصففة شعر تم استدعاؤها إلى القصر من أجل هذه المناسبة. استقبلتني بابتسامة دافئة ثم بدأت بتجهيز أمني

للحفلة، مبينة لنا أننا سنكون محجبات بسبب تواجد رجال أجنب علينا فخطر في بالي أمجد وعائلة يزن.

جاءت امرأة أخرى تحمل معها فستان زفاف جميل كان له أكمام من الشيفون مطرز بالأوراق وكان صدره ذو تصميم بسيط أما وسطه نزولا إلى أسفله فكان مطرزا بذات التطريز مع لمعات. طلبت مني المرأة أن أقوم بارتدائه، فدخلت إلى غرفة صغيرة اكتشفت أنها حمام صغير وقمت بارتداء الثوب مراعية ارتداء المشد الذي صاحبه لكنني عانيت من ارتدائه فهو لم يكن مثل ارتداء العباءات. سمحت المرأة لنفسها بالدخول عندما شعرت أنني أطلت عليها وساعدتني في لبسه، ثم أخذت تنظر إليه لتبحث عما يحتاج إلى تعديل فيه لتتنبه بأن وسطه أعرض من حجمي فأخذت تضيق به من الخلف برباطات خاصة حتى أصبح ملائما.

تم تجهيز مظهر أمي بالكامل من لباس ومساحيق التجميل، أعجبها ما ارتدت مع أنه لم يكن من ذوقها المعتاد، مع ذلك لم تتذمر. وبعد مضي وقت من الزمن تم تجهيزي بالكامل لكنني لم أكن أشعر كأني عروس، شعرت وكأن بهجتي كشمعة مطفأة ضاع منها بريقها. قدمت السيدة مايا وهي ترسم على محياها علامات الفرحة والابتهاج وهنأتني ومدحت بجمالي الأخاذ - حسب ما وصفتني به - وساعدتني مع أمي على الركوب في سيارة الشركة للعودة إلى مبنى القصر.

عند وصولنا سعدت بي نحو الطابق الثاني بينما طلبت من أمي الجلوس في القاعة الكبيرة في انتظار بداية الحفل.

طلبت مني أن أستريح في غرفة عرفت أنها غرفتها التي تشارك فيها مع أمجد فراد ارتبائي، ثم استأذنت مني وتركتني لتتأكد من التجهيزات المترتبة للزفاف. نظرت من حولي فعاد أمجد إلى مخيلتي لأتحيله برفقتها في الغرفة وحياتها التي يعيشانها هنا، فشعرت بنفسني أختنق، والعبرات تهدد بإفساد مظهري، فأثرت الخروج نحو الممر لألتقط أنفاسي، تجولت في الممر الطويل وأنا أنظر نحو الأبواب

فأتساءل في سري عم يوجد خلف كل باب، ثم سمعت همهمات فجأة تأتي من خلف أحد تلك الأبواب وقد كان شبه مغلق، اقتربت عندما تبينت صاحبة الصوت، كانت السيدة انتصار. أعلم أن استراق السمع عادة سيئة وهي ليست من عاداتي لكنني أحسست بشعور غير مريح في همهماتهما، فاسترقت النظر نحو الشق المفتوح من الباب فلمحت السيد شادي يجلس على حافة سرير مفروش بملاءات بيضاء، ويبدو أنه لم يمهز نفسه؛ فقد كان يرتدي بنطالاً قماشياً أسود اللون وقميصاً أبيض ليست كل أزراره مغلقة، وعلى رقبتة ربطة عنق مخططة لم يمهز نفسه. وأمامه كانت تقف السيدة انتصار منحنية بجسدها إلى الأمام نحوه لتتحدث معه بصوت منخفض فسمعتها تقول:

" قلت لك رأيت بعيني وسمعت بأذني.. كانا في غرفتك هنا وعلى سريرك هذا يارسان الفاحشة " فقال مزجراً بغضب:

" لماذا لم تقولي لأبي وتلغي هذا الزفاف؟ كيف تقبلين بهذه المهزلة؟ "

فأجابت بينما كنت أحاول فهم كلامها السابق:

" لا! لا يا بني ليس بعد أن أنتقم لك منها اسمعني جيداً زواجك سيكون شكلياً أي حبراً على ورق لن تلمسها مفهوم؟! إنها نجسة وعديمة أخلاق، لا أريد أن توسخ يديك بقذارتها! ثم سأفصحها بطريقي الخاصة! سأفصح ممارستها الرذيلة مع فارس لتتطلق وترجع إلى أهلها تجر لهم العار" شحب وجهي وشعرت بالإعياء.. لا.. لا لا لا! هذه ليست ببشر تريد اتهامني في عرضي وطهري؟! متى رأيتني الكاذبة مع فارس؟ ياويلها من سخط ربي! إنها تقذفني بالإفك! لماذا؟ لماذا؟ ماذا فعلت لها؟

لن أنسى ما حييت نظرات المقت في عينيه وهما متعلقتان بوجه أمه كمن سكبت عليه ماء حاراً، ثم أضافت:

"إذا سألك أحد عنها في الأسبوع الأول للزفاف اكذب وقل أن حساباتكما جاءت بموعد خاطئ لكما بسبب ميعادها من الشهر وبعد ذلك سأجد لك حجة أخرى "

أغمض عينيه مستاء ودفن رأسه بين كفي يديه وزمجر باستياء:

"أمي! ما هذا الذين تهذين به؟"

أمسكت بذراعيه بشدة وكررت عليه أمرها:

"شادي! فقط اسمع كلامي وإياك أن تلمسها! لأن لدي سرا آخر.. لن أبوح به الآن.. كل شيء في وقته!"

لم أقوى على الوقوف أكثر فجررت قدميَّ هرباً من المصير المذل الذي سترميني بهذه هذه المتوحشة، ومن شدة ذهولي وذعري لم أستطع أن أدرف دمعة واحدة، ركضت وأنا أشعر بقدميَّ ما عادت قادرتين على حملي فاصطدمت في طريقي بالسيدة مايا والأنسة ديمة فنظرت نحوي الأخيرة نظرة معاتبة لم أفهم سببها، أما السيدة مايا فقالت:

"أين كنت؟ عدت لآخذك إلى المأذون فلم أجدك. هيا إنه ينتظر في الأسفل... ديمة اذهبي

واستعجلي أذاك... يعني العروس أنهت تجهيز نفسها قبله!"

أخذتني السيدة مايا إلى القاعة الكبيرة حيث أقوم بتدريس طفليها عادة، لم أكن في وعيي وأنا أسير إلى جانبها ولم أتنبه إلى الأشخاص الجالسين في المجلس، ثم سمعت صوتاً دافئاً يناديني، كان صوت ليان تقول لي:

"بسم الله ما شاء الله مثل لوحة فنية فلتحرسك عين الله يا حبيبي"

لم أستطع الرد ولا حتى بابتسامة.. اقتادوني جسداً بلا روح.. حتى جلست على الأريكة، استرقت عيناى نظرة خاطفة حولى، فوجدت في المجلس أمجد ويزن ينظران نحوي، الأول بألم والثاني بابتسامة دافئة... ثم رأيت المأذون يجلس مطأطأ برأسه في الأوراق التي بحوزته.. ثم لمحت أمي وهي تنظر نحوي بفرح كبير وإلى يسارها عمي، وأخيراً وقعت عيني على السيد هشام الذي كان يستقبل التهاني من خلال هاتفه المحمول...

ثم لمحت خيال على السلام، كان السيد شادي ينزل برفقة أمه حتى وصلا المجلس. أشار إليه يزن أن يجلس إلى جانبي بينما كنت أنظر نحو أمه بحقد واضح في نظراتي وهي ترد لي النظرة بخبث.

لم أنظر نحوه ولا مرة، تجاهلته قدر الإمكان حتى أنني لم أدري إذا كان ينظر إلي أم لا.
بدأ المأذون بطرح الأسئلة عن الشهود وهما يزن وأحمد ثم عن ولي أمري ليتقدم عمي بقوله:

" أنا عمها وليها "

فسأل المأذون:

" الوالد متوفٍ؟ "

فنظر عمي نحوي قبل أن يجيب:

" لا.... إنه مفقود "

شحب وجه ليان وأمي، ونظر يزن نحو ليان متفاجئاً، بينما وجه الكل أنظارهم نحو عمي ينتظرون
الشرح فقال:

" كان مريضاً ولم يكن في صحة عقلية سليمة آنذاك بسبب مرضه، ويوما ما خرج هارباً من

المستشفى ولم يعرف أحد عنه خبراً بعد ذلك "

غطت أمي وجهها بكفي يديها أما ليان فحدجته بنظرات قاتلة، فلم يجروا على البوح بالمزيد، فقبل
المأذون ولايته.

سمعت من جانبي السيد شادي يتنحج غير مرتاح لما سمع، ولولا نظرات السيد هشام المرعبة
للجالسين ليحافظوا على سكوتهم وأحكامهم التي لا داعي لها لقامت الدنيا في المجلس الآن.

بدأ المأذون بتلاوة خطبة قبل عقد القران بقوله:

" إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده

الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له"

ثم شعرت بطنين في أذني ولم أستطع متابعة ما يقول، كان الدهول قد أبحر بي في عوالم مختلفة من

الحسرة والبهتان، شعرت أنني الوحيدة هنا التي ترى منظورا مخالفا لما يدور في أذهان الجميع،

شعرت بأنني مصدر انتباه الجميع وكأن الدنيا أظلمت إلا من هالة فوقتي، ويا ليتها كانت لإظهار

جمالي، بل كانت كالمرآة لانفعالاتي التخبطة لما يجري من حولي.

لمحت المأذون يلقي على مسامع عمي كلمات ليعيد سردها للسيد شادي، لم يكن ذهني يستوعب شيئاً فلم أسمع إلا قوله: زوجتك ابنتي على مهر..... ورأيت فم السيد شادي ينطق بكلمة: قبلت.....

ثم وقع السيد شادي على عقد الزواج وجاء دوري في التوقيع، حاولت التقاط القلم من بين أصابعه لكنه وقع مني أرضاً، بسبب ارتجاف أصابعي، ابتسم السيد شادي محرّجاً لمن حوله والتقط القلم ووضع أمامي، أخذ الكل ينظر نحوي في انتظار توقيعي، فبقيت ساكنة على حالي.. شاردة في صدمتي ثم سمعت صوت ليان تناديني فنظرت نحوها، وتذكرت تهديد السيدة انتصار بهدم زواجها إذا لم أقبل بابنها زوجاً.

لكن إذا قبلت فستتهمني في عفتي وطهارتي!... احترت فيما علي فعله، فأغمضت عيني وأخذت أتذكر طفولتي مع ليان... حمايتها لي دوماً، كانت توصل الباب علي لكي لا أرى ولا أسمع ما يدور حولي، راودتني ذكريات ضحكاتنا وشجاراتنا وبكاؤنا... ثم تذكرت فرحتها في زفافها، لم تسعها الدنيا من فرط سعادتها.

كان المأذون يهتف باسمي ليتأكد أن الزواج قد تم بإرادتي وليس إجباراً لأتنبه إليه وأستيقظ على الواقع المرير، لكنني تجاهلته ورفعت القلم بعدما توصلت إلى قراري.. سأحمي أختي ولو على حسابي، فوقعت مكان اسمي على وثيقة الزواج لأصبح بذلك زوجة بشكل رسمي للسيد شادي. تهللت أسارير من حولي بالفرح، ما عدا السيدة انتصار التي كانت تبتمس بخبث، وديمة التي كانت تخفي في عينيها عتاباً، وأجد الذي لمحت الألم واضحاً في عينيه.

ثم طلبوا من السيد شادي السير معي نحو الحديقة للاحتفال بزواجنا وسبقونا لاستقبالنا في الاحتفال هناك.

نهض واقفا ومد يده لي ليمسكها، كنت أشعر بضعف عام في رجلي لكنني أبيت الاستسلام له، فتحاملت على نفسي ووقفت بمفردي فمد يده وأمسك بيدي رغماً عني وقال هامساً لي:

" قلت لك سابقاً لا أعيد كلمتي مرتين "

ثم رفع رأسه بشموخ وسار معي يحمل ذراعي في يده.

لا أجد وصفا لشعوري من احتلاله ذراعي لتبقى أسيرة معه، حاولت الحفاظ على ثباتي وتماسكي أثناء سيرنا في الممشى الكبير في الحديقة الذي زين من جانبه بالورد، وعند وصولنا تفاجأت بالجمع الغفير من الناس الذين يجتمعون محتفلين بابتهاج، ظهرت الصدمة على محياي بوضوح، أخذت عياني تجوب المكان بحثاً عن ليان وأمي اللتين وجدتهما واقفتين بعيداً قليلاً عند النافورة الكبيرة وهما تنظران أمامهما مصدومتين أيضاً، ألم تقل السيدة انتصار أن الحفل سيقصر على أفراد الأسرتين؟ يا إلهي لقد كذبت علينا، لكن لماذا؟

استقبل الأقارب والأصدقاء شادي بسعادة وسحبوه من يده وأخذوا يراقصونه بسعادة في وسط المكان المخصص للاحتفال ثم أعادوه إلي وأخذوا يطالبونه بمراقصتي وتم تشغيل أغنية رومانسية هادئة ليراقصني على أنغامها رقصة عرسان خاصة.. فلبى النداء، جرتني من كفي وتعلق بوسطي ليرقص معي بهدوء ووقار، على عكس فرحة يزن ورقصته المفعمة بالحياة مع ليان. تجنب السيد شادي النظر في عيني، وحرص على توجيه نظراته إلى الناس من حوله، يستقبل تهنئاتهم مومئاً بعينه من بعيد ثم انتهت الأغنية والله الحمد. ليتجمع الناس من جديد ويرقصوا على أنغام أغاني أخرى، أما أنا فلم يكن بمقدوري الرقص بعد كل هذه الصدمات التي صفعني اليوم، فخارت قواي وكدت أقع فأمسك بي السيد شادي من فوره، لا أدري إن كان يتصنع الشهامة أم انه رد فعل تلقائي منه.

طلبت منه أن يتركني لأجلس، لكنه عوضاً عن ذلك رافقني إلى الأريكة المخصصة لنا والتي كانت ترتفع عن المرقص بعتبتين. لمحت ليان تقبل من بعيد مع أمي لتطمئنا علي. أخذ السيد شادي يهدئ القلق البائن علي وجوه البعض بحجة أنني لم أكل شيئاً من شدة تحمسي لهذا اليوم.

نظرت ليان نحو السيد شادي بحدة وقالت بأسلوب فظ:

" اذهب واستقبل التهاني من معازيمك أريد أختي بكلمتين على انفراد "

تنحى السيد شادي بارتباك ولم يناقشها، ربما لمكانة يزن عنده، وتركني معها وحدي فنظرت إلى ليان وقالت:

" ما هذا يا إيلينا؟! هذه حماك الماكرة تقول لمعازيمها أننا مقطوعون من شجرة وأنا لا أقارب لنا ومن يعرفنا اعتذر عن المجيء!!! أقسم لولا أنني لا أريد لفت الأنظار وأخاف أن يشمت بك الحاضرون لضربتها على رأسها ولشدت لها شعرها الأشقر المزيّف ولاقتلعت عينيها الخبيثين! أفعى حقيرة!"

نظرت أمي نحو ليان تشزرها، كأنها تلمح للقول بأنني أنا العروس لست عمياء عم رأيتته وربما ظنت أنني كدت أفقد توازني لهذا السبب، سمعتها تهمس لها:

" نحن هنا لساندها فلا تزيد عليها الوضع سوءاً"

مرت الحفلة ببطء شديد كدت معه أختنق، مع أن الجو كان خريفياً لطيفاً، لكنني لم أكن في مزاج للاستمتاع ببرودة الجو فهو بالنسبة لي كان حاراً جداً ولم أقو على التحمل... حتى أنني لا أدري كيف انتهى الحفل. كنت شاردة في فزعي مما سيحل بي بعد ارتباطي بالسيد شادي.

خلت الحديقة من كل المعازيم وجاءتني ليان وأنا جالسة على مقعدي الذي لم أبرحه طيلة الحفل حتى مع توسلات السيدة مايا لأنضم للرقص.

جلست إلى جانبي وقبلتني على جبيني، وطلبت مني أن أبتسم وأرجو خيراً لعل الله يحميني من براثن سيدة القصر، وهنأتني من جديد وودعتني. تلتها أمي فتقدمت لتحتضني مودعة بدورها وفمها مليء بالدعاء لي بكل الخير والتوفيق.. ثم سارت مع ليان وزوجها بعد أن هنأني بمرح بدوره وأخذوا معهم عمي الذي أصر أن يعانقني، وهمس في أذني قبل ذهابه قائلاً:

" احترسي من والدة زوجك، يبدو أنها لا تنوي خيراً"

ثم مضى خلف أسرتي التي تركتني وحدي في الحديقة، لم أستطع البكاء ولم تذرف عيني دمعة واحدة. ما زلت مصدومة وعقلي لا يستطيع استيعاب شيء. بقيت جالسة أنظر أمامي بلا حياة لا رغبة لي حتى بالسير، ثم تقدمت مني السيدة مايا التي كانت ترتدي شالا على كتفيها من برودة الجو

وأمسكت بذراعي وساعدتني على الوقوف لتوصلني إلى - زوجي - السيد شادي، قبلتني على جيني ودعت لي بليلة ميسرة، وهي تغمزني مداعبة.

حاولت أن أبتسم لأجاملها لكنني لم أستطع، أمسك السيد شادي بيدي ومضى بي نحو القصر ولم يحدثني طيلة الطريق. وعندما وصلنا إلى السلام أقبل السيد هشام نحوي ومد ذراعيه يحتضنني ثم قبلني على رأسي وقال:

" من اليوم وصاعداً أنت في مقام ابنتي، فلا أريد سماع كلمة سيد منك أنا عمك الآن، اتفقنا؟" ثم غمزني بحنو وتركني فشعرت ببرودة إثر تركي لأعود أسيرة بين يدي ابنه المخيف، ثم هتفت له السيدة مايا وابناها بأن يحملني على السلام فنهرهم وتجاهل تعليقاتهم، وأمرني بالصعود أمامه، ثم سار معي حتى وصل باب غرفته، ذات الغرفة التي تحمل فحيح سموم والدته، فتحه ومد يده لي لكي أدخل، فسرت مطيعة نحو الداخل، وولج بعدي وأغلق الباب خلفه.

خلع سترته وربطة عنقه وألقاها على السرير ثم توجه نحو باب زجاجي مقابل السرير يطل على شرفة كبيرة مكشوفة مزينة بنباتات الزينة، وعلى الجانب طاولة عليها كرسيان من الخشب، ثم التفت إلي وقال بنبرة مخيفة:

" اقتربي "

توجست خيفة ولم أستمع له هذه المرة، فتقدم نحوي فشعرت بالخوف واحتضنت نفسي خوفاً منه، فضحك مستهزئاً وقال:

" مما أنت خائفة؟! أنا لن ألمسك..... لن أمد يديّ على قدرة مثلك تضاجع الرجال وتظاهر بالشرف!"

إثر إهانته المريرة هبطت مني أول دمعة لهذا اليوم، كانت دمعة قهر أوجعتني، ثم أجبته بامتعاض شديد رداً على إهانته:

" لستُ كما تصفني! أمك كاذبة!! لقد سمعت كل شيء!! أنا لم أقرب من أي فاحشة طوال عمري.. لم أفعل شيئاً خاطئاً لا مع فارس ولا مع غيره "

فصفق بيديه ببرود وقال:

" لا فعلا عديمة أخلاق تمارسين الرذيلة وتتسمعين على أسرار بيت أسيادك!"

فاندفعت صارخة بوجهه دون وعي مني:

" لست سيدي ولا يشر فني أن تكون أنت أو أمك السليطة سيدان لي! وأنا لست بفاجرة ومهما

اتهممتني به فإنني أرجو الله أن يرده في نحرك ونحر أمك!!"

ثم جبت وندمت وشعرت بالذعر من جرأتي فغطيت فمي مصدومة من ردي.

ويبدو أنه صدم بدوره لأنه لم يقل شيئاً في البداية، ثم استجمع نفسه وسار نحوي بغضب شديد

وأمسكني من رأسي من خلال حجائي وجرني نحو الشرفة وأنا أستصرخه ألا يؤذيني، ثم ألقاني فيها

خارج الغرفة فوقعت أرضاً، حاول التقاط أنفاسه وهو واقف على الباب وقال بجفاء وتغطرس:

" نامي في الشرفة جزاء لك على وقاحتك!"

أغلق الباب وأوصده فركضت نحوه وحاولت فتحه ثم أخذت أطرق بعنف عليه ليفتحه لي، فوقف

ينظر إلي بغضب وكراهية من خلال الزجاج، ثم أغلق الستارة حتى لا أراه ولا يراني.

خارت قواي فنزلت أرضاً بجانب الباب أضرم جسمي بذراعي لأحتمي من البرد الذي بدأ يهاجم

جسدي من خلال فستاني الذي لا يقي من البرد شيئاً، ثم نزلت دموعي بحرارة أبكي حسرة على

حالي وما وصل بي من الهوان... بكيت وانتحبت حتى جف الدمع من عيني وغفوت على الشرفة

أحتضن جسدي من شدة البرد...

الفصل الرابع والعشرون

أجفلت بهاء بارد يلطم وجهي فاستيقظت فزعة، نسيت لوهلة أين أنا وما هذا المكان... ثم لمحت طيفه يقف فوق رأسي وفي يده كأس ماء فارغ. أمعنت النظر فوجدته يرسم على وجهه علامات الصرامة والجفاء، ثم نهرني بقوله بحدة:

"قومي! انهضي واغتسلي فمظهرك مريع!"

نهضت جالسة بصعوبة وأنا أتأوه من ألم ظهري بسبب النوم على الأرض القاسية وضعت يدي موضع الألم لأحاول التحكم به.

زفر بضيق وأضاف:

"ربع ساعة وكوني في الأسفل، الفطور سيجهز قريباً ومن العيب أن تحضري متأخرة"

ثم تركني وسار إلى الداخل، أخرجت نفساً طويلاً لم أكن أدري أنني أحبسه هكذا، ونهضت بصعوبة وأنا أتجه إلى داخل الغرفة. نظرت من حولي لأتعرّف على معالمها؛ رأيت فيها عدة أبواب، باباً للشرفة، وآخر يقود خارجها نحو البهو، وبقي فيها بابان.. سرت أولاً إلى الباب الذي على اليمين وفتحته فوجدت غرفة كبيرة تحتوي العديد من الملابس الرجالية المعلقة والمرتبّة في رفوف بالإضافة إلى رفوف خاصة بالأحذية.

نظرت حولي باندهاش وأخذت عيني تتفحص المكان، ثم خطر في بالي تساؤل، أين ملابسني؟ بحثت في كل مكان حتى وجدت حقيبة كبيرة مخصصة للسفر فتحتها بداعي الفضول لأجدها مليئة

بالثياب النسائية، من وضعها هنا؟ وأين حقيبة ملابسني التي جئت بها من بيتي؟

تفحصت الملابس المرتبة فيها فوجدت منامات حريرية وقطنية وعدة عباءات وشالات رأس جديدة وبعض الملابس اليومية، أخذت من بين الملابس قميصاً طويلاً بلون زمردني جميل وبنطالاً عريضاً، وشالاً أبيض اللون مع ملابس داخلية. ثم توجهت نحو الباب الأخير في الغرفة، فتحتة لأتأكد من

ظني الذي كان صحيحًا، فقد كان حمامًا. دخلته وأوصدت الباب خلفي بإحكام وعلقت الملابس على علاقة خلف الباب.

تفحصت المكان بعيني مذهولة باتساع المكان وجمال المنظر، وقفت أمام المرأة لأخلع حجابي الذي بقي علي منذ البارحة، فتفاجأت من مظهري المرعب أمام المرأة. هل هذه أنا حقًا؟ يا إلهي أبدو كالأشباح! وعينا قصة أخرى فهما تبدوان مريعتان مثل عيني دب الباندا متسختان بآثار مساحيق التجميل مع تورمهما من أثر الدموع.

خلعت حجابي ونظفت وجهي بصعوبة لإزالة كل آثار مساحيق التجميل.. غسلته عدة مرات حتى احمر جلدي من شدة الدعك، ثم خلعت فستان الزفاف بصعوبة وأظن أنني مزقته. كانت مفاصلي تؤلمني بشدة فلم أستطع الخروج منه بسهولة. ثم أخيرا اتجهت نحو حوض الاستحمام ورميت جسدي تحت المياه الساخنة لعلها تغسل بعضًا من آلامي وأوجاعي النفسية والبدنية. استرحت أمام مرآة في غرفته الكبيرة أسرح شعري، وأنظر نحو انعكاس صورتي بعينين متورمتين وروح ميتة، ثم فتح الباب فجأة فصرخت وغطيت رأسي بيديّ لكي لا يراني الداخل دون حجاب. أغلق الباب وقال بنبرة ساخطة:

" ماذا تفعلين؟ تأخرت، الجميع بانتظارك!"

اقترب نحوي فشعرت ببرودة أصابعه تلمس يديّ وأمسكها ليعدهما عن شعري ووقف يتأملني من خلال انعكاس صورتي، كنت قد جففت شعري بمجفف شعر وجدته في الحمام، فمد يده ليدخل أصابعه في خصلات شعري، فسرت قشعريرة في جسدي بينما عيناه مركزان علي، ثم سمعنا صوت قرع الباب فقفز مجفلاً وابتعد عني، ثم فُتح الباب رويدًا رويدًا لتطل علينا السيدة مايا مبتسمة بود، وقالت:

" هل قاطعت شيئًا؟"

تنحج السيد شادي بارتباك وجلس على السرير وقال:

" لا، نحن... إنها تجهز نفسها للنزول"

ثم قالت مقترحة:

" كنت أفكر... ما دام هذا أول صباح لكما فما رأيكما أن نحضر لكما وجبة الإفطار هنا؟"

فأجابها على الفور بصوت جاف:

" لا! لا داعي دقيقتان ونكون عند المائدة"

ثم نظر إليها محتدًا فشعرت بالخرج واعتذرت وغادرت مغلقة الباب خلفها، أخذت نفسًا ونظرت إلى

وقال:

" لا تنسي ارتداء الحجاب فأجد موجود هنا اليوم"

ثم خرج من الغرفة دون أن يزيد حرفًا واحدًا، يا إلهي! رأيت مكشوفة الشعر! لم يرني رجل على وجه

الكرة الأرضية بلا حجاب قط! فصرخ بي عقلي الباطني قائلاً: هذا زوجك يا حمقاء يجب أن تعتادي

على رؤيته لشعرك! فجادلت: لكنه سيطلقني! لماذا أعطيه الحق برؤيتي؟ لم أسمع ردًا هذه المرة من

عقلي الباطني كأنه يفكر بالطريقة ذاتها.

نزلت السلم وأنا أشعر بحيرة من أمري فأنا لا أدري أين يجب أن أذهب وأين هي مائدة الإفطار. آه

يا ليتهم يعفونني من تناول الطعام معهم! وجدت إحدى الخادמות تسير باتجاهي فأوقفتها وسألتها

بإحراج عن مكان الجميع، فأرشدتني بابتسامة مهذبة نحو غرفة الطعام.

لمحني السيد هشام عند الباب فهتف باسمي منادياً علي لأتقدم وقال مشيراً إلى مقعد فارغ بجانبه:

" تعالي يا ابنتي واجلسي إلى جانبي "

فتقدمت بخجل شديد وحاولت رسم ابتسامة له أدبًا وجلست إلى حيث أشار، ثم قال لي مرحبًا:

" صباح الخير لأحلى عروس!"

رددت له تحية الصباح بصوت متحرج ضعيف، ثم سمعت صوت تلك الأفعى تقول مؤنبة:

" فقط لأنك عروس جديدة وهذا أول يوم لك في القصر فإني سأتغاضى عن تأخيرك الجميع عن

أعمالهم بسبب كسلك، ومن اليوم فصاعدًا عليك الالتزام بتطبيق قوانين هذا القصر حتى لا تتسبب

بالإزعاج لأحد"

ثم ختمت جملتها وهي تنظر نحو أمجد كيدًا كأنها تعنيه بالقول أيضا، فقابلها بنظرة حادة، فوضعت السيدة مايا ذراعها على كتفه كأنها تنهيه عن النظر بهذه الطريق إلى أمها، أما السيد هشام فقال محتدًا يرد على زوجته:

" ماذا تريدان بها يا انتصار؟ دعيها لشأنها هذا يومها الأول هنا بيننا اتركيها لتألف الوضع قليلا وانشغلي بأمورك"

فأجابته بوقاحة:

" ابني وما يخصه من أموري"

فحدجها بنظرة ثاقبة، فقاطعت الأنسة ديمة هذا الجو المشحون قائلة بصوت مرتفع بينما تصتنع ابتسامة على وجهها:

" كيف كانت ليلتكما؟ هل نمنا قريبا العين؟! "

ثم نظرت إلي نظرة غير مريحة فتجنبت النظر إليها ولم أجبها أما السيد شادي الذي كان يجلس مقابلي شزرها بعينه لتسكت، فحولت نظرها نحو كوب من الشاي أمامها بذعر من نظرة أخيها المهدة وأخذت ترتشف منه بصمت.

حانت مني التفاتة نحو أمجد الذي كان يشرب من كوبه بهدوء ثم نهض منهياً إفطاره وطبقه مليء بالطعام واعتذر من الجميع ليغادر القصر، حاول كل من السيد شادي وعمي إقناعه بالبقاء لكنه اعتذر بحجة عمل مستعجل له في مكتبه، وقبل أن يخرج نظر إلى زوجته وقال:

" لن أعود اليوم هنا سأبيت عند والدي"

غادر والجميع يطالعه بصمت مريب، فرمى جاد بشوكتة في طبقه ونزل عن مائدة الإفطار معلنا عدم رغبته في الأكل. شعرت بغصة نحوه، نظرت نحو السيدة انتصار فكانت تجلس بشموخ كأنها تشعر بتشف واضح، ما قصة هذه المرأة ولم تستمتع بجلب البؤس لقلوب الآخرين؟! هذا زوج ابنتها وليس منافسا لها! شعرت بالشفقة على أمجد وبالأسى أكثر نحو نفسي، لم أستطع مجاملتهم في تناول

الطعام معهم فاعتذرت بدوري وطلبت أن أعود إلى غرفتي بحجة إرهاقي من زفاف البارحة.
حاول عمي التمسك بي لكنني أصررت على موقفني وتركتهم عائدة من حيث أتيت.

ليان

فتحت عيني بصعوبة على ضوء أشعة الشمس التي تسللت من النافذة، نظرت إلى جانبي فلم أجد
يزن في السرير، ثم سمعت صوت باب الحمام يفتح ليخرج يزن منه عاري الصدر، فعرفت أنه كان
يستحم بسبب خصل شعره المبتلة.

عندما لمحني غمزني وألقى نحوي تحية صباح معسولة، ثم تناول ملبسه التي قام بتعليقها وأخذت
أراقبه وهو يرتديها لأتأمل حركات جسده وملامح وجهه الوسيم، ثم التقط ساعته عن المنضدة
وقام بلفها حول معصمه ليلبسها. اقترب مني وطبع قبلة على جبيني وقال:

"ألن تطمئني على أختك؟"

ابتسمت له وقلت:

"ليس الآن، ربما تكون منشغلة سأتركها على راحتها لكنني سأطمئن على أمي"

فتناولت هاتفني عن المنضدة وقبل أن أتمكن من الاتصال بها فاجأني بسؤاله المخفي في طيات جملته:

"لم أكن أعلم أن والدك مفقود ظننته ميتا"

توقفت أصابعي عن الضغط على شاشة هاتفني، رفعت بصري نحوه، كان واقفا على وجهه علامات

الجد، فأزحت عيني عنه وأجبتة متصنعة عدم المبالاة:

"وإن يكن المفقود في مقام الميت"

فقال معترضا:

"وأملك؟ أليست حزينه على فقد زوجها؟ هل يئست من البحث عنه؟"

فأجبتة بسرعة محتدة:

"أمي مطلقة!"

ثم سكتُ عندما رأيت دهشته، فزفرت بامتعاض وقلت:
"إنها مطلقة وليست أرملة وقصة فقده حصلت بعد الطلاق!"

فسألني بإصرار:

"ألم تبحثوا عنه؟"

نهضت عن السرير باستياء وقلت:

"لا"

فقال مجادلاً:

"لكنه والدك"

فنظرت نحوه وقلت بصوت جاف:

"لا يهمني! يزن أرجوك كفى! مفقود تعني ميت اتفقنا؟ رجاء لا تحدثني بهذا الموضوع ثانية"

نظر إلي بحدة وتناول هاتفه بغضب عن المنضدة وخرج من الغرفة صافعاً الباب خلفه.

شعرت بالسخط من موقفه، فاغتسلت وغيرت ملابسني ومضيت نحو الطابق الأرضي أبحث عن

عمتي فسمعت تمتات تخرج من آخر البهو فتقدمت نحو مصدر الصوت، حتى وصلت إلى باب

مكتب مفتوح فرأيت والد يزن يتحدث في الهاتف ويقول:

"وأختها اللقيطة الأخرى أوقعت بالمسكين شادي وحصلت على مرادها ماذا أقول لك يا غسان

غير أنها متشردتان حقيرتان ألقتا سحرًا على أهل البيتين لتحصلا على أموالنا"

شعرت بشحوب يعتريني، ودون أن أعطي اللحظة وقتًا لأفكر برد فعلي نهرت به صارخة:

"من التي تصفها باللقيطة؟!!"

فالتفت نحوي مصدوما وأنهى مكالمته بسرعة، نظر إلي بغضب واضح في عينيه وزمجر بتعالٍ:

"كنت تتسمعين علي أيتها الوقحة؟!!"

فأجبت به بأسلوبه الوقح ذاته:

" استراق السمع يحتاج إلى باب مغلق، أما بابك مفتوح على مصراعيه كأنك تقول فلتسمعي يا ليان إهاناتي لك!"

تقدمت عمتي من المكان والقلق يعتري محياها وتبعها يزن ليسأل بحيرة:

" ماذا يجري هنا؟"

وقبل أن أعطي فرصة لوالده بالتهويل أجبت:

" والدك ينعني باللقطة المتشردة ، أه! والساحرة أيضًا... وليته وقف عند هذا الحد بل شتمني وشتم أختي لشخص على الهاتف!"

نظر يزن إلى أبيه متعجبًا بينما زوجته صكت وجهها بخيبة وهي تنظر إليه فقال مندفعًا:

" قليلة الأدب هذه تسترق السمع إلي وترفع صوتها في وجهي!"

نظر إلي يزن قبل أن يعيد نظره نحو والده ليرد عليه:

" أبي أنا أحترمك ولك قدرك ومكانتك، لكن لو كنت مكانها وسمعت هذه الإهانة لتصرفت مثلها وأكثر!"

فتح والده عينيه مصدوما من رد ابنه فتابع يزن:

" زوجتي شرفي وعرضي وإذا تكلمت عنها بالسوء فأنت تهين ابنك قبل إهانتها وأقسم لك يمينا

مغلظا بالله لو سمعت مثل هذه الإهانات موجهة لها ثانية من قبلك أو من قبل أي شخص آخر

فسأقيم الدنيا ولن أقعدها!"

ثم اقترب من أبيه وقال مهددا:

" ليان خط أحمر!"

وعاد إلي وسحبني من يدي، وصرخ بالخادمة التي كانت تنظف السلام بأن تأتيني بحقيبتني وحجابي

فأسرعت الخطى بذعر لتعود في أقل من دقيقة، وأمرني بحدة ارتداء الحجاب واللحاق به إلى السيارة

فرميته على رأسي وتبعته بسرعة وأنا أتوسله ليهدئ من روعه، لم أر يزن من قبل غاضبًا بهذا الشكل.

أمرني بانفعال أن أركب بسرعة، لمحت أمه تقف على عتبة الباب والقلق باد على محياها فأشرت إليها بيدي أنني سأتولى الأمر، ثم ركبت دون تأخير لئلا ينفعل مجدداً.
قاد السيارة وهو ينفخ بين الفينة والأخرى دون أن ينطق بحرف واحد.
وصل أخيراً إلى ذلك الحي الذي أخذني إليه سابقاً، فترجل من السيارة وقال مزحجراً:
"الحقيني!"

أسرعت بالخروج ولقحت به، فاتجه نحو الحديقة التي أخذني إليها سابقاً كما توقعت، توقف قليلاً في مسيره حتى استطعت مجاراته ثم التفت إلي وأمسك بيدي بحركة سريعة ثم سار بي بسرعه السابقة، ولم يجررها إلا حين بلوغه الجسر. صعد عليه والاستيلء لا يفارقه، ووقف على حافته لينظر نحو البركة التي كانت مياهها تتماوج مع نسبات الخريف الباردة، تقدمت منه ووقفت إلى جانبه بصمت. بعد فترة دامت من الصمت أخيراً نظر إلي وقال وهو يرفع قميصه قليلاً كاشفاً عن أسفل بطنه من اليمين:

" أنت تتساءلين عن سر هذه العلامة صحيح؟"

كنت أنظر نحو العلامة ثم رفعت بصري نحوه بترقب شديد مما سيقوله تالياً، أنزل القميص والتفت ثانية نحو البركة، طال صمته قليلاً كأنه يصارع أفكاره، ثم قال بينما يسترجع ذكريات ذلك اليوم:
" أبي كان يخون أمي مع خادمة من القصر..... كانت جميلة وكان أبي رخيصاً تجاه الجمال... دخلت عليها في وضع حميمي مقرف..... كنت طفلاً بريئاً ساذجاً جباناً... لم أجرؤ على النطق بحرف لأمي... واستمر على سلوكها المشين حتى بعد علمي بقذارة تصرفها وفي يوم ما أراد أبي... أراد أبي رميها لا أدري لماذا ربما مل منها.... لكنها شعرت بالإهانة، وانتقاماً منه قامت باختطافي...."
شعرت بقلبي يهوي إثر هذه الذكرى التي يشاركني بها، ثم أكمل بآلم واضح في نبرته:

" اختطفتني..... وخبأتني في كوخ كان ملكاً لجدي يؤجره للاستجمام والرحلات..... ثم ربطتني على مقعد خشبي وكممتني، وبدأت بضربي وتعذيبي وأنا أبكي ألماً وأحاول الصراخ والاستنجاد بأمي لكن لم يكن ليسمعني أحد.... فالكوخ بعيد... وصرخاتي كانت مكتومة من تكميم فمي

بخارقة بالية.... ثم.... ثم وضعت سيخا في نار الموقد وكوت جلدي بحدوة فرس محماة على النار سرقتها من الاسطبل الخاص بنا"

شهقت بقوة وغطيت فمي مصدومة مما سمعت، يزن المعتد بنفسه! يزن ذاك الشاب القوي ذو العضلات المفتولة والشخصية الجريئة..... تعرض للتعذيب في طفولته! لماذا؟ طافت بي ذاكرتي إلى أول موقف بيننا... جرأته.. وقوة شخصيته وتصرفاته المستهجنة... واعترافه بحبه لي.... تذكرت كلام أمه عندما كانت ترجوني لأقبل به زوجها مبررة أنها لم ترى سعادته هذه منذ زمن.... كيف لقلب أن يتجرأ على إيذاء طفل صغير؟ أنى لها هذه القسوة لتقتل براءة طفل غدر به الزمن؟ أه من قسوتك يا دنيا!

اقتربت منه ومددت ذراعي أحاول احتضان كتفيه العريضين من خلف ظهره وألقيت برأسي على ذراعه أحاول منع دموعي من الانسياب أسى عليه.. على زوجي المجروح. فأدار جسده نحوي لأتمكن من رمي نفسي في أحضانه لأخفف عنه ألم استرجاع هذه الذكرى ولم أستطع منع دموعي من الخروج من مخبئها، فضحك بألم وقال:

" لم تبكين يا غبية؟! مضت عشرون سنة على الحادث!"

لم أتمالك نفسي وطوقت رقبتة بذراعي وبكيت بنحيب مرير وقلت له:
" أريد ان أحملك من كل الشرور، لو أستطيع أن أعود بالزمن لمنعتها بل ربما قتلتها قبل أن تمتد يدها القذرة نحوك"

فاحتضني بقوة واصطنع الضحك وقال:

" لا تخافي يا لؤلؤتي الحلوة أنا أشعر بالأمان دوّمًا معك وفي أحضانك"

ثم قبلني على رأسي وقال:

" لن أسمح لأبي ولا لأي شخص كائنا من يكون بمس ولو جزء من كرامتك، أنت حبيبي وسكني وأنسي وحيي الأول والوحيد.. أحبك أكثر من أي شخص في هذه الدنيا"

إيلينا

أعطاني السيد هشام ... أقصد عمي هشام صندوقاً وقال:

" هذا يا ابنتي صندوق الذهب الخاص بك، كنت قد أوكلت لانتصار مهمة تسليمه لك لتلبسيه في زفافك البارحة لكن يبدو أنها تناست! خذيه واصنعي به ما شئت البسيه أو خبيئه لك الحرية، مع أنني أرغب برؤيتك تزيينه بجمالك "

احمر وجهي خجلاً من مجاملته لي، يا له من رجل طيب لولاه لفقدت عقلي في هذا القصر.... جال في بالي خاطر أن أقول له ما سمعت السيدة انتصار تقوله لكنني تراجعت لئلا تجد طريقة للإصاق تهمها بي أو الإيقاع بي، ولأنني لا حول لي ولا قوة لن أستطيع الدفاع عن نفسي، فأثرت الصمت. صعدت نحو غرفتي لأضع صندوق الذهب في إحدى الخزائن فوضعتة على رف فارغ بخزانة الملابس، فسمعت السيد شادي ينهري فأجفلت على صوته. تقدم مني وأخذ الصندوق وقال:

" لا نخبي الذهب والمجوهرات لتطالها الأيدي هكذا "

وتوجه إلى الداخل أكثر نحو خزانة ملصقة بالجدار أدار فيها أرقامًا ففتحت، رأيت فيها عدة سبائك من الذهب وأوراقاً وعقوداً وصناديق أخرى ثم وضع الصندوق فوق إحدى هذه الصناديق وأغلق الخزانة ثم نظر نحوي بحدة وقال:

" إذا أردت ارتداء أي قطعة منها فقولي لي حتى أفتحها لك "

ثم نظر إلي مطولاً ومد يده نحوي فرفعت يدي أمام وجهي خوفاً، فنزع عني حجابي وقال بنبرة غريبة:

" أجد لن يعود إلى القصر فلا داعي للحجاب أم أنك تلبسينه أمامي بقصد؟! "

قابلت كلامه الساخر بنظرة منزعجة وغادرت عائدة نحو الغرفة لألتقط أنفاسي، فخرج لاحقاً بي، أخذ يتفحصني بنظرته ثم سار نحو المنضدة وفتحها ليخرج علبة صغيرة، تقدم نحوي وقبض على يدي قائلاً:

"أوصاني أبي بوضع هذا في إصبعك في حفل الزفاف لكن من هول الأحداث نسيت، لكنه مصر على ارتدائك له"

وأخرج خاتما جميلا من العلبة من الذهب الأبيض مرصعا بالماسات صغيرة وتتوسطه ألماسة أكبر حجما بديعة وأدخله في إصبعي، ثم وقف يتأمل الخاتم في يدي في صمت مرير، ثمة خيط من حزن باد في نظراته، شعرت بعينه تريدان البوح بشيء يزعجه لكنه لم ينطق.

نظرت إلى يديه المسكتين بيدي فلمحت خاتما من الفضة يستقر في إصبعه، فشعرت بقلبي يخفق بشدة، ثم نظر في عيني نظرة مطولة، لم تكن ببرودها المعتاد.. لكنني لمحت فيها حسرة وعتابا.. ثم تذكرت إهاناته لي البارحة فسحبت يدي من قبضته وقذفت له نظرة حقد وألم، وليته ظهري عائدة نحو الخزانة لأبحث ثانية عن حقيبة ملاسي التي جئت بها، فلم يتبعني هذه المرة وسمعت صوت الباب يغلق بقوة، فعلمت أنه خرج من الغرفة.

عندما حل المساء حاول العم هشام حثي على ترك العمل في الشركة مبررا أنه لا حاجة لي للعمل فيها، وأنه سيتكفل في مصاريف أمي وقوتها، لكنني أصررت على الرفض، فالعمل هو المكان الوحيد الذي أستطيع الهرب إليه من براثن زوجته، وعندما أحس بإصراري القوي على الاستمرار، ألح على ترقيتي لكنني رفضت أيضا، مبررة بأن هذه الترقية من نصيب الأكثر اجتهادا في عمله، فلم يزد كلامي إلا ابتساما، فشدني من كتفي نحو صدره وقبلني على رأسي فراودني إحساس غريب كنت أفتقده من سنين مضت... شعرت بحنان الأب الذي حرمت منه في طفولتي فذرفت عيني الدمع.

نظر إلي العم هشام وقال متسائلا:

"هل أنت بخير يا ابنتي؟"

ابتسمت في وجهه أمسح دموعي وقلت:

"أنت ألطف رجل قابلته"

ربت على كتفي بحنو أبوي بالغ، ثم جاءت زوجته لتقطع علي لحظة أنس من حياتي، فمسحت دموعي وجلست باعتدال على الأريكة. ألصقت نفسها إلى جانب زوجها وبثت سموها قائلة:

"بدأنا من الآن أسراراً بين الرجل وكتته؟!"

فغطى السيد هشام عينيه بأصابعه وزفر بضيق قائلاً:

"لا حول ولا قوة إلا بالله! لا يوجد شيء بيننا كنا نتحدث عن العمل في الشركة لا غير!"

تقدمت السيدة مايا من المجلس ونادت علي لتخلصني من مشهد المشادة الكلامية بينهما وأخذتني إلى الحديقة، ثم قالت:

"هل أعجبتك الملابس التي في خزانتك؟ إنها على ذوقي لقد اخترت لك كل قطعة بيدي لكن

سأحيني لم يكن لدي متسع من الوقت لأرتبها لك"

فقاطعتها بنبرة محرجة:

"شكراً لك يا سيدة مايا لست مضطرة لذلك حقاً! وشكراً على الملابس لقد أعجبتني بحق"

فابتسمت ووضعت يدها على كتفي وقالت:

"حبيبتي إيلينا أنا أخت زوجك لا تنادينني بالسيدة قولي فقط مايا... اتفقنا؟"

ابتسمت محرجة ولم أعقب، ثم أشارت فوقها إلى نافذة في الطابق الثاني وقالت:

"عودي إلى زوجك أنت عروس ولم ألمحه يجلس معك على انفراد طيلة اليوم، هيا اذهبي"

ترددت كثيراً في العودة إلى الغرفة لكنني في النهاية استسلمت للفكرة، فلا يمكن لي النوم في مكان آخر وإلا سألفت الانتباه.

دخلت الغرفة فوجدته مضجعا في السرير يقرأ من كتاب ما، لم يكن في بزائه الرسمية التي اعتدت

على رؤيته فيها، وكان شعره الناعم مبعثراً بطريقة جذابة.. كان يرتدي قميصاً قطنياً أبيض يظهر

معالم جسده ويغطي وسطه ورجليه بغطاء، ومع أن مظهر رجل الأعمال المخيف غادره في تلك

اللحظة إلا أنه حافظ على وسامته وجاذبيته الأخاذة.

قال فور استقراره في الداخل وإغلاق الباب:

" ستنامين على الأريكة هناك "

وأشار بعينه أمامه إلى الأريكة ذات اللون البيجي الموضوعة أمام السرير وفوقها وجدت غطاء
ووسادة، هو يظن أنه ينتقم مني لكنه لا يعلم أنه بتصرفه هذا أزاح جبلاً من الهم من قلبي، هكذا
أفضل لي، أنا لا أريد النوم إلى جانبه لن يكون ذلك منطقيًا، كنت لأفضل النوم على الأرض لكن
اقتراحه كان أفضل. اقتربت من الأريكة وأخذت أحدثها في سري: أنت ملجئي من اليوم وصاعدًا.

نظرت أسفلها فوجدت حقيبتني أخيرًا وقلت بابتهاج:

" حقيبتني! ها هي كنت أبحث عنها! "

فتحتها لأخرج منها منامة قطنية دافئة لأنام بها فصعقت بإيجاد جميع ملابسي فيها ممزقة، من فعل
هذا؟! لماذا؟! فجالت صورتها في بالي ... السيدة انتصار..... شعرت بالقهر والهوان يدب على
قلبي، وأدركت أن حياتي هنا لن تمر بالخير الذي بقيت أوّمل فيه نفسي حتى آخر لحظة.

الفصل الخامس والعشرون

تفوقعت على نفسي في السيارة في انتظار السيد شادي لتتجه إلى العمل، أقبل أخيرًا وعلامات الغضب ما زالت مرسومة على محياه من الخلاف الذي دب صباحًا بينه وبين عمي. سأسرد ما حصل بداية.....

وقعت عن الأريكة صباحًا بسبب عدم اعتيادي على النوم في موضع مرتفع عن الأرض. فنهضت جالسة أتأوه وأمسح على رأسي من شدة الألم، نظرت خلفي فوجدت السيد شادي يقوم بإغلاق أزرار سترته الرسمية وهو يتابعني بنظرات متعجبة، فشعرت بالخرج الشديد وأشحت بوجهي بعيدا عنه.

اقترب من الأريكة ومد رأسه من خلفي فأصبح بمحاذاة أذني ثم قال:
" لماذا كنت تبكين ليلة أمس؟ "

همسه وهو قريب من أذني أثار حفيظتي، فابتعدت نحو طرف الأريكة متجنبه النظر إليه وتصنعت الصلابة فأجبهته بصوت جاف:
" لا شيء يعنيك! "

مد يده ليتحسس خصلة من شعري الطويل فصنعت يده بعيدًا وقلت:
" لا تلمسني! أم أنك نسيت وصايا أمك؟ "

نظر إلي نظرة قائمة قبل أن يعلق:

" لا أظن أنها قصدت هذا النوع من اللمس "

أزعجتني إجابته فاحتضنت نفسي كأنني أصنع درعًا حولي حتى أبعده عني، فابتسم ساخرًا وقال:
" لا تخافي لن أمسك! لا أكل من الحلوى التي قضم منها شخص قبلي "

شعرت بالدم يجري صعودًا نحو رأسي غضبًا من تلميحاته المشينة أنا لست كما يصفني! كيف يتهمني بعفتي دون بينة؟! ودون تفكير أمسكت بوسادتي وألقيتها على رأسه وهو يتجه نحو الباب خارجًا، فصدمة في مؤخرة رأسه فتوقف عن المسير. توجست خيفة.

التفت نحوي فنهضت وأمسكت بطرف الغطاء أهم بإلقائه عليه إذا هم بأخذ ثأره مني، رفع حاجبيه استنكارًا ثم زفر بانزعاج وقال وهو يحاول السيطرة على غضبه:

"قومي البسي... اليوم هو الأحد لدينا دوام!"

ثم غادر الغرفة فتنفست الصعداء أخيرًا، خشيت أن يضربني أو يؤذيني، وبعد أن حصلت على خصوصيتي بعيدا عنه أخذ عقلي يترجم ما فعلته قبل قليل، لحظة... هل حقًا ألقيت على رأسه وسادة؟! ماذا دهاني؟! كم عمري خمس سنوات؟ شعرت بالخجل أكثر ودفنت رأسي بالغطاء حرجًا من تصرفي الطفولي.

نزلت السلم بعد تجهيز نفسي للدوام فسمعت صوت شجار قادمًا من غرفة الطعام، فاقتربت من باب الغرفة بوجل لألمح السيد شادي يمزق بطاقتين قائلاً بسخط:

"ها قد مزقت التذكرتين! لا تتصرف ثانية دون علمي! من قال لك أنني سأخرج في إجازة؟ أنا متجه إلى عملي وانتهى!"

نظرت في المكان فوجدت مايا تضع يدها على كتف والدها، واليد الأخرى تمسك ذراعه كأنها تحاول تهدئته، وأمه تجلس إلى المائدة وتعلو محياها نظرات السخط، فأجاب عمي بينما مايا تجذبه من ذراعه ليهدأ:

"ماذا قدمنا للبن من عز في بيتنا؟ ها؟ لم تقوما بدعوة أي من معارفها إلى الفرح، ولم تلبس حليها في الحفل، حتى فستان زفافها لم تحصل على حق اختياره بنفسها! لم نصنع لها شيئًا ترحيبًا بها! وتريد أن تقول لي أنك ترفض إجازة الزواج؟! حقها للسفر في رحلة شهر العسل تريد حرمانها منه؟! سوّدت وجهي! ماذا دهاك يا شادي؟ تعلم من يزن كيف تعامل المرأة!"

كأنه صفعه في جملته الأخيرة هذه فأجاب السيد شادي:

" أو لا أختار امرأتي بنفسى أولاً لأعرف كيف أعاملها؟ أنت أجبرتني على هذا الزواج لا تنسى! ...
وسأكرر كلامي للمرة الأخيرة لا إجازة من العمل سواء لي أو لها ولا نقاش في قرارى!"
ثم استدار ليغادر الغرفة سيراً نحوي فلمحت في عينيه ذهولاً من رؤيتى قد شهدت على ما حصل
فصرخ بي قائلاً:

" اسبقيني إلى السيارة!.. أسرعى دون تأخير!"

وهكذا جلست انتظره بترقب وخوف شديدين ولم أجرؤ حتى على الاستماع لعمى حينما طلب منى
البقاء. أنا أخشى ابنه وهو فى وضعه الطبيعى فكيف به والغضب يسيطر عليه؟
وصلنا مبنى الشركة فترجل من السيارة ليفتح لي الباب، بالطبع انتظرت منه أن يفتحه لإننى تعلمت
درسا من المرة السابقة التى شاركته فيها الركوب فى سيارته، ترجلت مرتجفة ذعرا منه وقلت أخيراً
بعد تردد دام طيلة الطريق:

" سيدي سأركب سيارة أجرة فى المرات القادمة لأن السيدة انتصار نبهت على ألا يعلم أحد
..... بزواجى منك فى ... الشركة"

كنت ما زلت أقف على مقربة من الباب فأغلقه بقوة وهو ينظر إلى بنظرات قائمة مبهمة، فدق قلبى
بعنف من ذعري، ثم أدار ظهره لي وسار مبتعداً، لكنه توقف فى طريقه وأمال رأسه إلى الجانب قليلاً
وقال متجنباً النظر إلى:
" شادى... فقط شادى"

ثم تابع سيره مبتعداً. ولو استطعت رؤية تعابير وجهى لانفجرت ضاحكة على نظرة البلاهة التى
تملكتنى لحظتها.
دخلت القسم فركضت سارة نحوي تطوقني بذراعيها بقوة ثم تركتني وشفعت ذراعى بقوة ألمتني
وقالت معاتبة:

" غبية!!! لماذا لا تردى على أى من مكالماتى؟ لولا غلاتك عندي لخاصمتك"

طأطأت برأسي إلى الأسفل واعتذرت منها وأنا أعرض على خدي أشعر بالسوء بسبب معاملتي لها فهي الوحيدة التي فرشت جناحيها لي.

لفت نظرها خاتمي فأمسكت بيدي بدهشة وقالت:

" إيلينا هل هذا خاتم زواج؟ "

شحب وجهي بشدة، كيف نسيت أن أخلع الخاتم من إصبعي؟ كيف سأشرح موقفني الآن؟ كان صوتها مسموعا كفاية لتجتمع من حوالي عدة زميلات من بينهن دانا، بهدف الفضول وأخذن يطرحن أسئلة من هنا وهناك، من يكون؟.. هل لهذا السبب حصلت على إجازة؟.. لماذا لم تبوح بي شيء منذ البداية؟.. أم أن ذلك سر؟.. هل هذه ألماسات حقيقية؟.. هل هو غني؟.. متى كان حفل الزفاف؟.. لماذا لم تقومي بدعوة أحد إلى فرحك؟.. هل كانت الدعوة محصورة؟.. ألم تفسخي خطبتك؟ متى وجدت غيره أم هو ذاته رجعت إليه؟ فجأة صرخت بهن جميعاً فقلت:

" كفى!!! نعم تزوجت! "

ألجمت الصدمة ألسن الجميع بمن فيهم سارة ثم بدأت تتغير نظراتها نحو الألم والعتاب، فقلت بسرعة أختلق كذبة:

" لكنه كان زواجاً دون زفاف... حصل فجأة.... دون إرادتي.. أقرباء أمني ضغظوا عليها.. إنه من معارفها.... تشجارت معها في إجازتي فزوجتني..... حتى أتوقف عن النحيب على فراق ليان... كانوا يظنون أنني أفتعل الشجار حتى أتزوج غيره من أختي... والواقع أنني لم أرد الزواج! "

لم أشعر أن سارة اقتنعت لكنها حاولت مجاراتي فسألت دانا:

" هل هو غني؟ ماذا يعمل؟ وخاتمك هذا... "

قاطعتها بسرعة قائلة:

" إنه موظف في شركة مثلي..... ولا.... هو ليس غنياً، لكنه صاحب دين، وهذا الخاتم... تقليد "

رفعت دانا حاجبها ولوت فكها في استهجان ثم رمقتني بنظرة متعالية وعادت إلى مكتبها، وبدأت الزميلات بالانفضاض واحدة تلو الأخرى نحو أعمالهن بعد إظهار امتعاضهن من الزوج المزعوم كأنه لا يرقى مستواه، وهكذا بقيت برفقتي قلة من الفتيات المبتهجات بزواجي مع سارة، فأخذت إحداهن تلتف الأجراء علي بقولها أنني سأعتاد على الزواج ولولا خوف أمي لما زوجتني ولا بد من كونه رجلاً صالحاً... وما إلى ذلك من كلام.

لكنني كنت أشعر بتأنيب الضمير لإخفاء سري عن سارة فهي وقفت إلى جانبي كثيراً ولا تستحق أن أعاملها بهذه الطريقة، تذكرت فجأة تهديد السيدة انتصار، فصارعت ضميري لأن يسكت حفاظاً على زواج ليان من الانهيار.

وصلت مكثبي والعيون مسلطة علي من كل الجهات، فسمعت صوت ضحكة شهد شامته تدوي في الأرجاء، استرقت النظر إليها فرأيت دانا تهمس لها شيئاً وعيناها علي، نظرة الاستمتاع المصحوبة بالغطرسة كانت تقدح من عينيها، فشعرت بغصة تحرقني.

لكن ضحكتها اختفت فجأة على صوت صراخ وشجار قادم من البهو، فهبّ الجميع من مكاتبهم لإلقاء نظرة، فأسرعت معهم حتى وصلت إلى حيث يجمعون.. فرأيت مشهداً شحب له وجهي وجف له حلقي وتسارعت له نبضات قلبي....

رأيت فارس يدفع رجال الأمن وهو يصيح ويزجر بانفعال شديد:

"أين هو؟! اخرج يا شادي!! أيها الجبان تعال واجهني!!"

حاول رجال الأمن إبعاده وإلجأه عن السير لكنه كان مهتاجاً بشكل مخيف، فجأة أطل عليه السيد... أطل عليه شادي من الجهة الثانية من السلام، وتقدم نحوه بخطى ثابتة، وضع يديه في جيبه بلا مبالاة بوضعه المستيري وهدج به:

"احترم المنشأة التي تهجمت عليها وإذا لم تخرج بكرامتك فسأرفع بحقك قضية"

فهجم عليه فجأة ماراً بسرعة من بين رجال الأمن وأمسك به من ياقته وبدأ بتهديده:

" سأنتقم منك أيها النذل أنت وتلك الوقحة! كيف تجرأت أن تفعل هذا بي؟ أنا ابن عمك!!
ائتمنتك على سري! قلت لك أنني أريدها! كيف طاوعتك نفسك على أخذها مني بعدما اعترفت
لك بنيتي تجاهها؟! "

أبعد شادي يديه عنه ولوى له ذراعه خلف ظهره وهمس له بكلام لم نسمعه، ثم تغيرت ملامحه نحو
الاحتقار وألقى به أرضاً، فوقع فارس على الفور لكنه استجمع نفسه ثانية وهجم مرة أخرى باتجاهه
لينقض عليه، لكن رجال الأمن هذه المرة أمسكوا به وجروه بعيداً وهو ما يزال يصرخ منفعلًا بشدة،
ثم ولاه شادي ظهره وقال باحتقار:
" ارموه خارجاً "

وعاد إلى مكتبه من حيث أتى. أخذ الرجال يجرونه وهو يقاوم بشدة، وفجأة التقت نظراتنا، دهش
لثوانٍ لكنه حول ملامحه إلى الغضب والامتناع فصرخ بي من بعيد:
" كلكن واحد! قدرات تسعين نحو المال والجاه، واه أسفاه على غبائي! "

ثم دفعهم عنه وخلص نفسه من أيديهم ثم سحب نفسه خارجاً من المبنى، أخذ من حولي يهمسون
ويتحدثون فيما رأوا وبدؤوا بتناقل الإشاعات فيما بينهم، بينما أنا كنت في عالم آخر.. كان ذهني
منشغلاً بعبارة الحاقدة لي، حاولت استجماع نفسي لئلا أبكي أو أنهار أمام أحد وعدت أتجه نحو
مكتبي لأجلس عليه قبل أن أقع مغشياً علي، عادت سارة إلي وقالت:

" يا إلهي! ما به هذا الشاب؟ رأيت كيف صرخ بوجه السيد شادي؟ عمّ كان الموضوع يا ترى؟"
فقالَت أخرى وكانت تدعى سناء:

" يبدو أنها فتاة، كانا يتشاجران على فتاة أنا متأكدة"
فنهرتها دانا بقولها:

" اسكتي ولا تتحدثي في شيء لا تفهمينه! غبية! السيد شادي لا يجري وراء الفتيات"
لكن سناء قالت جملة شحب لها وجهي أكثر:

" ربما تزوج بفتاة كان يرغب بها ذاك الشاب "

فقوبلت بالهجوم والصراخ من قبل البعض بمن فيهن سارة وشهد، ثم قالت الأخيرة بصوت
جامح:

" السيد شادي أعزب لم يتزوج لو أنه تزوج لعلمنا بذلك أو لقاتل لنا هذه .. فهي تعمل في القصر
وتعطي أبناء أخته دروسًا خصوصية!"

اتجهت الأنظار نحوي فشعرت بالعرق يتصبب مني، فتمتعت لأدرا عن نفسي نظراتهن المشتعلة:
" لا أعرف شيئًا كنت ... م... مجازة.. ثم حصلت قصة زواجي على .. حين غرة... أنا لا أعرف
أسرار بيتهم!.... يتم استضافتي في غرفة خاصة مع الطفلين فقط.... لا أعرف شيئًا توقفت عن
النظر إلي!"

ثم علقت دانا أخيرًا لتتقذني من نظراتهن المخيفة:

" المدير ليس متزوجًا اهدأن! لأنني دائمًا أتفقد يده ولا أجد في إصبعه خاتمًا، فأرحن أدمغتك
من التفكير.... ربما كان الشجار حول صفقة عمل الرجال لا يفكرون مثلنا"
فقاطعتها لأوجه أفكارهن نحو حديثها:

" نعم بالطبع الرجال لا يهتمون بالحب والرومانسية! همهم المال والتجارة"

وما إن استقر الجميع على هذه الفكرة وأرادوا المضي نحو مكاتبتهم حتى توقفت سناء ونظرت إلينا
من جديد لتقول:

" لكن.... ما تفسير الجملة التي قالها الشاب وهو يصرخ فينا قبل مغادرته الشركة؟"

فغطيت جبیني وعیني بيدي وتنهدت بأسى، من سلط هذه الفتاة علي؟!

فقال دانا تخمن:

" ربما الصفقة كانت مع امرأة وهي اختارت التعاقد مع السيد شادي لأجل المال والجاه، وربما إذا

سارت الصفقة بشكل جيد قد نحصل على علاوات قبل نهاية السنة!"

حمدت الله كثيرا على نعمة وجود دانا في المكتب لتغير تفكير الجميع نحو العلاوات والمال فتبتعد

الشكوك والظنون عني فأرتاح قليلا، لأن فكرتها قوبلت بالتهليلات والدعاء والفرح والضحكات.

عند نهاية دوام هذا اليوم توجهت شهد نحو مكتب شادي لتسليمه التقرير، لكنها عادت وقد تغيرت معالم وجهها، كان في عينيها نظرة لا تفسر، ولفتت الأنظار نحوها بمشهدها الدرامي حتى أنني أصابني الفضول لأعرف ما غم على قلبها، اتجهت نحوها دانا لتسألها إذا كانت بخير، فرفعت رأسها والدمع يترقق في عينيها وقالت:

" الغيبة سناء كانت محقة..... المدير متزوج.... لمحت خاتما من فضة في إصبعه البنصر " ثم دفنت وجهها بين كفي يديها وأخذت تبكي بأسى، لمحت بعض الوجوه الحزينة حولها على هذا الخبر، يا إلهي لم يمت أحد! كل هذا بسبب اكتشافهن أمر زواجه! كيف لو عرفن أنني أنا زوجته؟ ماذا سيفعلن وقتها؟ يا رب لا أريد أن أعرف ردة فعلهن. نظرت نحو سارة ففوجت بها تبكي هي أيضًا، حبًا بالله ماذا جرى لهن؟ هل حقًا كن يأملن بزواجه بإحداهن؟ وضعت كفي على كتف سارة لكي أخفف عنها. ثم طلبت منها التفكير بعقلانية وذكرتها بمهند لعلها تهدأ لكن عبثًا حاولت.

تفقدت هاتفي أثناء نزولي سلام المبنى فوجدت رسالة من ليان تطلب مني فيها الانضمام إليها مع أمي في تناول طعام العشاء، فتورد قلبي شوقا وفرحا للقائهما، كانت رسالتها هي البلسم الوحيد الذي رفف على قلبي منذ بداية هذا اليوم بكل فصوله المربكة وعواصفه النكدة... نظرت من حولي يمنة ويسرة لأتأكد من عدم مراقبة أحدي وركضت عائدة نحو مكتب شادي الذي كان ما يزال جالسًا فيه ينهي بعضًا من مهامه. كنت سعيدة لأنني لم أجد السكرتيرة حتى لا أشرح لها سبب طلبي مقابلته، طرقت الباب لكنه لم يجب فتجرات وفتحته على مهل.

كان منغمسًا في قراءة بعض الأوراق الموضوعه على مكتبه ثم رفع رأسه نحوي وأومأ به متسائلًا عن سبب دخولي مكتبه، تقدمت منه وأخذت نفسًا عميقًا وقلت:

" أريد..... أريد الذهاب... إلى بيت أمي.... لأزورها "

ثم نظرت نحو قدميَّ بارتباك واضح، لم يقل شيئاً لكنه نهض عن مكتبه واتجه نحوي ووقف أمامي ومد يده مطالباً إعطائه هاتفني النقال، لم أفهم سبب طلبه لكنني ناولته إياه دون جدال بعد أن أرعبني التجهم الذي على وجهه، ضغط على شاشته قليلاً ثم أعاده إلي وقال:

" عندما أتصل بك تجهزين نفسك للمغادرة لأعيدك إلى القصر ها قد زودتك برقمي "

لم أصدق ما سمعته أذناي هل حقاً سمح لي بالذهاب إلى بيت أمي؟ فقررت أن أغادر قبل أن يغير رأيه لكنه فاجأني عندما وصلت إلى الباب بقوله:

" آه صحيح! قمت أيضاً بحذف رقم فارس من هاتفك "

ثم عاد إلى كرسيه ليجلس عليه بينما تملكنتني الصدمة مما فعل.

ليان

دخلت المدرسة برفقة يزن بعد أن قمت بتأخيره عن الحضور مبكراً متعمدة لأحافظ على أسلوب المعتاد، فاستقبلتني المساعدة بالأحضان تهنئني ثم قالت مازحة مؤنبة:

" يا عيني! ليان لم يربها الزواج على الالتزام بالمواعيد لا بل وغيّرت أخلاق يزن!"

فأجبتها بتهكم:

" بالنسبة لأخلاقه فهي معطوبة منذ تعرفت عليه "

فشهق متفاجئاً ونظر نحوي مستنكراً، لكنني تجاهلته حينما لمحت قوس الألوان خاصتي... سكرتي وأنسي.. حبيبي هناء.

ركضت من نهاية الممر وهي خارجة من المطبخ نحوي، واستقبلتني بالأحضان، ثم اجتمع من حولنا العديد من الزملاء مباركين ومهنتين لنا، وقام يزن بتوزيع نوع فاخر من الشكولاته عليهم فرحاً بزواجنا.

التقت عيناى بعينى مازن الذى كان يقف بجانب باب مكتبه، كان ينظر نحو يزن نظرة ملؤها الغيرة فشعرت بالأسى عليه ثم أعاد نظره إالى وابتسم ابتسامة صغيرة فرددت له ابتسامته، وأشك أن يزن لمح هذه اللحظة لأنه جذبني من وسطي وتمسك بي أكثر، أو ربها خيل إالى وُخْلِطَتْ علي انفعالاته.

استأذن مازن فى أثناء دروسى مع طلبتى أن يدخل إالى الغرفة الصفية ليعطينى وصلوات للأقساط المدرسية لكى أرفقها لأولياء أمور بعض الطلبة، رفع نظره إالى وقال مجاملا:
" ازددت جمالا عقب زواجك "

شعرت بخدي يتوردان وشكرته على مجاملته، فنظر نحوى نظرة مطولة وقال:

" أتمنى أن يحسن معاملتك، فما زال رأيى به كما هو إنه لا يستحقك "

لم أجه هذه المرة وانتظرت منه أن يغادر فقد شعرت بالخرج من كلامه، فلما رأى سكوتى هز رأسه وابتسم محرجا وغادر، أغلقت الباب على الفور لكننى فوجئت بيزن يدفعه ليفتحه من جديد، نظرت إالى مدهوشة.

اقترب منى وقال بصوت ممتعض:

" ماذا كان يريد منك؟ "

رفعت الوصول فى وجهه ثم أشرت بعينى نحو الطلبة الجالسين فى مقاعدهم ليختصر، ثم قال:

" كثرة الحديث مع رجال آخرين غير مقبولة مفهوم يا لىان؟ "

لم تعجبني نبرته فى الحديث معى، من يظن نفسه ليخاطبني بهذه الطريقة؟ فأجبتة بجرأة غير آبهة بغضبه:

" أكلم من أريد وقتما أريد لم أقترف ذنبا، والآن غادر لىدي حصة "

اقترب أكثر من أمامى وقال بانفعال:

" عفوا؟ ماذا قلت؟ حسنا يُمنع عليك منعا باتا الحديث مع هذا الذى يسمى مازن "

- " لا؟! من أنت لتملى على مع من أتكلم؟! "

- " أمم لا أدري لكن ربما زوجك!!!"

أخذت نفسًا عميقًا وحاولت دفع جسده خارجًا بينما الطلبة يشاهدوننا مستمتعين، ثم زفرت بغضب:

" اخرج!!! لدي حصة!! لا وقت لي لتفاهاتك "

جحظت عيناه من الصدمة وقال بصوت ملغوم:

" تفاهات؟! حقًا؟! طيب يا ليان!"

ثم غادر الغرفة غاضبا، شعرت بشيء من الخوف من غضبه لكن هيهات أن أظهر له ضعفي

فصفت الباب بقوة خلفه لأنال في المقابل هدوء الطلبة خوفاً من ردة فعلي قبل قليل.

انتهى دوام يومي الأول أسرع مما تخيلت، فوضبت أغراضي وانطلقت دون تفكير نحو منزل أمي

بعد أن أرسلت رسالة إلى يزن أقول له فيها أنني سأتناول العشاء عندها ولن أعود قبل المساء،

وقمت بإرسال أخرى لإيلينا أطلب منها المجيء لنجتمع عند أمنا سوية. وبالنسبة ليزن، هكذا أربيه

حتى يعرف حدوده في التعامل معي.

قالت أمي ملححة بسؤالها:

" هل أنتما متأكدتان من عدم قدوم أزواجكن معنا على العشاء؟"

فقلت مجيبة بضجر:

" أه أمي كم مرة سألتني؟ قلت لك يزن لديه أعمال لن يأتي!"

فقال معترضة:

" للاحتياط سأزيد كمية العشاء لربما حضر أحدهما جائعا"

بقيت أتجادل مع أمي جدالاً عقيماً حتى سمعت صوت جرس البيت يقرع، وضعت إيلينا حجابها

على رأسها واختفت خارجة من المطبخ لفتح الباب، ففوجئت بسماع صوت يزن مقبلاً ليقول بمرح:

" كيف حالك يا إيلينا! ملابسك جميلة أين هي لؤلؤة؟"

خرجت من المطبخ أنظر مصعوقة نحوه ما الذي جاء به؟ نحن متخاصمان! فأشار لي بإصبعه وقال:

" ارتدي حجابك أحضرت معي ضيفاً "

فالتقطت حجابي عن الأريكة ووضعتة على رأسي ثم قال بمرح مجدداً:

" احزري يا إيلينا من أحضرت معي؟ "

ثم أطل شادي من خلفه فسقط وجه إيلينا ذهولاً كأنها لم تتوقع مجيئه، ثم تقدمت أمي ورحبت بهما وطلبت منهما الجلوس في غرفة المعيشة، ثم لكزت إيلينا لتخرج من صدمتها وتحضر العصير لتقدمه لهما.

ابتسمت لأخفي غضبي ثم قلت لأمي :

" هل تسمحين لي بكلمتين مع يزن؟ يزن! تعال معي! "

ثم سبقته نحو غرفتي القديمة فتبعني على الفور، أغلقت الباب ونظرت إليه مقطبة الجبين ليدرك مدى استيائي منه، فجال الغرفة بعينه ثم قال:

" كنت تنامين هنا؟ غرفة لطيفة "

فقاطعتة قائلة:

" يزن! ماذا تريد؟ أنا لا أكلمك! "

حك ذقنه قليلاً وقال:

" ولك المرأة في مخاصمتي يا سلام! اسمعي أنت أذنبت ولم تعتذري "

- " علامَ أعتذر أنت المخطيء! "

- " مخطيء في إبعاد رجل يشتهي زوجتي من طريقي؟ "

- " يزن حباً بالله لو كنت أريد مازن لقبلت به هو لا أنت، أرجوك لا تفتح للغيرة مجالاً لتفسد علينا "

حياتنا! "

تنهد بقوة وقال:

" لؤلؤة! أنا لم أعترف لك بسري لكي تفعلي بي هذا بعد الذي مررت به فقدسية الزواج لها "

أهمية لدي والخianات الزوجية لا تغتفر في قلبي "

اقتربت منه وقلت مؤكدة:

" أنا لن أخونك فأخرج هذه الأفكار من رأسك، هل جننت لتفكر بهذا؟"

فقال معتدًا:

" سأخرجها إذا اعتذرت "

فأخذت أجادله أنني لن أعتذر، تسبب لي بالإحراج أمام طلبتي ويريد التحكم فيمن أكلمه ويريد أيضا اعتذارًا؟! لا هذا كثير لقد تمادى.

عندما رأى عنادي في الاعتذار اقترب مني فابتعدت نحو الخلف فاقترب أكثر لأبتعد أكثر وأشرت له بإصبعي منبهة له:

" نحن لسنا وحدنا أمي وأختي في الخارج "

لكن ذلك لم يمنعه من الاقتراب حتى حوصرت على حافة طاولة مكتبي القديم، مد يديه وأمسك بحافة الطاولة وحاصرني في المنتصف فهمست باسمه مهددة فزاد ذلك من استمتاعه، ثم قرب رأسه مني حتى لفحتني أنفاسه الحارة وهمس قريبًا من أذني:

" أنت ظريفة وفريدة من نوعك، لكنك أحيانًا تثيرين جنوني "

لم يسعفني الحجاب في التخفيف من سخونة أنفاسه على أذني، ازداد خفقان قلبي شدة حينما قرب شفثيه من فمي، في لحظة ظننته سيقبلني، كنت على يقين من ذلك، لكنه ابتعد فجأة لأشعر بالبرودة تجتاح أوصالي من أثر بعده. ابتعد إلى الخلف يمسح شفثيه وينظر إلي بمكر، وقال:

" سأتركك في نار رغبتك دون أن تنالي تلك القبلة، حتى تطليبيها بنفسك... اعتبري ذلك عقابك "

وغادر الغرفة عائدًا إلى الجالسين في الخارج بينما أعاني من ثقل الهواء حولي وصعوبة في التنفس، وشعور بالتيه بسببه، يا له من وضع! حاولت أن أتحكم في تنفسي وأخذت شهيقًا وزفرته على مهل. ألقىت نظرة على معالم وجهي الغبي أمام المرأة وأخذت أقنع نفسي بأنني سأرد له الصاع صاعين. ثم خرجت أتصنع الابتسامة حتى لا يشك أحد بشيء غريب حولي.

إيلينا

كنت أبعد ما يكون عن الصدمة! ما الذي جاء به هنا؟ هل أقنعه يزن بالمجيء؟ كنت بين الفينة والأخرى أسترق نظرات نحوه لأجده جالسًا وأنظاره مثبتة أمامه متجنبًا الالتفات نحو أحد، حتى أمي خشيت من محادثته بسبب هذا الوجه الجامد الذي يضعه، خرج يزن كعادته مرًا بعد أن أنهى حديثه مع ليان، ثم بادر بممازحة أمي وسرد بعض مواقف ليان المضحكة، ثم نظر شادي نحوي مبتهجًا فلم أفهم سبب ابتهاجه، فقال لدى خروج ليان عندنا:

"ذكرتني يا يزن بإيلينا فقد وقعت أرضا وهي نائمة صباحًا"

احمر وجهي بشدة بينما استقبل الآخرون الموقف بطرافة وأخذوا يضحكون فوجهت له نظرة معاتبة. أدهشني شادي بتناوله طعام العشاء معنا، كنت أظنه متغطرًا وسيتكبر على طعام أمي البسيط، أما ليان فكان لونها متغيرًا ولم أفهم ما بها لكنها كانت توجه نظرات قاتلة نحو زوجها فشككت بوجود مشكلة بينهما. وفي أثناء تناولنا وجبة العشاء قرع الجرس، فاتجهت ليان لتفتح الباب لتفاجأ بقدوم عائلة خالي، تغير لون أمي على الفور ولم أفهم السبب، تقدموا منا ورحبوا بنا ودعاهم يزن إلى مشاركتنا الطعام، لكن خالي وزوجته رفضا معتذرين أما أبناءهم الثلاثة فانقضوا يأكلون معنا. رحب يزن بخالي بشدة مرة أخرى، ثم نظرت زوجة خالي نحو شادي وقالت متسائلة:

"تبدو مألوفًا... هل تعرفك؟ هل أنت من معارف يزن؟"

لم يجيبها شادي لكن يزن نظر إليها متعجبًا وقال:

"هذا شادي صديقي... زوج إيلينا"

أغلقت أمي عينيها وغطت فمها بارتباك بينما خالي وزوجته تبادلنا نظرات متفاجئة ثم قال خالي فجأة صادمًا لي، فأوقعت ملعقتي من يدي:

"إيلينا متزوجة؟! منذ متى يا ماريًا؟"

الفصل السادس والعشرون

لم يرمش أي منا... الكل كان في مكعب الصدمات الخاصة به.. في البداية ظننتها يمزحان، حتى قالت ليان مبتسمة بإحراج لتكسر جمود اللحظة:

" خالي كفى مزاحًا! "

فقاطعها بحدة ووجه كلامه إلى أمي قائلاً:

" أنا لا أمزح! ماريا اشرحي لي ما يجري هنا! "

اتجهت الأنظار نحو أمي التي كانت تتنفس بصعوبة والعرق ينساب من جبينها ثم أغمضت عينيها لتتجنب النظر إلى أي منا وتلفظت مترددة:

" حسنًا الأمر هو... لم أكن متأكدة من زواج إيلينا... ولم أعرف إن كان علي تعميم الخبر أم لا.. " سكتت قليلاً فقالت ليان محتدة:

" اشرحي ما تعنين أمي! جفت دماؤنا "

تنهدت بمرار ثم وجهت نظرها نحوي وقالت وهي تحمل على وجهها تعابير الأسى:

" ظننت أن زواجك مكيدة للإيقاع بك من قبل والدة زوجك... حتى آخر لحظة كنت أخشى أن.. " يتم إلغاء الزواج "

ثم نظرت نحو شادي وقالت:

" ساحني يا بني! "

هز شادي رأسه وزم شفتيه محرّجًا، لكنه لم يتفوه بحرف واحد.. ثم عادت بنظرها إلي وأضافت:

" لم أشعر بأن نيتها حسنة في تزويجك رأيت معاملتها معنا! لقد ازدرتنا وتكبرت علينا، حتى أنهم لم

يلبسوك أي حلي في زفافك ولو خاتم زواج! كنت أظن... كنت أظن أنك ستعودين إلي مطلقة في

أي وقت.... لم أشأ أن أعرض عليك مخاوفي.. خشيت أن تستائي مني.. إنني منذهلة أنك ما زلت

على ذمته حتى الآن!.. أعني بالله عليك انظري إلى شادي ووضعه هل تريديني أن أصدق أن شابا بهذه المواصفات قد يقبل بابتني البسيطة؟"

بدأت الدموع تتجمع في عيني، وشيء يخنقني يتصاعد في جوفي، توقعت كلاما كهذا من أي أحد... أي أحد!.. إلا من أمي فأجبتها ردا مني على آخر عبارة لها:

" ليان تزوجت من شاب بمواصفات مشابهة... وها هما سعيدان! لما لم تشكي في طلاقها؟"

شعرت ليان بالخرج من سؤالها فأخذت تتقلب في مقعدها غير مرتاحة فأجابتنني أمي بحذر:

" ليان..... هو أحبها وجاءنا برجليه ولم نكن على علم بوضعه... ظننته معلما بسيطا مثلها ما أدراني

بشراء أبيه؟ ورأيتك بعينيك كيف توسلها للقبول به رأيت فرحته التي وصلت عنان السماء في حفل

زفافه..... نحن... أنا لم ألمس شيئا كهذا في.... فرحك.... كنا كالطفيليات.. كقطع زائدة في لوحة

فنية لا داعي منها"

أعادت نظرها نحو شادي واعتذرت منه ثانية، أما هو فكان يضم يده حول صدره والثانية يغطي بها

فكه السفلي كأنه يشعر بعدم الراحة مما قيل أمامه، وما أشعل غيظي أكثر أنه بقي صامتا ولم يجيبها..

ولماذا سيجيبها وكل كلمة قالتها صحيحة؟! إنه يزدريني! بل لم يرغب من الأساس بالتورط معي!

أنا عبء على حياته الآن!

أخذ يزن يدور بعينه بيننا وربت على كتف صديقه يؤازره، لم أكن بعد أدرك أنني أبكي وقتها،

بالرغم من أن الحقيقة السوداء خلف هذا الزفاف مؤلمة بشكل لا يطاق، لكن ذلك لا يعطيها الحق

في أن تقلل من شأن ابنتها وتظن بي أسوأ الظنون.. لقد جعلتني أشعر بحقارة قدرتي أمامه وأمام

عائلته.. وإن أراد أن يهينني في أي لحظة فلن يلام! فأمي زودته بالفتيل اللازم لذلك.. وأيضا أن

تخفي زواجي عن معارفنا وأقاربنا وتتوقع طلاقني بهذه السرعة فهذا كثير علي! لم يعد لي مهرب مما انا

فيه! يكفيني ما أعيشه.

حاول خالي وزوجته الرد لكنهما لم يعرفا بما يردان ولم يجدا كلاما مناسباً ليقولاه فأثرا الصمت وبقيت نظراتهما مسلطة علي ينتظران ردة فعلي، فما كان مني إلا أنني نهضت عن المائدة التي كانت أمي قد جهزتها في غرفة المعيشة وبدأت أهدر بكلام دون وعي مني:

" أنا لا أصدق أنك يا أمي من بين كل الناس لم تسانديني في زواجي، هذه هي نظرتك إلي؟ ألا أساوي شيئاً ثميناً بالنسبة لك؟ أم علي الزواج من سكير يكبرني بعشرين سنة؟ هل ستشعرين وقتها أنني في مكاني السليم؟! "

قاطعتني بنبرة متألّمة:

"أنا لم أقل ذلك! إيلينا لم تفهميني..."

لم أشأ أن أسمع منها المزيد فتابعت بنبرتي الحانقة ذاتها ودموعي تغطي علي مجال الرؤية:

"نعم أم شادي امرأة متسلطة.. ربما هي لا تحبني ولا تريدني زوجة لابنها الغالي! لكن عمي يحبني ويوقفها عند حدها وهو الذي أصر علي زواجي لأنه يرى بي شيئاً عجزت عيونكم العمياء عن استيعابه! والسيء... وشادي..."

ثم نظرت إليه فالتقت نظراتنا وقلت:

" إنه زوج حنون.. ويحسن معاملتي.. قد لا يحسن إظهار مشاعره أمامكم لكنه طيب القلب، ودعيني أطمئنك هو لن يطلقني!"

شعرت بوجنتيه تتوردان لكنه حافظ علي جمود تعابيره ثم أعدت النظر نحو أمي وقلت وأنا أرفع يدي اليسرى في وجهها:

" كلامك جرحني في الصميم لم أكن أعلم بأنك تنظرين نحوي باحتقار هكذا! هاك!... هذا خاتم زواجي ارتحت الآن؟ والحلي! استلمته وخبأته.. ها أنا أرتدي منه عقدا.. انظري! عياره ثقيل ولست أكذب... أليس هذا ما تريدينه؟ مظاهر؟! "

بدأت أمي تكافح دموعها قائلة:

" ابنتي حبيبتي لم أقصد هذا كنت خائفة عليك ليس إلا..."

رفعت يدي أسكتها ثم قلت:

" سأرحل من هنا... أريد العودة إلى البيت ما كان ينبغي أن آتي أصلاً.. كان مجيئي غلطة!"

ثم هرعت نحو الباب فأخذ الجميع يتهف باسمي لأتوقف وأهدأ قليلاً وتبعني ليان وزوجة خالي إلى الباب لتمنعاني من الرحيل، فأبعدت أيديهما عني بغلظة وقلت بسخط:

" اتركوني لا أريد ان أتحدث مع أحد!"

ثم التفتت نحو شادي حيث كان ملجوماً بالذهول مني وصرخت محتدة:

" هل ستأتي معي أم أعود بمفردتي؟"

ثم دفعت كلا من ليان وزوجة خالي بعيداً عن طريقي وفتحت الباب بعنفوان وصرعته خلفي ونزلت السلام بغير هدى مني.

سرت في الشارع مبتعدة عن المبنى والحى قبل أن تفكر ليان أو أي أحد باللحاق بي، ثم شعرت بضوء مسلط علي في عتمة المساء، لحقها صوت زامور سيارة، أدت رأسي إلى الخلف لأجد شادي يلحقني بسيارته، اصطف إلى جانب الطريق قريباً مني وأشار إلي قائلاً:

" اركبي"

نظرت من حولي كأنني أشاور نفسي هل أصعد معه أم أتجاهله؟ لكن إلى أين سأذهب؟ لا مكان لي ألجأ إليه، فرضيت بالواقع المر وصعدت السيارة إلى جانبه دون أن أكلمه، وهو بدوره تجنب محادثتي، حتى وصلنا القصر، لم أنتظر منه أن يفتح لي باب السيارة بل فتحته بمفردتي وانطلقت كالإعصار متجهة نحو الداخل لأختبئ في غرفة شادي على أريكتي.

استوقفتني أمه بضع لحظات قائلة:

" هكذا تدخلين دون كلام؟! أين كنت كل هذا الوقت؟ وكيف تغيين عن القصر دون استئذان؟"

نظرت نحوها بنظرات ملتهبة فلم أكن أنقصها هي الأخرى، لست في مزاج لأعلق معها، دفعتها بكتفي مارة من جانبها وصعدت السلام بسرعة متجنباً النظر إليها، بدا لي أنها تفاجأت من ردة فعلي فهي لم تعلق بشيء إزاء دفعي لها.

دخلت الغرفة واتجهت نحو أريكتي وألقيت جسدي عليها وأخذت أبكي بألم وحسرة، سمعت هاتفي من داخل حقيبتتي يصدر رنينًا، فأخرجته من الحقيبة لأجد مكالمة صادرة من ليان، فرفضت المكالمة وأغلقت الهاتف وألقيته جانبًا ودفنت رأسي أبكي بلا انقطاع.

لا أدري كم من الوقت مر على بكائي لكن يبدو أنني غفوت من شدة ما انتحيت، تردد صوت شادي قريبًا يتحدث، فرفعت رأسي ووجدت باب الخزانة مفتوحًا وصوت شادي قادمًا من الداخل ثم سمعته يحدث أحدهم قائلاً:

" قل لها أن تطمئن إنها نائمة الآن..... لا يا رجل لم يحصل شيء تعتذر من أجله..... هي قالت

هذا من خوفها على ابنتها..... سأرسل إليك رسالة حالما تهدأ ويصلح حالها"

ثم أنهى المكالمة وخرج من داخل الخزانة فألقيت رأسي على الأريكة أظاهر بالنوم، ظللني خياله، ثم شعرت بيده تلمس رأسي، رفعه ليخلع حجاي عني، ثم عدل وضع رأسي على الوسادة وبدأ يمسح بيده على شعري، تفاجأت من تصرفه لكنني لم أجرؤ على فتح عيني، ثم شعرت به أقرب وأحسست لأول مرة بأنفاسه تحترق فروة رأسي وهمس في أذني قائلاً:

" لا أعرف كيف تحمل فتاة بلهاء مثلك شعرا جميلا كهذا"

همسته أشعلت نار حفيظتي وشعرت بكهرباء تسري في عروقي، ثم نهض من جانبي وقال:

" أعلم أنك مستيقظة كفاك تصنعًا"

فتحت عيني فالتقت نظرانا كان يقف فوقني ينظر نحوي بمكر، فقطبت حاجبي لأتصنع التجهم والعبوس ونهضت جالسة ومررت بأصابعي في خصلات شعري الطويل لأصففه بأصابعي، وأشحت بوجهي بعيدا عنه وهاجمته بعبارة جافة:

" لم أكن أتصنع النوم أنت أيقظتني"

جلس إلى جانبي على الأريكة فأبعدت جسدي عنه إلى الطرف الآخر وقلت مهاجمة له:

" لو سمحت هذه أريكتي الخاصة فكما منعني من الاقتراب من السرير، فهذه منطقتي الخاصة

ويمنع عليك الاقتراب منها"

مد ذارعيه على ظهر الأريكة ورفع رجلا فوق الأخرى وقال بتهكم:

" هذه غرفتي .. وهذا أثاثي! وكل شيء فيها ملك لي.. كل ما فيها ملك لي! بما فيهم أنت!"

خفق قلبي بقوة عقب كلامه الجريء وشعرت برجفة في جسدي ثم رفعت فخذي إلى صدري

وضممت نفسي لأمنعه من التفكير بلمسي، فانحنى نحوي فأبعدت رأسي وقلت:

" أمك نهتك عن الاقتراب مني! ابتعد عني وإلا وشيت بك لها"

ظهر الاستمتاع جلياً على وجهه فقرب نفسه أكثر حتى حاصرني في المساحة الصغيرة المتبقية لي من

الأريكة، ابتلعت ريقى بصعوبة خوفاً مما قد يفعله، شعرت بيده يمسح بها على ظهري بخفة،

حاولت هز كتفي لأبعد لمستته عن ظهري، لكنني لم أستطع بل طوق وسطي بذراعه فأشحت

بوجهي إلى الجانب الآخر وقلت بنبرة خائفة:

" سأقول للسيدة انتصار إذا لم تبتعد عني!"

فجذبني من وسطي حتى استقر رأسي على صدره، فشعرت بالدم يجري في عروقي صعوداً إلى

رأسي، لم يلمسني رجل من قبل ولم أدخل في أحضان رجل قط. فكيف بواحد بهيئة الطلة بمواصفاته

التي لا تقاوم!

بلمسة يده الخفيفة أخذ يبعد خصلات شعري عن وجهي وأمال برأسه قليلاً إلى الأسفل فأصبح

وجهه قريباً جداً مني، استشعرت رائحة أنفاسه العطرة تسكر إدراكي، أمسك بذقني بأطراف

أصابعه ورفع نحو الجانب قليلاً ليتمكن من تمعن ملامحي، فوقعت عيني على عينيهِ الرماديتين

الأسرتين وهو يتطلع نحو شفتي بهدوء ثم رفع بصره نحو عيني وأخذ يتأملني وبدأت بدوري

أتأمله، يا إلهي ما أشد وسامته! هل هذا بشر؟ لم هو جذاب هكذا؟ لم أكن أدرك بعد أنه يضع يده

على بطني والأخرى أسفل ذقني، انحنى أكثر فظننته يريد تقبيلي فتجمدت في موضعي وأغمضت

عيني ولم أقوى على المقاومة لكنه اتجه نحو أذني هامساً فيها:

" لو أنك صبرت أيتها الحمقاء... لكان الوضع مختلفاً الآن"

ثم أفلتني ونهض فجأة فشعرت وكأن جسدي أصبح رخوا وكدت أقع عن الأريكة فحاولت التمسك بظهرها أتكى عليها، وأنا أحاول فهم عبارته التي نطق بها، ثم خرج من الغرفة ولم يزد حرفاً.

أمسكت بهاتفني الملقى أسفل الأريكة وأعدت تشغيله فوصلتني رسائل على الفور قلبت بينها لأجدها من ليان وزوجة خالي تريدان الاطمئنان علي فتجاهلت رسائلهما، لكن لفت انتباهي رسالة من رقم مجهول، فتحتها لأقرأ نصها فذهلت لما قرأت:

" لا أعرف كيف فعلت هذا بي كنت أنتظر قدوم هذا اليوم بالذات شوقا لطلب يدك لماذا غدرت بي وقبلت بشادي هل لأنه أشد ثراء؟ أم لأنه أشد وسامة؟ دست على قلبي ودمرته وحطمت بفعلتك أول حب صادق بحياتي"

لوهلة ظننت قلبي توقف عن الخفقان، قرأت الرسالة مرة ومرتين وثلاثاً وبين كل كلمة وكلمة كنت أستشعر كيان فارس فيها، تذكرت لقاءي الأول به.... موقف حمايته لي بسبب كسر المزهريه.... تكفله بإيصالي إلى البيت.... حديث أمه الغريب معي.... وطلبه رقمي وأخيراً..... اليوم الذي وعدني فيه بالزواج.

رهف قلبي شوقاً له نسيت كم كنت أحمل ودا في قلبي تجاهه، عادت مشاعري تجاهه تفيض من جديد لكن هذه المرة مع ألم شديد في قلبي، لولا السيدة انتصار وكيدها لكنت الآن في فراشي فرحة بقدوم فارس وطلبه الزواج مني.... لكنت اليوم قابلته في بيت أمي.... كنت سأغدو سعيدة، ربما يكون شادي جذاباً وتهيم به الفتيات لكنه بارد الأحاسيس ويعاملني بجفاء.. لم أشأ يوماً أن أنخرط في حياة رجل مثله.. أنا أردت من هو أبسط منه.. قلبي أراد فارس.

نزلت دمعة حائرة من عيني على شاشة هاتفني المحمول أسى على قلبي الحزين الضائع، أسى على قصة حب لم يكتب لها أن تحيا، تماماً مثل كسر خاطري عقب أمجد. ابتلعت ريقى ومسحت دموعي واحتضنت هاتفني على رسالته وعدت أبكي بحرارة ومرار. ليتني الآن برفقة فارس بدلاً من شادي يا ليت.....

نزلت إلى الطابق السفلي لأشرب كأس ماء وأتنفس قليلا من الهواء لعلني أجدد تفكيري وأستطيع نسيان جزء من همي، ففاجأتني ديمة بدخولها المطبخ خلفي قائلة:

" لماذا تزوجت من شادي؟"

التفت نحوها مفزوعة بسؤالها المفاجئ ثم قلت بعد أن وضعت الكأس على الطاولة الرخامية:
" لم أفهم! ماذا قلت؟"

اقتربت مني ووجهها جامد التعابير وسألت مجددا:

" قلت لك لماذا تزوجت من شادي؟"

رجعت خطوة إلى الخلف لأنني شعرت بالضيق من سؤالها الذي لا أجد له إجابة فقالت:
" اسمعي أنا لا أكرهك ولست غاضبة من زواجك بأخي، فأنا لا أتمنى إلا السعادة له.... لكن

لماذا؟ هل تدرين ماذا فعلت بفارس؟ هذه أول مرة أراه يبكي بهذا القهر"

رفعت بصري نحوها وبدأت عيناى تترقق بالدموع عقب سماعي آخر جملة لها ثم تابعت:

" قلت لك سابقا أنه يفكر فيك بطريقة مختلفة عن سواك.... حتى أنه حدث أمه عنك! ظننتك

متحمسة له! هل كنت تطمحين لشادي منذ البداية؟ أم أغرتك أمواله؟ ساعديني حتى أفهم طريقة

تفكيرك"

شددت قبضة يدي ثم اقتربت منها وأجبتها بسخط:

" أأنت من قلت أنك تشمين الأخبار في هذا البيت وتعرفين كل كبيرة وصغيرة فيه؟ اعرفي من

أملك سبب ارتباطي بأخيك.... الشيء الوحيد الذي سأقوله لك... زواجي من أخيك كان

إكراهاً"

ثم تركتها وخرجت من المطبخ لأصعد إلى الغرفة لأرتدي منامتي وأريح نفسي مما يدور حولي

وأهرب من مشاكل النوم هذا إذا استطعت أن أنام من الأساس.

ليان

رमित هاتفي على السرير باستياء من موقف إيلينا في إغلاق هاتفها فأرسلت لها رسالة عاشرة

أطمئن عليها، لكن من يلومها؟!

أمي أخطأت في حقها لم يكن من المفترض بها التصرف هكذا أو حتى البوح بعذرها بشكل صريح،

لو كنت مكانها للفتت كذبة بدل أن أضع نفسي في هذا الموقف، لقد احتقرت مكانة ابنتها أمام

زوجها وعائلة خالي.. مسكينة إيلينا!

شعرت بيديزن تبعد خصلة من شعري عن عيني فأجفلت، متى دخل الغرفة؟ لم أشعر به! نظر في

عيني نظرتة المحببة المعتادة وقال:

"تحدثت مع شادي قال أنها نائمة اطمئني ستكون بخير"

ثم قرب رأسه مني وطبع قبلة على خدي لكنني كنت غارقة في أفكار أخرى فوضعت يدي على كتفه

لأبعده عني وقلت متسائلة:

"لكن لماذا صديقك لا يعاملها بحب؟ لم يدافع عن حبه لها أمام أمي أم أنه أكره على الزواج بها؟"

رفع يديه مستسلماً وقال:

"لا أعرف يا ليان هو لم يقل لي شيئاً بخصوص هذا الزواج! ثم أن شادي ليس من النوع الذي يظهر

مشاعره بسهولة إنه.... إنه غامض.... وصعب المراس.. مع أنني رفيق دربه إلا أنني نفسي أضيع

معه أحياناً، بينما أنا ثرثار فهو على النقيض من ذلك."

حاول التقرب مني ثانية لكنني تجاهلته وابتعدت من أمامه لأُكمل تيار أسئلتي:

"وماذا عن أمه إذا كانت تكرهها فلماذا جاءت بقدميها لتقنعها بالزواج من ابنتها؟ ألا تجد ذلك

متناقضاً"

فأجابني بنفاد صبر:

"لا أعرف ليان! لا أعرف! اتركي موضوعها ليحلا مشاكلها بنفسها ودعينا ننشغل بأمورنا

رجاء!"

فنظرت له بازدرء وقلت:

" أنا لا أريدك أن تتقرب مني الليلة فأنا غاضبة منك "

زفر بنفاد صبر ثم فتح ذراعيه على مصراعيهما وقال بتأفف واضح:

" ماذا تريدان؟ ها؟ قولي... تريدان أن تبدئي مشكلة بلا سبب؟ أم أن كل هذا المشهد تصنعيه "

لأسمح لك بالحديث مع مازن؟ "

فأشرت نحوه بإصبعي مهددة قائلة:

" إياك أن تتجرأ وتتهمني بشيء! أنت غير معقول عدنا إلى موضوع مازن من جديد؟ أتعرف أمرا؟ "

لا أريد الجلوس معك الآن سأستنشق بعض الهواء فلا تتبعني "

ركل المنضدة برجله وتركته وحده غاضباً يزجر مع نفسه وسرت باتجاه الحديقة لكن استوقفني

صوت والده وهو يتناقش بصوت مرتفع مع أحد في داخل غرفة الطعام فتوقفت لأسمع ما يقال.

كان الشخص الآخر والده يزن.. لأنني سمعت صوتها تقول:

" ماذا تريد منها أليس ابنك الآن متزوجاً وسعيداً؟ هذا ما أردناه له! أن يشعر بالسعادة التي طالما

حرم منها "

فأجاب محتدًا:

" نعم بالتأكيد هذا كان ليحصل بشكل أفضل لو ارتبط بفتاة تستحقه "

فقالت مصرة:

" وماذا يعيب ليان؟ أعلم أنها ليست من طبقتنا لكنها مهذبة وتحافظ على فرضها كما أنها جميلة جداً "

فقال بنبرة غضب:

" ابنك ذا جاه ومال وجمال، لديه مقومات أفضل منها بكثير، لا يختلف اثنان في القول بأنه أجمل

منها! سأبحث عن ثغرة في هذا الزواج حتى أنهيه. أنا متأكد من وجود ثغرة فيه "

تراجعت إلى الخلف مبهوتة، فيكفيني ما سمعت .. وضعت يدي على قلبي الذي يخفق رعباً من هذا

الرجل ونواياه تجاهي وبقيت كلمته ترن في أذني ... ثغرة في زواجي! يريد أن يبحث عن ثغرة في

زواجي! فجال في خاطري فجأة كلام يزن عن قدسية الزواج وكرهه للخيانة الزوجية. فحدثت نفسي بأني لن أسمح له أبداً باستغلال أي ثغرة بيني وبين يزن.

جلست على السلام محتضنة رأسي بكفي أصارع أفكارني ، صعدت عائدة نحو الغرفة، فتحت الباب فلم أجده، ثم خرج من الحمام مبتل الشعر يرتدي رداء، لأفهم أنه كان يستحم، تساءل لدى رؤيتي: " انتهيت من جولتك في الحديقة؟"

عيناه تلمعان حينما يخلق ذقنه... شعرت بالخجل من وسامته لكنني تماكنت نفسي وأجبت: " جئتك كي نتحدث...."

سار ماراً من جانبي لتعلق في أنفي رائحته الزكية وتوجه نحو الخزانة ليخرج منها ملابس ليرتديها، لكنه وقف أولاً عاقداً يديه أمام صدره ينتظر مني أن أبدأ كلامي، فأخذت نفساً عميقاً لأحاول التركيز وقلت:

" اسمع إذا كان مازن يشكل مشكلة لديك....."

ضيق عينيه وهو ينظر إلي فصعب علي التركيز أكثر فحاولت استجماع أفكارني ونظرت نحو الأرض لأخفف توترني وقلت:

" رجاء الا تنظر إلي هكذا ... أنت تفقدني تركيزي "

أمال رأسه قليلاً إلى الأمام وقال:

" ليان! أنا زوجك! مر على زواجنا عشرة أيام ولم تعتادي علي بعد؟"

فأدرت وجهي للجهة الثانية وتوسلته قائلة:

" رجاء يزن! "

تنهد مستسلماً وسكت للحظات ثم استدار إلى الجهة الأخرى لكي لا ألمح وجهه، مطيعاً لرغبتني ثم قال:

" حسناً أكملني كنت تتكلمين عن ... مازن "

نظرت نحوه وبدأت بمراقبته خلسة وهو يغلق أزرار قميص منامته، نظر إلي من طرف عينه
مستهجنا سكوتي حتى الآن، فأجبتة بسرعة:

"حسنا... أنا.... أنا لن أكلمه إكرامًا لك إلا..... إذا اضطررت لأمر تتعلق بالمدرسة"
لم يقل شيئًا، ولم يعقب على كلامي، اقترب مني، ثم قال:

"انظري إلي"

غطيت وجهي بيدي لأخفي خجلي، فأصر قائلاً:

"ليان انظري إلي"

أبعدت يدي فوجدته واقفًا أمامي مباشرة فشعرت بالدم يغلي في رأسي، فاستدرت لأغادر الغرفة
لكنه طوقني بذراعيه من خلفي واحتضنني بقوة وضممني إلى صدره وقال بصوت ثقيل:

"إلى أين أنت ذاهبة؟ ألا تريدين التواجد مع زوجك؟"

وضعت يدي على كفيه المعقودين على بطني لأحاول تخليص نفسي من قبضته وقلت بصوت
ضعيف واهن:

"يزن! غداً مدرسة!.... عندي دواء.."

ولم أستطع إكمال كلامي فقد حملني على كتفه وسار بي نحو السرير، كيف يستطيع حملي بهذه السهولة
كأنني دمية بين يديه! أنا متأكدة أنه يمارس تمارين لبناء الجسم فلا يمكن لأحد الحصول على جسم
كهذا دون تعب.

ثم رماني على السرير وابتسم بمكر فشعرت بالدماء تتصاعد إلى وجتي وأمسى نفسي ثقيلًا. اتجه
نحو الباب وأوصده فابتلعت ريقتي من شدة الارتباك ليعود إلي إحساسي بالخجل. متى سأعتاد عليه
وعلى جاذبيته وأتوقف عن الشعور بحياء شديد كلما أعرب لي عن حبه؟!!

إيلينا

نزلت في صباح اليوم التالي لأخرج من البيت قبل أن يستوقفني أحد، لكن خطتي باءت بالفشل فقد

أمسكت بي السيدة هالة وقالت موجهة كلامها إلي:

" سيدتي إيلينا، السيد هشام يطلبك إنه في غرفة الطعام "

ابتسمت لها بخفة واقتربت منها قائلة:

" لا تناديني سيدتي فقط إيلينا "

هزت رأسها وابتسمت لي بحنو وقالت:

" لا يجوز ذلك أصبحت زوجة السيد شادي واحترامك واجب، والآن أسرع سيدي في انتظارك "

سرت بارتباك نحو غرفة الطعام لأجد الكل جالسا إلى مائدة الإفطار من بينهم أمجد، هل بات الليل

هنا؟ حمدا لله أنه لم يمر من المطبخ البارحة وإلا رأني مكشوفة الشعر. ابتسم عمي لدى رؤيتي وقال:

" تعالي وتناولي طعام الفطور معنا يا حلوتي "

اعتذرت متبرمة بألم في معدتي، فرفعت السيدة انتصار حاجبيها استنكاراً، ثم قال:

" حسناً اليوم بعد الدوام سأأخذك شادي لتشتري فستانا بمناسبة الحفل "

قطبت حاجبي متسائلة بفضول:

" أي حفل؟ "

نظر نحو زوجته باستياء وقال:

" لم تقولي لها؟ "

لوح يدها باشمئزاز وقالت:

" ومتى تسنى لي أن أقول لها؟ كانت غائبة عن البيت طيلة البارحة "

رمقها بنظرة سخط ثم التفت نحوي وتبسم لي موضحا:

" إنها مناسبة للاحتفال بمرور خمس وعشرين سنة على تأسيس الفردوس سنقيم الحفل في الشركة في

نهاية الأسبوع لأدخل الفرحة على العاملين فيها "

فأومأت رأسي مبتسمة ثم اعتذرت منهم للذهاب إلى العمل لكنه استوقفني أخيراً قائلاً:

" إلى أين يا ابنتي؟ لا تقولي لي ستذهبين بمفردك؟ سيوصلك شادي.. "

ثم نظر نحو شادي فاحتجت السيدة انتصار قائلة:

" لكنه يتناول طعامه الآن! تريد مقاطعته عن وجبته؟ "

وقبل أن يدب بينهما الخلاف نهض شادي مسرعاً وقال:

" لا بأس لقد شبع، كنت أهم بالمغادرة أصلاً "

ثم انحنى نحو أمه وقبلها على رأسها، أقنعت نفسي أنه فعل ذلك ليسكت لسانها عما لا يلزم من

قيح الكلام. استأذن من الجميع وسبقني خارجاً، ثم سرت خلفه حتى أدركته، تركته يمضي

واستدرت من جهة معاكسة للكراج حتى لا يوصلني ففاجأني بيده تقبض على كفي وشدني سائراً

بي نحو السيارة قائلاً:

" تعلمي طاعة كبير العائلة "

حقاً لا أفهم تفكير هذا الشاب، الآن يريد إطاعة والده! سار بي حتى وصلنا السيارة وفتح لي بابها

كالمعتاد فركبت دون نقاش.

قاد السيارة في الطريق كاملاً دون أن ينبس ببنت شفة ثم وصل على مقربة من الشركة فصرخت به

فجأة:

" توقف! "

فتوقف على جانب الطريق ونظر إلي مستنكراً مع لمحة من الذعر وقال:

" ما بك؟ "

فقلت مشيرة أمامي إلى الموظفين الذين يصعدون السلم:

" سأنزل هنا وأكمل وحدي لا أريد لفت الأنظار نحوي ... أمك أوصتني ألا يعلم أحد بزواجي

منك "

وفتحت الباب، لأترجل فأمسك بالمقبض وأغلقه قبل أن أتمكن من النزول ثم أخيراً طرح التساؤل الذي كان يدور في خلدته منذ اليوم الأول من زفافنا:

" كيف أفنعتك أُمي بالارتباط بي؟ والسؤال الأهم، ما الذي جعلك تستمرين بهذا الزواج مع علمك بمخطط أُمي في إفساد حياتك؟"

أخذت نفساً عميقاً لأنني شعرت أن الهواء هنا أصبح معدوماً ثم مددت يدي لأمسك مقبض الباب لأفتحه من جديد فسبقتني وأمسك به ليبقى مغلقاً، رفعت رأسي أتمتم بعبارات استغفار ثم نظرت نحوه بتحدٍّ وقلت:

" هددتني بإيذاء عائلتي ارتحت؟! "

ثم تجرأت وأبعدت يده عن المقبض وفتحته، تراجلت فوراً متجهة نحو الشركة بمفردي. كان حديث كل من في الشركة منصباً نحو حفلة يوم الخميس كانوا يشعرون بالحماس تجاهها، ليتني كنت أشعر مثلهم، استشعرت سارة عدم اهتمامي والضيق البائن على وجهي فظنت أنني غير سعيدة بزواجي، حسناً ظننها في مكانه الصحيح لكنني تجنبتي الحديث في الموضوع، فلم تصر علي لإحساسها بعدم رغبتني في الحديث عنه.

كنت حريصة على كوني آخر من يغادر الشركة لانتظار شادي، وبعد انتظار طال سمعت رنين هاتفي في الحقيبة فأخرجته لأجد مكالمة منه، وضعت الهاتف على أذني فسمعت صوته من الجهة الأخرى يأمرني بالنزول إلى السيارة، كان صوته عذباً من خلال الهاتف شعرت بجاذبيته تزداد فأخذت أضرب على رأسي لأمنع أفكارني بالتطور أكثر، ثم نزلت المبنى متجهة نحوه. وصلنا محلاً للملابس المخصصة للسهرات وأصر علي شادي قياس عدد من الفساتين في غرفة القياس بينما ينتظرنني في الخارج جالسا على أريكة جلدية.

بدالي أن مالكي المتجر على علاقة وثيقة به فقد قاموا باستضافته وإحسان معاملته والموظفة التي كانت تأتيني بالملابس كانت مطيعة بشكل مريب ولم تتذمر من ذوقه الصعب في اختيار الملابس.

وحينما أقول أنه ذو ذوق صعب الإرضاء، فإنني لم أبالغ! جربت الكثير من القطع منها ما كان جميلاً ومنها ما كان مبالغاً فيه وكلما خرجت أمامه بقطعة كان يرفع حاجبيه رفضاً فتقودني الموظفة إلى الداخل من جديد لتعطيني قطعة أخرى لأجرها. حتى شعرت كأنني سأبيت ليلتي في المتجر. في النهاية أخرجت فستاناً باللون الأحمر ذو أكمام ويجمع في تصميمه بين الدانتيل والقماش، له ذيل من الخلف مطرز بالدانتيل ولم يكن ضيقاً ولا واسعاً لكنه أبرز شيئاً من مفاتيحي فلم أشعر بالراحة فيه، فأنا لا أحب لفت الأنظار نحو جسدي.

قادتني الموظفة إلى حيث يجلس شادي منتظراً، وعندما رأني اتسعت حدقتا عينيه وأمال رأسه إلى الجانب وأخذ يتفرس في جسدي من خلال الفستان.. رأيت عينيه تقومان برحلة استطلاع، فزاد من شعوري بالخجل فضممت جسدي بذراعي إحراجا، ثم أبدى موافقته على الفستان فأثار استيائي، ليس لأنني لم يعجبني بل كان جميلاً جداً لكنه ملفت جداً، فكان هذا سبب استيائي، لكنني لم أستطع مجادلته، فكلمته تقع كالسيف بلا نقاش.

الفصل السابع والعشرون

جاء اليوم المنتظر وكان الجميع يتحضر من أجل الحفل، شعرت بأن الكل مبتهج من حولي إلا أنا، كانت ثمة شوكة عالقة في قلبي حرمتني من الاستمتاع بحياتي.

بينما كنت أنتظر الجميع في الصالة الكبيرة تقدمت نحوي السيدة مايا وهي منبهرة بإطلالتي، لكنها نفسها كانت غاية في الأناقة بشعرها البني المتموج الطويل، وفساتنها الفضي المرصع والمنسوج من خامة ثقيلة ذو أكمام، كان يظهر جمالها وأنوثتها.

ظهر أجد من خلفها يسألها عمّ إذا ما كانت جاهزة، ثم التفت إلي وألصق عينيه بي مذهولاً فشعرت بالحرَج الشديد. لماذا يا أجد؟ لماذا ينظر إلي؟ هل يعقل أنه ما زال يفكر بي؟ انظر إلى جمال زوجتك وأناقته! إنها فائقة الجمال وشديدة اللباقة ولا تستحق أن يفكر زوجها في امرأة غيرها. لم يبعد عينيه عني إلا على صوت ديمة التي كانت تتغنج ضاحكة على الهاتف بينما تنزل السلام متجهة نحونا، صدمت من إطلالتها الجريئة، فكانت ترتدي فستاناً قصيراً لا يصل إلى ركبتها وكان مفتوح الصدر، مفتوحاً كثيراً بشكل ملفت.

نظرت إليها مايا باستنكار وقالت:

" ديمة لن تخرجي بهذا إلى الحفل!"

فاعترضت بامتعاض قائلة:

" لماذا؟ ماذا يعيبه؟"

- " ألا تلاحظين أنه غير لائق نوعاً ما"

- " لا، أنا أظنه جميلاً وجذاباً، ما رأيك يا أجد؟"

شعر أجد بالخجل الشديد واحمر وجهه بشدة وأخذ يتصنع السعال، وقال بأدب وهو يتجنب النظر إليها:

" ديمة! أختك محقة "

تأملت ملامحه المحرجة فتذكرت سبب إعجابي به إنه يتمتع بأخلاق حميدة من بينها الحياء، هذا الرجل يتمتع بمواصفات مثالية أخرى كثيرة تجعل منه زوجًا صالحًا ولو لم يكن متزوجًا لكان وضعنا مختلفًا الآن.

تفاجأت بشادي يقرب منا لم أكن على وعي بقدومه، كان ذهني منشغلا بأجد ماذا حصل لي؟ يجب ألا أسمح لنفسني أن أنتكس وأفكر فيه مجددًا، لن أتحسر عليه بل سأنسى ما كنت أشعر به تجاهه وسأدعوه بالخير والسعادة مع عائلته وأحرص على إبعاده عن تفكيري وقلبي.
نظر شادي نحو ديمة مستنكرا وقال بلهجة مخيفة:

" ما هذه المنشفة التي تلفين جسدك بها؟ اذهبي وغيري ملابسك لن تخرجي هكذا من البيت " احمر وجهها غضبًا وبدأت تجادله، احتدّ الشجار بينهما، هو أقسم إن خرجت من الباب بهذا الفستان أن ينحرها، وهي تحدته بجرأة مخالفة أوامره، ولكن ما إن أحست أنها على وشك أن تهزم في الحرب حتى قالت في النهاية:

" زوجتك ملفتة لماذا لا تطلب منها تغيير ملابسها. "

احمرّ وجهي من كلامها وشعرت بالخجل فردّ عليها معترضًا على كلامها:

" إيلينا محجبة، جسدها مستور "

لم تكن لتستلم بسهولة فأردفت بحدة مشيرة إلي:

" نعم! لكن فستانها يفصل صدرها وقوامها "

تمنيت لو تنشق الأرض وتبتلعني في تلك اللحظة، شعرت بالضيق من كلامها فاحتضنت جسدي بذراعي أعطي معاملة بإحراج شديد وشعرت بعيني أجد تتفحصني، حتى شادي ومايا لمحا ذلك، فتنحش شادي بصوت مرتفع بينما مايا لكزته في خاصرته، فأصدر أنينا صغيرا متأوها ثم وجه نظره نحو الأرض محرّجًا. عاد كل من شادي ومايا يقابلان أختها بنظرة غاضبة حتى تدخل عمي لمعرفة

ما يدور حول الجميع، وعندما رأى ابنته بهذا المظهر تغير لونه فوجه كلامه إليها بصوت جاف مخيف محافظا على نبرته المنخفضة:

" اصعدي وانزعي زي المهرج هذا عنك، وارتي شيئا أكثر وقارًا مثل أختك وزوجة شقيقك " لو كان الخوف مرثيا لأقسمت على رؤيته يلج بدنها الذي اقشعر بدعرجلي. لم تناقشه وركضت صاعدة نحو غرفتها برهبة شديدة مطيعة لأمره، يا إلهي أنا بدوري شعرت بالخوف منه! لكنها استحقت ذلك.

أشاد عمي ومايا من جديد على جمالي وأناقتي أما السيدة انتصار طبعا تأففت بضجر وأخذت تطالعني من رأسي لأخص قدمي احتقارا.

ركبت مع شادي بالسيارة، وأصرت ديمة على الركوب معنا، وبعد محاولات من الرفض من قبل شادي أقنعه عمي في النهاية باصطحاب شقيقته الصغرى منها الجدال.

وصلنا مبنى الشركة فترجلت بسرعة من السيارة فاستوقفتني ديمة متسائلة عن وجهتي فقلت مجيبة لها:

" أريد مشاركة صديقاتي الاحتفال "

ثم قال لها شادي بحدة قبل أن تجيبني:

" دعيتها تذهب واتركي البنت في حالها "

تمت ديمة ببعض العبارات الساخطة لأخيها، أما أنا فجريت نحو الشركة مسرعة قبل وصول سيارة عمي وطلبه مني الانضمام إليهم، دخلت المبنى متجهة نحو القاعة المخصصة للاحتفالات والاجتماعات والتي صدمت من وجودها في مبنى مجاور ملاصق للشركة وله باب في نهاية الرواق في الطابق الأرضي يؤدي إليه. يبدو أن عمي كان يعلم أنه سيقام احتفالات فيها لذا خصص هذه القاعة لهذا الغرض، دخلت مع الجمع الغفير الذي يتجه نحو بوابة كبيرة، لأدخل قاعة عملاقة مقسمة إلى طابقين؛ حيث أن الطابق الأرضي خاص للموظفين بينما الطابق العلوي فكان مكشوفًا ومخصصًا لأصحاب النفوذ والطبقة الأرستقراطية، بحثت بعيني عن سارة في المكان فوجدتني هي.

ركضت نحوي واحتضنتني وأشادت بجوالي الملفت، فقلت لأبعد الشكوك عني أن هذا الفستان ملك لليان وأعارتني إياه، ثم سارت بي نحو زميلاتنا اللاتي كن يجلس على أرائك كبيرة ويشربن العصير فابتهجن لقدمي وأبدين إعجابهن بفستاني.

لمحت شهد ودانا تجلسان إلى ذات الطاولة فشعرت بالضيق قليلا وخصوصا من نظرات شهد الملتهبة نحوي، فقررت تجنبها طيلة السهرة.

لأول مرة بعد زواجي أشعر بالراحة والسكينة مع أن المكان كان مكتظا لكن جلوسي هنا برفقة زميلاتي وصديقاتي زرع في داخلي شعورا لطيفا، إنه الأنس... معهن شعرت كأنني أهرب من حياتي المتشابكة نحو حياة بسيطة ساذجة.

كن متحمسات لرؤية وجوه العديد من أصحاب الطبقة الارستقراطية فوقنا، واشتعلن إثارة لدى رؤيتهن شادي يقف قريبا من الحافة في الطابق العلوي يحدث بعضا من المعازيم مبتسما، ليذبن في سحر ابتسامته.

لكن فرحتي في مرافقة صديقاتي بعيدا عن هموم حياتي لم تدم طويلا، فجأة لفت انتباهنا سكرتيرة عمي قادمة نحونا، حتى وصلت إلي، طرقت على كتفي بخفة وقالت بجفاء:

" السيد هشام يطلبك "

اتجهت أنظارنا جميعا إلى الطابق العلوي فرأيت عمي يقف على الحافة المكشوفة ممسكا بالدرابزون مشيرا إلي بيده لآتي متحمسا.

نظرت الفتيات نحوي وسألت سناء بريية:

" ماذا يريد منك؟ "

شحب وجهي ولم أعرف بم أجيبها ثم ألحت علي السكرتيرة فقمت برفقتها لأتجه نحو الطابق العلوي.. نظرت خلفي فرأيت أعينهن جميعا - بمن فيهن شهد ودانا وسارة - تتبعني بترقب وفضول شديدين، صعدت السلام فوجدت شادي على قمتها ينتظرنني.. توقفت قليلا في مسيري وألقيت نظرة إلى الأسفل فرأيتهن ما زلن يتبعنني بنظراتهن، بدأت يدي ترتعش والعرق يتصبب من

جيبني حاولت أخذ نفس ومتابعة المسير حتى وصلت إليه، فمد ذراعه نحوي وأراح كف يده على ظهري وسار معي.. شعرت بقلبي يقفز خارج صدري من لمسات أصابعه، ألقيت نظرة أخرى إلى الأسفل ويا ليتني لم أنظر. لمحت وجوههن المصدومة وخصوصا سارة من هذا المشهد الذي يُعرض أمامهن، وكأنهن بدأت يربطن الخيوط المتشابكة ببعضها، كانت سارة تنظر نحوي كالمغدور الذي تفاجأ بسفاحه، نظراتها قتلت آخر إحساسي شعرت بغصة عميقة في قلبي فكأنني ذبحت نفسي قبل أن أذبحها.

ثم أشحت ببصري بعيداً عنها قبل أن تفاجأني دموعي بالانهار وركزت نظري نحو الأمام أدعو الله في سري أن تمر هذه الليلة على خير.

اقتادني شادي إلى حيث يقف عمي بصحبة مجموعة من الأشخاص الذين شعرت من مظاهرهم أنهم ذوو شأن، كانت زوجته تقف إلى جانبه وعلى محياها تلك النظرة من الاعتداد بالنفس. اقترب مني عمي فرحا وطوقني بذراعه وضممني إلى صدره ثم التفت إليهم وعرفهم بي على أنني زوجة ابنه الغالية، سمعت منهم الكلام المعسول عن أناقتي وجمالي، وأخذوا يتفحصونني بعيونهم فشعرت بالامتعاض، أكره أن يتفحصني أحد وينظر إلى جسدي فارتسمت على وجهي نظرة تشير إلى عدم راحتي، فبادرت سيدة من بين هذا الجمع بسؤال:

"هل أنت بخير يا حلوتي؟ تبدين شاحبة قليلاً"

فأجابت السيدة انتصار قبل أن أتمكن من فتح فمي:

"إنها متعبة قليلاً، لاحظت عليها قبل فترة تعبها المتواصل وانسداد شهيتها عن الطعام، كما تشعر

بالغثيان دائماً، حاولت إقناعها أن أصحابها إلى الطبيب لكنها رفضت"

لم أستطع فهم ما يدور في خلد هذه المرأة! ما هذا الذي تهذر به؟ نظر عمي نحوها متفاجئاً من كلامها، لكنه شرد قليلاً أمامه كأنه يستذكر رفضي المتواصل للأكل فإذا أكلت فإنني أكتفي بقلبيات بسيطة. من يعيش القهر الذي أحياء فلن يلام إذا سُدَّتْ شهيته عن الطعام.

ضحكت المرأة مجاملة وقالت:

" لولا أن زواجها مر عليه أسبوع لقلت لكم مبارك إنها علامات حمل!"
اصفر لوني من جملتها غير المقبولة بينما شادي جاملها بضحكة محرجة، وغطت أمه فمها بابتسامة مصطنعة فيها نوع من الإحراج المصطنع، أما والده فقطب جبينه غير مرحب بمزحتها السمجة.
ثم تقدم رجل من عمي يهنئه على نجاحه المتواصل واستقبله عمي بالأحضان معاتباً له عن عدم عودته من السفر لحضور زفاف ابنه الوحيد، فاعتذر منه الآخر مبرراً أن الرحلة تم إلغائها لأسباب حصلت خارج إرادته.

كان الرجل يبتسم محرجا ونظر نحو السيدة انتصار وقال مازحا:
" إنها حركاتك أنت، انتظرت سفري وزوجت ابنك في غيابي حتى لا أحضر زفاف ابن أخي الوحيد، أنتن النساء! كيدكن عظيم!"
شردت في كلامه ولم أعد أجايرهم في نفاقهم وتصنعهم الحديث اللبق أمام بعضهم وأنا أفكر فيما قال.... ابن أخيه الوحيد! هل هذا؟.... هل هذا والد فارس؟ نظرت إلى الرجل مرة أخرى فشعرت بشبه كبير بينه وبين عمي، غير أن له عينان عسليتان وبشرة داكنة، ثم تقدمت تلك المرأة التي رأيتها في حفل ميلاد ماسة وجاد... تلك التي عرفنتني إليها ديمة على أنها أم فارس، ووضعت يدها على كتف الرجل فتأكدت من كونه زوجها والد فارس وقالت بمرح متسائلة:
" شاركوني حديثكم الشيق، ما الذي يضحككم؟"

ثم التقت نظراتها بنظراتي فتغير وجهها إلى العبوس والتجهم، فشحب لوني أكثر وتجنبت النظر إليها.

انشغلوا بالحديث عن زفافي وروعة تصميم الديكورات، والمبالغ التي تم إنفاقها لجعله الزفاف الأسطوري في تاريخ العائلة.. شعرت في كلام السيدة انتصار كيدا لأم فارس التي حاولت إخفاء امتعاضها بابتسامة مصطنعة. هي كانت تعلم بأن والدته أرادت طلب يدي فطعتها بخنجر الغدر لتسبب لها ولابنها الاستياء، ولكي تدمرني لأنني اخترت فارس على ابنها الغالي الذي لا يقاوم!

أثناء حديثهم الذي جلب لي مزيدا من الغثيان لمحت خيالا يتقدم من خلف الجمع . فجفت دمائي في عروقي وشعرت بفكي يتشنج وعينيّ يتملكهما الرعب، حتى اقترب أكثر فبانّت ملامحه .
كان ينظر نحوي بامتعاض وغل واضحين، ولم يبعد عينيه عني حتى عندما أَلقت السيدة انتصار تحية مزيفة له لم يهتم بها ولم يعرها انتباهها، وضع عمي كفه على كتفه ليحول انتباهه إليه ثم حياه بحرارة، فتصنع فارس رغما عنه تهنئة لعمي على زواج شادي .

اقترب شادي مني أكثر ومد ذراعه نحو وسطي من خلفي وجذبني إليه ليغيظ فارس، فشعرت بالأخير يشغل غيظا، فرمى شادي بنظرات تحدّ وأعطانا ظهره وابتعد وهو يلتفت نحونا يرمينا بنظرات حاقدة كالجمر المتقد .

شعرت بقلبي يتمزق وبروحي تهوي في القاع السحيق... حل الاكتئاب فجأة علي لأشعر أن كل شيء من حولي ينهار وأن الألوان تبهت من جديد. حاولت منع دموعي من الانهيار نتيجة انهيار .
ثم بدأت الموسيقى تتغير إلى أغان هادئة مناسبة للرقص فأخذ العشاق والأزواج يتراقصون على أنغام الموسيقى، فدفع عمي شادي من كتفه وقال:

" خذها وراقصها هناك مع الناس فهي لم ترقص في زفافها "

حاول شادي الرفض متبرما بأعذار واهية لكن عمي أصر، ثم نظر شادي إلى الجانب الآخر المقابل له فالتقت عيناه بعيني فارس الغاضبة، فارتسمت على محياه نظرة مريبة لم أستطع فهمها، مديده يمسك بكفي وجرني نحو التجمع الذي يتراقص فيه الناس من حولنا .

شعرت بالارتباك الشديد ولم أعرف كيف أتصرف حاولت أن أثنيه عن قراره بحجة أنني لا أجد الرقص، فأمسك بكفي يدي ومد ذراعه الأخر لتستقر يده على ظهري وقربني من صدره ونظر إلي بثقة وقال:

" أنت اتركي نفسك لي فقط "

ثم أخذ يراقصني رقصة رومانسية هادئة على أنغام الأغنية، وكان ينظر أمامه نظرة تحدُّ، أدت رأسي إلى الخلف لتأكد إلى الواجهة التي ينظر نحوها لأجد فارس واقفاً من بعيد إلى جانب إحدى الطاولات ويدها في جيب بنطاله القماشي، عيناه تشتعلان بالغيظ وهو يراقبنا. لم يقو قلبي على النظر أكثر نحوه فأبعدت نظري عنه، وأغلقت عيني تلافياً من رؤية أحد ثم شعرت بيد شادي على مؤخرة رأسي يضمه إلى صدره فاستقر خدي على صدره الصلب بينما يلف ذراعه على وسطي بقوة يحتضنني في أثناء الرقص ففهمت أنه يفعل ذلك كيدا بفارس. اشتدت ضربات قلبي فشعرت به على وشك الانفجار، بسبب قربي الشديد من جسده، وعلقت بأنفي رائحته الزكية لسيري الخدران في إدراكي، كان صدره صلباً واستطعت الإحساس بضربات قلبه التي تنبض بقوة، شعرت كأنني أذوب في أحضانه، لماذا تمتلكني هذه الأحاسيس تجاهه بالرغم من كراهي له؟

قرب رأسه من أذني يتظاهر بهمس كلمات رومانسية لي حتى يغيب فارس، لكنه قال:
" فقط لمعلوماتك وأبقي كلامي في ذاكرتك... إذا رأيتك تحدثين فارس يوماً ما فلن يكون ردي مقبولاً وقتها وصديقيني لا تريدان رؤية غضبي "
شعرت بأنه يسمع ضربات قلبي العنيفة التي كادت تميّني رعباً من تهديده، طبع على شفثيه ابتسامة رضى ثم أبعده جسدي عنه ليرفع ذراعي عالياً وهو ممسك بكف يدي وأدارني حول نفسي دورة لأستقر على ذراعه منهيها الرقصة، ثم حوط وسطي بذراعه كأنه يخشى أن أطيّر من بين يديه، وعاد بي نحو الأرائك لنجلس، بينما استقبله الآخرون بالتصفيقات والصفير إعجاباً على براعته في الرقص، لكنني تحاشيت النظر إلى جميع العيون المتفرسة من حولي وحاولت صم أذني عن تعليقاتهم حتى أن بعض التعليقات كانت غير لائقة، واستطاعت أن تصل إلى مسامعي مثل مطالبة إحداهن شادي بتقبيلي علناً، لكنه أصر على الرفض كيدا بهم مبرراً أن أملاكه ليست مشهداً للنفوس الطامعة، مما زادني خجلاً من كلامه.

سار بي نحو أريكة بعيداً عن والديه ولم أفهم سبب ذلك في البداية لكنني أدركت الأمر عندما نظرت أمامي فرأيت عائلتي من بعيد، حيث تجلس ليان مع زوجها وعائلته بالإضافة إلى أمي فشعرت بوخزة في قلبي ونظرت نحوه بشيء من الضيق وقلت:

" ماذا جاء بهم إلى هنا؟ ... لنعد إلى طاولة عمي "

فقال مكملًا سيره بي نحو وجهتنا:

" عيب هذه أمك اكسبي رضاها، لا تبقي قلبها موجوعًا بسبب تجاهلك المستمر لها أم أنك تظنين أنني لا أعلم ذلك "

ما عدت أفهم هذا الرجل، حقا تارة يظهر لي حسن معاملته وتارة ينقلب ضدي كالعدو، لكن كلامه صحيح.... أمي تتألم بسببي، حاولت التواصل معي منذ أيام لكنني تجاهلتها في كل مرة هي وليان. عندما وصلنا نهضت أمي واقفة بسرعة وعلى وجهها علامات الاشتياق والقلق، أما ليان فنظرت نحوي ترفع حاجبا مؤنبة ثم قالت:

" ماذا حصل في الكون حتى جئتنا بقدميك؟ أخيرا تذكرت أن لك أهلا! "

لكزها يزن في ذراعها فأشاحت بصرها بعيدا محافظة على التجهم على وجهها، نظرت نحو موضع قدمي لا أدري كيف أعالج الموقف فتقدمت مني أمي ومدت يديها لتحتضن بكفيها وجهي، نظرت إليها فرأيت الدموع في عينيها تسيل على وجهها المجدد الجميل وقالت بصوت حنون:

" ساحيني يا ابنتي "

لم أقو على تحطيم قلبها أكثر فرددت لها الحضن وأخذت أبكي بحرارة، فنهضت ليان وأبعدتني عن أمي ومدت منديلا تمسح به دموعي وقالت:

" حمقاء ستفسدين إطلالتك البديعة إذا بكيت، لا نريد أن يقول الناس العروس عيناها متورمتان "

ضحكت بخفة على نكبتها ونظرت إليها فأعجبني ما ترتديه، كانت تلبس فستانا أبيض طويلا مطرزا من أسفله بورود بلون وردي ويتوسطه حزام قماشي من ذات اللون فأعجبت بأناقته، شعرت ليان بتفحصي للباسها فأمسكت بفستانها ودارت شبه دورة بخفة وقالت:

" هل أعجبك؟ هذا ذوق يزن "

نظرت إليها مبتسمة وقلت بحب:

" يزن ذو ذوق رفيع والدليل أنه اختارك زوجة له "

ضحكت كلتاهما وجلسنا جميعا إلى الطاولة. مد شادي يده ووضعها على كف يدي على الطاولة وأخذ يداعب ظهر كفي بأصابعه، فشعرت بقلبي يخفق بشدة، نظرت إليه فلم يكن ينظر نحوي بل إلى مكان آخر، فالتفت نحو الاتجاه الذي ينظر نحوه فرأيت فارس ما زال جالسًا من بعيد يتبعنا بنظراته المتضايقة فزاد من شعوري بالضيق. فهمت الآن لم يمسك شادي بيدي كل ذلك ليكيد لفارس. ظننته.. ظننت أن.. ماذا ظننت يا حمقاء؟ إنه يمقتك بشدة! لم يترك لحظة واحدة تمر دون عرض مشاعره السلبية تجاهك... لا يمكن لشخص مثله أن يرق قلبه فجأة لك... كفي عن التفكير بسداجة!

شعرت بالاختناق من كليهما فأدرت وجهي نحو الجهة الأخرى فتفاجأت بأحمد ينظر إلي من بعيد هو الآخر وفي نظرتة شيء من الألم، فضاقت بي الأرض بما رحبت وحاولت تجاهل كل من حولي وأحدث نفسي بأن أصبر فما بعد الصبر إلا الفرج.

ثم فجأة هبت نسائم لحن مألوف لي، فعرفت على الفور، إنها أغنية من أغاني كاظم بعنوان يدك، صحيح أنها أغنية قديمة من أغانيه لكنها أسطورة خالدة وخصوصا في قلب ليان العاشقة لأغانيه، فأشرق وجهها بابتسامة بديعة مما لفت أنظار يزن إليها فنهض واقفاً ومد يده لها يدعوها للرقص معه على أنغامها. فقامت مبتهجة وسارت معه باتجاه الراقصين أمامنا.

أخذت أتأملها وهما يتراقصان معًا بخفة وحب، كان يزن مبدعًا بالرقص حتى أنه يجيد الرقص أكثر من ليان نفسها، فكان ييايها برشاقة في أحضانه ويهز خصره لها فيكسب منها ضحكة محرجة، ووسط أجواء النغمات البديعة كان يدور حولها ويشير إليها بكلمات الأغنية وهو يحرك شفثيه مشاركا الغناء، كنت أتأمل عالمها الخاص وكأن الدنيا خلت إلا منها... شعرت بحب يزن المجنون تجاه ليان وكأنه لا يرى في دنياه أحدا غيرها، تملكنتني الغبطة وتمنيت لو أنني أعيش بحب مع من

أريد مثلها، أمسك بيدها عاليا ولأنه كان طويل القامة مثل شادي أخذ يلف بجسدها من كف يدها حول نفسها مرات عدة ثم يستقبلها في أحضانها، تارة يقبلها على يدها وتارة على رأسها، حتى انتهت الأغنية، لينتهي معها الحلم البديع الذي سمح لي بتذوقه وأفقت على الواقع من حولي.. وقعت عيني على شادي الذي كان يراقبني باهتمام، فشعرت بالخجل من نظراته، هل كان يراقبني وأنا أهيم بعالم يزن وليان؟ أدت وجهي بعيدا لألتقي بنظرات فارس المتألّمة فشعرت أنني أختنق من جديد، لأشبح بصري إلى يساري فأجد أجد أجد يتابعني بنظراته أيضًا، ماذا يجري معي اليوم؟ لم يعد بمقدوري الاحتمال فسحبت يدي من قبضة شادي واعتذرت منهم متبرمة أنني أريد استعمال المرحاض. تركتهم جميعا وسرت بالاتجاه الذي أشار لي به شادي نحو دورة المياه فدخلت ووقفت أمام المرأة على المغاسل لألتقط أنفاسي وأصفي ذهني مما يدور من حولي.

مكثت هناك بضع دقائق لأحاول تصفية ذهني، ثم خرجت من دورة المياه لأنفاجاً بفارس واقفا خارجها بجانب الباب، أشار إلي بعينه أن أتبعه وسبقني متجها نحو باب مخرج يؤدي إلى سلام، توقفت في مكاني محتارة في أمري هل أتبعه؟ أم أعود إلى الداخل؟ لكن إذا تبعته فربما كشف شادي الأمر وحصل ما لا يحمد عقباه، من جهة أخرى... إذا لم أتبعه فسيبقى الفضول يعتريني لأعرف ماذا كان يمكن أن يحصل لو أنني تبعته، فقررت في النهاية اتباع ما يمليه علي قلبي متجاهلة كل نداء يصرخ به عقلي لأتوقف.

وجدت قدماي تسيران تلقائيا تتبعانه إلى حيث خرج، فخطوات العتبة بوجل ووزعت نظري من حولي أتساءل عم ذا كان صعد السلام أم هبط، فلمحته يقف على مقدمة السلام من فوق وعندما تأكد أنني لمحتته تابع سيره نحو الأعلى فصعدت السلام ألحق به.

وصلت إلى باب حديدي لم يكن مغلقا بالكامل ففتحته وخرجت وأنا أدوس مخاوفي، أدركت لحظتها أننا على سطح مبنى القاعة وإلى جانبها ملاصقا لها مبنى الشركة بطوابقه العديدة. كان الجو مائلا إلى البرودة قليلا لكنني لم أكن أشعر بالبرد من شدة ما مررت به من ضيق وخرج. كان فارس يقف قريبا من حافة السطح ويوليني ظهره ويداه في جيب بنطاله القماشي.

سرت نحوه ووقفته خلفه، فقال بعد أن شعر بطيفي من ورائه:

" هل كلام ديمة صحيح؟ هل أكرهت على هذا الزواج؟ "

سكت ولم أنطق بحرف فاستدار نحوي وقال:

" اشرح لي ماذا حصل؟ أليس من حقي أن أعلم؟ لماذا دست قلبي هكذا ألم أعدك بالمجيء لطلب

يدك؟ وأنت وافقت؟ كيف غدرت بي؟ "

تنبهت وقتها إلى أنني كنت أذرف الدموع فقلت:

" هذه هي الحقيقة، أنا لم أشأ لهذا الزواج أن يحصل "

فقال ممتعضا:

" توقفي عن التلاعب بي! "

فرفعت رأسي نحوه أبكي بحرقه وقلت:

" أنا صادقة فيما أقول! السيدة انتصار هددتني لكي أتزوج ابنها "

- " السيدة انتصار هددتك لتتزوجي من شادي؟ ألا تجدين كلامك غير منطقي؟ السيدة انتصار

بالذات لم تكن لترضى بهذا الزواج!!! أنت كاذبة لا يوجد امرأة تُكره فتاة لا ترغب بها لتكون زوجة

لابنها، قولي لي فقط أنك سعيت خلفه لتوقعيه في شباكك وكفي عن الكذب!! "

غطيت فمي بكف يدي أنتحب من البكاء وأخذت أهرز رأسي منكرة اتهاماته وأقول بتوسل شديد:

" أنا صادقة أقسم على ذلك!! شادي..... "

ولم أكمل عبارتي فقد تم مقاطعتنا من قبل ... شادي بذاته حيث فاجأني صوته يهتف من خلفي:

" ما هذه المسخرة التي تحدث هنا؟ "

شحب وجهي بخوف، وتسمرت موقعي وشعرت بالذعر يحتل كياني.. اقترب شادي من موضع

وقوفنا فلم يهتز فارس بقدمه كأنه غير آبه به وبكونه اكتشف حديثنا السري معا، نظر إليه شادي

بازدراء ثم ألقى نظره نحوي يحمل في عينيه شررا وسخطا، فدب الرعب في قلبي وعقد لساني عن

الكلام.

تقدم فارس إلى الأمام خطوة وقال مهددا:

" إياك أن تتجراً على إيدائها "

فأعاد نظره نحو فارس وقال مجيباً:

" لاعلاقة لك، أتعرف لماذا؟ لأنني زوجها، أنا زوجها! وأنت... لا صلة لك بها "

احمر وجه فارس غضبا وقال مندفعاً:

" أيها الغدار لقد طعننتني في ظهري!! أعربت لك عن مشاعري تجاهها ثم سرقتها مني!! كنت تعلم

أنني أحببتها!! حتى أنني أبلغت أمي حتى أعطيها وعدا بالزواج فأحجزها لي "

فقال شادي بنبرة متهكمة:

" وهل هي غرض حتى تحجزها؟ ارضى بالواقع لقد تأخرت وضاعت فرصتك، وهي الآن ملك

لغيرك.... لكن هل أحببتها فعلاً أم أنك أردت تغطية فعلتك النكراء معها؟ "

فقال فارس متسائلاً بغضب:

" ماذا تقصد أيها الوضيع! تتهمها في شرفها؟! لا! هذا انحطاط ورثته من أمك الثعبان "

وهنا خرج شادي عن السيطرة فهاجم فارس بلكمة على وجهه، فدب الرعب في قلبي فصرخت

بذعر عالياً، ثم نهض فارس عن الأرض جراء اللكمة القوية التي سددها شادي له تواء، فهجم عليه

بدوره وبدأ يتصارعان ويلكمان بعضهما في الوجه والمعدة وأماكن متفرقة من جسديهما، وأنا أبكي

خوفاً وأستصرخهما أن يتوقفا.

أدركت متأخرة صعود أشخاص من خلفي وبدأت أرى خيالات لأناس من حولي يفضون الشجار

الذي بينها وسمعت صراخ الرجال والنساء يطالبونها بالتوقف.

دفع شادي أيادي من يمسون به بعيداً ليسقطهم أرضاً، وانقض على فارس الملقى يئن من آلامه

وأخذ يلكمه بشدة في وجهه حتى ظننت أنه سيموت بين يديه، فجررت رجليّ دون وعي مني

وحاولت جذبه من سترته من الخلف وأنا أتوسله أن يتوقف، وتقدم عدة رجال من بينهم يزن

يبعدون شادي عن جسد فارس الذي أنهكته اللكمات. وفي النهاية استطاعوا إبعاده فالتفت من

حوله حتى صرت أمامه وطوقته بذراعي من صدره أتوسله لأن يتوقف والدموع تملأ عيني، نظرت نحو فارس وأنا أمسك بشادي، فلمحته ينظر نحونا بألم، لكنه لم يكن ألما جسديا بقدر ما هو نفسي من مذهري وأنا أحتضن شادي حتى يبقى بعيدا عنه. الفتاة التي أحبها في أحضان غريمه... صورة ربما لن يتمكن من محوها من مخيلته مهما طالت به السنين

دوى صوت عمي في أرجاء المكان ليملاًه بنبرته المستاءة وهو يصرخ بكليهما ويؤنبهما ويتوعد لكليهما، ثم أمر رجال الأمن بإخلاء السطح من جميع الواقفين الشاهدين على الشجار، فتقدم يزن مني وطلب مني إفلات شادي والسير معه لتركه وابن عمه مع والديهما على انفراد لحل الخلاف بينهما.

شعرت بصدر شادي يرتفع ويهبط من نفسه الثقيل المحمل بالغضب، خشيت إذا أفلته أن ينقض على فارس فيجهز عليه، لكن يزن أصر، فجدبني من كم فستاني وسار بي نحو ليان التي تملكها الذعر من الشجار الذي حصل.

عانقتني وسحبني معها نحو الداخل بينما ألتفت إلى الخلف أرقب ما سيحدث، لكن سرنا مبتعدتين حتى لم أعد أتمكن من رؤية شيء.

لمحت سارة بين الجمع الذي اجتمع ليشهد الشجار تسير بين الناس وهي تطالعني بنظراتها، ثم أدارت وجهها بعيدا عني وسارت مبتعدة فتركت ليان وجريت نحوها. أمسكت بيدها من الخلف ورجوتها أن تتوقف عن المسير لتسمعني، فصفعت يدي بعيدا ونظرت إلي بألم وبدأت الدموع تتجمع في عينيها وقالت بحسرة:

"زوجك هو السيد شادي؟! لماذا خبأت عني زواجك منه؟ هل خفت أن أحسدك مثلاً؟ لقد طعنتني في مذهري!! لن اسامحك!!"

ثم سارت مبتعدة عني ووقفت مكاني أبكي لا حول لي ولا قوة فتقدمت مني ليان وطوقتني بذراعيها واجتمع حولي أفراد العائلة ما عدا السيدة انتصار التي بقيت مع عمي ووالد فارس وأمه

على السطح، أمطروني بأسئلتهم غير المنتهية لمعرفة سبب الشجار، فلم أجب أحدا منهم وأخذت أنتحب بألم شديد حتى شعرت أن قلبي سيتوقف من شدة ألمه.

تدخل أجد وأسكت الجميع من حولي قائلاً:

" اتركوها من أسئلتكم الآن ألا ترون حالها؟ برأيي أن نخلي المكان ونعود إلى القصر ونتنظر عمي لنفهم منه الموضوع "

وافق الكل على اقتراحه ثم أمر زوجته باصطحابي مع ديمة إلى سيارته لإيصالنا إلى القصر، لما رأى من حالي المرثي الذي لا أحسد عليه، أرادت أمي مرافقتي للاطمئنان علي، لكن أجد رفض مبرراً لأمي بأن شادي قد يغضب أكثر إن تدخل طرف آخر في شؤونه، ووعد أمي بأنني سأكون بأيد أمينة مع زوجته وأختها، لم تملك أي من أمي وليان من أمرهما شيئاً، فرضختا مكرهتين، ودّعتني ليان وهي تقبل جيني وهمست لي أن أطمئنها إلى سير الأمور ووّدعتني أمي بالمثل، بينما لم أجب أياً منهما كنت شاردة في عالم آخر وأنا أفكر في المصيبة التي ستحل على رأسي عقب شجارهما وما يمكن أن يحصل لفارس. لقد تعرض المسكين للتعذيب على يدي شادي، من أين جاءت كل هذه القوة التي انهال بها على فارس، ففارس ليس ضعيف الجسد ليصره شادي دون رحمة!

ساعدتني مايا في الركوب في سيارة أجد في المقعد الخلفي بجانب ديمة التي طوقتني بذراعها لتسندني على كتفها وأخذت تمسح على ظهري مشفقة على حالي.

وصلنا القصر وساعدتني ديمة على الصعود إلى غرفتي وأعاننتني في خلع الفستان وارتداء ملابسني بينما كنت غافلة عم يجري حولي وتفكيري منصب على ما يدور خارج القصر، حاولت أن تساعدني على النوم على السرير، فنهضت فزعة فأجفلتها، ثم اتجهت نحو الأريكة تلقائياً دون تفكير، ووضعت رأسي على الوسادة التي أبقيتها عليها وجذبت غطائي الذي كان مرتباً جانبا وغطيت به نفسي، فوقفت ديمة متفاجئة وقالت وهي تحاول التحكم في صدمتها:

" ألا تشاركين السرير مع شادي؟ "

صمت ولم أجبها لم أعرف ماذا أقول لها وماذا أقدم من تبريرات، ثم تجرأت أخيراً وسألتنني:

" إيلينا قولي لي الحقيقة، هل شادي هل تقرب منك شادي ليلة زفافك؟ "

التفت نحوها أنظر إليها نظرة مؤنبة، فأجابت محتدة:

" اسمعي إيلينا لست فتاة صغيرة ونحن في القرن الواحد والعشرين طبعاً لدي إمام بهذه الأمور "

اعتراني الخجل وتركت لصمتي المجال ليحيبها، ثم عادت تلح بسؤالها بإصرار:

" يا إلهي هو لم يمسك! لكن لماذا يا إيلينا؟ "

نفخت بضيق وقررت أنه لا ملاذ لي منها وأنها لن تتركني بحالي فقلت:

" أمك أوصته بذلك، أرجوك ديمة لن أقول أكثر من هذا فأنا تعبت رجاء اتركني بمفردي الآن "

أرجوك! "

سكتت ولم تناقشني ثم مسحت بيدها على رأسي بأسى وقبلتني على رأسي ودعت لي بالفرج، ثم

قرعت مايا الباب وفتحته على مهل متسائلة عم إذا كنت قد نمت أم لا وعندما أيقنت أنني ما زلت

مستيقظة قالت بقلق:

" أبي في الطابق السفلي في مكتبه يريدك للحديث معه "

شحب وجهي أكثر مما شحب جراء كل الأحداث التي مرت معي، شعرت بأن طلبه لمقابلتي

سيكون كالقشة الأخيرة لي قبل أن أنهار. ساعدتني ديمة على النهوض وناولتني حجابي من باب

الاحتياط لئلا نتفاجأ بأجد في الطريق.

سارت بي حتى وصلت مكتب عمي وقرعت الباب واستأذنت للدخول، وساعدتني على الجلوس،

نظرت من حولي فرأيت شادي ممزق الملابس وبوجه مزرق من الكدمات واقفا بجانب النافذة وأمه

تجلس مقابلي وعيناها تحملان غلا وسخطا تجاهي.

أمر عمي ديمة بالخروج وإغلاق الباب خلفها، ففعلت ما طلب مطيعة دون نقاش. ثم وجه أنظاره

إلي وسألني عن حالي فأومأت رأسي دون أن أتكلم، ثم طرح سؤاله الأول علي:

" هل حقاً رواية فارس التي رواها لي بكونه طلب يدك للزواج قبل شادي وقبولك عرضه ليتقدم

لك بشكل رسمي بعد عودته من السفر؟ "

كان حلقي جافاً من الخوف ومن شدة البكاء فخرج صوتي متحشراً ضعيفاً وأنا أجيبه:
" أجل... إنها الحقيقة "

فوضع يده تحت ذقنه وهو يتكئ على طاولة مكتبه بمرفقه وقال متسائلاً:

" إذن لماذا رضيت بشادي زوجاً ما دمت أعطيت فارس كلمة القبول؟ "

عدت لأعقد أصابعي بتوتر، أعلم أن شادي يكره هذه الحركة لكن ارتباكي كان أشد من أن أستطيع

التحكم بأطرافي، ازدردت ريقي مراراً ثم نظرت نحو السيدة انتصار وقلت بألم:

" السيدة انتصار.. هي من أصرت على زواجي بشادي "

تحولت نظرات عمي إلى زوجته، فأجابت بسرعة كأنها قامت بالتدرب على هذه الإجابة وكأنها على

علم مسبقاً بأنني سألقي اللوم عليها:

" اسمع لم أشأ أن أقول لك الحقيقة لكن سأقول الآن... فارس لم تكن نواياه صادقة تجاهها إنه

يكذب وهو غاضب من شادي لأنه ستر عليها قبل أن يفضحها "

شهقت بقوة متفاجئة من ردها الوضيع فقال عمي متسائلاً:

" يفضحها بماذا يا انتصار؟ هل تعين ما تقولينه؟ "

فنهضت واقفة بجراحة كبيرة وأكملت دون أن تطرف بعينها كأنها تقول الحقيقة كان تمثيلها متقناً

لدرجة أنني شككت بنفسي، فقالت:

" هو أخطأ معها وأنت أصرت على زواجها من شادي، فقررت أن أرضخ لك في نية واحدة..

حتى يستر على فعلة ابن عمه الشنيعة... لقد أشفقت عليها لأنها... لأنها حملت بابن منه وهذا كان

السبب في رفضها الطعام فهي كانت تعاني من وحام الحمل وغثيانه لكنني قدمت لها المساعدة

وأخذتها إلى الطبيب فأجهضته "

سكت الجميع لوهلة لمعالجة ما قالت، ثم شحب وجه عمي لدرجة ظننت معها أنه سيفقد الوعي،

حتى شادي أجمته الصدمة من كلام أمه، ثم أخيراً عاد إليّ وعيي فصرخت فيها بعنف بالغ حتى بح

صوتي من شدة الصراخ:

" كاذبة! أنت كاذبة! لا تصدقها يا عمي أنا شريفة! لم يلمسني رجل في حياتي قط! إنها كاذبة هي زوجتي لتنتقم مني وتتهمني بشرفي وطهارتي! أنا لم أحمل بطفل أحد ولم أجهضه وفارس بريء من اتهاماتك الباطلة! أيتها الكاذبة لعل الله ينتقم لي منك، حسبي الله ونعم الوكيل "

ثم خر جسدي أرضاً فلم يعد بمقدوري الوقوف وأخذت أبكي وأنتحب بصوت مرتفع، أما عمي فكان متكئاً على مكتبه لا يقوى على الوقوف على رجله، ثم جذب كرسيه ليجلس عليه وفك ربطة عنقه وأخذ يستغفر ويحوقل ليهداً، وبالنسبة لشادي فقد بقي ساكناً شاردًا مصدوماً لم ينطق بحرف، نظر إليه عمي وسأله محتداً:

"هل كلام أمك صحيح؟ أجبني! أنت الوحيد الذي تملك الإجابة! لا أحد غيرك يمكنه أن يعرف إن كانت حقاً بريئة"

تولت تلك الأفعى الإجابة قائلة:

"أنا كذبت عليه وقلت له أنها في ميعادها من الشهر... لذا هو لم يمسه حتى الآن"

حدجها عمي بنظرة مرعبة لكنها كافحت وأردفت:

"ما أدراك أنها لن تذهب إلى طبيب من دون علمنا وتصلح وضعها لتظهرني كاذبة؟! الطب تطور وتوجد عمليات لإرجاع البكارة! لقد سترت فعلتها الشنيعة وهذا هو جزائي؟ فعلاً أنها لقيطة وعديمة أصل!"

أردت أن أصرخ بها وأنال عليها بالدعاء لكنني فقدت كل طاقتي ولم يعد بمقدوري الكلام من شدة نحبي الذي تجلجلت الجدران على أثر صداه المدمي للقلب.

نظر عمي نحو ابنه ثانية عله يقول كلمة ما، لكنه أدرك انه لا مجال للحديث معه الآن، ثم زفر بقوة وأخيراً قال متسائلاً:

"متى حصل الأمر؟ إجهاضها المزعوم.. متى حصل؟"

بنظرة ثابتة وإجابة جاهزة قالت دون أن يرتج لها جفن:

"في يوم الزفاف ذاته، أخذتها منذ الصباح.. لهذا كانت شاحبة ومتعبة في فرحها"

إنها تستخدم هبوطي النفسي وسيلة لإسقاط ما تزعم به، والمصيبة أن الأمر يبدو فعلا كما قالت، سكت هنية وهو ينظر في الفراغ أمامه حتى قال أخيرا موجهها كلامه إلي:

" غداً... غداً صباحاً سنذهب إلى العيادة أنا وأنت فقط وحدنا لفحصك طبيًا وأعلم من يكذب ومن يقول الحقيقة "

ثم نهض وخرج من المكتب، فنظرت نحوي زوجته غيظًا وهمست في أذني قبل أن تلحق به:

" لا تفرحي كثيرًا فأنت لم تنتصري علي بعد "

وغادرت المكتب بدورها وبقيت مع شادي بمفردي، تحركت رجلاه وكأنه عاد إلى الحياة، تقدم مني ومد يده يمسك بي من كتفي يرفعني عن الأرض وأحكم قبضته علي بعنف ألمني. فأخذت أصرخ ألماً.

خرج يجري من ذراعي صاعداً بي نحو غرفته وأنا أتوسل إليه أن يتركني، كدت أتعث على السلام وهو يجري لكنه لم يعبأ بذلك، حتى وصل الغرفة وألقاني أرضاً بكل ما أوتي من قوة فوقعت على معصمي وشعرت أنني لويته فأمسكت به بيدي الأخرى لأخفف من ألمه، ثم أوصد الباب خلفه وبدأ يرمي كل ما هو أمامه على الأرض وهو يصيح بي وينعتني بأقذر الصفات. كنت أرتعش من خوفي منه وأبكي وأصرخ به أن يتوقف، خشيت أن يضربني، كان كالوحش الهائج... ألقى ملاءات السرير على الأرض، وبعثر كل ما على المنضدة وما في داخلها.. ثم توجه نحو خزانة الملابس وألقى كل شي هنا وهناك.. خرج إلى الشرفة وألقى بالنباتات يكسر كل إصيص في طريقه حتى الطاولة والكرسيان لم يتركهم من شره فحطم كل شيء أمامه. ثم اتجه نحو الباب الخارجي للغرفة وهو يلهث بشدة وقال مهدداً:

" أريد أن أعود صباحاً وأرى كل شيء قد عاد مكانه! مفهوم؟! "

وصفق الباب خلفه وتركني وسط دموعي في الغرفة المبعثرة ووسط الحطام، خشيت أن يعود صباحاً ويجد الغرفة على حالها فيفرغ غضبه بي هذه المرة، فنهضت أتحمّل على نفسي وألم معصمي

وبدأت بجمع الحطام من كل ما كُسر وأنا أكافح ألمي وأبكي بحرقة رفعت يدي إلى الله داعية أن
يخفف عني وأخذت أردد قائلة:

" فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.....اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة
عين... قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا..."

وأكملت دموعي انهارها أسى على حالي وما آلت إليه حياتي، أردت ان أشكو همي لله، فهو الوحيد
القادر على إنجادي... كلما ضاقت بي الدنيا فإنني أعلم في الصميم أن كل الحلول بيديه.
قمت وتركت كل ما حولي وتوضأت وقمت أصلي ركعتين أفرغ همي لله لينجدني ويخرجني من الغم
الذي دخلته رغماً عني. لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.

الفصل الثامن والعشرون

نهضت مفزوعة فجأة، نظرت حولي فلم أجد إلا الحطام التفت نحو الساعة لأجدها تشير إلى الساعة الثالثة فجرًا. أذكر أنني كنت مستلقية على سجادة الصلاة أبكي، يا إلهي! هل غفوت؟ ثم تذكرت فجأة تهديد شادي فدب الفزع في قلبي من أن يعود ويرى الغرفة على حالها فقممت كالمجنونة أخلع عني لباس الصلاة وبدأت في تجميع الحطام لأتخلص منه لكنني شعرت بمعصمي يؤلمني بشدة. حاولت جاهدة أن أتحمل الألم وأتجاهله، خرجت من الغرفة متسللة نحو الرواق لأبحث عن المكان الذي تضع فيها الخاديات عدة التنظيف.

نزلت إلى الطابق الأرضي فحسبت أنفاسي رعبا، فقد وجدت شادي مستلقيا على الأرائك في الصالة الكبيرة نائمًا وهو ما يزال يرتدي بزته الممزقة. حاولت أن أتسلل حوله فمشيت على رؤوس أصابعي حتى اختفيت في المطبخ، أخذت أبحث عن أدوات تنظيف، فلم أجد، حتى اهتديت إلى باب صغير يختبئ بجانب خزانة كبيرة للأواني، فتحته فوجدت غرفة صغيرة تحتوي معدات وأدوات للتنظيف، فسحبت منها مكنسة ومجراذًا وخرجت بهدوء أغلق الباب.

صعدت السلم على مهل كي لا أوقظه. ثم ولجت الغرفة مغلقة الباب خلفي وبدأت في جمع الحطام وأنا أتأمل على نفسي الألم الذي صاحبني من معصمي، كنت أستسلم للألم أحيانًا فأجلس على السرير أدلك موضع الإصابة بأنين مكبوت، ثم أنهض لأكمل عملي. كنت قد أنجزت في ترتيب الغرفة بعض الشيء، ثم توجهت نحو الحديقة، وقفت في منتصفها حائرة لا أدري من أين أبدأ.

أخذت أرفع أي إصيص نبات سلم من الكسر لأعيده جانبا، وبدأت بتجميع القطع المحطمة ذات الحجم الكبير بيدي، ثم لمحت مقبض الباب يتحرك فعرفت أن أحدًا يحاول الدخول. فشحب وجهي وكاد يغشى علي لدى رؤيتي له يلج إلى الداخل.

تحاشيت النظر إليه وهو يتقدم نحوي بخطى حذرة خارجاً نحو الشرفة، فأخذت أتمتم برعب جلي في نبرتي:

"لم يتبق.... لي ال.... الكثير.... ساحني.... غفت عيني.. لم أقصد!"

وبدأت أذرف الدموع خوفاً. انحنى نحوي ومد ذراعيه باتجاهي فرفعت يديّ أمام وجهي بنزع أستصرخه ألا يؤذيني، فأمسك بيديّ فشعرت بألم في معصي فأخذت أتلوى من الألم. رفعتي ممسكا بيدي وسار بي نحو السرير وجلس على حافته أمراً أن أجلس إلى جانبه، ففعلت مطيعة ذعراً من غضبه كنت أرتجف بشدة حتى لم أعد قادرة على تفسير سبب ارتجافي، هل هو بسبب البرودة التي اجتاحت الغرفة من فتح باب الشرفة في هذا الوقت؟ أم بسبب خوفي الشديد منه؟ نهض مغادراً الغرفة مشيراً إلي بجفاء حاد البقاء مكاني فلم أجرؤ على التنفس حتى، ثم ما لبث أن عاد وهو يحمل معه صندوقاً، قام بفتحه فرأيت داخله معدات إسعافات أولية، أخرج شاشاً وبدأ يلفه حول معصمي الذي يؤلمني بينما أعض على لساني حتى لا أئن ألما بصوت مرتفع تجنباً لغضبه. ثم أفلت يديّ ونظر أمامه نظرة خاوية، فساد صمت طويل بيننا، كنت أخشى أن أقول شيئاً فيصعب غضبه علي فأثرت السكوت تاركة المجال له ليتكلم هو، حتى في النهاية طرح سؤاله أخيراً قائلاً:

"هل حقاً أجهضت جنينك في صباح زفافنا؟"

جحظت عيناى ذهولا من سؤاله، هل حقاً صدق رواية أمه الكاذبة؟ نظر إلي يكاد صبره ينفد من عدم ردي، مع أن ردي كان واضحاً على وجهي، كنت أنظر إليه بألم وامتعاض فأجبت بثقة:

"لم يحصل شيء بيني وبين فارس ولا أي رجل آخر، أنا بريئة"

زفر بنفاد صبر واضح وأخذ يقلب عينيه بضجر من حوله، ثم انحنى للأمام واتكأ بمرفقيه على فخذه ليحضن رأسه بين كفيه وقال باستياء:

"كفي عن الكذب فإنكارك لن يغير من الحقيقة شيئاً، حتى لو أجهضت سيظهر آثار هرمون الحمل في الفحص الطبي، لأن إجهاضك لم يمض عليه وقت بعيد... كما أنك ستظهرين على حقيقتك

بالطب الشرعي بكونك يعني... تعلمين ما أقصد... لذا رجاء اختصري على نفسك وعلى أبي
عناء الذهاب إلى المشفى وفضيحتك هناك واعترفي بذنبك.. آخر ما أريده أن تتسبي لأبي بجلطة."
أحسست بشفتي ترتجفان قهراً لكنني تحاملت على نفسي وقلت مصرة على موقفي:

" لم أقترف ذنباً لست كاذبة أنا بريئة! ربي يشهد على براءتي من كل اتهاماتكم من غير بينة"
التفت نحوي ورفع حاجبيه استنكاراً وقال بكل ثقة:

" بينة؟! تريدان إثبات براءتك بينة؟"

قطبت جبیني بعدم فهم لما يلّمح إليه، فالتفت خلفه نحو السرير وأعاد نظره نحوي وقد أظلمت
عيناه فجأة فشعرت بالرعب يتسلل إلي وبأنفاسي تضطرب ثم قال بنبرة مخيفة أرعشت جسدي:
" تقولين لم يلمسك رجل قط؟! يعني أنت عذراء؟ سأكتشف بنفسي إذا كنت بريئة حقاً من اتهامات
أمي "

تملكني الذعر حتى شعرت بشلل في أطرافي، ثم نهض فجأة ووقف أمامي ودفعني من كتفي
لأستلقي على السرير، وانحنى بجسده فوقي، فأخذت أصرخ وأحاول دفعه بكل قوة. مد يده نحو
ملابسي يحاول نزعها فعلا صوتي بالصراخ والنواح أكثر وبدأت أتشبث بملابسي بيد واليد الأخرى
أضربه بها، وأخذت أركله برجليّ، فأمسك بيديّ وثبتها جانبا وزجر غضبا . لكنني أبيت
الاستسلام فارتفع عويلي أكثر وركلته برجليّ بشكل هستيري حتى فتح الباب بقوة وسمعت صراخ
عمي يدوي في الغرفة:

" ماذا يجري هنا؟"

استغللت دخوله إلى الغرفة وتفاجؤ شادي، وهربت من بين برائنه لأرمي نفسي بين أحضان عمي
أبكي بحرقه وخوف وجسدي يرتعش والعرق يتصبب مني، فأخذني في أحضانه وأخذ يمسح على
رأسي وذراعي ليهدئني، ثم سمعت صوته يخاطب شادي بنبرة قلقة غاضبا:
" ما بها؟ ماذا فعلت لها؟"

نهض شادي غاضبا وخرج من الغرفة مندفعاً بغير هدى، بدأت السكينة تعود إلى قلبي شيئاً فشيئاً، سار بي عمي نحو السرير وساعدني على الجلوس ثم تنبّهت إلى وقوف زوجته خلفه تنظر نحوي بنظرة غريبة، لكنها غير ودودة. وأدركت وجود مايا وديمة أيضاً، نظر عمي حوله فقال مندهشاً:

" ماذا جرى هنا؟ ما كل هذا الحطام؟ شادي فعل ذلك؟"

غطيت وجهي بيدي وسمحت لنفسي بالبكاء بألم وقهر وتجنبت النظر إلى أي منهم أو التحدث معهم، لم يعد قلبي يحتمل ما أعيشه لقد تعبت لماذا يحصل معي هذا؟ ما الذنب الذي اقترفته لأجازي هكذا؟ وكلما أغمضت عيني تذكرت محاولة شادي للاعتداء علي قبل قليل فأزداد بكاء.

أسرعت مايا بإغلاق باب الشرفة والتقطت ديمة الغطاء عن الأريكة وأخذت تدثرني به وهي تمسح بيديها على ذراعي لأتوقف عن الارتعاش، فهاج عمي لمظهري الذي يخطف الأنفاس وقال صائحاً:

" قولي لي ماذا فعل بك هل ضربك؟ هل آذاك؟ لا تجعليني أقسم يا إيلينا إذا لم تتحدثي فسأحضره إلى هنا غصباً ولأجلدنه بالسوط حتى يتسلخ جلده"

فتدخلت زوجته بانفعال شديد قائلة:

" تضرب ابني من أجل فاجرة؟ لن أسمح لك!"

فقاطعها غاضباً:

" اخرسي أنت واغربي عن وجهي! وإياك ثم إياك وأن ترميها بكلمات كهذه ثانية ها قد نبهت عليك لا قذف محصنات في بيتي! وأقسم بالله قسماً مغلظاً إذا أخذت إيلينا إلى المشفى ووجدت براءتها من اتهاماتك فسأطلقك!"

شهقت مايا بشدة وصرخت ديمة باكياً وهي تتوسل والدها أن يتراجع عن كلامه أما السيدة انتصار فشحب وجهها وبان الرعب جلياً في عينيها، ثم غادر ولم أعرف وجهته، من شدة صدمتها لم تنظر إلي ثانية وغادرت المكان ببهتان واضح، شعرت بأبني أكاد أنفجر مما يجري حولي، وكأنني سأفقد عقلي، سمعت صوت أمجد ينادي مايا من خلف الباب ليستفسر عما حصل، فخرجت إليه تبكي، أما ديمة فجلست بجانبني وحوطتني بذراعها وأخذت تمسح على ظهري وأنا أعرض على أظفري حائرة

متعبة ذات روح ميتة لم يتبق لي قلب يحتمل، ثم سمعت صوت أمجد ومايا يرتفع جدلا فسمعناه يقول:

" هذا نموذجي جدا من أمك كم تحب إفساد حياة الآخرين.. لماذا زوجتها لأخيك إذا أرادت أن تحول حياتها إلى جحيم؟ تريدون نصيحة؟ زوجوا ديمة من رجل مغترب عن البلاد بعيدا عن سيطرة أمك وقهرها"

فصرخت به مايا بدورها:

" تجاوزت الحدود يا أمجد أنت تتكلم بالسوء كثيرا عن أمي ولا تحترمها أبدا لقد تعبت من مزاجيتك الدائمة لم أعد أعرف كيف أرضيك!"

فصرخ بها بدوره:

" مزاجيتي سببها الأول والأخير أمك! تصرفاتها ومكائدها تظهر أسوأ ما لدى الآخرين!"

ثم سمعت صوتها تهتف باسمه تناديه فأدركت أنه مضى وتركها، ثم اختفى صوتها لعلها لحقت به.... شردت في حديثه قليلا، يبدو أنها حولت حياته إلى جحيم أيضًا وقلبت زوجته ضده ولهذا السبب..... لهذا السبب يبحث عن سكن لروحه الميتة مثلي.... عادت بي ذكرياتي إلى براءتي معه وشوقي لزواجي منه... الآن تمنيت لو أنني لم أعلم بزواجه... لو ارتبطت به وقتها حتى لو كان متزوجا لكان أهون مما أعيشه الآن، على الأقل فهو يحبني وعائلته أحببني! أمه أحببني!

حل الصباح وديمة نائمة في حجري من كثرة ما بكت على علاقة والديها المتزعزعة. حدثني قبل أن تغفو عن مشاكلها التي بدأت تكثر بعد زواج مايا وتسبب أمها في سفر أمجد مدة شهر كامل ليرمي مايا وابنيها دون أن يتواصل معهم، لم تغص في أسباب المشاكل لعدم علمها بها لكنها كانت تشهد على دموع أمجد قهرا من تصرفاتها دون علم أحد ببيكائه عداها وإخفاءها هذا السر عن الجميع، وها هو السر يخرج من فمها لأول مرة في حياتها لي أنا، لعلها تريد أن توصل إلي رسالة تقول فيها أنني لست وحدي من أعاني من اضطهاد أمها.. لكن كلامها لم يجعلني أشعر بتحسن أبدا بل زاد من ضيقي وألمي وخصوصا تجاه أمجد.

عدلت رأس ديمة على السرير وقمت أغتسل لأزيل بعض الهموم من قلبي وارتديت ملابسني ونزلت نحو الطابق الأرضي لأخرج برفقة عمي نحو المشفى، وجدته في غرفة الطعام يحتسي القهوة وزوجته مقابله تلهي نفسها بالضغط على جهازها المحمول، ألقيت عليه التحية وحده فطلب مني الاقتراب والجلوس إلى المائدة ثم قال:

" لدي صفقة عمل لأنجزها ثم سأعود إليك لأصحبك إلى مشفى حكومي "

رفعت زوجته رأسها عن شاشة هاتفها وهتفت متفاجئة:

" ها؟ لماذا؟ خذها إلى المشفى الخاص الذي نراجع فيه "

فقال محتدا:

" أريد التأكد من صحة التقارير وعدم دخول الزيف فيها "

شحب وجهها أكثر ثم نهض عن المائدة وترك فنجانها مليئا على غير ما اعتدته منه، ثم غادر دون أن

يلتفت إلى أي منا، وجهت نظراتي الساخطة بعيني المورمتين نحوها فاستقبلتني بشرر يقدح من

عينها وقالت:

" لا تفرحي كثيرا لم تنته الجولة بعد "

ونهضت وتركتني بينما بدأت أشعر أنني سأنتصر عليها. ثم دخل شادي إلى الغرفة فلما رأيته والتقت

نظراتنا أشاح وجهه بعيدا ونظر حوله حائرا ثم غادر وتجنب الحديث معي، شعرت بشعور غريب

في داخلي هل هو البرودة؟ لا أدري لكنني كنت متأكدة من شيء واحد لست مستعدة لمواجهة، على

الأقل ليس الآن فقلبي ما زال ممتعضا مما كاد أن يفعل بي فجرا.

جلست أنتظر عمي في الحديقة أشعر بالقلق والرعب فأنا لا أدري أي مكائد تحيكها تلك الشريرة

لي، كنت أستريح على الأرض بين نباتات الزينة أتأمل المكان من حولي وأشبع عيني باللون الأخضر

البيدع ليخفف عني جزءا من غمي ويمتص شيئا من همومي، ثم شعرت بوقع أقدام تقترب، رفعت

رأسي إلى الجانب لأرى هوية الشخص القادم ففوجئت بأجد، اقترب أكثر وجلس على الأرض إلى

جانبي دون استئذان وأبقى نظره مستقيماً إلى الأمام، ثم نظر نحوي بابتسامة خفيفة نابغة من قلبه وقال:

" أنا أصدق براءتك حتى لو أثبتت التقارير عكس ذلك، فأنا أعلم أن تلك الأفعى وراء كل شيء وأنها لن تستسلم "

رددت له ابتسامة حزينة، ثم قال مضيفاً وهو يتأمل في عيني:

" إيلينا الطاهرة العفيفة هكذا عرفتتها وهكذا سأعرفها يوماً، شادي مجرد أحق أعمى لا يقدر الجوهرة التي بين يديه "

توردت وجنتاي خجلاً مما قال ولم أستطع مقاومة تلك الابتسامة السخيفة التي ارتسمت على شفتي، ثم قلت له بينما أحرق في عينيه بمشاعر صادقة:

" شكرا لك... شكرا لك على كل شيء "

أدار وجهه إلى الأمام ونظر في الفراغ وقال:

" لست وحدك من حصل معه هذا... فقد فعلتها معي أولاً... صدقي أو لا تصدقي لقد أساءت إلي كثيراً، اتهمتي بالخيانة الزوجية.. كان ذلك قبل أن ننجب التوأمين وكدنا نحصل على الطلاق، لكن عمي لم يرد للطلاق أن يحصل وحاول كثيراً إصلاح هذا الزواج ولم أقبل بالعودة إلى مايا إلا بعد اكتشافنا حملها بطفلي. لقد اتهمتي بخيانة زوجتي مع السكرتيرة التي كانت تعمل لدي... والآن بسببها فقد ذاقت تلك المسكينة الويلات من أهلها حتى تم تزويجها لأحد أبناء عموماتها غصبا. "

ما قصة هذه المرأة واتهامها للآخرين بالخianات الزوجية؟ ولما تعامل أجد هكذا؟ ألا يعجبها؟ إنه شاب رائع بكل المواصفات ماذا يعيبه في نظرها؟ أم أن لديها مشكلة نفسية؟ شعرت بالأسف عليه وعلى تلك السكرتيرة....

أصدر هاتفني رنينا ليخرجني من فقاعة أفكاري وتفقدت هوية المتصل لأجده عمي فخنق قلبي ذعراً، وضعت الهاتف على أذني ليقول لي أن أخرج إليه لنذهب معا إلى المشفى، ألقى نظرة أخيرة نحو أمجد وودعته بابتسامة حزينة طالبة منه الدعاء لي.

ثم سرت نحو القصر لأخذ حقيبتني من المطبخ حيث تركتها هناك وعندما استدرت لأتوجه نحو الباب الخارجي فاجأتني السيدة انتصار بجلوسها على السلام تنتظرنني.

نظرت إليها بحقد وتحذ لتقابل نظرتي باستعلاء ومكر، ثم تجاهلتها وسرت متجهة نحو الباب الخارجي فاستوقفتني بكلامها الذي دب الرعب في قلبي وقلب كياني:

" مهما كان المكان الذي سيأخذك إليه هشام فسأسبقك إليه ، لا تظني أنك هزمتيني، التقرير الذي يثبت وجود هرمون حمل لديك جاهز وأياً كان المكان الذي ستقصدانه ستجدان ذات التقرير، فإذا ظننت أنك سبقتني بخطوة فأنا سبقتك بعشر خطوات.... لنقل..... أن لدي جيشا من المخبرات يتوقع أي واحد منهم اتصالا هاتفيا مني "

تسارعت دقات قلبي وازداد شحوبي عمّ ذي قبل، ثم استطعت جمع بعض الحروف لأقول لها بألم:
" لماذا تفعلين ذلك؟ بم أذيتك؟ "

نظرت إلي باحتقار وابتسمت شامته وأدارت ظهرها لي ومضت صاعدة السلام دون أن تجيبني. شعرت بساقيّ تسميان ضعيفتين غير قادرتين على حملي، حاولت السير متجهة إلى سيارة عمي التي كانت تصطف أمام مدخل البيت مباشرة، حاولت أن أجر قدمي كالذي تعلم المشي تواء وبالي مشغول بتهديدها، أدركت أن نهايتي اقتربت لا محالة، تراءت حياتي أمامي وهي تتحطم، صورتي العفيفة رُكلت تحت رجليها.

وصلت السيارة وفتحت الباب الأمامي لها وولجت إلى الداخل، ألقى لي عمي التحية فرددتها له متصنعة ابتسامة صفراء مزيفة تحاول إخفاء نظرة الرعب الذي تملك قلبي بل كل كياني، سارت السيارة ببطء نحو المخرج وما إن وصلت البوابة الخارجية للقصر حتى أوقف السيارة إلى جانب الطريق فجأة.

تطلعت إليه بحيرة وقلق، لم يبد على محياه ذاك الوجه المرح المؤلف... بدا لي شاحباً مهموماً، ثم التفت إلي وابتسم رغم قهره وقال:

" هل شعرت يوماً أن عليك الإقدام على الخطوة الصحيحة حتى لو كلفتك الكثير؟ "

فتذكرت انفصالي عن أجد وما سببه لي من الدمار وإقدامي على الزواج بشادي لأهمي زواج أختي، فغلبتني دمة مقهورة غصبا لتفضح إحساسي، فمد يده نحو وجهي ومسح بأصابعه دمعتي الحائرة، زم شفثيه ليمنع نفسه من البكاء ثم استجمع قواه وقال:

" أتعرفين؟! تباً لكل هذا! لن نذهب إلى الفحص لست محتاجاً إلى برهان على براءتك بالنسبة لي أنت أظهر جوهره تعرفت عليها ولن أشكك في أخلاقك أبداً... أنت زوجة ابني العفيفة التي اخترتها لتزين بيتي وتزرع وقارها في زواياه "

ثم أدار السيارة وقادها باتجاه المدخل ليعود إلى القصر بينما كنت أحاول استيعاب قراره المفاجئ، بقي وجهي متصلباً من تعابير الدهول التي ظهرت عليه، هل كنت أحلم؟ لا بد أنني أحلم.... وصلنا المدخل الرئيسي وترجل عمي من السيارة ودار حولها وفتح لي الباب وسألني وعلى محياه ابتسامة رقيقة كروحه تماماً وقال مازحاً:

" نداء من الأرض إلى إيلينا! ألن تنزلي؟ "

استيقظت من ذهولي لأتأكد أنني لا أحلم وأن ما يحصل معي حقيقة، فترجلت من السيارة وقد أشرق مبسمي من جديد، شعرت بقلبي يتفتح وبجرحي يخف نزفاً وكأنه تم تضميد جرحه بالحب والحنان، شعرت كأنني أولد من جديد فإذا كان عمي يصدق براءتي فلا يهمني من يتهمني في عرضي، حالما ترجلت رفعت رأسي أنظر إليه دامعة لكن هذه المرة كانت دموع فرح فرميت نفسي بين أحضانها أبحث عن ذلك الحنان الأبوي الذي حرمت منه سنين طالت، فأخذ يرت على ظهري ويمسح على حجاي برفق.

طوقني بذراعه من كتفي وسار بي عائداً نحو القصر، عندما رأتنا زوجته تفاجأت من عودتنا بهذه السرعة واستفسرت عم حصل معنا فأجابها زوجها بثقة وهو ينظر نحوي مفتخراً:

" لست بحاجة إلى دليل لأرى براءتها فسيهاهم في وجوههم ولن أكون أكثر فخرا في اختيار زوجة ابن لي أكثر منها، ثم أنني خشيت أن أهدم بيتي بيدي لأنني يعز علي فراقك إذا طلقتك "

يا له من رجل ماكر استطاع قهرها ومراضاتها في آن واحد وألجمها عن الإجابة فضاعت حائرة في كلماتها وحرورها فالتزمت الصمت.

ابتسمت من قلبي له وعدت إلى غرفتي لأريح جسدي المتعب المرهق من جراحي النفسي، لكن قررت أولا الرد على مكالمات ليان وأمي اللتين حاولتا الاتصال بي سابقا للاطمئنان علي وتجنبت ذكر أي تفاصيل لهما واكتفيت بخلق عذر واه لشجار فارس وشادي، بشأن صفقة تجارية بينهما. ما إن وضعت هاتفني تحت وسادتي أطمح إلى نوم عميق ما دام شادي مختفيا عن الأنظار حتى سمعت رنينه، فأخرجته من تحت الوسادة أسخط حظي فتفاجأت برقم مجهول يتصل لكنني شعرت أنه مألوف لي فاستقبلت المكالمة، ووضعت الهاتف على أذني لأسمع صوته على الطرف الثاني...

صوت فارس.

بدأ كلامه قائلا:

" إيلينا كيف حالك؟ هذا أنا فارس "

تجمدت للحظات في موضعي وانعقد لساني ثم سمعت صوته يهتف لي ليتأكد من وجودي معه في المكالمة فقلت بصوت مدعور:

" ماذا تفعل باتصالك بي؟ أما يكفي ما حصل البارحة؟ أرجوك لا تتصل بي ثانية "

فقال مسرعا يرجوني:

" لا لا لا لا! أرجوك انتظري! أنا أعلم كل شيء ديمة قالت لي "

سكت لبرهة لأترجم ما قال ثم سألته بحذر:

" ماذا تقصد بكل شيء؟ "

فقال:

" اسمعيني جيدا ولا تقاطعيني، ديمة استرقت السمع للجدال الذي دار البارحة بينك وبين العائلة ففهمت من هذا الكلام كل شيء، أعني بالله عليك أنا أعلم الناس أنك لم تحملي بطفلي فأنا لم ألمسك! وهكذا اكتشفت أن زواجك وشادي حبر على ورق! فقط! لا أكثر... وإلا لكان علم بكذبة أمه أليس كذلك يا إيلينا؟"

احمر وجهي خجلا من كلامه الجريء فأخذت أغير وضعية استلقائي إلى جلوس فلما تبين سكوتي سمعت صوت أنفاسه كأنه يتسمم من الجهة الثانية وقال:

" شادي غبي فعلا غبي! كل هذا الأدب والحياء بين يديه ويصدق أكاذيب أمه! يا له من مسكين لم يتعلم من غلطة شقيقته سابقًا، ما زالت كلمة أمه مقدسة لديه، مسكين"

ثم تجرأت أخيرا وقلت:

" قل ماذا تريد وأنه المكاملة رجاء فحتى لو كان زواجي شكليا فأنا على ذمة رجل آخر ولا يحق لنا الحديث معا"

- " وماذا لو لم تعودى على ذمته؟"

- " ماذا تقصد؟"

- " إيلينا أنا اشتريتك بكل الأثمان ومستعد لمحاربة الدنيا لأجلك وسأسعى معك لحصولك على

الطلاق دون أن تُهاني لأتزوجك أنا"

خفق قلبي بشدة من كلامه الأخير لي، سيسعى إلى طلاقى ليتزوجني هو؟ هل حقًا ما يقول أم أنه يتلاعب بي بهدف الانتقام؟ ثم قال كأنه قرأ أفكارى:

" أنا أتفهم تحفظك منى ولن أتضايق لو أنك كرهتيني فأنت محقة بغضبك ومشاعرك السلبية

تجاهي، فأنا حكمت عليك دون أن أعلم القصة بشكل صحيح، لكن من يلومني؟ ضعي نفسك مكاني.. أعود من سفري متحمسا لطلب الفتاة الوحيدة التي خطفت فؤادي لأجدها متزوجة لابن عمي الذي أعربت له عن مشاعري تجاهها... هل تلو منى بعد ذلك؟"

صمت لبرهة أحاول دراسة الموضوع ومعالجته في ذهني ثم تساءلت متجنبة إجابته على تساؤله:

" كيف ستسعى لطلاقي؟ "

فأجاب بثقة:

" لا تقلقي سنجد حلا لذلك، لأنه لا يجب أن يستمر هذا الزواج أبداً أنت تستحقين من يحبك ويقدرك ويعاملك معاملة حسنة وهذا لن تجديه عند شادي.. إنه جاف وسليط ولا يجيد معاملة النساء، قد يكون جذابا لكن تحت كل هذه الجاذبية رجل حديدي بلا مشاعر، ثقي بي وانضمي معي إلى مخططي حتى نعيش سعيدين معا أنا وأنت "

أنهيت معه المكالمة عند هذا الحد ولم أعطه كلمة قبول أو رفض لأفكر في الموضوع مع نفسي جيدا.

لم ألمح شادي بتاتا بقية اليوم ولا حتى في صباح اليوم التالي فقد سمعت مايا تقول أنه خرج إلى الشركة باكرا جدا عندما سألت عنه عمي على مائدة الإفطار، حسنا بات الآن يتجنبني! لماذا شعرت بالامتعاض من تصرفه؟ ربما لأنني أردت أن أكون أنا من يتجنبه، أو ربما شيء آخر.

قرر عمي أن يوصلني بنفسه إلى العمل. عندما وصلت باب القسم شعرت بقلبي ينتفض ونفسي يتذبذب، سأقابل زملائي في المكتب الآن كيف ستكون نظرتهم نحوي بعد علمهم بزواجي من مديريهم؟ والأدهى من كل هذا كيف سأقابل سارة؟ لم أجرؤ على محاولة الاتصال بها البارحة خشيت أن تصدني.

اتجهت نحو مكنتي أتجنب النظرات والهمسات التي أخذت تعلو حتى وصلت وجهتي، نظرت إلى سارة التي كانت تتجاهل وقوفي إلى جانبها وألقيت عليها التحية فأمسكت ساعات هاتفها ووضعته على أذنيها لتتجنب سماع صوتي، لم أتمكن من إعادة المحاولة بسبب محاصرة الفتيات لي يسألني :

"كيف حصل وأوقعت المدير في شباك حبك؟"

- " كيف إطلالة غرفته؟ "

- " هل يعاملك كأميرة؟ "

- " هل هو جذاب في السرير؟ "

لحظة ما هذا السؤال غير اللائق؟ سأجنب سماعي له! أغلقت أذني وطأطأت برأسي لأنني وابل
أسئلتهن وقلت:

" لا أحب الخوض في تفاصيل حياتي لكن السيد هشام هو من أراد الزواج لمعرفة قريباً من عائلتي
معرفة وثيقة، ووافق شادي لأنها رغبة والده وانتهى، لا قصص رومانسية حصلت.. لا غرام ولا
هيام... كان زواجاً تقليدياً وهذا كل شيء "

فقال دانا تتساءل بمكر:

" ولماذا أخفيت عنا حقيقة زواجك هذا؟ "

فأجبتها وقد خطرت في بالي أسرع كذبة استطعت التفكير بها:

" حتى لا تشعروا بالمراقبة..... وتتصرفوا على سجيبتكم جميعاً "

لم أشعر باقتناع أحد لكذبتني لكن حمد الله لم يجادلني أحد بذلك، وقررت اختصار الجميع من حولي
وتركيزي على عملي، أما سارة فشأنها سيكفون وقت استراحة الغداء التي انتظرتها بفارغ الصبر.
ما إن حلت ساعة الاستراحة حتى وقفت وجذبت سارة من يدها لآخذها على حين غفلة منها،
فبدأت تنهرني وتأمري بترك يدها لكنني أبيت وبقيت أسير بها حتى وصلنا خارج مبنى الشركة
وسرت بها نحو المطعم الذي أخذتني إليه في أول يوم لي في العمل هنا.
أرغمتها على الجلوس على الكرسي وهددتها بتصنع مشهد ملفت للجالسين إن لم تسأيرني، حتى
رضخت لي أخيراً وجلست.

استرحت على المقعد المقابل لها ونظرت إليها بتوسل شديد وقلت لها بصدق:

" أنت أغلى صديقة مرت علي ولن أسمح لشيء في تفرقة صداقتنا فيما بيننا عظيم... لذا سأبوح لك
بكل شيء وبكل التفاصيل لكن.... عليك أن تعلمي أن ما سأقوله لك لم أبح به لأي شخص كان
ولا حتى أمي أو ليان، ما سأقوله سر لم أخرج من صدري "

فانحنت تلقائياً تنتظر مني أن أبوح بكل شيء، فأخذت أسرد لها مشاعري تجاه فارس وطلبه الزواج بي ثم ما آلت إليه الأحداث حتى أصبحت زوجة لشادي بدلاً منه وكيف أن زواجي لا يعني شيئاً لي ولا لشادي فهو حبر على ورق، حدثتها عن سبب الزواج وهو خوفي على ليان من الطلاق وبرزت لها أن أمه أمرتني ألا أبوح لأحد من الشركة بزواجي من شادي وإلا تسببت في طلاق ليان لذا خشيت عليها وحافظت على صمتي.

قلت لها كل شيء تلا ذلك الزواج من أحداث حتى شعرت بها تكاد تدخل في غيبوبة وعندما أنهيت سرد قصتي، طرفت عيناها أخيراً وتنبهت إلى فمها المفتوح ببلاهة وجفاف حلقها فشربت رشفة ماء وأعدت نظرها إلي ملجومة ثم قالت:

" كل هذا حصل معك ولم تصبك سكتة! واو يا إيلينا! أنت حقاً قوية كيف لم تنهاري؟"

بلى انهرت يا سارة لقد عشت كالأموات طيلة هذه الفترة ولم يكن لي من حزن ألقأ إليه لأشكو همي إلا سجادة صلاتي أسجد وأبكي في ظلمات الليل الحالكة.

شعرت سارة بالسخط من نفسها وبالشفقة علي وأخذت تكرر اعتذارها مني مراراً، وأنا اطمئننها إلى أنني بخير وأني أحبها ولست غاضبة منها، ثم بكت فتركته لتفرغ مشاعرها في البكاء. عندما فرغت وأخذ عقلها يستوعب المزار الذي ذفته تساءلت بقلق:

" وماذا ستفعلين الآن؟"

نظرت إلى وجبتي التي بردت ولم أتذوقها بعد، ثم رفعت بصري نحوها وقلت:

" سأعود إلى فارس وأنهى زواجي"

رفعت حاجبها مذهولة بقراري ونظرت حولها كمن تبحث في قاموسها عن كلمات مناسبة للرد ثم قالت بصوت منخفض:

" هل أسدي لك نصيحة؟"

اقتربت منها وأومات موافقة فقالت لتصدمني:

" انسي فارس وعيشي مع شادي... أعني سيد شادي... حبًا في الله إيلينا! نحن نتقاتل من أجل نظرة من عينيه فما بالك بالزواج منه؟! أنت حصلت على نعمة فأكرميها! السيد شادي نعمة يا إيلينا نعمة!.. في رأيي اجذبي حبه لك واجعليه يرى من هي إيلينا على حقيقتها.. دعيه يهيم بك وهكذا سينسى مخططات أمه وقد يوقفها عند حدها فيصبح معك سلاحان السيد هشام والسيد شادي!"

فقلت هامسة معترضة:

" لكنه حاول الاعتداء علي!"

فضيقت عينها وزمت شفيتها بانزعاج وقالت:

" هل تعرفين حتى معنى كلمة اعتداء؟ إيلينا أيتها الغبية! أنت حلاله وزوجته ولو تقرب منك وقتها لظهرت براءتك أنت حقًا ساذجة! لو علم أنك بريئة ستختلف معادملته معك وتنقلب المعادلة!"

حاولت صم أذني عن كلامها لأنني لم أشعر بالراحة من الحديث بهذه الأمور الخاصة جدًا ثم أنني لا خبرة لدي فيها، كما أنه اتفق مع أمه على كون هذا الزواج حبرًا على ورق، لن أسلمه نفسي ليطلقني بعدها.. مستحيل! لن أسمح، أمسكت سارة بيدي لتحول انتباهي إليها وقالت تحاول إقناعي:

" هل تظنين أن العائلتين سترضيان بزواجك من فارس؟ حتى لو حصل الطلاق وأراد فارس طلب يدك، أمه لن ترضى بعد الذي فعلته بابنها ووالده لن يقبل بذلك إكراما لابن أخيه.... انظري إلى الموضوع من جميع أبعاده قبل التهور في قرارك"

وضعت رأسي على كفي أفكر بصمت... كلام سارة صحيح، لكنني أعيش في جحيم حاليا وهذا الجحيم لا يطاق لقد تعبت وأريد إنهاء تعبي، أخذت أوازن جميع الأفكار في رأسي حتى في النهاية رسوت على قراري قائلة:

" وإن يكن.. أنا أعيش الآن في جحيم! سأبقى على قراري بالارتباط بفارس مهما كلفني ذلك غاليا"

الفصل التاسع والعشرون

جلست أمام جهاز الحاسوب بعد استراحة الغداء لأكمل أعمالي، لكن عادت زميلاتي جولة التحقيق ليجتمعن حولي من جديد، شعرت بالضيق منهن ظننت أنهن تركنني وشأني، يبدو أنني لن أتخلص منهن بسهولة. كانت سناء أول من استهلّ تيار الأسئلة فقالت:

" ما شعورك وأنت تستيقظين صباحاً على وجه مثير مثل وجه السيد شادي؟"

حدجتها بنظرة ساخطة لكنها لطمتني على كتفي بخفة تداعبني لأفصح عن مشاعري، ثم قالت دانا:

" هل أقمتم حفل زفاف على الأقل؟"

فأجبته باختصار:

" نعم حفل عائلي فقط لم يتم دعوة أحد إلا الأقارب"

وقعت عيني على شهد من بعيد تجلس على كرسيها وتراقب باهتمام، وعندما لمحتني أشاحت بوجهها بعيداً، إنها الوحيدة التي لم تضايقني بأسئلتها أمرها مريب.

وكان دانا قرأت أفكارني فاقتربت مني تهمس في أذني:

" منذ اليوم الذي اكتشفت فيه شهد زواجك من المدير وهي تبكي حتى أنها لم تعد تأكل شيئاً"

أعدت النظر إليها فشعرت بأن بريقها المعتاد منطفيء، هل حقاً كانت تحب شادي إلى هذا الحد؟ أم السبب أنها لم تكن تظن يوماً أن فتاة مثلي سترتبط بالشاب الذي تحبه ظناً منها أنها أفضل مني؟ أو ربما السببان معاً.

كانت الأسئلة من حولي تتزايد وتدخل في خصوصياتي أكثر، لم أشعر بالراحة للإجابة عن أي منها، ذلك لأنها تسببت لي بالإحراج ولأنني لا أعرف إجابة معظمها فأنا لم أختلط به كثيراً كيف سأعلم إذا كان جسده مثلاً مفتولاً بالعضلات كما سألتني سناء وأنا لم أراه أبداً!

فجأة انفض الجميع نحو مكاتبهم بسرعة كالجراد، ماذا حصل لمن حتى تركني في حالي أخيراً؟ ثم عرفت السبب؛ قدّم شادي ليقوم بجولة استطلاعية على إنجاز المهام، التفت خلفي فوجدته يقف عند مكتب أحد الشبان يراجع بعض الأوراق ويقرأ فيها ثم يشير إلى بعض النقاط فيها ويكلفه بالتعديل.

ثم تابع سيره نحو مكاتب عشوائية، اقترب من مكتب شهد فأصابني الفضول لأرى معاملته معها، لماذا أصابني الفضول؟ لا أدري لكن حاولت إيهام نفسي بعدم اهتمامي، لكن عينيّ أبت الاستماع لصوتي الداخلي.

اقترب من حيث تجلس شهد فشعرت بالضيق لأفاجئ نفسي بهذا الشعور. ومد يده نحو الأوراق الموضوعه على مكتبها فوقفت بجرأة قريبة جداً منه، فاسترعى المشهد انتباهي. شعرت أنني على وشك الانقراض عليها لتمزيقها إرباً.... حسناً ماذا؟ ما الذي دهاني؟ لست مهتمة بما يجري بينهما. لكن لماذا لم يتزحزح مبتعداً عنها؟ رفع رأسه قليلاً فالتقت نظرانا فاحمر وجهي خجلاً وأشحت رأسي بعيداً عنه. ثم لفت نظري سارة تراقب ردة أفعالي باهتمام فزاد من إحراجي. سمعت صوته يقترب من مكتبنا وهو يحدث سكرتيرته عن بعض المشاريع والتقارير حتى شعرت به يستقر خلفي.

انحنى إلى جانبي ليستطلع شاشة الحاسوب فأصبح وجهه قريباً جداً من رأسي لا يبعدة عني إلا إنشات قليلة، كان يتكئ بيده على ظهر الكرسي الذي أجلس عليه. أشار إلى الشاشة لأقوم بتعديل إحدى تقارير المبيعات وأحذف قائمة منها، ففعلت كما أمر لكنني كنت متوترة جداً فلم أنجز المهمة بالسرعة التي أقوم بها عادة.

اخترقت أنفي رائحة عطره التي بت أحفظها عن ظهر قلب والتي تولد في داخلي إحساساً غريباً. تجرأت على إزاحة رأسي قليلاً إلى اليسار حيث هو فوق نظري على ياقة قميصه المفتوح، فازدادت ضربات قلبي اضطراباً. رفعت بصري قليلاً بينما هو منشغل بالاطلاع على النموذج الأولي للتقرير

لأنظر نحو فكه السفلي وشفتيه كانت هناك أثر لكدمة عقب شجاره مع فارس. في اللاوعي وددت لو أنني أمسح موضع الكدمة بمنديل نظيف، لكن لا! يستحيل علي فعلها ولو بعد مليون سنة! رفعت بصري قليلا فتفاجأت بعينه الساحرتين مثبتتان علي، هل كانت عيناه بهذه الجاذبية سابقاً؟ هل يعقل أن هذا لون عينيه الطبيعي؟ ألا يضع عدسات لاصقة اليوم؟ لماذا بريقهما شديد هكذا؟ ذاك اللون الرمادي الساحر يجبس الأنفاس، أريد أن أفهم سبب وسامته بالقدر الذي يعطل الحواس عن العمل؟ لا أجد عيباً واحداً فيه، إنه مثالي جداً.

كانت عيناه تبحران عميقاً في عيني ثم أخفض بصره نحو شفتي يتأملهما فشعرت بالخجل الشديد وكدت أفقد القدرة على التنفس فأدرت وجهي للأمام لأنهي هذه اللحظة من حياتي وسألته: "هل كل شيء تمام هنا؟"

نهض واقفاً ليتلاشى من أنفي رائحته العطرة، ثم ربت على كتفي بيده ومسح بها أعلى ظهري كأنه يقول لي بلغة أخرى أن العمل تمام. وابتعد عني عائداً نحو مكتبه.

أما أنا فشعرت بالشلل يجتاح تفكيري، فانقضت علي الفتيات من جديد بحماس زائد كأنهن كن يتابعن لقطة مثيرة من أحد الأفلام، حتى سارة انضمت إليهن بل كانت أولهن هجوماً. تحدثني سناء لأن أقبله في المرة القادمة فشزرتها بنظرة مخيفة فرفعت يديها معلنة استسلامها واعتذرت بشدة لكن مع ذلك لم أتخلص من تعليقاتهن المخرجة، والتي حاولت جاهدة صم أذني عنها لأكمل عملي دون أخطاء.

ما الذي يحصل لي؟ لماذا ارتجفت يداي هكذا بشدة بعد هذا الموقف؟ وقلبي... لماذا لا يتوقف عن خفقانه القوي هذا؟ نهضت مبتعدة عنهن جميعاً لأهرب نحو دورة المياه لعلني أتخلص من تعليقاتهن المخرجة قليلاً وأستطيع إخراج صورته من مخيلتي لأركز في طباعة التقرير تالياً.

ليان

لمحت من نافذة غرفتي الصيفية يزن يقف مع عبير في الساحة المدرسية يتحدثان معا فضحكت عبير مقهقهة على شيء قاله يزن وأخذت تتعنج في ضحكها أمامه، فأثارت حنقي وامتعاضي.
عدت إلى حقيبتى وأكملت توضيب كتبي لأغادر المدرسة، شيكيت على معدات الغرفة الصيفية ورتبت خزانة كتبي من بعض الأوراق الضالة. واو! عندما أكون غاضبة فإنني أنجز في تنظيم أعمالي المكتبية!

ثم اتجهت نحو الباب ففاجأني يزن بفتحه ودخوله علي. لم أستطع منع نفسي من إلقاء نظرة ساخطة نحوه، فأثار فضوله ورفع حاجبيه متسائلا عن سبب ضيقي.
فقلت دون تفكير:

" أنت لك الحق في منعي من مخاطبة الرجال الذين تشعر بأنهم يكونون لي المشاعر، لكن لا بأس لو أنت تكلمت مع من تريد من وضيعاتك؟"

قطب حاجبيه متعجبا ثم قال مستفسرا:

" ليان بماذا تهدين؟"

فاندفعت غير متحكمة بمشاعري:

" لا يُسمح لك بالحديث مع عبير من اليوم فصاعداً مفهوم؟!"

رفع يديه مستسلما وقال:

" حاضر كما تشائين"

وكان عقلي لم يستوعب إذعانه سريعا لي فقلت مهاجمة دون وعي:

" كنت أعرف أنك ستفعل ذلك! ماذا ستستفيد من الحديث معها بما أنك متزوج؟ هل تريد فقط أن

تستعرض علي عضلاتك لتمنعني عن الحديث مع من تشاء وأنت تغازل من تشاء؟"

ثم شردت قليلا به وهو ينظر نحوي مندهشا.. قلبت عيني قليلا وقد استوعبت أخيرا رده السابق لي

ثم تغيرت نبرتي فجأة وأنا أسأله بإحراج:

" هل قلت حاضر؟ "

هز رأسه بخفة وملاحظه مصدومة ثم اقترب من أمامي وبدأت تلك الابتسامة السمجة تشق طريقها نحو شفثيه وهو يقول:

" تغارين علي يا عصفورتي؟ "

ابتلعت ريقى أكبر من إظهار مشاعري وأشحت وجهي جانباً وقلت:

" لا تغتر بنفسك كثيراً.. "

التف من خلفي وهو يقرب رأسه مني حتى شعرت بأنفاسه تدغدغ كياني ثم حوطني من الخلف بذراعيه وهمس قريباً من أذني قائلاً:

" غيرتك تشعل رغبتى! "

حررت نفسي من أحضانه وابتعدت نحو الباب أهم بالمغادرة وأنا أردد له قولي:

" عيب عليك احترم حرم المدرسة التي نحن فيها الآن "

تقدم من خلفي، وعندما فتحت الباب مد يده فأغلقه ثم التفت نحوه مهددة فظهر الاستمتاع جلياً على وجهه واقترب مني حتى التصق ظهري بالباب، انحنى نحوي وقرب رأسه من رأسي ونظر بعينه الزرقاوين في عيني ليستشف شعوري.. لمعت عيناه بشدة مما زاد من جاذبيته فشعرت كأنني سيغشى علي، لكنني تماكنت نفسي، وتصنعت الصلابة، ثم طبع قبلة على أنفي ونزل ببصره نحو شفثي وابتسم بمكر أمامهما وهو يراقبهما باهتمام ثم لفظ كلمة:

" أعشقتك "

فشعرت بحرارة أنفاسه وطعم النعناع من فمه يضرب إحساسي بشدة ثم رفع ظهره وابتعد قليلاً عني وقال:

" هيا بنا نمضي إلى بيت أمك لتزورها الآن، لأن لدي عملا مع شادي ولا أريد التأخر عليه "

لا! لحظة! هل قطع لتوه لحظة حميمية بيننا ليبقيني عالقة في رغبتى بالقبلة المعلقة كما فعل بي سابقاً في

بيت أمي؟

شعرت بنفسي يصبح أثقل وبالرغبة توجه أفعالي لتغطي على عقلي كي لا يتحكم بي، فجذبتني من ياقة قميصه ليتفاجأ بردة فعلي وطبعت قبلة عميقة على شفثيه، كان في البداية مصدومًا فلم يشاركني القبلة لكنه استدرك نفسه وبادلني إياه بأحاسيس متقدة بالرغبة، ثم أمسك بذراعي ليثبتني بينما يرفع رأسه مبتعدًا، وقال مداعبا:

" كم أحب مظهرك التائه هذا كلما اقتربت منك "

شعرت بوجهي يغلي فأبعدت ظهري عن الباب وفتحته مغادرة المكان بسرعة لأسبقه إلى السيارة في محاولة مني لتجنب استمتاعه بخجلي وإحساسي المرهف تجاهه.

وقفت أمام السيارة في انتظاره فلمحت عيني خيال أحدهم من بعيد، جفت الدماء في عروقي لمن ظننتني رأيت. اختفى الخيال مبتعدًا خلف مبنى بعيد، هل ما رأته عيناى حقيقة؟ أكان ذلك حقًا هو أم أنني أتخيل؟ بدأ الضيق يسيطر على حواسي بينما أخذت أقنع نفسي بعكس من رأيت.. لا أنا التخيل لا يمكن أن يكون هو... لا ليس بهاء!

وصلنا إلى بيت أمي واستقبلتنا فرحة سعيدة برؤيتنا، احتضنها يزن بقوة وطبع قبلة على جبينها ليحصل منها على ضحكة صغيرة مرحة.

عندما جلسنا حضرت لنا مائدة الطعام، فنظرت إليها بتعجب وسألتها:

" ألن تنتظري إيلينا؟ "

فقلت:

" حبيبتي إيلينا لن تحضر، لدى عمته اجتماع في الجمعية وتريد أخذ السيدة مايا، فطلبت منها مجالسة طفليها فاعتذرت عن المجيء "

زفرت بامتعاض فمسح يزن على ظهري وقال في محاولة منه لإرضائي:

" ما رأيك بعد الغداء أن أصحبكما إليها فأنا سألقى شادي في القصر "

اعتذرت منه متبرمة بأنني أريد مساعدة أمي في أعمال البيت فليس لها أحد غيرنا ليقوم بحاجاتها، والسبب الآخر الذي لم أطلع عليه هو أنني لا أريد التصادم مع عمته في حال عودتها على حين غرة. لأنني لا أشعر برحابة صدرها تجاهنا أو تجاه إيلينا.

تناول يزن معنا طعام الغداء ثم ودعني عند الباب واستطاع أن يسرق مني قبلة من غير أن ترى أمي، فأغلقت الباب خلفه وأنا أطبع تلك الابتسامة البلهاء على شفتي.

نزلت لأشتري لأمي سائل تنظيف وبعض المشتريات الأخرى من المتجر القريب حتى نتمكن من تنظيف البيت سوياً، وعندما هممت بالرجوع إلى الحى شعرت أن الأرض توقفت عن الدوران. وأن الدنيا تحولت من حولي إلى السواد فسقط من يدي ظرف البضائع التي اشتريتها لتبعثر أرضاً. أدركت سقوط أشياءي فجأة فجثوت أرضاً لألتقطها بتوتر شديد، ثم اقترب خياله مني وانحنى أرضاً يجمع معي الأغراض، فجذبتها بقوة وقلت بجفاء مصطنع:

" أنا بخير لا داعي لتتعب نفسك "

نهضت واقفة لأكمل مسيري، فتوقف أمامي ليقطع علي هروبي منه وقال:

" ليان أرجوك أريدك في كلمتين فقط "

نهرته بنبرة حاقدة:

" لا يوجد بيننا كلام علاقتنا انتهت منذ زمن يا بهاء، اتركني في حالي "

ثم مضيت من جانبه فقال لأتوقف فجأة عن المسير:

" أرى أنك تزوجت! "

شردت أمامي لا أجد ما أرد به عليه، اقترب مني مجدداً وقال:

" أنا سعيد جداً لأنك وجدت سعادتك حتى أريح قلبي من عذابك "

أمسى الهواء ثقيلًا حولي ولم يعد في مقدوري مواجهته ثم قال متسائلاً فجأة:

" وما أخبار إيلينا؟ هل ما زالت عزباء؟ "

نظرت إليه يكاد الدهول يفجر رأسي، ما أشد وقاحته! بعد كل الذي جرى ما زال متعلقًا بإيلينا؟
غير مهتم بأحاسيسي؟!

أجبتة بجفاء وفي نبرتي ألم:

"إيلينا تزوجت أيضًا فابقى بعيدًا عنها!"

ولم أنتظر منه الرد فسحبت رجليّ أهرول مبتعدة من أمامه وأنا أحاول إسكات قلبي عن الشعور بالضيق، ما زال يجب إيلينا؟ ألا يشعر بشيء تجاهي أبدًا؟ لكنني كنت مخطوبته! لماذا عاد؟ وكيف عرف مكان سكننا؟ شعرت بنفسني أختنق وبقلبي يعتصر ألما، الوضع يريدني أن أتزوج حتى أخلي له الساحة ليكون مع شقيقتي! كيف يفعل بي هذا بأي قلب وبأي إحساس؟!

إيلينا

استغل جاد فرصة انشغالي بإخراج مسك إلى الحديقة مع ماسة قبل عودة جدته وأمه واكتشافها دخولها إلى البيت، فهي تكره الققط وتشمئز منها، فاختمتني عن ناظري، أخذت أبحث عنه مع ماسة، لكن أين سأجده في هذا القصر الكبير المليء بالغرف؟
ثم قالت ماسة:

"ربما هو في الطابق السفلي"

تفاجأت من وجود طابق سفلي في المبنى فتبعت ماسة إلى السلام التي تقود إلى ذلك الطابق والتي نزلناها من غرفة الطعام، كيف لم أنتبه إلى وجود سلام بجانب الباب على زاوية الغرفة من قبل؟ سرت خلف ماسة وهي تمشي في بهو كبير حتى وصلنا إلى باب كبير ذي درفتين، فتحت ماسة الباب فوجدتُ جاد يجلس على طاولة خشبية كبيرة فتقدمت نحوه لأرى مشهدًا لم أتخيل أنني سأراه. رأيت صالة رياضية فيها وزن وعمي وشادي! كان شادي يرتدي بنطالا رياضيا قصيرا عاري الصدر يجري على جهاز للمشي بسرعة كبيرة وهو يلهث بشدة، وعمي واقفا أمام الجهاز عاقدًا يديه على

صدره تعلوه نظرة قاسية لم أعهد لها منه يوماً، بينما يزن يمسك ساعة مؤقت ينظر إليها، ثم قال عمي ليزن:

" ضاعف السرعة إلى السرعة القصوى "

فالتفت يزن نحوه قلقاً وقال:

" عمي إنه يركض منذ ساعتين ستقتله "

فاقترب عمي من الجهاز وضغط على لوحة التحكم ليصل إلى أقصى سرعة، حاول شادي مجازاة السرعة لكن الجهاز غلبه فأسرع وضغط على زر الإيقاف ليقع على ركبتيه يلتقط أنفاسه، ثم انبطح على الأرض نازلاً عن الجهاز.

رمى عمي قفازات ملاكمة عليه وهو مستلق على الأرض وناول يزن زوجاً آخر وقال أمراً:

" انقض عليه والكمه، وأنت قم ودافع عن نفسك "

حاول شادي ارتداء القفازات وهو يضع يده على خاصرته بين كل فينة وأخرى ثم حاول النهوض فضربه يزن بقفازه في معدته، وقبل أن يتمكن شادي من صد الضربة وقع على ركبتيه يتألم.

نظر يزن نحو عمي بقلق فصرخ به:

" لماذا توقفت قم بالتجهيز عليه! "

فاعترض يزن بقوله:

" لكنه متعب يا عمي لا نريد نقله إلى المشفى مجدداً "

فأظلمت عينا عمي غضباً وقال:

" قلت لك أجهز عليه! "

لم يستطع يزن مجادلته أكثر فانهال على شادي ضرباً، حاول بدوره صد بعض الضربات وتوجيه لكلمات مضادة لكنه كان متعباً وشعرت به يتألم من خاصرته، فلم يتمكن من الصمود طويلاً فخر واقعاً أرضاً، فتوقف يزن عن تسديد اللكمات له، ونهض يرضو عمي أن يتوقف عند هذا الحد.

استدار شادي وهو مستلق ليستريح على ظهره وأخذ يحاول التقاط أنفاسه بصعوبة ويتحسس خاصرته، فأمسك عمي زجاجة ماء وسكبها على وجهه فغطى وجهه وهو يئن، ثم انحنى فوقه وقال بصرامة:

" لا مكان للضعفاء في قصري مفهوم؟! "

أوماً شادي برأسه دون أن ينطق من شدة تعبته ثم التفت عمي نحونا فتفاجأ من وقوفنا نشهد ما حصل، ثم انتبه عمي إلى شيء بالغ الأهمية فقال:

" إيلينا! شعرك مكشوف أمام يزن! "

ثم تذكرت أنني لا أرتدي حجاباً فشحب لوني وأخذت التفت من حولي أبحث عن شيء يشبه الشال أعطي به شعري، فصرخ شادي وهو يحاول النهوض:

" أعطها قميصي! "

فأعطى يزن عمي قميص شادي متجنباً النظر إلي، فألقاه نحوي وبسرعة وضعته على رأسي دون تفكير. ثم استطاعت رائحة شادي التسلل منه إلى أنفي فنبض قلبي بقوة. حوّلت بصري إليهم.. كان يزن مشيحاً برأسه جانبا حتى لا ينظر إلي، وشادي رفع جذعه ليجلس بينما يلتقط أنفاسه وهو يضع ذراعيه على ركبتيه أما عمي فاقترب مني وقال متسائلاً:

" ماذا جاء بك إلى هنا؟ هل هناك شيء؟ "

لم أكن بعد في وعبي لأجيبه ما زلت مصدومة مما رأيت فقالت ماسة تجيب على تساؤله:

" كنا نبحث عن جاد، فقد اختفى بعد أن تسبب في دخول مسك إلى البيت "

التفت عمي إلى جاد الذي قابله بابتسامة طفولية مأكرة، يا للأطفال ما أجمل عالمهم! استطاع سرقة ابتسامة مني على ابتسامته الظريفة، فهز عمي رأسه يخفي ضحكته.

ثم ربت على كتفي وقال:

" خذي الطفلين وعودي إلى الطابق العلوي وسأراك لاحقاً، لا تنسي ارتداء حجاب "

شعرت بالخجل وأومات رأسي دون جدال واستدرت نحو الباب عائدة مع الطفلين، لم أقاوم الالتفات إلى الخلف ثانية لأرى شادي الذي كان ينظر نحوي بدوره وهو على وضعيته ذاتها، فازداد شعوري بالخجل وسرت مبتعدة لأعود إلى غرفتي وأغطي رأسي بحجاب حتى يغادر يزن القصر. تأكدت من نوم الطفلين مبكرين فأعدت الكتاب الذي كنت أقرأ منه لهما في مكتبتهما وغادرت غرفتهما على مهل وأغلقت الباب خلفي.

نزلت السلم فوجدت عمي برفقة يزن يقوده نحو الباب مودعا له، فنزلت على عجلة وألقيت عليه تحية محرجة وقلت له بصوت يحمل نبرة خجل:

"أرجوك لا تذكر أمام ليان الموقف السابق فسيصيبها جنون الارتياب، ولا تريد أن تعلق معها في جنونها صدقني"

فضحك بخفة حتى بانته غمازته وقال غامزا:

"لا تخشي شيئا فأنا أعشق أختك المجنونة ولا أرى غيرها في الدنيا ثم أنني لست بهاء" وقع فكي مدهوشا هل امتلكت ليان الجرأة لتبوح له عن بهاء؟ يبدو أنها تحبه أكثر مما تصورت لتتمكن من إخباره عنه، فابتسم عمي وتساءل بفضول:

"من بهاء؟"

لوح يزن بيده ليعده عن تفكيره وقال:

"لا أحد، مجرد أحمق لا يحسن التعامل مع اللائع"

غطيت فمي بيدي لأخفي ضحكتي هل نعت أختي باللؤلؤة؟ إذن هو لم ير غضبها الحقيقي بعد! غادر يزن القصر فعاد إلي عمي بابتسامة ودية، مد ذراعه حول كتفي وسار معي حتى وصلنا إلى الحديقة، كان الجو بارداً قليلاً.

طلب مني أن نجلس على المقعد الخشبي أمام النافورة فجلست إلى جانبه احتضن جسدي لأحصل على الدفء. نظر أمامه وأخذ نفساً عميقاً مستمتعا ببرودة الطقس، ثم نظر إلي وقال:

"لا بد أنك تتساءلين عم رأيتيه في الداخل، صحيح؟"

أخذت أحك ذراعي بارتباك ولم أجد ما أرد به عليه، فاتكأ على ظهر المقعد ثم قال وهو شارداً بذكرات حباته:

"عشت طفولة قاسية، قلت لك سابقاً أنني كنت فقيراً معدماً، لكنني لم أقل لك ما تبع هذا الفقر، لقد تعرضت للتعذيب كثيراً، وكان علي دائماً أن أتحمى بالقوة لأدافع عن أخي فأنا كنت مصدر حمايته الوحيد"

ثم عدل من وضعية جلوسه لينحني بظهره إلى الأمام متكئاً بذراعيه على فخذه وتابع:

"كان علي أن أعلم شادي منذ طفولته كيف يكون صلباً قوياً حتى لا يتعرض لأي نوع من الأذى، فلم أرد له أن يكون ذاك الطفل الثري المدلل الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه... الدنيا لا ترحم وإن لم يكن الإنسان قوياً فلن يعيش بسلام... سأبوح لك بسر لا يدري به أحد... عندما كان صغيراً كنت أصحبه إلى أماكن تجمع الفتية الذين يتسببون بالمشاكل وأرميه وحده بينهم ليواجههم فأقضي على الخوف الذي بداخله"

صدمت من حديثه المفاجئ هل يعقل ذلك؟ كان يضحى بولده الوحيد بإلقائه في الخطر هكذا؟! ربما هذا السبب وراء شخصيته الحديدية الصارمة، عمي يريد تعليمه كيف يبقى قوياً لأنه يظن أن البقاء للأقوى، لكن لم أرتح لهذه الفكرة فأنا ضد العنف مهما كان.

تابع حديثه قائلاً:

"ثم تعرفت إلى يزن من خلال أبيه فقد كان بيننا صفقات عمل كثيرة، وفوجئت بقوة وصلابة هذا الفتى، فمنذ أن كان غلاماً كان له قوة بدنية عجيبة يستطيع بها قهر عشر رجال.. استغللت الفرصة وكلفت شادي بمرافقته إلى النوادي الرياضية ليقوى جسده مثله فأصبحا صديقين مقربين من وقتها"

شردت قليلاً وأنا أفكر بيزن، فهو وحيد والديه فهل كان والده يفكر مثل تفكير عمي؟ أم أن هناك قصة أخرى خلفه؟

شعرت بالتعب وبدأ النعاس يتسلل إلى عيني فأشار إلي عمي أن نعود إلى الداخل لأنال قسطا من الراحة، بعد مطاردة طويلة خلف ماسة وجاد.

صعدت إلى غرفتي قبل عودة السيدة انتصار فففسد علي يومي، بصراحة.. كان هذا أفضل يوم يمر علي منذ تزوجت، ذلك لأنني لم أر وجهها... عندما دخلت وجدت شادي جالسا على السرير عاري الصدر يرتدي بنظالا قطنيا أسود اللون، كان شعره مبتلا فعرفت أنه اغتسل قبل قليل.

شعرت بالارتباك من الدخول أكثر فهو لم يستر جزءه العلوي.. كما أننا لم نتكلم بعد حادث البارحة إلا في الشركة، التفت إلي ثم قال بصوت مجهد:

" هل ستبقين واقفة هناك؟ ادخلي وأغلقي الباب "

فدخلت وأغلقت الباب بينما عقلي الباطني يشجعني على العكس، لماذا لم أستمع له؟ ليتني خرجت، لست مستعدة لأبقى معه وحدي، رفع بصره إلي بتعب مجددا ثم قال بلهجة أمره مشيرًا إلى قميص قطني أبيض بين يديه:

" تعالي ساعديني في ارتداء قميصي، فإنني مجهد ولا أقوى على رفع ذراعي "

أشرت إلى نفسي ببلاهة وقلت متسائلة:

" أنا؟ "

فزفر بنفاد صبر وقال متهكماً:

" لا ديمة! طبعاً أنت! "

بقيت واقفة مكاني مترددة لا أجرؤ حتى على الرد فقال مصرًا:

" تعالي لن أعضك! "

شعرت بالحجل الشديد لكنني اقتربت منه، التقطت القميص منه، أمال رأسه قليلا إلى الأمام لأبدأ بإدخاله برأسه حاولت قدر الإمكان أن أتجنب النظر إليه حتى لا يزيد ارتباكي ثم حاول مد ذراعه اليمنى فساعدته على إدخال ذراعه في كم القميص بينما وجهه يظهر علامات الألم لامست أصابعي جلده البارد دون قصد مني فشعرت برعشة تسري في جسدي، حاولت تمالك نفسي وأدخلت

ذراعه الأخرى في كفه الأيسر، ثم اضطرت لأن أنحني لأنزل القميص ليغطي ما بقي مكشوفاً من صدره وبطنه، كان له صدر قوي مفتول بالعضل يتوسطه بعض الشعيرات القصير ازدادت ضربات قلبي خفقاناً وعادت أصابعي لتلامس جسده الصلب ثانية، فشعرت بوجنتاي تحمران خجلاً، ثم أنهيت مهمتي فنهضت واقفة، لم أكن أدري أنني أحبس نفساً عميقاً في داخلي، فهذه تجربة جديدة علي.

استدرت لأهرب نحو أريكتي لألتقط أنفاسي الثقيلة فباغتني بأمسك يدي بكفه، بدأ الدم يتصاعد جرياً نحو رأسي وتسمرت في مكاني ثم قال:

" اجلسي هنا "

استدرت لأجده يشير إلى السرير بجانبه فجال في خاطري ما كاد يفعله بي البارحة فشعرت بالفرع، فسحبت يدي بسرعة وتوجهت نحو الأريكة مبتعدة عنه، أحسست بخياله ينهض ويتبعني، فذب في قلبي الرعب، فوقف إلى جانبي وأدار ظهره للأريكة واتكأ على ظهرها ثم عقد ذراعيه على صدره ونظر إلي نظرة مبهمة، تجرأت على رفع بصري تجاهه لألمح عينيه الرماديتين تسطعان في الضوء الخافت، ثم قال:

" لا تتمشي في القصر ثانية عندما نستضيف أحداً دون وضع حجاب، هذه المرة سأتغاضى عن إهمالك لأن الضيف كان يزن وبطبيعة حاله تجنب النظر إليك "

ازدرمت ريقتي وأومأت برأسي موافقة دون نقاش، ثم مد ذراعه نحوي وقام بفك حجابي وأنزله عن رأسي ليستقر على كتفي ثم قال مضيفاً:

" وعندما تدخلين هذه الغرفة لا ترتديه بتاتا "

ثم أمسك بطرف شعري واستدار خلفي وأخذ يفك ضفيرة شعري وقال:

" لا تجدلي شعرك عندي أريد أن أراه حراً دون رباط "

انسدل شعري على كتفي وظهري فمرر أصابعه في خصلاته الناعمة، ثم وقف يشم رائحته فدغدغ إحساساً، وضع يديه على كتفي وقال:

"رائحته عذبة.... ما زلت لا أفهم كيف تملك بلهاء مثلك شعرا كهذا..... لا أحد.. وأعني

بكلامي لا أحد يسمح له برؤية هذا الشعر غيري فهمت؟!!"

أومأت ثانية برأسي وأنا أحاول السيطرة على ضربات قلبي وتنفسي المضطرب. ثم ابتعد عني وتوجه

نحو سريره ليريح جسده بعد التمارين الشاقة التي قام بها، فاستغللت الفرصة وولجت إلى خزانة

الملابس لأرتدي منامتي وأوصدت بابها خلفي حتى لا يفكر باللحاق بي، فأخرجت ذلك النفس

الذي كبته طويلاً وحاولت جاهدة تنظيم أنفاسي المتقطعة لأسيطر على انفعالاتي المضطربة، ما الذي

يحصل لي؟ لماذا أشعر بقلبي يتقاذف في صدري؟! إنه لا يهدأ أبداً.

الفصل الثلاثون

لم يجد النوم مكانا ليستعمر عيني حاولت جاهدة إغماضهما لكن عبثا. فنهضت جالسة أزفر بضيق، مسحت وجهي بكفي ومررت أصابعي في خصلات شعري الأسود القصير حتى أبعده عن عيني. كنت لا زلت أفكر بلحظة لقائي ببهاء، طبعاً لم أبح لأمي بشيء عن الموضوع. أخذت أنظر من خلال النافذة إلى السماء المظلمة بضيق شديد، ثم شعرت بيد يزن تمتد نحو ذراعي فالتفت نحوه، وجدته مغمضا عينا ويحاول فتح الأخرى ثم قال بصوت رخيم نعس:

" لماذا أنت مستيقظة هل من خطب؟ "

أدرت وجهي إلى الأمام ثم تنهدت بتعب فنهضت جالسا وقد بدأ القلق يسري في عروقه، ثم أضاء المصباح الذي على المنضدة وأمسك بكف يدي وقال متسائلا بنبرة قلق:

" ليان! ما الأمر؟ هل هو أبي مجددا؟ "

هزرت رأسي بنفي، ثم حاولت تصنع ابتسامة مزيفة وتبرمت بأبني قلقة على أمي الوحيدة وإيلينا فقط، لكنه لم يبد عليه الاقتناع ثم وضع يده أسفل ذقني وأدار وجهي نحوه وقال:

" ليان أنت تعرفين أنه يمكنك أن تقولي لي كل شيء فأنا زوجك.. سندك! وسأقف إلى جانبك مهما كان الأمر "

ترددت كثيرا قبل أن أجد طريقة لأوصل له ما حصل معي ثم استسلمت وقلت صراحة:

" التقيت اليوم ببهاء صدفة في الحارة التي تعيش فيها أمي "

سكت قليلاً كأنه يحاول استيعاب ما قلت ثم تنحى وقال متسائلاً:

" حسناً..... وبعد؟ "

دلكت طرف حاجبي بأصابعي بتعب وأردفت بضيق:

" لا شيء فقط أبدى سعادته لمعرفته بزواجي واستفسر عن إيلينا إذا كانت ما تزال عزباء "

هز رأسه قليلا وزم شفثيه ثم قال معقبا:

" وأين المشكلة؟ "

نظرت نحوه باستياء وقلت:

" المشكلة أنه ما زال يجري خلفها..... ولا يهتم لمشاعري! "

تنهد يزن بضيق وأسند رأسه على ظهر السرير وقال:

" حسنا، سحقاله وما همك بالأمر كله؟ أنت أخرجتته من رأسك وقلبك فلماذا تهتمين إذا كان ما يزال يحب إيلينا؟ "

- " لأنه.... لأنه كان خطيبي! وجرحني بشدة!.. ألا يملك في قلبه ذرة إحساس تجاهي؟ "

- " هذا أفضل! لأنني لا أريده أن يشعر بشيء تجاهك! وإلا فسأنهي حياته بيدي هاتين..... ليان أنت

الآن متزوجة من رجل أفضل ويقدرك ويحبك! فلماذا تهتمك مشاعر أخرج مثله فليذهب إلى

الجحيم! "

عندما وصف الموضوع بهذا الشكل شعرت أنني سخيقة بتفكيري هذا، لكن لم أستطع التحكم بانفعالاتي، لكنه محق! يزن أفضل من بهاء في كل المواصفات والمقاييس، حتى أنه لا مجال للمقارنة بينهما.

مد ذراعه ليمسح بيده على شعري بحنو وقرب رأسي منه ليضعه على صدره ثم قبله بحنو وقال:

" أنا أحبك وهذا كاف لك، أحب شخصيتك الفريدة، أحب تنمرك وجبروتك، أحب لسانك

الطويل هذا... "

ابتسمت رغما عني، مع أنني أشعر بالضيق إلا أنه تمكن من تحسين مزاجي.. على الأقل في تلك

اللحظة. شعر يزن بالاستمتاع لردة فعلي فأكمل:

" أحب غضبك وسكونك، أحب نظرات عينيك المتحدية، أحب شعرك الأسود الناعم.... بشرتك البيضاء الصافية.... يداك الصغيرتان الجميلتان..... كل شيء فيك جميل، فلماذا عساك تساعدينه على تحطيم معنوياتك؟ أنت كاملة في نظري وهذا يجب أن يكون كافيا لك."

مددت ذراعي وطوقتها حول وسطه، أخذت نفسا عميقا وأحسست بصدره تحت رأسي يعلو ويهبط، ثم أغمضت عيني واستسلمت للنوم مجددا... رفعت رأسي أنفحصت وجهه النائم فابتسمت راضية، ماذا أريد أفضل من هذا الشاب الذي بين يدي بجاذبيته وشخصيته المرحية وحبه القاتل لي، فهو يشعرني أنني ملكة، كما أنه مريح وسهل المعشر فأتصرف معه على سجيتي دون تصنع، وبالإضافة إلى أنه يمتلك وجهًا جميلاً وعينين زرقاوين لامعتين، والكل يعلم كم أعشق العيون الزرقاء! ما أجملك يا زين، قلبا وقالبا! وكم هو قلبك مفعم بالإحساس! أحبك كما لم أحب شابا من قبل.... عند هذه الفكرة الأخيرة استطاع النوم أن يتسلل إلى عيني حتى نمت في أحضان الشاب الذي أحببت بحق.

إيلينا

وصلتني رسالة من فارس يلقي فيها تحية الصباح ويعرب لي فيها عن اشتياقه إلي، لم أجرؤ على الرد على رسالته لكنني لم أستطع منع شعور السعادة التي اجتاحت قلبي فجأة، ثم تذكرت موقف شادي البارحة معي وقربه الشديد مني وعباراته لي، ما القصد من كلامه الذي وجهه إلي؟ لا يعقل أن يشعر بالغيرة علي فهو ينفذ مخطط أمه الشرير للانتقام مني فحسب، لكن ربما يريد أن يشعرني أنني أحد أملاكه التي يفعل بها ما يحلو له أو يريد إخافتي منه، لا أدري.

كاد يصيبني الصداع من التفكير المستمر فأثرت التوقف عن التفكير.

نزلت باتجاه غرفة الطعام حتى أستأذن للذهاب إلى العمل، لكنني لم أجد أحداً فيها إلا السيدة انتصار.. كانت جالسة على مقعد أمام الطاولة مولية ظهرها للباب وتحدثت على الهاتف، كدت أخطو للخلف لأبتعد من المكان قبل أن تراني، فاستوقفني فجأة حديثها حيث كانت تتحدث قائلة:

وليتها ظهري قبل أسمح لها بالرد فلا أعطيها المجال لتتصر علي في جولتها، لكنني شعرت بالنيران تتسع حولها، لا أخفي أنني كنت مرعوبة بشدة لكن هي تستحق الإهانة ولن أندم على ذلك. خرجت من القصر أسير بغير هدى مني لأصل نحو البوابة الخارجية لأتوجه نحو العمل بركوب سيارة أجرة، لكنني سمعت زامورًا قويا يأتي من خلفي، فالتفت لأجد سيارة شادي تخرج من البوابة.

أوقف سيارته جانبي وفتح النافذة ونظر إلي بنظرته الجامدة المعتادة وقال بصوت آمر: " اركبي "

حاولت مجادلته برغبتي في الذهاب وحدي بركوب سيارة أجرة، لكنني قوبلت بنظرة ساخطة أزعجتني فأذعنت له مستسلمة لأتجنب غضبه.

عندما صعدت إلى جانبه ألقى نظرة متفحصة نحوي ثم قال: " هذه آخر مرة ترتدين فيها تنورة "

نظرت إليه بتجهم وقلت:

" لكنها طويلة وواسعة وساترة، ولو أنني لم أجد ملابسي ممزقة لما اضطررت لارتداء الملابس التي وجدتها في الخزانة "

ألقى نحوي نظرة مشبوهة لم أستطع فهمها وقال بنبرة غامضة: " هذا ليس عذرًا والتنورة ممنوعة بكل أشكالها "

- " ما مشكلتك؟! ماذا تريد؟ لماذا يهيك ماذا ألبس؟ "

- " هل نسيت أنني زوجك؟! ولي حق الطاعة منك! "

- " زوج ينفذ مخططات أمه في إهانة إنسان... زوج على ورق! "

نظر نحوي بتجهم ثم نظر أمامه وبدأ في قيادة السيارة معلقا برده:

" لو أنك لم تتصنعي مشهدا ذاك اليوم لما بقيت زوجًا على ورق أليس ذلك صحيحًا؟ "

تغير لوني وجمحت عيناى من رده المفاجئ وبدأت ضربات قلبى تتسارع، فاحتضنت جسدى وأجبتة بجرأة محافظة على نبرتى الجافة:

" أمنحك نفسى لتذلى وتطلقنى أو لترمنى مهانة كالمعلقة؟! لا تحلم بذلك أبداً فمن يشكك فى طهارتى فلا يحق له لمسى!"

فأجاب وهو مركز فى نظره على الطريق أمامه:

" كفى عن اختلاق الأعدار وتصنع البراءة، سبب امتناعك عنى واضح، لقد خشيت أن تظهر الحقيقة كما قالتها أمى بالضبط، حقيقة إثمك غير المغفور وقتلك جنينك بغير قلب، فأى وقار تصطنعينه! كفى عن التمثيل فكل شىء واضح أمامى"

اجتاحتنى برودة آلت قلبى بشدة من كلامه الجارح واتهاماته الوضعية لى، فسقطت دمعة ألم من عيني وشعرت بالقت نحوه فصرخت به فجأة:

" أوقف السيارة!"

لكنه لم يعرنى بالأ وتعمد تجاهلى، فشغرت بالغضب داخلى يزداد ففتحت الباب، فتوقف فوراً فى منتصف الشارع... سمعت صوت العجلات يحتك بالأرض الإسفلتية بشكل مخيف. وزوامير السيارات من حولنا، وقد شحب لونه ثم صرخ بى:

" ماذا أصابك أيتها الحمقاء؟!"

بدأت السيارات تعلق فى زامورها وصراخ سائقها من داخلها، نزلت من السيارة غير مهتمة بما أحدثته من جلبة فى الشارع والتفت إليه بسخط وقلت:

" سأذهب إلى العمل وحدي فى سيارة أجرة فاتركنى وشأنى!"

وقبل أن أمنحه الوقت لمعالجة سلوكى أوقفت أول سيارة أجرة كانت تتجه نحوى وركبتها بسرعة مطلعة السائق على وجهتى فور صعودى متجاهلة لنداء شادى لى وهتافه بأن أتوقف.

خشيت أن يلحق شادى بالسيارة فطلبت من السائق الإسراع، فانحنى نحو مسرب يؤدى إلى طريق جانبى فظننت أنه يبحث عن طريق أسرع ليتلافى الزحام.

نظرت من خلال النافذة الخلفية للسيارة لأتأكد من عدم ملاحقة شادي لي فلم ألمح له أثرًا، فشعرت بالارتياح.

أخرجت نفسي ثقيلًا من قلبي بينما أفكر في كلامه الجارح، إنه مقتنع برواية أمه ولا يصدقني، حتى أنه لا يشعر بالأسى أو الشفقة علي، بل ويعاملني بتسلط كأنني غرض يملكه، ما الهدف من الاستمرار معه في علاقة زواج مستحيلة؟! يجب أن أخرج نفسي من هذا العذاب بطريقة لا أتسبب فيها بالأذى لليان حتى أصبح برفقة الشخص الذي يريد قلبي.. برفقة فارس.
أخرجت هاتفي من الحقيبة وطبعت رسالة موجهة إلى فارس أقول فيها:

" إذا كنت جادا بنيتك تجاهي، فأنا موافقة على عرضك، لكن بشرط ألا تتأذى شقيقتي، فالسبب في قبولي مذلة هذا الزواج هو تهديد السيدة انتصار بتطليق أختي من زوجها بطرائقها الخبيثة"
ثم أعدت هاتفي داخل حقيبتي دون انتظار الرد منه، أقنعت نفسي أنني تصرف التصرف الصحيح وحاولت السيطرة على ضربات قلبي المضطربة ذعرًا مما أنا مقبلة عليه بعد هذه الخطوة.

أخذت نفسًا وأخرجته عدة مرات، ثم نظرت من النافذة أتفحص الطريق فأحسست بشيء خاطئ، فالطريق غريبة علي وبدأت أشك في وجهة السائق، فتجرات وسألته بحذر:

" لو سمحت... لقد طلبت منك إيصالني إلى شركة الفردوس للنسيج... وأنا لا أعلم هذا الطريق إذا كان يؤدي إلى وجهتي"

لم يرد علي السائق فظننت أنه لم يسمعني أناديه، فهتفت له مرة أخرى فلم يستمع إلي أيضًا، بدأ الذعر يصعد إلى قلبي فصرخت به أن يوقف السيارة، وعندما تجاهلني ثانية حاولت فتح الباب بنفسي لكنه كان موصدا كذلك الأمر بالنسبة للنافذة، فازداد الرعب في قلبي وعلمت أن ثمة خطبا ما في هذا الرجل، فبدأت بالصراخ وطرق النافذة بقوة، ثم فوجئت به يصطف على جانب الطريق ثم نظر نحوي بطريقة غريبة وانقض علي بمنديل بيده، حاولت المقاومة ما استطعت لكنني شعرت بخدران في ساقي ويدي، فخارت قواي ولم أعد أقو على المقاومة لأرى الظلام من حولي ولا أعلم ماذا حصل بعد ذلك.

أفقت من إغماءتي لأجد نفسي ممددة على أرض مبلطة ببلاط قديم متسخ، نهضت أئن من ألم جنبي بسبب النوم على الأرض القاسية هذه، ثم التفت من حولي أتفحص المكان الذي أمكث فيه وأنا أحاول تذكر ما حصل معي.

رأيت نفسي في غرفة صغيرة مغلقة بنافذة صغيرة علوية بعيدة عني وخلفي يوجد سرير حديدي مهترئ يبدو قذرًا، أخذت أتساءل برعب كيف وصلت هنا، حتى تذكرت أنني ركبت سيارة أجرة بعد شجاري مع شادي ثم.... ثم..... لحظة هل خدرني السائق عندما وضع ذاك المنديل على أنفي؟! يا إلهي! أين أنا؟! ماذا يريد مني؟ هل يعقل أنه خطفني؟ لا يا رب لا! أخذت أقرص يدي لأتأكد من أنني لا أرى كابوسا، فتأكدت من الواقع الذي أعيشه، فنهضت بسرعة نحو الباب الذي كان أمامي وأخذت أطرق عليه بعنف بكفي يدي وأنا أصرخ طالبة النجدة وأبكي ذعرًا مما قد يحل بي.

ثم خطر في بالي شيء مهم، فأخذت أتفقد نفسي فوجدت حجابي ما زال على رأسي وملابسي كما هي لأتأكد من أنه أو أنهم لم يفعلوا بي شيئًا.

سمعت صوت مفتاح يُدار في الباب فابتعدت نحو الخلف بترقب وخوف بالغ، فأطل السائق ذاته علي بضحكة مقرزة، وقال وهو ينظر نحوي متفحصًا:

" يبدو أنك استيقظت... جميل جدًا"

فقلت فجأة بنبرة مرعوبة وعيناوي تدمعان من شدة الخوف:

" ماذا تريد مني؟ خذ كل ما أملك لكن اتركني أرجوك لن أبلغ الشرطة ولا أحد! أرجوك لا تؤذني"

اتسعت ابتسامته المقرفة وقال متجاهلاً رجائي:

" يا لك من واهنة.... ههههههه.... الجميل في القصة أنني أستطيع الحصول على الفتاة والمقابل المادي لاستمتاعي بها.... لكنني مصدوم بك فأنا لم أتوقع أنك بهذا الجمال! ذلك سيزيد من استمتاعي"

اصفر لوني من كلامه المخيف وبدأت يداي ترتعشان لتنتقل الرعشة إلى باقي جسدي، ماذا سيفعل بي؟ عن أي مقابل يتحدث؟ هل طلب أحد منه خطفي؟ مستحيل! أنا أهدي.

لم أستطع التفكير كثيرا فقد قاطع وابل تساؤلاتي بخطوة خطاها إلى داخل الغرفة فشعرت بالخوف أكثر فبكيت وبدأت بتوسله ألا يقترب مني، حاولت التراجع إلى الخلف لكنه أمسك بي بسرعة ولف ذراعيه حول وسطي ليقودني نحو السرير القدر. حاولت ركله بقدمي مرارا وضربه بيدي وأنا أصرخ وأستغيث، فضمني إلى صدره أكثر، وتملك الذعر مني مبلغا فقدت فيه القدرة على التفكير.

لكنني فجأة تذكرت مشهدا من فيلم كانت تشاهده ليان عندما كنا نعيش ببراءة في بيت أمي، وكانت ليان تتحكم في برامج التلفاز في نهاية كل أسبوع.

كان فيلما أجنبيا تم خطف ثلاث فتيات فيه، وعندما أمسك الجاني بإحداهن أمرتها أخرى بالتبول في حجره.

كنت مذعورة جدا ولم أدر ما العمل، فلم أجد نفسي إلا وأنا أطبق نصيحتها لعلني أتخلص منه، وعندما شعر الرجل بببل على بنطاله وهو يجبرني صرخ بي ورماني أرضا وبدأ يشتمني وينعتني بصفات مسيئة وهو ينظر إلى بنطاله متقرزا مما فعلت به، فعاد نحو الباب ونظر نحوي مهددا قائلاً:

" سأعود إليك أيتها الفاجرة وأرييك على فعلتك الحقيرة!"

وأغلق الباب وأوصده ثانية، عدت إلى البكاء من جديد أرثي نفسي... ما كل هذا الألم الذي أمر به فأوصلني إلى أشد مذلة في حياتي؟! ماذا فعلت لأستحق هذا؟

جلست على الأرض أشعر بببل تحتي والاشمئزاز من نفسي ليزيد شعوري بالاحتقار نحو ذاتي، هذا كثير على قلبي لم أعد أحتمل! الموت أهون مما أعيشه.

ثم ما لبث أن عاد يحمل في يده سوطا من الجلد.. تسمرت رعبا في مكاني وانها لعلني بالضرب في أي موضع من جسدي واكتفيت بالصراخ واستنجد أحد.. أي أحد، لم أكن أحمل طاقة للنهوض والهرب بسبب ذعري منه وألمي من ضرباته، ضربني حتى تعب وبدأ يلهث ليلتقط أنفاسه بصعوبة

ثم قال مهددا:

" هذا عقابك على سوء أدبك معي! سأعود إليك أيتها الفاجرة لأكمل عملي معك فكوني على أهبة الاستعداد"

ثم بصق عليّ وغادر. تركني وحدي أتجرع الألم النفسي والبدني.. بكيت وانتحبت فترة طويلة من الزمن. لم أدري كم مر من الوقت لكنني علمت أن الظلام حل في الخارج من النافذة الصغيرة التي تقبع فوق السرير، وخزات الألم بكل أشكاله لم تغادرني من تعذيب ذلك الرجل لي.. غلبتني المذلة... والضعف... وأحسست بالوهن فأنا لم أكل شيئاً طوال اليوم، استسلمت لشعور الاشمئزاز من نفسي ومن رائحتي وتضييع صلاتي، وأخذت أبكي قهراً على حالي، نظرت نحو النافذة بيأس وأخذت أدعو ربي قائلة:

" يا رب أنت أعلم بحالي! أرجوك أن تنقذني مما أنا فيه، فليس لي سواك لأجأ إليه، ساحمني لأنني أضعت فروصي اليوم.. لكن ليس بيدي صنع شيء أنت القوي القهار! أتوسلك لا تعطه فرصة لأذيتي... إنني أثق بك... أرجوك لا ترمني طعاماً سائغاً له"

ثم عدت إلى بكائي بمرار، فجأة... لمعت نجمة في وسط السماء في هذه الليلة الخالكة... فخلقت في داخلي إحساساً مختلفاً.... إحساساً بالأمل!؟

لا أدري كيف تغير تفكيري فجأة.. بدأت أتفحص المكان من حولي بحثاً عن شيء، أي شيء استخدمه كسلاح، لكن الغرفة كانت فارغة من أي شيء إلا.. من السرير الصدئ، لتومض في عقلي فكرة.

توجهت نحو السرير وانحنيت أسفله أتفحصه من زواياه، فاخترت التقدم نحو مؤخرته ثم قمت بمد يدي أحاول فك إحدى براغيه بأصابعي كان صعباً في البداية وأخذت يدي ترتعش بشدة لكنني قررت التحكم بفعلي وكأنني استمددت قوة إرادة رهيبة، علمت يقيناً أن ربي سيستجيب لدعائي لن يتركني ثقتي به أكبر من أشك لو للحظة بتخليه عني.

كانت البراغي صدئة لكنني تمكنت من فك إحداها بصعوبة بعد أن سال الدم من أصابعي ثم اتجهت نحو برغي آخر، وأخذت أدعو وأذكر اسم الله ليعينني حتى تمكنت من فك أحد أرجل السرير الحديدية.

حاولت سحب السرير فأصدر صريراً على الأرض الباردة لكنني تجاهلت ذلك وتفكيري منصب على فك الرجل الثانية بسبب اتصالها بالرجل التي قمت بفكها بقطعة حديدية، جاهدت لأحاول فك البرغين من الجهة الثانية فسمعت صوت الرجل فجأة يصرخ من خلف الباب:

" قلت لحظة إنها تصدر ضجيجاً في الغرفة! أريد التأكد مما تنوي صنعه فهذه الفتاة ماكرة، أريد مبلغاً أكبر لقاء عملي."

ثم انخفضت وتيرة صوته فلم أعد أفهم ما يقول، لكنني كنت مذعورة وفي وسط مهمتي ولم يكن الوقت مناسباً لأسترق السمع إليه، شعرت بأصابعي الدامية تؤلمني من محاولة فصل البراغي الصدئة، لكنني نجحت في النهاية وسحبت الرجلين الخلفيين للسرير فخر السرير هابطاً على الأرض محدثاً صوتاً قوياً، ثم سمعت صوت المفتاح في الباب من جديد فوقفت على قدمي بسرعة جنونية وركضت نحو الباب وما إن فتحه حتى انقضضت عليه لأضربه برجلي السرير.

أجفل الرجل لكنه كان سريع البديهة فمد يده ليقبض على الرجلين وسحبها قهراً من يدي ورماهما وقد تملكه الغضب من تصرفي، فصرخ بي وشتمني ثم انقضض هاجماً علي يتوعدني بإيذائي والاعتداء علي وإشباع رغباته الشيطانية بي.

حاولت ردعه بشدة فطوقني بذراعيه يحاول إلقاءي أرضاً فصرخت بشدة باكية مذعورة وواصلت دفاعي المستميت وأنا أعرز أظفري في وجهه وأركله بقدمي بقوة، حتى غلبن في النهاية وأوقعني على الأرض على ظهري، ألقى بجسده علي فزاد عويلي وبكائي.

مزق تنورتي بيديه القذرتين فكشفت ساقاي أمامه فتحولت نظراته للرغبة أكثر وأخذ يلحق شفته بلسانه، كدت أشعر بالهزيمة تتخلل عظامي فجال فجأة في خاطري قول نبي الله موسى عليه السلام لقومه: " كلا إن معي ربي سيهدين "

لأجد نفسي ألفظ هذه الآية بصوت مرتفع أصرخ بها، فغرزت أصابعي في عينيه بقوة وحشية أمته، فصرخ صرخة مدوية فتركني ووضع يديه على عينيه يصرخ متألماً ويشتمني ويلعنني، هنا استغللت الفرصة وكدت أنهض أركض نحو الباب، لكنه نهض على ركبته ليلحقني وشدني من حجابي بقوة فأفلته عن رأسي لأنكشف أمامه، لم يكن عقلي يعالج ما يحصل معي لأنني كنت مركزة على هدف واحد وهو حماية جسدي من هذا الوحش بأي طريقة كانت، ركلته في وجهه بكل ما أوتيت من عزم وجريت مسرعة نحو الباب فأغلقتة، وبسرعة قبل أن يصل إلي أدت المفتاح الذي تركه فيه وأوصدته بالرغم من ارتعاش يدي بشدة، ثم ركضت أبحث عن الباب الخارجي لهذه الشقة وأنا أحاول السيطرة على الفزع الذي دب في قلبي من صراخه المتواصل ودفعه الباب بقوة من الداخل ليحاول كسره، حتى وصلت إلى الباب حاولت فتحه لكنه كان موصداً، فاحترت في أمري وأنا أحاول التقاط أنفاسي اللاهثة لأستطيع التفكير، تفحصت الغرفة جيداً فلمحت فيها نافذة فوق إحدى الأرائك المهترئة، فهزولت نحوها دون تفكير وقفزت على الأريكة، فتحت النافذة وأخذت أجزر جسدي الصغير عبرها، نظرت إلى الأسفل لأدرك وجودي في الطابق الأول من مبنى يبدو مهجوراً، بسبب الأرض التي تحوي عشبا وأشواكا مصفرة اللون، تحاملت على نفسي وطردت مخاوفي كلها من ذهني وأغمضت عيني وقررت أن القفز الوسيلة الوحيدة للنجاة، سميت الله وقفزت! كيف واتتني الشجاعة للإقدام على هذا التصرف؟ لا أعلم لكنني فعلتها.

جثوت على قدمي لكنها آلتاني فوقعت أرضاً، أبيت الاستسلام. كنت مذعورة لدرجة جعلتني أتناسى ألم رجلي اليميني فنهضت رغماً عني وجررت نفسي أحاول الركض وأنا أعرج هرباً من هذا المكان.

ركضت حتى وصلت إلى مكان مأهول بالسكان بدأت أرتجف وأبكي فجسدي شبه مكشوف، وحيائي منعني من الاستمرار فجثوت أرضاً أحتضن جسدي وأستصرخ أيا منهم بيأس وأقول:
" أرجوكم دثروني! أرجوكم استروني! أعيدوني إلى أمي!"

وقف الناس من حولي بين مذهول ومتفاجئ ولم يقدم لي أي منهم المساعدة فزاد ذلك من بكائي الحار، أخرج أحد الشبان هاتفه ليلتقط لي صورة فجرى نحوه شاب آخر أمسك هاتفه وألقاه أرضاً فكسر، ثم صرخ به بأعلى صوته:

" هذا بدل أن تقدم لها المساعدة؟! اجعلها أختك! أمك!"

ثم وجه كلامه للمتفرجين حولي:

" وأنتم ماذا دهاكم؟ إنها تستغيث بكم للمساعدة فتقفون متفرجين! أتوني بغطاء ألقه عليها!"

فقدم رجل جرياً بسرعة ورمى له غطاء كبيراً فألقياه علي بسرعة ثم ساعداني على الوقوف وأخذ

الشاب ذاته يصرخ في الناس أن ينفضوا إلى أعمالهم داعياً عليهم إن لم يتحركوا.

أدخلاني ملحمة صغيرة وبدأ بالاطمئنان علي وسؤالي عم حصل معي فلم أجبهما إلا بقولي:

" أريد أمي!"

حاولا جاهدا حثي على التكلم لكنني كنت أبعد ما يكون عن الوعي ولم أستطع التلفظ بعبارة

أخرى، فنظرا إلى بعضهما مستسلمين، وسمعت أحدهما يقول للآخر:

" اتصل بالشرطة والدفاع المدني"

لا أذكر ما حصل تبعاً لذلك كنت في عالم آخر من الذهول لما يجري من حولي وشعرت أنني فقدت

القدرة على السمع أو الكلام، فكان وجهي كالأموات بلا حياة، أذكر وصول المسعفين وحملني في

نقالة ووضعني في مؤخرة سيارة إسعاف، أذكر تسليطهم ضوءاً في عيني، كان المسعف يهتف لي لكن

كان الصوت غير واضح المعالم فلم أجب... ثم لا أذكر ماذا حصل بعدها وكيف تم إيداعي في

مشفى لأستيقظ وأجد نفسي موصولة بأجهزة في غرفة العناية المشددة.

الفصل الحادي والثلاثون

لاحظت سارة تأخر إيلينا عن العمل على غير عاداتها، وبدأت الكثير من التساؤلات تجول في بالها قلقاً عليها، حاولت الاتصال بها عدة مرات لتجد هاتفها مغلقاً، كادت أن تتصل بليان للاطمئنان عليها عليها تعرف شيئاً عنها، لكنها فوجئت بسكرتيرة المدير تتصل بمكتبها تعلمها أن المدير يرسل في طلب إيلينا.

ازداد ارتياب سارة أكثر حول اختفاء إيلينا عن الشركة اليوم، فزوجها يظن أنها في المكتب، فردت عليها بقلق لتبلغها عن عدم وصول إيلينا إلى العمل اليوم.

تلقى شادي الخبر بصدمة فهو رآها بعينه تستقل سيارة أجرة، فأخذ يتساءل في نفسه هل يعقل أن تكون قد عادت إلى البيت؟ حاول الاتصال بهاتفها المحمول فوجده مغلقاً، فتوجس القلق في قلبه فجأة.

قام بالاتصال بهاتف المنزل وسأل مدبرة البيت عنها ليتأكد إذا كانت قد عادت، فأجابت مؤكدة له خلو المنزل من أصحابه تماماً بين ذاهب إلى عمل أو دراسة. نما لديه شعور القلق أكثر ليجد نفسه يتصل بهاتف أمها قبل أن يعطي نفسه فرصة للتفكير بترؤ.

صدمت السيدة ماريًا بسؤاله عنها ونفت رؤيتها بعد الحفل الذي أقيم في الشركة، بدأ القلق يبرز في نبرتها وهي تتأكد من كون ابنتها بخير، فحاول شادي صرف القلق عنها وطمأنتها وأسرع بإنهاء المكالمة.

ثم توجه وهو يعتريه القلق نحو مكتب والده لربما يعرف عنها شيئاً ونسي إخباره، فتفاجأ والده بغيبها المفاجئ ليلبغ القلق ذروته في نفسه، فأمر السكرتيرة بالاتصال بالمشافي المحلية للسؤال عن أي مصابين قدموا من حوادث سير شاكاً تعرضها لحادث مروري، لكن السيد هشام لم ينتظر أكثر فأمر ابنه باللحاق به إلى قسم الشرطة.

طرح الضابط في القسم العديد من الأسئلة عنها وعن روتينها اليومي في الذهاب إلى العمل، والأماكن التي تقصدها، وطلب منهم تزويدهم بعدة صور حديثة لها لكن لم يستطع أي منها تأمين هذه الصور فلم يخطر في بال أحد التزود بصورتها منذ ارتباطها بشادي، فوجه السيد هشام عتاباً لابنه يستفسر منه سبب عدم التقاطه صوراً لها أو لهما معاً ولو حتى في هاتفه المحمول. ثم زودوا الشرطة بمواصفاتها ووصف شادي لباسها الذي غادرت به المنزل صباح اليوم. عاد شادي والسيد هشام إلى البيت للبحث عنها مجدداً وفوجئاً بوجود يزن وليان وأمها في المضافة المخصصة للضيوف، والقلق باد عليهم. وجهت ليان أسئلتها الواحد تلو الآخر تتساءل عن شقيقتها وسبب اتصال شادي بأمها للسؤال عنها وعن سبب إغلاق هاتفها، لكن شادي لم يتمكن من الإجابة على أي منها لعدم معرفته شيئاً، فعلمتا بحدوث خطب لإيلينا وبدأت الاثنتان بالبكاء والعيول ويزن يحاول التخفيف عنها، رفعت ليان إصبعها أمام شادي مهددة وتتوعد بالانتقام منه ومن أمه إذا أصاب أختها مكروه، حتى علا صوتها بالصراخ وأخذ الكل يحاول تهدئة انفعالها المفاجئ.

حل المساء والكل يبحث عنها في الأحياء القريبة والبعيدة وبدؤوا بسؤال الناس حولهم عنها وزودتهم ليان بعدة صور لها، بعضها قديم وبعضها حديث من زفافها. حاولوا الاتصال بها مرة أخرى دون فائدة.

جلست ديمة تبكي خوفاً على إيلينا وشارك كل من جاد وماسة البكاء في الصلاة الكبيرة، أما السيدة انتصار فكانت جالسة بملامح ثابتة غير مهتمة لما يجري حولها. ومايا تصبر نفسها وتدعو الله لأن تعود إليهم سالمة. كان أول العائدين زوجها، ركضت نحوه تطمئن إلى أخبارها لكنه لم يحمل معه أية أخبار من أي نوع مما زاد من قلقهم وخوفهم.

عاد شادي في وقت متأخر جداً وهو يستطلع أي خبر عنها، وبعد محاولات كثيرة استطاع أمجد والسيد هشام إقناعه بإكمال البحث عنها غداً ووجهاه إلى الحصول على القليل من الراحة ليستيقظ نشيطاً صباح الغد من أجل إعادة البحث عنها.

لم يجد النوم سبيلاً إلى أعين أي منهم وكانت ليان بين الفينة والأخرى تواصل اتصالها بشادي لتعرف منه أي خبر جديد.

جلس على سريره يتفقد هاتفه بين كل لحظة ولحظة ينتظر اتصالاً من مركز الشرطة أو أي أحد يطمئنه عليها، عادت به ذاكرته إلى مشادتها الكلامية صباحاً، فشعر بالندم من حدثه في التعامل معها وقتها وإلا ما كان قد أصابها مكروه، أخذ يتساءل بصبر نافد: أين هي وأين يمكن أن تكون؟ وتمنى لو أنه لحق بسيارة الأجرة في ذلك الحين، لكن الندم لن يوصله إلى حل، وبقي طوال ليلته تلك يصارع أفكاره ورغبته في الخروج بحثاً عنها مجدداً.

سمع رنين هاتفه فجراً بينما كان غارقاً في أفكاره وتساؤلاته فوجد الاتصال قادماً من المركز الأمني فأجابه بسرعة ملهوفاً...

توجه الجميع نحو المشفى الذي تشك الشرطة في إيداع إيلينا فيه حسب الوصف الذي حصلوا عليه من عائلتها وبعض من صورها.

ركضت ليان بسرعة نحو باب العناية المركزة فتم إيقافها من أفراد الأمن ولم يسمحوا لأحد بالدخول إلا والدتها للتأكد من هويتها، ثم ما لبثوا أن سمعوا صراخها وبكاءها بشكل هستيري، وما هي إلا لحظات حتى قام الممرضون بإعادتها إلى حيث يجلس الباقون وهي تتوسل وترجوهم أن يعيدوها إلى الداخل لتطمئن على ابنتها بعد حالتها التي رأتها عليها، ثم انهارت فجأة وأغشي عليها فصرخت ليان مرعوبة فزعة وحاولت اختراق حاجز الممرضين للاطمئنان على أختها بدأت بدفعهم وركلهم وهم يبعدها مهددين بتدخل الأمن لطردها، فأمسكها يزن ليشبتها ويحاول تهدئتها لكن جنونها ازداد وصراخها ارتفع أكثر.

فتقدم الأمن ليخلوا المكان وأخذ السيد هشام يرجوهم لإعطائهم فرصة أخرى، وأمر يزن بإخراج ليان من المكان فحملها غصباً وسار بها عائداً إلى سيارته وهي تصرخ وتصيح وتشتم الممرضين وكل من يحاول اعتراض سبيلها، حاولتن تركل وتقاوم زوجها حتى استطاعت الإفلات منه وعادت

راكضة في ذات الاتجاه فانقض عليها من خلفها وحاول تثبيتها، تجمع حولها عدد من المرضين وقاموا بحقنها بإبرة مهدئ لتقع مغشياً عليها في أحضان زوجها وتم إيداعها مع أمها في غرفة للمراقبة على أثر الانهيار العصبي الذي أصابها.

جلست السيدة انتصار تنظر إلى الموقف باشمئزاز واضح على معالمها، وأخذت تتفرس في الوجوه القلقة من حولها وهي تشتعل غضباً من خوفهم على تلك الفتاة القذرة في نظرها.

تقدم طبيب شاب من العائلة الجالسة بقلق في انتظار أحد ليطمئنهم إلى سلامة إيلينا وسأل عن ولي أمرها فأجاب السيد هشام:

" ابني ابني زوجها.... شادي "

فنظر الطبيب متفاجئاً نحوه ثم تنحى قليلاً وطلب منه أن يتقدم جانباً للحديث معه على انفراد، فتبعه الأخير والقلق لا يغادر وجهه.

ابتعد الطبيب مسافة آمنة عن الجميع حتى لا يسمع أحد ما سيقوله لزوج الضحية، ثم نظر إليه ليتأكد ثانية بسؤاله:

" هل أنت زوج إيلينا سامح؟ "

فهز شادي رأسه موافقاً يشعر بالاضطراب، نظر إليه الطبيب نظرة فاحصة قبل أن يقول:

" وصلتنا في وقت متأخر جداً من مساء أمس بحال يرثى لها، وتم إيفادنا بتقرير تعرضها للتعذيب والضرب والشك في قضية اغتصاب "

اصفر شادي وشحب لونه مذعوراً، فأكمل الطبيب بحذر:

" فعُرضت على الطب الشرعي للتأكد من مسألة تعرضها للاغتصاب بأمر من السلطات فوجدنا أن المعتصب لم يتمكن منها فهي .. فهي.... "

نفد صبر شادي فجأة وقال يهاجم الطبيب صارخاً:

" ماذا؟ قل! "

فأجاب وهو يتفحص ردة فعل شادي:

" سيدي..... لم نكن نعلم أنها متزوجة كنا نظن أنها بكر "
فتساءل شادي يحاول فهم ما يرمي إليه الطبيب فقال مردداً:
" بكر؟ "

فأجاب الطبيب موضحاً:

" إنها عذراء..... زوجتك عذراء... لم تمس من قبل "

جحظت عينا شادي مصدوماً وشعر بالدنيا تدور من حوله وكأن ضربة فتاكة انهالت على رأسه بقوة ليتوقف عن التفكير للحظات، فتدخلت السيدة انتصار التي كانت تسترق السمع سابقاً لتقول لابنها:

" شادي بني، اذهب لتستريح وأنا سأفاهم مع الطبيب "

وقف شادي مكانه مشدوهاً حائراً بينما يتابع الطبيب ردة فعله، ثم نظر إلى أمه يحاول تجميع أفكاره وتمتم فجأة:

" أنت قلت لي..... أنها.... أمرتني ألا ألمسها! قلت أنها مارست الفجور مع فارس.... كنت أظنها أجهضت حملاً.... أنا لا أفهم! "

نظرت نحوه بحدة ثم أمرته أن يتركها بمفردها مع الطبيب الذي كان يطالع السيدة انتصار بريية وكأنه بدأ يكون فكرة عن حقيقة زواج الضحية. وعندما بدأ وعي شادي بالعودة إليه حدج أمه بنظرة قائمة، وخرج من المشفى مبتعداً عن الجميع يحاول التقاط أنفاسه التي ضاقت، لكن رجليه لم تتمكن من حمله بعيداً، فعمد إلى أقرب مقعد في حديقة المشفى فجلس عليه ودفن رأسه في حجره بين كفيه يحاول استيعاب صدمته مما يجري حوله.

حاولت السيدة انتصار في هذه الأثناء رشوة الطبيب ل يبقى ساكناً عن موضوع عذرية إيلينا لكنها تلقت إجابة ساخطة منه وأنه لا يتاجر بمرضاه، فنظرت نحوه محتدة ولجأت إلى تهديده بتدمير وظيفته وعائلته وأنها تملك الكثير من النفوذ للقضاء عليه، حتى استطاعت في النهاية حصولها على تكتمه على كون الفتاة عذراء، بإكراهه على ذلك.

إيلينا

سمعت أصوات أجهزة من حولي، وبدأت تلك الرائحة التي تذكرني بالمستشفيات بالتمركز في حاسة الشم لدي، فتحت عيني بتعب وألم وتفقدت السقف والجدران من حولي أتفحص المكان الذي وجدت نفسي فيه.

قدمت نحوي فتاة ترتدي زيًا يشبه زي الممرضين وأخذت تسألني عم إذا كنت بخير لكنني لم أجبها وأنا أحاول استيعاب المكان وسبب وجودي هنا، ثم تم استدعاء الطبيب ليجري الفحوصات علي والتأكد من صحتي. بدأت ذاكرتي تتضح معالمها لأنذكر ذلك الرجل سائق سيارة الأجرة ومحاولته إيذائي ليدب الرعب في قلبي ثانية، فبدأت أنتفض في السرير وأخذت أبكي وأصيح وأتوسلهم أن يحضروا لي أمي حتى حقنوني بإبرة وشعرت بثقل في رأسي لأعود إلى حالة الإغماء التي كنت عليها سابقًا.

أفقت مجددًا بعد فترة لأنذكر من جديد سبب إحضاري هنا، لكنني هذه المرة أبدت تجاوبًا مع الطبيب وأخذت أبكي بصمت وخوف، والمرضة تمسح على ظهري تهدئني وتحمد الله على سلامتي. طمأنني الطبيب إلى كوني بخير وهنأني بنجاتي من جريمة اعتداء موشكة، وأشار إلي بالراحة وأعلمني بوجود كدمات في جسدي وتعرضي للضرب، وكسر في ساق اليمنى. ووعدني بأن أحسن وطلب مني التحلي بالقوة وشكر الله على الخلاص والنجاة. ثم طلب مني أن أسرد لرجال الشرطة ما حصل معي بغايات التحقيق في الجريمة للقبض على الجاني، لكنني رجوتهم أولاً أن أرى أمي لأحتمي في أحضانها فلم يكن في أيديهم إلا الإذعان لطلبي حتى أتعاون مع رجال الأمن لأساعدتهم في القبض على المجرم الذي كاد ينتهك حياتي وعفتي.

أحضروا أمي إلى الغرفة وهي تتكىء على إحدى الممرضات فصعد الرعب إلى قلبي لرؤيتي حالها. فطمأنتني الممرضة إلى أنها بخير وهذا فقط من أثر الانهيار الذي أصابها خوفًا علي ووعدني بتحسين حالها قريبًا، استقبلتني بالأحضان والبكاء المريع وهي تدعو الله لي بالحماية وإبعاد كل ذي نفس مريضة عني، ثم اقتحمت ليان الغرفة فجأة وسمعت خلفها صراخ الممرضات لتتوقف لكنها

تجاهلتهم واندفعت نحوي تحتضني وتبكي بمرار وأخذت تدعو على من أوصلني إلى هذا الحال وهي تتوعد بالانتقام من كل من فكر بإيذائي .

حاول الطبيب طردها من الغرفة لكنها أبت وأخذت أرجو الجميع أن يتركوها وأمي معي لأشعر بالأمان . بكينا ونحن نحتضن بعضنا فترة من الزمن بعد إذعان الكادر الطبي لنا ولطلبنا . عندما بدأت أهدأ زودتني ليان بحجاب أعطي فيه شعري، اشترته من متجر قريب، ثم تم الحصول على إفادتي لما جرى معي من رجال الشرطة من وقت دخولي سيارة الأجرة إلى هروبي نحو الشارع وإنقاذ الشابين سابقاً لي .

سمح الطبيب لعائلة عمي بالاطمئنان علي واشترط عليهم عدم الانفعال أو البقاء طويلاً حرصاً على سلامتي، استقبلني عمي بالأحضان باكياً وكذلك فعلت ديمة ومايا . طمأنتهم إلى كوني بخير مع أن دموعي خذلتني أمامهم فانهمرت بشدة . حمدوا الله على سلامتي، ثم فوجئت بشادي يقف عند الباب ينظر إلي من بعيد بألم! لم أستطع إيجاد تفسير آخر لنظرته تلك ثم اقترب رويداً مني وأفسح له الجميع المجال ليمر وهم يترقبون ردة فعله .

وصل قريباً من السرير الذي أجلس عليه . ومد ذراعه وأمسك بكف يدي التي كانت في حجري فأشعر لأول مرة بلمسة حنان منه، ثم اتكأ جالساً على طرف السرير ونظر في عيني متفحصاً، ثم قال بصوت متعب:

" هل أنت بخير؟ "

أومأت برأسي أحارب دمعتي من الغدر بي، فشد بقبضة يده على كف يدي مما أثار فضولي نحو ما يشعر به الآن، ثم قال يرغم نفسه على الحديث:

" حمداً لله على سلامتك "

ثم أخذ يتأمل في عيني بنظرة غير معهودة لي، كان متعباً والسواد منتشر تحت عينيه .. لكن ليس ذلك ما لفت انتباهي ... بل ذاك الألم .. الخوف ... الحزن؟! لو أنك تخلع عنك لباس الغموض ولو

للحظة حتى أستطيع التواصل معك فأفهمك! لم تستمر لحظة التأمل بيننا كثيرا فقد قطع الطبيب اللحظة بطلبه من الجميع المغادرة لتركي أستريح.

سمعت الطبيب يحدث شادي في الخارج إلى ضرورة عرضي على أخصائي نفسي حتى لا يصيبني نوع من الانهيار النفسي إثر الحادثة الفظيعة التي مررت بها، وللاطمئنان أكثر إلى صحتي النفسية من أي أضرار.

غادر الجميع ولم يسمح لأحد بالبقاء عدا أمي، بعد محاولات كثيرة مني لأطلب بقاءها عندي لتمدني بالأمان. نامت على كرسيها وهي تحتضن يدي بكفها الحنون. واستسلمت بدوري للنوم وأنا أطمئن نفسي أن اليوم التالي سيغدو أفضل وأن الله سيصلح حالي ويبدل الغم إلى أمن وسعادة. في الصباح التالي تم نقلي إلى غرفة أخرى خاصة لي وحدي، بناء على طلب شادي كما علمت من أمي.. ساعدتني على الاغتسال وارتداء قميص قطني طويل يستر لحمي، وسارت معي إلى سريري لتساعدني على الصعود عليه. كنت ما زلت أتألم جسديا من آثار الكدمات نتيجة الضرب ونتيجة القفز من النافذة لكن الألم النفسي الذي رافق هذه الحادثة كان أشد وأعظم لدرجة جعلتني أشعر بالخدر.

استدلت الشرطة على المكان الذي كنت محجوزة فيه لكنها لم تجد أثرا للجاني هناك، وكأنه اختفى من المكان كله، وجدوا حقيبتني ملقاة على إحدى الأرائك وهاتفني تحت الأريكة مما أثار استغرابي قليلا، لما لم يتخلص من ممتلكاتي؟ أبعدت الأفكار السلبية من رأسي وحمدت الله كثيرا على استعادة هاتفي لما يجويه من الكثير من الأمور الخاصة والمهمة.

جاء عمي إلى المشفى في وقت مبكر من النهار ليعيد إلي حاجياتي وسمعت صوته يحدث أحدهم عند باب الغرفة ويقول:

" أنا أحبك كما لو كنت ابني من صليبي لكن.. أنت تعرف إذا أدخلتك ورآك شادي سيقم الدنيا.."
ثم قاطعه صوت ذلك الشخص قائلا:

" أرجوك يا عمي فقط أريد الاطمئنان عليها لا أكثر! وأنت ابقى موجودًا معي في الغرفة لأثبت لك أنني لا أنوي ضررًا لأحد"

عرفت ذلك الصوت مباشرة إنه صوت فارس، أسرعت والتقطت حجابي عن المنضدة ورميته على رأسي. سمعت طرقات من الباب، فأذنت للطارق بالدخول، فأطل عمي بابتسامته الحنونة المعهودة التي بات لدي إدمان عليها واستأذن للدخول منبها لي أن معه ضيفًا. خفق قلبي بشدة وأنا في انتظار رؤية وجه فارس يطل علي، فلمحته.

اقترب عمي أولاً وتبعه فارس وهو موجه نظره نحو الأرض بارتباك، ثم سألني عمي عن مكان أمي، فأعلمته أنها اضطرت للعودة إلى البيت لقضاء حاجاتها ووعدتني بالعودة بعد العصر لتبقى معي، تحول نظري نحو فارس لأجده ينظر إلي باشتياق وألم، اعتصر قلبي على مظهره الحزين، ثم ابتسم لي ابتسامة دافئة وسألني عن حالي، فاكتفيت بإيحاء من رأسي بخجل دون أن أنطق، ثم ساد صمت رهيب، فقطعه عمي ليناولني حقيقتي، شكرته كثيرًا وأخرجت هاتفي لأعيد تشغيله، وعلى الفور بدأت الرسائل تصلني تباعًا.. لكن الوقت الآن غير مناسب لتفقدتها لذا ارتأيت وضع هاتفي جانبًا على المنضدة.

فتح الباب فجأة فتوقف قلبي عن الخفقان لدى رؤيته، ارتسمت على وجهه علامات الدهشة تبعتها نظرات مشتعلة بالغضب، اقترب داخلًا ثم صرخ في عمي قائلاً:
" أبي ماذا تفعل بإحضار هذا إلى غرفة زوجتي؟"

رهف قلبي بإحساس غريب عقب سماعي كلمة زوجتي تخرج من فمه، حدجه عمي بنظرة مؤنبة لكنه لم ينجح في درء غضبه، وقبل أن يشتعل أكثر رفع فارس يديه مستسلمًا وقال:
" اهدأ لم آتي لصنع المشاكل هنا، كنت أريد فقط الاطمئنان عليها وها قد اطمأنتت وسأغادر، وأنت حاول التحكم بانفعالاتك يكفيها ما كابدته فلا تزد ألمها"

ثم استأذن من عمي للرحيل لكنه أصر على مرافقته خارجًا، وتركنا وحدها لا ثالث بيننا.

نظر نحوي والغضب ما زال مسيطراً على وجهه، شعرت بالخوف فتجنبت النظر إليه، فتقدم مني وجلس على حافة سريري ومد يده يريد المسح على رأسي لكنني جفلت تلقائياً وصدفت يده بعيداً، ثم تنبّهت إلى سلوكي فغطيت وجهي بيديّ واعتذرت بشدة معللة تصرفي إلى أنني ما زلت متأثرة بما حصل معي، فسمعت صوته يهدئني قائلاً:

" لا بأس لا ألومك، لكن ستتحسن حالك أعدك..... لن يؤذيك أحد... ستعودين إلى بيتك إلى زوجك.. وسيتحسن كل شيء"

لكنني لا أريد العودة إلى ذلك البيت ليس عند أمه الحاقدة، فأنا أشك يقيناً أنها وراء ما حصل لي، مع ذلك لم أبح بذلك صراحة.

نظر شادي إلى الفراغ أمامه وشعرت بشيء يثقل تفكيره، لم يبدي لي على طبيعته، نفخ بقوة ثم قال بشكل مبهم:

" أعلم أن الوقت الآن غير مناسب لما سأقول لكنني ما زلت على تحذيري لك من الاقتراب أو التحدث مع فارس، مفهوم؟! "

ابتلعت غصة في قلبي ولم أجادله، إحساسي الآن ميت من كل شيء ولا رغبة لي بالتفكير بأي خطوة نحو المستقبل، هل ستزول هذه الغمامة من قلبي يوماً؟ أتمنى زوالها الآن وفي هذه اللحظة.. أنا متعبة ومرهقة ولا طاقة لي حتى بمجادلته.

نهض واقفاً من جديد ووضع يديه في جيب بنطاله القماشي وقال متجهاً نحو الباب:

" سأتركك الآن لترتاحي وأعود إلى الشركة "

فصرخ قلبي: "توقف!" فتوقف عن مسيره، والتفت إلي متسائلاً، هل لفظ لساني بصوت قلبي؟ رفع حاجباً ينتظر مني تبريراً، تشابكت أصابعي توترًا وقلت متجنباً النظر في عينيه:

" ابقى..... ابقى حتى تعود أُمِّي! لا أريد البقاء وحدي! "

سار خياله حتى ظللني، ثم اتكأ جالسا من جديد ولم يصدر أي تعليق أو حرفاً واحداً، رفعت بصري إليه فكان ينظر في الفراغ أمامه من جديد مثقلاً بأفكاره حتى أنني وددت لو سألته بما يشغل باله، لكنني جبت فحافظت على السكون والصمت الذي حل في الغرفة.

ليان

فاجأتني هناء بخبر خطبتها، كنت على علم بتقدم شاب إليها لكن ما حدث مع إيلينا أهلاني عن الاطمئنان على أخبارها، هتفت متحمسة:

" حفل خطبتي سيقام يوم السبت! أرجوك تعالي سأسعد أكثر لو رأيتك "

وعدتها بالقدوم إذا تأكدت أن إيلينا على خير ما يرام، مر على حادثة اختطافها ثلاثة أيام تم فيها عرضها على معالجة نفسية بهدف رفع معنوياتها وإخراجها من حالة البؤس، واليوم ستخرج من المشفى إلى بيت أمي بناء على رغبتها وطلبها جوار أمي لها، لا يوجد بعد حضن الأم الدافئ في الدنيا كلها.

يعمل السيد هشام على قضية إيلينا والبحث عن الجاني حتى يقام عليه العقاب، لكن تحقيقات الشرطة تؤول اختطافه لها مقابل عوض مادي من أحد، وإلا لما ترك ممتلكاتها دون التصرف بها، وحسب رواية إيلينا هي قامت بحبسه في الغرفة وأوصدت الباب عليه وعندما وصلت السلطات لم تجد أي أثر للخلع من أي سبب كان، إذن فرضية وجود من حرض على اختطافها محتملة لكن من يكون؟

لذا بدأت الشرطة التحقيقات في دوافع لأشخاص منافسين لتجارة عمي أو من تم إنهاء صفقات تجارية معهم كلفتهم خسائر مادية.

أوصت المعالجة النفسية باصطحاب إيلينا في رحلة استجمامية لدى تماثلها للشفاء، وعقد السيد هشام النية لاصطحابها فور شفائها من كسر ساقها.

بالنسبة إلي لم أر بهاء ثانية بعد التقائي اليوم الفائق به، أسرعت في توضيب أشيائي وحقيقتي لأتجه إلى السيارة حتى أرى إيلينا ساعة من الزمن قبل تجهيز نفسي لحفل عشاء سيقيمه والد يزن مع بعض من رجال الأعمال بخصوص صفقة تجارية، لم أكن متحمسة للانضمام لكن عمتي أصرت، فأنا لم أشاركهم بتاتا أي عشاء مع رفاقهم منذ زواجي حتى الآن... فقد كنت دائما ألوذ بالهرب إلى بيت أمي وذلك حتى لا أتسبب لنفسي بالإحراج معهم أو سماع تعليقات ساخرة من أي أحد، لكن بدأ البعض بالتساؤل عن سبب غيابي الدائم عن هذه المناسبات فقررت المشاركة حتى أزيح الإحراج عن يزن.

كانت إيلينا نائمة في فراش أمي فهي رفضت رفضا تاما النوم وحدها في غرفتنا القديمة وأرادت الأنس من أمي، مما زاد من قلقي نحوها.. لا أريدها أن تصاب برهاب الوحدة أو الخوف الدائم من أذية أحد لها، كان لا بد لي من ذكر ذلك أمام يزن حتى يوصل هذه الفكرة لشادي فيتصرف معها قبل تفاقم حالتها للأسوأ.

ارتديت ثوبا جديدا أرجواني اللون مرصعا وله ياقة مستديرة، انساب على جسدي برشاقة فشعرت لأول مرة أنني جذابة، ربما لأنه أبرز لي قواما متنفخا قليلا على غير العادة أو أنني كسبت بعض الدهون أخيرا فقد كنت أكره نحافتي الشديدة.

دخل يزن إلى الغرفة فلمعت عيناه وهو يتفحصني من الخلف بينما أقف أمام المرآة الدائرية الكبيرة، فابتسمت برضا لنظراته الملهوفة، وقررت التلاعب بأحاسيسه قليلا لربما نجحت في إغاظته وأرد اعتباري من موقفه في بيت أمي سابقا فأنا لم أنتقم لنفسي منه بعد.

التفت نحوه وسألته:

" كيف أبدو؟ "

ففاجأني برده:

" اخلعيه! "

قطبت حاجبي تعجبًا وتساءلت بصوت مسموع:

" لماذا؟ ألا أبدو جميلة؟ "

فأجاب:

" لا! تبدين مغرية، لن أسمح لهؤلاء الرجال المسنين بالتفكير فيك بقذارة، اذهبي وبدليه بقطعة

أخرى "

اعتذرت رافضة بحجة أنه لا يوجد وقت للتبديل فالضيوف بعد دقيقة أو دقيقتين يصلون، مشيت من جانبه أتبختر في مشيتي لعلي أنجح في إغاظته، فمد ذراعه وجذبني من بطني وحملني على كتفه، أخذت أركله وأصرخ به ليتركني .

ألقاني على السرير جالسة ونظر نحوي بعينين مظلمتين وقال بصوت ثقيل:

" تعصين أمري وتغيظني يا لؤلؤة؟! "

ثم صعد على السرير من خلفي وأزاح حجابي عن رقبتي وأخذ يسدل سحاب الفستان لينكشف ظهري ثم شعرت بأنفاسه على رقبتي ليوقط إحساسي فجأة وهمس قائلاً:

" سأعاقبك أولاً على وقاحتك معي ثم ننزل لاستقبال الضيوف "

شعرت بأنفاسي تتأقل في صدري ثم أخذ يطبع قبلات حارة على رقبتي من الخلف وتابع بخط مستقيم نزولاً إلى ظهري حيث شعرت بأنفاسه تلهب إحساسي بقوة، فسرق مني أنينا رغماً عني.. عاد إلى رقبتي من الجانب خلف أذني يطبع عليها قبلات أشعلت في داخلي نيران الرغبة ثم استقر رأسه فوق كتفي بينما أصابعه تداعب ياقة الفستان وهو ينظر إلي برغبة قاتلة، سمعنا صوت أمه من أسفل السلام تهتف لنا تنادينا. ثم ابتسم بمكر وهمس لي:

" لست مستعجلاً للنزول الآن وأنت ما رأيك؟ "

ابتسمت بحياء فاحمر وجهي بشدة وأغمضت عيني بينما أشعر بأصابعه الحارة تلامس بشرتي الناعمة المتكشفة أمامه، ثقلت أنفاسه أكثر وأنا أشعر به يتأمل مفاتيحي ثم ضمني بقوة ليذيقني من سحره ما جعل روحي تفيض إحساساً.

نزلنا السلام أشعر بأن وجهي ملفت من شدة الخجل مما فعله هذا المشاكس، فبطريقته الوضيعة أرغمني على ارتداء فستان آخر لا يظهر مفاتيحي كما فعل ذاك الفستان. أخذ صدري يعلو ويهبط لأتحكم بأنفاسي الثقيلة وأعود إلى الواقع من حولي، سارت عمّتي نحونا وعلى محياها نظرة معاتبة وقالت توجه حديثها ليزن:

" تأخرتما ماذا كنتما تفعلان كل هذا الوقت؟"

فأجاب يزن مشيراً إلي:

" كنت أساعدها في ارتداء فستانها"

سقطت ملامحي ذهولا وحدثته أمه بنظرة استنكار وأشارت له بإصبعها مهددة ثم سارت من أمامنا تسبقنا نحو غرفة الطعام.

التفت إليه أشزره بنظراتي فقابلني بابتسامة سمجة وقال :

" لؤلؤتي هيا بنا نذهب إلى العشاء أم أنك تريدين التأخر مجدداً؟!"

لطمته على صدره بظهر يدي ودفعته ليسير أمامي نحو العشاء.

عندما دخلنا تحولت الأنظار إلينا وبدأ والده تهكمه بعبارة:

" وأخيراً قررتما الانضمام؟! برد الطعام! أم أن عصفوريّ الحب كانا منشغلين؟"

ضحك المعازيم من حوله فاحمر وجهي خجلاً من وقاحة والده، كيف يجرؤ على إحراجي بهذا

الشكل؟ قابلهم يزن بابتسامة مصطنعة وقال:

" آه يا حسرة! هل نسيت أنك كلفتنا بإعادة ترتيب مكتبك يا أبي؟ يا إلهي! يا رجل لديك الكثير من

الأوراق المهملة فيه!"

فتوجهت الضحكات نحو أبيه، ليحده بنظرة قاتلة، يا لك من ماكر يا يزن! المهم أنك خلصتنا من

أفكارهم القذرة.

بدأنا جميعاً بتناول الطعام بعد أن قام يزن بتقديمي إلى الضيوف وتعريفني بهم، طبعاً لم أستطع حفظ

جميع أسمائهم. ولم يشكل ذلك فرقا عندي.

تساءل أحد الضيوف فجأة عن إيلينا بقوله:

" ما هذا الذي حصل مع زوجة ابن هشام؟ هل حقا تعرضت للاختطاف والتعذيب؟"

اكفهر وجهي عن تكشيرة وانتظرت الرد من عمي ليقول بكل وقاحة:

" يقولون! ويقال أيضا أنها تعرضت للاغتصاب"

توقفت عن تناول الطعام ورددت على كلامه بنبرة ساخطة:

" لا لم تتعرض للاغتصاب! الطب الشرعي كشف عن ذلك فهي كانت قوية واستبسلت في الدفاع عن نفسها"

فأجابني مستحقرًا النظر نحوي:

" وإن يكن جلبت العار للعائلة وهذا كاف"

سمعت يزن يهتف باسم أبيه محتدًا بينما أنا نهضت دون تفكير مليّ، وأمسكت بكأس ماء على الطاولة، انحنيت بجسدي قريبا من موضع جلوسه وسكبت الماء على وجهه.

سمعت شهقات من حولي وساد صمت لبرهة قبل أن ينتفض واقفا يصرخ بي:

" أيتها الوضيعة الغبية! كنت أعلم أن بنات الشوارع لا يجدر بهن دخول بيوت أعلى مقامًا من حقارتهم"

رأيت وجوها أمامي تضحك باستمتاع فأمسكت بطرف الطاولة ودفعتها بيدي أمامي لينسكب كل

ما فيها من طعام وشراب في أحضانهم، فقاموا بسرعة يتصارخون ويثنون، سمعت صوت يزن

يناديني مؤنبا وسمعت أصواتا من حولي بين ضاحك وبين صارخ وبين شاتم لي ولتربيتي، فسحبت

ساقِيّ وجريت نحو غرفتي ودخلتها، أردت إغلاق الباب لكن دفعه يزن برجله ودخل يزفر بغضب وعلى وجهه نظرات لا تفسر.

الفصل الثاني والثلاثون

"ماذا جرى لعقلك؟ هل جننت؟"

صرخ بي يزن ما إن أغلق الباب خلفه، حافظت على ملامحي قوية ما أمكن ثم استطرد قائلاً بغیظ:

" اذهبي الآن وقبلي رأس أبي علّه يصفح عنك "

وقعت عبارته كالصاعقة على رأسي فصرخت به بان دفاع:

" هل سمعت إهانته لي ولأختي؟! وتطلب مني بكل وقاحة أن أقبل رأسه! لا يا يزن هذا بعد جديد

من الاحتقار "

بدأت شفتاي ترتجفان قهراً، ثم قال وهو يحاول التخفيف من حدة نبرته:

" ليان أنت تعرفين أنني لا أريد إهانتك لكنك بالغت بردة فعلك، لماذا لم تعطيني فرصة لأتصرف

بنفسي؟ هذا أبي يا ليان! "

- " وإيلينا أختي! "

- " حسنا ضعي نفسك مكاني، إذا قامت أمك بشتم أبي بعبارات مهينة هل كنت لترضي أن أتصرف

معها بأسلوب مشابه لتصرفك؟ "

سكت لبرهة وأنا أتخيل شعوري من الموقف فأحسست بالسوء. أعرف أن والده لم يكن ذلك الأب

المثالي لكنه في النهاية أب.

تنهد يزن بتعب وسار حتى وصل إلى السرير وجلس عليه، نظر إلى الشرفة متأملاً غارقاً في أفكاره،

ثم وجه نظره إلى الأرض أمامه وقال أخيراً:

" ابقني هنا ولا تنزلي.. وأنا سأقوم بتهدئة الوضع وأصلح الموقف برمته "

ثم عاد إلى الباب ماراً من جانبي، وكأنها ريجاً باردة اجتاحت صدري عقب رحيله وإغلاق الباب

ثانية، أسرعت بالجلوس على السرير أحاول التقاط أنفاسي وتنظيم أفكاري.

كلما فكرت بالموقف السابق شعرت بغبائي أكثر، فعلا أنا أعاني من مشاكل غضب، لكن ماذا أفعل؟ فكرت في مشاعر يزن المتخبطة الآن بين إرضائي وإرضاء والده، وتخيلت لو كان يزن مكاني لداس مشاعره من أجلي. فقررت بخطى متثاقلة بعد تفكير طويل أن أعود إلى الأسفل وأعتذر من الجميع على تصرفي غير اللبق، بالرغم من رفضي التام للفكرة.. لكن يجب أن أفعل ذلك من أجل يزن. نزلت إلى الطابق السفلي وقبل أن أتجه إلى غرفة الطعام مررت بالمطبخ لأتفقد ما حصل في غيابي، فقالت لي إحدى الخادومات أنه تم تزويد الضيوف بملابس جديدة على نفقة عمي وتعويضهم بعشاء فاخر.

توجهت نحو غرفة الطعام فوجدتهم يتمتعون بشرب الشاي على الشرفة، اقتربت من موضع سمرهم، كانوا يتحدثون ويضحكون كأن شيئاً لم يحصل، وكان يزن يجلس بينهم يتسامر معهم، فقطع حديثه عند رؤيتي أقف تحت ضوء القمر أحمل نظرات قلقة. وجه والده أنظاره بسخط نحوي.. حاولت قدر المستطاع كبح ذلك الحيوان الهائج داخلي حتى لا أسكب الشاي في وجهه هذه المرة، سرت نحوه بخطى ثابتة أتصنع الصلابة، حتى توقفت أمامه. رفع رأسه يرقب أفعالي، أخذت نفساً عميقاً وقلت وأنا أخفي ارتباكي وحاولت قدر الإمكان الحفاظ على نبرتي قوية:

"حقك علي يا عمي لقد بالغت في ردة فعلي..... فنحن عائلة نهتم بالشرف... أنا... آسفة" وكأنه صدم من مبادرتي، فبقي صامتاً لوهلة. لم أكن بعد أعني وقوف يزن إلى جانبي حتى لف ذراعه حول كتفي يضمني وهو ينظر نحو والده في انتظار رده، فتنحج محرّجاً وتمتم بكلمات لطيفة مرغماً قائلاً أنه بدوره لم يقصد إهانة أختي.

حاولت عمتي إقناعي بالانضمام إليهم لشرب الشاي لكنني رفضت متبرمة بأنني أريد الاطمئنان على أختي، اعتذرت من جميع الحضور مع مراعاتي الحفاظ على كبريائي، ثم سرت مبتعدة نحو الداخل، فقطع علي مسيري صوت أحدهم وهو أحد الذين سكبت عليهم الطعام قائلاً لي: " أنت امرأة مميزة وفريدة، لو كنت مكانك يا هاني لاستغللت هذه الصفة في أعمالي "

توقفت عن المسير والتفتّ نحوه وقبل أن أتمكن من سؤاله عن مقصده سبقني عمي بقوله:
" لم أفهم! ماذا تقصد؟"

ابتسم الرجل وقد لمعت عيناه في هذه الليلة التي ينيرها ضوء القمر ثم قال بصوته الخشن:
" إذا كان عمك أو زوجك لا يمانعان فأنا أرغب في توظيفك في إحدى منتجعاتي السياحية، ما رأيك؟"

لم أستطع إبعاد نظري عن عينيه المتقدتين وهما تتفحصانني، ثم طرق صوت يزن مسامعي يهتف لي:
" ليان حبيبتي، استريحي في الداخل"

شعرت في لهجته نبرة امتعاض، لم أجادله وجررت قدميّ محتفظة بكبريائي لأعود إلى غرفتي، سرقت
عيناى نظرة إلى الخلف ورأيت يزن يحدج الرجل بنظرة مميتة، بينما ذاك يتابعني باهتمام واضح،
فتوجست في نفسي خيفة منه.

اغتسلت وصعدت إلى سريري لأريح نفسي وبدني، سمعت طرقا خفيفا على الباب فنهضت جالسة
أتلحف بغطائي وأذنت للطارق بالدخول، أطلت عمتي تبسم لي بود واستأذنتني للاقتراب.
صعدت على السرير إلى جانبي وتأملت ملاححي ثم احتضنت وجتنيّ بكفي يديها وقالت وعيناها
تحملان الكثير من الأسى:

" أنا أعتذر منك بشدة على الليلة الفظيعة التي مررت بها، هاني لم يكن لبقا معك أبداً حقك علي يا
ابنتي!"

وضعت يدي على كف يدها أطمئنها إلى أنني بخير، أضافت وهي تتأمل عينيّ:
" أنت غدوت ابنتي منذ وطئت قدماك بيتي، ومقامك في قلبي كمقام ابني، فأنت الشمعة التي
أنارت بصيرته، أنت سبب ضحكته وفرحته"

ثم أزاحت يديها عن وجهي ووجهت أنظارها أمامها تستذكر آلامها:
" يزن ... عاش طفولة مريرة..... حتى في فترة بلوغه لم يكن مرتاح البال، قضى سنوات يبحث فيها
عن معنى السعادة، لكن ما خفف عنه وساعده تعرفه إلى شادي... آه! ذاك الشاب المهذب الذي

أحسن هشام تربيته بحق فتعلم منه الكثير من الصفات، كالبعد عن جو الفسق وفتيات الهوى، ومنه تعلم تحديد أهداف حياته، شادي هو الملاك الحارس الذي رزقنا به وكأنه هدية من عطايا الرحمن لنا... أتعرفين أمرا؟ في الفترة الأخيرة شعرت بتغير في يزن، رأيت بريقا يللمع في عينيه لم ألمحه قط" التفتت إلي مبتسمة وأكملت:

" حاولت كثيرا سبر غوره لأكتشف سبب تغيره حتى اعترف لي بحبه المفاجئ لفتاة لا يعرفها لكنه وصفك يومها بالمرأة الجليدية ذات الإحساس الناري" أطلقت ضحكة صغيرة محرجة فضحكت بدورها وقالت منهية كلامها:

" بت يا ابنتي هدف يزن، أمسيت سببا من أسباب سعادته... لم يكن يعيرني انتباها ويتجنب دوما الاحتكاك بي.. لكن ما إن حلت نسمة منك عليه حتى أصبح يبادر بالتوجه إلي للتحدث عن مشاعره نحوك... كنت أنت السبب في تقربه إلي، وكان يحكي عنك بالساعات دون ملل، وأحيانا يعيد سرد القصص نفسها، ومع ذلك فلم أكن أتدمر، أردت أن أشعر بقربه مني.. وأن أراقب بريق عينيه الجميلتين.. وشعوره بالحماس... وتورد وجنتيه كلما نطق باسمك... شعرت بأن يزن قد ولد من جديد! وجودك في حياة ابني هو أجمل هبة رحمانية حلت على قلبي، لربما كنت أنت استجابة صلواتي ودعائي المستمر له، لذا لن أكون سندا لأي شخص يؤذيك أو يتسبب لك بالضيق حتى لو كان ابني ذاته، أنا معك في الحق والباطل"

ذرفت عيني الدمع رغما عني فقبلتني على رأسي وضممتني إلى حضنها بحنان أمومي بالغ. دخل يزن الغرفة ليقطع لحظتنا الحميمة، قائلا لأمه:

" من مات؟ لماذا تبكيان؟"

مسحت عمتي دموعها ونهضت عن السرير مبتعدة عني وهي تقول:

" يا لطيف من كلامك! كنا نتحدث بأمر خاصة لا تعنيك"

ثم قبلته على جبينه بعد أن انحنى لها بسبب طول قامته، واتجهت نحو الباب تتمنى لنا ليلة طيبة وتركتنا وحدنا.

خلع يزن سترته الرسمية وعلقها جانباً وجلس على حافة السرير السفلي محتضناً رأسه بين كفيه ثم قال بضيق واضح في نبرته:

" لا تفكري حتى في عرض السيد غسان مفهوم؟ الموضوع منتهٍ "

شردت قليلاً أحاول فهم ما يرمي إليه لأتذكر ذاك الرجل على الشرفة فقلت منهية جداً لا يظن أنني سأفتعله:

" لست مهتمة بعرضه أصلاً، أعني هل تعلم كمية المبيعات التي تحصل في المنتجعات السياحية؟! سأبقى في مهنتي البسيطة فاطرد من رأسك كل الأفكار السلبية "

استدار نحوي ثم صعد على السرير وزحف على ركبتيه وكفيه وصولاً إلى حيث أجلس متلحفة تحت الغطاء، ثم وضع يده على الغطاء يتحسس فخذي من تحته وقال لي بنبرة حذرة:

" أنا آسف! "

- " آسف على ماذا؟ "

- " آسف على.... وضعك في موقف محرج.... آسف لأنك كسرت نفسك لأبي بسببي "

تجنبت النظر في عينيه وقلت متصنعة الضيق:

" لن أسامحك "

فقرب رأسه مني أكثر وقال:

" أرجوك! "

رفعت حاجبي رفضاً فاقترب أكثر حتى لامست أنفاسه الحارة شفتيّ وقال مجدداً بصوت رخيم مركزاً في شفتي:

" سامحيني "

ركزت في شفتيه برغبة وبدأت ملامحي تلين فبان بسمته يشعر بها بالانتصار، ثم قبلني قبلة خفيفة أسكرت إحساسي، وبدأت تلك النيران بالاشتعال ثانية في داخلي.. أحنيت رأسي نحوه أكثر فطبع قبلة أخرى بحب ورغبة.

اتجهت يدي تلقائيا نحو أزرار قميصه وقمت بفكها جميعها وساعدته على خلعها دون أن نقطع القبلة، مررت أصابعي على صدره الصلب وأخذت أتحمس عضلاته فنمت رغبتني به أكثر. إنني أحبه لدرجة فظيعة، لماذا لا أكتفي منه؟ رفعتني ليريجني في حجره، همس لي مقدار حبه لي، وأكمل وابل قبله المشتعلة، ثم قلبني على ظهري وانحنى فوقني وقال بمكر:

" هذه الليلة سأذيقك من سحر يزن ما لم تذوقيه من قبل "

ثم لمعت عيناه ببريق جهنمي، فخشيت على قلبي ألا يحتفل سحر جاذبيته أكثر....

أصر شادي على إعادة إيلينا إلى القصر لكنها رفضت، وبعد محاولات عديدة من يزن اقتنع زوجها بأخذها صباح الأحد وتركها في عطلة نهاية الأسبوع عند أمي. اقترحت على شادي أن أصحابها معي إلى حفل خطوبة صديقتي هناك لعلها تبتهج قليلا، رفض في البداية لكن أقنعه يزن بعد أن أكد له حضوره إلى الحفل أيضا بصفته أحد المعازيم.

وقف شادي عند الباب يوحي يزن بإيلينا وعيناه لا تفارقان غرفة أمي التي تنام فيها زوجته. ثم غادر بالرغم من شعوري بعدم رغبته في تركها خلفه.

قضيت عطلة نهاية الأسبوع في منزل أمي لأهتم بإيلينا معها وأساعدتها في قضاء حوائجها، كانت شاردة معظم الوقت، وكلما دخلت عليها الغرفة تخفي هاتفها تحت الوسادة، لن أكذب إذا قلت أنها خلقت في داخلي شعورا بالرغبة تجاهها لكنني قررت تجاهل هذا الشعور، حتى لا أتسبب لها بالانزعاج.

جهزت إيلينا لحفل خطوبة هناك، وكسوتها من إحدى فساتيني التي لا ينفك يزن عن شرائها لي مع إصراري الدائم له لأن يتوقف عن شراء الملابس لي. استأذن مني يزن أن يقوم بحمل إيلينا لينزلها السلام ويضعها في السيارة بدل إتعبنا بها.

كنت مترددة في البداية لكن أمي أبدت موافقتها على الفكرة، رفضت إيلينا بشدة أن يحملها يزن فحملها رغما عنها، ممررا ذراعه تحت ركبتيها والأخرى خلف ظهرها كما حملني يوم زفاني، فغطت

وجهها بكفي يديها بإحراج شديد، تابعتها بعيني فشعرت بالغيرة تجتاح قلبي لتوجعه بشدة، حاولت إسكات صراخات قلبي بإقناعه أن إيلينا أختي وزوجة صديقه المقرب ولن يقعا في حب بعضهما، ما هذا الذي أهذي به؟ يزن لن يخونني، ليس مع أختي بالتأكيد!

لحقتها إلى السيارة وعلامات الامتعاض لا تغادر محياي، أصرت أمي أن تجلس بجانب إيلينا لأصعد في المقعد الأمامي. أمال يزن رأسه باتجاهي وهمس في أذني حتى لا تسمع أمي وإيلينا: " يا غبية أنا يزن عاشق ليان، قلبي موشوم باسمك فكفي عن غيرتك التي لا داعي لها وامسحي عنك هذه النظرات المضحكة"

ثم رفع جذعه لينطلق بالسيارة دون أن ينظر إلي، بينما يرسم تلك الابتسامة السمجة على شفثيه، فتحت النافذة لتعصف الرياح الباردة وجهي المشتعل خجلا لعلني أهدأ قليلا.

كانت هناء سعيدة جدا في حفلها كما أنها كانت جميلة وأنيقة، رقصت معها بمشاركة زميلاتنا وصديقاتنا في المدرسة. عدت إلى مقعدي بجانب أمي وإيلينا عند الإعلان عن دخول خطيب هناء إلى القاعة.

كان شابا وسيما نحيفا وطويل القامة لكن هناء كانت أجمل منه، شعرت بسعادتها وهي تراقصه. وفي الثلث الأخير من الحفل تم الإعلان عن تحول الحفل إلى حفل مختلط ليدخل المعازيم من الرجال من أهل العروسين فكانت هذه كإشارة لنا للرحيل لنلتقي بيزن في السيارة.

اتكأت إيلينا على كتفي وسارت معي خارجا بينما أمي تحوطها بحذر كي لا تقع، عندما وصلنا السيارة تذكرت أنني نسيت هاتفي على الطاولة، فجريت عائدة لأخذه قبل أن تمتد إليه يد أحد. وعندما وصلت إلى باب القاعة فوجئت ببهاء واقفا على الباب يحمل لي هاتفي من بعيد وهو يلوح لي به كي أخذه.

مشيت نحوه أتصنع اللامبالاة وخطفته من يده، ثم قال يحاول إيقافي عن المسير:

" ليان اسمعيني رجاء! لم آت إلى هنا سعيا في إزعاجك "

استدرت نحوه بغضب وقلت:

" ماذا تفعل هنا في هذا المكان؟ "

فأجاب:

" العريس ابن خالي "

أحسست بالغثيان فجأة وفقدت القدرة على الرد فاستغل الفرصة قائلاً:

" قولي لي فقط هل فعلاً إيلينا تزوجت؟ "

اغتنمت من سؤاله وجرحتي في الصميم من بلادة إحساسه، أفقت على إحساس يد تحوط وسطي، رفعت رأسي جانباً لأصدم بيزن يجذبني إلى صدره ويحدق في بهاء بنظرة تحد واضحة ثم سألني وهو مركز في نظره نحو بهاء:

" هل يزعجك هذا الشاب بشيء؟ "

وضعت يدي على صدره أكبت غيظه وقلت له بتوسل:

" دعنا نغادر المكان رجاء "

استدار بي يحوطني كأنه وحش يحرس رزقه وسار بي نحو السيارة، حانت مني التفاتة للخلف فرأيت بهاء ما زال على وقفته يتأملنا فأشحت وجهي بعيداً عنه.

جلس يزن على مقعد السائق ثم نظر إلي بقلق وسألني متناسياً وجود أمي وأختي في مؤخرة السيارة:

" هل كان هذا بهاء؟ "

أومأت برأسي دون أن أجيب، بينما سمعت شهقة من الخلف لكنني لم أكن في مزاج للتوضيح لأي منهما ما حصل معي.

حك يزن أذنه قليلاً ثم قال:

" لماذا شعرت بالاضطراب لدى رؤيته؟ ما زلت تكنين له المشاعر؟ "

نظرت إليه مصدومة ونهرته بإيحاء من عيني أذكره باستضافتنا عائلتي في السيارة، وضع ذراعه على ظهر مقعده وقال:

" لا يهمني من يجلس متفرجا فقط وضحي لي! ليان! أنا قدمت لك كل شيء! أحببتك بجنون
عرفتك على عالم من الدهول لم تجربيه من قبل! منحتك أملاكي وروحي وقلبي وجسدي ملكا لك"
احمر وجهي بشدة من كلامه، وغطت إيلينا وجهها بحياء، أما أمي ألقى بصرها نحو الأرض
لتخفي شعورها بعدم الراحة لحديثنا الذي من المفترض أن يكون خاصًا. ثم تابع بغير اهتمام:
" قولي لي على الأقل سبب تعلقك به أكان يقبلك أفضل مني؟"
تنحنحت أمي لترسم له حدود كلامه لكنه أصر على تجاهلها، وكان غيظه يزداد في كل لحظة سکون
مني، لم أكن أعلم بغيرته الشديدة هذه، فقلت له مستسلمة أخيرا:
" لا أعني أنت أول شخص أنت الوحيد الذي قبلني "
ثم دفنت وجهي بين كفيّ بخجل، أخذ منه الأمر ثوان ليستفهم مرة أخرى قائلا:
" كنت مخطوبة له ولم يقبلك ولا مرة؟"
فأجبتة على مضض:

" حاول في البداية لكنني كنت أصده لئلا أفسد بهجة الزواج فتوقف عن المحاولة "
ساد صمت مفاجئ في السيارة قطعه دوي ضحكته التي علت فجأة وعلى أثرها بدأت دموعه
تنهمر، فأضحك مظهره أمي وأختي، أما أنا فنظرت إليه كالبلهاء أتساءل عن سبب ضحكته، ثم ما
لبث أن هدا بعد ضحكته المستيرية وقال وهو يحاول إنهاء ما تبقى من ضحكته:
" دعيني أقول لك شيئا أنت لم تحبي ذاك الشاب قط أنت أحببت نفسك معه ... والسبب
في ضيقك منه ليس غيرة من أختك وإنما شعورا بنقصان أهميتك وهذا شعور غير صحيح "
أملت برأسي أنتظر التفسير فأوضح أكثر:
" نظرتك المعتدة بنفسك كسر ها بهاء وأنت لا تريدين منه شيئا إلا أخذ اعتبارك منه فقط، أليس
ذلك صحيحا؟"

تمعت في كلامه جيدا.. إنه محق! فأنا لم أذرف دموعا واحدة على فراقه بينما كنت أبكي من خوفي من
مشاعري تجاه يزن سابقًا. ما الذي أصابني هل جننت؟ شعوري تجاه يزن يختلف عن شعوري تجاه

أي رجل! عندما أنظر إليه يتنفذ قلبي ويفيض إحساسي ولا أمل أبداً من التطلع إلى وجهه الوسيم
وتلك اللحية الجذابة... عدا عن ذلك الإحساس الجميل الذي يزرعه في داخلي كلما لمسني، أو نظر
إلي... لم أشعر بهذه الأحاسيس أبداً مع بهاء كنت فقط أشعر بالسعادة لوجود شخص في حياتي
يشعرنني أنني فتاة جميلة بغض النظر إذا أحبته أم لا.

قال يزن منها سيل أفكاره والموضوع برمته:

"أخرجني من بالك فكرة إظهار نفسك بأفضل صورة لتغيظي بهاء، فأنت لست بحاجة إلى مشاعره
لذا اسمعي الخلاصة.. أنت ملك يزن. حبيبتي التي تربعت على عرش قلبي ولن ينافسني فيك
مخلوق.. وليس مدحا بنفسه لكن عيب عليك أن تقارني هذا..."

وأشار إلى نفسه باعتداد وأضاف:

"بذاك.."

وأشار خارج السيارة، ثم وجه سؤاله لأمي قائلاً:

"أأست محققاً يا عمتي؟"

فربت على كتفه وقالت مؤكدة:

"أنا أحمد الله أصلاً أنها انفصلت عن بهاء لترتبط بشخص أفضل لها.. الشخص الذي يستحق

جوهرتي الغالية"

التفت نحوها ابتسم لها ولمحت إيلينا تستقبلني بابتسامتها الحنونة أيضاً، ثم ربت على ذراع يزن
وخاطبته بلغة العيون بمقدار حبي له، فنظر نحوي نظرة مشابهة يشاركني إحساسي تجاهه.

الفصل الثالث والثلاثون

" يا إلهي! ليان، لم أكن أعلم أن سامر ابن عمه بهاء! هل أنت مستاءة لارتباطي بأحد أقاربه؟ "

كان القلق باديا على وجهه هناء، فقلت لأصرف قلقها بعيدا:

" لا طبعاً لا ذنب لك ولا لخطيبك، لكنني متفاجئة من عدم رؤيتي لأحد من أفراد أسرته في الحفل "

فأجابت:

" ربما بسبب كثرة عدد الأشخاص وتفكيرك المتواصل بإيلينا فلم تتنبهي إلى وجود أمه أو إحدى أخواته "

فتحت كتاب الرياضيات لأستذكر أهم النقاط التي سأقوم بشرحها لطلبتني متجاهلة موضوع بهاء كله، فقد وعدت يزن أن أتوقف عن التفكير به.

مع قرب انتهاء الدوام جاءني يزن إلى غرفتي الصيفية يعلمني أنه حصل على إذن للمغادرة لملاقة شادي في الشركة بناء على طلب من الأخير.

خشيت أن يكون سبب استدعائه إصابة إيلينا بمكروه، لقد أصر صباحا على اصطحابها إلى القصر ولم نملك إلا الرضوخ لطلبه فهو زوجها في النهاية، فأكد لي يزن أنها بخير وأنه استدعاه لسبب خاص بشادي، ثم طلب مني التوجه إلى بيت أمي ريثما ينهي عمله معه ويعود لاصطحابي.

فعلت كما طلبت وقررت الذهاب إلى بيت أمي مشيا على الأقدام كما اعتدت أن أفعل قبل ارتباطي بيزن سابقا. في الطريق بيننا كنت أحوم في فوضى أفكار أجدت على يد تمتد نحو ذراعي وتجري جانبا.

التفت نحوه وبحركة تلقائية دون تفكير انهلث عليه ضربا بحقيبتني بشكل هستيري وأنا أصرخ به أن يتركني فأخذ يستصرخني لأتوقف هنية بقوله:

" اهدئي! اهدئي! هذا أنا! "

تأملت الشاب حتى بانث ملامحه فقلت متفاجئة:

" بهاء! ماذا تريد مني؟ اتركني بحالي!"

أشار إلى الحديقة أمامنا وقال متوسلا:

" أرجوك رافقيني لن آخذ من وقتك الكثير فقط أريدك بكلمتين... لن أطيل عليك "

أطرقت برأسي للحظة أفكر، لو أنني تبعته ربما أحصل على خاتمة وأنهى دوامة مشاعري المتخبطة

بسببه، لكن لو علم يزن بذلك فقد يحصل ما لا يحمد عقباه. قال بهاء يقنعني لما رأى من ترددي:

" لن يعلم زوجك بهذا. فقط سنتكلم ونهني كل المسائل العالقة بيننا، رجاء يا ليان "

راودني إحساس بأنني سأندم، ومع ذلك خطوت معه نحو الحديقة... جلس على إحدى المقاعد

الحجرية ودعاني لأشاركه الجلوس لكنني رفضت وقلت لأشعره بنفاد صبري:

" قل ما لديك ودعني أمضي "

حك رأسه قليلا وهو يوجه نظره نحو الأرض ثم تجرأ أخيرا وشرع في الحديث:

" قبل أن تتم خطبتنا كنت قد لمحت أختك في البقالة عدة مرات وأعجبت بها كثيرا، وطلبت من أمي

مرارا أن تتقدم لخطبتها لي، وعندما وافقت أخيرا..... فاجأتني بطلبها لك أنت بدل إيلينا....

فقد أعجبت بقوة شخصيتك ولأنك معلمة وتجنين المال عكس شقيقتك التي كانت ما تزال تدرس

في الجامعة..... حاولت إقناعي كثيرا بقبولي لك بدل البنت التي اختارها قلبي. في النهاية أجبرتني

على الارتباط بك "

توجهت إلى المقعد المجاور له وجلست لأريح ساقيّ اللتين ما عادتا قادرتين على حملي من وقع

حديثه المفاجئ، حرصت على عدم مقاطعته ليوح بكل شيء، ثم أضاف قائلا:

" حاولت إقناع نفسي أن مشاعري ستتبدل وأنني سأقع في حبك بدلا من شقيقتك، لكن قلبي

خانني وأخذ حبي ينمو أكثر تجاه إيلينا... حتى لم أعد أقوى على صد مشاعري تجاهها... "

التفت إلي وقال بوجه متألم:

" أنا لم أكن أنوي أذيتك أو التسبب في جرحك، أعلم أنك عانيت بسببي، أريدك فقط أن تسامحيني .
أنا آسف يا ليان لكن مشاعري تجاه إيلينا ما زالت كما هي "

تنهدت بألم لأخرج ذلك النفس الذي كان مكبوتا في صدري، وعادت كلمات يزن البارحة تطاردني،
ترأى لي أمامي بابتسامته التي تخطف أنفاسي، وبدأ قلبي ينبض بإحساس وبين كل نبضة وأخرى
يتردد اسمه .. " يزن " .. جريا في عروقي .

التفت نحو بهاء لأراه كأى رجل عادي لا أشعر تجاهه بشيء وقلت:
" علي أن أشكرك أصلا لولائك لما تعرفت على يزن..... فهو الرجل الذي خطف قلبي، معه عرفت
طعم السعادة.... أما بالنسبة لإيلينا فأنا لم أكذب عندما قلت لك أنها متزوجة وزوجها.....
حسنا غيور جدا..... فخذ بنصيحتي وأخرجها من بالك لأنك لن تستطيع أن تكون ندا له فهو
مخيف عندما يغضب "

قلت ذلك بينما تذكرت شجاره مع ابن عمه قبل فترة وإوشاكه على قتله لولا تدخل الجميع من
حوله.

هز رأسه مستسلما ونفخ بضيق واضح، ثم نهض واقفا ورفض بنطاله وسار إلى الأمام قليلا قبل أن
يتوقف، ثم نظر إلي من زاوية عينه وقال:

" لكن لأكون صريحا معك..... شعرت بشيء من الغيرة عليك عندما أحاطك زوجك إلى صدره
البارحة..... فأنت كنت ستغدين زوجتي يوما ما "

استدار ثانية وتابع مسيره، وبقيت جالسة في موضعي أفكر بعبارة الأخيرة، ما هو شعوري الآن؟ لم
يتحرك في داخلي شيء تجاهه، لكنني شعرت بالارتياح من مواجهته، وكأنني أخيرا اقتلعت تلك
الشوكة التي أدمت قلبي لفترة طويلة.

.....

طال صمت يزن فترة من الوقت، كان جالسا على الأريكة متكئا بمرفقه على طاولة المكتب ورأسه يستريح على أصابع يده بينما يدرس حديث شادي الصاعق له، عدل جلسته واتكأ على ظهر الأريكة ثم قال مستفهما:

" إذن دعني أفهم القصة، أنت تزوجت من إيلينا بناء على رغبة والديك؟ بحيث أن أباك يريد رد جميل جدها، أما أمك فكان لها مخطط آخر! أو صتكت بعدم لمسها وكلفتك بالزواج بها بهدف ذلها وإرجاعها مطلقة بتهمة الخيانة مع فارس الذي طلب يدها للزواج أولا؟ وهي إيلينا ذاتها ترغب بفارس ولا تريدك أنت لكنها وافقت لأن أمك هددتها!.... وأنت شككت في عفتها لتكتشف طهرها عقب حادثة اختطافها.. والآن أنت حائر لا تعرف كيف تتصرف "

كان شادي يدفن رأسه بين كفيه على مكتبه وأوما ليزن إيذاء خفيفة ثم تنهد بأسى، رفع رأسه ونظر بعينيه المتعبتين نحو يزن ينتظر منه أن يشير عليه. زفر يزن بعمق وقال:

" يا رجل! ما هذا الموقف الذي وضعت نفسك فيه؟ ألم تشك يوما ببراءتها؟ أعني انظر إلى بساطتها ولطفها و..... مع عدم المؤاخذه على هذه الكلمة التي سأقولها.... غيابها في التعامل مع الرجال! حاولت حثها على الرقص في زفافي فتفوقعت على نفسها بحياء شديد! هذه البنت الخجولة لا يمكن لها أن تمارس الفسق، ثم أنها ضعيفة الشخصية بشكل ملاحظ ألم يخطر ذلك في بالك ولو مرة؟ "

أرجع شادي ظهره على الكرسي ورفع رأسه إلى السقف وقال مبررا:

" حاولت أكثر من مرة إقناع نفسي لكن أمي.... أقسمت يمينا مغلظا بأنها رأت بعينها وسمعت بأذنها، ماذا تتوقع مني؟ أن أكذبها وأصدق فتاة لا أعرفها؟! أقنعت نفسي أنها ممثلة بارعة وتجيد دورها بإتقان "

ارتشف يزن رشفة من قهوته ثم قال:

" تريد نصيحتي؟ فكر جيدا بما تريده أنت لا غيرك، فإما أن تطلقها وتريجها من عذابها وتتخلص من شعور السخط لديك بعد خسارتك ابن عمك، أو اسأل قلبك إذا وجدت فيه مكانا لو كان

مثقال ذرة لها، فأكمل زواجك بالطريقة المعهودة بين كل زوجين ومارس معها حقوقك الزوجية
وانس اتفاقك مع أمك، والخيار متروك لك "

شرد شادي في السقف فوّه يتأمل كلمات يزن ويحاول ترجيح الصواب في قلبه، كان يعلم في قرارة
نفسه أنه لا يستطيع التخلي عن إيلينا بسهولة، لكنه تجنب ذكر ذلك.. فهي في رأيه من حقه هو لأنه
رآها أولاً ومال إليها قبل أن يراها فارس ويباغته بمشاعره تجاهها، لم تغفل ذاكرته ولو للحظة
واحدة عن مظهرها وهي تدخل مكتبه بينما تكتسي بحلة الحياء... خدودها المحمرة.. نعومة صوتها
ووقار مشيتها.. ثم دموعها الحزينة التي فضحت رقتها وأنوشتها.. شعر بالتخبط بمشاعره لحظتها
لأنه لم يجرب هذا الشعور من قبل... فحاول دحضه وتمسك بجبروته لئلا تغلبه مشاعره.. ولأن
شادي كتوم بطبيعة حاله لم يتلفظ بحرف واحد من يومها. وترك الأمور لتسير حسب ما تحبّه
الأقدار. لكنه يعلم أيضاً أن إيلينا لا تحبه وأن قلبها يريد فارس، مما زاد من امتعاضه نحو سير حياته.
أمال رأسه إلى الأسفل وقال مخاطباً يزن:

" اليوم اجعل التمارين مكثفة، أريد إخراج كل الأفكار من بالي وسنبداً بالتمارين حال وصولي إلى
البيت "

أخرج يزن هاتفه من جيبيه يعلمه أنه سيخبر ليان أن تعود إلى المنزل مع سائق العائلة حتى لا تنتظره
فترة طويلة.

ليان

ارتأيت أن أعود إلى البيت على الفور بعد أن تلقيت رسالة يزن فاتصلت بسائق العائلة ليأتي ليقلني
إلى القصر، فأنا منهكة قليلاً من دوام اليوم المتعب ولم أحصل على نوم كاف في عطلة نهاية الأسبوع
بسبب حفل خطوبة هناء. وزواج معارف ليزن، وسهرات رجال الأعمال... كما أن خالي سيأتي
ليصحب أمي لتبيت عنده يومين بعد أن أقنعتها لتغير جو البؤس الذي مرت به عقب حادثة خطف
إيلينا.

ودعتها وانطلقت متجهة إلى البيت، عندما وصلت قررت أن ألقى التحية على عمتي لأعلمها بوصولي، لكنني لم أجدها في غرفة المعيشة حيث تحب أن تجلس على الأريكة المقابلة لباب الحديقة الزجاجي وتقرأ في كتابها بينما تتنعم عيناها بجمال الألوان أمامها. توجهت نحو البهو أبحث عنها فوصلت إلى مسامعي قهقهة امرأة وعلمت يقينا أن هذا الصوت ليس صوت عمتي، اقتربت من مصدر الصوت فوجدت مكتب والد يزن مغلقا إلا من فتحة صغيرة.. اقتربت أكثر وحاولت استراق السمع، فسمعت المرأة تقول:

" لن يصيبه شيء! كل الشبان معتادون على هذه العقاقير!"

ثم سمعت صوت عمي محتدا يقول:

" هل أنت متأكدة أنه لن يصاب بمضاعفات؟ هذا ابني الوحيد.. ابني الغالي! أعني ما الهدف من هذه الخطوة؟"

فقاطعت المرأة قائلة:

" فقط اترك كل شيء لي، ألا تريد التخلص من تلك القذرة التي أفسدت عقل ابنك؟ اتبع الخطة فقط ولا تخش شيئا، الهدف هو زرع الخوف في قلبها لتمتته. لا تنسى قدم هذا له قبل أن تريه هذا فهمت؟"

يقدم له ماذ قبل أن يريه ماذا؟ من هذه؟ وماذا تفعل في مكتب عمي؟ وهل نعتني بالقذرة؟! سمعت صوت وقع كعب نسائي فعلمت أنها نهضت ربما تريد المغادرة، فجريت مسرعة نحو البهو الصغير الخاص بالحمام الذي بجانب المكتب واختبأت خلف الحائط، مددت رأسي قليلا إلى الخارج لأرى هوية المرأة الخارجة من المكتب فصعقت برؤيتها.... كانت السيدة انتصار!

ماذا تفعل هذه هنا؟ هل تحيك مع عمي شرالي لإخراجي من حياة يزن! لكن لماذا؟ هو عذره معه فهو يكرهني أما هي ما غايتها؟ علام ستحصل في المقابل؟ امرأة رخيصة! علي حماية إيلينا من شرورها بأي طريقة كانت!

انتظرت حتى غادر كلاهما خارجا وتوجهت خلسة نحو الباب، حاولت فتحه لكنه كان موصدا مما أثار استيائي، فصعدت إلى غرفتي أفكر بخطوتي القادمة لأدرا عن نفسي مكرهما. عاد يزن قبل موعد العشاء.. كان متعرقا بشدة فأعلمني أنه مارس تمارين رياضية مع شادي، توجه للاستحمام. ثم نزلنا معا نحو المائدة في انتظار العشاء. طلب منا عمي مشاركته في شرب عصير البرتقال وأصر على يزن بالذات مما أثار فضولي، هل دس لابنه شيئا في العصير؟ حتى عمتي لاحظت إصراره العجيب على ذلك، فقبل يزن محرجا، وددت لو أنهاه لكن لساني عقد عن الكلام، ماذا سأقول؟

بأي حجة سأمنعه من مشاركة العصير مع والده؟ راقب عمي ابنه وهو يشرب العصير ليتأكد من شربه كله. كنت أشعر بالاختناق أكثر مع كل لحظة تمر. ثم بدأنا بتناول العشاء بهدوء، لم نتكلم كثيرا وجهت لنا عمتي أسئلة روتينية عن يومنا وأخبارنا. ثم ما لبثت أشعر بتغير في حال يزن فسألته إن كان بخير فقابلني بابتسامة صفراء ولم ينطق وهنا تدخل عمي قائلا:

"إذن قلت أنك توجهت إلى بيت أمك مباشرة بعد دوام المدرسة؟"

نظرت إليه بامتعاض كنت أعلم أنه يسألني ليصرف انتباهي عن يزن فأجبت بثقة زائدة:

"طبعاً أين سأذهب؟ لا مكان آخر ألج إليه"

أجاب عمي متسائلا بلهجة ماكرة:

"لم تخبرينا ما أخبار خطيبك السابق؟"

شحب وجهي بشدة كيف علم بأمره؟ هل يعقل أنه علم برؤيتي له اليوم؟ نظرت عمتي نحوي

نظرة متسائلة مرتابة وتشدق يزن بأنفاسه متسائلا بريية:

"من؟ كيف تعرف أنها..... أبي عم تتكلم؟"

نهض عمي عن المائدة واتجه نحو خزانة توضع فوقها التحف، وفتح أحد جواريرها وأخرج منه ظرفاً، راقبته عيناى بذعر شديد.. حاولت أن أتكلم فأسبقه قبل أن يتهمني بشيء لم أفعله، لكن لساني خانني وأبى أن ينطق. رمى الظرف أمام يزن على الطاولة آمراً أن يفتحه. قام يزن بفتحه وهو يقلب بصره بيني وبين أبيه بريية شديدة وأخرج منه صوراً، فتغيرت ملامحه لتصبح نظراته مرعبة فرمى بالصور أمامي وهو يطالعني بغضب، ألقىت نظرة أمامي لأتأكد من صحة مخاوفي فكانت صوراً لي مع بهاء في الحديقة جالسين على مقعدين حجريين مجاورين نتحدث، حتى أن إحدى هذه الصور أظهرت ابتسامتي في وجهه عندما كنت أحدثه عن ارتباطي بيزن، كيف سيقتنع ببراءتي الآن؟

انتفض يزن واقفاً وأمسك بيدي ليجرني معه عنوة إلى غرفتنا، حاولت أمه إيقافنا لكنه نهرها منبها عليها بأن تبقى بعيدة ولا تتدخل.

دخل يجرني ودفعني إلى الداخل حتى فقدت توازني ووقعت على ركبتي، التفت إليه مذعورة، حاولت النهوض وأنا أرجوه قائلة:

" اسمع مني أولاً أرجوك سأبوح بكل شيء!"

أوصد الباب واتجه نحوي وقد ارتسمت على وجهه نظرات مرعبة لم أعهد لها من قبل منه، ثم قال بصوت أجش بينما جبينه يتعرق بشدة:

" ماذا؟ ألم أنك عن التفكير به؟ فأجد أنك تخرجين برفقتي؟"

قلت متوسلة باكية:

" الأمر ليس كما يبدو!!"

فقاطعني وقد أخذت أنفاسه تتسارع:

" ماذا كنت ترجين؟ ها؟ تريدان أن تجربي إحساسك معه حتى تشبعي فضولك به؟"

قطبت جبرني باستياء وقلت:

" بماذا تهذي يا يزن؟ أنا أحبك أنت!"

لم أرى حاله هكذا من قبل، بدأ وجهه يحمر بشدة فقام بخلع قميصه وهو يحاول أن يلتقط أنفاسه وبدأ العرق يتصبب أكثر منه فشعرت بالقلق عليه، ثم نظر نحوي نظرة مرعبة شيطانية وانقض علي يملني من ذراعيّ نحو السرير، فأخذت أصرخ به ليتركني، لكنه أبى وبدأ يصرخ بي قائلاً:

" هل كنت ترغين بتجربةٍ معه هل تتخيلينه يفعل معك هذا؟!!! "

ازدادت ضربات قلبي رعباً وأخذ يرفع فستاني ليكشف ساقي بينما أحاول التملص من قبضته ، فانقض على شفتيّ يلتهمها بطريقة أمتني، فأخذت أصرخ في جوفه ليبعد عني، فصر بني بكف يده على فخذي وقال بصوت خيف وهو يقضم شفتي بعنف:

" لماذا؟ ألا أنك تريدنه هو؟ "

ازداد عويلي واستصرأخي به ليتركني وغزرت أظفري في رقبتة لأبعده عن شفتي الداميتين فزجر بغضب وخلع حزام بنطاله ورفع ذراعيّ فوق رأسي وشد وثاقهما به، بدأت الدموع تنساب من عيني خوفاً وذعراً منه، ماذا حصل له؟ لم أره عنيفا معي أبدا بهذا الشكل!

حاولت جاهدة أن أتمايل بجسدي بعيداً عنه لكنه كان مصراً ومحكماً قبضته علي كالوحش الهائج، أمسك بساقي بقوة ليشبتها فزاد صراخي وبكائي... لم أكن أريده أن يقترب مني وهو هائج هكذا فقد أربعني، شعرت للحظة أن هذا الكائن ليس يزن، ومن ثم همّ بي بوحشية فما لبثت أن شعرت بروحي تنتفض من جسدي ألماً... أخذت أصرخ وأبكي بشكل هستيري، أحسست أنني عاجزة ولم يعد بمقدوري المقاومة.. شعرت بجسدي المنتهك يتمزق وبدأ الألم يتزايد أكثر فأكثر حتى أصبح لا يحتمل حتى ظننت أنني سيغشى علي... اختلطت دموعي بخيط الدم الذي سال من شفتي وتوقفت عن مقاومته بينما استسلم جسدي لتعذيبه له وكان شدة الألم التي لازمتني قد قيضتني عن الحركة... ثم تركني وابتعد عن السرير وهو يلهث ويضع يده على صدره، وأطلق صرخة مدوية متألمة، فتح الباب بشق الأنفس وخرج يتعثر في مشيه ويصيح، أما أنا فغلبنني العويل.. فبكيت وصرخت من الألم الذي حل بي، شعرت بشي مبلل تحتي فنظرت إلى الأسفل لأجد دماء تسيل مني فازداد

رعبي وأخذت أصيح بصوت أعلى حتى ركضت عمتي إلى الغرفة فلطمت وجهها عندما رأت حالي وأخذت تصرخ رعباً بدورها.

إيلينا

وردني اتصال من أمي عائدة من بيت خالي نحو مشفى خاص في المنطقة التي تعيش فيها ليان، فشعرت بالذعر يتملك أوصالي.

كنت جالسة على أريكتي أقرأ من كتاب لأسلي نفسي لعدم قدرتي على التحرك كثيرا بسبب ساقى المكسورة.

بدأت أصابعي بالارتجاف وأنا أحاول الاتصال برقم شادي لأعرف أين هو، وبعد سماعي للرنة الثالثة أجاب على هاتفه، فقلت له بذعر شديد:

" خذني إلى المشفى أرجوك! ليان ويزن في خطر! "

وصلنا المكان وقد تملك منا الرعب كل مأخذ، كان عمي قد أحضر كرسيًا مدولبًا لانتقل فيه لأقضي حوائجي. دفع شادي الكرسي مسرعًا نحو المصعد لتتجه إلى الطابق المنشود حيث ليان ويزن في العناية.

عندما وصلنا رأيت أمي جالسة إلى جانب أم يزن تستفهم منها ما جرى والأخرى تبكي ولا تعطي ردا واضحا، أما والده فكان واقفا بجانب أحد الأبواب يغطي عينيه بكف يده بإرهاق، اقتربنا منهم جميعا ثم سأل شادي بقلق:

" ماذا يجري هنا؟ ما به يزن؟ "

خرجت الطبيبة تطل برأسها نحونا وسألتنا:

" من منكم مسؤول عنها؟ "

فقلنا أنا وأمي وعمتها بصوت واحد قلق:

" هل هي بخير؟ ماذا جرى لها؟ "

تقدم نحوها والد يزن وقال:

"نحن هنا كلنا عائلتها هل يمكنك أن تشرحي لنا خطبها؟"

فنظرت نحونا متفحصة ثم طلبت منا الدخول إلى مكتبها، جلست على كرسيها، ثم هاجمتها عمدة

ليان قائلة:

"هل نزفها خطير؟ هل أصابها مكروه؟"

أي نرف؟ لم أفهم شيئاً مما يدور حولي، فتنهدت الطبيبة ونظرت في عيني أمي وأم يزن وقالت بحذر:

"هي لم تنزف، أعني لم يكن نزيفاً كما تتخيلين، بل كان إجهاضاً"

تسمرت ملامحنا جميعاً حتى شعرت أن وجهي تصلب ثم تجرأت وكنت أول المتحدثين لأسأل:

"ليان كانت حامل؟"

هزت الطبيبة رأسها وقالت:

"في بداية حملها لكنه كان ضعيفاً ويبدو أن العنف كان سبباً في إجهاضه"

تساءلت ببلاهة مجدداً بينما عقلي لا يستوعب شيئاً من حولي:

"عنف ماذا؟"

نظرت الطبيبة إلى يديها المتشابكتين على طاولتها ثم تنحنت محرجة وقالت:

"عندما يكون الحمل ضعيفاً في الأشهر الأولى عادة لا نوصي الزوج بالاقتراب من زوجته في هذه

الفترة، حتى تتعدى مرحلة الخطر، أنا لا أقول أنها أجهضت بسبب العنف في العلاقة الحميمة لكن

العنف سهل إجهاضها"

لطمت أمي فاهاً وأخذت تبكي بحرقة بينما أحاول فهم كلام الطبيبة، أما أم يزن فكانت تضرب

فخذيها وتئن بألم قائلة:

"ماذا فعلت يا ابني؟ لماذا سمحت للغضب بالتحكم بك؟"

قالت الطبيبة:

"سأبقيها تحت المراقبة لأطمئن على صحتها، في هذه الأثناء أوصيكم بالاطمئنان إلى وضع زوجها"

خرجنا جميعا من مكتب الطبيبة يملكنا الدهول والخوف، تقدم نحونا طبيب في منتصف العمر ونظر إلى والد يزن الذي كان غائبا في عالم آخر وسأله على حين غرة:
" عفوا يا سيد هاني لكن منذ متى يتعاطى ابنك منشطات؟ لقد ظهر في تحاليل الدم بعض المركبات التي تشير إلى ذلك "

ضيق شادي عينيه وتقدم من الطبيب متسائلا:

" منشطات؟ يزن لا يحتاج إليها إنه يتمتع بصحة جيدة، أليس كذلك؟ "
ونظر نحو والده الذي تغيرت ملامحه وشحب وجهه، فقال الطبيب مستاء:
" إنه يعاني الآن من صعوبات في التنفس وتسارع في نبضات القلب وعدم وضوح في الرؤية، سنبقية تحت الملاحظة حتى تتحسن حاله، سيد هاني كدتم اليوم أن تفقدوه بذبحه صدرية! لا عقاير دون وصفة طبية مفهوم؟ "

جف حلق السيد هاني ولم يعد قادرا على الحديث، ربت الطبيب على كتفه وأوصاه بالراحة حتى يتحسن وضع يزن، ما إن غادر الطبيب حتى صرخت به زوجته:
" ماذا دسست له في مشروبه؟ وضعت لابنك منشطات جنسية وهو لا يحتاج إليها؟ لماذا فعلت ذلك؟ تريد قتل ابنا الوحيد؟ "

صرخ بها السيد هاني لتسكت وسار مبتعدا من أمامنا باتجاه الممر الطويل واختفى. جلست والدته تبكي ابنها بحسرة وألم، فجررت كرسيّ المدولب واقتربت منها لأربت على كتفها وأحاول تهدئتها ومساندتها. أما شادي فكان يحاول فهم ما يجري حوله وكأنه بدأ يربط بين الخيوط المتشابكة أمامه.

ليان

كنت ما أزال أحاول استيعاب الصدمة مما حصل معي، كنت حاملا دون أن أدري وأجهضته أيضا؟ لماذا؟ لماذا حصل معي هذا؟ بأي ذنب؟ أخذت أبكي بحرقة وأنا جالسة في سريري في المشفى أندب حظي:

" لماذا يا يزن؟ انظر إلى ما فعلت!"

مدت عمتي يديها نحوي تحتضن كفيّ بحنان وقالت تراجوني:

" اهدئي يا صغيرتي! أرجوك لا تلومي يزن لم يكن في وعيه! لقد دس له والده منشطات..... لا

أدري حتى ما السبب وراء سلوكه غير المقبول هذا.. كاد أن يقتل ابني بيديه"

ثم أكملت نحيبها واتجهت نحو النافذة لتبكي وتزيل غم صدرها، أما أمي وإيلينا فكانتا صامتتين لا

تدريان ما تقولاه لكن أعينها كانتا تحملان الكثير من الأسى. شردت في كلام عمتي حتى بدأت

أفهم مخطط السيدة انتصار، فأظن يقينا أنه كان كالآتي:

يدس عمي المنشطات ليزن ثم يريه صوري مع بهاء، لتأخذ المنشطات مفعولها أثناء شعوره بالغضب

فينتهك جسدي غصبا بوحشية، حتى ينمو لدي رهبة منه وأنفر من قربه لي لتستحيل الحياة بيننا

فنصل إلى الطلاق، لكن ما لم يعلمه أي منهما حصول المضاعفات الناجمة عن تعاطيه للعقار فيدخل

المشفى لتفسد خططها، كما أنني على علم مسبق بالشرك الذي قاما بحياتته سوية، لكن الأسئلة التي

تطرح نفسها هنا كيف سأصرف الآن مع يزن؟ كيف سأخرج من ألمي الجسدي والنفسي؟ ماذا

سيفعل يزن لو علم بإجهاضي على يديه؟

عدت أبكي من جديد متألمة محتارة خائفة، أعلم أن المنشطات كان لها كل الأثر السلبي على سلوكه،

لكن ذلك لم يمنع من زرع الذعر في داخلي من لمسه لي مستقبلا. ماذا أفعل الآن وكيف أتصرف؟

رفعت بصري نحو السماء راجية المولى أن يخفف عني ألمي.

إيلينا

خرجت ليان من المشفى بعد يومين، وكان يزن يتحاشاها طيلة الوقت، باتت علاقتها متوترة بعض

الشيء، كانت تهاتفني وتشكو لي خوفها كلما اقترب منها، واعترفت لي أنها لم تعد تشاركه النوم على

ذات السرير، قدمت إجازة مرضية للمدرسة وحبست نفسها في غرفتها، كانت تبكي بحرقة

فأوجعت قلبي وأخذت أحاول تصبيرها وتذكيرها بحبه الكبير لها وحاولت إقناعها ألا ذنب له فيها حصل.

لم أكن بعد قد فهمت الكثير مما حصل بينهما، فلم يتكبد أحد عناء الشرح لي لكنني فهمت أن ما قام به معها كان مشابها للاعتداء. أنا أجهل كثيرا من الأمور التي تخص أي متزوجين بحكم أنني لم أخض تجربة بنفسي لكنني علمت أن ما حصل مع يزن تم فوق إرادته ودون وعي منه. أبلغتني ليان أيضا بتعاون أم شادي مع عمها فبدأ الرعب يدق أوصاله في داخلي مما استفعله هذه الأفعى بي وبأختي.

بالنسبة لوضعي الجديد في البيت فقدت أستشعر تغيرا في شادي، فبات يتجنب الحديث معي أحيانا كثيرة أو حتى مشاركتي المجلس ذاته، وكان شروده يزداد، كان بودي أن أسأله عن الخطب الملم به، لكنني كلما استجمعت شجاعتي لأسأله تخبو مرة واحدة كشمعة أطفأت الريح نارها على حين غفلة... أما فارس فكان تواصلني معه من خلال الرسائل سرا ليطمئن على أحوالي ويذكرني بوعده في سعيه للحصول على الطلاق دون التسبب في أذية زواج ليان.

مرّ أسبوع آخر وعلاقة أختي بزوجها على حالها من التوتر. غدا عصرالذي موعد مع الطبيب لمتابعة وضعي الصحي، في هذه الأثناء كنت جالسة في المطبخ بين الخاديات أساعد في تحضير وجبة العشاء، وبالرغم من إصرار السيدة هالة عليّ بالخروج من المطبخ إلا أنني أبيت، فأنا أحب تقديم العون للغير، ثم أنني لا عمل لي إلا الشعور بالملل من قلة الحركة. كنت أتوسط الجلسة في المطبخ بينما أقوم بلف أوراق العنب.. أذكر حينما كنت أساعد أمي في هذا العمل في السابق بينما ليان كانت تتهرب بأي طريقة كانت.

انشغلت مع إحدى الخاديات في أحاديث مضحكة عن بعض مواقف طفولتها حينما وقعت عيني فجأة على باب المطبخ لألمح شادي يراقبني باهتمام، لكن عندما فطن إلي وقد لمحته احمرّت وجنتاه بشدة وولى مغادرا دون أن يلتفت إلينا.

خفق قلبي بقوة ولم أفهم سببا لذلك، لكن نظرتة تلك إلي تركت أثرا عجيبا في وجداني، لم تكن نظرة سخط أو تكبر... لم تكن نظرة غيظه المعهودة... كانت شيئا آخر لا أجد وصفا لها إلا... ربما ... وأعتقد أنني مخطئة... لكن ألم تكن نظرة افتتان؟!

استقر الكل جالسين حول مائدة العشاء، أصر عمي على إقامة وليمة محترمة ليحاول إدخال البهجة علي... فبعد عودتي إلى القصر كان الوحيد الذي يتفقدني كل خمس دقائق، وأوصى ديمة بالعناية بي، كما أنه تكفل بتزيين غرفة شادي بالبالونات احتفالا بنجاتي من حادث أليم. أراد إقامة حفلة بمناسبة عودتي سالمة لكن زوجته وقفت له بالمرصاد لتمنعه، بصراحة لم تثر سخطي ففي كل الأحوال أكره أن أكون محور الاهتمام.

جلس شادي في مقعده مقابلي كعادته، ثم شرع بتناول طعامه، التفتت إليه أمه وعلى محياها نظرة متعجبة لتسأله:

"منذ متى وأنت تأكل ورق العنب الملفوف؟ ألسنت تنفر منه؟"

وضع شوكتة جانبا ونظر حوله ليقابل نظرات الجميع المحملة بالدهشة، ما عداي.. فأنا لا أعرف ما يجب وما يكره.. لكن من ينفر من ورق العنب؟! عجيب شادي هذا! قطب حاجبيه محافظا على كبريائه ثم قال:

"كل ما في الأمر أنني جائع وسأكل أي شيء أمامي"

أشارت إليه بالطبق الرئيسي المليء باللحم ليأكل منه، لكنه اغتاض دون سبب ورمى شوكتة في الصحن وغادر المائدة دون رجعة، وحينما أخذ الجميع بالهتاف له ليعود تجاهلهم ولم يعط ردا. ماذا حل له؟ لماذا فقد أعصابه دون سبب يذكر؟ أنا لا أتعاطف مع أمه عادة لكن مظهرها التائه من تصرفه معها جعلني أشعر بشي من الشفقة نحوها.

وضبت ديمة صحننا مغلفا له بورق العنب وأصرت علي أن آخذه إليه ليأكله، كنت أشعر بالخجل الشديد من الفكرة وحاولت الرفض مرارا حتى قالت:

"أما استغربت أنه اهتم فجأة بتناول صنف لا يقربه عادة؟"

لم أفهم ما تريد الوصول إليه بكلامها، غمزتني بعين وأمرت حارسين من القصر بحملي داخل الكرسي المدولب نحو الغرفة. كدت أن أرفض حتى أقبل شادي بنفسه يأمر الحارسين بالانصراف. نظر نحو أخته ففهمت على الفور مغزى نظرتة.. أن تختفي هي أيضا من مرأى عينيه، ثم انحنى نحوي ليحملني على السلام نحو غرفته.

ومع أنه اعتاد حملي طيلة هذا الأسبوع صعودا ونزولا، متجاهلا سخط أمه كلما رأتنا، إلا أنني لم أعتد ذلك بنفسي، فكلما حملني شعرت بقلبي يثب خارج ضلوعي وبالأحمرار يكسو خدودي، وخصوصا عندما تتغلغل رائحته الزكية في أنفي، أو أشعر بضربات قلبه القوية تخفق ليستجيب قلبي لها بضربات أشد قوة.

قبل أن يرفعني عن الكرسي وقع نظره على الصحن الموضوع في حجري، فازداد احمرار وجهي لأبدأ بالتلعثم أمامه كالغبية:

"أنت.. لم.. تتناول.. طعا.. طعامك.. لذا.. قمت.."

همس لي كلمة واحدة أجمتني وأجبرتني على السكوت فقال:

"شكرا"

تماثلت رجلي للشفاء، أخيرا أصبحت حرة أستطيع المشي عليها، لكن عمي حذرني من المشي لفترات طويلة أو التسبب في أي إرهاق لها. كان شادي متأخرا في صفقة عمل فاصطحبني عمي إلى الطبيب لأقوم بفك الجبيرة والاطمئنان إلى صحة رجلي.

عدت من عيادة الطبيب إلى البيت مع عمي سعيدة بشفاء رجلي ومتلهفة لألقي الخبر السعيد على مايا وديمة، وحينما وصلت مع عمي إلى الصالة فوجئت بملامح قلق وارتياب ظاهرة على ديمة ومايا وهما جالستان على الأريكة الكبيرة.. تقدمنا أكثر فرأينا السيدة انتصار واقفة تنظر إلينا وعلى محياها ابتسامة مكر خبيثة، وقبل أن نسأل عم يدور حولهم وقعت عيني على ظهر ذلك الرجل الذي يجلس مقابل مايا وديمة، ثم التفت إلى الخلف فتلاقت نظرانا فشحب وجهي وشعرت بالعالم ينهار

من حوالي.. وكأن ساقى التى شففت أصبحت رخوة كالعجين، فقدت القدرة على التفكير والتنفس، سمعت صدى صوت عمى يتساءل بريبة مع دخول شادى إلى البيت من بعدنا:
" من هذا يا انتصار؟ "

فدوى صدى صوتها الرنان فى أذنى وهى تجيب عمى بمكر وعيناها مثبتتان على شادى القادم نحونا:
" زوجى أعرفك إلى السيد منصور سامح... والد ابنتنا إيلينا "

الفصل الرابع والثلاثون

تقدمت السيدة انتصار حتى أصبحت على مقربة من شادي وربتت على كتفه وقالت:
" أذكر أنها لمحت سابقا إلى أنها يتيمة وفي زفافها نطق عمها بكلمة شغلت بالي، قال أن والدها مفقود
مع ذلك اخترتم تجاهل هذه الحقيقة "

التفتت نحو زوجها الذي كان يحاول استيعاب الصدمة التي تشهدها عيناه، فاتبعت ابتسامة المكر
على شفيتها ثم تركت ابنها لتتجه نحو ي، وقالت بخبث واضح في نبرتها:
" ألن ترحبي بوالدك يا إيلينا؟! عيب عليك أن تقفي هكذا بلا حراك؟ "

نظر الرجل في عيني ملهوفاً، أعلم أنني كنت في الخامسة عندما غادر حياتنا لكنني ما زلت أذكر
ملاحظته كأنها محفورة في ذاكرتي، هو ذاته لكن مع بعض التجاعيد التي تتخلل وجهه الأبيض وشعره
شاب عن ذي قبل، تراجعت إلى الخلف وأشحت بصري بعيداً عنه وقلت محتدة بصوت خافت:
" أنا لا أب لدي! "

لم يحرك الرجل ساكناً كأنه يعلم بردة فعلي مسبقاً، أمالت السيدة انتصار رأسها تصطنع الأسى
وقالت :

" آه يا ابنتي! لا تخافي منه فهو لن يؤذيك! لقد أقلع عن تلك العادة السيئة! "

أخيراً تمكن عمي من إيجاد صوته الضائع ليسأل متردداً:

" أقلع... عن ماذا؟ "

شهقت متصنعة وغطت فمها ونظرت إلى شادي المذهول، تمثل دور المصدومة قائلة:

" أخفت عنك زوجتك حقيقة والدها؟ ألم تقل لك أنها عاشت تحت سقف واحد مع مدمن

مخدرات؟! "

شحب وجه الجميع بمن فيهم أنا، ألقى أبي نظره أرضاً محرّجا متضايقا من موقف السيدة انتصار.
استجمعت شجاعتي أخيرا وصرخت عاليا:

" كفى! هذا الرجل لا يستحق أن يكون أبا، لو سمحت غادر ولا تحاول التواصل معي أبداً"
بكى الرجل وهتف مترجيا:

" إيلينا ابنتي! أرجوك اسمعيني!"

ركضت مبتعدة من أمامه متوجهة نحو السلام وأنا أصارع دموعي وأغطي أذني بيدي، تجاهلت ندائه المتكرر لي حتى وصلت الغرفة وأوصدت الباب على نفسي. هبطت أرضاً أحتضن ساقي إلى صدري ودفنت رأسي على ركبتي وشرعت في البكاء بصمت مرير.
أفقت على صداع رأسي من شدة ما بكيت، نهضت جالسة لأكتشف أنني على أريكتي، التفت من حولي ففوجئت برؤية شادي واقفاً متكئا بكتفه على باب خزانة الملابس وهو يطالعني بنظراته، حك جسر أنفه بإصبعه ثم تقدم نحوي بخطى متمهلة.

حافظت على سكوتي لئلا أتكلم بشيء أندم عليه. اتكأ على مسند الأريكة جالسا ونظر إلي، تنهد قليلا ثم سألني:

" لماذا لم تبوح بشيء عن والدك سابقاً؟ ما الهدف من إخفائك سرّاً كهذا؟"
أجبتة محرّجة:

" لأن حقيقة كونه مدمن مخدرات جلب العار إلينا وبسببه..... وبسببه حلت المصائب علينا"
أذرفت عيني الدموع عندما بدأ خيط من شبح ذكرياتي يتسلل إلى ذاكرتي، تذكرت أمي التي أنهكتها ضرباته المؤلمة لتقع مغشيا عليها على الأرض القاسية، وليان وهي تحوطني بجسدها تدرأ عني ضرباته بحزام بنطاله ليتسلخ جلدها ويمتلئ جسدها الصغير بالكدمات في كل مكان.
تذكرت عندما كانت ليان توصلد الباب علي لئلا يتمكن من الوصول إلي، وقلبي الذي لا يهدأ عن الخفقان من شدة الذعر وأنا أسمع صرخات أمي وأختي تتعذبان بين يديه.
بكيت بمرارة وقلت:

" جعلنا نتجرع المر، وعشنا طفولة قاهرة مريرة مليئة بالدماء والوحشية، لولا ليان التي كانت

تحميني منه لكنت الآن.... لا أدري ربما ميتة أو في مصح عقلي!"

تجرأ على الاقتراب أكثر وجلس إلى جانبي، نظر أمامه وقال متسائلاً:

" ماذا حصل؟ كيف.... تخلصتم منه؟"

أجبت:

" لا أعرف الكثير لأنني كنت طفلة صغيرة حينها، لكنني فهمت أن خالي سعى لجلسات طلاق أمي

ثم أخذنا إلى بيت جدي، أما أبي فقبضت عليه السلطات لكنهم أخذوه إلى مشفى بسبب جرعة

زائدة كادت تودي بحياته ولم أعلم عنه شيئاً منذ ذلك الحين غير أنه وصل إلى مسامعي مرة هروبه

من المشفى وبحثهم عنه"

قطبت حاجبيّ وزممت شفتي وقلت وأنا أصارع دموعي:

" عندما علمت بهروبه ازدادت كوابيسي وأنا ألمحه في منامي ينقض علينا بوحشية، فلم أكن أنام إلا

في حضن ليان.... أما أمي فكانت تغيب عنا معظم الوقت من أجل جلسات علاج الاكتئاب التي لم

تتمكن من متابعتها بسبب تراكم الديون على خالي بعد إفلاس الشركة التي كان يعمل فيها"

ثم استسلمت لدموعي التي غطت مجال رؤيتي، سمحت لنفسي بإخراج ذاك الكبت من داخلي،

علما مني أنني سأنفجر إذا لم أبكي.

فوجئت بشادي يمد ذراعه نحو كتفي ويحتضني إلى صدره لأبكي فيه، دفنت رأسي في صدره

وأكملت نحبي المتواصل دون انقطاع، وفي رأسي مئة سؤال وسؤال، أين وجدته السيدة انتصار؟

كيف وجدته؟ كيف أحضرته؟ هل ما زال يتعاطى؟ أين كان كل هذه السنين؟ وغيرها وغيرها

الكثير فكاد رأسي يتفجر.

نهض شادي يرفعي من كف يدي وقال:

" لا يصح أن تبكي هكذا عليك مواجهته لتنتهي تلك الحلقة المفرغة من حياتك، تعالي معي إلى

الطابق السفلي وكي شيئاً يمدك بالطاقة، فأنت أصلا لا تشاركيننا في الفطور"

حاولت أن أرفض بكل الوسائل لكنه أجبرني على النزول معه، عندما وصلنا وجدت الجميع بمن فيهم أمجد جالسين إلى المائدة في انتظارنا، تراءى إلى مسامعي صراخ تلك الأفعى تقول:
" كيف لك أن تبقيا في بيتك بعد علمك بحقيقة والدها القذرة! ستجلب العار للعائلة بتاريخها
الوسخ"

فصرخ فيها عمي محتدًا:

" لا ذنب لها عاشت قهرا مع رجل سيء يكفيها ما كابدته نحن الآن عائلتها وعلينا مساندتها"
ثم تدخل أمجد قائلاً:

" أنا لم أر منها أي تصرف يشين العائلة على العكس فصورتها مهذبة أمام الناس"
فقاطعته بحدة:

" وما أدراك أنت؟ كيف عاشت تلك العائلة ووقفت على قدميها طوال هذه السنين؟ هل تريد أن
تقنعني أنهم لم يلجأوا إلى الوسائل الرخيصة؟ أمهما ربما فعلت ذلك"

وقبل أن يجيبها أحد تدخلت أصرخ مدافعة عن أخلاقنا وتربيتنا بهجومي عليها قائلة:

" لا أسمح لك أن تتحدثي عن أمي تلك التي كابدت مر الحياة لتنسينا همومنا... لا تتحدثي عنها
بالسوء أنا أفتخر بتربيتها وتربية جدي لنا، كان يكلف خالي بأخذنا إلى دور تحفيظ القرآن وركز على
تعليمنا الصلاة بالرغم من مرضه.. عودنا الرجوع إلى الله والثقة به مهما جرى معنا ولولا هذه القيمة
في حياتي لما نجوت من ذلك القدر الذي كاد يهشم عفتي، نعم تربيت فقيرة، تراكمت علينا الديون
اضطررنا للعمل في سن صغيرة، لكننا حافظنا على أعلى ما نملك أخلاقنا وعقيدتنا وهذا الشيء
الوحيد الذي أنهارك عن الهتك به!!! عايريني في شيء آخر لا يهمني المهم أنني شريفة وابنة شريفة
غصبا عن أنفك!!!"

سكت الجميع مذهولين بردي القاسي تجاهها وبعدهم اكتراثي لمكانتها، هي أوصلتني إلى هذا الحال
بقلة أدبها وطول لسانها وأخلاقها المتردية.

وثبت من كرسيها غاضبة وقد احمر وجهها وصرخت بحنق:

" أرأيت كيف تكلمني هذه الوقحة يا هشام؟! عليك أن تطلقها من ابنك الآن وفي هذه اللحظة!
شادي طلقها قبل أن تفضحنا بها ضيها القدر!"

نظر شادي نحوي وكان متكئا على الحائط بجانب الباب، كان هادئا كعادته غامض الملامح ثم نظر
نحو أمه وأجاب محافظا على نبرته الهادئة:

" نعم عاشت طفولة قدرة مخجلة..."

شعرت بغصة فوجهت نظري نحو الأرض بخزي ثم أضاف:
" غير أنني لن أطلقها"

رفعت رأسي متفاجئة أنظر إليه فوجدته يتفحص ملامحي واستطرد:

" هذا ليس سببا يدعو إلى الطلاق، فما حصل معها لم يكن بيدها صنع شيء له"

ثم أمسك بيدي وسار بي متجها إلى الخارج، نادته السيدة انتصار بصوت صارخ مبحوح ليعود لكنه
تجاهلها هذه المرة وتابع مسيره، أما والده فكان مذهولا من إجابة ابنه ولم يعلق بشيء.

اصطحبني إلى مطعم قريب لتناول وجبة الغداء التي أمست الآن عشاء، وأصر علي أن أتناول

طعامي فحسب قوله أنا هزيلة كثيرا وعلي أن أأني بعض الشحوم على عظمي، ثم مازحني بقوله:

" كلي حتى يبقى شعرك صحيحا فإذا غدوت صلعاء فهذا سبب لأطلقك"

تمكن بمزحته هذه أن يزرع ابتسامة على شفتي رغم همي، وحاولت إرغام نفسي على تناول لقيمات
تكفيني لأنهنض بجسدي.

ليان

أفقت من غفوتي بعد استحمامي، كنت قد غفوت جالسة متكئة على ظهر السرير بينما كنت أقلب
شاشة هاتفي المحمول في صور يزن أشعر باشتياق إليه، كنت أصده ولا أكلمه إلا عند الضرورة ولم
يحصل مرة خلال هذين الأسبوعين الجهنميين أن اقترب مني أو شاركته في النوم على الفراش ذاته.

خشيت أن يخلق ذلك نوعاً من الفتور في علاقتنا، ثم بدأ إحساسي يفيق وشعرت بثقل على فخذي، نظرت إلى الأسفل فلمحت رأسه نائماً في حجري.

دعكت عيني جيداً لأتأكد مما أراه فكان ما لمحتة صحيحاً، كان نائماً، جسده على السرير ورأسه في حجري ويبدو أنه لم يقم حتى بتبديل ملابسه فقميصه هذا هو ذاته الذي خرج به إلى المدرسة صباح اليوم.

ترددت كثيراً في مدى صوب شعره لأتحمسه، يا إلهي كم اشتقت لتمير أصابعي في خصلات شعره الناعمة، وذاك الإحساس اللطيف الذي يتركه في قلبي! أخيراً تجرأت وأخذت أداعب شعره في حجري وأنظر إلى وجهه الوسيم، مررت أصابع يدي في لحيته القصيرة لأشعر بخشونتها فينمو في قلبي اشتياقاً للمسها على رقبتني حينما كان ذهنه واعياً ويقبلني بشغف، سقطت دمعة حائرة من عيني على خده فأخذت أمسح موضعها بإبهامي.

بدأت عيناه تجفان وتستعدان للاستيقاظ، فتح عينيه لتتلاقى نظراتنا. تأمل كل منا في ملامح الآخر، ثم رفع رأسه ونهض عن حجري لأشعر بالبرد يلفح أوصالي، أخذ نفساً عميقاً وقال بصوت ثقيل من أثر نومه:

" سأدخل كي أستحم... "

ثم سكت قليلاً ونهض متجهاً نحو الحمام لكنه توقف في الطريق، ثم قال لي دون أن يستدير نحوي: " اشتقت إليك! أعلم أنك لن تسامحيني بسهولة.... لن أضع اللوم إلا على نفسي، كنت أحمق ولم أعاملك باحترام كما يجب، كان علي أن أثق بك... لا يهمني مع من تخرجين أو تتحدثين ما يهمني أنك تحبينني ولن تفكري يوماً في خيانتني وأنا متأكد من ذلك.... أنا أحبك يا ليان!"

ثم دخل إلى الحمام مغلقاً الباب خلفه. حاولت التقاط أنفاسي ودفنت وجهي بكفي يدي أحارب دموعي لكي لا تخونني وقلبي يصرخ من الداخل: أحبك أنا أيضاً يا يزن!
جلست أصارع عواطفني في ما علي فعله، ماذا أفعل؟ لقد أخطأ بحقي نعم لكنه نادى، ثم أنه كان تحت تأثير العقار، يا رب ماذا أفعل؟

أخذت أجوب الغرفة جيئة وذهابا وأنا أفكر في حل لأتعامل مع الأمور من حولي، ثم توصلت إلى قرار.

فتحت الباب وتوجهت إلى الداخل، رأيت خياله من خلف الستار يستحم تحت المياه الدافئة، كست الحمرة خدودي على الفور مما أنا مقدمة على فعله، أغمضت عيني وأخذت نفسا عميقا وقفزت داخل الحوض بملابسي ألصقت صدري ووجهي على ظهره المبتل وطوقته من الخلف بذراعي، أجفله سلوكي قليلا، بحيث شهق متفاجئا، ثم بعد تردد دام وقتا قال أخيرا:

" ليان ماذا... ماذا تفعلين؟ لقد بللت ملابسك "

أسندت جيني على ظهره وقلت أصارع حيائي:

" أنا ... أنا أحبك يزن.... أيها الأحمق أحبك أنت لا بهاء! ما حصل في الحديقة ذاك اليوم.. "

قاطعني فجأة قائلا:

" لا تقولي.... حقا أنا أصدق براءتك ما كان يجدر بي الشك بك من الأساس.... ما حصل في

الحديقة حصل وانتهى، صفحة مطوية بالنسبة لي "

بدأت أبكي دون وعي مني وقلت مصرة:

" سأقول لك شيئا واحدا فقط.... جلوسي معه في الحديقة فتح إدراكي إلى أن انفصالي عن بهاء كان

سببا في أن أعشق ذاك الرجل الذي هيمن على كياني.... أحبك كما لم أشعر تجاه أحد من قبل "

شعرت بظهره وهو يحاول أخذ نفس وإخراجه ببطء ثم سمعت صوت ضحكة صغيرة خرجت من

فمه، التفت برأسه إلى الخلف ورفعت رأسي للأعلى وتلاقت نظراتنا، هو بعينه الزرقاوين اللامعتين

وأنا بعيني اللامعتين ثم شعرت بالماء الدافئ يبلل وجهي فأنزلت رأسي صوب ظهره ألتقط أنفاسي

ثم ضحك وقال:

" غبية بللت ملابسك، كيف ستخرجين من الحوض الآن؟ "

ثم أغلق الصنبور ومد ذراعه ليلتقط منشفته ولفها حول خاصرته بينما أراقبه بعيني بخجل ثم توجه

نحو خزانة وأخرج منها رداء للحمام ألقاه علي وساعدني على الخروج من الحوض.

ارتديت ملابس نظيفة جافة وجلست أجفف شعري أمام المرأة في الحمام بينما يزن يرتدي ملابسه في الغرفة. حدثت نفسي قائلة: هل حقا قفزت نحوه وهو يستحم؟ ما الذي دهاني؟ لا بد أنني جننت! جيد أنه لم يستغل الموقف كعادته... أم أنه خائف من لمسي مجددا؟ لا! معقول؟ لا لا مستحيل! عدت إليه في الغرفة، كان يصفف شعره الحريري أمام المرأة، لمح انعكاس صورتي فنظر إلي ثم قال: "سأتركك وحدك الآن حتى تأخذي راحتك وتكملي غفوتك."

ازدردت ريقى، وقلت معترضة:

"لماذا؟ هل لديك عمل؟"

زم شفتيه ينظر في الفراغ وقال:

"لا! اعتذر شادي عن موعد التمارين اليوم لذا أنا متفرغ"

- "إذن نم إلى جانبي... أعني ابقى عندي"

طأطأت رأسي إلى الأسفل بحياء شديد، ويبدو أنه لم يتوقع طلبي هذا فأخذ يحك رقبتة من الخلف مرتبكا، تقدمت نحوه ومددت يدي وأمسكت بيده الأخرى وقلت متوسلة:

"أرجوك.. ابقى"

هز رأسه مرتبكا ثم صعد على السرير بجانبي، استلقيت على جنبي الأيمن بينما هو إلى يساري ثم طلبت منه بصوت محرج ضعيف:

"طوقني بذراعك"

فامتدت ذراعه من تحت ذراعي وطوق وسطي بها، وأراح كفه أمام صدري نظرت إلى يده، اشتقت لملسها ومشاكستها.. وقعت عيني على خاتم الزواج بإصبعه يلتف حوله بشكل جميل .

استدرت على ظهري نحوه لأجده يحدق بي بنظرة غريبة، وضعت كف يدي على خده وقربت رأسه مني وطبعت قبلة على شفتيه بنعومة فشعرت بشفتيه ترتجفان، ثم طبعت قبلة على رقبتة وأنا أشعر بأنفاسه تتناقل مددت يدي لأرفع عنه قميصه القطني لكنه انتفض فجأة ونهض عن السرير.

جلست أنظر إليه بتعجب، فقال:

" ليان ... أرجوك فقط ... نامي "

صارعت خجلي أخيرا وقلت:

" لكنني أريدك! "

دفن رأسه بين كفيه وزفر بألم ثم قال يتحاشى النظر إلي:

" ليس الآن "

- " رجاء! "

- " ليان! ... كيف لي أن ألمسك بعد غلطتي معك؟! "

بدأت أبكي من جديد وقلت أتوسله:

" أرجوك يا زين لا تفعل هذا بي! أنا مستعدة لطي كل ما حصل والبدء من جديد.. لكن عليك أن

تساعدني. هل تظن أنني تخطيت خوفي؟ بالطبع أنا خائفة من تسليم نفسي هكذا لك من جديد لكن

نحتاج أن نتخطى هذه العقبة لتعود حياتنا كما كانت "

قال بألم مغمضا عينيه:

" تشعرين بالخوف مني؟ "

كلما تذكرت التجربة المريرة التي خضتها معه يعود بي الخوف ليطمئن قلبي... لكنني تعبت أريد أن

أكمل حياتي معه دون منغصات، ولحل هذه العقبة علينا أن نواجهها الآن دون تأجيل.

اقترب مني بحذر وجلس على السرير بجانبني ومد يده وبدأ يتحسس وجهي ومرر أصابعه على

شفتي ثم بإصبعه السبابة رسم خطا وهميا على رقبتني فبدأت حواجزي تخور أمام سحره، أكمل تمرير

إصبعه مارا بصدرتي وبطني حتى وصل إلى أسفل بطني وتوقف ونظر نحوي ثم قال متسائلا:

" هل ما زلت تتألمين؟ "

هزرت رأسي نفيا بحياء شديد، ثم تعلق بطرف قميصي الصوفي ومد يده داخله يتحسس بشرتي

لشعل أصابعه جمرات في كل موضع لمسه، اقتربت منه وطوقته بقوة بذراعي وقبلته بحب وأنا

أذرف الدموع اشتياقا له، فضمني بقوة إلى صدره وشعرت بجسده يشتعل رغبة وهمس في أذني:

" أحبك يا لؤلؤتي "

أفقت على صوت رنين هاتفي الذي لم يهدأ، مددت يدي نحوه على المنضدة ونظرت إلى شاشته فوجدت الساعة قد تعدت العاشرة ليلاً، تفحصت قائمة الاتصال لأجد مكالمات فائتة جميعها من إيلينا فأصابني الجزع، هل يعقل أنها في ورطة؟ أو أن تلك الوضعية حماتها آذتها بشيء؟ ضغطت على زر الاتصال، وفي ذات اللحظة التي وضعت فيها هاتفي على أذني سمعت صراخاً وجدالاً يأتي من خارج الغرفة، نهض يزن من جانبي على صوت الشجار ونظر إلي متعجباً وسألني عم يدور في الخارج، وقبل أن أجيب استقبلت إيلينا المكالمة من الطرف الآخر سمعت صوتها يقول:

" ليان اسمعيني! الموضوع مهم! "

في ذات اللحظة سمعت صوت عمتي تصرخ قائلة:

" قلت لك اتركهما بحالهما!! ألا تفهم!! لا يجوز لك التعدي على خصوصيتهما!!! "

لم أعد أسمع صوت إيلينا جيداً من الصراخ المتبادل بين والدي يزن من خارج الغرفة، فنهض يزن والتقط بنطاله وأخذ يرتديه وهو ينظر نحوي مخاطباً لي:

" ابق هنا ولا تتحركي ريثما أفهم ما يجري في الخارج "

فتح الباب وأطل خارجاً فعلت الأصوات أكثر كان والده محتدماً بشدة ولم أفهم سبب غضبه، سمعت إيلينا تناديني:

" ليان! ردي ليان! هل سمعت ما قلته لك؟ "

لم أعرف أين أوجه مسامعي؛ إلى إيلينا أم إلى ما يدور خارج غرفتي؟

فجأة دخل عمي الغرفة يفتحها، كنت أرثدي قميص نوم مكشوف الصدر فتعلقت بلحافي ورفعته أغطي جسدي مصعوقة بفعلته، انقض نحوي كالهمني وشدني من ذراعي ليخرجني من السرير فوقع هاتفي من يدي وأخذت أصرخ به ليتركني، فهاجمه ابنه من الخلف وجذبه من وسطه ودفعه أمامه وصرخ به:

" هل فقدت عقلك؟! تعديت حرمة زوجتي! ألا تراها شبه عارية اخرج من هنا!!"
فصرخ قائلاً بحدة تزامنا مع دخول عمتي الغرفة تحاول جذبته نحو الخارج وعيناها تنهمر بالدموع:
" هذه الحثالة لا تستحق أن تكون زوجة ابني الوحيد!! طلقها الآن قبل أن أفقد أعصابي!!"
فصرخ يزن محتدًا:

" بماذا تهذي؟ اخرج من هنا!!"

فصاح بدوره وقد شعرت أنه سيصاب بذبحة صدرية من شدة انفعاله:

" ابنة مدمني المخدرات والفسق ليست أهلاً للارتباط بورثي وقرّة عيني!!"

أخذت زوجته تستصرخه لأن يهدأ ويخرج أما أنا فكنت أحاول استيعاب صدمتي من عبارته التي وصفني بها، ماذا يقصد بابنة مدمني المخدرات؟! هل يعقل أنه... قطع يزن أفكاره بسؤال والده:

" عم تتكلم أنا لا أفهم شيئاً"

نظر نحوه والده بسخط وقال متهكماً:

" ألم تقل بنت الشرف هذه؟! ألم تقل لك أن والدها على قيد الحياة ومدمن مخدرات؟!"

شعرت بالدنيا تدور من حولي وكأن تلك الصاعقة أكبر من أن يستطيع عقلي التعامل معها، وضعت يدي على صدري أحاول التنفس ثم أظلمت الدنيا فجأة ولم أعد أسمع أو أرى شيئاً من حولي.....
أفقت أشعر ببلل على وجهي لأجد يزن وأمه فوق رأسي تبلله بالماء، علا صوتها في النحيب وهي تقول:

" آه يا ابنتي! أخفتني عليك!"

حاولت النهوض جالسة وأخذت أدلك صدغي من جراح الصداع العنيف الذي أشعر به ثم تساءلت بصوت متحشرج:

" ماذا حصل؟"

ليرد علي يزن بنبرة جامدة:

" هل صحيح ما قالته السيدة انتصار لأبي؟ هل والدك مدمن مخدرات؟"

توقفت عن دعك رأسي ونظرت نحوه تعتريني الصدمة ولم أدر بما أردد، حتى قلت في النهاية:
" أبي ميت "

فمد يده بصورة أمامي وأمرني بالقاء نظرة عليها، فسحبته من يده وعيني لا تفارق نظراته المحتدة، رأيت صورة لرجل خمسيني أبيض البشرة بشعر شائب وعينين هزيلتين، كان يشبه في معاملة معلم أبي كثيرا، تراءت إلى مخيلتي فجأة ضربات السوط على ظهري ودعس الأقدام على بطني، فألقيت الصورة من يدي وغطيت وجهي بينما أردد بانفعال شديد:

" لا لا لا لا! لا يمكن، لا هذا كابوس أنا نائمة أيقظوني لا!!!!!!!"

ثم بدأت أصرخ بشكل هستيري فأنقض علي يزن يهدئي، نظرت إليه فلم أستطع بيان ملامحه من الدموع التي غطت مجال رؤيتي ثم صرخت متوسلة:

" قل لي أن هذا مقلب وضع من مقالب والدك! رجاء يزن قل لي أن هذه الصورة كاذبة لا تقل لي أنه على قيد الحياة!!! "

ثم اشتد صراخي وأنا أصبح:

" أنا ليس لي أب!! أبي ميت في قلبي!! لا أريده أن يعود أبعدوه عني!!! "

أخذ يحتضني ويمسح على ظهري كي أهدأ، لكنني كنت منفعة بشدة فدفعته بعيدا عني ونهضت عن السرير أنقض نحو الباب، فأمسكني كلاهما يصرخان بي أن أهدأ، والتقط يزن رداء طويلا وألبسني إياه رغما عني فوق لباسي غير المحتشم، ثم استطعت النفاذ من قبضتيهما وخرجت مهرولة أبحث عن والده، فتبعاني من خلفي.

رأيت نورا يأتي من نهاية الرواق فعرفت أنه في مكتبه واتجهت أركض صوبه ويزن وأمه يهتفان لي لأتوقف، وصلت مكتبه تزامنا مع يزن الذي حاول جذبي من وسطي لئلا أتواجه مع أبيه قبل أن يفهم الموضوع برمته مني.

رفع والده رأسه عن شاشة الحاسوب على مكتبه لتلتقي نظراتنا المتحدية، ثم نهض عن كرسية والتف حول مكتبه يطالعني باحتقار، هاجمته بقولي قبل أن أعطيه المجال ليتكلم:

" من أين أحضرت تلك الصورة؟ "

نظر إلي متفحصاً من رأسي إلى أخمص قدمي ورفع حاجبيه مذهولاً لوهلة ثم قال:

" عرفت لما ابني هائم بك وقد ران على قلبه هوسه بك! "

نظرت إلى نفسي جيداً فرأيت ردائي مفتوحاً وقد تكشف صدري وساقاي البيضاوان أمامه فشعرت

بالخجل الشديد واحتضنت الرداء أعطي به مفاتي، ألقى بصره نحوي محتداً من جديد وقال:

" السيدة انتصار والدة شادي لا بد أنك تعرفينها، قامت بتوكيل متحرر خاص للبحث عن والدك

حتى وجدته يعمل في مصنع تغليف.... فهو ليس ميتاً كما ذكرت حضرتك.... كما اكتشفت أنه

مدمن مخدرات سابق "

شعرت بيزن ينتفض خلفي، طأطأت رأسي إلى الأسفل أصارع دمعتي، ثم قلت:

" لا يهمني إذا كان على قيد الحياة جسداً لأنه ميت في قلبي "

ضحك والده باستهزاء وقال:

" يكفيني عارا ما ألحقته من مصائب لنا، والآن ختمتها بقذارة ماضيك الشنيع!!! ابنة مدمن

مخدرات وأم مغتصبة وتعترزين بنفسك لتوهمي من حولك أنك بنت شرفاء! "

شحب وجهي وجحظت عياني وأنا أطلعه مصدومة، ثم اتسعت ابتسامته النكراء وقال:

" لا يا ليان! السيدة انتصار عندما تبحث في شيء لا تترك التفاصيل المهمة تضيع منها، أليس هذا

سبب طلاق أمك؟! تعرضها للاعتداء على أيدي الرجال الذين كان والدك يدين لهم بالمال؟ "

شعرت أنني أفقد توازني للحظة فأسندت يدي على دعامة الباب لأحمي جسدي من الوقوع أرضاً،

أحسست أنني سأتقيماً مما يدور حولي، حاولت صد الذكريات من هجومها نحو مخيلتي حتى لا

أنهار، لم أجرؤ حتى على النظر في وجه يزن الذي شعرت أنه يكاد يغشى عليه من الصدمة.

وجه أنظاره نحو ابنه وقال بجفاء محتداً:

" اليوم قبل الغد ستطلقها، لن تبقى دقيقة في بيتي هذه القدرة باضيها المتعفن! "

سمعت زوجته أخيراً تبكي وتقول:

" لماذا أنت مصر على تصرفاتك المشينة؟ لماذا تصر على التسبب بالتعاسة لابنك! اتركه يعيش سعيداً "

فقال صارخاً بها:

" أتركه يعيش في وهم! أتركه مغشوشاً بحقيقة هذه السافلة؟! لن أكون أباً إذا لم أحم ابني منها!! " ثم خرج من المكتب وجذب ابنه الذي كان في عالم آخر من الدهول عما يجري حوله وابتعد به نحو الرواق المظلم، اقتربت مني عمتي واحتضنت كتفي من الخلف بذراعيها وأخذت تبكي فبللت دموعها رقبتى وقالت:

" ساححيني يا ابنتي حاولت حمايتك بكل الوسائل التي أوتيت لي، لكن الأمور خرجت عن سيطرتي ساححيني "

وما هي إلا بضع دقائق حتى عاد يزن باتجاهنا، لمحت طيفه يقبل في الظلام، لم تكن معاملته واضحة بعد ثم استطعت تمييزها، كان يحمل ملامح مصدومة.. مذعورة.. كئيبة. رفع رأسه لينظر في عيني ثم ابتلع ريقه بصعوبة، وقال والدموع تنساب من مقلتيه:

" أنت ... طالق! "

الفصل الخامس والثلاثون

أصررت على شادي أن يصحبني إلى بيت أمي بعد العشاء، بحجة أن أسأها إذا كانت تعلم شيئاً عن عودة والدي، لكن هناك سبباً آخر لم أبح به، فأنا لم أرد التواجه مع أمه الآن، لن تهدأ حتى تأخذ بثأرها مني وأنا أعلم تماماً أنني لست ندا لها.

تفاجأت به ينضم إلي في زيارتي لها، فتحت الباب واستقبلتنا بمحياها البسم وقالت:

"حببتي إيلينا مر وقت لم أرك فيه، اشتقت إليك يا ابنتي!"

احتضنتني باشتياق، تبادلنا مع شادي نظرات القلق، يبدو أنها لا تعلم شيئاً عن أبي بعد.

استضافتنا في غرفة المعيشة وسألتنا عن أحوالنا وعشوائيات الحياة، لكن التوتر كان بادياً جداً على محياي ولم أستطع إخفاءه، فنظرت نحوي بريية وتساءلت:

"صغيرتي لا تبدين بخير هل ثمة شيء يشغل بالك؟"

لم أعرف بم أجيبها فهربت من عينيها لأنظر نحو شادي الذي بدا على محياها القلق أيضاً ثم تذكرت فجأة شيئاً مهماً، ليان!

هل تعلم ليان شيئاً بشأن والدي؟ السيدة انتصاراً بلغتني في وقت سابق عن علاقتهم الوثيقة مع السيد هاني، هل يعقل أن تقول له شيئاً؟ نعم بالتأكيد ستقول له.

طلبت من أمي أن تمهلني لحظات ودخلت إلى غرفتنا القديمة لأحاول الاتصال بليان، قمت بالرنين أول مرة.. ثاني مرة.. وثالثة وعاشرة وهي لا تستجيب! وعندما بدأت أفقد الأمل اتصلت بي أخيراً، شعرت بعرشة في أصابعي قبل أن أستطيع الرد. وقبل أن أعطيها مجالاً لترد علي صرخت بها:

"ليان اسمعيني! الموضوع مهم!"

سمعت حولها صراخاً ولكنني لم أتبين معاملة، فما الشك لدي بأن سبب الصراخ هو موضوع والدي فقلت بسرعة:

" ليان اسمعيني! سيصدمك هذا الخبر لكن يجب أن تعلمي! السيدة انتصار وجدت أبي وقد تحدث لك مشكلة... ليان! ليان! ردي ليان! هل سمعت ما قلته لك؟ ليان "

لم تستجب لي كما أردت، ثم سمعت جدالا يعلو حولها تلاها انتهاء المكالمة فقطع الخط فجأة، حاولت الاتصال بها ثانية لكن هاتفها لا يستجيب.

فتحت أمي الباب علي لتطمئن إلى ما أخبئه وقالت بنبرة قلقة:

" إيلينا ماذا يجري معك؟ من بداية جلوسك عندي أحسست بخطب فيك ما الأمر؟ "

أمسكت بيدها أهدئها في حين أنني أحتاج إلى من يهدئني، ثم طلبت منها أن نعد كأسا من الشاي حتى أريح أعصابها أولا قبل أن أصدمها بالخبر المفجع.

جلسنا نشاهد التلفاز بصمت بعد خلو مجلسنا من الحديث؛ فشادي ليس متحدثا بطبعه مثل يزن، وأنا أعيش الآن في دوامة عقدت لساني وذهنني عن أي كلام، وكلما حاولت المبادرة في إخبار أمي شيئا أجبني عند اللحظة الأخيرة وألتزم الصمت.

نظر شادي إلى الساعة بضيق وقد اقتربت من منتصف الليل وألقى إلي نظرة منزعجة كأنه يطلب

مني الرحيل، فنهضت لأودع أمي وقد قررت في النهاية ألا أطلعها على شيء حتى أعلم كيف

أصرف، وعندما اقتربنا من الباب سمعنا قرع الجرس، فتسمرنا في مواضعنا وأنا على علم تام بأن شادي يظن أن من وراء الباب مثل ظني أنا.

تقدمت أمي نحو الباب لتفتحه بتوجس فهي لم تتوقع زيارة من أحد في مثل هذا الوقت، وهنا كانت الصاعقة...

فوجئنا جميعا بوقوف ليان خلف الباب، تحمل خلفها حقيبة كبيرة، وعلى محياها علامات الاكتئاب كانت عيناها منتفختان ووجهها شاحب وبدا عليها الهزال.

استقبلتها أمي ونظرت خارجا متسائلة:

" أين يزن؟ ألم يأت معك؟ "

فشهقت ليان بألم شعرت بأنه غرز عميقا في صدرها وقالت:

" جئت وحدي ... يزن ... طلقني! "

صرخت صرخة مكتومة أعطي فمي من الصعقة أما أمي فوضعت يدها على قلبها وكادت تفقد توازنها، سألتها شادي مضطرباً:

" ماذا قلت؟ ماذا حصل؟ "

رفعت بصرها نحوي وقالت بإنهاك:

" طلقني بسبب ذلك المدعو منصور أقسم أنني إذا رأيته لأقتلنه بيدي هاتين. آآآه!! ألم يكفني ما أذاقنيه من مُرّ طيلة سنين حياتي؟ والآن يتسبب في طلاقني من الرجل الذي أحببت! "

حاولت أن تسير إلى الأمام فكانت تترنح في مشيها، حتى فقدت الوعي وسقطت أرضاً، فصرخنا جميعنا بخوف وركضنا صوبها. وضع شادي رأسها في حجري وأخذ يضربها على وجهها لتستعيد الوعي، ثم طلب من أمي ماء وأخذ يبلل وجهها لربما عاد إليها وعيها، ولما لم نجد منها رداً نهضت مستسلمة وقام بالاتصال بالإسعاف....

طمأننا الطبيب إلى أن وظائفها الحيوية تعمل بشكل سليم، وأنها تعرضت لصدمة كبيرة وستتحسن حالها عند زوال أثر الصدمة عنها وطلب منا تقديم الدعم النفسي لها.

طلبت من شادي أن يعود إلى القصر ليريح بدنه وأبقى ليلتي مع أمي وأبيت عندها للاطمئنان على ليان، لكنه رفض متبرماً بأنه يريد فهم تفاصيل ما حصل بينها وبين صديقه الذي لا يستجيب لأي مكاملة أجراها له.

جلسنا على مقاعد الانتظار ووجه أمي يكاد يخبثق بالأسئلة التي تعترى صدرها، ثم استجمعت قوتها أخيراً وقالت:

" من قصدت ليان بقولها؟ من هو منصور؟ هل هو..... "

ولم تتم سؤالها فقد انهمرت دموعها لتهدم حصونها وانعقد لسانها وهي تشك بأن ما توشك على معرفته قد يدمر آخر رمق لها بالأمل.

أطرقت برأسي نحو الأسفل أشعر بالأسى عليها.. لكن لا مجال الآن لإخفاء الموضوع أكثر وهنا وجدت خيطا من الشجاعة لأبوح لها بكل شيء...

أغلقت عينيها عقب سماعها ما حصل معي من رؤية والدي، حاولت التحكم في أنفاسها وقالت تحدث نفسها بصوت مسموع لتحاول بث الصبر في قلبها:

" ليان منهارة يجب أن أبقى قوية من أجلها! إنها تحتاجني علي أن أهدأ... "

قطبت حاجبيها ورفضت الاستسلام للخوف الذي كان باديا على وجهها الشاحب. نقلنا شادي إلى البيت بعد استماتتنا في إقناع الطبيب باصطحاب ليان عقب عودة الوعي إليها.

كنا حريصين على التزام الصمت أمامها، لكن صبر شادي أوشك على النفاد فسألها مباغتاً بعد فترة طويلة من السكون القاتل الذي حل على الغرفة:

" ماذا حصل بينك وبين يزن؟ "

كانت نظراتها توحى بانعدام الحياة في جسدها، أنا لم أر ليان بهذا المظهر من قبل حتى بعد انفصالها عن بهاء، أخذت شفثاها ترتجفان قبل أن تستطيع أن تنطق بعبارات شبه مفهومة:

" حاول... طردي وأمر... يزن... بالانفصال عني... بعد أن... دبرت أمك... كميننا جديدا لي... بعد شرك العقار... "

قاطعها شادي بقوله:

" أمي؟! ما علاقتها بما حصل معك؟ "

ألقت ليان نظرة مميتة نحو شادي وقالت بحنق:

" أمك نصبت فخا ليزن ليشرب منشطات.. ثم يرى صورالي مع خطيبي السابق حتى يثور غضبا مع تأثير المنشطات! رأيتها بعيني تخرج من مكتب عم... والديزن وسمعت عبارات مبهمه منها لم

أستطع الربط بين كلماتها إلا بعد وقوع الطامة... والآن قامت بتوكيل متحر للبحث عن والدي لتجده يعمل في مصنع تغليف! وبحثت في ماضيه عن أقدر أسراره وشهّرت بها "

اسود وجه أمي عقب كلامها، وبدأ مظهرها يوحي بأنها على وشك التقيؤ، نظرت نحوها ليان كمن لا روح فيها وقالت:

" نعم هي تعلم سر ك وأشهرت بك!"

بدأت أمي ترتجف ثم جرت بسرعة نحو المرحاض وأوصدت الباب خلفها، اشتد رعبي حينما سمعتها تتقيأ دون انقطاع فتبعتها جريا نحو الباب بذعر شديد وأخذت أطرقه بشدة لأطمئن عليها، ثم سمعت صوت ليان تهتف لي:

" اتركها يا إيلينا هي بحاجة إلى وقت تستفرد فيه بنفسها لتخرج من صدمتها"

عدت إليها حيث تجلس برفقة شادي الذي ارتسمت على محياه علامات التساؤل والارتباك، تقدمت منها وجلست على الأرض مقابلها، وضعت يدي على ركبتيها وسألتها بإلحاح:

" أي سر يا ليان؟ ماذا حصل؟ هل هو شيء عظيم!"

نظرت إلي والدمع يتجمع في عينيها ثم تنهدت بألم قاتل... انسابت من عينيها الدموع.. ثم قالت وهي تحول نظرها بيني وبين شادي:

" أن تعرفا مني خير لي من أن تسمعا من لسان أمك الشامتة"

انتفض شادي بارتباك وقطع تواصله البصري مع ليان محرجا، ثم أعادت ظهرها للتكى على ظهر الأريكة، تلحفت بالغطاء الصغير الذي وضعناه عليها سابقا وقالت وهي تستذكر شبح الذكريات العنيف من مخيلتها:

" دخل أربعة رجال يطالبون والدي بإرجاع ما لهم له، كانوا حسبنا فهمت تجارا للمخدرات وكان أبي يدين لهم بالكثير من المال، حبستك ليلتها في الغرفة حتى لا تمتد أيديهم إليك ومع محاولات أمي المستميتة لتخبأني إلا أنهم أمسكوا بنا فألقوا بأمي أرضا.... وأخذوا يضربونها في كل مكان بينما أنا كنت أجمع حول نفسي في إحدى زوايا المطبخ أختبئ تحت الطاولة... وأبي ألقوه على الأرض وهو تحت تأثير المخدرات ليشهد بعينيه ما سيفعلونه..... واجتمع فوقها الرجال الأربعة كلهم

وجردوها من ملابسها وهي تستصرخ بأبي أن ينقذها"

ثم بدأت تبكي وأضافت وقد تغيرت نبرتها إلى النحيب:

" كنت خائفة مذعورة لا أدري أين أذهب... لم أستطع فعل شيء لها غير الاستنجاد بها، ثم هموا بها

واحدا تلو الآخر أمام ناظري... كنت طفلة صغيرة في السابعة قتلوا طفولتي..... جردوني من

براءتي..... أنهكوها بجريمتهم القذرة فوقعت مغشيا عليها! ظننتها ماتت يومها فصرخت بأعلى

صوتي..... فكأنهم تذكروا وجودي فانقض علي أحدهم وثبتني على الطاولة وأنا أصرخ وأصرخ

ليتركني أرادوا أن يفعلوا بي تماما كما فعلوا مع أمي "

مسحت دموعها وأخذت نفسا عميقا وقالت:

" وقبل أن يتمكنوا من فعل شيء اقتحمت الشرطة البيت بسبب اتصال ورد لهم من أحد الجيران

وقبضوا عليهم جميعا بمن فيهم أبي، وتم نقل أمي إلى المشفى وعرضوني على معالجة نفسية. "

أخيرا نظرت نحوي بعينيها المتعبتين وقالت:

" كنت آخر رمق لي في الحياة وأقسمت على حمايتك.. لذا حاربت قدر المستطاع خوفاً وشعوري

القدر في الحياة لئلا يتسلل إلى مسامعك يوماً ما حصل مع أمي.. فأنت كنت طفلة هشة بريئة

وخشيت إذا علمت بشيء أن أخسرك! فكابدت الأحزان بمفردي بعد أن أحسست أن مسؤولية

هذه العائلة تقع على أكتافي..... أنسي الوحيد كان جدي! كان منبع أسراري... الحزن الدافئ الذي

أستطيع اللجوء إليه وإخباره بمكنوناتي، وهو الذي كان يزرع الأمل في قلبي.... اليوم الذي توفي

فيه جدي هو اليوم الذي أحسست فيه بالمعنى الحقيقي لليتم "

ثم أخيرا استسلمت لبكاء مريير فنهضت أحضنها وأبكي بمرار على حالها. لم أكن أعلم بأي شيء

من هذا، يا إلهي! كيف استطاعت طفلة صغيرة في عمرها أن تكابد مر ذكرياتها وحدها دون أن

تنهار؟ ألهذا كانت أشد الناس حزنا على موت جدي؟! كان حزنها أشد من حزن أمي وخالي فقد

امتنعت عن تناول الطعام لأيام حتى خشينا عليها من الموت!

بكينا كثيراً حتى اقترب الفجر ثم ساعدتها مع شادي على النهوض وأويناها إلى فراشها. بعد أن

أقنعناها بتناول الأدوية المسكنة التي وصفها الطبيب لها.

أصررت على شادي أن يعود إلى البيت لكنه أبى وألح على المبيت هنا لثلا تحدث انتكاسة أخرى لليان. كانت أمي تصارع جاهدة لتبقى متماسكة، أودعتنا غرفتها لننام فيها وهي نامت مع ليان في غرفتنا القديمة.

نظر كلانا نحو الفراش الوحيد في غرفة أمي بارتباك... خلع شادي سترته وربطة عنقه وعلقها على الباب ونظر إلي ماداً يده لي، فأعطيته يدي وسار بي نحو الفراش وأشار إلي للنزول لأريح جسدي عليه، خلعت حجابي وعباءتي وبقيت في ملابس القطنية وبنطالي ثم أمرني أن أستلقي بجسدي فاستلقيت على يميني واستلقي إلى جانبي على يساري.

شعرت بأنفاسه الحارة على رقبتني فدغدغ إحساسي، ثم امتدت ذراعه فوقي ليحوظني بها فأخذ قلبي يخفق بشدة. كانت أنفاسه ثقيلة في البداية ثم شعرت بارتخاء ذراعه وهدوء أنفاسه قليلاً.. فاستجمعت شجاعتي وأدرت رأسي بحذر ناحيته لأجده مستسلماً غارقاً في نوم، بدا الإجهاد واضحاً عليه، حاجباه كانا معقودين غماً من كل ما كابدها اليوم، تفحصت ملامحه جيداً، كان فعلاً وسيماً بطريقة تخطف الأنفاس، له وجه وقور بملامح مرسومة بعناية.. وتلك اللحية الصغيرة التي تداعب فكه زادته جاذبية إلى جاذبيته... كانت له عينان لوزيتان جميلتان وأنفه مستقيم دون عيوب. تسلل شعور غريب دغدغ وجداني فشعرت بخديّ تتوردان خجلاً.

دفنت رأسي في صدره لعلي أجد بعض الأمان بعد حديث ليان المرعب، فقد أعادت إلي لحظات الذعر التي عشتها بين يدي ذاك السائق. استغللت نومه لكي لا يشعر بي أحتمي به ولجأت إلى النوم بدوري بينما أحاول طرد الكابوس الفظيع الذي كان يطارد أمي طيلة سنين حياتها وينهش من مقتلتيها الأمان... تكشف لي الكثير هذه الليلة واستطعت أيضاً فهم العديد من انتكاسات أمي المتواصلة طيلة فترة حياتنا، وحاجتها دون انقطاع لتناول عقاقير مضادة للاكتئاب حتى يومنا هذا. استيقظت على صوت هاتف شادي الذي لم يهدأ عن الرنين، ويبدو أنه استيقظ تزامناً معي، كنا نائمين في أحضان بعضنا، متعانقين كأن حياة الواحد منا معلقة بقلب الآخر، أخذ منا الأمر بضع لحظات لاستيعاب وضعيتنا المحرجة، وعندما تنبعت إلى نفسي أطوقه بذراعي في حضنه انتفضت

جالسة أشعر أن وجهي يكاد ينفجر من حمرة، تجنبت النظر إليه لكنني شعرت به يطالعني بنظراته ويتفحص ردود أفعالي.

رن هاتفه ثانية فنهض متثاقلا واتجه مارا من جانبي نحو سترته المعلقة على الباب، وأخرجه منها ثم استقبل المكالمة واضعا الهاتف على أذنه، سمعته يقول بينما كان يدعك عينيه ويحرك رقبته ليوقظ جسده المخدر:

" نحن بخير اهدأ..... نعم أنا في بيت أمها.... آه نعم علمت.. إنها هنا أيضا..... أقبلت البارحة هنا.... لا أدري ما حصل معه حتى يطلقها... لم يستجب لأي مكالمة من مكالماتي..... حسنا أبي توقف عن استجوابي رجاء! سألقاك في الشركة..... أنت تمزح! كم الساعة؟"

أنهى المكالمة على مضض ونظر إلى الساعة على هاتفه وقال:

" يا إلهي! تعدت الساعة الثانية عشر ظهرًا"

وقع فكي مدهوشا فركضت نحو حقيبتني في غرفة المعيشة ووجدت مكالمات فائتة كثيرة من سارة وديمة ومايا و..... وفارس!

أرسلت رسالة لسارة لأطمئنها أنني سأتصل بها في أقرب فرصة حتى أتواجد بمفردي لأحدثها براحتي، المسكينة كانت مبتهجة صباح الأمس حينما هاتفتها وطمأنتها إلى أنني سأعود إلى العمل اليوم بعد إجازتي الطويلة إثر كسر ساقِي.

قمت بالاتصال بديمة لأطمئنها إلى كوني وشادي بخير وطلبت منها أن تطمئن مايا، حاولت أن تسألني عن ليان لكن لم أستطع إعطاءها معلومة مفيدة، لأن ليان استيقظت ولم أشأ أن أخلق عندها شعورا بالانزعاج فاعتذرت منها وأنهيت المكالمة بعد أن وعدتها بالشرح لها في وقت لاحق.. وأخيرا أرسلت رسالة إلى فارس أعده فيها بالحديث لاحقا.

ألقيت نظرة متفحصة على ليان وهي في غرفتنا، كانت تتحدث على الهاتف فعلمت من خلال حديثها أنها كانت تكلم مديرها وتعتذر منه لتفويت يوم دراسي دون عذر... ثم سمعتها تشكره وأنها المكالمة، التفتت نحوي وقالت باستياء:

" وصل خبر طلاقى إلى المدرسة! أعطاني المدير يومي إجازة حتى أدير أموري..... تبا أكره أن يشفق علي أحد!"

لم أستطع إخفاء معالم الحزن التي بدت واضحة على وجهي. لكنني حاولت حثها على تناول الطعام مع رفضها الشديد للأكل، كما أن شادي اعتذر بدوره واستأذن للمضي نحو القصر. لم ألمه على مغادرته فهو بحاجة إلى الاستحمام وتغيير ملابسه التي بقي عالقا بها من العمل البارحة. طلبت منه أن أبيت هذين الليلتين عند أمي للاعتناء بليان وأبدي موافقته ووعدني بإرسال ملابس لي مع السائق.

مرت هذه الفترة على ليان بصعوبة، فقد ذهبت إلى جلسات الصلح في المحكمة التي لم تنته كما كنت أرجو وسعى السيد هاني لطلاقها بقوة حتى انتهى زواجها بشكل نهائي. كان صعبا عليها مواجهة يزن في كل زيارة إلى المحكمة. وكانت تعود منهارة تبكي بحسرة وألم.

وفي الجلسة النهائية عادت إلى البيت مع خالي حيث كنت قد أخذت مغادرة من العمل وسبقتها هناك حتى أستقبلها لأقدم لها الدعم. دخلت ولم تحدثنا واتجهت إلى الأريكة وجلست ثم قالت: " يزن في السجن"

صعقنا من كلامها فانقضت أمي نحوها تستفهم منها ما حصل، ففهمنا من خالي أنه عقب إنهاء إجراءات الطلاق وعند مغادرتها المحكمة انتفض يزن صارخاً فجأة وأصابه انهيار عصبي وأخذ يفتعل شجاراً مع رجال الأمن ويضرب أيا كان أمامه، فحكم عليه القاضي بالسجن.

حاولت التواصل مع شادي لأتأكد إذا ما كان لديه علم بما جرى فأبلغني أن لوالد يزن معارف استطاعوا تخفيف الحكم عليه حتى ثلاثة أشهر. وقد أثار ذلك استهجاني فحسب علمي له معارف كثر وبالتالي يستطيع إخراجه من السجن في اللحظة ذاتها من دخوله فلما يبقيه كل هذه الفترة؟ هل فعل والده ذلك واختار ثلاثة شهور بالضبط حتى انتهاء عدة ليان لكي لا يتمكن من إرجاعها؟! وقد كانت هذه الفكرة ذاتها ما خطر في بال شادي.

لم يهدأ فارس عن محاولته الاتصال بي طيلة هذه الفترة، وكنت في كل مرة أعتذر منه وأتجنب الحديث معه حتى لا يكتشف أحد شيئاً، في النهاية استسلمت له، فأوصدت على نفسي باب غرفة أمي متبرمة بأنني أريد أن أكلم شادي مرة أخرى.

بعد سماعي للرنه الأولى استقبل المكالمة بصوته الملهوف مما خلق في داخلي شعوراً بالحنين له فأنا لم أتخطى مشاعري تجاهه بعد.

سألني عن أحوالي وأحوال ليان عقب طلاقها، نعم انتشر خبر طلاقها بسرعة البرق في كل مكان، طمأنته إلى وضعي لكن لم أجد ما أصف به وضع ليان، فقد كانت منهاره بشكل يدمي القلب. ثم قال فجأة:

" إيلينا أعلم أن الوضع غير لائق الآن لما سأقول. لكن ألم يكن زواجك بشادي قائماً على حرصك على استمرار زواج شقيقتك؟ أعني لقد تطلقت الآن فلا يوجد من داع لاستمرار زواجك، أأست محقاً؟! الآن تستطيعين المطالبة بالطلاق بدورك! انتهت التمثيلية"

كلام فارس صحيح لكن الوقت غير ملائم الآن، فقلت معذرة منه:

" أنا آسفة يا فارس لا أستطيع.. ليس الآن!"

- " لماذا؟ ألم تكوني تنتظرين فرصة طلاقك على أحر من الجمر؟!"

- " بلى! لكن لا أستطيع الآن..... أعني شادي..... لقد قدم لي دعماً كبيراً في محنة أختي ودرأ أعني طيلة هذه الفترة لسان أمه و..."

- " إيلينا! طبعاً سيقدم لك الدعم فهو محرج من سلوكات أمه غير المقبولة! فهي الملام الأولى والوحيد لما تعانیه أختك الآن، ودعمه لك من باب إحراجه فقط، أرجوك يا إيلينا جاءتك الفرصة على قدميها لتخلصي من هذا الكابوس!"

- " أعلم! لكن ثمة سبب آخر!..... إنها أمي! ساحمني يا فارس لكنها... لكنها بالكاد صامدة على ما يجري مع ليان فإذا تطلقت بدوري الآن ستنهار ولست مستعدة لأن يصيبها مكروه بسببي.. أرجوك افهمني!"

- " طيب يا إيلينا! أنت تبحتين عن أعذار فقط! أشعر أنني أضيع وقتي معك سدى! أنت مصرة على تحطيم قلبي وأنا لم أعد أحتمل فكرة تواجدك بين أحضان شادي لقد تعبت يا إيلينا تعبت!"
ثم أنهى المكالمة قبل أن أتمكن من لفظ حرف واحد، حاولت الاتصال به مجددا فوجدت هاتفه مغلقا، جاهدت لحبس عبراتي لثلا يشك بي أحد ووقفت أمام النافذة أشعر بالحيرة من أمري، فقررت أن ألقا إلى مشورة سارة غداً وتخصيص بقية يومي لمساندة ليان.
توجهت إليها وجلست بجانبها على الفراش كانت تنظر باتجاه النافذة بوجه لا حياة فيه، ثم التفتت إلي وقالت:

" إيلينا! أنا أتألم من الصميم! قلبي يؤلمني ولا أستطيع التخلص من هذا الشعور! ماذا أفعل؟ الألم متركز هنا أشعر أنني سأنفجر لقد خارت كل حصوني"
كانت تشير إلى قلبها وقد طبعت ملامح الحسرة على وجهها الذابل الحزين.. احتضنتها وشاركتها بكاءها المرير الذي لم يهدأ. خشيت أن يصيبها مكروه، فحاولت جهدي دعمها وتصبيرها بكل ما أوتيت من قوة... لازمت الدعاء فدعوت لها الله سرا وجهرا بالتخفيف عنها وأرشدتها إلى قيام الليل لعل الله يخفف مصابها.. وقررت بدوري أن أصلي لها في جوف الليل أنا أيضا ليربط الله على قلبها ولا يصيبها أذى.
كانت منهارة بشكل لم أعهده منها قبلا.. هل كانت تحب يزن إلى هذه الدرجة؟ أم كل ذلك بسبب كبرياءها المجروح؟ كيف ستشعر بعد خروجه من السجن ورؤيته معها في المدرسة من جديد؟ يا إلهي سأموت عنها وأنا أتخيل مواجعتها له.

ليان

كنت شاردة أمام نافذة المطبخ أستعد للذهاب إلى المدرسة، كان الألم الذي استعمر في قلبي أكبر من أن أستطيع محاربتة، لكن بطبيعة حالي المكابرة حاولت ألا أظهر ضعفي أمام أحد إلا إيلينا فهي

الوحيدة مع أمي من بحث بما يعترني في صدري لهما. وإلا كنت سأنفجر. كما أنني أخذت بنصيحة إيلينا ولجأت إلى صلاة ركعتين في جوف كل ليلة حتى أخفف من الألم الذي كاد يقتلني.

دخلت المدرسة أمشي بلا روح، لمحت مازن على باب مكتبه يشير إلي أن أتقدم نحوه ففعلت. دخلت مكتبه ودخله من بعدي وأغلق الباب ثم اتكأ على الطاولة وقال بعطف:

" ليان! أنا أدعمك في محتك وإذا أردت مساعدة في أي شيء فاطلبي مني وستجديني سنداً لك "

أومأت برأسي شاكرة دون أن أنطق ثم أمال رأسه قليلاً إلى الجانب وقال متسائلاً:

" كيف تشعرين الآن؟ يجب أن تحافظي على رباطة جأشك أنت قوية يا ليان هكذا عهدتك "

حاولت طبع ابتسامة مجاملة له ثم قلت له:

" الحياة علمتني أن الزمن هو الكفيل بشفاء الجروح، أنا فقط احتاج وقتاً لأخرج من هذه الحالة.

أريد ان أحزن الآن حتى أستطيع تخطي الأزمة لدى عودة يزن، حتى لا أنهار أمامه فهمت؟ "

أوماً برأسه دون جدال متفهماً، شكرته وغادرت مكتبه. ما إن رفعت رأسي أمامي حتى لمحت شبح رجل يقبل من باب المدرسة.. كان ذاته من رأيته في الصورة.. هو ذاته من عشت معه أسوأ لحظات حياتي هو ذاته... أبي!

الفصل السادس والثلاثون

ظننتني أنخيل لوهلة ما أراه أمامي وكأنه سراب، وأول ما خطر في بالي أنني بدأت أهذي بسبب حزني على فراق يزن. ثم تقدم أكثر بعد أن تقابلت نظراتنا، لكن أظن أنه لم يعرفني، بعدها أخذ يلتفت يمنة ويسرة كأنه يبحث عن أحد حتى استوقفته مساعدة المدير تسأله عن حاجته فقال:

"أريد مقابلة معلمة تعمل لديكم تدعى ليان سامح"

أظلمت الدنيا من حولي، تردد إلى مسامعي سؤال المساعدة كأن صوتها يأتي من بعيد وهي تسأله:

"بصفتك من؟ هل لك علاقة بأحد الطلبة؟"

لم أنتظر جوابه فكأن ذلك الوحش الذي قمت بكبته فترة تحرر من أصفاده معلنا خروجه بلا عودة، فوجدت نفسي على حين غرة من حولي أصرخ به بلا هدى ولا تفكير:

"ماذا تريد أيضا؟! ألا يكفيك ما ذقته من مر بسببك؟ من أين لك الجرأة بأن تعود؟!!!"

وبلا وعي وقبل أن أحكم عقلي فيما أتصرف ركضت باتجاه أقرب مطفأة للحريق، كسرت الزجاج المحيط بها بيدي غير عابئة بالجرح الذي سببه لي وبدمائي التي أخذت تقطر أرضاً، ركضت صوبه أريد ضربه بها على رأسه لأقتله لولا صراخ المساعدة المفاجئ الذي بسببه خرج المدير من مكتبه فانقض نحوي ومد ذراعيه نحو المطفأة يحاول صدها من الجهة المعاكسة.. لكن ثورتي كانت أكبر من قوة المدير ذاته فأخذ يصرخ بأي كان حوله ليعدني.

خرج مازن فوراً من مكتبه ومد ذراعيه من تحت إبطي يجرنى لكنه لم يقوى علي بمفرده، فاجتمعت حولي زمرة من المعلمات بمن فيهن هناء.. واستطاعوا بعد طول عراك انتزاع المطفأة من قبضتي، ثم جروني نحو غرفتي الصفية بينما عيناى تقدح بالشرر وفمي ينهال بأنواع السباب اللاذع له وهو واقف مكانه مصدوما وقد تملكه الرعب.

استطاع مازن مع ثلاثة من زميلاتي إدخالي غرفتي الصيفية عنوة وجري نحو الكرسي وإرغامي على
الجلوس مع كل مقاومتي، حتى استسلمت في النهاية وخارت قواي ولم أعد أقاوم.

بدووا بالتقاط أنفاسهم مثلي ثم فتحت فمها هناء كعادتها بكلام غير موزون:

" مجنونة! ماذا حل بك؟ أربعة يجرونك كأنهم يجرون صخرة؟ ما هذه القوة البدنية التي تتحلين بها
بالرغم من حجمك الصغير!"

فأجبتها في غيظ قبل أن أفكر مليا:

" هذا لأنكم ضعفاء! لو كان يزن لحملي بيد واحدة"

ثم ندمت فورا على كلامي بعد انتفاض مازن فجأة بضيق محرجا من كلامي، فأثرت السكوت.

نظرت نحوي هناء نظرة مطولة ثم التفتت إلى من حولها وطلبت منهم أن يتركوها معي على انفراد،

انصاعوا لها دون جدال... التقت نظراتي بمازن الذي كان يغادر وعلى محياه نظرة تعاطف لي.

اقتربت مني هناء تخطو بحذر وجلست على طاولتي ثم قالت بتوجس:

" ماذا أصابك؟ من هذا الرجل الذي كدت... تعرفين.... تتحملين خطيئته؟"

أجبتها باستهجان:

" أتحمل خطيئته؟! هه! هو الذي عليه تحمل خطيئتي"

سألتنني بقلق:

" عم تتكلمين؟"

أخذت نفسا عميقا وزفرته بألم وقلت:

" هذا والدي"

استغرق الأمر ثوان من هناء لتستوعب حجم الصفحة، فقالت بارتباك:

" لكن والدك حسب علمي..... ميت؟"

أجبتها دون حياة في نبرتي:

" ميت في قلبي"

شرحت لها مكرهه على مضض تاريخ تناوله للمخدرات مع التحفظ على بعض الأسرار مثل العنف الأسري وغيرها. كانت أبعد ما تكون عن الصدمة وشعرت بأنها غير قادرة على استيعاب الأمر برمته.. ثم قالت بحزن شديد:

" أنت محظوظة! لا حقا محظوظة وقوية! لو كنت مكانك لكنت الآن..... في مصح عقلي أتعالج من هذه الصدمات، يا إلهي يا ليان! لم أعرف أحدا في حياتي أشد لؤما من أبي يزن وحماة أختك! أتمنى لو أستطيع عمل شيء للتخفيف عنك "

يا ليت يا هناء يا ليت! لكن من بوسعه إخراج هذا الغم القاتل من قلبي؟ لا أحد، قلبي مدمر لا يطيق الصبر دقيقة واحدة، لكنني مع ذلك أحاول الصمود، وفي رأسي هدف واحد..... الانتقام! علمت فيما بعد أن المدير قام باستقبال والدي في مكتبه وحاول فهم هويته، حتى انتشر خبر كونه أبي بسرعة البرق في المدرسة، لكن لم يعلم أحد بماضيه الأسود، كل ما حصلوا عليه من معلومات هو مشاكل أسرية أدت إلى الطلاق ليرمي خلفه ابنتيه وحيدتين تكبادان مر الحياة مع أمهما. لم يجروا أحد على سؤال شيئا أو الحديث حتى في الموضوع أمامي. وأبقيت كل ما يخصني في هذا الأمر غامضا. وبنى الوحش الذي قمت بتحريره من قيوده داخلي حصنا جديدا يمنع أي أحد من التفكير حتى في الاقتراب مني.

سمعت بعض الغيبة والكلام المتناقل في غرفة المعلمات حول أسباب طلاقني. كنت واقفة خلف الباب أستعد للدخول، حتى استوقفني كلام إحداهن ومن صوتها علمت أنها عبر معلمة التربية الرياضية تقول:

" وهل كنتن حقا مقتنعات أنها ستبقى متزوجة من يزن؟ بالله عليكم لا مجال للمقارنة بينهما إنه غاية في الجاذبية وشخصيته أخاذة "

ثم سمعت صوت إحداهن تعترض بقولها، وميزت صوتها فهي إحدى زميلاتي من التعليم الأساسي تدعى منار:

" اسكتي يا عبير الكل يعلم أنك تغارين منها، ليان ملفتة وجذابة بطريقة تعجب الرجال ما أدراك أنت؟ ثم أنني متأكدة من أن سبب طلاقها خارج عن إرادة يزن ألم تروا الفرحه على وجهه يوم زفافه! وغيرته الشديدة عليها من كل شاب تطأ قدمه المدرسة؟"

ثم قالت ثالثة تساند عبير :

" لا بد أنه لم يحتمل مزاجها المتقلب دائم فهذه الفتاة تعاني من أمراض نفسية عافانا الله "

هنا قطعت عليهن لحظة غيبتهن واقتحمت الغرفة بجبروت دون اندفاع، مما خلق في قلوبهن الرعب، ثم تقدمت بخطى واثقة باتجاه عبير التي ارتسم الخوف على معالمها، قبضت على كأس الشاي الذي أمامها ودلقتة على كتبها وبنطالها، فقامت تنتفض وتصرخ من شدة سخونته ثم بعثت أوراق ودفاتر الأخرى التي كانت تغطاها معها، فقامت تبكي وهي تجمع أغراضها حتى أن بعضها تمزق من خشونتي في بعثتها. ثم جلست على أحد المقاعد بينما البقية أجمهن الخوف عن النطق.

أخيرا قلت بصوت هادئ:

" أه من المريضة النفسية التي تسببت في هذه الفوضى؟! "

وألقيت باقي تركيزي في مهامى متجاهلة ما قد يصدر من أحد منهن.

قبل أن أعود إلى البيت اهتديت إلى سيارة أجرة وقادني قدماي مباشرة نحو الحديقة التي كان يزن يصحبني إليها.

دخلتها واتجهت مباشرة نحو بقعتنا أنا ويزن، وقفت على حافة الجسر أتأمل البركة أسفله وعدت للبكاء من جديد على أطلالنا. تذكرت مواعي الأول معه هنا.. تذكرت بوحه بسره وراه تعذيبه في طفولته... لحظاتنا الحلوة.... زفاني.... كلماته العذبة.... جرأته في الكلام.... قوته البدنية... نظرات عينيه الصادقة...

بكيه كثيرا حتى جف الدمع من عيني، ثم جررت نفسي لأعود إلى البيت بعد أن قامت أمي بمحاولة الاتصال بي مرات عدة.

في طريقي إلى البيت ألقيت نظرة إلى المطعم الذي اصطحبني إليه يزن سابقا في موعدنا الأول وتأملت الجالسين في المقاعد وضحكات البعض منهم... تذكرت أنني ضحكت مثلهم ذات مرة. ثم لفت انتباهي مشهد ظننتني أتخيله، أغلقت عيني ودعكتها مرارا لتأكد من صحة ما رأيت فتخللت الصدمة كياني كاملا.....

كان والد يزن يجلس إلى إحدى الطاولات وتجلس مقابله أم شادي وقد بدا لي أنها مستاءة جدا. ثم رأيت يخرج من ظرف ما صورا أو أوراقا، لم أستطع التبين من مكاني، ثم مدها أمامها، تفحصت الصور أو الأوراق جيدا ثم بدأت ملاحظتها قليلا، مد إصبعه أمامها موجهها لها نظرة حادة كمن يهددها أو شيء من هذا القبيل. ماذا يدور حولهما؟ قلبي ينبئني أنها ينويان على مكيدة لإيلينا هذه المرة، فكما تخلصا مني فقد جاء دور إيلينا. يبدو أن شادي أصعب في الإقناع بالطلاق من يزن. أو هكذا خيل إلي لا أدري.

قررت الابتعاد من هنا قبل أن يلحقني أحدهما، وجررت نفسي بعيدا نحو أقرب سيارة أجرة وفي بالي مئة تساؤل لما ينويان فعله هذه المرة.

....

تمكن شادي بعد محاولات عدة من زيارة يزن في السجن. كانت الزيارات ممنوعة حتى استعمل شادي نفوذه في الحصول على إذن للزيارة. أُدخِلَ يزن إلى غرفة خاصة للزيارة الانفرادية مكبل اليدين والقدمين وجلس مقابل شادي يحمل على محياه تعابير ميته.

نظر شادي إلى صاحبه متفحصا ثم تساءل بريية:

" ما قصة الأصفاد؟ "

فأجاب بلا مبالاة:

" إه! شجار مع المساجين وبعض أفراد من الأمن! "

فابتسم شادي متفاجئًا وبادله يزن الابتسامة بحزن ثم قال:

" لا تنسى التمارين الرياضية فأنا بحاجة إلى لكم أحدهم عندما أخرج، وأريدك قوي البنية حتى تصد ضرباتي "

ابتسمت عيناه حزنا على حال رفيق دربه ثم قال متسائلا محولا عجلة الحديث للهدف الذي جاء من أجله:

" لماذا طلقت ليان؟ كنت هائما بحبها هل السبب خلفيتها؟ "

ضحك يزن مستنكرا وأجاب:

" لا يهمني إن كان والدها متعاطيا أو حتى تاجرًا للمخدرات..... بالرغم من مأساتي على أيديهم!..... المسألة هي حسنا.. اسمع.. أحيانا يفضل ألا تخوض كثيرا في الأسباب خلف الأفعال الظاهرة... فقد تأتيك الضربة من أقرب الأشخاص إليك "

قطب شادي حاجبيه متسائلا:

" ماذا تقصد؟ "

لم يجبه يزن على تساؤله بل طرح سؤالًا جديدًا عليه:

" كيف هي؟ "

أجابته وعيناه تتفرسان ملامحه الميتة:

" مدمرة بلا روح... لم أكن أعلم أنها تحبك إلى هذه الدرجة "

زفر يزن بضيق ونظر في الفراغ أمامه بقهر وقال:

" وأنا لم أكن أعلم أنني أحبها بهذا الشكل..... هل تعلم ما هو قهر الرجال؟ إنني لأرجو الله ألا

تتجرع منه فهو يقتل الروح "

ثم نهض فور سماعه صافرة تنذر بانتهاء موعد الزيارة واقتاده الضابط عائداً إلى الداخل وشادي يتابعه بنظرات مهمومة.

إيلينا

استغللت فرصة انشغال الجميع باستراحة الغداء وأقنعت سارة بالبقاء معي في المكتب لأسرد عليها موقف فارس، ثم قلت لها منهيّة حديثي:

"أشير علي ماذا أفعل؟ كيف أصلحه وأقنعه بالعودة؟ إنه لا يستجيب لمكالماتي ولا رسائلي"

اتكأت سارة برأسها على كف يدها وقطبت حاجبيها وقالت:

"أعطيتك نصيحتي سابقا.... الغي فارس من حياتك وانشغلي بالإغريقي الوسيم الذي حصلت عليه بغمضة عين"

زفرت بضيق من تفكيرها المتواصل بكون شادي هو الرجل الوحيد الذي لا يضاهيه بشر على الأرض! ثم قلت ممتعضة:

"اسمعي يا سارة يبدو أنك لم تفهمي الموضوع جيدا... أم شادي كانت خلف طلاق ليان بحركاتها الملتوية ولن تهدأ حتى تطلقني من ابنها"

قالت معترضة:

"وضع ليان مختلف عن وضعك.... فوالد طليقها هو من سعى في طلاقها أما السيد هشام فهو متمسك بك إلى آخر رمق! والنساء لا يقدرن على التدخل في جبروت صاحب البيت نحن نعيش في مجتمع ذكوري فالسلطة للرجل فهمت؟"

أجبتها لأرد عليها:

"نعم وكان وراء طلاقها امرأة.... فوراء كل رجل متجبر امرأة خبيثة! أنا لن انتظر حتى أتخسر على نفسي مثل ليان! وبالتأكيد لن أسمح لنفسي أن أقع في حب شادي وانتهي نهاية مأساوية! سأخرج من هذا الزواج بأقل الأضرار"

لم يعجب سارة تفكيري لكن هذا هو الواقع وهذه الحقيقة، لن تجعلني تلك المرأة أهناً في عيشي ستدبر لي كميناً الآن للإيقاع بي بعد تخلصها من ليان، أشعر بذلك في قرارة نفسي.

عدت إلى البيت في سيارة الشركة بعد انشغال شادي في أمر يخصه، فقد خرج من الشركة قبل انتهاء الدوام ولم يعد.

وأثناء دخولي مررت بالبهو الداخلي لأشرب ماء قبل التوجه إلى غرفتي ففوجئت بخيال شادي في المطبخ... متى عاد؟ هل تعمد ألا يوصلني اليوم؟ ثم سمعت صوتها تحدثه، فتوقفت في سيري وكدت أترجع إلى الخلف لولا أن استوقفتني كلامها فجأة:

" ماذا تقصد بأنك لن تطلقها؟ شادي هل عصيتني ولمستها؟ هل أحببتها؟"
سمعت صوته يرد بتهمك عليها:

" أمي بم تهدين؟ طبعاً لا أكن مشاعر تجاهها ولا تخشي شيئاً فما زالت عذراء"
قال كلمة عذراء بنبرة مغلظة، لكن لحظة كيف علم بأنني عذراء؟ هل حصل موقف غفلت عنه؟ نظراته نحوها لم تكن بالبر الذي اعتدته منه تجاهها ونبرته في الحديث كانت هجومية، إذن هو علم بكذبها وافترائها علي فكأنه يؤنبها على خداعه بكوني فاجرة.
لم تجبه والدته في البداية، ثم قالت متجاهلة تعليقه:

" اسمعني جيداً ما زلت على عهدي بأن أذلها، وإياك ثم إياك أن تخل باتفاقنا وتلمسها أو تتقرب منها، هذه القذرة ابنة الحي الشرقي تحتاج من يؤدبها، لا تنسى أنها تكرهك وأنها اختارت ابن عمك الهامل عليك اختارت من هو أقل منك شأنًا وقللت من قيمتك"
فقال شادي محتداً:

" وإذا طلقته فإنها ستتزوج منه فماذا استفدت بعدها؟"
فضحكت بخبث وأجابت:

" لا يا بني! لن يحصل فأنا أحبك الآن خطة جديدة والمطلوب منك فقط أن تلتزم بدورك فقط واترك الباقي لي"

لم أحتمل الوقوف أكثر لسماع فحيحها كادت أنفاسي المتهالكة تودي بي نحو التهلكة، فسرت بحذر مبتعدة حتى وصلت السلام، وركضت نحو غرفة شادي وأطبقت الباب. حاولت مهاتفة فارس عدة مرات لكنه لم يستجب فغضبت وألقيت بهاتفي على الأريكة بانفعال شديد.

وصلتني رسالة من أمي تطلب مني المجيء عندها على الفور فخشيت من أن مكروها أصاب ليان، فجريت مهرولة نحو عمي أستأذن منه أن يوصلني سائق الشركة إلى بيت أمي، لكنه أصر على إيصالي بنفسه.

وصلنا الحي فتفاجأت به يترجل من السيارة معي قائلاً:

"ربما احتجتني فوق"

فأومأت برأسي موافقة، حين وصلنا قرعت الباب على عجلة ففتحت أمي الباب لأجدها ترتدي حجابها فتساءلت في نفسي هل يعقل أنها علمت بمجيء عمي معي لذا ارتدت الحجاب؟ ثم عرفت سبب ارتدائها له، فقد وقعت عيني على الرجل الجالس في الداخل على الأرائك في غرفة المعيشة، نظرت نحو أمي مصدومة فطلبت مني بتوسل دخول البيت.

جلست إلى جانب عمي كأنني أطلب منه الحماية من أبي، بينما جلس أبي كطفل صغير ضائع على الأريكة المقابلة، وكلما رفع بصره نحوي ورأى تجهمي أعاد بصره نحو الأرض. أخيراً التفت إلى أمي فأومأت إليه بعينها أن يتكلم، فأخذ نفساً عميقاً وبدأ بحديثه وهو يتجنب التواصل البصري قائلاً:

"لك الحق بل لكن الحق جميعكن بكرهي والنفور مني، بل وضربي وقتلي حتى..... لن أومكن..."

لكن ابنتي اسمعيني حتى النهاية"

شعرت بأنفاسي تضطرب ثم أحسست بذراع عمي تحوط كتفي كأنه يشحنني بالقوة لمواجهة والدي، فأحسست بشيء من الأمان يتسرب إلى قلبي. تأمل أبي موقف عمي بعينين كساهما حزن

عميق، ثم ألقى بصره نحو أصابعه المعقودة في حجره فلفتت حركته انتباهي . الآن عرفت من أين ورثت هذه العادة السيئة. هل يعني ذلك أنه مرتبك؟ هل هو خائف من مواجهتنا؟ ابتلع ريقه بصعوبة وقال بصوت متعب:

" لقد أقلعت عن المخدرات منذ سبع سنين مضت وحتى الآن لم أضع في فمي أو أستنشق ولو لفافة سجائر... وجدت عملا بسيطا في مصنع محلي في الضواحي، وحاولت جمع المال لأبحث..... لأبحث عنكن عسى..... عسى أن تسامحنني..... شاءت الأقدار و... ووجدتني والدة زوجك..... وأنت تعرفين الباقي.... لكن لم أكن أعلم.... أنها جمعت معلومات عني..... "

أغمضت عيني بألم وقلت:

" وماذا تنتظر الآن؟ هل حقًا ظننت أننا سنساحك؟ هكذا؟ وكأننا أنبياء أو ملائكة؟ أنت قتلت معنى الأب في قلوبنا، ذبحت طفولتنا بسكين خطاياك! أقسمت على ألا أساحك أبدا" بدأت يدها ترتجفان وأخذ الدمع ينهمر من عينيه ثم قال فجأة مما عقد لساني عن الرد:

" أنا.... أنا أحتضري يا ابنتي... "

ليان

أفقت من غفوتي على أصوات قادمة من غرفة المعيشة، هُيَّء إلي أنني أسمع صوت رجل فالتقطت حجابي عن العلاقة خلف الباب وألقيته على رأسي، فتحت الباب لأصدم بهذا المشهد الذي أحسست به يقتلع عيني من مكانها.

كانت إيلينا تتوسط الجلسة بجانب السيد هشام على الأريكة الكبيرة، وأمي متوقعة على الأريكة الصغيرة، أما الأريكة المقابلة لإيلينا كان يجلس عليها.... أبي!

انتبه الجميع إلى دخولي المفاجئ ومقاطعة حديثهم، انتقلت ببصري بين إيلينا وأمي ثم صرخت بالأخيرة بقولي:

" ماذا تفعلين باستضافة هذا في بيتنا؟! هل جنت؟"

فنهضت بسرعة تحاول تهدئتي وتقول:

" فقط دعيه يشرح لك سبب مجيئه "

فقاطعتها بحدة صارخة:

" لا أمي حقا أنت جننت! لقد تسبب في طلاقي وتدمير حياتي كيف طاوعتك نفسك لأن تدخله

هكذا وتخونني؟!!"

ثم توجهت نحو الباب كالمجنونة أردد:

" إما أن يخرج هو الآن أو اخرج أنا بلا عودة!"

حاولت تهدئتي لكنها كنت تضغط على أعصابي أكثر حتى نهض في النهاية مستسلما وقال يوجه

كلامه لأمي:

" لا بأس يا ماريا اتركيها على راحتها سأغادر أنا فهذا أفضل للجميع "

مر من أمامي وألقى نحوي نظرة متوسلة لكنني قابلته بتجهم وعبوس، وغادر دون أن ينطق

بحرف، أغلقت الباب بقوة غاضبة.

ثم وجهت ناظري نحو إيلينا وأمي وقلت بامتعاض:

" لا أصدقكم! كيف تستقبلانه وتحديثانه وكأن شيئا لم يحصل! أم هل تناسيت كدماتك وآثار

الضرب التي لم تبرح جسدك لسنين يا أمي؟!!"

وقف السيد هشام وحاول تهدئتي فهبت فيه أجبيه:

" أرجوك يا سيدي لا تتدخل فيما لا يعنك!"

صرخت بي إيلينا فجأة قائلة وقد احمر وجهها غضبا:

" ليان! لا أسمح لك بالتحدث مع عمي بقلة أدب هكذا! إلا عمي! مفهوم؟!!"

مسحت وجهي بكف يدي واعتذرت منه، إيلينا محقة لا ذنب له هو فقط جاء مساندا لزوجته ابنة ولا

يشبه في شيء والد يزن المنكوب.

تنهدت إيلينا بتعب وقالت:

" ليان! إنه مريض..... أبي يحتضر "

نظرت إليها أترجم ما قالت ثم أجبتها بامتعاض قبل أن أمضي نحو غرفتي وأغلق الباب على نفسي:

" فليمت إذن لطالما كان ميتا بالنسبة لي! "

الفصل السابع والثلاثون

بقي كلام أبي يطاردني طيلة الليل عدا عن همي بمكيدة السيدة انتصار، رفعت بصري نحو شادي الذي كان غارقا في النوم على سريريه، كيف له أن يغمض له جفن وهو يضمم شرالي مع أمه؟! تصرفاته غامضة جدا، لا أفهمه أبدا تارة أجده خدوما حنونا وتارة ذئبا بشريا، ما الذي يدور في رأسه يا ترى؟ أظهر نبلا مع قضية ليان وتعاون معنا مظهرا جانبا لم أعهد له من قبل فيه، مما جعلني أتراجع عن مخططي مع فارس لبعض الوقت خجلا من طبيته المفاجئة، ثم يفاجئني بتأمره من جديد معها في نية تدميري؟!!

أمسكت هاتفي المحمول أبحث عن رسائل جديدة من فارس لكن أملي طار مع رياح جافة في ليلة قاحلة، لم أجد شيئا. حتى قررت في النهاية مراسلة ليان فكتبت لها:
" هل أنت نائمة؟ أنا لا أستطيع النوم أعلم أنك مستاءة جدا من موضوع أبي لكن فكرة كونه يجتضر سببت لي إزعاجا لا أدري لماذا"

لم أتوقع أن يأتي ردها سريعا فقد أضاء هاتفي برسالة منها، فتحتها فوجدتها كتبت لي:
" إيلينا نامي، ما الفرق الذي سيشكله الآن؟ أقنعنا أنفسنا بأنه ميت منذ ثمانية عشر عامًا"
ارتأيت ألا أناقشها أكثر في موضوعه فهي لن تتقبل أي كلام عنه الآن، لذا شكوت لها خوفا من السيدة انتصار.. لا أدري لما فعلت ذلك.. ربما لأنني شعرت بالاختناق ولا أحد حولي لأبوح له، فكتبت لها:

" ثمة شيء آخر.. أنا لا أعلم لكنني أشعر أن السيدة انتصار تنوي لي شرا"
ندمت فورا لإرسال الرسالة حاولت حذفها لكنها قرأتها قبل أن أتمكن من التراجع، فأرسلت ردها فورا:

" اتركي موضوعها لي لن أسمح لها بأذيتك"

أجبتها بسرعة:

" ماذا تقصدين؟ ماذا ستفعلين؟ "

انتظرت منها ردا لكن هذه المرة لم تجبني، فتركتني وسط مخاوفي التي بدأت تنامي.. على ماذا تنوي ليان؟ يا ليتني لم أبح لها! منذ طلاقها كشرت عن أنيابها أشد مما مضى، أخاف أن تؤذي نفسها إذا علقت مع هذه الشريرة، يا رب احمني واحمها من شرور هذه المرأة.

عندما اشتد بي الضيق نهضت عن أريكتي وتوجهت إلى الحمام توضأت وجلست أصلي ركعتين لله، علّه ينزل السكينة على قلبي الهائج.

عندما أنهيت صلاتي وقراءة ورد من القرآن قمت لأتوجه نحو أريكتي لأنام، فتفاجأت بشادي جالسا متكئا على ظهر السرير، وضعت يدي على قلبي تلقائيا كرد فعل وذكرت اسم الله، فابتسم بخفة وقال:

" ما بك أجفلت؟ ماذا كنت تفعلين؟ "

لم أجبه بشيء ومضيت بخجل نحو أريكتي لأحاول النوم لربما هربت من مواجهة عينيه الرماديتين في هذه الظلمة الحالكة. بقي صامتا بدوره ولا أعلم إذا ما كان يزال يراقبني أم لا، لكنني آثرت تجنب النظر نحوه بشكل نهائي...

جلست إلى مائدة الإفطار على غير العادة أقدم المساعدة للخدم بتجهيزها، دخلت مايا ترسم على شفيتها ابتسامة متعجبة وقالت متسائلة:

" إيلينا! ستتناولين معنا طعام الإفطار؟ ما الجديد الذي طرأ؟ "

ابتسمت لها بحياء ولم أعطها رداً. أخذت تساعدني في ترتيب المائدة ثم قالت فجأة:

" هل تعلمين؟ سأبوح لك بسر.... شادي لم يتعرف على أي فتاة طيلة حياته، أعلم أن ذلك أمر

عجيب بالنسبة لرجل صاحب نفوذ، لكن أمي كانت متحفظة جدا عليه ولا تسمح حتى لنسمة

ريح بلمسه، لطالما كانت تغار عليه وتؤثره علينا، وأبي أيضا له الدور الأكبر في الاهتمام به، فهو تعب

في تربيته وصقل شخصيته... مهما تغلف شادي بالبرود ففي داخله جانب وجداني "

ثم التفتت نحوي واتسعت ابتسامتها وهي تقول:

" أنت أول امرأة تدخل حياتي وتشاركه خصوصياته "

احمر وجهي خجلا من كلامها، وبقيت عباراتها ترن في صدى مخيلتي، قطع شادي لحظتنا بدخوله

الغرفة وهو ينظر نحوي متفاجئا من وجودي، فقال متسائلا بينما عيناه تتفحصانني:

" عم تتحدثان؟ "

ابتسمت مايا بينما ازداد احمرار وجهي وقالت مبتهجة:

" لا شيء كنا نتكلم عنك "

دخلت ديمة فجأة وقالت:

" ما هو الشيء المميز فيه لتتكلموا عنه؟ جدا شيئا مشوقا للحديث فيه "

مد يده في شعرها مبعتها له يداعبها بغيظ فأخذت تضحك وهي تشاكسه، ثم اقترب بجانبي وتناول

كأس ماء عن الطاولة وأخذ يرتشف منه، فقالت مايا بعينين حالمتين وهي تنظر نحونا:

" آه يا أخي كم أود رؤيتك وأنت تداعب أطفالك هكذا كما فعلت مع ديمة! "

تشرق شادي في الماء وأخذ يسعل بشدة فانقضت ديمة ومايا نحوه تضربانه على ظهره بذعر حتى

مد ذراعه لهما ليبيعهما وخرج ليستنشق بعض الهواء، تبعته مايا بسرعة لتطمئن عليه.

أما أنا فأصابني الدهول، نظرت نحو ديمة التي تكبت ضحكة استمتاع فقطبت حاجبي متسائلة،

فقلبت عينيها في ضجر وقالت:

" يا لك من مسكينة يا إيلينا! أربتك أمك على السذاجة هكذا؟ كيف له أن ينجب منك أطفالا إذا لم

تعيشا كزوجين طبيعيين؟ "

كادت عيناي تخرجان من محجريهما من كلامها فاستدرت مبتعدة عنها لأخفي ارتباكي وخجلي منها.

تفقدت هاتفي في المطبخ قبل أن أعود إلى المائدة فوجدت رسالة من سارة، فتحتها واذ بها تقول:

" غدا مساء لدينا موعد أنا وأنت، لقد دعينا إلى حفل زفاف صديقتنا أنسام، هل تذكرينها كانت

معنا في الجامعة كم فرحت كثيرا عند علمها بلم شملنا وأصرت علي أن أصحبك لزفافها "

شردت في نص الرسالة وأنا أفكر بطريقة لإيصال الموضوع لشادي دون أن يتصرف بلؤم معي ويرفض.

عدت إلى حيث يجلس الجميع مجتمعين فاستقبلتني وجوههم بتعجب لانضمامي إليهم. جلست إلى جانب عمي مقابل شادي أخفي خجلي، ثم قال عمي مبتهجاً ليزيل إرباكي:

" حل النور علينا من جديد! أهلا بك يا ابنتي بيننا "

ابتسمت له بحياء، فكشرت زوجته عن أنيابها وقابلتني بنظرة احتقار ولؤم، فحاولت تجنب النظر إليها. قال شادي صارفاً أنظار الجميع نحوه:

" لا تنتظرونا غدا على العشاء فنحن مدعوان إلى سهرة خارجاً "

قالت ديمة باستمتاع وهي تنظر نحو أمها تستشف رد فعلها:

" نحن؟ "

فرغ بصره نحوها شازرا وقال:

" نعم أنا وإيلينا "

رفعت بصري باتجاهه بصدمة فكان ينظر في عيني، شعرت بالخرج وأشحت بصري نحو كأس العصير أمامي. ثم قالت أمه وهي تصر على أسنانها كي تكبح غيظها:

" مدعوان إلى أين بالضبط؟ "

فأجابها على مضض:

" عشاء بمناسبة صفقة..... وأصروا أن نحضر أزواجاً "

وهكذا أغلق الموضوع ولم يعط أحداً مجالاً لمناقشته. حاولت إخفاء ضيقي وأنا أفكر في طريقة للتملص لحضور حفل زفاف أنسام، لكن لم أعرف كيف أتصرف...

صرخت بي سارة عقب علمها بعدم حضوري قائلة:

" لا يا إيلينا! أرجوك! لقد أصرت علي أنسام أن أصطحبك معي! تذكري ما كانت تصنع من خير

لك! ساعدتك كثيراً في أبحاثك وتخرجك، عليك على الأقل أن تقبلي دعوتها لحضور زفافها "

تنهدت بحسرة، لا أعرف كيف أتصرف أو ماذا أفعل! ثم خطرت في بالي فكرة، فهرولت نحو مكتبه قبل أن أراجع أو أشعر بالجنون.

طلبت من سكرتيرته أن تأذن لي برؤيته، رفعت بصرها نحوي وسألته مستنكرة:
" أنا حقا لا أفهمك! لما تحتاجين إذنا لدخول مكتب زوجك؟! لو كانت شهد مكانك لما نظرت حتى في وجهي!"

احمرت خدودي على الفور ولم أجد ردا، وكالعادة أخذت أعقد أصابعي بتوتر، ثم تراءى لي أبي فأقلت أصابعي عن بعضها، ثم رجوتها مرة أخرى أن تطلب لي الأذن. عادت إلي بعد أن امتثلت لطلبي وأشارت إلي بالدخول، تقدمت نحو مكتبه أوجه ناظري نحو الأرض الرخامية ثم أمرني بالجلوس وطرح سؤاله:
" ما الأمر؟"

ترددت كثيرا في البداية وكلمها هممت بالحديث لا أجد ما أبدأ به فأسكت، ثم بدأ يطرق بقلمه على طاولته كعلامة على نفاذ صبره فأغلقت عيني وقلت بنفس واحد:
" أنا لا أستطيع أن أرافقك غدا إلى العشاء!.... أنا آسفة"
أجابني بنبرته المعتادة الهادئة التي يشوبها الغموض:
" لماذا؟"

أخذت نفسا وقلت:
" لأن... لأن ليان تمر بانتكاسة جديدة.... وأريد أن أبقى معها غدا حتى أؤازرها... بما أن غدا يوم الخميس"

سكت برهة من الوقت ثم قال:
" حسنا لا بأس... سأوصلك إلى بيت أمك غدا، لكن إذا شعرت بتحسنها عليك القدوم معي"

وعدته أن أفعل إذا لمحت تحسنا عليها، ثم استأذنت وخرجت من مكتبه أهرب بسرعة نحو مكنتبي لألتقط أنفاسي المرعوبة.... لقد كذبت عليه! لو علم بكذبتني فلا أدري ما يمكن أن يفعله بي، نظرت نحو سارة وأنا أحاول أستعادة لوني من الشحوب:

" كلفتني كذبة ارتحت؟ "

ربتت على كتفي وطمأنتني إلى أن كل شيء سيسير بشكل سليم، ثم نبهت عليها أن تأتي وتقلني من بيت أمي غدا في الموعد المطلوب...

أنهيت تحفيف شعري بعد استحمامي وخرجت نحو أريكتي لأكمل قراءة كتابي فتفاجأت بشادي جالسا عليها ويده هاتفي يتصفحه، فجريت نحوه بسرعة وأوشكت على سحبه من يده لولا مراوغته في إبعاده عني، نظر نحوي محتدا وقال متسائلا:

" لماذا خفت من إمساكي لهاتفك؟ هل ثمة من أسرار تخفينها عني؟ "

شعرت بالحر بالرغم من برودة الطقس خارجا وحاولت استجماع شتاتي وقلت بعد أن وجدت حجة:

" فيه صور لليان! "

تجاهل كلامي ونهض واقفا قبالي فشعرت بضآلة حجمي أمامه فتراجعت إلى الخلف، رفع شاشة هاتفي أمامي وقال بتساؤل:

" لمن هذا الرقم غير المحفوظ على جهازك؟ "

نظرت إلى الشاشة فتفاجأت برؤية رقم فارس من المكالمات الصادرة حيث حاولت الاتصال به قبل استحمامي، كيف حصل هذا ونسيت حذف المكالمات؟ في العادة أكون حريصة وأحذف من السجل كل المكالمات بالإضافة إلى الرسائل.

أمال رأسه إلى الجانب قليلا ينتظر إجابتي فقلت والتوتر يسيطر على كياني:

" إنه لأم سارة صديقتي في العمل.... أتواصل معها منه عندما.... عندما يكون هاتفها.. غير...

غير متاح! "

شعرت بالسخط من نفسي فهذه الكذبة الثانية على التوالي اليوم.
نظر نحوي بحدة وأخذ يتفحص سجل الاتصال ثم وجد رقم سارة فضغط عليه وأجرى اتصالا لها
وأشعل مكبر الصوت.. شحب وجهي بشدة، سمعت رنينه ثم قامت بتلقي المكالمة وجاءني صوتها
تقول:

" إيلينا؟ مرحبا.. "

ثم أنهى شادي المكالمة ونظر نحوي ببرود وقال:

" هاتفها متاح! "

اصفر لوني أكثر وأحسست أنني على وشك التقيؤ لكنني تماكنت نفسي ورسمت ابتسامة وقلت
أتصنع لهجة متفاجئة:

" يا للهول! يا لها من غبية لم تقل لي أن هاتفها بات متاحًا! "

حاولت خطف هاتفني مجددا فرفعه عاليا بعيدا عن مجال وصولي إليه، ثم رفع أحد حاجبيه وعلى
وجهه نظرة استمتاع، حاولت أن أقف على رؤوس أصابعي لأخذه من يده لكنني لم أستطع ثم أنزل
يده وأدخل الهاتف في جيب بنطاله الخلفي. فشعرت بالحنق من تصرفه الجريء. ازدادت ابتسامته
اتساعًا وقال بمكر:

" سيبقى معي حتى الغد لأتأكد من هوية هذا الرقم إلا إذا واتتك الجرأة لسحبه بيدك "
فقلت معترضة:

" أريد الاطمئنان على ليان "

أجاب متحديا:

" سترينها براحتك غداً "

ثم ولاني ظهره ومضى خارج الغرفة، أخذت ألطم على رأسي خوفاً، ماذا لو قرر فارس الآن أن يرد
على اتصالاتي ورسائلي؟ كيف سأصرف وقتها؟ جلست أدعو الله أن يسترني ويبعد عني كيده وبت

ليتي مرعوبة مذعورة. حتى أنني لا أعرف أين خبأ هاتفي في الليل لكنني كنت أكثر جبنًا من أن
أنهض لأبحث عنه.

أصر شادي على اصطحابي إلى العمل في صباح اليوم التالي لثلاث أسبوعه إلى المكتب وعلى غير عادته
سار معي ممسكًا بيدي - لثلاث أهراب! - حتى وصلنا القسم الذي أعمل فيه. قابلتنا الأنظار مشدوهة
من حولنا وشعرت بالإحراج الشديد وتجنبت النظر في وجوه الكل.

وصلنا المكتب حيث تجلس سارة فالتقت نظراتي بنظرات شهد التي شعرت برغبتها في قتلي غيظًا.
ثم أفلت يدي ونظر نحو سارة محتدًا وقال لها:

" إلى مكثبي حالا!"

نهضت بارتباك واضح وأخذ العرق يتصبب من جبينها نظرت نحوي مذعورة، حاولت أن أشير لها
بإشارة هاتف لتفهم مقصدي لكنها لم تفهم علي، وهتف لها شادي بنبرة أشد غلظة فتبعته على الفور
بخطى مرتجفة. جلست على الكرسي أحاول أن أنتفس وأفكر في حل للمشكلة ثم وقعت عيناى على
حقيبة سارة.....

.....

جلست سارة على أحد الأرائك وقلبها يوشك على الانفجار من صدرها من شدة الهول الذي هي
فيه الآن. وأخذت تفكر في أسباب استدعائها هنا وما الأخطاء التي ارتكبتها في العمل، ثم خطر في
بالها تساؤل؛ هل يعقل أن المدير علم بكذبة إيلينا وسيلقي اللوم عليها؟! اصفرت بشدة وبدا عليها
الهزال.

أمرها شادي بقوله:

" ارتشفي قليلا من الماء الذي في الكأس أمامك.... وامسحي عن وجهك علامات الرعب لست
هنا لألتهمك!"

أمسكت سارة بكأس الماء بيد مرتجفة حتى سكبت جزءا منها على الأرض فأخذت تعتذر بشدة،
فنفخ شادي ضجرا من رعبها، ثم قال:

" الأرض سيتم تنظيفها لاحقا الآن ركزي معي.... سأسألك سؤالاً وكوني صادقة وإلا...."

هزت رأسها بذعر شديد والخوف قد بلغ منتهاه في نفسها، ثم قال:

" إذا كان هاتفك غير متاح فكيف تتواصل معك إيلينا؟"

لوهلة لم تفهم السؤال حتى أنها من شدة رعبها نسيت من هي إيلينا، أخذ منها الموضوع وقتا لتفهم
المراد من السؤال وتجيبه قائلة:

" أه لا أدري تتواصل معي إما عن طريق هاتف أمي أو أختي "

حك لحيته الخفيفة قليلا ثم قال مخرجا هاتف إيلينا من جيب سترته:

" زوديني برقم أمك "

نظرت سارة جيدا إلى الهاتف فأدركت أنه جهاز إيلينا وبدأت الصورة تتشكل في ذهنها ثم قالت:

" أنا لا أحفظه سيدي، إنه مسجل في هاتفي وهاتفي في الحقيبة على مكثبي.. إذا سمحت لي سأذهب

لإحضاره "

وقبل أن تهم بالنهوض حدجها بنبرته قائلا:

" استريحي! السكرتيرة ستحضر حقيبتك "

جلست سارة مستسلمة؛ كانت تهم بالاستفسار من إيلينا لتحصل على معلومة منها حتى تعرف بها

تجيب عن أسئلته المخيفة، لكنه كان أشد مكرامها.

وما هي إلا لحظات حتى سلمت السكرتيرة سارة حقيبتها. أخرجت هاتفها وأضاءت شاشته

فظهرت لها مسودة رسائل أمامها مكتوب فيها:

" سارة أرجوك قولي له أن الرقم المسجل على هاتفي هو رقم أمك "

قال شادي عندما بدأ ما تبقى من صبره ينفد:

" حسنا أين الرقم؟ "

فقالت بسرعة وقد استطاعت خلق كذبة من العدم:
" لها رقمان بصراحة أحدهما مخزن على جهازي والآخر على جهاز إيلينا فأيهما تريد؟ ألا يجب أن
نحضر هاتف إيلينا لنحصل على الرقم الثاني؟"
نظر نحوها مرتابا صامتا بغموض دب الرعب في أوصالها، فبدأت ترتجف لكنها حاولت قدر
الإمكان تمالك نفسها والتمسك بكذبتها لئلا يشك بها.
نظر نحو هاتف إيلينا مجددا ثم أعاده إلى جيب سترته وقال بعد أن أدار كرسيه نحو النافذة:
" عودي إلى مكتبك "

إيلينا

وصلت سارة المكتب وهي تمشي كمن يوشك على الوقوع ثم جلست على الكرسي تلهث بشدة كأنها
شاركت في سباق للجري، نظرت نحوي وقالت:
" لن يكون بمقدوري الإنجاب بعد الآن!!! ما هذا الكائن الذي تزوجت منه؟! إنه مخيف جدا! يا
إلهي ما أشد غيرته عليك!"
أبدت اعتراضا على تعليقها بقولي:
" هذه ليست غيرة وإنما تملكا إنه يعاملني كأنني غرض ملك له..... المهم ماذا حصل معك؟"
أمسكت سارة بزجاجة ماء وأخذت تشرب منها لتهدأ أعصابها المتوترة، ثم قالت باسترسال:
" بل يغار، عيناه تنطقان بذلك، ودعيني أقول لك أبدعت في فكرة الرسالة أنقذتيني لأعرف ما
أقول له، لماذا هاتفك معه؟ هل اكتشف وجود رقم فارس عليه؟ آه إيلينا قلت لك أخرجني فارس
من بالك، أنت تلعبين بالنار!"
نظرت إلي ثم ابتسمت بمرح على مظهري الحائر على حديثها، لأنني لم أدر من أين أبدأ بإجابتها.

ليان

توجهت مباشرة نحو مكتب مازن دون تردد ودون تأخير متجاهلة نداء المساعدة لي لأخرج إلى الساحة المدرسية لاستلام طلبتي من المعلمات المناوبات، فتحت الباب دون طرق وأذنت لنفسي بالدخول.

أصابه الذهول من تصرفي، وجهت نظري إليه بحدة وقلت بصوت منخفض بنبرة واثقة بلا تردد: " اليوم الساعة السادسة في مقهى السلام في الحي الجنوبي أريد مقابلة صديقك المحامي... لا تأخير عن الموعد!"

ازدادت نظرة البلاهة على وجه مازن ثم نطق متسائلا:

" عفواً؟ "

زفرت بغیظ وقلت:

" فقط قل للسيد أجمد أن يلاقيني في المكان المحدد والتوقيت المحدد الأمر مهم!"

ثم خرجت من المكتب قبل أن أعطيه فرصة للرد.

إيلينا

نظر شادي إلى عباءتي المطرزة وقال مستنكرا وهو يتفحصني:

" ستذهبين هكذا إلى بيت أمك لتواسي أختك؟! هل تضعين كحلا في عينيك؟ "

أبعدت وجهي عنه حتى لا يتأملني أكثر وقلت متبرمة:

" ليان نبهت علي أن أبقى دائما بحلة مرتبة وأحافظ على زينتي وإلا ستغضب مني "

فقال معترضا:

" لكنك لا تتزينين عادة "

فأجبت بعد تنهد:

" أنا أفعل ذلك أمامها فقط "

ثم لانت نبرته قليلا وقال:

" لها فقط؟ ماذا عني؟ ألن تتزيني لي أيضا؟"

شعرت بوجهي يغلي وبدأت أتخبط في الكلام، ثم هربت من أمامه أسبقه نحو السيارة لعلني أبتعد عن

مواجهته قليلا، لماذا خفق قلبي بشدة من كلامه؟ لماذا أنا محرجة أصلا؟

أوصلني إلى حارتنا ونزلت من السيارة، قال قبل أن يغادر:

" سأتي لأفلك حالما أنهي مشاغلي سأكون هنا الساعة العاشرة تماما"

اصطنعت ابتسامة ولوحت له ومضيت نحو مدخل المبنى، انتظرت مكاني بضع دقائق ثم خرجت

إلى الشارع من جديد في انتظار سارة لأن تأتي وتقلني معها في سيارة أخيها.

ليان

كنت جالسة في المقهى قبل الموعد المحدد وأنا في انتظار قدوم أمجد، خشيت أن يتجاهل مازن طلبي،

وأنتظر هنا بلا فائدة فأخذت أتوعد وأهدد في رأسي بانتقام مرير منه إذا لم يأت صديقه.

بينما كنت غارقة في حنقي وتخيلاتي سمعت صوتا مألوفا يجيني، رفعت رأسي فوجدت أمجد معه

مازن يقفان أمام طاولتي نظرت نحو مازن نظرة جافة وقلت:

" تأخرتما!"

أخذ مازن نفسا متجنبنا الرد علي ثم قلت مجددا وأنا ما زلت أنظر نحوه:

" أريد السيد أمجد بدقيقتين على انفراد"

وجه نظرة منزعة نحوي وطال تحديقنا المتحدي ببعضنا حتى تدخل أمجد قائلا:

" مازن انتظري في السيارة..... رجاء!"

بعد تردد دام وقتا تحرك مازن نحو المخرج بامتعاض مبتعدا ثم استأذن أمجد للجلوس قبالي. سألني

من باب التهذيب:

" ماذا تشربين؟"

في البداية رفضت لكنه أصر حتى في النهاية طلب كويين من القهوة دون استشارتي.
نظر في عيني بتفحص شديد وقال متسائلا:

" أنا أعتذر منك لكن لا بد لي أن أسأل هل أنت بخير فأنت لا تبدين لي... "
قاطعته بقولي:

" لم أستدعك هنا لتتعرف على أحوال بعضنا.. أريد منك خدمة! بما أنك محام أريد شخصا ذا
إسباقيات لتنفيذ مهمة بغاية الأهمية والخطورة"
ظهر الدهول على وجهه للحظات ثم تنحى قائلا:

" ليان! هل تعلمين حجم الخطر الذي سيلحق بك؟ هل تريدين الانتقام من والد زوجي... أعني
طليقتك؟ خذي نصيحتي واكتفي بالدعاء عليه "
أجبتته بتهكم:

" لا أحتاج إلى مجرم لأنتقم من ذلك الحقير! الموضوع يخص إيلينا"
نظر نحوي نظرة مطولة ثم أضفت:

" اسمع حماتك تضمر سرا لأختي وأريد حمايتها منها بأقصى الطرق والوسائل... إذا كنت حقا
تشعر بشيء نحوها لو بالقليل من العطف فدلني على مرادي "
اعترض قائلا:

" لست بحاجة إلى ذلك قولي لي فقط إلى ما تطمح السيدة انتصار وأنا سأتكفل بحماية إيلينا لن
أسمح لها بأذيتها أعدك... ليان أخرجي هذه الفكرة من رأسك "
أجبتته بغضب وقد ضربت الطاولة بكف يدي:

" إذا كنت لا تريد مساعدتي فلا بأس! سأبحث بنفسي عن ذوي إسباقيات لن يكون صعبا علي
الاهتداء إلى أحدهم! أنا طلبت مساعدتك حتى تؤمن لي شخصا تتأكد من نيته في عدم الغدر بي
فقط، فهل ستساعدني أم لا؟ "

طال نقاشنا فترة وعندما بدأت أملّ من إقناعه نهضت لأغادر المكان وأنا أنوي البحث بمفردي عن الشخص المناسب لتنفيذ مهمتي، فأوقفني أجد بكلامه:

" ليان! انتظري! حسنا لك ما تريدين لكن عديني أنك ستكونين حذرة... وثمة شيء آخر هؤلاء لا يعملون دون مقابل.."

قاطعته بدوري قائلة:

" لا تقلق معي ما يكفي من المال عقب طلاقني أنا مستعدة لدفعه كله لحماية أختي" ثم تأكدت من أنه ما يزال يحتفظ برقمي وأعلمته أنني سأنتظر منه مكاملة خلال أسبوع فقط لا أكثر، ووليت خارجة أكمل رسم المخطط في رأسي.

إيلينا

وصلنا الحفل مبكرا قبل وصول العروسين واهتدينا إلى طاولة تضم صديقاتنا من أيام الجامعة، فرحنا كثيرا برؤيتهن وجلسنا نتعرف أحوال بعضنا.

كان الزفاف مقامًا في باحة مفتوحة لفندق فاخر، وفرشت الأرض بسجاد عشبي أخضر وتم تزيين الأشجار بزينة بيضاء جميلة، كان المكان برمه ذإ إطلالة رائعة. علمت بعدها أن أنسام ارتبطت بشاب من الطبقة الراقية.

ضحكنا على مواقف من الحياة وعلى بعض أخبارهن، ثم نظرت إحداهن إلى يدي وأمسكت بها وقالت:

" إيلينا أيتها الكتومة أنت متزوجة؟ غردي على الأقل! لما لم تقولي شيئاً؟"

ابتسمت بحياء وتبرمت بأنني ظننت أن الكل علم بزواجي. حاولت تغيير الموضوع نحو صديقة أخرى كانت متزوجة عندما كنا في الجامعة لأسألها إذا أنجبت وكم طفلا لديها حتى انغمست البقية في الحديث عن أحوالها ومشاكسة أطفالها.

فجأة ودون إنذار لمحت طيفاً من بعيد، طيفاً عرفته وحفظته عن ظهر غيب... نظرت نحوه والصدمة تتخلل كل ناحية من جسمي كيف لا وأنا ألمح فارس أمامي؟
شحب وجهي وألقيت نظرة رعب نحو سارة التي انتبهت فوراً إلى خطب بي وسألتنني بقلق عن الأمر، فقلت هامسة لها:

" فارس بين المدعويين! هناك عند الطاولة على اليمين!"

نظرت سارة تبحث عنه وقالت:

" آه تذكرت شكله هو ذاته من تشاجر مع المدي..."

لم تتم عبارتها فنظرت نحوي وقد شحب وجهها أيضاً لتقول:

" هل يعني ذلك أن السيد شادي سيحضر الحفل أيضاً؟"

أومأت برأسي بعدم معرفتي وبقيت على ترقيبي وخوفي. بعد برهة تم الإعلان عن قدوم العروسين قريباً. وفجأة فتح الباب الكبير الذي أمامنا ليدخل منه ضيوف آخرين وحصل ما توقعت حصوله. جف حلقي وشعرت بضيق في التنفس، وبدأت عيناى تظلم من الرعب الذي دب في قلبي، نعم رأيت شادي يخطو بين المعازيم ويقترّب من مجموعة من الأشخاص المجتمعين الذين يبدو الثراء واضحا عليهم، وقف بينهم وأخذ يتبادل أطراف الحديث معهم.

تبادلنا أنا وسارة نظرات القلق، ثم أصدرت إحدى صديقاتنا صريرا بابتهاج قائلة:

" سعاد انظري! أليس ذلك الشاب هو المليونير مدير شركات الفردوس؟"

فانتفضت الأخرى مبتهجة وبدأت الفتيات بالحديث عن جاذبيته وقوة شخصيته وصوره في مجلات

الأعمال، ثم قالت إحداهن:

" علمت أنه تزوج قبل فترة"

نظرت أخرى إليه وقالت:

" يجب أن تكون شديدة الجمال والجاذبية ليرتبط بها شخص مثله!"

وعلقت الثالثة قائلة:

" لكنني سمعت أنه تزوج بامرأة لا تستحقه وليست من مستواه أصلاً "

هنا غضبت سارة من كلامهن فقالت محتدة:

" بالعكس زوجته آية في الجمال والأخلاق وكل الرجال يتقاتلون عليها "

ضحك البعض منهن باستهزاء غير مصدقات ثم اشتد النقاش بينها وبينهن. حاولت تهدئتها لئلا

يزل لسانها بكلمة، لكنها كانت حانقة من الألقاب التي بدأن يصفن بها زوجته - أي أنا - مثل

تلقيبي بالحرباء... ماصة عقول الرجال... هجينة وقعت في سلة تين... وغيرها مما لا أذكره من

هول الموقف الذي وضعت فيه. حتى اشتد غيظها في النهاية وقالت:

" اخرسن جميعاً فزوجته هي إيلينا! "

غطيت وجهي بكفي يدي وزفرت بحنق ثم ألقيت نظرة ملتبهة نحو سارة التي حاولت رسم تعابير

معتذرة لي. فقالت إحداهن محتدة:

" لا أقصد الإهانة يا إيلينا.. لكن لا أصدق! "

قالت أخرى:

" اسمعي، إيلينا، حبييتي، الفتاة تحلم لكن الأحلام قد تطير بنا بعيداً عن عالمنا الذي نعيشه ربما

تتمينه زوجها لك لذا ترغمين نفسك على تخيل زوجها يشبهه "

غضبت سارة من جديد وقبل أن أتمكن من إسكاتهما اندفعت بقولها:

" بل هو زوجها إنه مديرنا في الشركة وقد تزوجها! أقول لكن الحقيقة، ألا ترين أن إيلينا تستحق

الارتباط به؟ أصلاً هو المحظوظ بها أنتن تشعرن بالغيرة فقط "

وضعت كفي على كتف سارة لأسكتها ثم قلت:

" لا يهم من تكون زوجته المهم أننا سنفرح بأنسام اليوم! "

فقالت إحداهن وتدعى سعاد:

" رأيت كيف غيرت عجلة الحديث عن الموضوع؟ ربما كذبت عليك لتغيظك والآن تحشى ظهور

الحقيقة! حبل الكذب قصير.. إنها ليست زوجته! وإلا لماذا جاء كل منهما بمفرده؟! "

وافقتها البعض فقالت إحداهن لسارة فجأة:

" الأمر واضح هي كذبت عليك بهوية زوجها لتحصل على بعض الاهتمام! أو أنك أنت التي تكذبين؟"

نهضت سارة واقفة وأخذت تهتف بصوت مرتفع غاضبة:

" تعديت الحدود يا ميس! لماذا سأكذب بكون السيد شادي زوج إيلينا لماذا؟! السيد شادي هو زوج إيلينا!!!"

لطمت فمي بخوف وأخذت أرجوها أن تسكت وتجلس وأخيرا لأوقف هذا المشهد استسلمتُ لهن واعترفت كاذبة أن سارة تبالغ، وأنني كذبت بهدف إغاظة زميلاتي في العمل لا أكثر. لكن سارة أبت إنهاء النقاش، فصرخت بها ميس بدورها:

" آه منك أنت كفي عن معاملتها كأنها ملكة ولا أحد في مثل جمالها! كيف للمليونير مثله أن يرتبط بفتاة مثلها لا تملك شيئاً؟!!"

قابلتها الباقيات بنظرة سخط وقالت سعاد:

" اهدئي يا ميس ماذا أصابك؟ صحيح أننا لا نصدق ارتباط إيلينا برجل مثله لكن ذلك لا يعني أننا ننظر نحوها نظرة دونية... إيلينا نحن أسفات لم تقصد الإهانة"

تحاملت على نفسي وحاولت كبت دمعتي من النزول إثر إهانة ميس، أعلم أنني درست الجامعة بمعونات مالية وديون لكن ذلك لا يعطي أحدا الحق في الانتقاص من قيمتي! فجأة أمسكت سارة بيدي وقد تغيرت ملامحها نحو الذعر قائلة بخوف:

" إيلينا! أعتقد أننا لفتنا الانتباه بأصواتنا العالية.... لقد..... رأك!"

أحسست بقلبي يهوي بين ساقي ولم أعد أستطيع التفكير، خطرت لي أن أهرب لكن إلى أين؟ ستتواجه في النهاية. ماذا أفعل؟ كيف أتصرف؟

نظرت نحو الغبية ميس وقلت لها بنبرة متورمة:

" حسبي الله فيك! لماذا تشاجرت معها؟ أوقعتماني في ورطة!"

دقت سارة كنفني وهمست لي:

" إنه يقترب من طاولتنا!"

ازداد الرعب في داخلي فنهضت أهم بالهروب لكنني تأخرت، فما إن وقفت واستدرت حتى اصطدمت بصدرة، ابتعدت للخلف فوقعت جالسة على الكرسي. رفعت بصري بحذر للأعلى لأواجه نظراته النارية ثم قال وقد بدا الحنق واضحاً في نبرته:

" إيلينا! ماذا تفعلين هنا؟"

لم أستطع إيجاد صوتي وشعرت أنني على وشك البكاء فقال مصراً على أسنانه:

" انهضي "

وجدت صعوبة في النهوض في البداية حتى تمكنت من الوقوف مقوسة الظهر أشعر بخوف شديد، مد يده وأمسك بكف يدي وجرني خارجاً. فتحت الفتيات أفواههن بذهول تام لما حصل أمامهن. لمحت عيناى فارس يحدق بي مصدوماً في طريقي، فأشحت بصري بعيداً عنه أفكر في مصيري المحتوم مع شادي وما يمكن أن يفعله بي بعد اكتشافه كذبي عليه.

الفصل الثامن والثلاثون

شعرت بالخرج الشديد من تصرف شادي في إخراجي من قاعة الزفاف بهذا الشكل، لا سيما أمام رفيقاتي من أيام الجامعة. استوقفه أحد الرجال يسأله عن وجهته، فاعتذر منه مبلغا رحيله قبل الحفل، فقال الرجل معترضا:

" لكن مروان سيشعر بالضيق إذا لم تحضر زفافه!"

فقال على مضض:

" سيتفهم غيابي "

سار بي حتى وصلنا مصف السيارات، شعرت بألم في معصمي لكنني كنت خائفة جدا من أن أعرب له عن ضيقي من عنفه معي.

فتح باب السيارة لي ودفعني حتى أدخل فجلست طوعا دون جدال وصعد بدوره. أحسست بالنار تنفث من منخريه كالتنين الهائج، التفت نحوي بتعابير قاسية وقال مستاء:

" لا أصدق أنك استعملت حجة أختك المسكينة لأغراضك المريضة!"

نعم أنا أيضا لا أصدق ذلك كيف طاوعت لي نفسي واستغللت ضعف ليان؟ هذه ليست أخلاقي كيف تغيرت هكذا؟

أضاف وقد ظهر الغضب أكثر في نبرته:

" وفعلت ذلك من أجل لقاء فارس أيتها الساقطة!"

جحظت عيناى صدمة مما قال، لكن من يلومه على تفكيره؟ فالأمور تبدو كما هيء إليه، فوجود فارس في الحفل يعطي انطباعا بأنني قمت بالاتفاق معه مسبقا، لكن هذه ليست الحقيقة أنا لم أعلم بتواجد فارس في المكان أصلا فقلت في محاولة للدفاع عن نفسي:

" ليس صحيحا، العروس تكون صديقة قديمة لي لهذا كذبت عليك، لم آت لرؤية فارس أنا أقول الحقيقة.."

صدني مزجرا بقسوة:

" اسكتي أيتها الكاذبة! لا أستطيع أن أصدق أنك ذاتك التي كنت تقيمين الليل، زرعت في نفسي فكرة خاطئة حولك فأنت لست بريئة كما تمثلين! خبيت ظني للأسف!"

اغرورقت عيناى بالدموع ألما من كلامه القاسي، فوجدت نفسي أتحدث بجرأة ردا عليه:

" وأنت أيضا كذبت على عائلتك قلت أنك مدعو لسهرة عمل، تنهى عن خلق وتأتي بمثله؟! "

ضرب عجلة المقود بيده نائرا فذب في نفسي الرعب وأجاب مغتظا:

" ليس من الضروري أن تلم عائلتي بكل تحركاتي مع زوجتي! أردت لهذا الموضوع أن يكون خاصا

بيننا حتى لا نتعرض لأي مضايقة! ولست مضطرا لأبرر لك أصلا!"

استسلمت لبكائي، ولم أدر بما أرد عليه، شعرت بحقارة سلوكي وضالة حجمي أمامه، لكن لماذا

يريد تمضية وقت خاص لنا؟ لم أعد أفهم ما يريد، سمعته يعترف لأمه عن عدم انجذابه نحوي

وتأكيده بعدم رغبته بي، أم أنه كان يراوغ؟ أنا حقا لا أفهمه.

لم أجرؤ على التحدث معه طوال الطريق حتى وصلنا القصر، أوقف السيارة ونظر نحو عجلة المقود

وهو يفكر بشيء ما، ثم قال:

" احمدي الله أنني أمسكت بك قبل أن أراك مع فارس وإلا لشيعت جنازتك غدا"

ثم نظر إلي بعبوس وانحنى نحوي فأجفلت ظنا مني أنه ينوي بي سوءا، لكنه لم يفعل بل فتح الباب

لي، كان عقلي يحاول استيعاب الأمر بينما أجاهد للسيطرة على ضربات قلبي المرتعدة. لم يبعد تواصله

البصري عني بينما كان منحنيا بجذعه أمامي، ثم جلس معتدلا من جديد وأشاح بصره عني أمامه

ولم ينطق بعدها. شعرت بعدم الراحة لجلوسي، وفهمت من سكوته أنه ينتظر مني أن أترجل خارجة

من السيارة.

كنت في صراع مع نفسي وأفكاري المتخبطة بين اعتذار وبين عتاب ذاتي وبين ألم من إهانته. قررت إنهاء الأمر أخيراً والترجل من السيارة والاتجاه نحو القصر هرباً من غضبه، تفاجأ الكل بعودتي مبكرة لكنني لم أكن في مزاج للحديث مع أحد، أو الإجابة عن تساؤلاتهم. صعدت نحو غرفتي وأغلقت الباب على نفسي وأمضيت ليلتي وحدي، حتى أن شادي لم ينام في الغرفة أيضاً. قضيت الليل كله أفكر حتى توصلت في النهاية إلى ضرورة مواجهة شادي وإقناعه بصدقي، أنا لم أذهب لألتقي بفارس كان وجوده هناك مفاجئاً بالنسبة لي. نزلت صباحاً نحو مائدة الإفطار متأخرة بعد اعتذاري عن عدم رغبتني في الأكل.. كانت العائلة قد فرغت من تناول الطعام ويشربون الشاي، توقف عند باب الصلاة فالتفت إلي الجميع، والتقت عيناى بعيني شادي وقلت بحزم دون أن أعير أحداً من حوله اهتماماً:

" أريد أن أتحدث معك!"

تنهد بضيق ثم نهض عن الطاولة وتوجه خارجاً نحو السلام، شعرت بالغضب من تصرفه فلحقت به مصرة على تجاهل نظرات الجميع الفضولية من حولي، صعدت السلام من بعده واقتحمت الغرفة. خرج من خزانة الملابس يحمل ثياباً، نظر إلي ببرود ثم ألقى الثياب على السرير وتوجه نحو الحمام، فوقفت أمام الباب لأمنعه من المرور، قال محتدداً وهو محقق بي:

" أريد ان أستحم!"

قلت متجاهلة إعلانه:

" ما حصل البارحة ليس كما تتصور"

نفخ بضيق وقال:

" ابتعدي عن طريقي"

فقلت مصرة:

" فقط اسمعني! أنا بريئة من اتهاماتك! لم أذهب لألقى فارس صدقاً!"

شعرت بصبره يكاد ينفد، فأمسك بطرف سترته وخلعها ورمها أرضاً، وأنا أراقبه بفضول مخيف، ثم قام بفك أزرار قميصه وخلعه، فصعدت الحمرة إلى خدي فوراً، وأعتقد أنه لمح تغير لوني، شعرت بوجهي يشتعل وجحظت عيناى رهبة مما يفعل، ثم وضع يده على بنطاله وقبل أن يفعل شيئاً غطيت عيني بيدي وابتعدت من أمامه أصرخ باهتياج قائلة:

" عيناى عيناى! "

سمعت صوته يقول بنبرة متهكمة مع أنني لم أر ملامحه:

" ما بك؟ ألم تري رجلاً يخلع بنطاله من قبل؟ "

ازداد احمرار وجهي وابتعدت نحو الباب وقلت مجيبة بتخبط وتلبك واضح:

" لا لم أر!! ولا أريد أن أرى!! اتركني وشأني أيها الوقح!!! "

فتحت الباب وجريت خارج الغرفة عبر السلام نحو الحديقة وبدأت ألتقط أنفاسي، كان الجو ماطراً في ذلك الوقت لكنني لم أعبأ بذلك فالموقف الذي وضعت فيه لا يوصف بالكلمات! لماذا يحصل معي هذا؟ ألم يفهم بعد بأنني هشة وخجولة؟ نزلت دموعي بكاء على حالي وضعفي وخجلي. بقيت جالسة تحت مياه الأمطار فترة من الزمن عليها تغسل دموعي وتهدئ قلبي حتى توقف هطولها. عدت إلى القصر من باب المطبخ أظطر ماء، كانت السيدة هالة تقوم بترتيب المطبخ مع إحدى الخاديمات فتفاجأت من مظهري وشهقت بصوت مرتفع، طلبت منها متوسلة أن تكتم سري وتأتيني بشيء أدثر نفسي فيه، فقد التصقت ملابسى بجسدي من البلل وتملكني الحياء من المرور هكذا أمام أحد، خصوصاً أمجد وشادي.

أحضرت بطانية وتأكدت من خلو الممر من أحد واقتادتني نحو غرفتي، أكدت لي أنها ستتكفل بتنظيف الفوضى التي أحدثتها بدخولي مبتلة إلى الداخل هكذا وألا أعير الأمر اهتماماً.

تأكدت من خلو الغرفة من شادي، لا أعلم أين ذهب لكنني حمدت الله على عدم رؤيته، ولجت إلى غرفة الملابس وأخذت أبحث عن شيء دافئ لأرتديه، كانت معظم القمصان الشتوية قصيرة لا

تغطي أكثر من وسطي، ولم أشعر بالراحة لارتداء أي منها أمام شادي، لا أفهم لماذا لم تختبر لي مايا قطعاً أكثر احتشاماً!

سمعت فجأة صوتاً من الغرفة، فاشدت ضربات قلبي ذعراً لأهوي أرضاً على ركبتي، ثم فُتح باب الخزانة ولمحت قدميه تقتربان مني، سمعت صوته متسائلاً:

" ماذا تفعلين هنا؟ أين كنت؟ وما هذا الماء من حولك؟ "

كنت جالسة أرضاً أتدثر بالبطانية فمد يده واقتلعها من بين يدي، وهيء إلي أنني سمعت شهيقه، ثم قال:

" لماذا أنت مبتلة هكذا؟ هل كنت في الخارج؟ تصرفاتك محيرة حقاً أنا لا أفهمك أبداً "

ثم رفعني من مرفقي ونظر نحوي بعبوس، بعدها بدأت عيناه تنزل نحو جسدي يتأمله بنظرة غريبة غير مريحة. سحبت مرفقي من قبضته واحتضنت جسمي ليتوقف عن التحديق ثم قلت بصوت خافت:

" كف عن النظر إلي! لو سمحت! "

ابتعد إلى الخلف واستدار إلى الجهة الأخرى، فشرعت بالهروب من أمامه بسرعة، ولجت للحمام دون تفكير وأغلقت الباب وأوصدته خلفي بإحكام، ثم بدأت أندب حظي وأشعر بالسوء أكثر تجاه نفسي.

خرجت بعد مدة ألقي نظرة متفحصة من حولي وأنا أرتدي رداء للحمام، وعندما تأكدت أن شادي غير موجود هممت بالاتجاه ثانياً نحو غرفة الملابس، لكن استوقفتني في طريقي بيجامة من الصوف الناعم وردية اللون ملقاة على الأريكة، من وضعها هنا؟

خطر في بالي شادي لكنني حاولت طرد هذه الفكرة من رأسي، ارتديتها على عجلة لئلا يقتحم الغرفة فجأة. ثم جلست على الأريكة وقد بدأت أشعر بالجوع، حاولت إلهاء نفسي بقراءة كتابي حتى أنسى جوعي.

بينما كنت مندمجة مع أحداث الرواية، شعرت بيد تمتد نحو شعري فقفز قلبي ذعرا، ثم سمعت
صوته لأتسمر موضعي يقول مؤنبا:

"أذكر أنني نهيتك عن تجديد شعرك هنا"

شعرت بشعري ينسدل على ظهري ثم بأصابع يديه يمررهما في خصلاتته، لفحتني أنفاسه العطرة
حينما اقترب برأسه قريبا من أذني، ثم همس لتسري في أوصالي قشعريرة غريبة:

"أغار على ما هو ملك لي، تذكرني كلامي جيدا"

شعرت بخدران في إدراكي ولم أستوعب ما قال وقتها، أبعده رأسه عني ثم التف حول الأريكة
وجلس إلى جانبي، نظر إلى الرواية التي في يدي وقرأ العنوان عليها متسائلا:

"أنت لي؟!!"

قلت بسرعة لأبعد أي شكوك من رأسه:

"أقرأها من باب تضيئة الوقت فقط..... أعارتني إياها سارة..... وتوسلتني لأن أقرأها...

وهددتني لتجبرني على قراءتها"

ثم شعرت بأني بالغت في كذبي فسكت، تنهد ثم قال بنبرة هادئة:

"وأنت لي!!"

التفت نحوه متفاجئة بتصريحه، فابتسم متهكما ولم أعد أدري هل قال هذه العبارة ساخرًا أم كان كان
جادًا، أم يا ترى له نية خفية من كلامه؟ عند هذه الفكرة قطبت حاجبي وابتعدت نحو الطرف
البعيد عنه من الأريكة.

لم يعلق بشيء على سلوكي. أخرج من جيب بنطاله شيئًا ثم مده إلي نظرت نحوه فإذا به هاتفي،
رفعت بصري نحو عينيه الرماديتين الغامضتين وقال:

"إياك والتلاعب من خلف ظهري ثانية! سأعطيك فرصة لتحسني من سلوكك هذه المرة"

ثم تساءل بنبرة مخيفة:

"هل من أسرار تخفيها عني غير سر والدك؟"

هزرت برأسي نفيا ليصرخ عقلي الباطني: كاذبة! لكنني حاولت تجاهله قدر المستطاع والتظاهر
بصدقني.

تأملني قليلا وقال مهددا:

" لن أتهاون معك إذا علمت بشيء تخفينه عني! فإذا كان لديك سر بوحى به الآن "

سكت هنية وأخذ يتفحص تعابيري المرعبة من تهديده ثم ابتسم ساخرًا ونظر أمامه نحو الشرفة
حيث السماء ملبدة بالغيوم والجو يبدو عاصفًا، وقال فجأة ليثير انتباهي:

" لو رأيت وجهي حينما علمت بعذريتك "

ابتلعت دهولي وقد أجمني لوهلة، لم أفهم ما قصده فأضاف موضحًا وعيناه لا تفارق المنظر أمامه:

" لا بد أن الطبيب شك بخلل بي! هه! أمي وضعتني في أسوأ موقف لي في حياتي على الإطلاق! "

بدأت أحاول ربط الخيوط لأفهم مقصده، أي طبيب؟ وأي موقف؟ ثم تذكرت دخولي المشفى بعد

حادثة اختطافي وتعرضي للفحوصات الطبية، هل يعقل أنهم علموا ببراءتي؟ هل قالوا لشادي

أني.....

أعاد نظره نحوي بعينيه الغامضتين وقال ليقطع علي أفكارى:

" بما أنك ما زلت فتاة عذراء فهذا يمنحني شعورًا أكبر في التكشير عن أنيابي لمن يحاول حتى

اختلاس النظر إليك "

ثم مال بجذعه نحوي فأجفلت منه، وضع إصبعه على عنوان الرواية وهمس في أذني:

" تذكرى هذا العنوان جيدًا. "

ثم نهض قاصدا الباب وقال قبل أن يخرج:

" الغداء بعد نصف ساعة، تأكدي من احتشامك قبل نزولك فأجد سيشاركنا الغداء "

تركني مع مشاعري وأحاسيسي المتخبطة وقلبي الذي كاد يفجر صدري بضربات القوية، حاولت

استجماع أفكارى وفهم ما مررت به معه. لكن ذهني كان مخدرًا مسكرًا.

ألقيت نظرة على هاتفي لأطمئن على ليان وأمي فأنا لم أسمع أخبارهما منذ يومين، وجدت مكالمات لم يرد عليها من سارة فقررت أن أكتب لها ردًا أبلغها أن هاتفي كان مع شادي لأطمئنها إلى سبب عدم ردي عليها، تفاجأت بإرسالها رسائل عديدة تعتذر مني لإرغامي على القدوم معها ولجوئي إلى الكذب، ووعدتني أن تعتذر من أنسام عن تخلفي عن حضور زفافها.

الأمر الذي أثار تساؤلي هو أن هذه الرسائل لم تظهر لي في قائمة الإشعارات، كما أنها لم تظهر غير مقروءة، ثم بدأت الصورة تتضح لي، لقد قرأها شادي قبل أن يعيد إلي هاتفي.

أخذ شعور الحنق يتصاعد في داخلي لكنه سرعان ما فتر حينما خطرت في بالي فكرة مهمة؛ فلولا قراءته للرسائل لما علم ببراءتي بخصوص فارس، لهذا هدأ من غضبه نحوي. الآن بدأت أفهم سبب تغير مزاجه معي، ربما كان أخذه لهاتفي منذ البداية خيرًا لي حتى لا أتعرض لغضبه وربما درءًا من انتقامه من شيء لم أفعله! حمدت الله كثيرًا، وعاهدت نفسي على أن أكون أكثر حرصًا في المرات القادمة.

نزلت السلام لأتجه نحو صالة الطعام فكنت أول الواصلين، قدمت المساعدة للخدم كما هي عادتي، سألتني السيدة هالة عن وضعي بعد الموقف السابق فشكرتها على خدمتي ومؤازرتها لي وتكتمها مما حل بي.

اجتمع أفراد العائلة على مائدة الطعام وشرعنا في تناول الغداء بهدوء، شعرت بعيني شادي تراقبني كالصقر فكنت أبتلع كل لقمة على مهل حرجًا، وكلما تذكرت إشارته نحو عنوان الكتاب ينتفض قلبي فجأة وأشعر باحمرار وجنتي.

وضعت السيدة انتصار شوكتها جانبا ومسحت فمها بمنديل نظيف ثم نظرت نحو عمي تتظاهر بالسعادة قائلة:

" يا إلهي! نسيت أن أزف إليك هذا الخبر السعيد! السيدة رهام، أم فارس.... أخيرا وجدت عروسا لابنها"

رفعت رأسي فجأة ونظرت نحوها بوجه مصدوم، ألقى نظرة شامته نحوي ثم أضافت:

" عندما يعود أخوك من السفر ستكمل إجراءات خطبة فارس "

شعرت بملايين الضربات تتجه نحوي وكأن عددا غير محدود من السكاكين تُطعن في صدري، وضعت ملعقتي جانبا وقد شعرت بانسداد في شهيتي، سمعت صوت عمي يغرد مبهجاً:
" يا لهذا الخبر السعيد! كم أنا فرح له! آه يا بني الآن أستطيع تنفس الصعداء عقب ما جرى له بسببنا "

ابتسم شادي بزيف لوالده ثم نظر نحوي يتفحص ردود أفعالي، ثم استطردت أمه لتزيد ألمي قائلة:
" ولو تعرف من هي سعيدة الحظ، أو دعني أقول أنه هو سعيد الحظ بها، فالعروس هي رشا ابنة الحاج محمود! هل تصدق؟ "

ظهرت على وجه عمي علامات الدهشة تلتها السعادة ثم الفخر، فشعرت أن صاحبة النصيب لها وزن مرموق، ثم قالت السيدة انتصار مؤكدة إحساسي ولتزرع في قلبي شعورا بالنقص من قيمتي:
" آه! تلك الفتاة رشا لقطعة.... جمال! ومال! وجاه! آه كم هي محظوظة رهام بزوجة كهذه لابنها! "
نهضت فجأة عن المائدة واعتذرت من الجميع متبرمة بأني أشكو من ألم في معدتي واستأذنت للعودة إلى غرفتي بالرغم من محاولات عمي وابنته إيقافي وعرضهم علي اصطحابي إلى الطبيب، إلا أنني رفضت واندفعت نحو غرفتي أهرب من الجميع قبل أن يلمحوا دموعي التي لم يعد في مقدورها الاختباء في جحرها المكشوف.

جلست أبكي بحسرة على أريكتي وشعرت بالسخط من نفسي وحياتي ومشاعري تجاه فارس، أحسست كأنه داس قلبي بقدمه بقسوة، لقد تحلى عني واستسلم عن المحاولة في الحصول على حياة سعيدة لي وله، شعرت بآمالي وأحلامي تتحطم وعاد إلي ذلك الإحساس الذي طاردني فترة انفصالي عن أجد لأتجرع المر من جديد، لكنني لم أكن أريد أن أتجرعه ثانية، ففي المرة السابقة أنا اخترت التخلي عن أجد أما الآن فأنا لا أريد أن يضيع فارس من يدي أيضاً، لست مستعدة للخسارة مرتين. أمسكت بهاتفي دون تفكير وكتبت له رسالة طبعت فيها:

" مبارك لك خطوبتك وشكرًا لك على تسديد الضربة بأخرى أشد إيلامًا، أتمنى لك أن تهنا في زواجك "

ثم أرسلتها وحظرت رقمه حتى لا أتلقى منه أي رسائل أو مكالمات وانكبت على وجهي أبكي بحرقة وألم.

دخل شادي إلى الغرفة واقترب من الأريكة، شعرت بخياله خلفي لكنني كنت أكثر اكتئابًا من أن أعيره اهتمامي اتكأ على ظهر الأريكة وقال:
" أنت على ذمة رجل آخر فلم تبالين به إذا ارتبط بأخرى؟ "
فأجبتته متعبة:

" شادي أرجوك! ليس الآن! "

استدار نحوي وركع على ركبتيه أمامي نظر في عيني كالمغدور وقال:

" أنت تعلمين بخيانتك لي بمجرد التفكير به صح؟ "

صرخت به فجأة قبل أن أستدرك نفسي:

" من يسمعك يظن أن زواجنا حقيقي! أنا أعلم أنك تتواطأ مع أمك وتنصب لي شرا معها فكف

عن محاولة إظهار نفسك كضحية، فكما أنت لا تشعر بشيء تجاهي فإنني أبادلك الشعور ذاته!

شادي، أنا لا أحبك ولا أفكر فيك كزوج أبدًا! "

تغيرت نظرة عينيه إلى صدمة ثم لمحت طيفا من الألم؟

وقف على قدميه وأبعد عينيه عني ثم ابتعد نحو الباب، حاولت أن أهتف باسمه لأعتذر منه لكن

جبني كان أكبر مني، فخرج من الغرفة ولم يعد إليها، حتى أنني لم ألمحه أبدا ببقية اليوم ولا حتى في

اليوم الذي تلاه. بحثت عنه لكنني لم أجده حتى وصل إلى مسامعي من الخدم أن شادي بات خارج

المنزل ليومين، لكن أين؟

شعرت بدوار وثقل في رأسي، لاحظ عمي تغير حالتي الصحية فأمرني بالتغيب عن العمل والعودة

إلى غرفتي لأستريح فيها.

لم أقو على مجادلته كثيرا، وقضيت معظم يومي نائمة أحلم تارة بفارس الذي تلاشت أحلامي معه وتارة بنظرات شادي المتألّمة، كانت ديمة تنقذني من أحلامي كلما صعّدت إلى الغرفة لتطمئن علي أو لتأتيني بعصير أو حساء.

في مساء ذلك اليوم لم أكن في كامل وعيي، شعرت بيد تمسح على رأسي، فتحت عيني فترأى لي شادي لم أكن متأكدة مما رأيت، هيء إلي أنني أنام على مكان آخر غير أريكتي، موضع أكثر راحة واتساعاً، باتت الصورة من حولي غير واضحة المعالم ثم شعرت بشفتي شادي تقبل جبينني. ثم أغمضت عيني.

استيقظت في منتصف الليل ونهضت ألتفت من حولي، وجدت نفسي في سرير شادي... لكنني كنت وحدي في الغرفة من وضعني هنا؟ هل يعقل أنني نمت بغير وعي مني على سريره؟ هل فعلا قدم شادي إلى الغرفة وقبلني على جبينني؟ لا مستحيل لا بد أنني كنت أحلم، فكرت مليا في الموضوع ثم أقنعت نفسي أن ما حصل هو مجرد أضغاث أحلام ولا تمت للحقيقة بصلة.

الفصل التاسع والثلاثون

تماثلت للشفاء في اليوم التالي ورجحت أن سبب مرضي عائد إلى وقوفي تحت ماء المطر فترة من الزمن، هاتفت أمي وليان لأطمئنهما إلى تحسن حالي، فديمة أجابت على اتصالاتهما البارحة وأبلغتهما بمرضتي.

ارتديت ملابسني ورتبت السرير قبل مغادرتي الغرفة، نزلت إلى الطابق السفلي أبحث عن شادي فلم أجده، فحدثتني إحدى الخادמות تخبرني أنه لم يبيت الليلة في المنزل أيضا. غير معقول! أين يذهب؟ وهل ما رأيته البارحة كان فعلا سرايا؟

أوصلتني سيارة الشركة إلى العمل وطمأنت سارة على وضعي، أوصلت لي اعتذار رفيقاتنا بالأخص ميس وبلغتني عن رغبتهن في الخروج معي يوما، لكنني طردت الفكرة قبل أن تستوطن دماغها فهدفهن واضح يردن سحب لساني عن خصوصيات شادي ليتعرفن عليه وأنا لا أعرف عنه الكثير، بالإضافة إلى أنني لا أميل للتحدث عما يخصني لأحد غير موثوق هكذا علمتني ليان. ثم شكوت لسارة بعين دامعة خطوبة فارس، كنت أظن أنها ستعيد علي درسها من جديد في التخلي عن التفكير به، لكنها هذه المرة فاجأتني باحتضانها لي تؤازرنني على حزني وتدعو الله لي بالثبات. سمعت أخبارا عن قدوم والد فارس من رحلته وإكمالهم إجراءات خطبته، فكانت الغصة تزداد ألما في قلبي وحلقي ولم أعد أتناول الطعام كما يجب، أما شادي فقد اختفى بجسده عن البيت وما عاد يأتي أبداً فزاد شعوري بالسوء مما يجري حولي.

علمت بعدها بحفل خطبة فارس نهاية الأسبوع ورفضت بشدة الذهاب معهم، توصلت إلى عمي أن أذهب إلى بيت أمي لأبقى مع ليان متبرمة بأنني ما زلت أشعر بتوعك وأن ليان تحتاج إلى دعمي لها ونقلت له صراحة خوفاً من معايرة زوجته لي ومقارنتي بمخطوبة فارس فلأدرا عني وعنهم

المشاكل قررت أنه من الأفضل ألا أحضر من الأساس. حاول بشتى الطرق إقناعي ووعدني بقص لسانها قبل أن تتجرأ عليّ بالكلام المهين لكنني كنت أشد عناداً منه حتى استسلم لرغبتني أخيراً. شعرت أمني وليان بشيء يمغصني لكنني أكدت لهما أن أحوالي بخير وتجنبت إخبارهما شيئاً عن ذهاب العائلة إلى حفل خطوبة ابن العم حتى لا أدخل في دوامة أسئلتها عن سبب عدم ذهابي معهم. كما أنني لاحظت أن سلوكيات ليان غريبة بعض الشيء فهي تتفقد هاتفها كل دقيقة وكأن ثمة ما يشغل بالها. لم أجرؤ على سؤالها شيئاً فقد خشيت أن تثور كالبركان. كان من المفترض أن أبيت ليلتي في بيت أمني لكنني تفاجأت باتصال شادي بي يعلمني بنبرة باردة أن أجهز نفسي للعودة معه. حسناً يختفي هكذا كالسراب لأيام ثم أجده يتصل بي كأن شيئاً لم يحصل بيننا. مهما حاولت أن أفهم كيف يفكر أجديني في ساحة غموضه كأنني في متاهة فلا أصل لخط النهاية أبداً.

حاولت أمني إقناعي بإعادة الاتصال به لأبقى عندهما فقد تجاوزت الساعة منتصف الليل، لكنني رفضت خوفاً من انقلاب مزاجه، فإحساسي يقول لي أنه ما زال منزعاً مني. نزلت نحو السيارة فور اتصاله بي مجدداً، وركبت في المقعد الأمامي بجانبه، كنت أعلم أنه عائد من حفل خطوبة فارس، كان يرتدي بزة رمادية أنيقة جداً أبرزت لون عينيه وبريقها. وداعبت إحساسي رائحة عطره الزكية التي كانت تفوح في أرجاء السيارة، سألتني مباغتاً:

" كيف هي ليان؟ "

أجبتني باختصار:

" على حالها مكتئبة "

ثم قال لي زرع الرعب في أوصالي:

" أدخل يزن إلى مشفى السجن اليوم، فقد أصيب بتشنج من انهيار عصبي آخر "

ثم أضاف لي زيل غيمة الرعب التي حلقت فوق رأسي:

" لكنه أفضل حالا الآن، اضطررت لمغادرة الحفل فور علمي للاطمئنان عليه، وضعوه تحت المراقبة وحقنوه بالمهدئات "

أخذت أتساءل في سري: إذا كان حزينا إلى هذه الدرجة من انفصاليه عن ليان فلماذا طلقها من الأساس؟ يبدو أن خلف طلاقه لها شيئا أكبر من معرفته بحقيقة ماضيها. ربما شيء وضعته فيه السيدة انتصار بصمتها لا أستبعد ذلك، فهذه المرأة هي مرآة للشهر. وصلنا غرفتنا بعد أن استفسر عمي وابتاه عن وضع ليان للاطمئنان عليها. أغلق شادي الباب وخلع سترته وألقاها على السرير ثم اتجه نحو الحمام وأغلق الباب خلفه دون أن يكلمني أو ينظر إلي. استغللت وقت استحمامه وغيرت ملابسني إلى منامة شتوية من الصوف الناعم وشعرت بالضيق فقميصها لا يتعدى وسطي، سخطت من جديد متسائلة كما في كل مرة حينما أقف كالحائرة أمام الرف الخاص بي؛ بماذا كانت تفكر مايا عند شرائها هذه الملابس لي؟ لا يوجد قطعة واحدة محتشمة كفاية لأرتديها أمام شادي!

أنهيت توضيب ملابسني وهممت بالخروج لكنني تجمدت مكاني فجأة وبدأت ضربات قلبي تخفق بقوة وبالحر يحتاج كياني.

كان شادي واقفا على باب الخزانة عاريا إلا من منشفة تلتف حول وسطه وصولا إلى فوق ركبتيه بقليل. لم أر في حياتي مشهدا كهذا حتى في التلفاز كنت أتجنب مشاهدة الأفلام التي تظهر فيها مشاهد كهذه فحيائي يمنعني من النظر إلى رجل غير محتشم.

صرفت بصري نحو الأرض وأخذ صدري يعلو ويهبط بأنفاسي الثقيلة، سار متقدما حتى وصل أمامي ثم قال بنبرة غريبة:

" ما بك كأنك رأيت شبحاً؟ "

التفت حولي يتفحصني ببصره حتى وقف خلفي تماما وأمسك بربطة شعري وسحبها وبأصابعه أزاح خصلات شعري ليستقر على أحد كتفي كاشفا جزءا من رقبتني له، ثم وضع يديه على وسطي وشعرت بصدرة المبتل يلامس رأسي من الخلف وبأنفه يلامس طرف أذني وهو يشم شعري ورقبتني

فارتجفت يداي من الرعشة التي سارت في كياني، شعرت بصعوبة في التنفس وأخذ العرق ينساب من جبيني ثم قرب شفتيه من أذني وهمس فيها:

" أعطني ملابس لأرتديها... تحركي "

حاولت اقتلاع رجلي المتسمرتين عن الأرض ومشيت أترنح كالمثشي على أثر مخدر نحو الجزء الخاص به من الخزانة، نظرت حولي بارتباك واضح، حاولت السيطرة على ضربات قلبي وارتعاش يدي، تمكنت في النهاية من التقاط بنطال وقميص قطني أبيض، عدت إليه أجز قدمي متجنباً النظر إليه نهائياً ومددت له ذراعيّ بالملابس فقال بنبرة استمتاع:

" ضعها على السرير "

رفعت بصري نحو عينيه باستياء وشعرت أنني سيغشى علي من الخجل. رفع حاجبا متحدياً فسقط بصري تلقائياً نحو صدره العاري المفتول بالعضلات وذاك الشعر القصير الذي يغطي جزءاً من صدره تساءلت في خلدي عن إحساس أصابعي لو مررتها فيه، فصرخ بي عقلي الباطني: ما بك يا إيلينا؟! أنت فتاة مهذبة وتربيت على الأخلاق! تمالكي نفسك! لا تحدقي به عيب! ثم سمعت صوته فجأة يقول:

" هل سيطول تحديقك بصدري أم ستضعين ثيابي على السرير؟ "

أغمضت عيني حرجاً من هذا الموقف المخجل ولطمت نفسي ذهنياً، ثم سرت من جانبه بسرعة نحو الغرفة وألقيت ملابسه على السرير واتجهت نحو أريكتي، ووقفت ألتقط أنفاسي قربها. أحسست بطيفه يلج الغرفة. اختلست النظر إليه مع محاولات عقلي الباطني لينهاني عن ذلك وراقبته خلسة وهو يمرر ذراعيه في القميص ويدخل رأسه في ياقته المدورة ثم راقبت عينا القميص وهو ينزله ليغطي ما بقي مكشوفاً من صدره وبطنه، ثم وضع يده على المنشفة ونظر نحوي بطرف عينه، فاحمر وجهي أكثر من ذي قبل واستدرت أمامي وأطبقت عينيّ بحياء شديد. مرت بضع دقائق على حالي وأنا أقف كطالبة مدرسة معاقبة، ثم فتحت عيني ونظرت إلى انعكاس الخيالات على باب الشرفة فلم ألمح خياله، التفتت إلى الخلف فوجدته نائماً في سريره.

ليان

وردني اتصال خلال الأسبوع من أمجد وقد وجد لي ضالتي ووعدني بإعادة الاتصال بي لترتيب موعد للقاء ذلك الشخص. مرت علي الأيام أحر من جهر مشتعل وأنا في انتظار مكالمته، وبين كل فينة وأخرى أتفقد الهاتف لثلا أفوت مكالمه منه أو رسالة. حتى جاء اليوم الموعد ووردني اتصال هاتفي من أمجد بعد منتصف الليلة التي عادت فيها إيلينا إلى بيتها مع زوجها. كنت في غرفتي أتدثر تحت فراشي أتظاهر بالنوم بينما أحرق في صورة يزن التي أرسلها لي قديما على شرفة غرفته عندما كان يطاردني في تلك الأيام. شعرت بالاشتياق له، حاولت منع نفسي من التفكير به لكنني لم أستطع، ففي كل يوم يزداد بعده يكوى جرحي أكثر ولا أتمكن من التعامل مع ألم قلبي، كنت بين قاب قوسين أو أدنى من أن أفقد عقلي.

ثم جاء اتصال أمجد يخرجني من دوامة أفكاره ودموعي التي غرقت وسطها. وضعت الهاتف بحذر شديد على أذني وتحدثت إليه بصوت منخفض أشبه بالهمس حتى لا تسمعي أمي. اتفق معي أن يقلني عصر اليوم التالي بسيارته من الحي المجاور حتى لا ألفت الأنظار نحوي بركوبي مع شاب آخر عقب طلاقه فيقطع الإشاعات القذرة من أساسها قبل أن تجد بذورها تربة فاسدة لتنمو فيها. أعجبت بتفكيره وتذكرت حديث مازن عنه عندما كان يشيد بأخلاقه، ليته فقط لم يكن متزوجا، لكانت إيلينا الآن أسعد امرأة، ليس لعيب في شادي فهو جذاب تماما مثل يزن ورجل متزن ويتمتع بصفات حميدة، لكن أمجد سمح سهل المعشر، وأهله ذوو أخلاق رفيعة، على عكس تلك الأفعى التي تعيش إيلينا تحت جناحها.

أخيرا جاء الوقت الموعد، بلغت أمي بخروجي دون أن أخبرها وجهتي تركتها وسط أسئلتها وغادرت البيت، كنت أرثدي كنزة كبيرة الحجم لها قبة، رفعتها على رأسي فوق حجابي لأخفي وجهي وعندما وصل أمجد ركبت إلى جانبه ملقمة عليه تحية شفوية ثم أخرجت من حقيبي نظارات داكنة وارثديتها على عيني، نظر أمجد نحوي متسائلا فقلت:

" لا أريد للرجل أن يعلم شيئا عني حتى لا يضر أمي وأختي "

فهز رأسه متفهما وقاد السيارة محافظا على الهدوء.

وصلنا إلى مقهى أو بالأحرى يشبه الملهى في منطقة غريبة لا أعرفها، سألت أمجد عن مكاننا فأبى أن يطلعني وقال موصيا لي:

" أنا لا أرتاد هذه الأماكن أبدا، عليك اتباع الحذر فيها وسأكون إلى جانبك في كل خطوة مفهوم؟! " من المفترض أن أشعر بالرهبة من خطوتي التالية أو من دخولي هذا المكان المشبوه لكن إحساسي كان ميتا ولم يعد يهمني ما قد يحصل.

ترجلنا من السيارة وسرنا نحو المكان، عندما دخلنا رأيت مناظر فظيعة تشبه إلى حد ما ما يعرض في أفلام هوليوود، لم أكن أظن يوما أن أرى مثل هذا الفجور في بلادنا فنحن بلد محافظ عكس غيرنا، سار معي أمجد حتى وصلنا طاولة يجلس عليها رجل أربعيني تحيطه فتيات قاصرات شبه عاريات. كان يرتدي بزة أنيقة وأساور ذهبية وعقدا عملاقا من الذهب، شككت لوهلة أن المبلغ الذي أحمله قد يحتقره، لكنني قررت تجاهل ترددي وجلست مع أمجد مقابله. قال أمجد يذكر الرجل:

" حسنا كما تعرف أنت تدين لي مقابل إخراجك من ورطة الاختلاس تلك وإظهار براءتك فيها، لذا حان الوقت لسد دينك لي "

ضحك الرجل حتى بانت أسنانه الصفراء من شدة التدخين فشعرت بالقرف وقال:

" أعرف أنك حللت القضية وأنت غير مؤمن ببراءتي، لكن أنا حقا بريء أعترف أنني أقدمت على الكثير من الأشياء الخاطئة لكن عملية الاختلاس تلك لم أفعلها وأنا عند عهدي برد دينك..... إذن هذه هي الفتاة؟ "

ونظر إلي متسائلا ثم قال:

" اخلعي نظاراتك حتى نستطيع أن نتكلم بشكل مفهوم "

أجبت بهتهم:

" لساني الذي ينطق لا عيني، لن يؤثر عدم رؤيتي على سير الصفقة "

ابتسم من جديد وشفق بيديه ونظر نحو أمجد قائلا بمرح:

" جريئة! بداية فريدة "

فقال أمجد ممتعضا:

" فقط اسمع منها عرضها إذا أعجبك قم به وإذا لم يعجبك فانسى أن هذا الاجتماع حصل من الأساس "

أشرت بإصبعي نحو فاجراته وقلت:

" عفوا لكن دون اكسسوارات "

ضحك مستهزئا من جديد، وعندما شعر بجديتي في الكلام طرد الفتيات من حوله فتحركن نحو إحدى الطاولات الفارغة بعيدا عنا. أخذت نفسا وقلت وأنا أنظر نحو الاثنتين مهددة:

" ما سأقوله هنا سيبقى سرا ولا أريد لأحد أن يعلم به "

عندما حصلت على وعد من الرجلين أخيرا، أخرجت ما معي من مال ليلقي الرجل عليه نظرة حتى يتأكد من صحة نواياي ثم أخفيته من جديد ووعدته بتسليمه له كاملا فور انتهاء العملية التي سأكلفه بها.

إيلينا

تفاجأت بإقامة حفل في القصر، كان الخدم يقومون بتزيين الصالة الكبيرة والسلام، فوجهت سؤالاً لإحدى الخادמות في المطبخ لأعرف ما يدور هنا فقالت لي:

" اليوم هو ذكرى ميلاد الأنسة الصغيرة وقد تم دعوة الكثير من المعارف اليوم "

فتحت فمي ببلاهة، لماذا لم يطلعني أحد بهذا من قبل؟ اليوم هو ذكرى ميلاد ديمة وأنا ليس لي علم بذلك؟ دخلت مايا إلى المطبخ لتأكد من تجهيز بعض المشروبات والحلويات فأسرعت إليها على الفور وقلت بنبرة مؤنبة:

" لما لم تقولوا لي أن اليوم ذكرى ميلاد ديمة؟ لقد علمت الآن ولم آت لها بهدية "

نظرت نحوي مندهشة وأجابت:

" حبيبتي إيلينا أنا آسفة ظننت أن أمي قالت لك فنحن لم نجد طريقة مناسبة في إخبارك خوفا من ... تضايقتك من أجل أختك فأكدت أمي أنها هي من ستتولى إخبارك... ألم تخبرك؟ أنا آسفة ربما نسيت!"

أو ربما لم تنس! هذا ما صرخ به عقلي الباطني، إلى أي حد قد يصل بها لؤمها؟ وضعت مايا يدها على كتفي بحنو وقالت:

" إيلينا لا تخزني لن تغضب منك ديمة فهي تقدر المحنة التي تمرين فيها الآن مع أختك وطلاقها" حاولت أن أظهر تقبلي للموضوع لكن شيئا في داخلي أصر على التسبب في إزعاج لي، أنا أعلم أن السيدة انتصار ستحرجني أمام الضيوف بكوني زوجة أخ ديمة الوحيد والتي لم تأبه للاحتفال بذكرى ميلادها، وربما تأتي على ذكر وضع ماضي لتلقي اللوم عليه أو طلاق ليان! طلبت مني مايا أن أجهز وألبس الآن لأن الحفل سيكون باكرًا، سعدت نحو غرفتي وقلبت بين ثيابي بحثًا عن فستان جديد أرتيه أمام الضيوف حتى لا أظهر بمظهر غير لائق فلم أجد، جلست بين الثياب المكومة من حولي أشعر بالحيرة، ثم سمعت صوت قرع للباب، توجهت إلى الغرفة وفتحت الباب لأجد إحدى الخادمت تحمل معها علاقة ملابس تم تعليق حقيبة قماشية كبيرة عليها تحتوي ثوبا وقالت موضحة:

" السيد يأمرك أن ترتدي هذه من أجل الحفل"

أخذت الثوب من يدها وانصرفت مبتعدة قبل أن أستطيع سؤالها من تقصد بالسيد، لكنني رجحت أن يكون شادي. استخرجت الثوب لأجد فستانا طويلا رمادي اللون بأكمام ومرصعا حتى وسطه والباقي منه بخامة ناعمة.

ألقيت نظرة أخيرة نحو المرأة لأتأكد من ألا شيء ينقصني، لم أكثر من وضع مساحيق التجميل، بسبب عدم اعتيادي عليها، خرجت من الغرفة وتفاجأت بأن المنزل يضح بالأشخاص، فشعرت بالرهبة على الفور.

نزلت السلام، لكنني توقفت في منتصف الطريق فجأة وأنا أحمل نظرات مصدومة، حدقت بي تلك العينان بنظرة مطولة، حتى جاء صوت عمي من أسفل السلام يهتف لي يناديني، فوجهت أنظاري إليه وأكملت طريقي نحوه مارة بجانب ذلك الشخص، شعرت بعينيه ملاصقة لي لكنني اخترت تجاهله، فهو من اختار أن يبدأ حياته بعيدا عن أحلامنا.

حوطني عمي بذراعه من كتفي وقال أمام رجلين من ضيوفه:

" هذه زوجة ابني الغالية إيلينا "

ثم قدمها إلي يعرفني بهما، هنا سمعت صوت رجل يأتي من خلفنا يرحب بنا فأفلتني عمي ليستقبله بالأحضان وعرفته فوراً بالرغم من رؤيتي له مرة واحدة، فهو يشبه عمي كثيرا كما أنه والد الرجل الذي كنت أطمح للارتباط به. قال والد فارس يتساءل عن سبب تخلفي عن حضور خطبة ابنه:

" كيف حالك يا سيدة إيلينا؟ افتقدناك البارحة في الحفل "

أشحت بصري بعيداً وقلت:

" أنا آسفة كان لدي أمور عائلية "

فابتسم الرجل وقال:

" لا عليك، كنا نرغب في أن تتعري على العروس الجديدة، لكن بإمكانك التعرف إليها الآن فقد أصرت أم شادي علينا لنحضرها معنا لتحتفل بديممة مع الجميع كونها ستصبح فرداً جديداً من العائلة "

شعرت بغصة تخنقني، لم أشأ التعرف إليها أو مخالطتها يكفيني سوءاً أنه ارتبط بأخرى والآن علي تحمل رؤيته معها؟!!

هتف من خلفه ينادي ابنه فازداد شعور الحنق لدي، ثم أقبل ملبيا النداء وقد تعلق بيده يد فتاة حسناء، لها شعر بني لامع قصير وعينان عسلتان جميلتان ولها قوام مشوق وترتدي فستاناً وردياً باهتا يظهر أنوثتها، فشعرت بشيء من الغيرة منها. تعرفنا على بعضنا، قابلتني بابتسامة مهذبة فلم أستطع رد الابتسامة لها فأثرت تجنب النظر إليها.

فجأة شعرت بيد تمتد نحو وسطي فالتفت إلى جانبي فوجدت شادي وقد وقف بمحاذاتي ثم أمال رأسه على رأسي، وألقى تحية شفوية لعمه، توجهت أنظاري نحو فارس الذي شعرت أنه على وشك الانقضااض على شادي. ثم جذبني الأخير ومضى بي مبتعدا نحو مجموعة أخرى من الضيوف.

قلت له قبل أن نختلط بأحد:

" شكرا على الفستان لقد أنقذتني "

فأجاب غير مبال:

" ليس أنا من أحضره أبي الذي اشتراه لك "

سكت فوراً ولم أعلق بشيء.

بعد مضي نصف ساعة على الحفل جاء وقت توزيع الهدايا على صاحبة الحفل، بدأ قلبي يخفق بشدة وأنا أنظر نحو الضيوف وهم يقدمون الهدايا لديمة والتي كانت غارقة في عالمها من السعادة، تقدم منها فارس مع مخطوبته وقدم لها هدية بدورها، ليقدما لها سوارا ذهبيا مرصعا وزجاجة عطر من نوع فاخر، وما أشد فرحتها بالهدية!

جذبني شادي من يدي مقتربا من أخته الصغرى وأمر الخدم بالإتيان بهديتها العملاقة قائلا:

" هذه لأنني أعلم أنك تحبين الأشياء المميزة "

سارعت بفك الشرائط عنها لتكتشف فيها دمية دب عملاقة محشوة بالقطن ويحمل بين يديه أنواعا مختلفة من السكاكر والحلوى، فقفزت بمرح كطفلة صغيرة واحتضنت أختها وأخذت تقبله على وجهه فالتصق أحمر الشفاه عليه ليصبح مظهره مضحكا، أبعدا عنه رغما عنها وتوجهت قافزة نحو دميته التي سبقها إليها جاد وماسة بمرح ووعدهما بجلسة حلويات معها بعيدا عن أمهما.

قال شادي ليعيد انتباهها إليه:

" لم أنته بعد هنا "

ثم أخرج من جيبه هدية صغيرة وقال:

" هذه هديتك من إيلينا فهي أوصت بها لك "

شعرت بقلبي يقفز تأثراً من لفتته الجميلة، أخذت الهدية ونظرت إلي بحنو وشكرتني قائلة:

" لم تكوني مضطرة يا حبيبتي فأنت يكفيك ما تمرين به الآن "

هزرت لها رأسي مبتسمة بإحراج، فتحت الهدية فكان فيها عقد من المجوهرات ينتهي بتعليقة محفورة باسمها، فاتجهت نحوي وضممتني إلى أحضانها بحب، التقت نظراتي بنظرات أمها فرأيت اللهب يخرج من عينيها غيظاً، وقابلتها بنظرة متحدية.

أخذت شادي جانبا بعد توزيع الهدايا وشرعت بمسح وجهه برفق بمنديل نظيف من آثار أحمر الشفاه، ثم قلت مبتسمة بإحراج:

" شكرا لك على الهدية "

نظر إلي مطولا ثم أجاب:

" لا يمكن أن أظهر زوجتي بصورة ناقصة أمام الضيوف فذلك سيؤثر بسمعتي أنا "

تأملت ملامحه وأنا أنظف وجهه ما أشد وسامته! وتلك اللحية ارتسمت بشكل جميل على ذقنه وعيناه كحبتي لوز جميلتان براقتان.

كنت شاردة في تفحص ملامحه فلم أتين تحديقه بي أيضا، ثم تنحنح بإحراج ليقطع لحظة تأملنا في وجه بعضينا واستدار متجها نحو مجموعة من الرجال. كست الحمرة خدي فوراً. وهربت نحو المطبخ لألتقط أنفاسي، فوجئت بفارس يتبعني لتواجه أخيراً.

نظرت من حولي أفكر في طريقة للتملص من أمامه حتى خطر لي الخروج نحو الحديقة من الباب الخلفي لكنني تذكرت أن الجو الآن ماطر وعاصف فلم أبرح مكاني. قال أخيراً ليوجه انتباهي إليه:

" يبدو أن الأمور بينك وبين زوجك انتقلت إلى مستوى جديد "

نظرت إليه عابسة وأجبت:

" هذا الأمر لا يخصك، فأنت الآن مخطوب لأخرى أم نسيت؟ "

قال محتدًا:

" أنت ارتبطت أولاً، لا يحق لك أن تتصرفي بلؤم هكذا "

أجبتة بحنق:

" ارتبطت به رغما عني تحت التهديد أما أنت فباختيارك!"

قطب حاجبيه أكثر وقال:

" لكن التهديد زال مع طلاق شقيقتك أنت التي تهربت"

- " قلت لك أسبابي! خشيت على أمي! لكنك اخترت ألا تفهمه والآن انتهى كل شيء"

- " لا لم يتته! فأنا ما زلت أريدك"

نظرت نحوه بصدمة جليلة وقلت له باستنكار:

" لكنك الآن مرتبط!"

قاطعني قائلاً:

" أمي.... أمي أرغمتني على القبول بها، أنا لا أريدها زوجة لي! قلبي يطمح لأخرى لا أستطيع

الزواج من فتاة ومشاعري معلقة بك أنت"

تهتدت بأسى وأشحت وجهي متألماً، ثم أضاف:

" لن أستمري في خطبتي إن سعيت معي لطلاقك، سأرمي كل شيء خلفي وأمضي معك نحو

مستقبلي، رجاء إيلينا أزيل حظرها تفك عني وافتحي قلبك لي مجدداً"

صدمت من كلامه وضعت وسط حيرتي لقد اكتشف أنني حظرت رقمه وهذا يعني أنه حاول

الاتصال بي، استدار ليغادر قائلاً:

" إذا قمت بإزالة الحظر عن الهاتف سأعلم أنك قررت إعطائي فرصة"

جلست على الكرسي أفكر ملياً بما قال، شعرت بالتيه والضياح والأول مرة لا أتمكن من تحديد الخيار

الصائب لي.

انتهى الحفل وأخذ الخدم يشرعون في التنظيف، حاولت تقديم المساعدة بجمع الزينة للتخلص منها

جانبا، حتى أصرت علي السيدة هالة أن أترك العمل من يدي، اقترب مني عمي ثم قال:

" استمعي لكلام هالة يا إيلينا واحصلي لجسدك على قسط من الراحة فالיום كان متعباً"

ثم استدار ليصعد السلم نحو غرفته قبل أن يدير وجهه نحوي قائلاً:

" ونسيت أن أقول لك فستانك جميل جداً، فعلاً شادي له ذوق رائع ونظرة خاصة "

شعرت بالحيرة في البداية من كلامه ثم بدأت أفهم مغزاه، شادي هو من اشترى الفستان لي، لكن لماذا كذب علي سابقاً؟

.....

ركبت السيدة انتصار سيارتها بعد أن قامت بسحب مبلغ نقدي من أحد صرافات البنوك الآلية، جلست في كرسيها تعدل من مساحيق التجميل على وجهها، وفجأة انقض رجل ملثم نحو السيارة وأخذ يضرب الزجاج الأمامي بمضرب للبيسبول. فانتفضت السيدة انتصار تصرخ برعب وانقض رجل آخر يضرب سقف السيارة بمضرب مشابه، ثم انضم إليهما ثالث ورابع وأخذوا يضربون السيارة من كل مكان بينما هي تحتضن رأسها بكفي يدها تستصرخ طلباً للنجدة من أي أحد. أخذت الدموع تنهمر من عينيها خوفاً حتى سقط جسدها عن الكرسي رعباً مما قد يصيبها ثم توقف الرجال عن تكسير السيارة وضربها واستطاعت أن تخطف نظرة لما يدور حولها، فوجدتهم واقفين بالقرب من سيارتها، فبدأت بالتوسل إليهم ليتركوها في حالها، وهنا تقدم شخص ضئيل الحجم مقارنة بالرجال الأربعة يرتدي لباساً مشابهاً لهم حيث ارتدى الكل كترات سوداء بقلنسوة كبيرة وقاموا بتلثيم وجوههم مستخدمين شماغاً أسود اللون ونظارات قاتمة، اقترب الأخير منها وأطل عليها من نافذة السيارة وأمسك بشعرها ورفع رأسها منه. ازداد بكاءها وتوسلها وعرضت عليه أن يأخذ كل ما تحمل من مال ليتركها في حالها فأشار إليها قائلاً لتفاجأ بصوت أنثوي يحدثها:

" في المرة القادمة سأؤكد من تحطيم جمجمتك مع السيارة "

ثم تركت رأسها بعد أن ضربته بالموود فنزف أنفها بفعل الضربة. وأشارت للجميع بالمغادرة على الفور بعد أن سمعوا صفارات سيارات الشرطة التي لا بد أن أحداً من الأشخاص الذين ابتعدوا

هارين اتصل بهم رعبا مما رأوا. ركب الجميع في سيارة سوداء تحمل رقما مزيفا وانطلقت مسرعة ولم تتمكن دوريات الشرطة من اللحاق بهم أو إمساكهم.

إيلينا

فوجئت بتواجد الشرطة في بيتنا وطاقم طبي يتوزع في أرجاء البيت، نزلت السلم لأطمئن إلى ما يدور في الأسفل فوجدت الجميع يحيط بالسيدة انتصار التي بدا مظهرها شاحباً وشعرها أشعث ووجهها متسخ بكحل عينيها، عندما رأته انتفضت فجأة وبدأت تصرخ بهستيريا قائلة:
"إنها أنت أو أختك المجنونة أنا متأكدة من ذلك! أيتها القذرة ابنة الحي الشرقي لن تهربي من انتقامي!"

لم أفهم ما أصابها جذبها عمي رغما عنها وأرغمها على الجلوس وهو يصرخ بها:
"إيلينا كانت في المنزل طوال الوقت ولم تخرج من غرفتها! فكفي عن إلقاء اللوم عليها، الله وحده يعلم من أسأت التصرف معه فجاء ينتقم"
حاولت الشرطة الفرض بينهما ليستطيعوا إكمال إجراءات التحقيق، ففهمت أنها تعرضت لهجوم، وعلى غير عاداتي الطيبة لم أستطع التعاطف معها بل شعرت بشيء عملاق في صدري يرقص شماتة فيها، ثم دخل فجأة وابل آخر من رجال الشرطة، وقال أحدهم بنبرة جادة صارمة:
"سيدة انتصار أنت رهن الاعتقال بسبب أوراق اختلاس مزورة"
شحب وجه الجميع وانقض ثلاثة رجال من الشرطة نحوها ليكبلوها ويجروها مجبرة نحو سيارة الشرطة متجاهلين صراخ شادي عليهم ونواح ابنتيها واستصراخ عمي لهم ليصبروا قليلا.

الفصل الأربعون

قضيت اليوم مع ديمة ومايا أقدم العون والمؤازرة لهما وأحاول تصبيرهما على مصاب أمهما، أما عمي وشادي انطلقا نحو مخفر الشرطة بصحبة المحامي عقب مغادرة الشرطة مباشرة.

كنت أمسح على رأس ديمة وهي في حجري فقالت فجأة وسط دموعها:

" نصحتها مرارا أن تتوقف عن أذية الغير لكن لا! يجب أن تمارس جبروتها دائما! الحق عليها في كل ما يحصل من مصائب في هذا البيت!"

حدجتها مايا بقولها:

" اسكتي يا ديمة هذه أمنا التي تتحدثين عنها أظهرى الاحترام عندما تتكلمين عنها!"

فنهضت ديمة عن حجري ونظرت نحو أختها باستياء وقالت:

" أنا لا أعرف لماذا جُبلت؟! من البلادة مثلا؟ لقد أفسدت حياتك مع زوجك! لدرجة أنه يجاملك في البقاء هنا أحيانا من أجل ولديه فقط! متى كانت آخر مرة قال لك فيها أحبك؟ أو حتى شاركك النوم في نفس السرير؟ أو حتى في نفس الغرفة!"

مدت مايا يدها وصفعت وجه أختها صفعه مدوية كان لها صدى، ثم نهضت مبتعدة من المجلس.

اقتربت من ديمة لأتأكد من كونها بخير، فزفرت بحنق وغطت وجهها وشرعت بالبكاء المرير.

ديمة مختلفة كثيرا عن أخويها فهي المتمردة على ظلم أمها أما بالنسبة للباقيين فهما على استعداد لإفساد حياتهما وحياة أقرب الناس إليهما فقط لإرضاء تلك الشيطان، حزنت على ديمة كثيرا لكن لم أستطع صنع شيء لها في النهاية هذه الشيطان أمها ومهما كانت سيئة المفترض بديمة أن تظهر لها الاحترام.

حل المساء وبدأ القلق يتصاعد في أوصالي، فكرت أكثر من مرة بالاتصال بشادي لأطمئن إلى سير الأمور لكنني لم أجرؤ، كنت واقفة عند نافذة البهو أنظر إلى الحديقة من الخارج بينما الأمطار تنهمر بغزارة، ثم لمحت ضوءاً مقبلاً من بعيد واستطعت أن أتبين أن هذا ضوء مصابيح سيارة شادي. نزلت ديمة ومايا السلام بسرعة جنونية، يبدو أنهما علمتا بعودة عمي وشادي أيضاً. وقفنا معي قريباً من المدخل، فُتح الباب وكان أول المقبلين شادي وعلى وجهه ملامح غضب واستياء ثم أقبل عمي من بعده ثم... السيدة انتصار!

وكأنهم لم يدركوا وجودنا بعد، فما إن دخلوا حتى صرخ عمي فيها:
" زورت أوراق اختلاس موقعة باسم إيلينا لتدخل المسكينة السجن بسببك؟! أنت غير معقولة أبداً"

شهقت ديمة بينما لطمت مايا فمها ونظرتا إلي وأنا واقفة كالبلهاء كأنها سكب عليّ دلو ماء حار. صرخت السيدة انتصار فيه رداً عليه:

" هذه الفتاة مصيبة على أهل هذا البيت كنت أحاول تقديم خدمة لك بالتخلص منها"
رفع عمي إصبعه أمامها مهدداً وقال:

" لا تجعليني أندم لاستخدام نفوذي في إخراجك من هذه الورطة، وإلا كان من المفترض أن يتم سجنك! أخرجتك فقط من أجل أولادك لئلا أزيد مصابهم"
صرخت به باكية:

" طبعا دافع عنها دافع عن القدرة ابنة الحي الشرقي! لا أدري إلي أي ساحر ذهبت لتلاعب بعقلك يا هشام أنت غدوت عبداً لها"

استدار نحوها مكشراً الأنياب وبلحظة خاطفة صفعها صفعة أدمت شفرتها، فركضت مايا نحو أبيها تستصرخه لأن يهدأ وقال شادي مؤنباً:

" لا تتعامل معها هكذا يا أبي! يوجد ألف طريقة لحل هذه المشكلة رجاء لا تمد يدك عليها ثانية"
فنظر عمي إلى شادي مغتاظاً وقال:

" لا تنقصني أنت أيضا! ولا تتدخل بيني وبين أمك، فعندما تخطئ يجب أن توضع عند حدها!
أليس لديك حمية على زوجتك؟ إنها تسبها وتنعتها بأفذر الصفات وأنت منذ بداية زواجك ساكت
متفرج!"

فصرخ شادي فجأة:

" ربما لأنني لم أكن أريد هذا الزواج ربما لأنك أجبرتني عليه! لم ينظر أي منكما فيما أريد فعلا أو إذا
كنت حقا راغبا في الارتباط بهذه الفتاة أصلا!! خططتما وسعيتما لتحقيق أهدافكما دون حتى
مشاورتي"

سأله عمي بنبرة غليظة:

"ماذا يعيها؟"

- "هاه؟"

- "أظن أنني الآن مستعد لمعرفة إجابة سؤالك لك، فأنا لم أحصل على رد حتى اليوم!"

- "رد على ماذا؟"

- "هل نسيت؟ سؤال الذي طرحته عليك ليلة شجارك مع فارس على سطح الصالة.. أهى

كما وصفتها أمك؟ أم أنها تحايلت علي مجددا كما فعلت بأجد؟ الجواب الشافي معك أنت،

ليس كأنني أحتاج لشهادتك طبعا على طهرها، لكن أريد منك أن تعترف لنفسك قبل أن

تعترف لي بأنك رجل ظالم وجبان!"

تصلب فكه وهو معلق بصره بأبيه، ثم نظر نحو أمه بشيء من الغيظ... وأخيرا انسحب من المكان

محاظفا على صمته المشحون بغضبه، مرّ من جانبي متجاهلا وقوفي وأنا أشهد على كل كلمة

وتصرف، وقتها تنبهت السيدة انتصار إلى وقوفي فاقتربت مني، لكن ديمة أمسكت بذراعها بسرعة

قبل أن تفكر في إيذائي، وقالت مهددة بنبرة مغلظة:

" أقسم أنني لن أترك الأمر يسير هكذا دون عقاب! أنا أعلم تماما أن أختك هي الرأس المدبر لما

حصل فصوتها الرنان ما يزال أثره يصدح في رأسي! سأذيقها المر أعدك بذلك!!"

أحببتها وقد شعرت بغیظ يتصاعد في داخلي فيمدني بشجاعة غريبة:
" تذيقيها المر؟! أكثر مما فعلت أنت والسيد هاني؟! أنا أعلم أن طلاق أختي تم على يدك أنت!
وها هي تتجرع المر يوميا... قتلت كل ما يحمله قلبها من أمل... اذهبي واتهميها بما تشائين لكن
أختي بريئة كل البراءة من اتهاماتك!"

كشرت عن أنيابها وهي تبتسم بخبث أمامي وقالت:

" آه يا إيلينا المسكينة أنت لا تفهمين ما معنى المر بعد! سأزج بها في السجن وأنت لا تعلمين ما
تكابده الفتيات في السجن خصوصا بالنسبة لفتاة ضئيلة الحجم مثل أختك والجمال التي تتمتع به
ستغدو سلعة رخيصة بين يدي المنحرفات وحراس السجن!"

شحب وجهي رعبا من وصفها، وبدأ تنفسي يضيق، ثم سمعت صوت أجد يقبل من الخارج
ليفاجئنا جميعا بدخوله البيت:

" لا لن يحصل ما تقولين لأنني سأتكفل بحمايتها... سأتسلم ملف القضية لأكون محاميا لها"
جحظت عينا مايا من الصاعقة التي أعلنها زوجها وألجمت الصدمة لسان عمي الذي كان بدوره
سيبادر بقول شيء ما قبل أن يتدخل أجد مقاطعا، أما السيدة انتصار فالتفتت نحوه وعلى محياها
علامات المغدورة، ثم تقدم منها وقال:

" نسيت أن أهنتك بخروجك سالمة من السجن.. حمدا لله على السلامة!"

ثم سار مبتعدا نحو السلم ليصعد إلى غرفة زوجته لتتبعه تلك مسرعة.

تقدم عمي نحوي ووضع كفي يديه على كتفي وقال بصوته الأبوي الحنون:

" اذهبي واستريحي يا صغيرتي والصبح رباح... أنا متأكد أيضا من براءة أختك، فلا تخشي
شيئا.... واقبلي مني اعتذارى لما حصل وما كادت تفعله بك انتصار لم أكن أعلم بهذا المخطط أبدا
أنا خجل منك..... ولك وعد مني إذا تجرأت على اتهامك ثانية بقضية لم تقتر فيها فإنني أقسم.....
أنني سأطلقها"

ثم التفت إليها ليقابل وجهها المصعوق، بدأت دموع ديمة تنهمر من مقلتيها أما السيدة انتصار فكأنها تحولت إلى صنم من هول إعلانه، مد ذراعه حول كتفي وسار بي مبتعدا نحو السلام ليوصلني إلى غرفتي .

دخلت الغرفة بعد أن تمنى لي عمي ليلة سعيدة، وأي سعادة بعد هذه الدراما التي شهدناها الآن! أغلقت الباب وتفحصت الغرفة فلم أجد شادي فيها، اتجهت نحو خزانة الثياب ولم أجد له أثرا أيضا، وضعت أذني على باب الحمام وطرقت طرقا خفيفا ولم أسمع ردًا أو أي صوت من الداخل. فأخرجت هاتفي من جيب فستاني وحاولت الاتصال بليان لكنها لم تجب فأرسلت لها رسالة أبلغها أن تتصل بي فوراً. ثم جلست على الأريكة أفكر بما قاله شادي قبل قليل... إن كان لا يرى بي مقومات تؤهلني لأن أكون زوجة له فلماذا يتصرف بحمية زائدة معي؟ أم أن كل ذلك تمثيلية رخيصة منه حتى يحصل على ثقتي قبل الغدر بي مع أمه؟ اتجهت أصابعي تلقائياً نحو قائمة الحظر، أخذت نفساً عميقاً ورفعت الحظر عن رقم فارس.

خفق قلبي بشدة من خوفي من هذه الخطوة، لكن هذا أملي الوحيد، فشادي لا يريدني وهو غير مهتم بما تفعله أمه معي ومخطوبة فارس تلك هي التي خطفته مني، ففعلت ما فعلت شيئاً خاطئاً أنا فقط أسترده ما هو حق لي أصلاً بغض النظر عن العواقب! دخل شادي الغرفة متجهماً الوجه عابساً فتجنبت النظر في عينيه، خلع سترته وجلس على السرير يدفن رأسه بين كفي يديه ثم قال موجهاً سؤاله لي:

" هل فعلاً أختك خلف ما جرى مع أمي؟"

قطبت حاجبي ببرود وأجبتته بامتعاض:

" لا أعلم ولا أظن، أمك خلقت لنفسها أعداء من كل مكان، وهي تتهم أختي لأنني الحلقة

الأضعف بين كل أعدائها"

سكت لبرهة وهو يتأمل في ظلمة الغرفة أمامه، وفجأة وردني اتصال، نظرت إلى شاشتي فإذا بها ليان، وضعت الهاتف على أذني أجيب مكالمتها وباغتها بسؤالني:

" ليان كيف حالك؟ أين كنت صباحاً؟ "

لم أتنبه بعد إلى اقتراب شادي مني ووضع أذنه على الجهة الثانية من الهاتف، ردت علي قائلة:
" في البيت نائمة! ماذا يجري حولك ماذا يقصد أمجد برسالته لي أنه سيتكفل بقضيتي؟ عم يتكلم؟ "
بدأ الكلام يخرج مني استرسالاً لأسرد عليها ما حصل، ففاجأتني بضحكة مدوية من الطرف الثاني
لتقول:

" جاءها يومها! هذا جزاء من يسعى لتدمير الآخرين لتذيق نفسها من ذات الكأس التي أذقتها
لغيرها! قلت لي كادت تتهمك بقضايا اختلاس؟ قسماً بالله لو وقعت بين يدي لاقتلعت عينيها! لا
حبيبتني إيلينا لست أنا من هاجمها! أتعرفين لماذا؟ لأنني كنت سأشوهها وأشوي لها وجهها لكن
الأغبياء الذين انقضوا عليها تركوها سليمة. خسارة لو أنني علمت بأمرهم لاشرت معهم!
فلتعش وتذق غيرها "

نظرت نحو شادي بطرف عيني وهو مغمض عينيه منزعاً بيننا فكه متصلب من حنقه من إهانة
ليان لأمه، ثم ارتأيت اختصار الحديث معها لئلا تزيد في إهاناتها ويغضب أكثر وتمنيت لها ليلة
سعيدة وأنهيت المكالمة.

ابتعد عني قليلاً وهو يفر بغضب ثم دخل الحمام وأوصد الباب على نفسه. خلعت حجابي وفتانتي
وارتديت منامتي وأويت إلى أريكتي، لأحاول أن أنام قبل خروجه من الحمام لأهرب من مواجهته.
لا أعرف كيف سيتصرف الآن عقب كل ما يجري حوله.

ثم رن هاتفي فجأة فأخرجته من تحت وسادتي وصعقت برؤية رقم فارس، نظرت باتجاه باب الحمام
واستقبلت المكالمة بحذر شديد، وضعت الهاتف على أذني وهمست بصوت ضعيف:

" فارس؟ "

فأجاب وقد ظهر في نبرته صوت الملهوف:

" إيلينا! قمت برفع الحظر عني؟! هل هذا يعني أنك ستمنحين علاقتنا فرصة؟ "

بدأ قلبي يخفق بشدة ولا أدري السبب هل هو الذعر من خروج شادي فجأة من الحمام؟ أم شوقا
لفارس؟ أجبته باختصار هامسة:

" أنت تعلم ما يريد قلبي وتعلم حجم مأساتي هنا، أنا تعبت وأريد لروحي أن ترتاح"
سمعت صوته من الجهة المقابلة يهتف بحنو:

" أعدك أن حياتك ستتغير نحو الأفضل، لن يفرقنا أحد! أعدك"

ثم اضطررت لإنهاء المكالمة خوفا من أن يعلم بها شادي. اعترف لي فارس بحبه قبل أن ينهي المكالمة
فازداد اضطراب قلبي. وضعت الهاتف قريبا من صدري وأنا أتخيل تعابير وجهه عندما همس لي:
" إيلينا.... أحبك!"

غفت عيني فجأة وأنا أفكر في فارس، لكن سرعان ما استيقظت مجفلة على صوت رنين هاتفي من
جديد، نهضت متخبطة أبحث عنه في هذه الظلمة، سمعت صوت شادي يهتف لي:

" أسكتي هاتفك يا إيلينا علي الذهاب إلى الشركة باكرا غدا فلدي عمل مهم"

بحثت حتى وجدته واقعا تحت الأريكة ثم تذكرت أنني غفوت بينما كنت أضرم هاتفي إلى صدري،
ربما وقع مني أرضا. التقطته وأضأت شاشته لأجد مكالمة فائتة من أمي وقبل أن أستطيع التفكير في
سبب لاتصالها رن من جديد يظهر رقمها، أجبت فوراً والقلق يعتري صدري، رحبت بها لكنها
قاطعتني بقولها باكية:

" إيلينا! أبوك في العناية الحثيثة إنه بين الحياة والموت!"

شحب وجهي ونهضت جالسة على الأريكة وهتفت بقلق:

" ... ماذا؟ كي... أين أنت؟"

فأجابتنني بسرعة:

" انا مع خالك ذاهبة باتجاه المشفى، أرجوك يا إيلينا لا تكوني عنيدة مثل أختك وتعالني معي

للاطمئنان عليه!"

سكتّ وأنا لا أعلم بم أرد عليها، أنهيت المكالمة على مضض وقمت بالاتصال بليان، شعرت بشادي يقترب من الأريكة ويسألني:

" هل كل شيء على ما يرام؟"

بعد الرنة الثانية استقبلت ليان المكالمة فسألته بسرعة:

" ما به أبي؟"

أجابت برود:

" لا أعلم ولا يهمني ألهذا اتصلت بي؟"

فصرخت فيها:

" ليان!!! دعينا دعينا فقط نتأكد أنه بخير!"

أغلقت الخط في وجهي كتعبير منها عن استيائها مني، أنا لا ألومها فهي شهدت عذابا منه أكثر مما شهدته أنا، كان دائما يضربها ويركلها ويدوس عليها ويطفئ السجائر على ظهرها، بالطبع لن تهتم إذا أصابه مكروه، لكنه كان تحت تأثير المخدرات في تلك الفترة، لم يكن بهذه القسوة عندما كان رجلا عاديا بعيدا عن عالم المخدرات.

أخرجني شادي من غفوة أفكاري بوضع كفه على كتفي، التفت نحوه فقال:

" ماذا حصل؟ هل من خطب؟"

أشحت بصري نحو باب الشرفة الزجاجي أتأمل عتمة الليل ثم بدأت أبكي، اقترب مني وجلس إلى جانبي، أحنى ظهره إلى الأمام واتكأ على فخذه بمرفقيه وتنهد بصوت مسموع ثم قال وهو يلتفت نحوي التفاتة صغيرة:

" هل تريدان الاطمئنان عليه؟ هل ترغبين أن أوصلك إلى حيث هو الآن؟"

ازدرمت ريقى بضيق فلا أعلم ما علي فعله، فنهض فجأة وتناول ملابسي التي كانت معلقة على باب الخزانة وألقاها إلي واتجه نحو الحمام قائلا:

" سأنعش نفسي قليلا ريثما تلبسين لأخذك إلى المشفى"

وصلنا المشفى. كانت الساعة تتعدى الثانية ليلا، خرجنا من البيت دون علم أحد فالكل حسب ما أفترض نيام.

اتجهت إلى الطابق الذي تنتظرنى فيه أمي مع خالي، وعندما رأتنى استقبلتنى بأحضانها تبكي. ألقىت بجسدي وهمومي إلى جانبها وجلس شادي قريبا منا ثم سألتها بين دموعي:

"مَمَّ يعانى أبى؟"

فقال تخبيني:

"لديه ورم خبيث في الكبد وقد انتشر في كل جسده، كبده أصلا مصاب بتليف من آثار المخدرات، عندما كان يجري أبحاثه عنا أصيب بالسرطان قبل سنتين..... هو لا يريد منا إلا أن نسامحه قبل موته"

ازداد بكائي ثم سألتها بمرار:

"وهل ستمكنين من مسامحته أصلا؟"

وضعت يدها على فمها تكبت شهقاتها وسط بكائها الأليم وأجابتنى بعينين صادقتين:

"أنا سبق وسامحته! أعلم أنك لا تقبلين مسامحتي له وقد تشعرين بالغضب مني، لكن والدك كان

شخصا آخر قبل إدمانه كان يحبنا حبا جما حتى أن المفضلة عنده بيننا كانت ليان، لكن كدر الحياة

والفقر الذي كنا نعيشه أوديا به نحو مسرب خاطئ ليفرغ همومه فيها، فضل عن طريقه"

هزرت رأسي اعتراضا وقلت:

"لا أصدق يا أمي! كيف تقولين ذلك وبسببه.... بسببه فقدت إنسانيتك على أيدي ذئاب بشرية!"

ازدادت بكاء وألما ورفعت رأسها إلى السقف وقالت:

"أعلم أنه أكرم بنا، أنا لا أبرر جرائمه لكنه كان زوجي يوما ما ووالد ابنتاي، كان من مرتادي

المساجد، لكنه انحرف بسبب الضيق والفقر.. وتاه عن هويته الحقيقية... الآن هو يعترف بذنبه

وعاد تائبا في أمل لإنهاء الكدر الذي استوطن قلبه وروحه سنينا، هو فقط بحاجة إلى مسامحتنا

ليموت مرتاح البال، ألا تستطيعين يا ابنتي ولو مجاملته بكلمة أسامحك؟ تذكرني أنه بسببه وُهبِت الحياة... الحقد لن يوصلنا إلا إلى طريق مسدود"

نظرت أمامي أشعر أنني فقدت الإحساس بما يدور حولي، كان قلبي ممتعضا معتصرا ألما ولم أعرف كيف أتعامل معه. أطلت علينا ممرضة وأذنت لنا بالدخول للاطمئنان عليه. دخلت أُمي الغرفة قبلي بينما أنا ترددت في البداية حتى دفعني شادي بخفة خطوة للأمام، التفت إليه فقال بنبرة هادئة:

" ادخلي واطمئني عليه "

جررت قدمي وولجت الغرفة. وجدته موصولاً بالأجهزة ويئن بصوت منخفض، شعرت أنه يتألم بشدة فسألت الممرضة التي كانت تحوم حوله:

" لماذا لا تعطينه مهدئات؟ بدل أن يتألم هكذا؟ "

فأجابت ببرود:

" آسفة لا أستطيع هذه أوامر الطبيب فهذا الرجل مدمن سابق ولا نستطيع تعريضه للمسكنات " ازداد اعتصار قلبي ألما فاقتربت منه. نظرت إليه وهو يتألم ثم أردت لمسه، لكنني ترددت كثيرا، حتى تشجعت في النهاية ومددت يدي في كف يده، كانت يده دافئة، ويا له من إحساس لا يوصف، فما إن لامست جلده حتى شعرت بشيء يهوي في قلبي ليستقر في أعماقه. ضغط بأصابع يده على يدي بخفة فرفعت بصري نحو عينيه، كان يبكي وهو ينظر إلي ثم أغلق عينيه والدموع تنساب من مقلتيه. رفعت يده أمام شفتي وقبلتها ثم بكيت بحرقة ومسحت بظهر يده على خدي. وغرقت في بكاء مرير.

لم أذهب إلى العمل في صباح اليوم التالي بل طلبت من سائق الشركة أن يسلك اتجاهها آخر نحو المدرسة عند ليان. ترجلت من السيارة وطلبت من السائق أن ينتظرنى ودخلت المدرسة وتوجهت نحو مكتب مكتوب على بابه مكتب المساعدة. طلبت أن ألقى ليان.

انتظرت بضع لحظات على مقاعد انتظار حتى نزلت إلي من السلام. نظرت إلي مصدومة ثم أكملت سيرها حتى وصلت أمامي واستفسرت عن سبب حضوري، فقلت أهاجمها:

" ليان! يجب أن تأتي للاطمئنان على أبي! إنه يحتضر!"

فعبست في وجهي وقالت ببرود:

" لهذا السبب جئت؟ ظننت أن مكروها أصابك"

استدارت لتعود فأسرعت بالإمساك بيدها قبل أن تهرب من أمامي وقلت دون تردد:

" ليان رجاء! فقط دعيه يرى أنك جئت إليه! إنه نادى على كل شيء! أرجوك! إنه أبونا! حرمننا منه

سين! ها قد عاد يحمل في قلبه جبالا من الهم مما فعله أرجوك دعيه يموت ونحن راضون عنه!"

صنعت يدي بعيداً وتجهمت في وجهي أكثر وصرخت بي:

" أنت لا تعلمين شيئاً! أنت لم تتعذبي تحت جبروته لتشعري بالأسف عليه الآن! لم يذق منه أحد من

الأسى مثل ما ذقت أنا، إذا أردت خيانة ضميرك ومساحته فلك الحرية لن أتدخل بك أما أنا فلن

أسأحه!!!!!"

دفعت مساعدة المدي من طريقها لدى خروجها والتي لم تقبل إلا للاطمئنان إلى سبب صراخها،

وصعدت السلام دون أن تلتفت نحوي حتى، شعرت بالغصة تخنقني فعدت أدراجي أجر هزيمتي

منسحبة وركبت السيارة من جديد لأتجه هذه المرة إلى المشفى لأبقى مع أبي في لحظاته الأخيرة.

ليان

عدت إلى البيت فلم أجد أمي علمت يقينا أنها عنده في المشفى، لا أصدق تصرفات هذه الأخرى!

ما الذي دهاهما كيف لهما أن تنسيا بكل سهولة ما جعلنا نمر به طوال حياتنا؟ كيف لهما أن تغفلا عن

حقيقة كونه السبب الرئيسي في طلاقني؟ خطف مني طفولتي والآن شبابي؟

دخلت لأستحم لعلي أجدد طاقتي، تذكرت فجأة يزن وأخذت أتساءل عم يقوم به الآن في سجنه؟

هل هو بخير؟ هل يتعرض للمضايقات والضرب؟ ماذا لو تشاجر مع أحد المساجين وقتل على

أيديهم؟ طردت هذه الوسوس بعيداً قبل أن تثبت جذورها في نفسي فيصيني هاجس لست

مستعدة لاستقباله الآن، فما أمر به في هذه الفترة يكفيني.

وردتني مكالمة من أمجد يطمئن علي بعد تهديد السيدة انتصار. لم أهتم كثيرا بما ستصنعه لي، ما عاد لدي حلم أسعى له صراحة. جلست أقلب شاشة هاتفي فوردتني رسائل من إيلينا ترجونني لأن آتي للمشفى وأطمئن على أبي لعلها لحظاته الأخيرة فالأطباء أبلغوهم أن أيامه معدودة الآن. أرسلت لي مزيداً من الرسائل ترجونني فيها أن أتذكر جميل أيامه قبل أن يبدأ بتعاطي المخدرات وكيف كان يجنني... كتبت الكثير لمحاولة إقناعي بالغفران له. في النهاية أغلقت هاتفي وحاولت إلهاء نفسي بالنوم، ولما لم أستطع حاولت الانغماس في تحضير دروسي.

حل الليل ولم تعد أومي إلى البيت، جلست في المطبخ أشرب كوبا من الحليب لعله يساعدني على النوم، نظرت نحو هاتفي الذي وضعته على الطاولة وقررت أخيراً إعادة تشغيله، لم تصلني رسائل جديدة من إيلينا مما خلق في داخلي شعوراً بالضيق، لم أعرف سبباً لهذا الضيق! فعدت أقلب في رسائلها السابقة أقرأها من جديد وأتمعن فيها.

إذا قلت أنني لا يهمني ألا يكون لي أب فأنا كاذبة، لا أحد يحب العيش دون أب! على الأقل إيلينا وجدت في والد زوجها ذلك الحنان الذي حرماننا منه لسنوات، أما أنا.... فلم أجد حضن رجل دافئ يؤويني كأب! يزن كان حبيباً لا أباً. أنا أريد الإحساس بذلك الشعور الذي ألبأ فيه لحضن دافئ يغمرنني بحنانه ويحميني بغيرته كالأب.

اتكأت برأسي على كف يدي وشردت في ماضيها التعيس مع أبي ثم أخذت بعض الذكريات تجتاح قلبي.... تذكرت حينما كان يحملني على كتفيه يلاعيني كأنني أحلق في السماء، مشاركته معي رسوماتي، توريته عن أومي أكلي للحلويات دون إذن منها. اطمئنانه المستمر علي ليتأكد من كوني متدثرة جيداً وأنا نائمة..... اعتذاره لي بعد أول ضربة وجهها لي عندما بدأ يتعاطى وتبريره ذلك بتعبه... اعتذاره المتواصل على باب غرفتي وأنا أحبس نفسي وأختي خوفاً منه، وبكاؤه وتوسله لأن ينجده أحد ويخرجه من غمه.

وجدت الدموع مهرباً وأخذت تنهمر باستبسال، دفنت رأسي بين ذراعي على الطاولة أبكي بحيرة ولا أدري ما أفعل.

إيلينا

جلست أمسح على رأس أبي الذي كان يتألم بشدة، كنت قد رجوت الممرضة مرة أخرى بإعطائه مسكنا لربما خفت آلامه لكنها رفضت، ثم بدأ وضعه يتغير فجأة سمعت تغيرا في صوت نبضات قلبه على الأجهزة فأخذت أصرخ وأناادي عليه لعله يسمعي، أمسكت يده فشعرت ببرودتها، اقتربت منه أمي وأخذت تصرخ باسمه فلم يجيبها، شخصت عيناه فجأة وعلا صوت نحبي وأنا أبكي، فدخل الطبيب برفقة ممرضين مسرعاً وأبعدوني عن الطريق، أخذت أصيح وأتوسل لثلاثي يخرجوني من الغرفة ثم نطق فجأة بصوت ضعيف ثقيل:

" ل.....يا...ن سد.....سا... محي....."

ازداد بكائي وعويلي وأنا أرجوهم أن ينقذوه. طردوني وأمي خارجاً فتقدم كل من شادي وخالي منا وجذبني شادي لأحتمي في أحضانه ويقدم لي المؤازرة وليهدئني ويصبرني.

ليان

دخلت في صراع عنيف مع ذاتي نظرت نحو الساعة فوجدتها تجاوزت منتصف الليل، فنهضت أجول بين الغرف حيرة من أمري لا أعرف ماذا أفعل في النهاية توصلت إلى قرار...

إيلينا

بكي ودفنت رأسي في صدر شادي وأخذت أدعو الله بكل طاقتي لأن ينهض أبي ويعطى فرصة أخرى للنجاة، مع أنني بدأت أفقد الأمل....

ليان

ركبت في أول سيارة أجرة وجدتها في طريقي نحو المشفى...

عندما وصلت وترجلت من السيارة، وقفت أمام الباب وقد نما شعوري بالتردد من جديد. أخذ قلبي يخفق بشدة والعرق ينساب من جبيني رغم البرد الشديد من حولي. أغمضت عيني وحاولت دفع نفسي لأدخل وأواجهه أخيرًا.

إيلينا

كانت أُمي تجلس في زاوية الممر ترفع يديها لله تدعوه بقهر أن ينجو أبي أما أنا كنت مستسلمة لبكاء مرير ورأسِي على كتف شادي، لو كنت في موقف آخر لما رضيت بالاقتراب منه هكذا وخصوصا بعد الذي حصل في أمس بينه وبين والده، لكن قلبي كان مشغولا بأبي، ولا وقت لي بالتفكير في أحد أو شيء آخر.

خرج الطيب من الداخل فوقفنا جميعا واقتربنا منه ونحن نضع أيدينا على صدورنا رعبا مما سيقول.....

ليان

وصلت الطابق الذي وضع فيه أبي في العناية الحثيثة، ومشيت بخطى مترددة حتى وصلت ممرا طويلا.. رأيت خيالات أشخاص كثر يجلسون على المقاعد الجانبية، وفي نهاية الممر لمحت طيف أُمي وإيلينا فجريت نحوهما. عندما وصلت كان الجميع يستدير بظهره للجهة الأخرى فهتفت بسرعة قائلة:

" إيلينا! "

التفتت نحوي ووجهها لا يوصف من شدة ما حل بها من تعاسة، ثم صرخت بي وسط دموعها:

" لقد تأخرت يا ليان! أبي .. مااااات! "

ثم انفجرت ببكاء وعويل وارتمت أرضاً على ركبتيها، لم أستطع استيعاب الصدمة في البداية... نظرت في الوجوه التي كانت حولها.. لمحت شادي يقف جانبا لا يدري ما يقول... رأيت خالي يجلس على مقعد يحتضن أمي إلى صدره وهي تبكي بحرقة وألم.

ارتفع صدري وهبط وأنا أحاول أن أتنفس، وليتهم ظهري وسرت مبتعدة عنهم جميعا وما زال عقلي يحاول استيعاب الصدمة. جلست على باب المشفى وأخذت السماء تمطر بغزارة لكنني لم أهتم بذلك. سمعت من حولي أشخاصا يسألونني إذا ما كنت على مايرام، فنهضت وانكبت على وجهي أسير في الشوارع بغير هدى لوجهتي... بدأت ذكرياتي تهاجمني من جديد... وجه أبي الباسم.. وجهه وهو يعاني من آثار المخدر... قسوته.... بكاءه..... وجهه الذي عاد به وقد كساه تاج الكبر... موقف لقائي به في المدرسة... الرعب الذي حل على ملامحه عندما كدت أضربه بمطفاة الحريق... طردني له من بيت أمي..... رجاء إيلينا لي لأودعه.

جلست على رصيف شعرت أنه مألوف لي وبقيت جالسة عليه حتى حل الفجر. لا أعلم كيف نهضت بعدها وكيف سارت بي قدماي حتى وجدت نفسي أفق على باب مدرستي، سعدت السلام ودخلت من الباب الأمامي كانت المدرسة شبه خالية لكن عيني لمحت المساعدة وهناء تقبلان من بعيد، سمعت المساعدة تقول متسائلة:

" ليان؟! معقول جئت مبكرة على مناوبتك الصباحية؟"

تقدمت نحوي هناء ونظرت إلي بقلق وقالت متسائلة:

" ليان! لماذا أنت مبتلة؟ ما الأمر؟"

رأيت المدير يخرج من مكتبه وينظر نحوي ومازن يخطو عتبة المدرسة بينما يتابعني بنظرة فضولية، نظرت أخيرا إلى هناء وقلت دون وعي:

" مات.... مات أبي!"

الفصل الواحد والأربعون

شيع جثمان أبي ظهر اليوم التالي وحضر لصلاة الجنازة عدد من الأشخاص معظمهم من معارف عمي هشام، وقد تكفل بدوره بكل مراسم الدفن والجنائز وحتى أنه أقام صيوانا خاصا للعزاء للرجال، أما عزاء النساء فقد كان في بيت أمي لإصرارها على ذلك، وتكفل أيضا بالطعام والقهوة والتمر. لن أنسى ما حييت دعمه لي ووقفته إلى جانبي في أحلك ظروف حياتي سوءا.

قدم إلى العزاء معارفنا وأقاربنا وجيراننا وأصدقاءنا، امتلأت غرفة المعيشة بالنساء أما صديقات ليان من المدرسة فجلسن إلى جوارها في غرفتها، دخلت إليهن أقدم لهن القهوة والتمر، فوجدت ليان في أحضان صديقتها هناء تبكي بحرقة لم أعدها منذ طلاقها. أدركت وقتها أنها كانت تأمل أن تسامحه قبل موته لكن كبرياءها منعها من ذلك... كيف لو علمت بأنه هتف يناديها في لحظاته الأخيرة؟ ستفقد ما تبقى لها من قوة وجلد. لهذا آثرت عدم إخبارها ونبهت أمي على ذلك أيضا. أعلم أنها نادمة لأنها لم تودعه، فكان علي مؤازرتها وتصبيرها.

اليوم فهمنا معنى اليتيم حقا إنه لشعور يسحق القلب بقسوة، مع أنه غاب عن كل تفاصيل حياتنا المهمة إلا أن كلمة أب تعني كل شيء في قاموس الإنسان الفطري. رجوت له الله بالرحمة وابتهلت بالدعاء حتى بللت دموعي حجابي، أعلم أنه أجرم في حق نفسه وعائلته لكنني ساحتته من كل قلبي فهو عاد تائباً يرجو السماح، فإذا كنت أنا العبد الفقير ساحتته فثقتي بالله أكبر ورحمته أوسع وغفرانه يشمل به كل التائبين بالرغم من حجم خطاياهم.

كانت تجلس بين النساء السيدة انتصار برفقة ديمة ومايا، كانت أمهما تنظر لمن حولها بتقرز وكلمها دخلت امرأة تمد يدها للمصافحة أعرضت عنها تكبرا، لتخرج النساء وتخرجني بتصرفاتها المقيتة.

جلست الواعظة تحدثنا عن الموت والأعمال الصالحة وتذكرنا بالموت هادم الملذات، وختمت موعظتها بالدعاء الجماعي لأبي بالرحمة. وهنا فتحت السيدة انتصار فمها بتهكم لترمي كلاما لا داعي له بقولها:

" ندعو بالرحمة لمدمن مخدرات؟! يا لها من دنيا نعيش ونسمع!"

نظرت نحوها بعض النساء يشزرنها وأخذت أخريات يتهاوسن، فلم يكن معلوما عند الجميع ماضي أبي، شعرت بالإحراج وغصة في حلقي، فأجابتها الواعظة بأدب:

" لا يجوز أن نقول ذلك، فرحمة الله وسعت كل شيء!"

فجأة لمحت ليان واقفة عند الباب وعلى وجهها علامات الصدمة ثم الغضب، فتقدمت من السيدة انتصار وجذبتها من مرفقها لتجبرها على الوقوف، وصرخت بها:

" إذا كنت لن تحترمي المكان الذي أنت فيه الآن أو لن تحترمي الميت وأهله فاخرجي! لا مكان للأفاعي هنا فهذا مجلس ذكر!!"

حاولت النساء وصديقات ليان تهدئتها وقامت مايا تشتاظ غضبا وقالت لليان ترد عليها، بينما السيدة انتصار مأخوذة بصدمتها:

" لو سمحت احترمي نفسك! جئنا نؤازرك في محنتك لم نأت لكي نهان!"

فأجابتها ليان على الفور دون أن ترمش:

" إذن انقلعي معها!"

لطمت فمي بحرج وهرولت نحو ليان أسكتها وأهدئها، فسحبت مايا يد أمها وحثتها على المغادرة، نظرت نحو أختها ديمة بسخط وقالت:

" ألن تنهضي!"

فأجابت الأخرى ببرود:

" لا، سأغادر مع أبي!"

فحدجتها بنظرة ساخطة وتوجهت نحو الباب مع السيدة انتصار وغادرتا.

نظرت نحو ليان معاتبة فهاجت علي صارخة:

" ما بك تنظرين إلي هكذا؟ حماك هذه بحاجة إلى قص لسان! كان الله في عون زوجها! يا لطيف!
السيد هاني نقطة في بحرها!"

لم أجرؤ على مجادلتها فهي عندما تغضب تكون مخيفة، عدا عن كونها محقة، يكفي السمعة التي
نشرت عن والدي، ذميمة أخلاق لن أسامحها.

جلست مع سارة في المطبخ لعدم مقدرتي على مجالسة الناس أكثر وسماع أسئلتهم الفضولية،
ولمحاولة تجنب الهمسات التي كانت تدور في زوايا الغرفة. كانت تمسح على ظهري وتزرع في قلبي
الأمل والصبر وتعدني بالدعاء المتواصل له بالرحمة.

بتّ عند أمي أسبوعاً أما ليان فقد أعطتها المدير إجازة حتى الفصل الدراسي الثاني، فطلبة المدرسة
في هذه الفترة يجرون اختبارات تحصيلية لنهاية الفصل الدراسي الأول، رفضت ليان هذه الإجازة
الطويلة وأصررت على الذهاب إلى دوامها عقب إنهاء الطلبة اختباراتهم من أجل تصحيح الأوراق
وتعبئة الشهادات والأموال الإدارية الأخرى المتعلقة بمهام المدرسة وذلك لتشغل بالها بأموال أخرى
لئلا تجن.

تواصلت مع فارس عن طريق الرسائل وقدم لي تعازيه الحارة على فقد أبي، ثم أخذ يحدثني عن أمله
القريب بارتباطنا وانتهاء دوامة المآسي التي نعيشها.

عدت إلى البيت بعد غياب وانقطاع، وقبل أن أصعد إلى غرفتي لأرتب أموري اتجهت نحو مايا
الجالسة برفقة ابنيها في الصالة الكبيرة تتابع دروسهما. استأذنت للجلوس بجانبها ثم بدأت كلامي
بعد تردد:

" أنا آسفة على موقف ليان سابقاً هي كانت حزينة وقتها ولا تفكر ملياً... "

فقاطعتني بابتسامتها الهادئة وقالت:

" لا بأس لا ألومها، سأصدقك القول، أمي بالغت في تصرفاتها وكانت تحتاج إلى من يضعها عند
حدها، أشعر أنها باتت تخشى أختك!"

ابتسمت ضاحكة بخفة على نكتتها، فابتسمت بدورها من جديد وأضافت:
"أختك تعاني من الكثير الآن فعذرها معها! لكنني أحسدها حقاً! يا لها من جبارة لو كنت مكانها
لا نهرت من فوري، لا أعلم من أين أتتها كل هذه القوة! لكن انتبهي إليها فأمي مصرة على التقدم
بشكوى ضدها لكنها خائفة من موقف أمجد عند دفاعه عنها، للأسف تم وضعي بين نارين الآن!"
أخذت نفساً عميقاً واستودعت ليان لله ورجوت من كل قلبي أن يبعد أذى انتصار وغيرها عنها، لم
أعد أعلم إذا كانت ليان بريئة أم لا لكنني لا أريدها أن تدخل السجن!

فعلتها السيدة انتصار وقدمت شكوى ضد ليان تتهمها بتحريض عصابة ضدها لتهدد حياتها،
استبسل أمجد في درء التهم عنها. أخذت الجلسات وقتاً من الزمن ودامت القضية لمدة أسبوعين
ليصدر القاضي في النهاية قرار براءتها ويسقط عنها جميع التهم. وكان هذا هو الخبر الوحيد الذي
أثلج صدورنا منذ طلاق ليان إلى الآن. استقبلناها أنا وأمي في الأحضان وأصرت ليان أن تشكر
أمجد وتقدم له جزاء على مساعدتها لكنه رفض بشدة طالبا فقط مسامحته جراء كل ما عانيناه بسببه.
كان لا بد لي من شكره بشكل خاص ففاجأته بقالب من الحلوى قمنا بإعداده أنا وأمي وأصررنا
عليه أن يأكل منه كحسن ضيافة منا.

عدت تلك الليلة إلى البيت في سيارة عمي بعد أن هنا ليان على براءتها، أظهرت الشماتة في وجه
زوجته وأنا أستقبل التهنئات من ديمة على براءة أختي حينما وصلت، بينما كانت تلك تشتعل في
نيرانها من أعلى السلام.

في صباح اليوم الذي تلاه، نزلت باتجاه غرفة الطعام لألقي التحية على عمي قبل مغادرتي نحو
العمل، فسمعت السيدة انتصار تحدث أحداً فوقفت عند الباب أسترق السمع فوجدتها تتحدث عبر
الهاتف وتقول:

"آه يا حنان! يا لك من صديقة مخلصه طبعاً سأستقبلها اليوم، أريدهما أن تأتيا إلى القصر لترى تلك
الساقطة بعينها كيف تكون بنات الأكابر اللواتي يصلحن لأن يكنّ أهلاً للارتباط بشاب مثل

شادي!..... طبعا لن يطلقها إذا طلقها فهذا يعني راحة لها ستبقى على ذمته، لكن معلقة وذليلة
بينما ضربتها الجديدة ستغدو ملكة في عز شادي "

اصفر لوني وتراجعت إلى الخلف بخفة وهربت من المنزل باتجاه الحديقة ثم بدأت أتخيل طردهم لي
من البيت لأبقى عند أمي معلقة دون زواج كريم أو طلاق رحيم! شعرت بالغضب يتأجج في
داخلي فأرسلت من فوري رسالة لفارس أشكو له تعبي من الاستمرار بهذا الزواج وأطلب منه
الاستعجال بخطة لإخراجي من معاناتي لئلا تربط معا أخيرا.

شكوت لسارة همي فكانت مصرة علي أن أكسب شادي إلى صفني فتحبط مخططات والدته، لكنني لم
أرد أن أعيش بالذل الذي يعيشه أمجد مع مايا فهي وشادي لا يتمردان على أمهما وما تقوله ينفذ على
وجه السرعة، عدا ذلك فهو أصلا لا يودني!

وصلتني رسالة من فارس في نهاية الدوام يطلب فيها لقائي، فخفق قلبي بعنف وكنت على وشك
المغادرة فعدت إلى سارة بسرعة لأطلعها على نص الرسالة، فتعلقت بيدي بشدة وتوسلتني لأن
أنساه ولا أستمع إليه وأتجاهل طلبه.

بقي ذهني مشغولا طوال اليوم برسالته... ثم أخذت أذكر نفسي بالكدر الذي عشته في هذه الفترة
من وفاة والدي وأحزان ليان ووعود السيدة انتصار بدئي وإهانتني.

دخلت القصر فوجدت السيدة انتصار في الصالة الكبيرة وقد استضافت امرأة خمسينية أنيقة،
وبجانبتها فتاة عشرينية حسناء ذات شعر أشقر وقسمات وجه ناعمة وجسد ممشوق. فشعرت بالغيرة
لوهلة.

نظرت نحو المرأة باحتقار وهمست في أذن السيدة انتصار شيئا فنظرت إلي وضحكت لتقول:
" طبعا أعلم، من تكون بجانب هذه الحسناء داليا! إنها نكرة وستبيت في غرفة الخدم قريبا عند
ارتباط شادي "

يا لوقاحتها! لولا حيائي وجبني لبصقت عليهن جميعا! زفرت بامتعاض وصعدت نحو غرفتي
مسرعة وأنا أسمع قهقهاتهن علي تدوي من بعيد.

جلست على الأريكة ألتقط أنفاسي وأخرجت هاتفي من الحقيبة وطبعت ردا لفارس أقول فيه:
" أنا موافقة على مقابلتك لكن في مكان عام لتباحث في موضوعنا ونضع النقاط على الحروف "
وأرسلتها! فأخذ قلبي ينبض بقوة أكثر وشعرت بالغثيان فاتجهت نحو الحمام بسرعة أفرغ كل ما في
معدتي، وما إن انتهيت حتى خرت رجلاي أرضا وبكيت قهرا وضعفا.
حل المساء وكنت قد اعتذرت سابقا عن تناول وجبة العشاء مع العائلة متبرمة بالآلام في معدتي
وأويت إلى أريكتي أحاول الهروب من كل ما أعيشه بالنوم، فوصلتني رسالة جديدة، فتحتها
لأجدها من فارس يقول فيها:

" إذن نلتقي غدا مساء الساعة السادسة عند مقهى الأمل في الشارع الغربي "

اعترضت سارة بشدة على ذهابي فألجمتها لأحصل على سكوتها في النهاية رغما عنها، لتجلس تتمتم
مع نفسها عن غبائي وعدم تقديري لحصولي على شادي بسهولة فلم تستطع أي فتاة أن تحلم حتى
بلمسة منه، فذكرتها أن زواجي به زواج شكلي على ورق وأنهيت الموضوع وأنا أظهر انزعاجي منها.
طلبت من عمي زيارة أمي اليوم فوافق وأصر على إيصالني بسيارة الشركة، فبعد حادث اختطافي لم
يعد يسمح لي بركوب سيارات الأجرة.

نزلت من السيارة وطلبت من السائق أن يعود إلى القصر ووعدته بالاتصال به عند إنهاء زيارتي،
وفور مغادرته أوقفت سيارة أجرة وركبتها بينما أحاول طرد ذعري من جلوسي فيها، فقد بات لدي
الآن هاجس رعب من سيارات الأجرة. أوصلني السائق إلى وجهتي وتعجلت الخروج من السيارة
قبل أن يفعل بي شيئا. التقطت أنفاسي وأخذت أسير في الطريق متجهة إلى حيث هو المقهى.
بدأت السماء تثلج فأثار دهشتي وارتسمت ابتسامة لأول مرة منذ فترة على شفتي وأنا أرحب بالزائر
الأبيض. أكملت طريقي وأنا أنفخ في كفي يدي حتى وصلت ساحة المقهى. سرت نحو المدخل
لكنني توقفت فجأة وقد تغيرت تعابيري وتلاشت البسمة عن شفتي لتحل محلها نظرة رعب
ودهشة.

فقريبا من باب المقهى كانت تقف بمعطفها الشتوي القصير، وتضع على رأسها قبعة فرنسية التصميم ويدها في جيب معطفها. تقدمت أمامي وأخرجت هاتفها من جيبتها ومدته أمامي لأرى شاشته مضيئة برسائل لمحادثاتي مع فارس، ثم قالت بلهجة مستنكرة:

" كنت أشك بشيء مريب فيه، حتى وجدت هذا الهاتف في إحدى جوارير المنضدة التي بجانب سريره، ولك أن تتخيلي صدمتي في ما قرأت ورأيت "

اكفهر وجهها عن تكشيرة غضب واشمئزاز ثم قالت:

" لا حق لك فيه فهو مخطوب إلي أنا! أنت متزوجة أيتها الساقطة! فماذا تريدن منه؟ "

لم أعلم بما أجيبها ولم أتخيل يوما أن يحصل بي هذا أو أن تكتشف مخطوبته علاقتنا السرية بهذا الشكل، حتى في النهاية وجدت صوتي لأسألها:

" أنت طلبت مقابلي هنا؟ "

أومأت برأسها إيجابا وقالت بحقد:

" كان لا بد لي من إيقافك عند حدك! فاجرة! اذهبي وأصلحي حالك مع زوجك بدل هدم حياة الآخرين، إذا كنت غير مهتمة بزواجك ولا تجيدين كسب محبته لك فهل تحسبن أنك ستستطيعين كسب محبة رجل آخر! ومخطوب أيضا! مريضة نفسية! "

ثم ارتفعت يدها في الهواء لتصفعني بأقصى قوة لها لدرجة آلمني جسديا ونفسيا، شعرت بحرارة صفعتها على وجهي تذيب الجليد، فوضعت يدي على خدي وأخذت أبكي بصمت وذل، ثم سارت من جانبي وقالت بنبرة ساخنة:

" هذه المرة سأسترك كرما مني فقط واهتماما بمشاعر فارس لا غير، لكن إذا فكرت ثانية بالتواصل معه فسأفضحك أمام العم هشام ليؤدبك يا قليلة التربية! "

ثم مضت مبتعدة وتركتني تحت الثلج المتساقط أبكي تحت أضواء المقهى في ظلمة هذا المساء التعيس.

اتصلت بسائق الشركة وشرحت له مكاني، عندما وصل طلبت منه ألا يخبر أحدا بأنه أقلني من هنا، فوعدني بكنتم سري، أكملت بكائي في السيارة حتى شعرت أن عيني تورمتا من أثر البكاء. دخلت خلصة وهربت إلى الغرفة بسرعة وحبست نفسي في الحمام قبل أن أتواجه مع شادي، أصدر هاتفي رنيما فأخرجته من جيب معطفي الطويل فوجدت رقم فارس، وضعت الهاتف على أذني فسمعتة يصرخ من الجهة المقابلة:

" ماذا فعلت بك هذه الغبية رشا؟ أقسم أن أرد لك صاعك منها وأن أهينها كما أهانتك.."
فقاطعتة باكية:

" كفى أرجوك!! إنها على حق!! بحديثي معك وأنا متزوجة من رجل آخر فإنني أكون فاجرة، هذه ليست أخلاقي يا فارس!"
فقال محتدًا:

" لكنه زواج شكلي! هو لم يلمسك صح؟"

حاولت مسح دموعي والتوقف عن البكاء ليكون ردي مفهومًا فلم أستطع، فأجبتة وأنا أبكي:
" لن يشكل ذلك فرقًا... أنا آسفة يا فارس! أن الأوان لنا لنفترق! لم أكلّم الشبان وأنا عزباء حتى أفعلها وأنا متزوجة! وأمّي لم تربني على الخيانة مهما كان المر الذي أتجرعه فهذا ليس عذرا، ربي أرسل لي عقابي اليوم وأنا أستحقه...."

- " ماذا... ماذا تعنين؟ هل .. ستتخلين عنا ثانية؟"

- " آسفة يا فارس قصتنا لم يكتب لها أن تولد حتى تستمر..... وداعًا!"

أنهت المكالمة من فوري وحظرت رقمه وأغلقت هاتفي، ثم جلست على طرف الحوض أستمر في بكائي المرير دون توقف.

لا أعلم كيف نمت تلك الليلة كنت أتجنب الجميع، تفاجأ شادي من عودتي واستلقائي على الأريكة متدثرة بغطائي، حاول أن يفهم سبب انعزالي المفاجئ فلم أقل شيئًا. ثم سمعت صوته يخاطبني:

" لا أعلم إن كان سبب ضيقك... محاولة أُمي في تزويجي ثانية... لكن أريد أن أقول لك فقط من باب التأكيد، زواجي من تلك الفتاة لن يتم فأزيلي كل التفكير السلبي من رأسك "

ثم سمعت صوت الباب يغلق فعلمت أنه غادر وتركني وحدي، شردت في كلامه، هو يظن أنني أبكي بسبب خطة أمه في تزويجه؟ حسنا هذا الموضوع أحد أسباب بكائي فعلا، لكنه أراحني إلى حد ما بإفصاحه صراحة عن إلغاء مخططها، لكن لماذا رفض؟ لا أعلم وليس لدي طاقة متبقية لأفكر في سبب.

" حذرتك! أسفة لا أستطيع إلا أن أقول تستحقين ما فعلت بك! "

كنت قد حدثت سارة بلقائي بمخطوبة فارس البارحة، ظننت أنها ستواسيني لكنها قست علي في ردها هذه المرة، لكنني لا أستطيع أن أغضب منها فهي محقة، أنا إيلينا التي بنت جدارا حول نفسها لتمنع الشبان من الاقتراب منها بعلاقات محرمة، الآن تخون زوجها مع رجل آخر؟! بماذا كنت أفكر حقا؟ ربما لو وجدت عند شادي بعض المودة لما اقترفت هذا الذنب.

أمسكت سارة بيدي لتوجه انتباهي إليها ثم قالت لتشجعني:

" اسمعي! الماضي انتهى... إلى اللقاء يا ماضي! سنبدأ الآن من جديد من هذه اللحظة، سنغير بعض الأشياء في حياتك لكي تصبحي سعيدة اتفقنا؟ يجب أن تستغلي غياب حماك لأنها سلمت ابنها بسهولة لك "

أجبتها معترضة:

" لكنه مشترك معها في خطتها فهي أمرته أن يبقى بعيدا عني، والرجال بطبعهم لا يستطيعون البقاء دون... تعرفين لمس امرأة، لهذا سيستسلم لرغبتها في الزواج لكي يمارس كافة حقوقه التي حرم منها بزواجه بي! "

أجابت مبتسمة بخبث:

" بالطبع! هذا ما أريد إيصاله لك! الرجال بفطرتهم حُـبب إليهم من متاع الدنيا شيئان: المال والنساء، هنا يأتي دورك! عليك أن تكسبيه لك، دعيه يرغب بك لدرجة تجعله ينقض اتفاهه مع أمه! سامحيني على ما سأقوله لكن روتينك اليومي معه يشكل حاجزا له في الوصول إليك، وأنا متأكدة أنه لن يتقرب إليك إذا لم تبدئي بالتغيير من نفسك "

نظرت إليها بامتعااض وسألتها:

" ماذا علي أن أغير في نفسي؟ إنني أتعامل معه بطبيعتي! هل طبيعتي منفرة؟" أجابتنني بسرعة وقالت:

" لا يا إيلينا طبيعتك جميلة وحبابة لكن عليك أن تساعدني في اكتشاف جوهرك أكثر... اسمحي لي سأدخل في خصوصياتك قليلا... هل تتزينين عندما تكونين في غرفته؟" تذكرت مزحته معي مرة عن التزين له، رفعت ظهري وأسندته على ظهر الكرسي وأجبتها وعلى وجهي نظرة استنكار:

" ولم سأتزين في الغرفة التي سأنام فيها؟ من يتزين قبل موعد النوم؟" لطمت وجهها كدلالة على عدم رضاها بردي، أخذت نفسا وقالت:

" تحتاجين إلى الكثير من العمل لتتغيري. سأكلمك دون حياء اتفقنا؟ فحاولي أن تتقبلي كلامي.. سنبدأ بالخطة من اليوم مساء، ستتجهين إلى خزانك وتبحثين في الملابس التي جهزتها لك السيدة مايا وتختارين طبقا ذو قطعتين يكون بنطاله قصيرا جدا لا يصل إلى الركبة والقطعة العلوية مكشوفة الصدر والذراعين "

احمر وجهي من مجرد تخيل مظهري هذا وغطيت وجهي بسرعة وأنا أردد:

" لا لا لا آسفة مستحيل لا أتخيل أن ألبس شيئا كهذا! لم أتجراً مطلقا في حياتي كلها على ارتداء شيء فاضح كهذا! لا لا أبدي الخطة بشيء آخر ثم أن الجو بارد أصلا" أمسكت بيدي لتزيحها عن وجهي وقالت تزجر بغضب:

" غبية! كيف ستعطينه مجالا ليتقرب منك إذا لم تكشفني بعض مفاتنك أمامه؟ لن ألومه على عدم الاقتراب منك حتى هذه اللحظة فأنت ساعدت بصدك له على نجاح مخطط أمه، هل تريد أن تبيتي في بيت أمك معلقة؟ هل ترغبين في رؤية زوجة أخرى له يعاملها كملكة وتأخذ كل انتباهه لها؟ بينما تبقين مهانة؟ أهذا ما تريدن؟ أتريدن زيادة بؤس أمك وشقائها؟"
أومأت برأسي رافضة لهذا الكابوس فأصرت بقولها:

" إذن اكسري حاجز الرهبة والخجل الذي زرع في قلبك وذكري نفسك أن هذا زوجك...
حلالك! ثم أن القصر الذي تعيشين فيه مزود بخدمة تدفئة فلا تحاولي إقناعي بحجة البرد!"
وبعد العديد من محاولات الإقناع تمكنت سارة من فرض خطتها علي.
حل المساء وكنت جالسة أمام الحقيبة التي جهزت فيها مايا ملابس لي سابقا حيث تركت فيها تلك القطع العرائسية والتي تجنبت توضييبها في الخزانة. بحثت عن طقم يشبه وصف سارة حتى وجدت.
نظرت إليه فشعرت بالخجل من مجرد رؤية هذه الملابس، فكيف لو انتهى بي المطاف داخلها؟
أخذت نفسا وأقنعت نفسي بارتدائه.

وقفت أمام المرأة أنظر إلى نفسي بخجل شديد، لأول مرة في حياتي أرتدي سروالا قصيرا كهذا! لم أستطع الاستمرار فجريت نحو ملابسني لأرتديها من جديد... لكن صورة سارة في ذهني أوقفني وأنا أتخيل رد فعلها الغاضب تجاهي، فقررت أخيرا الاستسلام للخطة وخرجت نحو الغرفة.
وقفت خلف الأريكة مكشوفة أمام الباب وأنا أعقد أصابعي بتوتر وحرص كبيرين... ثم غلبنني الحياء وقررت الإخلال بالخطة ونسيان كل ما هذرت به سارة، وقبل أن أتمكن من الرجوع إلى الخزانة لتبديل ملابسني من جديد وإحباط مخططها فتحت الباب... تسمرت موضعي وقد بدا علي الشحوب.

استقبلتني عيناه بصدمة كبيرة حتى شعرت بهما ستقعان من موضعها، ثم فتح فمه بشهقة كبيرة وكست الحمرة خديه، أبعده نظره عني واعتذر وأغلق الباب. وقفت مكاني كالصنم ولم أستطع حتى

التزحزح من موضعي والخجل يعترني كل جزء من كياني. طرق الباب مجددا وفتحه قليلا وسأل وهو يتجنب النظر إلي:

" هل انتهيت من ارتداء ملابسك؟ "

شعرت بأن قلبي سيتوقف وكاد رأسي ينفجر من شدة الحرارة التي اجتاحت جسدي، أجبته بصوت خافت متلعثم:

" أنا ادخل... "

دخل وأغلق الباب ونظر إلي مجددا... بدا مرتبكا أمامي، ثم أخذت عيناه تلقاءي تبهر وهو يتفحص جسدي وبشرتي البيضاء المتكشفة أمامه، رأيت بريقا يتحرك في عينيه، فزاد شعوري بالخجل أكثر وأكثر حتى بدأت أشتم سارة في سري.

أخذ نفسا ثم قال متسائلا:

" ستنامين هكذا؟ أعني ألن ترتدي منامتك؟ "

أجبته وأنا أتجنب النظر في عينيه:

" إذا كنت ترغب في أن أغير ملابسني.. "

قاطعني فجأة برده:

" لا! أعني ابقني هكذا... إذا كنت تشعرين بالراحة... آه لقد تذكرت لدي عمل... سأعود إلى

مكتبي... نامي لا تنتظريني "

غادر وأغلق الباب خلفه، بينما تُركت وسط ذهولي من ردة فعله....

ضحكت سارة حتى تحولت ضحكتها إلى قهقهة فلفتت أنظار البعض إليها، شعرت بالخرج من

تصرفها وندمت لإخبارها ما حصل معي. وضعت يدها على كتفي وهي تمسح دموعها من أثر

الضحك وقالت:

"خطتي تسير على ما يرام، توقعت ردة فعله هذه! أصبته بالارتباك فهو غير معتاد على مظهرك هذا... والآن بدأ يدخل مرحلة صراع نفسي بين أن يحافظ على وعد أمه أو يريح عذابه في الحصول عليك.... لم أكن أعلم أنني أتمتع بكل هذا القدر من الذكاء! سجلنا نقطة لصالحنا!"

انتقلت بي سارة إلى الجزء الثاني من الخطة، فحاولت تنفيذها بدقة، توجهت إلى المطبخ وجهزت بنفسني كوبين من القهوة بالكريمها وعدت أتحمس طريقي لثلاث تقبض علي السيدة انتصار وتحبط المخطط.

دخلت الغرفة بسرعة وأغلقت الباب ثم وضعت الكوبين على الطاولة الصغيرة أمام أريكتي وتعمدت وضع رواية "أنت لي" بجانب الكوبين، خلعت الرداء الذي كنت أرثديه لأظهر في ثوب قصير لا يغطي الركبة مكشوف الذراعين. جلست في انتظار دخول شادي وأخذت أسلي نفسي بقراءة الرواية.

سمعت صوته من خلفي يسألني:

"ماذا تفعلين حتى هذه الساعة؟ ظننتك نائمة"

التفت إليه وأنا أحاول إخفاء خجلي وطلبت منه أن يجلس إلى جانبي مشيرة إلى كوب القهوة، استدار حول الأريكة وهو يتفحصني بنظراته. حاولت زرع ابتسامة على شفتي ومددت له الكوب فأخذه من يدي، ارتشف منه ونظر نحو الرواية وقال:

"ألم تنهي قراءتها بعد؟"

فابتسمت بحرج وقلت:

"بلى.. أنا أقرأها للمرة الثانية"

ابتسم ضاحكا ثم اتجه بأنظاره نحو فخذي فشعرت بالخجل الشديد، أخذت نفسا عميقا ثم قال متسائلا:

"ماذا تغير فيك حتى قررت... تغيير نمطك في الملابس؟"

أجبتة بغير تفكير:

" حتى لا أكذب على مايا إذا أعادت سؤالها علي لتأكد من ارتدائي جميع ما اشترته من أجلي.... أنا لا أحبذ... الكذب!"

صرخ عقلي الباطني: كاذبة! فحاولت تجاهله، رفع شادي حاجبيه غير مصدق، ثم قرب رأسه مني وأخذ يقرأ بعض العبارات في الصفحة التي كانت مفتوحة بيدي، هز رأسه بإعجاب وقال:
" هذه الكاتبة بارعة في الوصف!"

ثم نظر في عيني مطولا، ازددت حياء من نظراته فقررت قطع التواصل البصري بيننا لأنظر نحو الشرفة أراقب السماء المظلمة بارتباك واضح، مد يده لتستقر على فخذي المكشوف أمامه فشعرت بقشعريرة تجتاح كياني تداعب إحساسي، ثم ضغط قليلا بأصابعه علي فشعرت بأنفاسي تتناقل وبوجهي يحمر بشدة، ثم نهض وأنا أشعر به يتنفس بثقل وتمنى لي ليلة سعيدة واتجه نحو سريره وتدثر في فراشه حتى لم أعد أستطيع رؤية وجهه.

سردت ما حصل معي لسارة، فنظرت أمامها بإصرار وقالت:

" يبدو أنه ليس سهل الكسر! لن يتزحزح عن مخطط أمه بسهولة، علينا غزو الجانب الوجداني له أيضا"

سألتهما بقلق:

" ماذا تقصدين؟"

فأجابت:

" عليك أن تتحدثي معه أكثر، لن يجبك ما يألئك.. دعيه يتعرف على جوهر إيلينا الصافي فتتحرك أحاسيسه تجاهك!"

تطلب مني تنفيذ مخطط سارة الأخير مشاركة أفراد العائلة في كل تفصيل يتواجد فيه شادي من وجبة فطور... جلسة عائلية... سهرات خارجية برفقة بعض رجال الأعمال... حيث كنت أتهرب منها جميعها سابقا، بدأت علاقتي مع شادي تتجه نحو منحى آخر إلى.... تألف!.... رحمة!

تجرات أكثر على التزين أمامه وارتداء الملابس القصيرة في الغرفة عندما نكون وحدنا، وكثرت سهراتنا على الشرفة. حدثته بمواقف عديدة عشتها منها ما هو مرّ ومنها ما هو مضحك.. استطعت رؤية ابتسامته الساحرة عدة مرات. بل اكتشفت فيه جوانب أخرى لم أكن أراها سابقا، مثل التزامه بالصلاة، لم أعلم أنه يصلي! ربما لأنني كنت أتجنب التواجد معه في السابق، كما علمت أنه يساهم ماديا برعاية الأيتام وينفق من ماله للصدقات.

اصطحبني مرة معه إلى إحدى الزقاق الشعبية ليقوم بتوزيع مؤن وبعض المواد التموينية على عائلات فقيرة، فوجئت بأنهم معتادون على إحسانه لسنوات.

شيء في داخلي بدأ يتحرك نحوه، وبدأت أخيرا أرى فيه ما تراه غيري من الفتيات مثل سارة. وأدركت سبب انجذابهن إليه فهو كالسحر الذي يذوّب الأذهان!

مرت ثلاثة أسابيع ومخطط سارة يلقي نجاحا لكن ما زال بيننا حاجز لم يتمكن شادي من كسره، فهو لم يفعل أكثر من إمساك يدي، أو لمس فخذي أو مداعبة شعري. وكلما شعرت به يستسلم للانجراف ويتعد عني.

دخلت البيت قبل عودته من العمل بسبب غرقه في بعض الملفات وعقود صفقات في المكتب. فلمحت عيني أمه برفقة ذات المرأة والفتاة اللتين رأيتها معها منذ قرابة شهر، قررت هذه المرة مواجهتها وإحباط مخططاتها. فسرت نحوه. نظرن نحوي باحتقار وقيل أن تتمكن من قول شيء هاجمتها بكلامي:

" ظننت أن الأشخاص الطبيعيين إذا تم رفضهم فإنهم ينسحبون بكرامتهم، يبدو أنه لا كرامة لمعارفك يا عمتي!"

تعمدت أن أصر على أسناني فور لفظ كلمة عمتي، نظرت المرأة نحوي بتحد وسألت السيدة انتصار:

" عم تتكلم بنت البيئة هذه؟"

وضعت يدي أعطي فمي لأتظاهر بالصدمة المحرجة وقلت:

" يا إلهي ألم تبلغيهما برفض شادي للارتباط بابنتها؟ فقد صرح لي أنه شعر بالتقزز عندما نظر إليها، سمعته يقول لك ذات العبارة... أم أنك أحضرتيهما إلى هنا لتتسببي في إهانتها مجددا؟ لم أعد أعرف كيف تفكرين صراحة!"

نهضت المرأة وابنتها باستياء وغضب كبيرين ونظرت نحو السيدة انتصار وقالت تنفث نارا من عينيها وأنفها:

" سيدة انتصار! أهان أنا وابنتي من كنتك الفقيرة! وفي بيتك؟ وأيضا لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل يهيننا ابنك أمامها؟ قلت لنا أنه لا شيء بينهما!!!"

حاولت السيدة انتصار جاهدة أن تطفئ غضب صديقتها لكن الأخيرة أبت وأصرت على مغادرة القصر بالرغم من تمسك السيدة انتصار بها، ابتعدت عن طريقهما وجلست على الأريكة أنظر نحوهن بشهامة متصنعة لأزيد غضبهن ونفور المرأة من هذا المكان. وكأن حاجزا كُسر في داخلي... حاجز رهبتي منها ومن صديقاتها المتعاليات قد تزحزح قليلا من قلبي ليخلق في داخلي جزءا من الشجاعة التي استمدتها من دعم سارة لي ومن وعود ليان وعمي بحمايتي حتى آخر نفس. عادت إلى السيدة انتصار بعد فشلها في إقناع المرأة بالعودة إلى الداخل لتصب غضبها كاملا علي فتصرخ بي وتنعني بأقذر الصفات، فاجتمع الخدم من بعيد يلقون نظرات حول الشجار الكلامي الذي دب بيننا، كما انضمت ديمة ومايا والتوأم على أثر صوتينا المرتفع، شتمتني وقالت تزجر عاليا:

" سأجعل ابني يربيك يا ابنة مدمني المخدرات يا بنت الفسق والفجور!"

فصرخت بها من فوري:

" لا لم تحزري تمت تربيتي على أحسن الأخلاق!!! قد أكون نشأت في مجتمع فاسد لكنه أنبت في داخلي بذرة خير وصلاح، عكس تربيتك أنت فعلى الرغم من نشأتك في بيت عز لم يتمكن أحد من غرس أي قيمة معنوية فيك، فالحقيقة هي أنك أنت جسد خاو بلا معنى! تافهة تجرين خلف قدارة الدنيا، أنا أحمد الله أن أولادك تربوا على يدي رجل صالح مثل عمي وإلا لفسد القصر بما فيه! كان الله في عونك فلكل منا بلاؤه وابتلاء عمي كان بالزوجة الطالحة!!!"

اشتد غيظها وصراخها ثم بدأت..... تبكي؟! فأثار بكاؤها دهشتي! هل أثرت فيها حتى بكت بسببي؟ كدت أشعر بتأنيب الضمير على مبالغتي في هجومي عليها فقد قسوت كثيرا بالكلام، لكن فجأة عرفت سبب بكائها، فقد شعرت بشادي يقبل من خلفي عقب سماعي صوته يتساءل بقلق: " ماذا يجري هنا؟"

ازداد بكاؤها ونحيبها ففهمت أنها تتصنع البكاء لتظهر بمظهر المسكينة أمامه، أمسكت بذراعه وأخذت تبكي في أحضانها وهي تتهمني باحتقارها واحتقار رفيقتها، كما أنها اتهمتني بطرد رفيقتها من القصر وشتمي لهما أمامها، ثم التهادي في إهانتها صرخت باكية تقول: " انظر من حولك الكل شاهد على ما حصل!!! والدك ربي فيها الكبر علينا، أواها في بيتنا لتتكبر وتتجبر! تصرف معها!!"

فصرخت بدوري لأدافع عن نفسي:

" كاذبة! أنت بدأت أولا شتمتني وشتمت تربيتي وعايرتيني بوالدي المتوفى! وأحضرت رفيقتك ذاتها لتمكري لي لتزوجي ابنتها من زوجي أنا!!!"

فصرخت بي لترد علي بإهاناتها ورددت عليها الصراخ بدوري، وبدأنا بتقاذف هجمات متتالية نحو بعضنا هي تسبني وتشتمني وأنا أتحسب عليها وأدعو عليها، حتى صرخت هائجة في ابنها في النهاية:

" شادي!!! أوقفها عند حدها ألا تسمع؟! أمك تهان وأنت تتفرج؟! أتريد أن تغدو عاقاً؟! آه من تعبي في تربيتك ضاع سدى!! فليحل غضب الله عليك لإغضاب أمك! عليك غضب الله عليك غضب الله!"

كان على وجهه نظرات لا تفسر وهو عالق في المنتصف بيننا والعرق يتصبب منه بغزارة.. اشتد صراخها عليه أكثر ودعاؤها عليه ليصلى جهنم على عقوقه ولم تسكت أبدا، حتى بدأت ملامحه تتغير، فصرخ فجأة فيها:

" ماذا تريدن أن أفعل؟! لقد تعبت!! تعبت منك ومنها ومن حياتي كلها!!! تريدن أن أضربها
حسناً سأضربها! كما تشائين "

وفجأة انقض علي يشدني من حجابي فصرخت خوفاً وامتلاً المكان بصياح ديمة ومايا تتوسلانه لأن
يتركني، ازدادت ثورته أكثر وبدأ ينهال علي بالضرب في كل موضع من جسدي حتى تكورت علي
نفسي أصرخ وأستنجد أحداً، أي أحد! ثم خلع حزام بنطاله وأخذ يجلدني به وهو يصرخ في أمه
دون توقف وهو يقول:

" ارتحت! ارتحت الآن؟! "

أخذت أمه تستصرخه أن يهدأ ويبتعد عني بعدما رأت من وحشيته. كاد أن يغشى علي من الألم حتى
انقض أمجد من حيث لا أدري نحونا ودون تفكير منه دفع شادي بعيداً عني وصرخ به بقوة:
" ستقتلها بين يديك يا أحمق! حسبي الله فيك! أهكذا تعامل زوجتك؟! لا بارك الله فيك!!! ماذا
جرى لك؟؟؟ "

كان حجابي قد أزيح عن شعري من أثر ضرباته فأخذت أحاول رفعه لأغطي شعري أمام أمجد دون
وعي كامل مني، ثم سمعت صوت ديمة تبكي وتصرخ:
" أقسم أن أقول لأبي، تالله لأقولن له ما فعلتماه بها!!! "

حاولت مايا والسيدة هالة رفعي عن الأرض فدفعت أيديها بعيداً عني ونهضت بمفردي أرثي حالي
وأبكي على مذلتني وهواني قبل بكائي على ألمي الجسدي، وركضت نحو غرفتي بخطى متعرجة
لأتجنب مواجهة الجميع من حولي.

الفصل الثاني والأربعون

.....

قال أمجد معاتبا:

" ماذا جرى لك يا رجل؟ أي جنون أصابك حتى تضربها هكذا؟ "

كان شادي متكئا على مسند الأريكة يغطي وجهه بيده ويتألم على تهوره، نظر أمجد نحو زوجته وقال يأمرها:

" مايا اذهبي لغرفة أختك وهدئها لا نريد تضخيم المشكلة أكثر بإيصالها إلى عمي! حاولي إقناعها بترو "

فجرت مسرعة نحو غرفة أختها دون جدال، ثم ألقى نظرة ساخطة نحو عمته وقال مؤنبا:

" هل أعجبك الوضع الآن؟ ارتاح كبرياؤك عقب ضرب البنت؟ "

أشاحت بصرها أرضا في خزي وقالت مؤنبة لابنها:

" لم أتوقع أن يفعل هذا كنت أظن أنه سيتجراً ويطلقها، لم أعلم أنه سيدبحها بين يديه! "

أبعد شادي أصابعه عن عينيه ليشزر أمه بنظرات نارية، ثم وضع أمجد يده على كتفه وقال يحثه على الذهاب إليها:

" الحق بها قبل أن تتطور الأمور معها إلى شيء لا يحمد عقباه، شادي هذه زوجتك لا قطعة أثاث! اذهب واستسمح منها "

زفر شادي بألم وابتعد عن الأريكة وهو يشعر بضعف عام في ساقيه وألم فظيع في صدره. اقترب من باب الغرفة وأراد فتح الباب....

إيلينا

بكيت بكاء متواصل غير منقطع، كيف صدقت سارة واستسلمت لمخططها وجريت نحو شادي هكذا؟ لقد خدعت به! إنه يكرهني بشدة، ضربه لي بهذا الشكل الجنوني لا يدل إلا على حقه. أخذت أتحمس ذراعي من الألم ثم نهضت نحو خزانة الملابس وبدأت بتوضيب بعض الملابس في حقيبة وأنا أكمل نحيبي وبكائي المتواصل حتى بدأت أشهق من كثرة البكاء. جررت الحقيبة نحو الغرفة وأنا أشعر أن قواي قد خارت وما عادت بي قدرة للمسير حتى، ثم تفاجأت بباب الغرفة يفتح وبه يلج داخلا فالتقطت خفي عن الأرض ورميته في وجهه فصد الضربة، نزلت لألتقط الفردي الأخرى لألقيها عليه مرة أخرى فتفاجأت به يقف قبالي ويمسك بيدي بقوة فصرخت ألما فتركها.

نظر نحو حقيبي وقال مستفسرا برعب جلي في نبرته:

" إلى أين؟ "

أجبتة وأنا أنظر نحوه نظرة حاقة:

" لن أبيت ليلة أخرى هنا سأعود إلى بيت أمي! فكرامتي عندها محفوظة! "

أمسك بي غصبا وقال مهددا:

" لا لن تخطي خارج هذه الغرفة! "

حاولت إبعاده عني وتخليص نفسي من قبضته، صارعته وأنا بين يديه وهدرت بمزيد من الصراخ بشكل هستيري ليتركني، فضمني بين ذراعيه القويتين ممسكا بي أكثر فأخذت أضرب صدره بقوة بقبضة يدي. فثبنتني بأحد ذراعيه وقد لفها حول وسطي وبذراعه الأخرى ثبت رأسي بإمساكه به من الخلف بقبضة يده، نظرت نحوه بتحد بعينين ممتلئتين بالدموع ثم زجرت بغیظ:

" لن أسامحك ما حييت! لقد أهنتني "

ابتلع غصة في حلقه وتصلب فكه السفلي وهو يطالعني، ثم على حين غفلة مني انكب على وجهي فجأة وباغتني بقبلة قوية طبعها على شفتي رغما عني.

ظهرت دهشتي من تقبيله لي فأرخيت مقاومتي لوهلة دون أن أشعر، شعرت بالزمن قد توقف وفقدت القدرة على التفكير. كانت شفثاه القطنيتان تلتهمان شفثي المرتجفين بشغف حزين.. لم يطل بقبلته كثيرا فأبعد شفثيه عني وعيناوي تكادان تخرجان من محجريها من شدة ذهولي، نظر في عيني بأسى، ثم قرب شفثيه ثانية وأخذ يطبع قبلاات على خدي وفوق دموعي ثم شرع يهمس لي بين قبلااته:

" آسف! سآحيني! لم أقصد أذيتك! تصرفت بلا وعي! هي السبب!"

ثم ضممني بقوة إلى صدره فتأوهت ألما من ذراعي وظهري.

أفلتني ونظر إلي وقال متسائلا بتردد:

" هل تتألين؟"

لم أجه وبقيت صامئة من أثر قبله التي خدرت لساني عن الكلام وذهني عن التفكير. هذه قبلتي الأولى على الإطلاق! لم أتخيل يوما أنني سأحصل عليها، أو أن يكون الشخص الذي سيقبلني هو شادي. بل أنني لم أظن يوما أن تتوسم بها شفثاي في موقف مرير كهذا.

سار بي نحو الأريكة ورجاني أن أجلس عليها ففعلت وأنا أحده بنظرة ساخطة، لكن ما جعلني أجلس هو ارتجاف ساقي فقط وليس امثالاً لطلبه، غاب عن عيني واتجه نحو الحمام مسرعاً ثم عاد يحمل معه مرهما. اقترب مني وساعدني في خلع معطفي دون أن يمهد لي، كنت أتألم بشدة فكبت أنيني. لم أكن أرتدي تحت المعطف إلا قطعة خفيفة من القطن بالكاد تستر لحمي عن البرد.

جلس إلى جانبي ثم رفع القميص ليكشف ظهري فشعرت بالخجل يتصاعد في أنحاء جسدي، لأضم يدي على صدري لأمنعه من الاستمرار في رفعه، ثم أخذ يمسح على ظهري بالمرهم، كنت أشعر ببرودة المرهم على جلدي تزامنا مع لهيب أصابعه الحارة لتحرك بي إحساسي نحو شيء جديد لم أله في حياتي، حدثني ليخفف من جو الارتباك الذي حل بي:

" أخبئ هذا المرهم عادة لأعالج نفسي من الكدمات التي يسببها لي وزن من التمارين الرياضية، فهو

قوي البنية بشكل مؤلم"

تذكرت ذلك اليوم الذي رأيته يتدرب فيه على يديه وقسوة عمي عليه وقتها.
شعرت به ينزع عني حجائي، ثم أمسك بأطراف شعري وأزاحها على كتفي لئلا تلمس المرهم. قرب رأسه من كتفي الآخر وطبع قبلة حارة عليه ثم قال وهو يسند رأسه عليه:
" أنا حقا آسف أخطأت في حقك! لم أكن أريد أن أضربك صدقا! أنا لست رجلا مجنوناً ولا أعنف النساء بالضرب، لكنها أخرجتني من طوعي! تعاملني كأنني فأر تجارب وتنسى أحيانا أنني ابنها الوحيد! لا أحد يبر أمه كما أفعل لها، ومع ذلك تجد فسحة لتبدي سخطها! تعبت وأنا أجاهد حتى لا أكون عاقا لها... هي تصعب على الآخرين محبتها، نحن أولادها يصيبنا الجنون منها أحيانا فكيف بالغريب؟! أنا تعبت يا إيلينا حقا تعبت! والله لم أرد يوماً أن أمد يدي عليك! أنا رجل منهار"
تفاجأت من تصرّحه الذي أدلى به، أدت رأسي ناحيته فرفع رأسه ينظر في عيني ثم مد لي بحزامه وقال عندما رأى صدمتي:

"اجلديني.. انتقمي لنفسك مني.. خذي بثأرك! لكن أرجوك لا ترحلي"
سالت دموعي ثانية فأخذ يمسح بها عن وجهي بيده وهو يتوسلني لأجلده، فأخذت الحزام منه وألقيته أرضاً، هزرت رأسي برفض وقلت متلعثمة:
"أنا... لا أجابه.. النار.. بالنار!"

وعدت للبكاء من جديد، فجذبني نحوه لأستقر في أحضانه فاتسخ قميص بزته بالمرهم، حاولت الابتعاد بتلك الحجة لكنه أصر غير مكترث لما أصاب ملابسه، ثم قبلني على رأسي مبللاً إياه بدموعه الحارة. بقيت في حضنه فترة من الوقت رأسي على صدره وذراعه تحوطاني ويمسك إحدى يديّ ويداعب أصابعي بيده بينما أنا في صراع عنيف مع نفسي، هل أدفعه بعيداً عني أم أبقى بين أحضانه؟

ربت على ذراعي لأنهض وأمسك بيدي وسار بي نحو السرير وقال وهو يتفحص نظراتي يستشف رد فعلي:

" ستنامين الليلة في السرير..... إلى جانبي "

شهقت متفاجئة من إعلانه، ثم حملني بوضع ذراعه تحت ركبتيّ والأخرى خلف ظهري ووضعتني على السرير، غير منتظر أي إجابة مني.

خلع سترته وقميصه وأنا أحاول استيعاب ما مر معي من لحظة دخوله وحتى هذه اللحظة، ثم صعد إلى السرير بجانب عاري الصدر فاحمر وجهي خجلا.

أمرني أن أستلقي ففعلت تلقائيا دون تفكير، ما السحر الذي ألقاه علي بحق؟! أدت ظهري له وأنا ما زلت أحاول معالجة اللحظة بكاملها في ذهني.

شعرت به يقترب مني ثم حوطني بذراعه نحو صدره العاري، وداعبت رأسي أنفاسه الحارة، فأحسست بأني أذوب خجلا، حاولت إغماض عيني مرارا لأنام وللأسف لم أتمكن من النوم، لكنني أبقيت عيني مغمضة لأتظاهر أنني نمت.

ضربات قلبي لم تهدأ وأنفاسي ثققلت أكثر وخجلي غدا كالمنبه الذي منعني من النوم... بعد وقت طال سمعت طرقا على الباب فلم أجرؤ على الرد، أدت وجهي للخلف قليلا فلمحت شادي نائما بوجه مهموم، لم يستمر الطرق طويلا فسرعان ما اختفى. استدرت نحوه بجسدي كاملا وأخذت أتفحص ملامحه والضيق البادي على وجهه النائم، مررت أصابعي على لحيته الصغيرة، ثم احتضنت خده بكفي، بكيت بصمت وأنا أمسح على وجهه، لم أجد وصفا لشعوري في تلك اللحظة... لم أعرف ما يريد هو أو ما أريده أنا... هل استمراري في الزواج منه خير لنا؟ أم أن علي التفكير بالانفصال جديا هذه المرة؟ وليس ذلك لأجل فارس فأنا سبق وأقنعت قلبي برحيله، لكن من أجلي أنا... ومن أجله هو.. من أجل كرامتي المجروحة.. فتلك الثعبان لن تهدأ حتى تخرج سمومها ثانية لتقضي علي بضربة قاتلة والله وحده يعلم أي جبروت ستمارس علي هذه المرة.

هل سأتمكن من مساحته على ما أجرمه بي؟ شاب برزانة شادي وهدوء أعصابه وغموض هالته قهرته امرأة ليضرب فتاة لا حول لها ولا قوة مثلي؟ أهو نادم فعلا على ضربي؟ لقد ألمني نفسيا أكثر من إهانته لي جسديا، لكن بما أنني فتاة غبية وضعيفة رضيت بالهوان فلم أستطع حتى الخروج من المنزل وتركه، لقد تحكم بي كالمعتاد.. اهدهني يا إيلينا لا تقسي على نفسك! فهو فاجأك بمبادرته،

أتخيلت يوما أن يأتيك معتذرا متوسلا؟ إنه شاب يسيره غروره وكبرياؤه اللذين تنازل عنها وقد أسقطهما عند مدخل الغرفة، ونسي حتى هذه اللحظة أن يعيد ارتداءهما... أعتقد أن علي الانتظار حتى الغد لأحكم على كل شيء من حولي وأنهي الصراع الذي أحياه.

لا أدري كم من الوقت مر وأنا أصارع الأرق حتى أتمكن من النوم لكنني غفوت أخيرا وتسلس النوم إلى عيني من غير أن أشعر.

استيقظت صباحا لأكتشف أنني نائمة وحدي على السرير، نهضت جالسة أنظر حولي وأحاول أن أفتح عيني لتعتاد على ضوء الشمس المتسلل من باب الشرفة الزجاجي، صدمت لكون الصباح مشرقا بعد الجو الذي شهدناه في الفترة السابقة. نهضت عن الفراش وتفقدت اللحم وخزانة الثياب فلم أجد أثرا للشادي، فقررت أن أغتسل لأزيل ما علق بي من غم وهم من البارحة.

ارتديت ثيابي وألقيت نظرة أخيرة على وجهي، في العادة لا أحبذ وضع مساحيق التجميل لكنني اضطررت لذلك لإخفاء تورم عيني من آثار البكاء البارحة. نزلت نحو الطابق الأرضي فلم أجد أحدا، تقدمت نحو السيدة هالة تطمئن علي، فشكرتها وأنا أشعر بالخرج مما حصل لي في الأمس أمامها وأمام الجميع، اقتربت مني وهمست في أذني قائلة:

" عسى الله أن يأخذ بحقك يوما ما لا تقنطي فرحمته بعباده الطيبين قريية "

أثر كلامها في نفسي عميقا، ثم سألتها عن مكان تواجد أفراد العائلة واستعلمت إذا كان عمي قد علم بشيء حصل بخصوص الموضوع، فعلمت منها أن عمي وشادي انطلقا إلى الشركة وزوجته اتجهت إلى الجمعية ومايا ذهبت لإيصال الطفلين إلى المدرسة بمناسبة بدء دوام الفصل الدراسي الثاني كما أوصلت أختها إلى الجامعة.

أما بالنسبة لما حصل البارحة فقد أكد أجد على الجميع كتمان الأمر عن عمي حتى لا تتورثاثرته ويزداد الوضع سوءا.

تفهمت قرار أمجد بعدم إطلاع عمي على ما حصل فهذا الأفضل للجميع، لا أريد للمشاكل أن تزيد أكثر لست من محبي النيران الهائجة، ثم أنني ما زلت أحاول معالجة تصرف شادي معي البارحة، لقد حيرني بموقفه ولا أدري كيف سأتعامل معه بعد أن أراه الآن. طلبت من السائق أن يوصلني إلى العمل فقد تأخرت مسبقاً، وها قد بدأت سارة تحاول الاتصال بي لتطمئن إلى سبب تأخري.

وصلت المكتب فانقضت علي هائجة كالمجنونة تتفقد حالي، سمعت تمتهات من شهد عن تعاملي بتميز بسبب زواجي من المدير وحضوري إلى العمل وقتما شئت، فشزرتها ثم هببت فيها بلا حرج أو اهتمام بمن حولها وقد وصل بي الضجر من أصحاب الألسن الطويلة منتهاه فقلت: " لا شأن لك بي! آتي إلى العمل وقتما شئت أو لا آتي على الإطلاق! لدي رب عمل يحاسبني وإذا لم يعجبك الموضوع فقدمي استقالتك وأريحينا من لسانك الطويل وتدخلك الدائم فيما لا يعينك!!" ساد صمت مريب في أرجاء المكتب قطعه صوت صفير أحدهم ثم تبعه آخر ثم هلل ثالث بمرح، وأخذ مجموعة من الشبان والفتيات يهتفون لي باستمتاع فزاد من غيظ شهد وغضبها. جلست على الكرسي أحاول تجاهل كل ما حولي، وحاولت سارة أن تسبر غوري لتفهم سبب تغيري المفاجئ، ثم جاءني سكرتيرة شادي فجأة فعم الهدوء في المكتب فوراً وسكت الجميع خوفاً من نقلها أحداث الفوضى له. نظرت إلي وقالت: " السيد يأمرك بالنزول وقت استراحة الغداء إلى سيارة الشركة لتقلك إلى المطعم حيث ستناولين وجبة الغداء معه"

ثم ولتني ظهرها وانصرفت قبل أن أستطيع الرد عليها، نظرت نحو سارة مصدومة لتسألني بفضول قاتل:

" ماذا فعلت حتى وصلت إلى مرحلة حصولك على موعد غرامي؟"

قطبت حاجبي استنكاراً وقلت:

" ليس موعداً غرامياً!! بم تهدين؟"

تمعت في ملامحي جيدا وقالت:

" لماذا أشعر أنك لست بخير؟ ماذا جرى معك؟ عينك متورمتان ومساحيق التجميل لم تستطع إخفاءها.. ما الأمر؟"

طلبت منها أن تقترب حتى أهرس لها لثلا يسمعنا أحد، فالوقت الذي أستطيع محادثتها فيه على راحتي عادة هو وقت الاستراحة وما دام شُغل بأمر آخر اليوم لن أستطيع قص الموضوع عليها إلا الآن قبل أن تكثر المهام علينا، أردت الحصول على مشورتها في ما علي أن أتصرفه. كانت بين كل فينة وأخرى تشهق بصوت مرتفع فتلفت بعض الأنظار الفضولية نحونا ومع محاولاتي العديدة في تهديدها بأن أتوقف عن الكلام إلا أنها لم تستطع تمالك نفسها، لم أقص عليها بالضبط موقف شادي معي بسبب خجلي وشعوري بخصوصية اللحظة معه، فاكثفت بإعطائها رؤوس أقلام لما فعل.

جلست حائرة تفكر فيما خضته البارحة ثم قالت:

" أتعلمين أمرا؟ كنت أغبطك على زواجك منه لكن الآن أنا أشفق عليك، فأمه الحرباء هذه ستسبب لك بالمعاناة ولدي إحساس بأنها لن تستسلم أو تمل من أذيتك.... إيلينا حبيبتني استودعتك الله... لكن مع ذلك استغلي عطفه لصالحك لعلها بداية بشارة خير"

ابتسمت ضاحكة على كلامها وقلت لأطمئنها:

" لا تخافي علي في السابق كنت أخشاهما بشدة، أما الآن وبعدهما وقفت في وجهها وتعرضي للذل فقد خمد إحساسي بالرهبة منها، أعني ماذا بقي بيدها أن تفعله أكثر؟ لن أسمح لها بإيذائي وسأستبسل بالذود عن نفسي، كما أنني أظن أن شادي لن تطاوعه نفسه لتكرار ما فعل، لأنني جديا لن أسكت إذا تكرر الأمر!"

حانت ساعة الاستراحة ونزلت نحو السيارة كما أمر شادي، وسارت بي بينما أطلع الطريق بتوتر من خلال النافذة حتى وصلت إلى المكان المحدد. طلب مني السائق الترحل والدخول من باب المطعم الذي أمامي.

دخلت من حيث أرشدني فوقعت عيناى فوراً على شادى لىلس إلى طاولة بكرسىين بجانب النافذة، كان يتأمل المنظر خارجاً ولم يتنبه إلى وصولى فى البداية، ثم كأنه شعر بوجدوى فالتفت نحوى ثم اعتدل فى لىلسته وأمرنى باللىوس ففعلت.

كنت أشعر بتوتر كبير، فأنا لم أدر كيف أتصرف أمامه بعد موقفه معى البارحة والقبلة التى طبعها على شفتى ونومى بين أحضانه وكلما تذكرت شعرت بوجدتى تتوهجان.

طلب لنا طعام الغداء حيث كان نوعاً من المأكولات البحرية، لم أذق فى حياتى الطعام البحرى عدا عن النوع الرخىص من السمك المتداول به فى أحياننا، كانت الوجبة لذيدة على غير توقعى، لم أجرب ولو مرة أن أشارك العائلة فى تناول طعام بحرى، فكنت ألقاً لأكل أشياء أخرى أو أبقى بلا طعام متذرفة بشعبى، ابتسم بينما كنت أطلع وحبتى وقال:

" طلبت هذا النوع من الطعام خصيصاً حتى تُقبلى على أكله فى المنزل بدل التهرب من تذوقه " تحاشيت النظر فى عينيه الأسرتين مرتبكة، إذن كان يراقبنى ومطلعاً على أحد أسباب تجنبى الأكل معهم، يا له من شاب فطن! لم أكن أع أنه يهتم بما أفعل عادة أو أنه يراقب أفعالى لكن الآن تغير إحساسى.

تناولنا طعامنا بهدوء، مسح فمه بمنديل نظيف ثم وضع يده على الطاولة، نظر فى عيني نظرة جدية مطولة ثم قال أخيراً:

" جئت بك إلى هنا لأننى أردت التحدث معك فى موضوع مهم جداً " ارتأيت أن أوجه اهتمامى بالكامل إليه فوضعت الشوكة من يدي ورفعت ظهري لأظهر له كامل انتباهى، فهز رأسه قليلاً، ثم نظر نحو أصابع يده التى كان يطرق بها على الطاولة، بعدها أعاد النظر إلى وقال:

" لمسأتى لك ليلة أمس.. طعم شفتيك.. ملمس بشرتك الناعمة.. أشعلت فى داخلى النار التى كنت أحاول إخمادها تجاهك... لذا.. من اليوم فصاعداً أريد ممارسة حقوقى الزوجية كاملة معك.. "

تابع بينما يدرس تعابير وجهي المصدومة:

"نهاية هذا الأسبوع... موعداً... ستغدين زوجتي رسمياً، فكوني على أهبة الاستعداد"

فتحت فمي أشهق ببلاهة، فغطيته بيدي تلقائياً بينما عيناى تسمرتا عليه من هول الصدمة، أمال رأسه قليلاً وقال:

"أنا أريدك إيلينا... قلبي.. يريدك"

ثم نهض عن الطاولة ووضع مبلغاً من المال عليها وقال:

"أكملي طعامك وهذا حساب الغداء يجب أن أنطلق الآن فلدي موعد صفقة... عندما تفرغين ستجدين السائق في انتظارك"

وقبل رحيله استدار نحوي ثانية وقال بحزم:

"هذا سيبقى سرا بيننا لن تعلم أمي به، مفهوم؟"

لم أستطع طبعاً إكمال وجبتي من شدة ذهولي، أو بالأحرى ذعري من نيته القادمة نحوي. عدت إلى الشركة قبل انتهاء موعد الاستراحة بقليل ووجدت سارة في المكتب برفقة بعض الزميلات يتحدثن ويتسامرن، فجريت نحوها وطردت الجميع من حولها. تصرفي أربكهن لكنهن لم يجادلنني، كنت أعلم يقيناً أن الجميع من حولي يشعر بشيء غريب أصابني وشعرت بنظراتهم الفضولية تتعب أنفاسي.

أمسكت بيد سارة واتجهت بها إلى زاوية المكتب بجانب النافذة حيث الكل بعيد عنا، نظرت إليها والعرق يتصبب من جبينى ويديا ترجفان، كانت علامات الحيرة والقلق باديتان على وجهها السمح، سألتني عن الخطب الذي بي، حاولت أن أنطق عدة مرات، حتى أخذت نفساً في النهاية وزفرته على مهل كما نصحتني لتهدأ أعصابي قليلاً، نظرت في عينيها مجدداً وقلت وسط خجلي الذي عاد يظللني ويطلع على خدي حمرة شديدة لم أستطع إخفاءها:

"إنه يريد... نهاية هذا الأسبوع يريد... يا رب كيف أصوغها؟"

صرخت بي مرتبة مما سأقول:

" ماذا؟ قولي!"

أغمضت عيني بقوة وقلت:

" يريد أن أمكنه من نفسي وتتحول علاقتنا لمنحى آخر"

سمعت صوتها تشهق عدة مرات، ثم فاجأتني باحتضانها لي مبتهجة، وهمست لي قائلة بمرح:

" هذا ما كنا نسعى إليه! أم نسيت؟"

أصابتي لحظة من البلاهة قليلا وأنا أعالج ما قالت ثم غطيت وجهي بيدي إحراجاً وقلت:

" لم أكن أدرك هذا ظننت أن الهدف من الخطة هو الحصول على حبه، مع إضافة نكهات لطيفة

بسيطة كالخروج في مواعيد والإمساك بأيدي بعضنا... الرقص تحت ضوء القمر.. "

عضت سارة لسانها لتكبت ضحكتها، ثم نعتني بالغباء والسذاجة، استبسلت في إقناعي أن الأمر

سيكون على ما يرام وأنه ليس بهذه العظمة التي أتخيلها، وأكدت لي أن هذه سنة الحياة وأن هذا حقه

الشرعي وطلبت مني ألا أضخم الموضوع أكثر وأنظر إليه كأنه أمر اعتيادي.

لم أستطع إقناع نفسي بهذا الكلام فالتوتر كان باديا على وجهي، فقالت لتحاول تهدئي:

" ها هي ليان قد خاضت التجربة، الأمر ليس صعبا لهذه الدرجة!"

فتمتمت أجيها:

" ليان مختلفة عني! إنها على عكسي جريئة! وواثقة من نفسها وليست بلهاء مثلي.. "

عدت إلى البيت وعلمت بغياب أجد عن القصر في رحلة عمل قصيرة، لذا شاركت أفراد العائلة

وقت الغداء مكشوفة الشعر، كانت السيدة انتصار تراقبني لتستشف شعوري من أثر التعذيب الذي

ذقته أمس، فقابلتها بنظرة حادة. لكنها لم تزح عينيها عني وكأنها لا تعبأ بمشاعري التي جرحت

بسببها وأخذت تطالعني بنظرات محتدة، ثم قدم عمي وشادي إلى المائدة.

جلس عمي في كرسيه إلى جانبي بابتسامته المشرقة بعد أن قام بطبع قبلات على رؤوسنا جميعا

وجلس شادي مقابلي، ثم بدأ يتفحصني بعينه، فازداد شعوري بالارتباك، كان بين الفينة والأخرى

يراقبني وأنا أتناول طعامي حتى شعرت بالحياء يتمكن مني.

فرغنا جميعا من تناول الطعام وكعادتي بدأت في جمع الصحون لأقدم المساعدة للخدم، بينما انصرف الجميع إلى أعمالهم إلا شادي الذي كان ما يزال جالسا يراقبني، اقتربت من جانبه حتى أسحب صحنه فأمسك بيدي، فحفق قلبي بشدة ثم نهض واقفا وسار خلفي. وضع يديه على وسطي وشعرت بأنفاسه على رقبتني، فهمست له بصوت ضعيف:

"قلت لي نهاية الأسبوع.."

فقاطعني بقوله هامسا:

"نهاية الأسبوع ستتم مراسم زواجنا، أما الآن فأريد إشباع رغبة أصابعي في تحسس شعرك الحريري"

شعرت بيديّ ترتجفان بشدة فوضعت الصحون على الطاولة لثلاث ثواني وتتكسر. لامس أنفه رقبتني فدغدغ إحساسي، وشعر لحيته القصير داعب بشرتي، بينما أصابعه تتجول بحرية بين خصلات شعري الذي كنت على يقين من عشقه له من أول نظرة... فجأة دخلت السيدة هالة الغرفة وتنحنحت بإحراج، فانتفض مبتعدا عني، أخذت الصحون وهي تشعر بالإحراج وسارت مبتعدة.

نظرت نحوه نظرة معاتبة لأنه أخرجني، فابتسم مستمتعا، غمزني بعينه ومضى نحو السلام لينزل إلى الطابق السفلي.

في تلك الليلة نمت على سريريه مجددا وقلبي لم تسكت ثائرتيه من ظهيرة اليوم وحتى الآن، بدأت أشك بأنني فعلا أعاني من مشاكل في الثقة بنفسني. لماذا لا أستطيع تقبل الأمر كسائر النساء؟ الأنني عشت حياتي متوقعة على نفسي ولم أسمح يوما لأي شاب بمحادثتي؟ أم السبب هو؟ إنه جذاب ووسيم وله كاريزما مميزة تجعل أيا كان يخر عند قدميه طلبا لرضاه... فماذا لو... ماذا لو لم أكن كافية له؟

بات شعوري غريبا كلما نظرت إليه وكلمة أحاول تجنبه يعود بي المطاف حوله، جلست أعد ما تبقى من ساعات على نهاية الأسبوع فالموعد أصبح وشيكا وتوترني يزداد كل لحظة تمر. لم أشعر بنفسني

وأنا أعقد أصابعي توترا على مائدة الفطور حتى بدأت ألفت الأنظار حولي، فسألني ديمة عن الخطب الذي حل بي وسبب كثرة شرودي مؤخرا.

ابتسمت محرجة ولم أعطها جوابا شافيا، لمحت أمها تنظر نحوي بفضول وكأنها تحاول اكتشاف ما ألم بي لتتغير حالي وتتورد وجنتاي بشكل شبه دائم.

لم أستطع الخروج من حالة الرعب والترقب الذي حل بي طيلة تواجدي في العمل، حتى زميلاتي لاحظن شرودي، سارة الوحيدة التي كانت على علم بالسبب. ودأبت لتحاول زرع التفاؤل في قلبي بين فينة وأخرى وتذكيري بأن الأمور طبيعية وليست مخيفة إلى هذه الدرجة، لكن بالنسبة لفتاة انطوائية وخجولة مثلي ومقبلة على فإن الأمر ليس عاديا.

اختار اليوم من بقية الأيام ليقوم بجولة استطلاعية في القسم. كان يرمقني بنظراته من بعيد فتزداد ضربات قلبي اضطرابا، وقبل أن يهم بالعودة إلى مكتبه ألقى نظرة أخيرة نحوي وغمزني بعينه، فشعرت أنني أذوب خجلا.

اقتربت الساعة المنتظرة فأثرت الجلوس في سهرة عائلية برفقة عمي وديمة والتوأم وهو يقص علينا بعضا من مغامراته في أسفاره السابقة خلال حياته بينما تسلينا ديمة بأنواع المكسرات والحلويات، وكل ذلك حتى أتجنب الاختلاء بشادي وحدي. أطلت مايا علينا وأصرت على اصطحاب التوأم للنوم فقد تأخر الوقت كثيرا. بعدها نهض عمي مؤثرا النوم بدوره وأصر علينا التوجه لغرفنا للنال قسطا من الراحة. فتساءلت في نفسي أي راحة؟ فأنا ذاهبة لمواجهة مصيري الآن. دعوت الله بكل أمل أن يكون شادي قد استسلم للنوم وغير رأيه.

دخلت الغرفة أتوجس خيفة فلم ألمح شادي في الداخل. ولجت ففوجئت به مستلقيا على أريكتي، رفع بصره نحوي وقال معاتبا:

"تأخرت كثيرا، أم تحاولين التملص مني؟"

شعرت بأنني محاصرة لا مجال للتراجع، نهضت عن الأريكة وتقدم نحوني، جذبني من يدي ثم سار معي وصولاً إلى السرير وجلسنا سوياً على حافته بينما يتفحص ملامحي ويدرس تعابير الذعر على وجهي، أخذ نفساً ثم قال:

" كان بإمكانني الحصول على أي فتاة، والكثير من الفتيات جرين خلفي وحصلت على الكثير من العروض لأحصل على متعتي دون قيود.... لكن مع ذلك... أصررت على الرفض" رفعت بصري نحوه وقد لفت انتباهي حديثه ثم أضف:

" على الرغم من المغريات التي تصنعها الأموال فقد رباني أبي على البعد عن الحرام، تعلمت أن للصبر لذة لا يفقه طعمه إلا من ينول بعد تعب، تربيت على التأني والاستمتاع بما أملك والابتعاد عن أي شيء لا يخصني، ومنذ اللحظة التي وقعت على وثيقة الزواج آمنت بفكرة أنك لي.... وأعتقد أن صبري وانتظاري قد آتى ثماره"

ابتسم لي ابتسامته الساحرة التي تملك وجداني وأضف:

" أعرف أنك لديك شكوكك تجاه نفسك، لكن ما لا تريته فعلاً أنك فائقة الجمال بما للكلمة من معنى....ولست نادماً على الارتباط بك... لكن جمالك ليس ما لفتني فأنا محاط بمجتمع مليء بالحسناوات"

إذا لم يكن جمالي ما شفع لي ارتباطه بي، فما الذي لفته بي؟ غبائي؟ جبني؟ ثم عاد صوته ليخرجني من تساؤلاتي مجيباً عليها بنفسه:

"تملك الفتيات الكثير من الصفات التي تذيب عقول الرجال، لكن بالنسبة لي خصلة واحدة كانت الكفيلة بقلب كياني... لقد سحرت بحيائك..."

تصريحه زادني حياءً دون أن يعلم، مديده ليعيد خصلة خلف أذني، ولفت نظره احمرارها مما زادني خجلاً، فابتسم مستمتعاً بمظهري التائه وأردف:

"والآن أريدك أن تتوقفي عن الشعور بالارتباك، فالتوتر سيصعب عليك الليلة أكثر وقد ينتهي بك الأمر تتألمين، لذا استرخي ولا تخافي لن أؤذيك"

لكن ليس الألم ما أخشاه! وإنما حياتي الذي سأتجرد منه الليلة!
اقترب مني أكثر ورفع ذقني لتتلاقى نظراتنا ثم انحني نحوي وقبلني على شفتي قبلة هادئة خفيفة
ومد يده من تحت ركبتي وحملني وألقاني على السرير، شعرت بالرهبة تزداد في قلبي. أمطرنى بقبل
قطنية دافئة نشرها على أجزاء مختلفة من بشرتي الناعمة، أغمضت عيني معظم الوقت ولم أجرؤ على
النظر كثيرا إليه لئلا يغمى علي من شدة الخجل.. غمرني بمشاعر لم أدر يوما وجودها داخلي وكأنه
فجر ينبوعا من الإحساس في قلبي فشعرت بروحي تفيض حبا ورغبة به.

كنت مستلقية على السرير إلى جانبه أحاول استيعاب ما مررت به، وكلما تذكرت لمحات من لحظات
هذه الليلة شعرت بخفقات قلبي تعلو وتشتد. التفت نحوه فوجدته مستلقيا على بطنه نائما عاري
الظهر. نهضت لأعتدل في جلستي رغم ما ألمّ بي من ألم. واتجهت بنظري نحو الملاءات الملقاة على
الأرض لأتذكر أنني خسرت الليلة ما حافظت عليه سنيانا... اليوم أصبحت امرأته! فبكيت بمرار
ولم أعرف سبب بكائي لكنني أخرجت الثقل الذي حل على قلبي لتغسله دموعي... وأخذت أصبر
نفسي وأذكرها بأن هذا حال الدنيا.

الفصل الثالث والأربعون

أفقت صباحا على وجه شادي الغارق في نومه، فاكست خدودي بالحمرة، قفزت عن السرير متجهة نحو الخزانة قبل أن يستيقظ، أوصدت الباب على نفسي وغيرت ملابسى بهدوء، ثم خرجت من الخزانة ولم أجد أثرا له على السرير، مما أثار فضولي.

جلست أمام المرأة أسرح شعري وإذ به يخرج فجأة من الحمام مبتلا وقد التفت حول خاصرته منشفته، شعرت بالدم يتصاعد في رأسي من مظهره الذي ذكرني بأحداث ليلة البارحة فتجنبت النظر إليه.

اقترب مني وألقى علي تحية صباحية ثم انحنى من خلفي وطبع على خدي قبلة فبللت خصلات شعره جزءا من وجهي. ثم سألني عن حالي، فطمأنته بابتسامة صغيرة خجولة. تغيرت نظرتي إليه بعد تلك الليلة، بت أشعر بقربه من روحي أكثر وأعتقد أنني بدأت أميل إليه وآلفه وأرتاح له أكثر، هل بدأت أقع في حبه؟ حاولت جاهدة منع قلبي من الوقوع في مصيدة الحب مرة أخرى. فكلما أحببت أحدا تنتهي قصتي معه بجرح عميق في قلبي، مثل أجد سابقا وفارس. لذا قررت أن أتحكم بعواطفني تجاهه مع أن ذلك بات صعبا جدا علي. فهو ذاته تغير معي كثيرا نحو الأفضل، ونظراته إلي أمست أكثر دفئا. بحنانه الذي أغدقه علي بات صعبا علي ألا أقع في حبه. مرت الأيام سريعا وبت أشعر بأن أمه تشك بشيء حولنا، فكلما فتحت معه موضوع الزواج يغلقه رافضا للفكرة نهائيا وكثرت زياراتها الفجائية له في الغرفة لتطمئن إلى التباعد بيننا. جلست ذات مرة مقابله على السرير نتحدث ويضحكني بأحداث حصلت معه ومع يزن فترة مراهقتها، وأثناء الحديث مد يده في شعري يداعب خصلاتته ثم شعرنا بمقبض الباب يفتح فألقاني بضربة واحدة عن السرير لأهوي أرضا ورمى الملاءات علي. دخلت أمه لكنني لم أستطع رؤيتها من تحت الملاءات وقالت متسائلة:

" هل صوت الارتطام جاء من عندك؟"

سمعت صوته يقول متظاهرا البراءة:

" أي صوت؟"

سألته فجأة:

" لماذا الملاءات على الأرض؟"

فجاء رده:

" إيلينا كانت تقوم بتعقيم الغرفة إنها في الحمام تنظفه"

ثم قال معاتبا:

" رجاء أُمي اقرعي الباب في المرات القادمة، افترضني أنني غير محتشم"

فأجابته بتهمك واضح في نبرتها:

" لماذا ستكون غير محتشم عندها؟ هل تغير ملابسك أمامها؟"

أخذ نفسا عميقا وبدأ يتحوقل ويهلل ثم قال:

" أُمي فقط اقرعي الباب رجاء وإلا سأضطر أن أوصده!"

سمعت الباب يغلق بعنف، ثم خرجت من تحت الملاءات أتحمس رأسي من أثر السقوط وأنظر

نحوه نظرة معاتبة فاستقبلني بابتسامة معذرة. نعم هكذا أصبح الحال فنحن نخفي علاقتنا عنها

خوفا من ثورتها وغضبها.

أسابيع تتابعت علي كضفة نهر هادئة تحت سماء صافية، لا كدر فيها ولا غم... وسري مع شادي

زادنا قريبا دون أن نشعر... وأمست من عاداتنا السهر تحت الملاءات مع كوين من الشوكولا

الساخنة لنشاهد فيلما على هاتف أحدها، أو للسمر وكبت الضحكات لئلا يفضح الأثير أصواتنا

الشملة باشتياقنا ولهفة مشاعرنا للآخر.

عدت من زيارة بيت أمي ليلا في سيارة الشركة كانت رائحة الجو توحى باقتراب الربيع. دخلت القصر فوجدت الجميع مجتمعين في الصلاة، تقدمت نحوهم بداعي الفضول ثم لمحت وسط الجلسة السيد هاني! التقت عيناه بعيني فقابلته بتجهم واتجهت نحو السلام، فباغتني صوته يهتف لي:

" أرجو حضورك يا سيدة إيلينا مع العائلة غدا إلى حفل العشاء "

تجنبت النظر إليه وألقيت نظري نحو شادي الذي كان جالسا مقابله يحمل تعابير غامضة، أعاد الرجل انتباهي إليه ليضيف:

" سنسعد بقدمك للاحتفال معنا بمناسبة خروج يزن من السجن "

تمسكت بالدرابزون متفاجئة من إعلانه ثم خطرت ليان في بالي فشحب وجهي وتصاعد الذعر ليتأصل في كياني، تمالكت نفسي ثم زفرت بامتعاض قائلة:

" حمدا لله على سلامته مقدما، يا سيدي، لكن عذرا منك لن أحضر لدي ارتباطات أخرى "

ثم صعدت السلام جريا نحو غرفتي وأطبقت الباب على نفسي، أخرجت هاتفي ونظرت مطولا في شاشته وأنا أتساءل إن كان علي إعلام ليان بالأمر أم لا، فهي لم تظهر لي أنها على علم بخروج يزن، ربما نسيت أو تغافلت لا أدري.

دخل شادي الغرفة بعد وقت، كنت جالسة في السرير وما زلت محتارة في إخبار ليان أو عدم إخبارها. ألقى ثقله إلى جانبي ثم مد يده ليمسح على شعري فأجفنتني، فلم أشعر بدخوله الغرفة. نظر إلي بحذر ثم قال:

" إيلينا أنا أعلم أن الأمر صعب عليك لكن رجاء رافقينا إلى العشاء! افعلي ذلك من أجلي "

تنهدت بألم، لما عليه أن يرجوني هكذا أنا لا أريد الذهاب ومواجهة طليق أختي! لن يكون ذلك عادلا لها. ترددت كثيرا في قبول توصله. أمسك بدي ومسح على أصابعي بحنو متوسلا، وافقت في النهاية وأنا أشعر بالامتعاض من نفسي.

جاء الموعد المحدد، كنت أشعر أنني أطعن ليان في الصميم بسبب قبولي الدعوة لكن لا مجال للتراجع الآن. قبل أن نلج إلى القصر خطا عمي نحوي ثم قال متسائلا بقلق:

"إيلينا ابنتي إذا كنت لا تشعرين بالراحة من الانضمام إلى العشاء فبوحى بذلك الآن حتى أوصلك إلى البيت."

التفت نحو شادي الذي كان يقف خلفي ينظر إلي بقلق ثم تنهدت بأسى وأكدت له أنني بخير. استقبلنا السيد هاني بنفسه ودعانا جميعاً إلى الداخل حاولت قدر الإمكان اللجوء إلى الالتصاق بذراع شادي حتى لا تطأني نظراته المقيتة. تم دعوتنا للجلوس في صالة كبيرة تحتوي على العديد من رجال الأعمال الذين شرعوا في الحديث في مواضيع متفرقة، بينما كنت غارقة في عالمي الخاص وأنا أفكر بليان وما مرت به بسبب هذا الرجل وأم شادي، ثم عم الصمت على الجميع فجأة، تفرست في وجوه الجميع لأرى نظراتهم كلها متجهة نحو نفس الموضوع فاتجهت نظراتي تلقائياً إلى ما ينظرون نحوه... فكان يزن يرتدي قميصاً غامق اللون مفتوحاً حتى صدره وقد بان جزء من عضلاته المنحوتة، وبنظارة من الجينز، كان يتكئ على مدخل الغرفة بنظرات مخيفة وينظر في الوجوه التي أمامه حتى وقعت عيناه على شادي، فسار باتجاهه بينما الجميع يرقب أفعاله.

نهض شادي من جانبي ينظر في وجه صاحبه نظرة جدية، شعرت بالخوف مما قد يقبل يزن على فعله، وعندما وصل مقابل شادي تفاجأت بهما يستقبلان بعضهما في الأحضان فخبث نيران خوفي لأشعر بالاطمئنان، ثم بدأ الناس يتهافتون حوله مهئين على سلامته، بينما يرد باختصار زارعا ابتسامة مزيفة، ثم وقع بصره علي فجأة، فنظر إلي نظرة مطولة حتى شعرت بالارتباك الشديد وأخذت أنظر إلى أصابعي المعقودة في حجري، سمعت صوته يلقي التحية علي فهزرت له رأسي أرد التحية دون أن أكلمه ثم سألني غير مبال بأحد حوله:

"كيف ليان؟!"

رفعت بصري نحوه مستنكرة سؤاله، فجاء والده ووضع يده على كتفه وطلب منه تركي بحالي ومقابلة بعض الأشخاص ممن جاؤوا لتهنئته على خروجه، فنظر نحو والده بطرف عينه وقال محتداً:

"أبعد يدك عن كتفي"

بدأ الانزعاج يظهر على وجه والده وحاول ثانية حثه على السير، فهاج غاضباً ليقول:

" ليس قبل أن أطمئن إلى حال ليان!"

فغضب والده وقال هائجاً بدوره:

" ماذا تريد بها لقد طلقته وانتهى وانتهت عدتها معها لا يمكنك أن تعيدها!"

فصرخ بصوته المرتفع قائلاً:

" قلت لك لن أتزوج حتى أسمع اخبارها!"

وهنا نطقت لإنهاء الخلاف بخوف بائن في نبرتي:

" إنها بخير!!! إنها بخير"

نظر نحوي عابساً ثم ابتسم وقال لي:

" اشتقت إليها"

تدخل شادي أخيراً ووضع يده على ظهره وحنه على السير مبتعداً من أمامي، فسار رغماً عنه وعيناه

مشتتين علي، فشعرت بالذعر من نظراته، شيء ما قد تغير فيه، لقد أصبح مرعباً، هل السجن هو

السبب؟ أم أنه نادم على طلاق ليان؟ لكن إذا كان سيندم هكذا لماذا طلقها من الأساس؟

انتقلنا جميعاً إلى غرفة أخرى فيها مائدة كبيرة مليئة بالصحون اللامعة، حرصت على الجلوس

بجانب شادي لأشعر بالأمان يظللني كانت السيدة انتصار تراقبني بنظرات غريبة لكنني لم أهتم لها،

فقد ركزت على فكرة واحدة هنا وهي النجاة من هذا العشاء وبعد ذلك أتفرغ للتفكير فيها.

جلس يزن مقابل شادي ثم أخرج من جيب بنطاله لفافة سجائر، لم أكن على علم بأنه مدخن!

وضعها في فمه ثم قام بإشعالها. نظر شادي نحوه مصدوماً وكذلك والدته أما أبوه فنهره بقوله:

" يزن! سجائر؟ حقاً؟ منذ متى تدخن يا بني؟ أطفئها رجاء فنحن في صدد تناول العشاء"

اتكأ بظهره على المقعد ونفث دخاناً من فمه وهو ينظر نحو أبيه بتحد، فأثار حنقه، أمسكت أمه

بلفافة السجائر من بين أصابعه وأطفأها وقالت تؤنبه بسخط:

" عليك أن تحافظ على صحتك! أنت رياضي وهذه لا تتماشى مع روتين حياتك"

نظر نحوها مستنكراً وقال:

" هل يمكنك وصف روتين حياتي؟ من فضلك!"

شعرت بالحرج وآثرت عدم الرد، فقال محتدا:

" روتيني كان بالاستيقاظ على بريق عينيها... بمراقبة مشيتها... ضحكتها... غضبها... لمس خدها! الشعور بحبها! الأمل الذي كان ينمو داخلي في كل يوم أستيقظ فيه لأرى وجهها المشرق... وكل ذلك تغير الآن والشكر... لزوجك الفاضل!"

صرخت به وهي تمسح دموعها:

" كفى يا يزن أنت تعذبني!"

فأجاب متهكما بضحكة مصطنعة:

" وأنا سعيد في غاية السعادة!"

ثم نهره به شادي ليسكته:

" يزن! هذا يكفي الآن"

ونظر إليه كأنه يلمح له أن يفرغ انفعالاته لاحقا، فسكت من غير جدال ثم أشار إلى المائدة أمامه وقال يخاطب الجميع:

" تفضلوا! طعام العشاء.. تصرفوا على راحتكم!"

ثم نهض عن المائدة واتجه خارجا نحو الشرفة، أرادت أمه اللحاق به لكن شادي منعها وأكد لها أنه بحاجة إلى وقت ليختلي بنفسه. شعرت بانسداد شهيتي عن الطعام بسبب الجو الغريب الذي قام

يزن بشحنه بطاقة سلبية، نظر إلي شادي قلقا وسألني عن سبب التغير الذي طرأ على ملامحي

فابتسمت له مجاملة لكنني لم أقدر على تناول لقمة واحدة فأخذت أشرب من الحساء الموضوع أمامي لأتجنب المزيد من أسئلته.

عاد الجميع للجلوس في الصالة الكبيرة عقب انتهاء العشاء، وتم تقديم الحلوى التي كانت من نوع فاخر. دخل يزن لينضم إلى المجلس من جديد واختار الجلوس في زاوية الغرفة ووضع لفافة أخرى

من السجائر في فمه فلمحت شادي يهز رأسه باستنكار، ثم جذب انتباهي سؤال أحد الرجال لوالد
يزن:

" إذن أخيرا سيعمل ابنك معك في إدارة فنادقك؟ يجب أن يتعلم ذلك بسرعة ليرحك من بعض
المسؤوليات، انظر إلى هشام مثلا فابنه الذي يتكئ عليه بالأعمال المهمة الآن"
ضحك عمي مبتسما واسترسل فمه بعبارات الرضا عن شادي ومدح به وياتقانه وتفانيه في العمل،
فأكد السيد هاني أنه سيسلم زمام بعض الأمور لابنه، فتدخل يزن في النقاش ليقول من مكانه البعيد
بينما ينفث في لفافة السجائر:

" كلا لن يحصل سأعود لعملي كأستاذ للحاسوب في المدرسة، فالיום كان اليوم الأخير للبديلة وغدا
موعد عودتي"

عم الصمت على الجميع ذهولا من إعلانه، ثم تحولت نظرات والده للسخط قائلا:
" لا لن يحصل ذلك! تلك المدرسة ستترك العمل فيها وتعمل معي في مهنة تليق بك"
نهض يزن عن المقعد ورمى عقب السجائر على الأرض، ثم مرر يده في خصلات شعره الأسود
ونظر إلى أبيه نظرة غير مبالية، استدار وخرج نحو الشرفة ثانية.
شعرت بالنيران تقدح من عيني والده وبدأ شعوري بالذعر من وجودي هنا ينمو مع كل ثانية.
ودعوت الله أن تنتهي هذه السهرة بسرعة.

أخيرا ركبت السيارة لنعود إلى البيت، جلست في المقعد الخلفي كما جئنا سابقا حيث تركت المقعد
الأمامي بجانب شادي لعمي وجلست السيدة انتصار إلى جانبي بينما ركبت ديمة مع عائلة أختها.
كان كل حديث السيدة انتصار منكبا على يزن وتغيره ولمحت أن سبب تعاسته معرفته بأختي،
فشعرت بالحنق حتى أحسست بألم في معدتي من شدة القهر، ولم أحتمل الألم كثيرا فلم أجد نفسي إلا
وأنا أصرخ في شادي ليوقف السيارة جانبا، فتحت الباب فوراً وأخذت أتقيأ كل العصير والحلوى
والحساء الذي دخل معدتي من العشاء. أثار تقيؤي اشمئزاز السيدة انتصار، أما عمي وشادي فأبديا
ذعرهما علي، أحضر شادي زجاجة ماء من صندوق السيارة وبدأ بمسح وجهي بيده المبتلة بينما

يسألني بين كل ثانية وأخرى إذا كنت بخير أم لا. ساعدني عمي على الجلوس ثانية في المقعد وأصرت السيدة انتصار على الجلوس إلى أقصى الطرف الآخر فشعرت بالغضب أكثر منها ولولا الحياء لتقيأت على ثوبها، أصر عمي على اصطحابي إلى المشفى لكنني كنت أشد عنادا ورفضت، حتى استسلم الجميع لرغبتني.

جلست في فراشي أشعر بالتعب مما حل بي وكلما تذكرت تفاصيل العشاء يزداد ألم معدتي، كانت تحرقني كأنها داخلها نارا مشتعلة، هل السبب هو الكبت الذي عشته؟ كان عمي قريبا من باب الغرفة يوحي شادي بي ويطلب منه إقناعي في الذهاب إلى الطبيب. دخل شادي إلى الغرفة وأوصد الباب خلفه ثم جلس إلى جانبي ووضع يده على جبيني يتحسسها ثم أشحت وجهي بعيدا وقلت بتعب:

" أنا لست مريضة أنا فقط أشعر بالضيق والقهر..... مشاهدة يزن بهذا الحال سبب لي الانزعاج بشدة"

تنهد بآلم ثم اقترب مني أكثر وضممني إلى صدره وقبلني على رأسي ومسح على ذراعي بحنو ثم قال:
" عسى أن تتحسن أحوالهما"
علمت أنه يقصد بذلك يزن وليان فرجوت المثل.

ليان

خطوت مبنى المدرسة بتثاقل كالمعتاد، كانت الأصوات مرتفعة في مكتب المدير، فألقيت نظرة إلى الداخل لأسكت فضولي عم يدور في الداخل. رأيت مجموعة من المعلمين يجتمعون حول شيء أو شخص ما ويضحكون باستمتاع، ثم رنّ صوت هناء من على السلالم تهتف لي لأبتعد عن الباب لتقول لي شيئا قبل أن أدخل غرفة المدير.

شعرت بالحيرة من موقفها وتصرفاتها الغريبة، أعدت النظر إلى الداخل لأرى المعلمين قد انقشعوا ليفتحوا المجال لذلك الشخص بالتقدم ليقابلني بنظرة ملهوفة. تجمدت الدماء في عروقي وتسمرت قدماي في موضعهما وأحسست بالسواد يحل من حوله ولم أعد أرى غيره.

اقترب مني ووقف مقابلي، حاول أن ينطق مرات عدة لكن كلماته خذلته ولم تستطع الخروج، ثم بدأ الإحساس يعود إلى أجزاء جسدي، أبعدت عيني عنه وخطوت للخلف ونظرت من حولي كاليأس ثم هرولت باتجاه السلام، هتف باسمي لأتوقف، فتوقفت عن المسير، التفت نحو أصابع دمعتي ثم زجرت فيه بغضب قائلة:

"إياك ان تجرؤ على مخاطبتي أو الاقتراب مني!"

ثم جريت بسرعة نحو غرفتي الصفية لأهرب من مواجهته، وأحاول استيعاب الصدمة من رؤيته، بدأت أتساءل في خلدي متى عاد؟ وكيف عاد؟ ولماذا جاء إلى المدرسة؟ هل سيقى على رأس عمله هنا؟

حاولت هناء التي لحقت بي فوراً أن تهدئ ثورتي المفاجئة، فصبيت عليها جماح غضبي بالصراخ عليها، مسكينة هناء إنني أشفق عليها من تحملها مزاجي المعكر دائماً، مع ذلك فهي معتادة علي لذا لم تنزعج مني كما ينبغي للشخص الطبيعي أن يشعر، بدأت تستهيني لأن أسكت وأجلس وألتقط أنفاسي.

أقبل يزن عند الباب كما توقعت منه أن يفعل، دخل دون استئذان وحاول طرد هناء خارجاً، فنهضت كي أواجهه، اقتربت منه وقلت مهددة:

"اخرج من هنا لا أريد رؤية وجهك وإلا سأجعلك تندم على مجرد التفكير بعودتك إلى هنا"

بقي واقفاً أمامي ولم يتزحزح وفي عينيه غموض ثم قال:

"سمعت أن والدك توفي! رحمة الله عليه"

تجنبت الرد عليه وحدجته بنظرات نارية، ثم قررت الابتعاد عن المكان برمته فتوجهت نحو الباب لأخرج لكنه أمسك بمرفقي ليوقفني، ثم تهدج صوته بنبرة حزينة:

" أريدك..... عودي إلي "

شعرت بقلبي ينزف ويعتصر ألما فسحبت يدي من قبضته بخشونة وركضت مبتعدة من أمامه أخفي دموعي التي خانتني، لن أسمح له برؤيتي أبكي لن أعطيه شعور الانتصار علي.

نزلت إلى مكتب المدير فور تفرغي ودخلت دون استئذان وقلت قبل أن يتحجج بانشغاله:

" كيف لك أن تستقبل الأستاذ يزن من جديد في مدرستك؟ سيجلب للمدرسة السمعة بسبب

خروجه من السجن! يجب أن تطرده إنه ليس بحاجة إلى هذه الوظيفة حتى!"

زفر المدير بنفاد صبر وقال:

" ليان أنت تعرفين سبب دخوله السجن! لم يدخله بسبب سرقة أو اختلاس! ثم أنني لا أستطيع

طرده!"

صرخت به محتدة:

" لماذا؟! "

فأجاب بعد تردد:

" لأنني كنت أريد تسريحه من العمل هنا فهددني بشراء المدرسة وطردي منها إذا أنهيت عقده، آسف

يا ليان لكن ما بيدي صنع شيء!"

تغير لون وجهي وشعرت بالحنق يزداد في قلبي وحلقي، ثم قال بحذر:

" لكن لدي طريقة ستجعله يتعد عنك نهائيا.... لو سمحت تفضلي بالجلوس حتى أستطيع

التحدث معك"

شزرتة بنظرات نارية واتكأت بساعدي على طاولته وأحيت جذعي للأمام وقلت متسفسرة بصبر

نافد:

" قل، ما هي الطريقة؟"

ازدرد ريقه مرارا ثم بدأ يحك شعر لحيته مرتبكا، أخذ نفسا وأخرجه مرات عدة ثم قال بعد تردد:

"آنسة ليان.... عدتك انتهت وبإمكانك الآن الارتباط من جديد.... لو أنك ترتبطين بأحد فإن ذلك سيبعده عنك.... لذا سأعيد عرضي السابق عليك بالارتباط بي، فهل ستقبلين؟"

من شدة صدمتي وذهولي بطلبه تسمرت ملامح وجهي لوهلة، ثم ابتعدت عن الطاولة، وبدأت بفرك جبينني بأصابع يدي وأنا أحدث نفسي؛ لا لم يحصل هذا لا أريد الدخول في هذه الدوامة من الأساس . سمعت صوته يخاطبني:

" لست مضطرة لإعطائي ردك الآن.. فكري في عرضي جيدا ثم قرري "

قررت أخيرا الانسحاب من مكتبه لأتجنب المزيد من الإحراج، فلمحت نظرات مازن الممتعضة من الممر أمام مكتب المدير، فأشار إلي باللحاق به إلى مكتبه.

تمنيت لو أن أمامي أحدا أو شيئا ألكمه فقد وضعت في موضع لا أحسد عليه. لحقت به ودخلت مكتبه وانتظرت منه أن يتكلم، كان مقطب الجبين وينظر في شاشة الجهاز الذي على مكتبه، ثم قال بحنق أخيرا:

" لا تقبلي عرض المدير! يا له من ماكر ومنتهمز للفرص!"

فقلت متسائلة باستنكار:

" وما الفرق عندك إذا قبلت أم لم أقبل؟"

فنظر نحوي بانفعال واضح وقال:

" لأنه إذا توجب عليك الارتباط برجل آخر فيفضل أن يكون أنا!!! ليان إذا أردت الزواج فتزوجيني أنا!!!"

اتسعت صدمتي مما يجري معي، فتحت فمي ذهولا ونظرت حولي بحيرة واضحة، غير قادرة على الحديث أبدا، فسرت بسرعة متجهة نحو الباب لأخرج فتفاجأت بيزن واقفا ينظر نحو مازن بسخط شديد، ثم قال بلهجة مخيفة:

" ماذا تريد منها؟ ابتعد عنها وإياك أن تجرؤ على الاقتراب مما هو ليس لك!"

قابله مازن بنظرة متحدية غير عابئ بتهديده وقال بجراة:

" ليان ليست ملكا لك وهي حرة الآن في ارتباطها بمن شاءت!"

وكان كلماته قد أشعلت النار في صميم يزن، فانقض عليه نائرا كالثور الهائج وجذبه من قميصه وأسقطه أرضا لينهال عليه بالضرب المبرح، ولم يستطع المسكين إخراج نفسه من قبضته. تجمهر عليه مجموعة من المعلمين برفقة المدير يحاولون إبعاده عن مازن الذي كان يتلقى الضربات ولا يستطيع الذود عن نفسه، فشاركتهم محاولتهم في انتزاع يزن عنه، حتى خشيت أن يقتله فصرخت به:

" اتركه سيموت بسبب وحشيتك!!! يزن ابتعد عنه!!"

استطاع المعلمون أخيرا رفعه عنه، فدفع أيديهم بعيدا ليسقط بعضهم أرضا، أراد الهجوم مجددا على مازن فقفزت دون تفكير وأحطته من وسطه بذراعي، أعلم أن تصرفي هذا متهور فلو لم يكن في كامل وعيه لأذاني أيضا، لكن لمستني له أوقفته فجأة كالماء التي تطفئ لهيب النار المتأججة، شعرت بصدره على خدي يعلو ويهبط، وسمعت صوت أنفاسه الثائرة تحبب رويدا رويدا، ثم شعرت بذراعيه القويتين تحوطاني وبرأسه يدفنه في رقبتني وأحسست ببل على خدي، أدركني صوت نحيبه المنخفض فأيقنت أنه يبكي، فتحرك شيء في داخلي فجأة وأحسست بدموعي تصارع عيني للخروج، ضمني بقوة إلى صدره وهمس باكيا في أذني:

" عودي إلي! روحي تتعذب!"

وضعت يدي على صدره لأخرج من أحضانه فكأنه أصيب بانهيار إثر ابتعادي عنه، نظرت نحو الأرض متجنبنة التواصل البصري وقلت بأسى عميق:

" آسفة! ما بيننا انتهى يا يزن! لست لعبة بين يديك تطلقني وتعيدني وقتما شئت! انساني"

سرت نحو السلام لأعود إلى الطابق الذي أعمل فيه. سمعت المدير يوبخه ويطلب منه أخذ باقي اليوم إجازة ليعود إلى بيته، ثم سمعتهم يتباحثون في الاتصال بالإسعاف للاطمئنان على مازن الذي كان يئن من آلامه وهم يساعدونه في النهوض عن الأرض، أما يزن فتجنبت نهائيا النظر إليه أو التعامل معه.

إيلينا

جلست على كرسي مكتبي أشعر بالدوار من أحداث البارحة، تواجدي في العشاء أتعب أعصابي حتى شعرت بتلفها، تجنبت تناول أي شيء لعدم رغبتني نهائيا في الطعام. حاولت سارة حثي على مشاركتها غداءها لكنني رفضت متبرمة بأنني أشعر بألم في معدتي.

قالت تحدثني لتخرجني من أجواء يزن المنهكة للأعصاب:

" آه أنا في انتظار الغد بفارغ الصبر! فلدي الكثير لشرائه عند حصولي على راتبي "

ضحكت على لهفتها، وتذكرت مشاعري وأنا أنتظر مرتبي مثلها في الماضي، ثم شردت لوهلة أتذكر أن غدا هو نهاية الشهر... وأني فوت... موعدي؟ كيف نسيت أمرها؟

نظرت نحو سارة بملامح مرعوبة فاعتلى القلق وجهها وقالت متسائلة:

" ما بك؟ لماذا تغير لونك؟ "

فقلت بسرعة أهمس لها:

" لم تأتني! فات موعدها منذ أسبوع! "

أخذ الموضوع منها لحظات لتستوعب كلامي ثم لطمت فمها مصعوقة وقالت:

" هل يعقل أنك حامل؟! "

اصفر وجهي حتى كدت أشعر أنني سيغشى علي، فنهضت بسرعة وقالت:

" اسمعي لا تقلقي بقي نصف ساعة على انتهاء استراحة الغداء، سأذهب إلى الصيدلية بأقصى سرعة

وأحضر لك جهاز فحص للحمل اتفقنا؟ "

حاولت ردعها وأقنعها باحتمالية وجود خطب آخر لتأخرها عن موعدها لكنها أصرت وانطلقت

مسرعة لأبقى وحدي في المكتب...

نظرت إلى الجهاز أحاول التفكير بطريقة استخدامه حتى شرحت لي سارة ما قالتها لها الصيدلانية.

استسلمت أخيرا لإصرارها واستعملت الجهاز بحذر.

وقفت مع سارة نسد باب دورة المياه لثلا تفاجئنا إحدى الزميلات ونحن في انتظار نتيجة الفحص، وبعد الدقائق المنتظرة نظرت نحو الجهاز فظهر خطان عليه، أحدهما باهت اللون قليلا، ثم سألت سارة عم يعنيه، فنظرت في النشرة المرفقة لتبحث عن تفسير القراءة، ثم نظرت إلي وقد تغيرت ملامحها ثم قالت بصوت مذهول:

"إيلينا! أنت حامل!"

أحسست بصاعقة تضرب رأسي عقب إعلانها فرفضت التصديق متبرمة بوجود خلل في الجهاز، وأمضيت بقية يومي في العمل أعيش صراعا داخليا وأدعو أن يكون الجهاز مخطئا. اصطحبتني سارة غصبا إلى طبيبة نسائية قريبة من المنطقة عقب نهاية الدوام، بعد أن أجبرتني على أخذ الإذن من شادي لأرافقها بحجة الذهاب معها إلى السوق.

استلقيت على سرير العيادة وأنا ممسكة بيد سارة أطلب مؤازرتها، ثم كشفت الطبيبة عن بطني ووضعت عليه مادة لزجة وأمسكت بجهاز الفحص وأخذت تمرره على المنطقة المدهونة بالمادة ثم ظهرت ابتسامة الطبيبة على محياها لتقول:

"مبارك أيتها الحلوة فأنت حامل!"

ازدادت صدمتي من إعلان الطبيبة ودخل الذعر إلى قلبي، أما سارة فاستقبلت الخبر بحماس بائن ثم سألت الطبيبة عن مكان الطفل على الجهاز، فضحكت الطبيبة وشرحت لها أن الطفل لا يظهر في هذه المرحلة فقط نستطيع رؤية كيس الحمل وأشارت إلى الجهاز إلى نقطة دائرية صغيرة فخفق قلبي بشعور غريب. أعطتني فيما بعد بطاقة مراجعة وطلبت مني القدوم في الموعد القادم للتأكد من نبض الجنين، لأنني اكتشفت الحمل في مرحلة مبكرة جدا. وأوصتني بالحفاظ على صحتي بتناول المأكولات المفيدة بينما تتأمل جسدي النحيل باستياء.

خرجنا من العيادة وسارة في قمة الفرح، سألتني كيف سأوصل الخبر إلى شادي، واقترحت علي أن أخبره بعشاء رومانسي أو أرسل له صورة الفحص بظرف إلى مكتبه، فقاطعت أفكارها قبل أن تكمل قائلة:

" كفى يا سارة! لن أقول له شيئاً!! "

نظرت إلى مستنكرة تسألني عن السبب، فقلت لأعرض خوفاً بصراحة:

" علاقتنا سرية، أمه لا تعلم بأمرنا! هي لا تعلم بأنه تقرب مني! تخيلي إذا اكتشفت بأنني حامل فلا أدري ما قد تفعله بي! حتى شادي نفسه هو من أصر على إخفاء علاقتنا عنها لا أظن أنه سيسعد بالخبر! "

ظهرت الحيرة على محياها تبعها نظرة قلق، ثم سألتني كيف سأصرف حيال الموضوع، فلم أستطع التفكير بحل في هذه اللحظة.

.....

انتظر يزن مغادرة الجميع وما إن غادر مازن المدرسة حتى تبعه إلى وجهته. وضع مازن الهاتف على أذنه وهو يدعك فكه المتورم من ضربات يزن ثم قال:

" ألقاك في المقهى، مسافة الطريق وأكون هناك "

وصل مازن إلى المقهى وعندما هم بالجلوس تفاجأ بيزن مقبلاً نحوه كالإعصار الهائج، فقال بدعز:
" ماذا تريد مني لما لحقت بي؟ "

فقال يزن مهدداً:

" ابتعد عن ليان وإياك أن تتجرأ وتفكر حتى في التلاعب بعقلها، فهي ليست ملكاً لك ولن تكون لك أبداً! "

فنظر نحوه بتحد وقال:

" إذن ليحصل عليها الرجل الأفضل بيننا. "

اشتد غضب يزن من كلام مازن، فتدخل أمجد في النقاش بعد أن وصل إلى داخل المقهى:

" ماذا يجري هنا؟ يزن ماذا تفعل هنا؟ "

نظر يزن باتجاه أمجد وظهرت الحيرة على وجهه وهو يسأله:

" ماذا تفعل أنت هنا؟ "

فأجاب مشيراً إلى صديقه:

" أنا آتي إلى هنا عادة لمرافقة صديقي في فنجان قهوة، ماذا أصاب وجهك يا مازن؟ "

اتسعت حيرة يزن ثم تغيرت نظراته نحو الدهول ونظر نحو مازن مصدوما ثم أعاد نظره إلى أجد الذي قابله بنظرة تساؤل ثم سار مبتعدا يحلل ما رآه وما ظن أنه علمه.

إيلينا

عدت إلى البيت فأعلمتني السيدة هالة بأمر شادي لها أن ألقاه فور عودتي وأشارت إلى تواجدته في الطابق السفلي، اتجهت من فوري هناك، وقادتني قدماي نحو الصالة الرياضية لأقابه. فتحت الباب فتفاجأت به يتدرب مع يزن كانا يرتديان سروالين قصيرين حتى الركبة عاريا الصدر ويرتديان قفازات الملاكمة ويتلاكان بينما عمي يرقبهما من المقاعد، نظر خلفه عند سماع صوت الباب يفتح فأدهشته رؤيتي، ثم أشار إلي أن أتقدم نحوه ففعلت، سألني عن حالي بينما عيناه تتبعهما، أجبته باختصار بدوري وأنا مشغولة الذهن بهما يتلاكان. شعرت بأن شادي يفقد زمام الأمور وبأن الكفة ترجح لصالح يزن وقف عمي فجأة يترقب بقلق، ثم ازدادت ضربات ولكمات يزن نحو شادي حتى بتنا نشعر أنه وحش مفترس تمكن من فريسته، وقع شادي أرضا فانهاه فووه يزن بمزيد من اللكمات وهو يصرخ بغل حتى شعرت أنه يلكمه دون وعي، فهجمنا نحوهما وأمسكه عمي ليبعده عن شادي وهو يصرخ به:

" اهدأ ماذا أصابك؟! ابتعد عنه!! "

أما أنا فتحركت دون وعي باتجاه شادي وطوقته بذراعي، نظرت نحو يزن الذي نهض مبتعدا يلتقط أنفاسه وهو ينظر نحو شادي وصرخت به:

" هل فقدت عقلك؟ مجنون تريد قتله؟! "

تفحصت وجه شادي فأشار إلي أنه بخير وبدأت دموعي تنهمر مني دون أن أستطيع كبحها، اقترب مني عمي ليبعدني عنه ليتفقد وضعه.

جلس يزن أرضا يتنفس بصعوبة وينظر نحو الأرض بنظرات مهمومة، ساعد عمي شادي على النهوض وسار به نحو الباب وقال لي:

" سألقاك بعد قليل يا ابنتي رافقي يزن إلى مكتبي، وأنت قم انفض وارتي ملابسك "

غادرا وتركانا بمفردنا، نهضت واقفة أمسح دموعي وأتجه نحو الباب لأمنحه بعض الخصوصية في ارتداء ملابسه. أوقفني صوته يحدثني:

" ما علاقة أختك بذلك المحاسب؟ من أين تعرفه؟ "

التفت إليه أتساءل:

" أي محاسب؟ "

فأجاب:

" محاسب المدرسة ذاك المدعو مازن "

فقلت باختصار:

" إنه جارنا "

زم شفتيه وهز رأسه كأنه يفكر بعمق ثم قال فجأة ليخفق قلبي بشدة:

" لم أكن أعلم أنه صديق أمجد "

التفت إليه من جديد أنتظر منه أن يفسر سبب تصريحه بهذه العبارة ثم أكمل حديثه ليذب في قلبي الرعب:

" أذكر مرة أن ليان ذكرت أمامي عن خطبتك وانشغالها بها ثم تلاها انقضاضها على مكتب مازن "

توبخه باكتشاف أن صديقه متزوج! "

اصفر لوني وما عدت قادرة على الوقوف من شدة الرعب، ثم نظر في عيني بحدة وقال متسائلا

وكانه على علم بالإجابة مسبقا:

" هل خطيبك السابق كان أمجد؟ "

وضعت يدي على صدري وشعرت بأنفاسي تتسارع وعادت الدموع تهاجم مقلتي، فقلت متوسلة دون تفكير:

" أرجوك لا تقل شيئاً أمام شادي أرجوك لا تبتز ليان بسرّي ... أنا لم أؤذك بشيء أتوسل إليك " قابلني بنظرة باردة ثم نهض واتجه إلى الطاولة بجانبي وسحب بنطاله عن الطاولة وأخرج علبة سجائر وأخذ منها لفافة، وضعها بين شفتيه وأشعلها، سحب نفسا إلى الداخل ثم زفر دخانها، ونظر إلي وقال بنبرة لا حياة فيها:

" أتظنين أنك تتعاملين مع انتصار أو هاني؟ لا تقلقي سرك في بئر عميق! لن أقول لأحد شيئاً. لكن إذا كان بينك وبينه شيء وأذيت شادي.. " فقاطعته بسرعة أقول وأنا أمسح دموعي:

" كلا!! انتهت خطبتي منه فور اكتشافني زواجه، لن أخون شادي صدقا أنا أقول الحقيقة!" استدار واتكأ على الطاولة ونظر أمامه ثم سألني بنبرة حزينة:

" وهل ليان تحب هذا المحاسب؟ "

لم يكن لدي إجابة صريحة له فأنا لم أشعر يوماً بمحبتها له لكنني تذكرت أيضاً تلك الصورة لهما التي أرسلتها لي السيدة انتصار، فقلت حتى أختصر شره:

" لم أشعر بها تحب أحدا غيرك "

أوماً برأسه دون كلام، وعندما طال سكوته ارتأيت ان أنتظره خارجا ريثما يرتدي ملابسه لأتجه به نحو مكتب عمي.

غادر يزن بعد أن اطمأن إلى صحة شادي وعدم تورم وجهه، اعتذر منه مرارا فنصحه شادي بمحاولة تمالك أعصابه ووجهه أن يجد طريقة توصله إلى حل لمشاكله دون أن يضر بصحته، ونبه على آخر عبارة بأخذ علبة السجائر من جيبه ثم ألقاها في سلة المهملات في المكتب. ضحك يزن

بتحدث ثم سار مع شادي متجها نحو الباب، نظر عمي إلي وقد كان جالسا على كرسيه خلف مكتبه وقال:

" اذهبي يا صغيرتي وغيري ملابسك فالعشاء سيجهز والضيوف في الطريق "

أجبتة متسائلة:

" أي ضيوف؟ "

فأجاب بسؤاله:

" ألم يقل لك شادي أن عائلة أخي مدعوون لتناول العشاء معنا؟ "

شحب وجهي من إعلان هذا الكلام ففهم من تعابير وجهي عدم علمي بالموضوع، فقال:

" كان يريد أن يخبرك فور عودتك من السوق يبدو أنه انشغل بيزن ونسي الأمر "

خرجت من مكتبه أشعر بالامتعاض من فكرة قدوم عائلة أخيه فأنا لا أريد مقابلة فارس الآن ولا بعد حين أبدا!

دخلت الغرفة لأرتدي ملابس أخرى تليق بالعشاء وسمعت صوت المياه من الحمام فعلمت أن شادي يغتسل، حاولت الإسراع في ارتداء ملابسني لأسرع بالخروج قبل أن نتصادم في موضوع فارس.

وصل الضيوف بينما شادي لم ينزل بعد، استقبل عمي وزوجته العائلة وجلسوا في الصالة الكبيرة. اقتربت مع مايا وديمة لشاركهم الجلوس وألقيت تحية شفوية بصوت خافت ضعيف متجنباً النظر إلى وجوههم جميعاً، لكنني تفاجأت بحضور مخطوبة فارس معهم، فالتقت نظراتي بها لتقابلني بنظرة محتدة، أبعدت عيني عنها أشعر باحتقار نحو نفسي.

لم أجرؤ أبداً على النظر ناحية فارس، ولو حتى من باب الفضول، كان آخر تواصل بيننا عندما كنت أغلقت الهاتف في وجهه قبل شهرين تقريبا.

انتقلنا جميعاً نحو المائدة ولم يظهر لشادي أثر، فاستأذنت من الجميع أن أغادر لأستدعيه، لأتفاجأ به يتجه نحو الغرفة يرتدي بزة أنيقة بلون بيجي تظهر لمعان عينيه، دخل ماراً من أمامي وألقى التحية

مصافحا لعائلة عمه، ثم وصل إلى حيث يجلس فارس وتصافحا وهما يتبادلان نظرات حاقدة، دام تحديقهما ببعضهما فترة من الزمن حتى لفتا الأنظار نحوهما فتدخلت ديمة لتمسك بذراع أخيها تحته على المسير نحو مقعده، فالتفت إلى الخلف ناحيتي حيث بقيت واقفة بلا حراك، اتجه نحوي ثم حوطني بذراعه من وسطي وقال:

"هيا يا ملاكي إلى المائدة"

رفعت بصري نحوه باستهجان لمغازلتي أمام الآخرين وخصوصا أمه ثم أدركت السبب إنه يريد إغاطة فارس لا أكثر، فشعرت بشيء من الضيق قليلا.

سحب لي الكرسي لأجلس وجلس إلى جانبي هذه المرة في الكرسي الذي اعتادت ديمة أن تجلس عليه فاضطرت أن تجلس مستسلمة لتصرفاته الغريبة على كرسيه من الجهة المقابلة. بدأنا بتناول الطعام وأبدى اهتمامه لي بأن أتغذى جيدا على غير عاداته فهو لا يتدخل في أكلي عادة. ازداد شعوري بالضيق من تصرفاته وشعرت بالنيران تتأجج حول فارس. مر العشاء على خير عكس ما توقعت وأخذت أقدم المساعدة للخدم كعادي وأبعد الصحون معهم، حاول شادي أن يستوقفني لأجلس معهم على الشرفة الخارجية للاستمتاع بنسيمات بدايات الربيع الباردة، فأصررت على إنهاء عملي في نقل الأواني والصحون.

عدت إلى الغرفة لأتأكد من ترتيبها كما يجب فتفاجأت بفارس يتقدم من الداخل عائدا من دورة المياه، نظر إلي باشتياق فتجنبت النظر إليه، شعرت بالغثيان لوهلة لكنني تماكنت نفسي، أخذت نفسا عميقا ثم قال:

" يبدو أن الأمور بينك وبين شادي قد تطورت أم أنه يلاطفك كيدا بي؟"

تجنبت إجابته وقلت له متوسلة:

" أرجوك فارس لديك مخطوبة بالفعل وهي شديدة الجمال وتحبك بشدة فاشغل نفسك بها وانس الماضي لعل هذا خير لكلينا، حاول أن ترى الأمور من منظور مختلف"

فتح فمه ليرد علي ثم سكت فجأة وهو ينظر خلفي، استدرت لأرى وجه شادي الغاضب، تمكن
الرعب مني لكنني تسمرت مكاني، نظر نحو ابن عمه وقال مهددا:

" إيلينا اخرجي نحو الشرفة حالا"

فهاجمه فارس بقوله:

" لا تنس يوما أنك سرقتها مني، انتزعتها من قلبي لتدميني! كانت لتغدو زوجتي أنا... لا زلت لا

أفهم كيف طاوعتك نفسك لتهدم علاقتنا وتحطم قلبي من أجل إرضاء مصالح أمك"

فصرخ به شادي بدوره:

" لا شأن لأمي بأي شيء! إيلينا زوجتي أنا فليس لك فيها مصلحة! افهم هذا جيدا، فافتح أذنيك

وأصغ جيدا، أنا لن أطلقها ولن تكون لك!"

قدم عمي مسرعا خلفه أخوه ليطمئنا إلى سبب الصراخ، فجذب عمي ابنه من مرفقه ليأخذه خارجا

وأشار إلى فارس أن يسبق الجميع نحو الشرفة. وتركوني وحدي أخيرا فأخرجت نفسا لم أكن أدري

أنني أكبته داخلي، ثم فوجئت بمخطوبة فارس واقفة عند الباب تطالعني بنظرات غريبة اقتربت مني

ثم قالت بنبرة حزن:

" إني لا أجد طريقة أنسيه تفكيره المتواصل فيك، لقد تعبت"

قابلتها بنظرة أسف وقلت بنبرة صادقة:

" وأنا تعبت من هذه الدوامة كلها، لو كان بيدي لاختفيت من حياة الجميع"

ثم شردت بهذه العبارة التي صرحت بها ربا لو هربت وابتعدت من هنا سأعيش حياة أخرى،

وهكذا أتمكن من رعاية ابني دون مشاكل من السيدة انتصار فأنا متأكدة أنها ستسعى بجد لاثامي

بنسب الطفل، ولن أكون خائفة من رد فعل شادي عندما يعلم بحملي.

وضعت الأنسة رشا يدها على كتفي كأنها تنبهت إلى شرودي ثم قالت بصوت محرج:

" أنا آسفة لصفعي لك سابقا، لم أكن أعلم بالقصة الحقيقية"

نظرت إليها مصدومة هل يعقل أن فارس شرح لها كل شيء؟ أم أنها سمعت كل شيء حصل للتو؟
زفرت بألم ثم قلت لها أنوي خيرا:

" اصبري على فارس فالزمن يهب نعمة النسيان وسيحبك مع مرور الوقت، لكن عليك أن تكوني
صبورة لتحقيقي هدفك "

زمت شفيتها تفكر قليلا ثم انفرجتا عن ابتسامة صغيرة، وأشارت إلي أن نمضي حيث الباقون
جالسون، بينما ذهني منشغل بتطبيق فكرتي للهروب من هنا إلى مكان بعيد لا يصلني فيه أحد
يعرفني .

الفصل الرابع والأربعون

ضربت سارة طاولة المكتب بسخط وقالت تصرخ بي:

" لا أنت حقا فقدت عقلك! مجنونة كيف تفكرين هكذا؟"

التفت خلفي فرأيت البعض يحدقون بنا بسبب صوتها الجهوري ومن بينهم شهد، فحدجت سارة بلؤم، فقالت بسخط بنبرة منخفضة هذه المرة:

" مجنونة! أنت حتما أصابك الخرف! تريدان أن تهربي بسرّك ولا يدري أحد عنه شيئاً؟! هل فكرت في خطتك على الأقل؟ من أين ستؤمنين المال الكافي لهروبك؟ وأين ستذهبين بحيث لا يصلون إليك؟ وماذا عنه هو؟ كيف ستعيشين معه دون مساعدة من أحد؟"

أجبتها ببرود:

" ما زلت أخطط، سأجد طريقة حتى لو اضطررت لأن أستدين المبلغ الذي سيؤمن هروبي من هنا! يجب أن أحميه وأحمي نفسي من كل شر."

اقتنعتُ بشكل نهائي بخطتي، فهي المهرب الوحيد لي من المشاكل التي سأقع فيها بسبب حملي، ولا أستطيع أن أجهضه، فهذا يتنافى مع مبادئ وأخلاقي، لا يوجد حل آخر.. ماذا لو اقتنع شادي بأن الطفل ليس له؟ تصرفاته البارحة التي كان يكيد بها لفارس أججت في داخلي الرعب من غضبه. مرت ساعات الدوام المتبقية بتجنبي الحديث مع سارة فهي كانت غاضبة جدا مني وارتأيت أنه من الأفضل لو تركتها لتهدأ ثورتها علي، لن تفهم ما أشعر به، لا أحد يفهم معاناتي.

قدمت السكرتيرة الخاصة بشادي نحو مكتبنا وطلبت من سارة أن تتجه إلى مكتب المدير فوراً، فاعتلت وجهها نظرات الرعب، اتجهت أنظارنا تلقائياً نحو شهد التي كانت تجلس في مكتبها تنظر بتشف نحونا.. ماذا فعلت هذه المرة؟ ما المكيدة التي حاكتها ضدنا الآن؟

.....

طرقت سارة الباب بخفة، فأتاها صوته من الداخل يسمح لها بالدخول. اتجهت بخطواتها المرتعبة مقابله، جلست على الأريكة بعدما أشار إليها بالجلوس. حاولت أن تتحكم في أنفاسها المذعورة وضربات قلبها المضطربة.

كان يطرق الطاولة بأصابع يمينه ويده الأخرى تستريح تحت ذقنه بينما يرمقها بنظرات حادة بعينه الرماديتين اللامعتين فازداد الرعب في قلبها، وأخيرا قال:
" ما الهذر الذي كنتما تتمتان به في المكتب أنت وإيلينا؟"
رفعت بصرها نحوه بذهول جلي، فقال مؤكدا شكوكها:

" وصلني كلام عن خطة لإيلينا لتهرب مع شخص ما، هل هذا صحيح؟ هل قالت لك اسما؟
فارس مثلا؟"

لو كان الخوف إنسانا لشنقها الآن، شعرت أنها على وشك التقيؤ، لكن نظراته الحادة أجبرتها على النطق لتجيبه بصوت مرتجف:

" أنا لا أعلم شيئا سيدي! لم تقل إيلينا شيئا"

شزرها بنظرة مخيفة واعتدل جالسا متكئا على ظهر الكرسي وألح مهددا:

" ستخسرين وظيفتك إن لم تبوحى"

لمع جبينها بقطرات من العرق تنساب منه وقالت:

" لا يمكنني أن أقول شيئا فأنا لا أعلم بما استقر عليه عقلها! كل ما يمكنني قوله أن تواجهها

بمخاوفها فقط، إنها مذعورة وتحتاج من يحتويها والآن اعذرنى علي المغادرة رجاء!"

- "مذعورة من ماذا؟"

- "واجهها وهي ستعترف لك، قل لها صديقتك قالت لي كل شيء وستنطق كالسحر"

قطب جبينه وقد ازدادت حيرته، فتح فمه ليحييها لكنها تلاشت كالزئبق وهربت من المكتب قبل حصولها على الإذن بالخروج.

إيلينا

عادت سارة بنظرات ملؤها الرعب إلى المكتب فأمسكت بذراعها فور جلوسها وسألته عن

الخطب، في البداية لم تجبني ثم هبت بي قائلة:

" اعترف له بسرّك! سامحيني!"

صدمتني بكلامها فاغرورقت عيناى دمعاً وأنبتها لفضحها سري فاعتذرت متبرمة بتهديده لها

بطردها من العمل، مؤكدة لي حاجتها لوظيفتها.

بقيت في ترقب ميمت لردة فعله، لكنه لم يستدعني مثيرا العديد من التساؤلات والمخاوف في رأسي،

سألته عن ردة فعله لتقول لي أنه لم يظهر أي تعبير من أي نوع، فاقشعر جلدي كطائر منتوف

الريش. وما إن انتهى الدوام حتى خطفت حقيتي وهربت باتجاه الخارج لأركب في سيارة الشركة

قبل أن يتمكن من محاصرتي... لم أتنبه إلى غباء تصرفي إلا عندما وصلت غرفتي وأوصدت الباب

على نفسي، فأين سأهرب منه؟! في النهاية سيواجهني! أما كان من الأجدر بي الهرب إلى بيت أمي؟!!

أخرجني طرقة على الباب بعنف من قوقعة أفكارى، ثم جاء صوته مزجرا بغضب ليقول مهددا:

" أقسم بالله يا إيلينا إذا لم تفتحي الباب فسأكسره وأنا عند وعدي!"

تملك منى الرعب كل مأخذ، فاتجهت نحو الباب مدعنة له وفتحته رويدا فدفعه بقوة بقدمه

فأجفلني، ثم هربت بلا وعي نحو أريكتي. أغلق الباب خلفه وتقدم منى غاضبا ثم قال:

" هل كنت تظنين أنك ستستطيعين الهروب؟ أما شككت لوهلة أنني سأجد مخبأكما؟ لقد شوشنتني،

لا أستطيع فهمك أبدا، فإما أنك مجنونة أو عديمة أصل "

غطيت فمي بكف يدي وبدأت أبكي بخوف ثم قلت وسط رعبى ودموعى:

" ماذا كنت تنتظر منى أن أفعل؟ لن أحتمل المزيد من إهانات أمك واتهاماتها الباطلة، لذا نعم كنت

سأهرب بعيدا دون أن أقول شيئا عنه!"

مسح وجهه بكفى يديه مذهولا وقال:

" بكل وقاحة تعترفين؟! أما ظننت أنني سأجبرك على التخلي عنه! أتقولين لي أن كل ما عشناه معا مجرد أكاذيب؟! هل خداعي مقامرة تتسلين بها؟ ما الشيء المميز فيه حتى لم أقو على الظفر بك وأجعلك تنسينه؟! أم أنك تحلمين بتجربة شعور الحب معه؟! إنه لا يستحق أن تفسدي حياتك لأجله! أقسم أنك إذا فعلتها وهربت معه سأقتلكما أنتما الاثنين!"
صرخت به:

" حرام عليك ما هذا الكلام؟! كم أنت مجرد من الإحساس! طبعاً أريد أن أكتشف مشاعري تجاهه وأعيشها بكافة تفاصيلها! وبالتأكيد سيغدو مميزاً لي ولك! أم أنك تريد حرمانني من هذه الأحاسيس لأجل أنايتك وخوفك منها؟! أليس في قلبك لو ذرة فضول لتجرب إحساسك تجاهه أيضاً؟ ألم تتخيل ولا للحظة كيف سيكون شعورك لو ضممته إلى صدرك؟!"
ما عاد بوسعي التحكم بأعصابي فما إن انتهيت من كلامي حتى انفجرت باكية بحزن مرير، فلم أتوقع كرهه لهذه الدرجة لفكرة حملي، وتجروءه على التفكير في قتل إنسان فكيف لو كان من صلبه! نظر إلي أولاً بدهشة ثم بتقزز غريب وقال:

" لحظة! ماذا؟ من..؟ عم تتكلمين؟ أي إحساس تريدين أن أشعر به نحوه؟ هل بدأت تهذين؟"
هبت به دون وعي قائلة:

"أتكلم عن ابنك! ماذا أصابك؟!"

شحب وجهه لدرجة فظيعة لم أرها من قبل وكأن روحه قد غادرت جسده للحظات وعادت بقوة لتضرب إدراكه فقال بصوت مختنق مرتاب:

" قلت ابني؟! أنا؟ ابن؟... هاه!.. أنت... حامل؟"

فتحت فمي ببلاهة وتجمدت دموعي في محجريها، ابتلع البهتان لساني في البداية وأخيراً قلت متسائلة وقد أدركت أنني وقعت في كمين حاكته لي سارة:

" أنت لم تكن تعلم؟ عمن كنت تتكلم... إذن؟"
أجاب بتأن وهو محافظ على نظرة الدهشة التي طبعت على محياه:

" عن فارس! زميلتك شهد... قالت أنك ستهربين مع... شاب، وصديقتك لم تعطني جوابا شافيا.. لذا ظننت.. أن... آمم"

ضربت وجهي بكفي يدي وجلست على الأريكة لأريح أعصابي التي بت أشعر أنها تلفت، فتقدم مني أكثر، ركع على ركبتيه أمامي ومد يديه بتردد ملحوظ، حتى استقرتا على بطني أخيرا، ثم رفع رأسه ينظر في عيني ففوجئت بالدمع في مقلتيه وقال بصوت مرتجف:

" أنت حامل! بطفلي!... طفلي ينمو في أحشائك!! "

ثم دفن رأسه في حجري وأضاف باكيا:

" حرام عليك كنت تريدن حرمان من ابني؟! كيف طاوعت لك نفسك أن تفكري هكذا؟! "
اغرورقت عيناى بالدموع وأخذت أبكي بألم معه واحتضنت رأسه في حجري وطلبت منه السماح، لم أتخيل أن تكون هذه ردة فعله. من ينظر إلى قوته وجبروته لا يستطيع التصديق بأنه يمتلك قلبا رحيما ليبيكي على ابنه الذي أنبته في رحمي.

نهض عن الأرض وجلس على الأريكة بجانبى ثم جذبني نحو أحضانه وضممني بقوة وأخذ يقبل رأسى وخدي ويبلل وجهي بدموعه التي أثارت إحساسى أكثر فزادت من بكائى. ثم ما لبثنا أن هدأت فورة أعصابنا بعد مرور بعض الوقت.

رفع يدي وقبلها وقال مبتهجا:

" أنا الآن أسعد رجل على وجه الكرة الأرضية! سأصبح أبا!"

أبهجنى كلامه وأثار أحاسيس دافئة تملكت قلبى وغلفته بطوق المودة، ثم فجأة بهتت ابتسامته المشرقة واستحالت نظراته إلى رعب دفين، وشحب لونه من جديد، ثم هب واقفا بسرعة وهو يمرر أصابعه فى خصلات شعره وقال بذعر:

" يا إلهى!!! أمى؟! كيف سأخبرها بالموضوع؟! هي لا تعلم أساسا بعلاقتنا!! آه يا ويلي!! "

نظر إلى ثم اقترب منى ثانية وقال:

" سنخبي خبر حملك حاليا عن الجميع، ولن نخبر أحدا حتى أجد طريقة أبلغ فيها أمي، اتفقنا؟ لا تخبري أحدا إيلينا ولاحتي أمك أو أختك!"

أومأت برأسي موافقة لكنني آثرت تذكيره بأن سارة تعلم. زفر بمهل ولم يعط للموضوع أهمية فقد أخبرني بإخفائها الأمر عنه حتى مع تهديده لها بالطرد، مما أثار في نفسي الاستياء من تصرفاتي معها اليوم، لقد حفظت سري وصانته، وبذكائها جعلتني أعترف به، يا لك من داهية يا سارة! باتت شهيتي تجاه الطعام تقل أكثر عن ذي قبل، حتى أنني لم أعد أحتمل رائحته، ومعظم ما آكله أتقيؤه على الفور، فعدت قصة إخفاء حملي وتقيؤي متعبا لي أكثر مع كل يوم يمر، أصابني الهزال وبان التعب على وجهي بشكل ملفت بالهالات السوداء ولوني المصفر وانقلاب مزاجي، مثيرا التساؤلات من حولي، وأكثر ما كان يضايقني ذلك الغثيان الصباحي الذي كاد يقتلع أمعائي من شدته. لم يكن شادي مرتاحا لوضعي، وكان يتأخر أحيانا عن العمل ويفوت فطوره الصباحي وهو يمضي وقته معي ليقدم لي ما يستطيع من عون، لكن غيابه كان ملحوظا لأفراد العائلة ويشعل فتيلة الشك في ذهن أمه، وكلما همت بالتدخل يفاجؤني ببروده غير المعتاد معها.

لاحظت تغيره معها بعد ضربه لي، كأنه لا يستطيع تخطي نغمه عليها، ومن جهة أخرى انقلب حاله معي ليصبح أكثر قلقا علي ويهتم بما أتناوله بحرص شديد، ولا يسمح لي بأداء الأعمال الروتينية التي اعتدت القيام بها، من ترتيب للملابس وتنظيف غرفتنا وملحقاتها والمساعدة في تجهيز الطعام والتنظيف بعده، فأوكل بهذه المهام كاملة للخدم وأمرني بالراحة، مع أنني لست معتادة على خدمة أحد لي، خشيت أن يزيد الشكوك حولي بحرصه الدائم علي، حتى عند استخدام السلام يحرص على إمساك يدي في الصعود والنزول.

شعرت بنظرات أمه النارية كأنها تحاول تحليل تصرفاته، لكنها لم تكن تجرؤ على سؤاله شيئا بعد أن كان يتجنب إجابتها وأحيانا يغضب ويغادر المنزل.

أظن أنها وصلت إلى تحليل يوافق خططها الشيطانية، معللة تصرفاته بأنه يريد زوجة يرتبط بها ليعيش حياته مستقرا، فعادت تخطط من جديد في البحث عن زوجة جديدة له، وكثرت اجتماعاتها

مع صديقاتها المتكبرات أمثالها وهن يعرضن عليها صوراً لفتيات جميلات من الطبقة الارستقراطية، حتى أن إحداهن مازحتها مرة بسؤالها:

" ما بك الآن صرت أشد حرصاً على تزويجه مع أنك كنت في السابق تتكبرين على جميع الفتيات وكنت تبحثين عن مواصفات تعجيزية لابنك الغالي؟!"

فقابلتها بضحكة استهزائية معبرة أنها تريد أن تثبت أنها أفضل من عمي في اختيار شريكة حياة ابنها، بدل الفقيرة التعسة، ونظرت إلي من بعيد بينما كنت أجلس في الحديقة أقرأ كتاباً على مقربة من جلستهن. فهي اختارت هذا المكان لمجالستهن كيذا بي لأستمع لفحيتها. أنبتها ذات المرأة قائلة:

" انتصار أنت تقسين على البنت كثيراً، إنها جميلة ومهذبة الأخلاق لا ينبغي أن تكون من عائلة مرموقة لتنال محبة أحد، يجب أن تكوني أكثر فخراً بها فالكل يشيد بأخلاقها كلما ذكرت على لسان أحد"

غضبت السيدة انتصار ولم يعجبها ما قالته المرأة وانقسمت السيدات حولها بين مؤيدات ومعارضات ومنهن من بقي على الحياد.

ليان

لم يمل يزن أبداً من محاولة التقرب مني أو إرجاعي، لكنني كنت شديدة العناد والحرص على عدم الوقوع في فخاخه، لن أعود إلى ذلك البيت وإلى حياة ذلك الرجل - والده-! ثم أنه هو من طلقني وتخلّى عني بتلك السهولة وبسبب ماضٍ لا حول لي فيه ولا قوة! فلما يجب أن أرخي حصوني له؟! لقد تعذبت بسببه وذقت من الهوان ما يكفي لشخص مكتئب بلا عقيدة تحكمه أن يفكر جدياً بالانتحار، ولولا عقيدتي لجعلت ذلك احتمالاً بديلاً عن القهر الذي يعتصر قلبي بشكل يومي... لن أعود إليه أبداً، يجب أن يعلم أنني لست لعبة بين يديه.

والأمر المزعج الآخر أن المدير أعاد عرضه علي بالزواج وكذلك بالنسبة لمازن وعلم السيد عصام بذلك فنشبت حرب باردة بينهما، غير الحرب التي كانت تشتعل أصلا بين مازن ويزن، حتى في النهاية شعرت بالاختناق من الشباك التي أسرتني وكلما ظننت أنني نجوت من أحدها تلقفني الأخرى.

كنت جالسة صباحا في غرفتي الصفية أتابع أعمال طلبتي الكتابية قبل بدء طابور الصباح، دخلت عبر إلى الغرفة تبليغي برغبة المدير في لقائي في مكتبه وعندما هممت بالنزول استوقفتني بكلامها المفاجئ:

" ليان! أنا أعرف أنك تكرهيني لكن يجب أن أقول لك شيئا بالغ الأهمية! أعلم أن الموضوع صعب عليك لكن خذي نصيحتي ولا تسمح لي ليزن بالتأثير عليك فهو ليس كما يظهر أمامك " حاولت سؤالها عن قصدها لكنها أبت أن تفصح أكثر وابتعدت مسرعة من أمامي حتى لا أستجوبها أكثر.

نزلت نحو مكتب السيد عصام وبالي مشغول بكلامها، عندما ولجت تفاجت برؤية رجل بدا لي مألوفًا بشكل ملحوظ، أشار إلي المدير بالجلوس ففعلت وأنا أطلع الرجل بفضول شديد، ابتسم مظهرا صف أسنانه المزيفة وقال:

" ما بك يا سيدة ليان؟ آسف أقصد أنسة ليان! يبدو أنك نسيت من أكون! أنا السيد غسان صاحب أكبر المنتجعات السياحية في البلد كله "

أبحرت قليلا في ذاكرتي حتى تذكرته حين التقيت به في ذلك اليوم الذي تشاجرت فيه مع والد يزن وأهنت ضيوفه. اعتدلت في جلستي وسألته ببرود عن سبب استدعائه لي.

ابتسم من جديد ابتسامة غير مريحة وقال:

" بما أنك تحررت من كل قيودك من عائلة هاني شاهر فقد قدمت لأعرض عليك من جديد رغبتني في عملي لدي في المنتجع "

حبا في الله ماذا يجري حولي؟ عروض زواج وعروض عمل جديد؟! وكل ذلك تزامن مع عودة
يزن؟! هل هذه إشارة حتى أبتعد عنه وأختار منحى جديدا لحياتي؟

نهضت واقفة وقلت محافظة على نبرتي الصلبة:

" لست مهتمة بعرضك فاعذرني يا سيدي!"

فأوقفني قبل أن أتمكن من الابتعاد وتوقف مقابلي، مد لي ببطاقة صغيرة وقال:

" لا تتسرع رجاء في إصدار قرارك! فكري في تأنُّ، إذا قبلت بالعمل لدي فستحصلين على معيشة
أفضل لك ولأمك، أفضل لك من أن تدفني نفسك وجمالك في قطاع التعليم الذي لا يسمن ولا
يعني من جوع!"

وضع البطاقة في كف يدي، وغادر المكتب شاكرا السيد عصام على حسن الاستقبال. نظرت نحو

الأخير فلمحت نظرات معترضة منه على الموقف كاملا لكنه لم يتدخل أو يعلق بشيء.

انتشر الخبر بسرعة رهيبية في المدرسة، أنا حقًا لا أعلم لماذا لا يتم صون الأسرار في هذا المجتمع؟!

أليس من المفترض أن تكون المدارس مثالا يحتذى به من الالتزام بالأخلاق الحميدة؟

تفاجأت بيزن يقتحم غرفتي الصفية بينما طلبتي يستمتعون مع عبير في حصة التربية الرياضية، وعلى

وجهه علامات الغضب، كنت جالسة على الكرسي أمام طاولتي أتابع كتبهم ودفاترهم، فهاجمني

بقوله قبل أن أتمكن من طرده خارجا:

" إياك أن تقبلي بعرض ذلك القذر غسان للعمل لديه فهو معروف بنجاسته واستغلاله للنساء!"

حدجته بنظرة غير مبالية وقلت مغيظة له:

" لا شأن لك فيما أفعله في حياتي! ربما لو قبلت بعرضه أرتاح منك "

ظهر الألم من كلامي الجارح على وجهه فورا حتى أنني ندمت على تسرعني في الكلام، لكن كبريائي

أبى الاستسلام له. اقترب نحوي ونزل على ركبتيه ووضع يديه على فخذي فسرت قشعريرة في

جسدي ومع ذلك حافظت على ثباتي وأكملت تجاهلي له بالتظاهر بتصحيح أحد الدفاتر، مد أحد

ذراعيه وضرب بها على الصفحة التي كنت أطلعها من الدفتر، فانتفضت بغضب وسألته بانزعاج واضح:

" نعم؟! ماذا تريد؟!"

فقال بنبرة هادئة:

" أريدك!"

زفرت بضيق ثم أبعدت يده عن فخذي ونهضت حتى أبتعد عنه وألتقط أنفاسي فنهض واقفا بدوره بسرعة ليسد علي الطريق، حاولت المرور لكنه كان يتحرك معي تزامنا ليسد علي الطريق فأبقى محاصرة، زمجت بانزعاج وبدأت معه حرب النظرات، فلم يتمالك نفسه وفاجأني مباغتا بضمي إلى صدره.

تصاعدت الدماء جريا إلى رأسي وخفق قلبي بقوة، اشتقت للمساته وأحضانة وقوة ذراعيه وصلابتها، ثم ذكرت نفسي أنني لم أعد زوجته بعد الآن، ولا رباط شرعي بينا يجعل له لمسي، فحاولت دفعه من ذراعيه لأبعده عني لكنه كان متمسكا بي بشدة فهددته بالصراخ، فابتسم بمكر وقال:

" اصرخي حتى أسكتك بطريقتي!"

شعرت أن وراء تهديده تصرفا غير لائق منه على وشك أن يقوم به، فأشحت وجهي للجانب بغضب وحاولت تخليص نفسي من قبضته لكن ضاعت محاولتي ضد قوته البدنية سدى فتوقفت عن المقاومة لأستجمع طاقتي من جديد. ثم تحين الفرصة ورفعني على طاولة المكتب فكتمت صرخة مرتعبة من تصرفه الجريء.

تمسك بي من وسطي جيدا واقترب مني أكثر وقبل أن يعطيني فرصة لأترجم الموقف ألصق وجهه بوجهي وقبلني بقوة على شفتي. صدمت من تصرفه، أبعده رأسه عني ليلاحظ ردة فعلي فصفعته بيدي على وجهه دون وعي مما أثار حنقه، فثبت رأسي بيديه وانكب علي يقبل شفتي مجددا. وضعت يدي على كفيه لأبعدهما عن وجهي فلم أستطع. تعمق أكثر في القبلة حتى شعرت بطعم أنفاسه

كانت مختلفة عما عهدته منه شعرت فيها بطعم عتيق كالسجائر مع طعم الكرز والنعناع التي كانت تنعش إحساسي. لكن لم أشعر أن طعم السجائر أثر في استجابتي لقبله ما زلت أعشق إحساس شفثيه وشعور يزن فيهما... ما زلت أعشق طعم أنفاسه حتى لو كانت مخلوطة بالسجائر، وجدت نفسي أروض لقبلته وأمسك بياقة قميصه أطالبه بالمزيد حتى لا ينيها. أبعث شفثيه ليلتقط أنفاسه المثقلة بالرغبة ثم همس بصوته الثقيل:

"أحبك! أحبك أكثر مما أحب نفسي"

أيقظت كلماته شعور الألم في قلبي فدفعته بيدي من صدره الصلب ونجحت في إبعاده عني، ونزلت عن الطاولة محاولة إخفاء دموعي التي كانت على وشك أن تفضح حسرتي وقلت بصوت مختنق: "إذا كنت تحبني كما وصفت فلماذا طلقتني؟"

لم يجبني، تمنيت لو قال شيئاً، أي شيء يساعدي في فهم سبب طلاقه المنكر لي... لكن بقي صامتا وأنا أشعر باختناقي يزداد في كل لحظة، فتقدمت نحو الباب وفتحته وأشرت له بيدي ليغادر، كنت أعلم أنه يتألم لكنني آثرت ألا أشفق عليه. ثم قدم طلبتي إلى الغرفة الصفية فأخذوا يدخلون تباعا واحدا تلو الآخر وهم ينظرون نحو يزن بفضول عجيب، كانت آخرهم وصولا عبير حتى تتأكد من وصول جميع الطلبة، لتفاجأ بيزن في الداخل، فنظرت إلى بريية، فشزرتها بنظراتي ودعوت الله ألا تكون قبلته قد تركت آثارها على شفثي حتى لا تعلم بما جرى بيننا، نظرت إلى يزن متجاهلة وقوفها وقلت بنبرة جافة:

"لدي حصة، لو سمحت غادر! وتوقف عن محاولة التكلم معي فلدي أشغال أخرى غيرك!"

تقدم نحو الباب وهو ينظر نحوي بتحدٍّ ثم زفر بامتعاض وغادر متجاهلا بدوره وقوف عبير التي كانت تقلب بصرها بيننا، نظرت نحوها ببرود وألقيت عليها تحية وداع وأغلقت الباب قبل أن أعطيها مجالا لتفتح فمها بتعليق واحد.

حاولت جاهدة إخراج يزن من بالي وقاومت شعوري الذي نما شوقا إليه بعد تلك اللحظة الحميمة بيننا. مر باقي اليوم ببطء شديد حتى تنفست الصعداء أخيرا عقب مغادرة جميع الطلبة، أخذت

أوضب أشياءي، ثم اقتحمت هناع الغرفة تحمل معها ظرفا مغلقا وعلى وجهها نظرة ذعر جليلة، سألتها عن الخطب فمدت لي الظرف موضحة بقولها:

" قدم رجل بسيارة سوداء وسلم هذا الظرف للمساعدة لتعطيك إياه، فأخذته منها لأسلمه لك قبل أن أسمح لها بتفقدته، لكن لفت نظري هذه العبارة المكتوبة أسفله "

نظرت إلى المغلف أتفحصه وقلبتة على الجهة الخلفية لألحظ عبارة مكتوبة بخط عريض تقول:

" حتى لا تتحسري على شيء أقدم إليك سبب طلاق يزن لك "

اصفر وجهي وشعرت بقلبي يهوي بين ساقبي، حاولت فتح المغلف، لكن يداي كانتا ترجفان فمزقته حتى أعرف ما يحتويه. وعندما لمحننا محتواه شهقنا أنا وهنأ بقوة وأحسست أن العالم بدأ بالانهيار من حولي وبسواد يعتري قلبي فيتوقف عن النبض.. أظلمت عيناوي وكدت أقع لولا هنأ التي أمسكت بي وقادتني نحو الكرسي لأجلس بعد الانهيار الذي أصابني، لم أشأ أن أنظر ثانية نحو الصورة تلك الصورة التي هدمت كل أمل لي وكل نفس، تذكرت قول يزن سابقا عن قدسية الزواج وتذكرت قصة خيانة والده لأصرخ بكل جوفي حنقا وأنا أبكي:

" طبعأ هذا الشبل من ذاك الأسد! "

شعرت بأن عالمي كله انهار إنه يعرف جيدا شعوري حيال الخيانة بعد قصة بهاء والآن أرى له صورة لا يرتدي فيها إلا سرا والادخليا يحتضن عبير التي ترتدي بدورها لباسا خليعا مستلقيان على سرير يضحكان بقرق!

عادت بي الذكرى إلى موقف عبير وكلامها الغامض صباحا واليوم الذي طلقني فيه حينأ سحبه والده خارجا ليكلمه، فهمت الآن كل شيء! ابتزه والده بإبلاغي عن خيانتة التي اكتشفها بطرقه الرخيصة لهذا طلقني خوفا من معرفتي للحقيقة فأبقى في دوامة ظني أنه طلقني بسبب ماضي الشنيع. أحسست بالغيظ يعتريني كاد قلبي ينفجر قهرا. ذرفت دموعا لأبكي بسخط وكرهت نفسي وشعرت بالاشمئزاز منها لأنني سمحت له بلمسي والاقتراب مني اليوم يا له من قدر! بل أشد قدارة من بهاء نفسه.

نهضت فجأة عن الكرسي مندفعة كالصاروخ حاولت هناء اللحاق بي، ركضت حتى وصلت السلام كان مازن واقفا على باب مكتبه يغلقه كذلك الأمر بالنسبة لكل من المدير والمساعدة وكان الطابق يعج ببعض الزملاء الذين على وشك الرحيل من بينهم يزن الذي كان يتحدث مع الأستاذ راغب، فتجاهلت وقوف الجميع لأنني إذا لم أنطق الآن لن أنطق أبدا فقد أموت بسكينة قبل أن أخرج ما في قلبي.. صرخت به من أعلى السلام دون مراجعة لأفكاري التي خطرت لي دون تفكير متمعن:

" يزن أيها الحقير!!! "

نظر الكل نحوي مشدوها بالأخص هو، فأكملت:

" لن أسامحك على ما اقترفت من ذنب أيها القذر!!! لمعلوماتك فقط سأذهب إلى السيد غسان لأقبل

العمل عنده حتى أتخلص من رؤية وجهك الذميم "

ثم استدرت لأعود لكنني التفت نحوه ثانية لأضيف صارخة:

" آه وأيضا زيادة في العلم أقول لك!! قبلت بعرض مازن للزواج!! "

شهق الكل أما هو فسقطت ملامحه صدمة وقهرا، وأما مازن فكأنها غاب عن الوعي. عدت نحو غرفتي الصيفية متجاهلة هناء التي كانت تمسك بدرانزون السلام حتى لا تقع بعد إعلاناتي المفاجئة. سحبت حقيبتني من الغرفة بسرعة ونزلت السلام من الجهة الثانية وغادرت المدرسة من الباب الخلفي حتى لا أتصادم مع أحد. ركضت في الشارع أبكي بألم ومرار وأنا أشعر بأنه لم يتبق لي هدف أعيش من أجله على الإطلاق.

إيلينا

ارتأيت أن أذهب إلى بيت أمي بعد إعلامها لي عن انهيار ليان المفاجئ، أوصلني شادي في نهاية دوامي وقبل أن أترجل أمسك بيدي وقال منبها بحذر:

" لا أقصد ألا تساندي أختك سانديها، لكن لا تنفعلي كثيرا من أجل سلامتك وسلامة الطفل، فأنا خائف عليكما "

ثم رفع يدي نحو شفثيه وقبلها فشعرت بالخجل وابتسمت له بخفة.
فتحت لي أمي الباب ودخلت متجهة نحو ليان في الغرفة، اقتربت منها. كانت جالسة على فراشها تضم ساقها إلى صدرها وعيناها متورمتان من شدة البكاء، نظرت إلى حالها المزرية وسألت أمي عن الخطب الذي ألم بها، فلم تستطع تزويدي بأي معلومة.
حاولت حث ليان على الحديث بكل الوسائل والطرق حتى استجابت لي أخيرا وقالت بينما عادت تبكي من جديد:

" سبب ... طلاقى طلقني لأنه كان يخونني! "

شحب وجهانا وكادت أمي تقع أرضا فتماكت نفسها وجلست أرضا لئلا تتسبب لها الصدمة بالأذى، حاولت سحب الكلام منها حتى فهمت قدوم رجل بسيارة ليسلمها ظرفا فيه صورة ليزن مع إحدى المعلمات اللاتي يعملن معها في المدرسة كلاهما غير محتشم، لم يستطع عقلي تصديق ذلك في البداية فسألته عن مكان الصورة لتقول أنها بقيت مع هناء.
ازداد ألمها ونحيبها وأخذت تنعته بأقذر صفات الخيانة، حاولت أمي درء الشبهة عنه معللة إلى أنه ربما كان على علاقة بها قبل زواجه أو بعد الطلاق فأجابت محتدة:
" قبل أم بعد أم أثناء! كان يجري خلفي في كل هذه المراحل، إذن عند اقترافه هذه الغلطة يكون خائنا لي! "

لم أستطع كبح لساني فقلت ألومها بدورها:

" لا يمكنك أن تلوميه إذا كان معها قبلك أو بعدك فأنت قمت بالمثل "

نظرت إلي مذهولة ثم تحولت نظرتها لسخط وسألته عم أهدر فقلت:

" أنت أيضا أخطأت بحقه سابقا، فأنت خنته مرة مع مازن! أم نسيت؟ "

ازدادت حيرتها وذهولها من كلامي فهبت بي ثانية لتفهم المقصود به، فأخرجت هاتفي وأريتها صورتها مع مازن، تلك التي أرسلتها لي السيدة انتصار لتبتزني حتى أرتبط بابنها وفق شروطها، شحب وجه ليان واقتلعت الهاتف من يدي بقوة وهي تنظر نحو الصورة مصدومة ثم قالت بلهجة مستهجنة:

" من أين جئت بهذه المهزلة؟ هذا يزن وليس مازن!"

سحبت الهاتف منها ونظرت إلى الصورة جيدا فرأيت مازن. أعدت بصري إليها بحدة وقلت:

" أنا لست عمياء، وهما غير متشابهين حتى يلتبس علي الأمر هذا مازن!"

فقلت باعتراض:

" لا هذا يزن هذا قميصه المفضل عندي وهذا الجسر أخذني إليه في أول موعد لنا "

فأجبتها بحيرة:

" لكن وجه مازن في الصورة .. "

فقاطعتني بقولها:

" أيا كان الحقير الذي أرسلها لك قد تلاعب بالصورة! ألم تسمعي ببرامج تعديل الصور؟! هذا يزن وتم وضع وجه مازن بدلا منه، من أرسلها لك؟ "

سكتت لوهلة وأنا أنظر نحوها بذعر، فتنهدت بغضب وقالت:

" تلك المجنونة حماتك صح؟ لماذا لم تريني إياها سابقا؟ لكنت تصرف مع هذه القذرة بأسلوبى... "

حقيرة عساني أنتقم منها يوما!"

قاطع جدالنا صوتُ الجرس يقرع، فاتجهت أُمي نحو الباب وسمعنا صوتها ترحيب بامرأة ما وبعد لحظات عادت إلينا تنظر نحو ليان بريية وقالت:

" أم مازن هنا، جاءت من أجلك "

اصفر وجه ليان وأصبح كحبة الليمون، ساعدتها على النهوض وسرحت لها شعرها بأصابعي لأصلح مظهرها البالي قليلا من أثر البكاء.

عندما خرجنا نحوها في غرفة المعيشة ألقينا التحية عليها وجلسنا، فقالت المرأة دون مقدمات:
" ليان ابنتي أنت تعلمين أن مازن يرغب بك منذ زمن.... وذكر لي رغبته بالارتباط بك عقب طلاقك، حاولت ثنيه عن قراره لأنك كنت في وضع مأساوي... لكنه أصر وعرض نفسه عليك ثانية ففاجأني اليوم بإبلاغي قبورك بالزواج منه"

اتسعت حدقتا عيني وظهر الدهول على محياي وكذلك الأمر بالنسبة لأمي، نظرنا نحو ليان بصدمة كبيرة، كانت تجلس بصمت لكن ملاحظتها تظهر ذهولها وذعرها من هذا الكلام. تنفست بعمق وقلبت عينيها في كل أرجاء الغرفة بارتباك واضح ثم قالت أخيرا بعد تردد:
" نعم... وافقت"

تهللت أسارير المرأة عن ابتسامة بينما نحن مصعوقتان بشدة من هذا القرار المفاجئ، ثم قالت بابتهاج:

" إذن؟ نعلن خطبتكما للعلن؟"

طلبت أمي من أم مازن أن تنتظر هنية ريثما تجلس مع ليان على انفراد، أخذتها نحو المطبخ وسمعتها تتجادلان في الداخل، ثم خرجت أمي في النهاية على وجهها ملامح الاستسلام، وابتسمت بزيف وإحراج في وجه أم مازن وقالت:

" ما دامت هذه رغبة ابنك ورغبتها فلا مانع لدي"

صدمتني أمي بقرارها فلم أتمكن من مجاملة الموقف ولو بابتسامة. أحسنًا إكرام الضيفة حتى غادرت فانتهزت الفرصة لأهب في كليهما عن تسرعهما في قبول هذا الزواج، لتصرخ بي ليان فتسكتني ثم قالت بآلم:

" انظري إلى الموضوع من زاوية أخرى، لربما ارتباطي بمازن خير لي في النهاية! ربما كان هو المنشود منذ البداية لكنني اخترت الطريق الخاطئ... ربما... لديه القدرة أن ينسيني حزني وآلامي، لما علي أن أكابد الضنك بينما يزن يفعل ما يشاء ويهيم بفساده مع من يشاء؟"

لم أستطع أن أجيبها ففي كلامها منطوق لكن ماذا لو انتهى بها المطاف بأذية مازن؟ إنه لا يستحق ذلك!

ليان

ركبت بسيارة مرسيديس أرسلها إلي السيد غسان صباحا عقب إرسالي له رسالة قبولي عرضه للوظيفة، وهاتفت السيد عصام وأعلمته عن عدم قدومي إلى المدرسة اليوم للنظر في عرض السيد غسان وربما القبول بالعمل لديه، لم يعجبه ما قلت وحذرنى من الشرط الجزائي لإنهائي العمل قبل نهاية عقدي، فلم ألق بالآلا.

أرشدتني سيدة حسناء ترتدي تنورة قصيرة حتى الركبة إلى مكتب السيد غسان، فدخلته وحينها لمحني طبع ابتسامة كبيرة على وجهه تنم عن الرضا وطلب مني الجلوس مستفسرا عن حالي. نهض واتجه نحو خزانة شعرت أنني رأيت مثلها في الأفلام الغريبة، وصب كأسين غير ممتلئين بمشروب ما ومد أحد الكأسين لي فسألت بجرأة:

" مشروب كحولي؟ "

فابتسم عند إدراكه عدم غبائي وهز رأسه موافقا فرفضت قائلة:

" لا أعاقر الخمر! أنا مسلمة "

فضحك باستهزاء وقال:

" أنا أيضا لكنني لست متشددا، لا أحب حرمان ذاتي من متع الدنيا "

نظرت إليه بحدة ولم أجبه ثم قلت:

" عفوا بغض النظر عن الموضوع برمته، ألا تعتقد أن الوقت باكر على الشرب؟ "

ازدادت ضحكته وقال متبرما بأنه رجل يجب الحياة دون قيود، ثم جلس على مكتبه وألقى بالعقد

أمامي، فأمسكت به وبدأت بفتحه لأقرأه، فتساءل بنبرة جدية:

" ماذا تفعلين؟ "

أجبت:

" أطلع على بنود العقد! لن أوقع على شيء لا أعرف محتواه "

فقال محتدا:

" إنه عقد عمل كأبي عقد لما تضخمين الموضوع؟! "

قابله بنظرة محتدة وبدأت بالقراءة فنفخ بنفاد صبر ثم قال:

" حسنا سأطلعك على بعض البنود التي ستسألين عنها، حتما سيكون عليك العمل كمرشدة هنا في المتجّع وقد تتطلب وظيفتك إدخال المتعة للبعض من الشخصيات المهمة "

ضيقت عيني وأنا أنظر إليه بحدة وقلت:

" ترجم كلامك إلى لغة مفهومة! "

فقال:

" قد يتعين عليك مرافقة بعض الأغنياء من أجل الحصول على متعتهم.... هيا أنسة ليان كنت

متزوجة سابقا، حتما تجيدين إمتاع الرجال! "

نهضت منتفضة عن المقعد أرميه بنظرات مشتعلة دهشة وغضبا، فصرخت به:

" هل جننت يا هذا؟ من تظن نفسك؟ "

فقال بعدم احترام:

" عفوا لكن أأست تلك الفقيرة التي سعت خلف شاب غني مثل يزن من أجل ماله وأوقعته في

شباكك بطرقك الملتوية؟ الآن يمكنك ممارسة ما تشائين من تصرفاتك والحصول على ما تشتهييه من

أموال لتخرجي نفسك وأمك من بؤس الفقر وشقاوته، ففتاة مثيرة مثلك لا ينبغي أن تعمل

كمعلمة! "

وجدت نفسي أمسك بكأس الخمر خاصته وألقيه على وجهه وملابسه فانتفض واقفا فجأة وأخذ

يصرخ بي، ثم التف حول مكتبه بسرعة وأمسكني من ذراعي يشتمني، حاول التقرب مني لينال قبلة

تغيظني، لكنني كنت أقوى مما يظن، فلكمته بقوة في أنفه بقبضة يدي وبين ساقيه بركبتي فنزل على ركبتيه متأماً، ثم ركلته بقدمي وقلت أستشيط غضبا:

" ليست كل فقيرة حقيرة مثلك أيها النذل! اذهب وابحث عن فاجراتك في مكان آخر بعيدا عني " ثم غادرت مكتبه متجاهلة وعده وتهديده بالانتقام. عدت إلى المدرسة واعتذرت بشدة من المدير وأبلغته بعدم رغبتني في ترك العمل، وعندما سألني عن السبب أبلغته صراحة أن ذلك الرجل طلب مني أن أعمل بشروط لا تتوافق مع تربيتي وأخلاقي. تنهد مطولا ثم قال ليوجه عجلة الحديث نحو موضوع آخر:

" إذن.... أنت رضيت بمازن واخترته علي!"

قلبت عيني حوله في المكتب وقلت لأدرا عن نفسي استياءه:

" لا أريد... أن أكون سببا في معاناة زوجتك "

ولم أضف شيئا آخر فلم أعرف بم أرد عليه، نهضت وغادرت مكتبه وهو يراقبني بعينيه بحدة، وأخيرا عندما بدأت بالتقاط أنفاسي فوجئت بيزن واقفا عند باب مكتب المساعدة ينظر إلي محتدًا، فتجاهلته وسرت نحو السلام لأصعد إلى الطابق الأول، فأوقفني مازن الذي هتف لي وهو على باب مكتبه. نظرت نحوه أحاول زرع ابتسامة مجاملة ثم قال:

" اليوم سيحضر والدي من السفر للاتفاق معكم على أمور الزواج "

شعرت بأن شحوبي قد ازداد لكنني حاولت إخفاء شعوري وابتسمت بزيف ووعدته بلقائه لاحقا، ثم مضيت إلى وجهتي بينما لم يغادر خيال يزن زاوية عيني وهو واقف على حاله يراقبنا.

انتهى دوامي بعد أن شعرت أنني خضت اليوم سباقا للجري، فقد كنت منهكة من كل ما مررت به اليوم، قصصت على هناء ما حصل معي في مكتب ذاك الحقير صباحا، هدأني وحاولت أن تطمئنني إلى أن حياتي ستكون أفضل، لكنها كانت معترضة على فكرة ارتباطي بمازن معللة أن قلبي لم يشفى بعد من آلامي من يزن، وقالت لي أنها تعلم يقينا أنني ما زلت أحبه. أخرجت الصورة من حقيبتها وأخذت تتمعن فيها وقالت:

" تلك الحقيرة تمتلك جسدا مغريا! أما يزن فسامحيني على ما سأقول فهو غاية في الجاذبية مع هذا الوجه والجسد الخالي من العيوب! ليت سامر لديه مثل عضلاته!"

نظرت نحوها بتقرز وسألتها عن سبب احتفاظها بالصورة حتى هذه اللحظة، كان يجب أن أتخلص منها منذ البارحة فخطفتها من يدها لأمزقها رغم توسلها الشديد لي لأتوقف، ثم لفت نظري شيء بالغ الأهمية، نظرت جيدا إلى الصورة وتمعنت فيها ثم سألت هناء فجأة:

" لحظة! أين حذوة الفرس؟"

فقلت هناء بتساؤل:

" حذوة فرس؟"

فأجبتها بغیظ وأنا أحاول النظر جيدا في الصورة:

" نعم حذوة الفرس! ثمة علامة على أسفل بطن يزن من اليمين، حرق على شكل حذوة فرس!"

فقلت ببلاهة:

" لماذا حرق على شكل حذوة فرس؟ هل هي وحة أم وقعت عليه رجل فرس مشتعلة؟"

فصرخت بها:

" هناء لا وقت لك ولغبائك الآن!... أنا لا أرى حذوة الفرس!... لحظة أخرى.. هذه الصورة تم التلاعب بها!! هذا ليس يزن!! يزن يتمتع ببشرة أشد اسمرارا من هذا وبنية يزن أكبر وأقوى!"

فقلت هناء متشدقة بأنفاسها:

" قلت بنيته أكبر؟ يعني تكسوه عضلات أكثر؟ آه يا قلبي! من أين أتتك القوة لصدده رغم جاذبيته الفظيعة!"

ثم شردت قليلا ونظرت نحوي بينما أتابعها بذهول من صراحتها، ثم نهضت وقالت:

" أتدرين ما تعنين بكلامك هذا؟ إنه يعني أنه ثمة من تلاعب بك!"

تبادلنا نظرات مذهولة حائرة لثوان حتى لمعت عيناها فجأة ثم قالت:

" اسمعي لدي خطة!"

جلست في انتظار هناء لستم خطتها التي كانت تشمل هجومها مع اثنتين أخريين من صديقاتنا منار وسلمى، وتقييد عبير وإحضارها إلى هنا فور التأكد من مغادرة الجميع من المدرسة.

كنت أنتظر بفارغ الصبر. خشيت ألا تتمكن من تحقيق مخططها، تأخرت كثيرا حتى نفذ صبري وكدت أخرج بحثا عنها فسمعت في الطابق صراخا، تلاها دخول هناء مع منار وسلمى يقمن بجر عبير وهي مكبلة اليدين والفم بوشاحين، اقتادوها نحو الكرسي وأرغمنا على الجلوس، تقدمت من أمامها وأمرت هناء بفك الوشاح عن فمها بينما كانت تصرخ من خلاله وتبكي. حررت هناء فمها فبدأت تلك تصيح وتتوعد بالاتصال بالشرطة. عرضت أمامها الصورة وقلت: " من يكون هذا الشاب؟ "

فقالت مستنكرة:

" يزن! أم أنك أصابك العمى "

هزرت برأسي بتوعد فأخذت حقيبتها وأخرجت هاتفها وأعطيتها لهناء لتقوم بفتحه فوجدت عليه رمزا فصرخت بها تسألها عن الرمز فلم تجب، فطلبت من منار أن تعطيني الوشاح الذي كان مكبلا على فمها وقمت بلفه حول يدي وأنا أقول لها:

" حسنا ثمة أمر لا تعرفينه عني، فأنا أمارس بعض التمارين الرياضية مثل اللكم "

ولكمتها بشدة على وجهها فنزف طرف فمها، فاستسلمت بدعرا بسرعة خوفا من تسديد لكمة أخرى بعدما أيقنت قوتي البدنية، جبانة! لا تؤمن على أسرار! تحاذلت من أول لكمة.

قالت تفك رمز قفل هاتفها:

" خمسة عشر وتسعة والسنة التي بدء بها العام الدراسي بالأرقام! "

نظرنا نحوها بتساؤل فقالت:

" هذا تاريخ دخول يزن المدرسة "

لم نستطع إخفاء نظرة الدهول والاشمئزاز ، قلبت هناء بين الصور على الجهاز بينما أخذت عبير تبكي، فوجدت ذات الصورة لكن بوجه رجل آخر... كان شابا وسيما أبيض البشرة فنظرنا نحوها جميعا ننتظر التفسير، فبكت بشدة وقالت مستسلمة:

" حسنا سأبوح بكل شيء لكن استرن علي! رجاء! إنها... إنها تلك المرأة وعدتني بمبلغ كبير من المال وتسهيل حصولي على يزن إذا اتفقت معها على مخططها، وإذ لم أقبل فكانت ستفضح علاقتي مع رفيقي حسام وترسل صورتي إلى عائلتي، وأنا لدي أربعة إخوة سيقتلونني لو علموا بخروج أختهم مع شاب بعلاقة مشبوهة"

سقطت ملامحنا جميعا ذهولا ثم سألتها وسط دهشتي وحيرتي:

" من تكون تلك المرأة؟"

فبكت أكثر وقالت:

" لا أعلم كان يبدو عليها الثراء ولم تفصح عن هويتها، لكن لها أعوانا كثر وكانت مستعدة لتحتيمي! لو كنت مكاني لتصرفت مثلي! أي واحدة منكن لو كانت مكاني لتصرفت مثل تصرفي" فقالت هناء لتتأكد أكثر:

" أي أن يزن لم يخن ليان معك؟"

هزت رأسها باكية وقالت:

" حاولت جاهدة أن أحصل عليه لكنه أصر على الرفض بسبب تعلقه الغريب بها، لا أعرف ماذا

وجد فيك ليحبك؟ أنت لا تستحقينه!! إنك نحيلة وقبيحة وتشبهين الصبيان بتصرفاتك!"

ثم أخذت تبكي بحرقة. واشتعلت الباقيات غضبا منها وبدأن بشتها وبعثها بصفات قذرة، هددتها هناء بإبلاغ المدير وفضحها مما زاد من بكائها وتوسلها. أما أنا فكان ذهني مشغولا بقضية أكبر منها،

فكرتها للتعامل معها البنات ويطردنها من غرفتي الصفية بطريقتهن واتجهت نحو الشرفة في الممر

لألتقط أنفاسي بعدما تبينت أن سبب طلاق يزن لي ليس خيانتة لقد تسرعت! تسرعت كثيرا

والآن.... ماذا بيدي أن أفعل!؟

الفصل الخامس والأربعون

التهمت عقارب الساعة الدقائق واحترقت الآمال، بينما كنا في انتظار مجيء مازن وعائلته. كان

خالي يتابع نشرات الأخبار ليتجنب الحديث معي بعد شجارنا، بسبب قبولي الارتباط برجل آخر
بهذه السرعة في حين أن جروحي لم تلتئم بعد، وصل الشجار إلى نهاية مسدودة حتى تدخلت زوجته
مبينة أن الأوان قد فات للتراجع الآن.

جلست أمي مقابلي تطالعني بأسى، فقد شرحت لها مسبقا موقف عبير كاملا، وبكيت كثيرا بين
أحضانها وأنا أصارع مشاعري وندمي وتسرعني، لكن الكلام لن يفيد في شيء الآن. أعطينا وعدنا
لهم وفي لحظة وأخرى سنجدهم عند الباب.

ظهرت المذيعة في النشرة وبدأت بسرده الخبر التالي:

" تم صباح اليوم اكتشاف حادث اختطاف لأحد أبرز رجال الأعمال ومالكي أكبر مجموعة
منتجعات سياحية في المنطقة السيد غسان عمرو والتحقيقات ما زالت جارية في أسباب ودوافع
الاختطاف..."

شحب وجهي وبان عليه الصدمة من هذا الخبر، من سيقوم باختطاف هذا الحقير؟ وما مصلحته؟
وكيف تمت عملية اختطافه مع امتلاء المنتجع بحراس الأمن؟ لم أستطع متابعة تفاصيل الحدث
بشكل مفصل بسبب طرق الباب واضطرار خالي لإطفاء شاشة التلفاز.

استقبل خالي عائلة مازن واقتادهم نحو غرفة المعيشة، وجلسوا حيث أشار إليهم بعد تبادل التحية
بيننا، استقرت أمي بجانبني لإعطاء الضيوف راحتهم في المجلس. رفعت بصري نحوهم متفحصة
فرأيت وجه أمه السعيد وأبيه الذي كان يتسم بود، وأخته نور تنظر إلي نظرة غير مريحة، أما هو
فكان مثبتا بنظره على الأرض بحياء وارتباك واضحين.

تعرفنا على والده وتعرف بدوره علينا، وبدأ خالي بالتحدث معهم في مواضيع مختلفة لكسر الحواجز قليلا، ثم سرعان ما شرع والده في الدخول بصلب الموضوع وطلب مني الزواج من ابنه، فقال خالي ليؤكد على الرجل ثانية ليقول:

" فقط ليكون في علمك أريد أن أؤكد عليك أن ليان ليست بكرا وإنما خاضت تجربة زواج سابقا، لذا علينا الحصول على موافقتها بسماعها منها"

فاتجهت الأنظار نحوي، تقلبت في مقعدي بعدم راحة، كنت أبعد ما يوصف عن الارتباك والتوتر، وعندما شعرت أنني محاصرة قلت أخيرا:

" موافقة... لا مانع لدي "

فظهرت الابتسامة على وجوههم ما عدا أخته التي زاد عبوسها، ثم أخذوا يتباحثون في تفاصيل المهر وموعد الزفاف، فكان المهر ضمن الحدود المتوسطة كما كان سابقا مع يزن، وتم الاتفاق على موعد الزفاف بعد شهرين من الآن بعد انتهاء شهر رمضان المبارك. تدخلت في النقاش لأشترط عليهم عدم إقامة حفل صاحب بسبب وفاة والدي قبل فترة، واشترط حصولي على مسكن وحدي، فلم أرد إعادة تجربة العيش في بيت العائلة.

لم يكن لديهم أي مشاكل في تقبل خروج مازن إلى سكن آخر لكنهم حاولوا إثنائي عن موقعي في عدم الاحتفال بالزواج، لأنهم أرادوا أن يفرحوا بابنهم الوحيد، ومع ذلك أصررت على الرفض، فتدخل مازن في النقاش لينهيه لصالحه واحترام رغبتني، وتقرر عقد القران في بيت أمي وإقامة حفلة صغيرة في بيتهم لأنطلق بعدها إلى بيت الزوجية. شعرت مع كل لحظة تمر بالاختناق وأيقنت أن الأمر واقع ولا بد وأن كل شيء قد تقرر وانتهى وما عاد هنالك مجال للتراجع، وها هو قلبي يئن بألم شديد وهو يسرد لي ذكرياتي مع يزن وحببي الشديد له، والذي لم أستطع حتى هذه اللحظة إخراجه من مملكته التي بناها بحرص ورفع أساساتها بضحكاته وعذب كلامه وغيرته المشتعلة، لقد ثبت جذوره في قلبي لدرجة عميقة بحيث أن اقتلاعها بات مؤلما جداً.

إيلينا

استلقيت على السرير أريح جسدي المرهق من كثرة التقيؤ والغثيان، وراودت الشكوك أفراد العائلة، فاضطرت كاذبة أن أقول لهم أنني مصابة بتسمم غذائي من وجبة تناولتها في أثناء العمل، وشدد علي الطبيب بالراحة. بدأت عياني أخيرا تستسلمان لطائف النوم لكنني أجفلت فجأة من شادي الذي اقتحم الغرفة يصرخ عبر الهاتف، ثم أخفض نبرته هامسا بعد أن أغلق الباب قائلا:

" لا بد من أنك فقدت عقلك! لماذا لم تشاورني؟ ماذا ستفعل الآن؟ يزن! يزن! هل تعي إلى أي مرحلة وصل بك جنونك؟"

كان يتكلم بحدة لم أشهد لها مثيلا من قبل، ويبدو أنه لم يع وجودي بعد في الغرفة، سمعته يضيف بحق:

" ستسبب في دخولك السجن ثانية! لماذا لم تأخذ مشورتي قبل إقدامك على جنون كهذا؟"

ثم أنهى المكالمة بعد أن شتمه وألقى بهاتفه بغضب فوق على الأرض، فأصدرت شهقة ذعر من غضبه، التفت ولمحني في عتمة الغرفة ثم قال متسائلا:

" كنت هنا طوال الوقت؟"

أومأت برأسي موافقة بحذر، زفر بامتعاض وجلس على طرف السرير، وبعد تردد دام وقتا تجرأت على سؤاله أخيرا:

" هل يزن.... في ورطة؟"

سكت طويلا ثم قال:

" لا أخفيك علما أن حبه لأختك قد يوصله إلى التهلكة، ما علاقة ليان برجل الأعمال غسان عمرو؟"

تفاجأت بسؤاله الغريب فلم تكن لدي إجابة أبدا، فهي لم تذكر هذا الاسم أمامي من قبل، ومع هذا أعتقد أنني سمعت به لكن أين؟ رفعت كتفي نافية علمي بأي شيء. تنهد بضيق ثم قال محذرا:

" ما جرى هنا ومكالمتي مع يزن سر بيننا فهمت؟ لا يعلمنّ أحد بأي حرف نطقته وخصوصا أختك!"

أنا أصلا لم أفهم ما يجري هنا حتى أتكلم فيه من الأساس، فهزرت رأسي بسرعة موافقة حتى لا أثير غضبه، ثم ما لبثت ملامحه أن لانت وسألني بنبرة قلقة هادئة:

" هل أنت بخير اليوم؟ أم أنك توقعتك من جديد؟"

ابتسمت بخجل دون أن أجيبه لكن يبدو أنه أدرك الوهن الذي أنا فيه حاليا، فقال مازحا وهو يتسّم:

" علينا أن نجد حلا لتعبك المستمر هذا فقد اشتقت إليك، مرت فترة ليست بالهينة منذ آخر مرة لمستك فيها"

احمر وجهي بشدة من كلامه، ثم اقترب مني وقبلني على خدي، نظر إلي بعينيه الرماديتين الساحرتين حتى شعرت أنني أذوب في سحرهما ولمعانهما كأنهما ترانيم تُتلى فتعيث في الوجدان إعصارا، قرب رأسه أكثر وبخفة قلبي، فتقافز قلبي داخل صدري وهو يعلو ويهبط بأنفاس ثقيلة وشعرت بوجهي يكاد ينفجر من شدة الخجل، كلما أحسست بقربه مني يهوي بي قلبي نحو مشاعر أفعوانية لا أظن يوما أنني سأتمكن من تحطيمها، فتبدأ أيدي بالارتجاف ونبضات قلبي تشتد قوة والخجل يتلبسني كحلة أترين بها، أنفاسه كانت عذبة زكية تخلق إحساسا بديعا في داخلي لأشعر بأنني أريد المزيد، امتدت يده لتمسح على ذراعي وظهري، وما هي إلا لحظات وكنت أسيرة بين ذراعيه وهو يجبني في أحضانه كأنني قطعة هشّة الكسر يخشى أن تنفلت من بين يديه فتبعثر إلى أشلاء...

في الصباح لم أجد أثرا لمايا أو أمجد أو حتى الطفلين، فأخبرتني ديمة بنيتهم في قضاء يوم كامل في بيت أهل أمجد حتى يتسنى لوالديه رؤية حفيديهما، فهما اشتاقا إليهما كثيرا، ثم أضافت مازحة:

" لا أصدق أنها أخيرا تجرأت وأقنعت أمي بضرورة ذهابها، لعل علاقتها تتحسن بزوجها قليلا" سُدعت لسماع هذا الكلام ورجوت لها أن تجد السكنينة والراحة مع أمجد، وتنتهي حقبة مشاكلها. أما بالنسبة لشادي فلم أجده في الغرفة لدى استيقاظي كما أنه لم يتجه إلى العمل، فأين يمكن أن

يذهب؟ هل للموضوع علاقة بيزن؟ ما الذي فعله حتى أثار حنق شادي وغضبه هكذا؟ وما علاقة ليان في كل ذلك؟

جلست أمام شاشة الحاسوب أحاول التركيز في عملي رغم وهني وضعفي، فدوار الصباح هذا أصعب مرحلة خلال أيامي، رجوت الله أن تكون الطبيعة محقة في أن أعراض الحمل المتعبة ستزول خلال ثلاث شهور على الأكثر لأتمكن من ممارسة حياتي الطبيعية. سمعت بعض الزميلات ممن اجتمعن حول سارة يتكلمن عن اختطاف أحد الشخصيات المهمة، لكنني لم ألق بالاحديثهن حتى سمعت إحداهن فجأة تنطق باسم غسان عمرو مما لفت انتباهي، فقد جاء ذكر هذا الاسم على لسان شادي البارحة.

هنا شاركتهن الحديث في الموضوع لأستفسر عن هوية هذا الرجل وما علاقته بالاختطاف، لعلي أجد صلة بينه وبين ليان، فعلمت أنه يمتلك أكبر مجموعة للمنتجات السياحية في البلد وتم اختطافه من قبل مجهول ما، لكن ما لم أفهمه هو ما علاقته بيزن وليان؟ لذا ارتأيت أن أتصل بها لعلي أفهم منها الموضوع لربما تتضح معالم الصورة في مخيلتي.

ليان

تم استدعائي ثانية إلى مكتب المدير ومع تبرمي بحصتي وعدم رغبتني في إضاعة وقت طلبتي إلا أنني كنت مجبرة على النزول لموضوع مهم جدا، حسب ما تم وصفه لي.

اتجهت بعنفوان نحو مكتبه وفي نيتي أن أنهال عليه بكافة أنواع التوبيخ لقطعه حصة مهمة على الطلبة، لكنني تفاجأت برجل يجلس في مكتبه.

ذاك الرجل الذي لم يتمكن قلبي من تجاوز إهاناته المتكررة لي، هو ذاته الذي تسبب في طلاقني ومعاناتي وتجري المر، ذلك المدعو... هاني شاهر.

نظر السيد هاني نحو المدير برود وقال بلهجة أمرية:

" من فضلك سيد عصام، أود الجلوس على انفراد معها "

شعر المدير بالإحراج فاستأذن ونهض متجها خارجا، تابعته وهو يخرج كأنني أتوسل إليه ألا يتركني بمفردي معه، لكنه قابلني بنظرة معتذرة وخرج وأغلق الباب خلفه.

أشار لي السيد هاني بالجلوس، فبقيت واقفة وحدجته بنظرة ثاقبة وقلت باستياء:

" تكلم فلدي عمل أجني منه رزقي!"

ابتسم بسخرية وقال:

" لا زلت كما أنت سليطة لسان."

فابتسمت أيضا بتهكم شديد وعقبت:

" وأنت لم تتغير بدورك فما زلت متعجرفا!"

اختفت ابتسامته ليحل البرود على محياه، ثم قال مهددا:

" اسمعي لن أطيل عليك.. أنصحك بالابتعاد عن ابني وعدم محاولتك تسميم أفكاره ثانية"

فقاطعته محتدة:

" لا يا رجل! ألم تعلم بعد؟! يبدو أن يزن أيضا لم يعلم بعد! لقد تمت خطبتي لشاب آخر، لا تخشى

شيئا أنا الآن أشد البعد عنه فزواجي قريب!"

بدت الدهشة عليه جلية، ثم أضفت قبل أن أعطيه فرصة للتعقيب على كلامي:

" والفضل بذلك يعود لك فقد كنت مترددة في قبول عروض الزواج التي انهالت علي! لكن خطتك

القدرة مع تلك الأفعى السامة بتشويه صورة ابنك أعطت مفعولها!"

نظر نحوي مستنكرا وقال:

" أي خطة؟"

أجبت بسخرية واضحة في نبرتي:

" أه كأنك لا تعلم! مارس الأعيك مع تلك الساحرة بعيدا عني فلست مهتمة بالرجوع إلى ابنك،

لكن ما لم أفهمه حقا كيف بخست بابنك هكذا لتظهره في تلك الصورة القذرة! هل أنت أب حقا؟

أنا أشعر بالشفقة على يزن، فلو كان لديه أب متفهم على الأقل مثل السيد هشام لما كان المسكين تائها هكذا"

نهض يشتعل غضبا وصرخ بي:

" اسكتي أيتها التعيسة! فأنت لا تعلمين شيئا! لكن لو علمتُ بأن لابني علاقة باختطاف السيد عمرو بسببك فلا تلومي إلا نفسك!"

شعرت بالرهبة قليلا من اندفاعه وتهديده لي هكذا لكنني حاولت إخفاء ذعري فصرخت به بدوري:

" اذهب وألقي فلسفتك على ابنك الذي لا تستطيع إرغامه حتى على العمل لديك! أنا بالنسبة لي يزن انتهى لم تعد لي علاقة به! سأتزوج بعد شهرين من رجل آخر!!!"

وعندما استدرت وهممت بالخروج فوجئت بيزن واقفا على الباب بنظرات لا تفسر، وكأن شيئا ما أطفئ في داخله ففقد القدرة على التحرك أو الإحساس، تحاملت على نفسي ودفعته من صدره بكتفي وجريت خارجا نحو السلام أكبح دموعي الثائرة المقهورة، حتى استسلمت للنحيب على باب الغرفة الصفية، ووقتها لأول مرة في حياتي شعرت بهواني وضعفي.

اطلعت على هاتفي في نهاية الدوام لأجد مكالمات فائتة من إيلينا فأصابني القلق، كانت هناء و منار تجلسان عندي تحاولان مواساتي على حزني الذي لم أبح بسببه لأحد، لكن السبب كان واضحا لهما دون تفسير.

اتصلت بإيلينا لأطمئن إلى أنها بخير فسمعت صوتها تهمس من الطرف الآخر:

" أين كنت؟ منذ الصباح أحاول الاتصال بك! لدي سؤال لك فأجيبيني بصراحة ما علاقتك بهذا الرجل الذي يمتلك منتجعات سياحية؟"

استغربت سؤالها، ثم نظرت نحو منار وهناء فوجدتهما منشغلتين في حديثهما فأجبتها بحرص بنبرة منخفضة:

" لا شيء كان يريدني أن أعمل لديه لكنني رفضت... لماذا؟ ما الأمر؟"

لم تجبني وطال صمتها قليلا، ثم اعتذرت مني متبرمة بتراكم العمل لديها وأنهت المكالمة بسرعة، فتركنتني وسط حيرتي، ماذا ألم بها هذه الأخرى؟

نزلت السلالم مع هناء ومنار فسمعت صوت مازن يهتف لي، التفت نحوه فأشارت صديقتاي مودعتين لأتجه إليه، ثم قال بعد أن استقر بي المطاف أمامه:

" ما رأيك لو نعود سووية إلى البيت؟"

ابتسمت له بتصنع وأومأت موافقة، ثم استدرت ففوجئت بيزن متكئا على باب غرفة المساعدة يضع لفافة سجائر في فمه وينظر نحونا بنظرة لا حياة فيها، حتى أن بريق عينيه المعهود منطفئ، نفخ دخانا وهو ينظر نحو مازن بقهر. تطرق صوت المدير إلى أذني وهو يصرخ به:

" يزن ممنوع التدخين في حرم المدرسة، اذهب ودخن خارجا"

لكن يزن تجاهل كلامه وأكمل نفخ الدخان من لفافته وهو يطالعني بنظرة مجروحة، لم أسمح له بالتأثير علي ومضيت من أمامه لأهرب منه، ففاجأني مازن بإمساكه لكف يدي، نظرت نحوه مصدومة ليقابلني بابتسامة لطيفة فشعرت بيزن يزداد غيظا. خرجنا من مبنى المدرسة، وصارعت نفسي لئلا أنظر خلفي أبدا بالرغم من ذاك الصوت الذي يصرخ في داخلي لألقي نظرة أخيرة عليه.

.....

قامت مايا بفتح الخزانة لتلتقط لزوجها قميصا قطنيا ليرتديه بعد استحمامه في غرفته في بيت أهله، ففوجئت بعلبة صغير مخبأة بين ملابسه، امتدت يدها إليها وفتحتها ففوجئت بخاتم الماس في داخلها بدا لها مألوفا كثيرا، فعادت بها الذاكرة إلى اليوم الذي التقت فيه بإيلينا لأول مرة، حيث كانت تضع خاتما للخطوبة مشابها كثيرا لهذا الخاتم، كيف لها أن تنساه وقد أعجبت بتصميمه كثيرا بتلك الماسة التي ترسم داخله بتألق بديع ونقشه غير المعهود، كأنه صمم خصيصا لها؟ وتذكرت مشهد إيلينا الغريب في ذات اليوم عقب لقائها بأحمد وخرجها من القصر متجاهلة كل من حولها، ثم تذكرت

فورا أنها لم تجد هذا الخاتم في إصبعها في زيارتها الثانية للقصر، وكلام أختها عن أن هذه الفتاة المسكينة فسخت خطوبتها....

حاولت إخراج هذه الأفكار السلبية من رأسها وهي تحاول تبرير وجود هذا الخاتم هنا لسبب آخر. خرج زوجها من الحمام يلف حول خاصرته منشفة وقال لها مؤنبا:
" تأخرت أين ثيابي لما لم تأتي بهالي؟"

التفتت نحوه وهي تحمل في إصبعها الخاتم بعينين متسائلتين تمتلئان بالدموع، ووجهها على وشك الانفجار، نظر إليها بوجه شاحب وزاغت عيناه ذعرا، ثم أخذت نفسا وحاولت استجماع أنفاسها لتسأله:

" أليس هذا هو خاتم خطوبة إيلينا سابقا؟"

شحب وجهه أكثر وتسارعت أنفاسه ثم أشاح بوجهه عنها، ولم يجد ما يقوله لها، فأيقنت أن شكوكها في مكانها الصحيح، فشعرت بالاختناق ووضعت يدها على صدرها لتتحكم في أنفاسها ثم انهمرت دموعها وبدأت شفتاها ترتجفان. اقترب منها ليهدئها وهو يهتف باسمها فدفعته بقوة من صدره بذراعيها والنقطة حقيبتها عن السرير وجرت مسرعة للخروج من البيت وهي تبكي بألم وانفعال شديدين، صرخ باسمها لتتوقف لكنها لم تستمع له.

ركضت بكل سرعة ممكنة لها، وخطفت يديّ ابنيها اللذين كانا يتناولان المكسرات مع جددهما، وصرخت بهما ليمضيا معها، بينما والدا زوجها يحاولان تهدئتها ليفهما ما أصابها. تمكنت أخيرا من جر طفليها خارجا وأرغمتهما على الجلوس في المقعد الخلفي من سيارة زوجها، أسرعت بالصعود إلى المقعد الأمامي وأخرجت من حقيبتها المفتاح الاحتياطي للسيارة وبالرغم من ارتجاف يدها استطاعت تشغيلها، لحق بها جد الطفلين يريجوها أن تنتظر وتوضح له مصابها. ثم قفز أجد فجأة مرتديا بنطاله وقميصا قطنيا مبلل الشعر، وطرق بعنف على الزجاج الجانبي متوسلا لها أن تتوقف لكنها أبت وانطلقت بالسيارة مبتعدة نحو منزل ذويها، فاعتلى بسرعة سيارة أبيه ولحقها متجاهلا نداء والده المستميت ليشرح ما حصل بينهما.

إيلينا

سمعت في النشرة الإخبارية في الإذاعة في سيارة شادي عن عودة رجل الأعمال غسان عمرو إلى قصره سالما نافيا أي إشاعات تم تداولها حول كونه مختطفًا، مبررا اختفائه بإصابته بحادث مروري في منطقة نائية مما تسبب بكدمات على وجهه، وعدم قدرته على الاتصال بأحد بسبب نسيانه هاتفه في مكتبه، أما عن تفاصيل عودته فقد أوضح أن بعض رجال الخير وجدوه وقاموا بإسعافه ليعود سالما من جديد.

أطفأ شادي الإذاعة بعد أن ألقى بثتيمة ليزن، فلم أفهم ما علاقة الآخر بالموضوع ما دام الرجل عاد سالما، لكنني لم أتدخل ولم أتجرأ على سؤاله أي شيء. عدنا إلى القصر فانتابني إحساس بتغير الأجواء في الداخل، لمحت سيارة أمجد في الساحة الخارجية وخلفها سيارة أخرى لم أرها من قبل هنا. دخلنا المنزل ليزداد شعوري بالضيق دون أن أدري سببه. وفجأة سمعت صوتها يدوي في أرجاء المنزل وهي تصرخ بي لألتفت إليها وأراها تتقدم نحوي من الصالة الكبيرة بغضب واضح، وقف شادي أمامها كدرع ليمنعها من الوصول إلي متسائلا عم حل بها، فصاحت بصوت أحش يحمل غيظا:

" هذه الخائنة لا مكان لها في بيتي !!! "

لم أدرك بعد سبب صراخها واتهامها لي هكذا لكنني شعرت بالخوف وتمسكت بشادي من ظهره، لأدرا عن نفسي غضبها، ثم اتجهت أنظاري نحو الصالة لأقابل عيني مايا الباكتين تنظر نحوي بسخط وهي تمسك بطفلها إلى حضنها، ثم جلت بنظري لأرى ديمة تنظر نحوي بألم، ماذا حل بهم يا ترى؟ سمعت صوت عمي يهتف من بعيد:

" انتصار قلت لك لا تتدخلي، إيلينا اتبعيني إلى مكثبي حالا! "

سار الرعب في أوصالي ولم أتمكن من الحركة، لكن شادي بوجهه المبهوت لم يبق في مكانه فجذبني من يدي ليأخذني إلى مكتب والده لعله يفهم ما يدور هنا، فتبعتنا أمه وهي تسب وتلعن اليوم الذي خطت فيه قدمي القصر، عندما دخلنا فوجئت برؤية أمجد أشعث الشعر وغير متألق بلباسه كعادته

يجلس على مقعد أمام مكتب عمي، ويكتنف الاستياء جوه العام.. نهض عمي عندما رأني ونظر إلي نظرة غريبة فلم أفهم ما ألم به ثم قال فجأة:

" ما قصتك مع أمجد؟ "

بهت لوني وضاعت كلماتي وأحسست لوهلة بغياب إدراكي عن هذه اللحظة، ثم شعرت بنظرات شادي تتجه إلي بريية ليحاول فهم ما يدور حوله، تردد صدى صوت مايا تبكي من خلفي لأجدها تقف عند الباب تنظر إلي بغدر كأنني شخص قد خانها، نظرت إلي أمجد فكان يطالعني بعينين ملؤهما الهم والأسف.... بدأت الصورة تتضح معالمها في ذهني هل يعقل أن مايا اكتشفت علاقتي السابقة بزوجها، فنطق لساني دون وعي مني:

" لماذا يا يزن؟ ماذا فعلت لك؟ "

وبدأت أبكي، فسمعت صوت شادي يقول متسائلاً بنفاد صبر:

" ما علاقة يزن بما يجري هنا؟ وماذا يحصل هنا أصلاً؟ هلاً أوضح لي أحد؟! "

فصرخت أمه بتقزز:

" هذه المنحطة كانت مخطوبة من زوج أختك سابقاً!!! "

تمنيت لو تنشق الأرض وتبتلعني، شعرت بيد شادي تفلتني، فنظرت نحوه وقد بدأت الدموع تتجمع في عيني لأرى وجهه يحمل نظرة المغدور، وأخذ يخطو للخلف مبتعداً عني، وفجأة وجدت صوتي لألحق به دون وعي وأمسك بيده بتوسل وبدأت أبكي بينما أقول:

" لم أكن أعلم!..... لم أكن أعلم أنه متزوج وقتها!.. أقسم على ذلك!... فور علمي بزواجه

انفصلت عنه!! أنا أقول الحقيقة!! لم يكن لي نية بإيذاء أحد!!! "

سحب يده من قبضتي بخشونة، وسار مبتعداً أكثر حتى وصل عند النافذة، فأخذ ينظر منها للخارج وهو يحاول استيعاب الصدمة. توجهت بنظري نحو عمي وروجته بقولي:

" أنا أقول الحقيقة يا عمي اكتشفت أنه متزوج عندما قدمت هنا لأعمل كمدرسة للطفلين! "

فصرخت بي أمه:

" كاذبة! تقولين انفصلت عنه لأنك علمت بزواجه! إذن لماذا عدت ثانية إلى هنا؟ أليس من أجل إيقاعه في شباكك ثانية؟! يا لك من ماهرة تلاعبت بعقول الكل من حولك حتى المسكين فارس خدع بك!"

صرخت بها تعبا من إهاناتها المتواصلة:

" لا أبدا..... كان شادي غاضبا جدا مني يومها وكاد ينهي عقدي في الشركة!!! لولا.... لولا بادرة عمي في رجائي للعمل ثانية هنا.. خشيت.... خشيت أن يتم طردي من العمل فقد كنت بحاجة ماسة للمال لأرد جميع ديوني وبالأخص ديوني لأبجد.. أنا لست وضيعة كما تصفينني! أقسم أنني فسخت خطوبتي فور علمي بزواجه!!"

نظرت نحو مايا أتوسلها قائلة:

" أنا أقول الحقيقة لم أقرب منه ثانية أخرجته غصبا من قلبي وتفكيري!"
فقالت بامتعاض وألم:

" أخرجته من قلبك؟ هل أحببته؟"

التفت نحو شادي الذي كان ينظر نحوي منتظرا إجابتي والدموع قد غسلت وجهي، فحولت نظري إلى أصابعي المعقودة في حجري وقلت أصارع خوفا مما سأقول:

" نعم فعلت!"

فلمحت شادي يمسح وجهه بكفيه يديه وازداد بكاء مايا، وأعادت أمه تغريداتها وأنغامها الشنيعة في شتمي ونعتي بأسوأ الألقاب، حتى صرخ بهم عمي جميعا للحفاظ على الهدوء ليفهم كل شيء مني، أمرني بالجلوس قريبا من مكتبه وطلب مني بحدة سرد قصة معرفتي بأبجد، ففعلت مستسلمة، وقصصت عليهم كل شيء من لحظة لقائي به ودفعه ديون الإيجار، ثم اكتشاف ليان الأمر وإحضاره إلى بيتنا ليفاجئنا بعرض الزواج، وما تلاها من أحداث مهمشة حتى علمت بزواجه، ثم أضفت موضحة لشادي:

" عندما سألتني في ذلك اليوم عن سبب تغيبي عن العمل... كنت قد انفصلت للتو عنه، كنت مجروحة حزينة لا أقوى على مواجهة أحد.. وسبب شجاري مع شهد يومها كان تهكمها من إنهاء

خطبتي فصبيت سخطي من الدنيا عليها"

لم يعلق بشيء وبقي صامتا وتعلوه نظراته الغامضة التي لا أستطيع أبدا فهمها، أو ما عمي برأسه ونظر نحو أمجد ليقول:

" إذن قصتك صحيحة"

فصرخت السيدة انتصار فجأة:

" طلقها! يجب أن يطلقها شادي فهي هدامة بيوت، جاءت تسعى خلف شباب العائلة طمعا في

المال والجاه بنت المخدرات والفسق!"

فحمل عمي كأس ماء زجاجي وألقاه نحوها لكنها تحركت بسرعة لتتلافى الضربة فاصطدم الكأس بالحائط وكسر، وجهت نظرها نحو عمي غير مصدقة لموقفه تجاهها، فقال بحنق شديد:

" فقط أسكتي فمك الكبير هذا ودعيني أعالج الموضوع بنفسني! أتظنين الزواج لعبة لنزوح ونطلق

وقتما تشائين! الفتاة لم تقترف خطأ في حق أحد لم تكن تعلم بزواج أمجد فاخصري كلامك

المسموم!"

ثم نظر نحو أمجد بحدة وقال:

" لماذا يا بني؟ لماذا أردت الزواج ثانية؟"

فأجاب بنبرته الهادئة مستسلما:

" لأنني تعبت يا عمي حقا تعبت، لم يعد بمقدوري التعامل مع ابنتك أكثر، فهي تحرم والداي دائما من الجلوس مع ولدي وتحرق قلبيهما عليهما، ولا تريد إنجاب أطفال مجددا خوفا على خسارة جمالها،

أهذا عذر؟ أليس من حقي الحصول على أبناء لما أكتفي باثنين وأنا مقتدر جسديا وماديا على إنجاب المزيد؟ هذا حقي! أقلت لك أنها حملت السنة الماضية وشجعته أمها على الإجهاض؟ لاكتشف

ذلك بدوري صدفة! عمي! حياتي معها أصبحت لا تطاق! إنها متمرده عاصية تسب والدي

وتدخل أمها بكل تفصييلة في حياتنا وفي كل قراراتنا، ثم أنها كانت على علم برغبتني بالزواج أم نسيت ذلك يا مايا؟"

اتجهت الأنظار كلها نحوها فصرخ بها والدها:

" هل صحيح ما يقوله زوجك؟"

فأخذت تبكي بحرقة وقالت:

" نعم كنت أعلم لكنتني لم أعلم بأن العروس هي إيلينا، وبقيت أرجو لآخر نفس لي ألا يجد مبتغاه!" زفر عمي بضيق وجلس يستريح على مقعده ثم قال بتعب:

" الجميع خارجا.... أريد الانفراد بمايا وأمجد... إيلينا ابنتي اذهبي واستريحي وسأكلمك لاحقا"

كنت أول من استمع إليه فنهضت أجز قدمي المنهكتين من أحزاني نحو الباب، التقت عينايا بعيني مايا المجروحتين ثم أشحت بصري بعيدا عنها وسرت مبتعدة نحو غرفتي.

جلست على السرير أحاول أن أفكر بما جرى معي، فدخل شادي فجأة إلى الغرفة، نظر نحوي بسخط واضح وقال ممتعضا بصوت متحشرج:

" عندما سألتك سابقا عن أي أسرار قلت لي أنك لا تحبئين المزيد! لقد غدرت بي! خنتني بمجرد تكتمك عن الموضوع! لماذا لم تقولي لي سابقا؟"

بكييت وعلا صوت بكائي فأخذت ألطم رأسي بحنق من كل ما يجري حولي ثم بدأت أهذي صارخة:

" كفى!! كفى!! لم أعد أقدر! أنا تعبت! يا رب لم أفعل أي ذنب عظيم في حياتي!! فلماذا أكابد هذا القهر على الدوام؟!"

اقترب مني وحاول الإمساك بيدي ليعدهما عن رأسي وأخذ يصرخ بي:

" اهدئي ستؤذين الطفل! اهدئي يا إيلينا"

فصفعت يديه بعيدا وصرخت به:

" عساه يموت مع أمه في ليلة لا تجد فيها ضوء قمر! ارتحت الآن؟!"

هوت من يده صفعه على وجهي ألمتني بشدة، صرّ على أسنانه متألماً وقال:

" مجنونة! تدعين على نفسك وطفلك بالموت؟ "

وضعت يدي على خدي موضع صفعته، وازددت بكاءً، فغادر الغرفة من فوره، شعرت بأنني سأختنق فنهضت نحو خزانة الثياب وبدأت برمي كل الملابس التي تطؤها يداي أرضاً وقلبت الخزانة رأساً على عقب بينما أبكي وأصرخ كالمجنونة.

خارت قواي فوقعت على ركبتيّ، سمعت طرقاتاً على الباب لكنني لم أكن بقوة كافية لأنهض وأستقبل الطارق، استلقيت بإنياءك على الأرض وسط الملابس المبعثرة، وازداد الطرقات على الباب حتى أمسيت أشعر به كالهمس يأتي من بعيد لأجد عينيّ تغمضان فجأة وأفقد إدراكي لما يدور حولي.

استيقظت فشعرت بألم فظيع في رأسي، ولم أستطع النهوض، ثم سمعت صوت ديمة تحدثني:

" ابقِي كما أنت لا تتحركي الطبيب قال أنك تعرضت لصدمة ونبه على راحتك في الفراش "

لم أستطع أن أقول شيئاً لكنني حاولت جاهدة ان أنطق حتى استطعت أن أقول:

" ش... شادي "

فأجابتني بنبرة حزينة:

" خرج منذ ليلة البارحة ولم يعد حتى الآن! ساحميني! "

جاء صوت مايا عند باب الغرفة تقول لأختها بتساؤل:

" هل استيقظت؟ "

فأومأت لها برأسها، لكنها لم تتجرأ على الدخول ولمحت خيالها يبتعد، فبكيت حرقرة وقلت بعد أن

استجمعت المزيد من الطاقة:

" أنا... لم أقصد أن أتسبب بالتعاسة.. "

فوضعت ديمة يدها على كفي وقالت تقاطعني:

" أعلم! وهي تعلم... لكنها مجروحة، اتركيها تعالج الموضوع وتحله مع نفسها أولاً... إيلينا مررت

بالكثير وبقي القليل فاصبري "

آه يا ديمة! من أين لي بمزيد من الصبر لقد تعبت وما عاد بي طاقة أخرى لأتحمل أكثر. ألمي يزداد شيئاً فشيئاً.. لأظن أنني سأتمكن من الصمود، أشعر بأن أيام صحتي العقلية والنفسية باتت معدودة.

أحضرت لي السيدة هالة حساء لأتمكن من النهوض على قدمي وأسترد جزءاً من طاقتي، وأرغممتني ديمة على تناوله غصبا، فكانت حريصة أن تطعمني بيدها وعندما فرغت من إطعامي ساعدتني على تغيير ملابسني وأسندتني على السرير ثانية، تفاجأت بالباب يطرق ليفتحه عمي ويستأذن للدخول، فأذنت له ديمة.

اقترب مني وجلس على حافة السرير ونظر نحوي بحنو مريّر، ثم مسح بيده على مقدمة شعري ورأسي ثم استقرت يده على خدي قائلاً بحذر متسائلاً:

"هل أنت بخير يا ابنتي؟"

أومأت رأسي بضعف، فنظر عميقاً في عيني وقال بألم:

"ما بال هاتين العينين الجميلتين تحملان هموماً أكبر من عمرهما؟ ابنتي لو أراد شادي أن يطلقك

فسأقف في وجهه بالمرصاد، وأي شخص يطعن في طهرك سأؤدبه حتى لو كانت انتصاراً.. ألا

تعلمين ما تعنيه لي بعد؟ كلما نظرت في وجهك الجميل ألمح براءتي عندما كنت أكل الذرة بنهم

شديد من يدي جدك. أنت أمسيت جزءاً من كياني يا ابنتي! وما حصل في ماضيك حصل وانتهى،

ولا يحق لأي أحد فينا التدخل فيه، فأنت لم تقترفي خطأ ولا معصية، حاشاك وأنت ابنة الطهر

والعفاف، ولا ألوم أمجد على حبه لك فأخلاقك العالية تخرج الأفعى من مخبئها خانعة مستسلمة"

أمسكت بيده التي على خدي وقبلتها والدموع تنساب من عيني، ابتسم لي ثم قال:

"اصبري على شادي وسيعود إليك معتذراً، والآن نامي وارتاحي حتى أطمئن عليك، فأنا لم أذهب

إلى الشركة بعد من خوفاً عليك"

ابتسمت رغما عني، ثم قبلني على جبيني وخرج. مسحت ديمة على رأسي وطلبت مني أن أريح أعصابي وغادرت لتتركني وحدي. شعرت بأن كلمات عمي غسلت شيئا من الغم الذي ألم بي. فبدأت السكينة تجد مكانها من جديد في قلبي لأستسلم للنوم ثانية.

استيقظت وقد وجدت الظلام يحل على الغرفة، فأدركت أنني نمت يوما كاملا، قمت بإنهاك واغتسلت وصليت ما فاتني من فروض وطلبت الغفران من ربي بسبب تقصيري. نزلت نحو الطابق الأرضي لأشرب ماء وأبحث عن شادي أو ديمة ففوجئت بصراخ السيدة انتصار باكية وعمي يسكتها ويئن بألم. تقدمت نحو مصدر الأصوات لألمح رجال شرطة في الصلاة، فأمسكت حجابي ورفعته على رأسي وسرت باتجاههم، وعندما وصلت وجهت سؤالي ببراءة متسائلة بخوف:

" ماذا يجري هنا؟ "

فصرخت ديمة باكية:

" أخي!! أخي شادي .. لقد خطفوه!! "

الفصل السادس والأربعون

وَقَعُ الخبرُ كان ثقيلا علي كجبالٍ تخرهاوية محدثة زلازلٍ وحطاما، لم تحتمل أذاني سماع ما قالته ولم تتمكن قدماي من حملي وحتى ذهني توقف عن العمل للحظات، فهويت أرضا من شدة الصدمة...

أنعش إحساسي شبه الميت بهاء يبلى وجهي وبدأ وعيي بالعودة إلي تدريجيا، فوجدت نفسي في الصالة مستلقية في حجر ديمة وعمي يبلى وجهي بالماء. نهضت جالسة بسرعة فأصابني الدوار، وضعت ديمة يدها علي كتفي لتهدئني قليلا. عندما أدركت سبب إغمائي انتفضت كالمجنونة نحو الباب فأمسك بي عمي وأرغمني على الجلوس بينما أصرخ:

" شادي! دعني أذهب للبحث عنه! اتركوني!"

قيضني عمي بضم ذراعي خلف ظهري حتى شلت حركتي، كنت ضعيفة ذات بنية متعبة بسبب القهر الذي أصابني وحملي وقلة تناولي للطعام. جلست خائرة القوى وحاولت الاستفسار منهم عن أي معلومة عنه فلم يفيدوني بالكثير، لم أعلم شيئا إلا باختطافه منذ البارحة وقد تم العثور على هاتفه ملقى في مكتبه صباح اليوم ووجود رسالة تهديد على شاشته بعدم إبلاغ الشرطة، لكن يبدو أن السيدة انتصار لم تلقي بالا بالتهديد فاتصلت بالشرطة من فورها خوفا على ابنها. لم يُطلب في الرسالة أي فدية أو ما شابه، وترك سبب اختطافه مجهولا. حاولت جاهدة تصبير نفسي حتي يحل الصباح وصليت ودعوت باكية راجية لأن يعود سالما ولا يصيبه أي أذى حتى حل الفجر.

ارتديت ملابسي وهممت بالخروج من البيت دون علم أحد، رهفت أذني لصوت تمتمة في آخر الرواق في سكون الصباح، مشيت على مهل حتى أستطيع بيان مصدر الهمس، فلمحت عيني السيدة انتصار في زاوية البهو خلف أحد أعمدة الزينة تتحدث بحددة هامسة:

" ماذا تعني بأنك لا حول لك ولا قوة؟! عليك أن تساعدني في إيجاد ابني! إنه قرّة عيني! سيد هاني لا يمكنك أن توليني ظهرك؟ عمّ تتكلم؟ أي تلاعب بالصور؟ من قال لك هذا؟ ماذا تعني بقولك إذن؟ أنت تظن أنني أتلاعب بمشاعر ابنك؟ اسمع لو لم أبتز تلك الفتاة الغبية وهددتها وأقنعتها بخطتي لكان يزن الآن ظافرا بتلك الحرباء! لقد فعلت ذلك من أجلك وأجل ابنك عليك أن تكون شاكرالي، بفضلتي خرجت تلك الباسئة من حياته إلى الأبد! إذا لم تقدم لي العون في إيجاد ابني فسأفضح كل مخططاتك السابقة معي!!... نعم أنا مستعدة للتضحية بكل شيء من أجل ابني!!" ثم بدأت تبكي وتتوسل، فانسحبت هاربة قبل أن تلمحني، لا بد أنها تتحدث عن تعديل صور يزن الملفقة، آه لو كنت في كامل إدراكي الآن لانقضضت عليها بسبب تحطيمها لأختي والتسبب بتعاستها، لكنني الآن أحمل هدفاً آخر وهو إيجاد شادي حيا سالما.

ركضت خارجا نحو سيارة الشركة قبل أن يتنبه لي أحد، بحثت عن السائق حتى استدعته لي السيدة هالة دون إثارة انتباه أي كان بناء على طلبي، ركبت في السيارة وطلبت من السائق أن يتجه بي إلى وجهتي.

وصلت المدرسة التي تعمل فيها ليان وترجلت دون تفكير وجريت بسرعة نحو الباب الرئيسي، قادتني قدمي نحو مكتب المساعدة وطلبت منها بتوسل لقاء يزن، مما أثار فضولها وأخذت تطالعني بنظراتها المتفحصة وهي تحاول تذكر من أكون، لفتّ انتباه مازن الذي دخل المدرسة من فوره متجها إلى مكتبه فقال متسائلا:

" إيلينا؟ ماذا تفعلين هنا؟ أختك لم تأت بعد إلى المدرسة، هل من خدمة أقدمها بك؟"

فقلت دون وعي:

" أريد يزن! أين يزن؟"

سكت برهة وهو ينظر نحوي مصدوما، فجأة لمحت يزن من خلفه يخرج من باب إحدى المكاتب فجريت نحوه متجاهلة النظرات المستفسرة من حولي، ويبدو أنه نفسه صدم من رؤيتي، تعلقت بكم قميصه فانتفض محرجا وقد توردت وجنتاه الشاحبتان قليلا، لكنني لم يكن لدي الوقت للتفكير برود أفعالي، ثم قلت بيأس هامسة له:

" أرجوك ساعدني!! شادي!!! ابحث معي عنه!... لقد.. لقد خطفوه!"

كانت صدمته من كلامي أشد من صدمتي من جرأتي في اللجوء إليه لطلب المساعدة، ثم سرعان ما استدرك وعيه، وحثني على اللحاق به بسرعة، هرول باتجاه المساعدة وقال لها كأنه يضعها أمام الأمر الواقع:

" ضعي إشغالات مكاني سأخذ مغادرة وأوقع عليها لاحقا"

لم يعطها مجالا للرد عليه واختفى خارجا، لحقته مسرعة فأشار إلي أن أركب إلى جانبه في السيارة مشيرا بيده إلى سائق سيارة الشركة بالذهاب لتركي برفقته، أطعته من فوري وركبت في سيارته بينما المساعدة ومازن يطالعاننا من بعيد والصدمة تعلو محياهما.

أخذ يجري اتصالاته هنا وهناك، قادي السيارة حتى وصلنا إلى مكان لا أعرفه ترجلنا خارجا واتجه بي إلى داخل مبنى هائل، سرت خلفه أكابد الدوار الذي أصابني فجأة حتى وصلنا إلى داخل مكتب ضخم. أغلق الباب خلفه ثم بدأ يرسل ويستقبل الاتصالات تباعا. نظر إلي بينما كنت أشعر أنني سأفقد السيطرة على نفسي وقال مهدئا:

" لا تقلقي لدي جيش من الرجال البارعين في عملهم سنجدته فلا تخشي شيئا"

سألته بمرار:

" لكن من يمكن أن يختطفه؟ من يتجرأ على عمل كهذا؟"

زفر بامتعاض وقال:

" لست متأكدا لكن أشك في أحدهم"

ملت بنظراتي إليه أنتظر منه الشرح فلم يوضح، اقتربت من مكتبه الذي يجلس خلفه وضربت على الطاولة بكفي يدي بجرأة أثارت دهشتي قبل دهشته، وقلت وأنا أصارع وهني:

"أظن أنه لدي الحق في معرفة ما يجري حولي! اشرح لي كل شيء الآن قبل أن أفقد صوابي! هل لشخص يسمى غسان عمرو علاقة بالموضوع؟"

لمع بريق في عينيه الزرقاوين وهما مركزتان علي بحددة، حاولت جاهدة ألا أستسلم لنظراته المرعبة، ثم نفخ بضيق وأخرج من جيبه لفافة سجائر، أشعلها ووضعها في فمه ونهض باتجاه النافذة ثم قال: "إذن سمعت بقصة اختفاء أحد رجال الأعمال، لكن لماذا تظنين أن لي يدا في الموضوع؟.."

فأجبتة بقولي:

"لا أدري إحساسي ينبؤني بهذا!"

فقال دون أن يلتفت نحوي:

"حسنا... أنا قمت باختطافه... أعني رجالي قاموا بذلك بناء على أوامري"

تملكتني الدهشة فبدأت أربط الخيوط ببعضها وطلبت منه توضيح السبب، بينما شككت بعلمي بالسبب أصلا فقال:

"حسنا لا أعلم إذا كان لديك علم برفض ليان بالعمل لديه وإهانتها له، فتوعد بالانتقام منها، وتسربت الأخبار لي، راقب رجالي تحركاته وتأكدت من رغبته بأذيتها فأمرت باختطافه وأبرحته ضربا بيدي هاتين"

ونظر نحو يديه كأنه يستذكر تعذيبه له، ثم التفت إلي وقال:

"أعلم أنني أبدو مجنونا، لكن ليان تعني لي كل شيء، ولم أكن لأسمح لأحد بإيذائها، وأشك بأن له علاقة باختطاف لشادي لرد اعتباره مني في إيذاء أعز الأشخاص إلي... لكن إذا كان شككي في

مكانه الصحيح فسأنسيه حليب أمه!"

ثم أظلمت عيناه غضبا، شعرت أن كل ما يدور حولي يفوق إدراكي، أدركت لوهلة بأن عالم رجال الأعمال هذا محفوف بالمخاطر ولا يشبه في شيء عالمي البسيط حيث أنتمي للحياة الزهيدة.

جلست لأريح جسدي المثقل بالهموم وشعرت بالغثيان يتمكن مني حتى شعرت برغبتي في التقيؤ بالرغم من خلو معدتي من الطعام، فلم أتناول شيئاً منذ الأمس، ثم اشتد بي الخطب ليشعر يزن بتوعكي فأراد الاطمئنان علي، لكنني فاجأته بتقيؤي المفاجئ على الأرضية الرخامية، كانت معدتي فارغة فلم أتقيأ إلا سوائل صفراء اللون ثم ازداد بي الوهن، وشعرت بالإحراج مما حل بي أمامه وما تسببت به من فوضى في مكتبه، فأخذت دموعي تنساب من عيني ضعفاً وخوفاً وإحراجاً كانت مشاعري مختلطة وقتها.

ازداد قلق يزن مما حل بي وأرغمني على الذهاب إلى الطبيب مع كرهني للفكرة، فاصطحبني إلى عيادة قريبة.

قال الطبيب بينما كانت الممرضة تتأكد من توصيل المغذي لمعصم يدي:

" لا يجوز أن تبقي بلا طعام هكذا فالحمل بحاجة إلى رعاية "

كان يزن جالساً على كرسي قريب من سريري ثم انتفض مذهولاً قائلاً:

" حمل؟! أنت... حامل؟... بطفل شادي! "

احمر وجهي خجلاً وضعت بين كلماتي، أكد الطبيب على التزامي الراحة وأذن لي بالمغادرة فور

حصول جسدي على كمية كافية من المغذي. ثم غادر مع الممرضة وبقيت مع يزن وحدنا، نظر إلي

بقلق وتساءل بخفوت:

" هل شادي يعلم... "

أومأت رأسي موافقة، شرد قليلاً ثم قال:

" هذا يعني أن علاقتك به... تحسنت؟ "

أشحت وجهي عنه ثم تمتمت:

" أنت على علم بوضعنا السابق؟ "

بقيت عيناه مثبتتان علي ففهمت أن شادي شاركه قصتنا، مما جعلني أتوسم بالحياء والارتباك أمامه،

أخذت نفساً وأجبتة:

"لا أعلم لا أدري! لماذا قلت له عن علاقتي السابقة بأحمد هل تنتقم من ليان بي؟"

ظهر الاندهاش جليا على محياه فقال مستنكرا:

"بما تهذين؟ لم أقل شيئا! قلت لك شرك مصان! هل...علم بالأمر؟ متى؟"

نزلت من عيني دمعة قهر غلبتني فمسحتها بسرعة وقلت:

"البارحة! تركني ومضى غاضبا ولم أره بعدها لأنه.. لأنه...."

ثم أجهشت ببكاء مرير، اقترب يزن مني وتردد قبل أن يمد يده على كتفي ليحاول مؤازرتي، فقلت وسط دموعي:

"أنا أريده أن يكون بخير فقط! إذا أصابه مكروه فلن أقوى أكثر على التحمل، فلست صابرة إلا

لأجله! ربما هو لا يعلم لكنه الآن غدا كل شيء لي!... يزن أرجوك أعده إلي"

ثم غطيت وجهي بيدي أبكي بحرقة، تنهد متألما وأخذ يمسح على كتفي ويطمئنني إلى أنه لن يكلّ حتى يجده ويعيده إلي سالما.

أصر يزن على إيصالني إلى البيت رغم رفضي وامتناعي فقال ليسكتني بنبرة حادة:

"لن أستطيع التركيز في مهمتي وأنا أقل معي امرأة حامل! فقط استمعي إلي وعودي إلى البيت حتى أتمكن من أداء مهمتي ستشكيلين عبئا علي!"

لم أتمكن من مجابته أكثر فقد أصر على رأيه وأوصلني إلى المنزل، وفور نزولي من السيارة ركضت نحوي السيدة هالة تحمل تعابير مذعورة وقالت:

"حمدا لله على سلامتك سيدتي! السيد هشام قلب الدنيا بحثا عنك أين خرجت؟ ولماذا عاد السائق دونك؟"

ترجل يزن من السيارة وطمأنها إلى كوني بخير ثم أمرها باصطحابي إلى الداخل وتوفير الرعاية لي، وعاد إلى سيارته لينطلق من جديد.

.....

أفاق شادي من آثار المخدر فوجد نفسه مقيدا على كرسي خشبي في سرداب قديم، حاول أن يستذكر ما ألم به، فتذكر ذهابه إلى الشركة مساء ذلك اليوم ليبتعد عن مشاكله ويفكر على مهل بخطوته التالية مع إيلينا وكيف يتقبل ماضيها الذي بات الآن أكثر إيلا ما لقلبه. ثم لم يستطع تذكر شيء بعد ذلك.

نظر من حوله فكان المكان معتماً إلا بالقليل من نور الشمس الذي يتسلل من نافذة علوية صغيرة، حاول جاهداً أن يفك وثاقه، ثم سمع أصواتاً لأشخاص قريبة من الباب الخشبي الذي يرتفع فوق سلام خشبية، فُتح الباب وأطل منه ثلاثة رجال، هبطوا نزولاً إليه، فقال الأول وعلى ثغره ابتسامة نكراء:

" ها قد استيقظ غريمك "

وقال آخر:

" ها ما رأيك هل نبدأ باقتلاع عينيه الرماديتين كي نعيده إلى أمه لتتحسر عليه؟! "

غضب شادي بشدة وبدأ بلعنهم ثم سألمهم بحدة:

" من أنتم وماذا تريدون مني؟ "

فقال الرجل الأول:

" قل يا جلال فمن حقه في النهاية أن يعلم سبب تشويهننا القادم لمعالم وجهه الوسيم "

فضحك الرجل الثالث بخبث وقال:

" أريد أن أعلم أمك درسا حتى تدفع أجرها مقابل خدماتي، لا أن ترسل لي من يحاول قتلي "

والتخلص مني! "

بدت على وجه شادي علامات الدهشة والحيرة فهو لم يستوعب علاقة أمه بهؤلاء الحثالة، اقترب من

شادي يحمل معه خنجرا وبدأ يهدده قائلاً:

" أولاً سأقلع لك عينا وأشرب من دمائها "

حاول شادي إبعاد وجهه عن الخنجر، فضحك الرجال باستهزاء ثم أضاف ذاك المدعو جلال:
" لكن قبل ذلك دعني أقول لك أنك اصطدت سمكة جميلة، ففخذها البيضاء وان لم يغادرا مخيلتي

منذ ذلك اليوم، وعندما أخطفها من جديد سأحرص على إمتاع نفسي بها هذه المرة"
عندها بدأت الصورة تتضح معالمها في ذهن شادي ليفهم أخيرا أنه تم اختطافه على يد الشخص ذاته
الذي حاول الاعتداء جسديا على زوجته سابقا، فاستمد قوته من غضبه المفاجئ لينهض بشكل
مباغت وهو مكبل بالكرسي مهاجما على الرجل فنطحه على رأسه، مما تسبب بالألم له فأخذ يئن
ويصرخ ويشتم. انقض نحوه الاثنان المتبقيان فضرب أحدهما بأرجل الكرسي وهو يلوح به فوق
مغشيا عليه، ثم استبس في شجاره مع الآخر وهو يحاول تجنب ضربات السكين الموجهة إليه.
حاول جلال أيضا ضربه بالخنجر فكان يتلافي الضربات حتى حاصراه كلاهما عند الحائط.
أبى أن يستسلم لهما فأخذ يضرب ظهره بالحائط حتى يحطم الكرسي المكبل به حتى كسره فك
وثاقه، ثم نظر متحديا في أعينها وقال:

" أتظنان أنكما تتعاملان مع ثري مدلل؟"

انقض نحوهما ودخل في عراق بين الحياة والموت ضدتهما. استطاع جلال لكمه في وجهه ففقد توازنه
للحظات، لكن غضبه على ما فعله بإيلينا وتلك الذكريات التي عادت تطارده ليتذكر حالها الذي
يرثى عليه في المشفى، والفترة التي قضتها تحارب كوايبسها منحه قوة إرادة تدفقت إلى جسده
فتمكن أخيرا من صرعهما ليقعا أرضا برفقة صديقهما الثالث.

ركل جلال في بطنه ثم أخذ يفتش ملابسه بحثا عن المفتاح أو هاتف فوجد ضالته، حمد الله كثيرا
بسبب حفظه لرقم صديقه واتصل به مستغيثا، استقبل يزن المكالمة فورا، وكم سعد لسماع صوته.
أكد له أنه سيكلف رجاله بتتبع مصدر المكالمة، وما هي إلا ساعة حتى وصل إليه.

كان جالسا في الطابق العلوي في انتظار قدوم رفيقه، وقد أغلق باب السرداب على الثلاثة، بينما
يتحسس موضع الكدمات على جسده ويضغط عليها في محاولة منه ليخفف ألمه، وما إن وصل يزن

حتى أمر رجاله بتولي أمر الحمقى الذين تركهم شادي خلفه مهشمي الأوجه، وصحب رفيقه معه إلى السيارة.

قال شادي ليزن بنبرة ملؤها الامتعاض:

" لا أريد وضعهم في السجن سيلصقون التهم بأمي "

لم يفهم يزن بداية ما قصده شادي حتى أوضح له اختطافه على يد رجل تواطأ مع أمه في حادثة

اختطاف إيلينا، يريد الانتقام منها، ثم قال:

" أعلم أنها آذت إيلينا كثيرا ولن أسامحها على ما فعلت لكنها أُمي يا يزن "

ونظر إليه حائرا حزينا مجروحا كالمغدور، فهز يزن رأسه وقال مطمئنا له:

" لا تقلق لن يبوح أحد منهم بشيء وسأكلف رجالي أن يحرصوا على ذلك بأنفسهم "

ثم طبع ملامح ماكرة وأردف مبتسما:

" يبدو أن إيلينا تحب والد طفلها! "

قابله شادي بنظرة مندهشة وكلما هم بفتح فمه متسائلا لا يجد كلمات يقولها فازدادت ابتسامة يزن

وقال موضحا:

" جاءت إلى المدرسة منذ الصباح الباكر ترجوني أن أبحث عنك، لكنها تعبت كثيرا بسبب حملها

فأعدتها إلى البيت رغما عنها "

ثم أضاف بمكر:

" نعم، علمت أنها حامل وسركما في بئر عميق، لكن لم تقل لي متى تحسنت علاقتكما؟! تحبني عني

أسرارك يا ولد؟ "

إيلينا

قابلت توبيخا لأول مرة من عمي من خوفه علي، وأصر على عدم خروجي من البيت ثانية بلا

استئذان.

فوجدت نفسي مرغمة على الجلوس في غرفتي أنتظر وأعد الساعات وأصلي وأدعو لشادي
بالسلامة، حتى شارفت الشمس على المغيب، فجأة اقتحمت ديمة الغرفة علي تقول بوجه متهلل
بالسعادة:

" شادي! لقد عاد شادي! إنه هنا!"

تملكتني الصدمة وأجمت لساني عن الكلام، فركضت خارجة دون وعي لوجهتي، لمحت كل أفراد
المنزل يتجهون نحو الباب الأمامي فلحقت بهم بشكل آلي، وهناك على عتبة المنزل كان شادي
يترجل من سيارة يزن وعلى خده أثر لكدمة زرقاء.

ساعده يزن على السير حتى وصل بين عائلته التي استقبلته بالأحضان والبكاء، أما أنا فبقيت واقفة
مكاني عند الباب أرقبه بتلهف شديد. حتى أجد بادر باحتضانه باكيا معذرا، ثم أمرهم يزن بإخلاء
الطريق له ليحصل على قسط من الراحة، وهنا التقت نظراتنا أخيرا..

شعرت بلهفة غريبة في قلبي فسارت قدماي جريا قبل أن أفكر مليا في تصرفي وهجمت نحوه
لأضمه بقوة بين ذراعيّ أبكي بحرقه شديدة، طوقته من رقبته وأرحت رأسي في صدره وهتفت
وسط دموعي:

" لا تتركني ثانية أنا بحاجة إليك!"

مسح على ظهري بكف يده، ثم اقترب يزن يتحنح بإحراج، وطلب مني أن أعطي فرصة لشادي
حتى يرتاح قليلا، فركته وتنحيت جانبا أمسح دموعي، التقت نظراتي بنظرات السيدة انتصار
المذهولة من تصرفي غير المألوف أمامها، فقررت تجنب النظر نحوها والتفت نحو شادي الذي كان
يسير بمساعدة أبيه ويزن نحو الداخل وهو يلتفت نحوي وينظر إلي.

جلس الجميع حوله في الصالة مع بعض من رجال المباحث يطمئنون على حاله ويسألون عن سبب
اختطافه، فأثر الاختصار ولم يدل بمعلومات كثيرة وكان بين الفينة والأخرى ينظر نحو أمه بحدة،
كل ما قاله أن المختطف له علاقة بحادثة اختطافي سابقا وأن يزن تولى الموضوع مع رجال الشرطة،
أصر عمي على رفع قضية عليهم فلم يتدخل شادي بالقرار.

كان شاردا معظم الوقت ونظراته الحادة نحو أمه لم تغب عن بالي، ألح عمي علينا جميعا تركه بمفرده ليرتاح لكنه أصر على أن ينفرد بأمه أولا.

طال حديثه معها ولكنني لم أجرؤ على الدخول إلى الغرفة وقطع الحديث عليهما، انتابني إحساس بأنه يخفي شيئا كبيرا ومع ذلك لم أتدخل بينهما. لمحتها بعد وقت تنزل السلام وهي تسير بغير وعي، حتى أنها جلست إلى جانبي على الأريكة دون أن تعي وجودي جانبها أو أنها كانت تعلم بوجودي ولم تكثر بالموضوع.

نهضت بخفة من جانبها واتجهت إلى السلام لأطمئن عليه ولو بنظرة، فقد كان قلبي ملهوبا عليه بشدة.

فتحت الباب بهدوء ونظرت متفحصة في الغرفة، فجاء صوته ينبهني إلى موقعه ليقول:

" ادخلي وأغلقي الباب خلفك "

تقدمت منه حيث كان يجلس على أريكتي وينظر إلى انعكاس صورته على زجاج باب الشرفة، ثم قال دون أن يلتفت إلي:

" لم أسأحك بعد على إخفائك قصتك مع أمجد عني "

ابتلعت غصة في حلقي ولم أعقب، رفع بصره بحدة حتى تلاقت نظراتنا ثم أشار إلي بيده أن أقرب منه وأجلس بجانبه ففعلت، ثم أضاف:

" لن أغوص في ماضيك فهو ماضٍ، حياتي بدأت معك للتو، وما يهمني هو حاضرنا ومستقبلنا.. "

لكنني ... لا أعلم إذا كنت سأخطئ حقيقة أن المرأة الوحيدة التي لهف قلبي لها قد أحبت قبلي

اثنين "

خفق قلبي بشدة من كلامه المفاجئ، ماذا قصد بأن قلبه لهف لي؟ هل يجنبي؟ شعرت بوجهي يتورد،

التفت نحوي فابتسم لي ابتسامة غامضة ثم قال:

" حدثني يزن عن جنونك صباحا، ماذا كان يدور في بالك وقتها؟ "

ازدادت ضربات قلبي شدة وتمكن الخجل مني، لكنني تجنبت الرد عليه، مديده لي طالبا يدي، فأعطيته إياها بعد تردد فجذبني بقوة إليه محتضنا مما أثار ذهولي من تصرفه، أزاح حجابي عن رأسي وألقاه جانبا ثم أخذ يداعب خصلات شعري بأنامله وأحنى رأسه فوقي وقبلني على فمي، ثم رفع رأسه وهو يبتسم بمكر وقال:

" لكنني على الأقل أول شخص يقبلك ويلامسك "

اعتدلت جالسة لأتجنب إحراجه لي أكثر، فتمسك بي من وسطي وجرني نحوه، لأشعر بدفء هيمنته، وخزني إحساس غريب ذاك الذي يداعبني عندما يلمسني ليجتاح حواسي بقوة. قبلني على رقبتي ويده تداعبان وسطي، شعرت بجسده يلاصق ظهري وبرغبته تشتعل تجاهي من سخونة أنفاسه التي فرشت سلطانها على بشرة رقبتي الحساسة، ثم همس في أذني بصوته المسكر لتترك كلماته الأثر في إحساسي:

" أنت لي وحدي وأنا مستعد لأن أقضي عمري كله لأوضح لك معنى كلمة وحدي! "

ليان

علمت من مازن عن قدوم إيلينا إلى المدرسة ومغادرة يزن معها على وجه السرعة، فحاولت الاتصال بها مرارا لكنها لم تستجب أبدا طيلة اليوم مما أثار حنقي واستيائي، وبعد محاولات عدة أجابني أخيرا بعد منتصف الليل وقد أوشكت أن أفقد الأمل. لم أنتظر منها تفسيراً فهاجمتها بقوة بكل أنواع السباب اللاذع لعدم استجابتها لي سابقا وعدم إبلاغي بخروجها مع يزن، ثم بعد أن سردت علي قصة اختطاف زوجها لان قلبي لها وندمت على تسرعني معها، فعلا أحتاج لجلسات للتحكم بنوبات الغضب. المهم أن قصة اختطاف زوجها لم تصل إلى وسائل الإعلام وبقيت طبي الكتمان، وعلى حسب ما فهمت تم إيداع القضية في المحكمة سرية بالغة.

مرت الأيام أسرع مما تصورت وكل يوم يمر يزداد ضيقي، وكلما لمحت يزن أرى انطفاء روحه أكثر، كانت عيناه الزرقاوان عديمتي البريق وكثر السواد تحت جفون عينيه وبدالي أنه أدمن التدخين، مع

ذلك فإن جاذبيته لم تنطفئ، بل أظن أنها كانت تزداد كل لحظة، ربما لأنني بت أعلم يقينا أنني خسرتة إلى الأبد، فأمسى كالفاكهة المحرمة علي.

إني أكره المدخنين عادة لكن مظهره ولفافة السجائر في فمه كانت تضفي على قلبي إحساسا بالرغبة تجاهه لتنمو مشاعري أكثر شوقا له، لكنني أبيت الاستسلام لمشاعري والتراجع عن ارتباطي به، فقد شعرت بأن مشاعره تجاهي تنمو وتعلقه بي يزداد، بالرغم من صدي المتكرر له بحجة ارتباطي من اقتراب موعد الزفاف، كيف لي أن أشارك حياتي مع رجل آخر غير يزن؟! هذا ما لم يتقبله قلبي ولا عقلي.

مر شهر رمضان المبارك على خير واستغلته في صد مازن أكثر عني بحجة العبادة، وحاولت حتى تجنب رؤية يزن أو الالتقاء به لعل الله يربط على قلبي وينسيني مشاعري تجاهه.

علمت صدفة بمخاوف نور من ارتباطي بأخيها فقد سمعتها ذات مرة تتحدث مع أمها في المطبخ عند دعوتهم لنا للإفطار في إحدى أيام رمضان في بيتهم، فقد كانت مخاوفها من أن أنني خطوبتي منه وأعود إلى يزن وأسبب في تحطيم قلبه، وكانت أمها تشررها وتسكتها. أما أنا فأصبت بالإحباط وأصبح علي لزاما مواصلة الطريق معه مهما حصل. كان علي أن أقنع نفسي به لا سيما مع اقتراب موعد الزفاف.

قرر المدير ترفيه الكادر التعليمي برحلة خاصة لتجديد نشاطنا لنتمكن من مواصلة المشوار مع الطلبة عقب نهاية شهر رمضان، وأيضا لتحسن درجات الحرارة بشكل يبعث في النفس حب الخروج للاستجمام.

كانت هناء تحاول إقناعي بالانضمام إلى الرحلة لكنني أصررت على الرفض حتى لا ألتقي بيزن، فأكدت لي أنها لم تلمح اسمه في قائمة الراغبين في الانضمام، ولم أصدقها حتى رأيت القائمة بعيني، مع ذلك لم أوافق لعدم رغبتني في الاستجمام. كنت سجينه اكتئابي لأبعد الحدود، وخلقت لنفسي

معزلاً كأنني منفاة إلى أرض لا زرع فيها ولا بشر. لكن مازن أخرجني وتوسلني لأغير رأيي لعلها تكون فرصة لنا لنخرج كثنائي، فوافقت أخيراً مكرهة وأدرجت اسمي في القائمة.

حل اليوم الموعود للرحلة حيث كانت في عطلة نهاية الأسبوع، علمت من ههنا أننا سنتجه إلى منتجع ونبيت فيه ليلة، جهزت لي أمي كل ما أحتاجه من أجل الرحلة وطلبت مني أن أستمتع بوقتي وأتناسى الدوامة التي أعيش فيها لعل الرحلة تصلح بالي وتصفي ذهني قليلاً.

وصلت المدرسة باكراً فسمعت تعليقا ساخراً من المساعدة عن حضوري اليوم مبكرة عكس مبادرتي في أيام الدوام فقابلتها بضحكة مستفزة.

ركبنا جميعاً في إحدى الحافلات الكبيرة المخصصة للرحلات مما أثار دهشتي ففي كل عام تعقد فيه رحلة كهذه يتم توفير حافلات المدرسة لتقلنا، لم أعبأ كثيراً بالتحول في الأسلوب.

جلست إلى جانب مازن أما ههنا فكانت تجلس على الكرسي المجاور لنا. تم تشغيل الكثير من الأغاني للاستمتاع بوقتنا، وبدأت لوهلة أشعر باسترخاء أعصابي، شعرت فجأة بيد مازن تمتد لتلامس يدي فنظرت نحوه فكان يبتسم بلطف لي، فاحمر وجهي واستقرت يدي في يده شابكاً أصابعه بأصابعي، أحسست بالهواء يمسني ثقيلاً على قلبي، وحاولت التأقلم مع الوضع الجديد، لربما كان مازن ببراءته ولطفه وهدوئه خياراً أفضل لي من يزن المحب للجُمُوح والحياة المليئة بالمغامرات.

ما إن بدأت بإقناع نفسي بهذه الفكرة حتى بدأت ألحان أغنية تغزو قلبي قبل أذني فأثارت إحساسي وقلبت مزاجي فجأة، تلك الأغنية التي بعنوان (حلوة الحلوات)، التي تم وضعها في زفافي وراقصني فيها يزن برومانسية بالغة، أكثر أغنية هيمنت على وجداني وتركت بصماتها محفورة بين ثنايا قلبي، فكانها تزيل الغطاء عن الوشم المطبوع باسم يزن على جدران فؤادي بعد أن جاهدت أشهراً في نسج مخدر يخفيه عن التدفق بين شراييني لئلا أختنق بسموم حبه. فبدأت ذكريات ذلك اليوم تهاجمني، شددت قبضتي على يد مازن حتى شعر بتغير في مزاجي، حاولت صد الذكريات

بعيدا لكن ذلك كان صعبا ففي لحنها وكلماتها كنت ألمح وجه يزن ورقصاته لي وليتني الممييزة معه حيث علمني أحاسيس لم أجربها من قبل إلا معه، فبدأت أذرف الدموع وشرعت يداي بالارتجاف. حاول مازن أن يفهم ما ألم بي، حتى وقفت هناء فجأة تصرخ بالسائق أن يغير الأغنية إلى غيرها ففعل طوعا.

حانت مني التفاتة نحو هناء فوجدتها تنظر إلي بتحسر كأنها علمت ما ألم بي. طمأنت مازن إلى أنني بخير وتجنبت البوح بشيء أمامه، ربما فهم أن سبب انزعاجي شيء يختص بيزن فأثر اختصار أسئلته واكتفى بضمي من كتفي إلى كتفه بحنو ومحبة.

وصلنا بعد ساعات طوال مرت كنت قد غفوت معظمها في مكاني على كتف مازن. فتح الباب لنترجل جميعا.

فجأة توقفت الأرض عن الدوران وتجمد العالم من حولي، واختفت كل المعالم والألوان من عيني... فقد كان يزن واقفا أمام الحافلة ترسم على وجهه ابتسامة مصطنعة، نظرت نحو هناء مصدومة فقابلتني بذات النظرة.

وقف المدير أمامنا وقال معلنا للجميع:

" أحيطكم علما أن رحلتنا اليوم ستكون مميزة، ذلك لأن عائلة السيد هاني شاهر تكفلت بتكاليفها كاملة على حسابهم الخاص إكراما لابنه الأستاذ يزن راعي رحلتنا لهذا اليوم"

شعرت بأنني سأفقد وعيي ولم أعد أستطيع الوقوف على رجلي، حتى مازن انتفض منزعجا، فأبيت أن أتسبب له بالتعاسة أكثر مما أفعله معه، فمددت يدي له وأمسكت بيده لأستقبل ذهوله من تصرفي، نظرت إليه ورسمت ابتسامة على ثغري لم تستطع الوصول إلى عيني، وقلت له:

" ما رأيك لو نتعرف على المنطقة سووية؟"

فرح بمبادرتي وسار معي نحو المنتجع لأحاول التظاهر على الأقل باستمتاعي بوقتي، سرت من أمام يزن ممسكة بيد مازن فلمحت خياله واقفا متمسرا يطالعنا من بعيد.

وضعت رجليّ في مياه البركة المنعشة برفقة هناء بينما أراقب مازن يسبح في الماء برفقة مجموعة من الأساتذة، كان يبدو سعيداً كأنه يستمتع بوقته، لم أقاوم البحث بينهم عن يزن لكنه لم يكن يشاركهم السباحة، جلت بعينيّ قليلاً في المكان حتى لمحتّه من بعد يجلس إلى طاولة مظلة برفقة رجلين لم أعرفهما، كان يدخن في لفافته بينما كان شارداً عنهما غارقاً في عالم آخر، بقيت أنظاري تترقبه في فضول شديد، ولم تغب عني أي حركة منه إلا وكنت أراقبها بنهم شديد. ثم أفقت على الواقع بالكزة من هناء، لآتبه إلى مازن الذي لاحظ نظراتي نحوه فشعرت بالسخط من نفسي.

حل المساء وتم إعلامنا لنجتمع سوية في الباحة بسبب دعوتنا إلى حضور حفل موسيقي لإحدى مغنيات الروك المشهورات في الغرب، حيث جاءت في جولة غنائية لبعض البلدان من بينها بلدنا. كنت متحمسة بصراحة لأنني أعلم أن يزن يجب الاستماع إليها.

سابقاً عندما كنت أدخل الصالة الرياضية لأراقبه وهو يتمرن، كان المكان يضج بأغانيها، وقد أطلعني أن صوتها العذب وقوة كلماتها رافقاه في حياته وساعدها على تخطي الكثير من الأزمات التي مر بها.

عندما رأيتها لم أتفاجأ بمظهرها، فقد كانت كما تخيلتها من صوتها القوي في الغناء، كانت تملك شعراً أسود طويلاً وعينين زرقاوين مثل يزن. وقفت أمام مكبرات الصوت واعتذرت بلغتها الأجنبية عن غياب أحد أعضاء الفرقة وهو أحد عازفي الجيتار بسبب التواء في معصمه وطلبت منا التصفيق للشاب الذي أنقذها للتبرع بالعزف مكانه، ولم تنس أن تشيد ببراعته، انتقلت الأضواء إليه لأصدم بأن هذا الشاب هو يزن! علا صوت التصفيق والصفير من حولنا حتى أن زملاءنا المعلمين شاركوا بتشجيع يزن.

بدأت أغنياتها الأولى بعزف على الجيتار للعازفين الثلاثة ومن بينهم يزن لأراقبه باندهاش عجيب وهو ممسك بالجيتار ببراعة، اقتربت مني هناء وسألني:

"هل كنت تعلمين أنه يعزف على الجيتار؟"

فأومأت رأسي برفض وأنا ما زلت أشعر بالذهول، بدأت تغني أغنياتها وهنا لمحتة ينظر إلي وكأنه
يبحثني على التعمق في كلماتها ليوصل إلي رسالة، كانت لغتي الانجليزية جيدة فقد كانت إيلينا تثريني
بكثير من الكلمات والقواعد، ففهمت معظم معاني الأغنية... بدأت بوصف الجو المظلم من حولها
ومعرفتها بوجود خطب ما لكنها لم تستطع إنارة المصابيح، ثم جاءت عبارة أخرى تقول فيها عند
تلك اللحظة الحاسمة عندما لم تتمكن من الصمود اكتشفت أنني أعيش لأحبك.

ثم بدأت لازمتها بقولها: أنقذ نفسك لا تنظر للخلف سيمزقك حتى يختفي ذلك العالم الذي لم
أعرف غيره ينام خلف الأمواج لكنني ما زلت أذكر.

شعرت بعالمي ينهار كانت عيناي زن مركزة علي طوال الوقت، حتى بدأت بغناء المقطع الثاني لتقول
فيه لن أتخلى عنك أستطيع إحساسك في قلبي فقط أرشدني إلى الطريق فأنا لا أنتمي هنا... وحيدا.
بدأت دموعي تنهمر من عيني بينما أبقى تواصل البصري معه، لتكمل بدورها في غنائها بكلماتها
التي أعادتني مئة خطوة للوراء لتقول ما زلت أستطيع رؤية وجهك حيث ما زال مطبوعا في ذاكرتي
لأموت كلما أغمضت عيني فأجدك هناك.

ثم أعادت متلازمتها الأولى لتضيف عليها أنا الوحيدة التي تغرق بدون حبك ضائعة تائهة لا أتمكن
من العودة للديار.

بكي بحرقه وألم وهي تغني؛ عبر المحيط أنادي وأنادي هل أنت هنا؟ لم يتبقى لي شيء حتى أجرك
لأن العالم الوحيد الذي أعلمه يختبئ خلف الأمواج وأنا الوحيدة التي أغرق دون حبك وبت
ضائعة لا أستطيع العودة أبدا... إلى الديار.

.....

لم أتمكن من الوقوف مكاني أكثر، فقد شعرت أنني على وشك الانهيار كنت غارقة في دموعي بشدة
فاستدرت بسرعة مبتعدة عن هذا المكان.

عدت إلى الغرفة التي تم استئجارها لنا لأبيت مع زميلاتي فيها، ودون تفكير زائد وضبت حقيبتني واتجهت خارج المنتجع أبحث عن موظف الاستقبال لأطلب منه الاتصال بسيارة أجرة لتقلني إلى البيت.

جلست على أحد المقاعد الخارجية أنتظر قدوم السيارة، كانت نسيمات الهواء العلييلة تداعب حجاي، وتسرق من من مقلتي دموعا هاربة كأنها توارى ضعفي عن الأعين والألسن. ثم شعرت بخيال يظللني، نظرت جانبي ففوجئت برؤية السيد هاني، انتفض قلبي امتعاضا وأشحت وجهي عنه. اقترب أكثر واضعا يديه في جيب بنطاله القماشي ثم سمعت صوته يخاطبني:

" أرى أنك وضبت حقيبتك! هل ستغادرين بهذه السرعة؟"

تجنبت النظر إليه واحتضنت ذراعي لأحصل على قليل من الدفء، فملا بسي لم تكن دافئة لاستقبال هذه الليلة الربيعية الباردة ثم أجبت:

" سيد هاني رجاء اعفني من كلامك... إذا كنت تشك بعودتي إلى ابنك فأخرج هذه الأفكار من رأسك... أتعلم؟ أدركت أمرا جديدا هذه الليلة... فيزن بعيد المنال عني! مهما حاولت فلن يكون مقامي كافيا له أنت حتما لا تعرف شعور الجري خلف شيء أكبر من عالمك الصغير وهذا ما أدركته الليلة... يزن ليس لي ولن يكون كذلك أبدا"

نظرت إليه وقد اعتصر قلبي ألما فجرى الدمع في عيني، ولم تسعفني نسيمات الهواء في إخفاء ضعفي هذه المرة، كان ينظر نحوي بنظرة خاوية لم أدرك فحواها، ثم وصلت سيارة الأجرة وجاء الموظف ليرشدني إليها لأركبها وأغادر، تركت السيد هاني واقفا مكانه على هيئته ذاتها وابتعد دون أن ألتفت إليه ولا مرة.

أفرغت كل الضيق الذي اعترى صدري في الطريق وقررت نهائيا التوقف عن التفكير في يزن. ودعته في قلبي وقررت أن أمضي في إجراءات زواجي وأبدأ من جديد حياة أخرى خالية من يزن وذكريات يزن، شعرت أنني أمزق قلبي وأرمي به في الطريق.. وأنا أردد في داخلي عميقا وداعا يا يزن وداعا يا حبيب روحي وسكن فؤادي!

عندما وصلت لم يقبل السائق أخذ أجره الطريق، فقد أخبرني أن أجرتي مدفوعة مسبقا. لم أصدق بداية لكنني استسلمت لكلامه وتساءلت عمن يمكن أن يدفع عني أجرتي؟ حتما ليس مازن ولا يزن، هل يعقل أن يكون السيد هاني؟

قبل أن أدخل البيت أرسلت رسالة لمازن أعتذر منه لأنني غادرت وعدت إلى البيت، ليأتي رده سريعا بمكالمة هاتفية يسألني عن سبب رحيلي، شعرت في نبرته أنه متضايق لكن لم يكن بيدي أن أثلج صدره لأنني نفسي كنت أعاني من انهيار عاطفي. اعتذرت منه مرارا ووعده بلقائه حال عودته وأنهيت المكالمة. دخلت البيت لأستقبل وجه أمي المفاجيء من عودتي، لم أشأ أن أشرح لها السبب فاتجهت نحو غرفتي متبرمة بتعبي واستأذنت منها لأريح جسدي وأنام.

لدى انتهاء الرحلة وعودتي إلى المدرسة هاجمني العديد من زملاء للاستعلام عن سبب رحيلي المفاجيء فبرمت بتوعك أصاب أمي، وغيرت موعد زفاني إلى تاريخ أقرب، كان مازن قد وجد شقة قبل فترة قريبة من حيننا، وكنا قد اتفقنا مسبقا على تصميم غرفة نوم فكانت الشقة شبه جاهزة، حاول مازن الممطالة أكثر حتى أدخل الشقة جاهزة بكل شيء لكنني أصررت على الاستعجال، وأقنعتنه بأننا سنكمل تأثيثها وتجهيزها لاحقا بعد زواجنا فلا داعي للمطالة أكثر.

شعرت بتغير في إيلينا فهي اكتسبت قليلا من الوزن كما أن وجهها غدا أكثر إشراقا وجمالا فعزوت ذلك إلى تدليلها من قبل زوجها، وتمنيت لها أن تكف تلك الأفعى عن إيذائها لأطمئن إلى سعادتها. اقترب موعد زفاني وطلبت إجازة يومين لأجهز نفسي من أجل الزفاف. انهالت علي المباركات من الجميع عدا يزن الذي شعرت بأنه بات جسدا بلا روح، بوجهه الشاحب حتى أنني لاحظت فقدانه للوزن فغدا وجهه نحिला متعبا.

قبل زفاني بيوم قررت أن أذهب إلى الحديقة التي خرجت إليها في مواعي الأول مع يزن لأودعه وأودع ذكرياته. وقفت هناك وتأملت المنظر البديع الذي اختلف نوعا ما عما عهدته عندما جئت أول مرة في فصل الخريف، حيث كانت الأوراق الصفراء والحمراء متناثرة على الأرض بشكل جميل كحكاية درامية بلحن حزين، لتستبدل الآن بالأوراق الخضراء التي تزين الأشجار وتستر عريها، و

الأرض مفروشة ببساط من الزهور الجميلة بديعة الألوان. عندما هممت بالرحيل، لمحت خيالاً
مألوفاً، نظرت أمامي فالتقت نظراتنا الحزينة لأشعر بروحي تنتفض ألماً، دام تحديقنا في عيني بعضنا
للحظات لأقطعها بنفسي وأمضي في حال سبيلي مارة من جانبه نزولاً عن الجسر، ثم استوقفني
بكلامه المجروح:

" ليان! لست مضطرة للإقدام على هذه الخطوة، ألغي زفافك لؤلؤتي.. أعيدي لقلبي الحياة كما أعاد
الربيع الحياة لهذه الحديقة!"
بكيته بحرقة وتنهدت بألم ثم قلت له مودعة:

" انساني يا يزن فأنا لم أعد لؤلؤتك... وداعاً! اهتم بنفسك جيداً"
غادرت وتركته مع قلبي الذي انتزعته من أحشائي بوحشية، وركضت عائدة نحو موقف سيارات
الأجرة لأعود إلى البيت وأنتحب على قلبي المفقود.
اقترب موعد زفافي وعدت من الصالون برفقة إيلينا في سيارة شادي الذي هنأني بامتعاض وكلمات
مقتضبة، وشعرت أن تهنتته لي لم تكن نابعة من قلبه، لا ألومه صراحة فهو صديق يزن المقرب.
جاء أمجد ليشهد على الزواج مع خالي وقدم عمي من السفر ليكون وكيلاً لزواجي، اجتمعت النساء
في المبنى ليحتفلن بي في انتظار قدوم المأذون، ومع كل دقيقة تمر شعرت بالاختناق أكثر وأكثر ونبض
قلبي بإحساس غريب مخيف لم أدر سببه.

.....
أصيب يزن بانهيار آخر أشد من السابق فأخذ يكسر كل ما تطؤه يده من تحف في القصر، وأمه تبكي
وتستصرخه ليتوقف، حتى تدخل أبوه القادم من الخارج ليحدجه على تصرفاته الصبيانية كما
وصفها، فصرخ به يائساً:

" إن لم تكن لي لن تكون لغيري! لن تتزوج ليان إلا على جثتي الهامدة!!"

الفصل السابع والأربعون

راقبت النجوم المتألثة من خلال النافذة وأنا أشعر بأنها تحاول إخباري شيئاً ما، اقتربت مني إيلينا تنبهني أن أبتسم أمام النساء حتى لا يشعرن بشيء غريب حل بي، فقلت لها بضيق:

" قلبي مودوع ثمة خطب ما، أنا أشعر بذلك "

طمأنتني أن سبب شعوري هذا خوفي من ارتباطي بهازن ونسيان يزن ثم قالت تحثني على تقبل التغيير:

" هل تذكرين عندما حزنت على فراق أمجد؟ لقد تخطيت مشاعري تجاهه لأنني الآن أحب شخصاً

آخر، القلوب تتغير يا ليان لكن عليك بالصبر والمحاولة وستنجحين!"

تم إعلامي بوصول المأذون فسارت إيلينا وأمي إلى جانبي تعيدانني إلى شقتنا حيث ينتظرن كل من مازن والشهود والمأذون وعمي.

جلست جانب مازن ونظر إلي بسعادة لا توصف حاولت مجاراته بابتسامة مني، ثم بدأ المأذون خطبته، فشعرت بأنفاسي تحتق وذاك الشعور الذي هاجمني عاد ليضرب قلبي بشدة، ثمة خطب ما أنا متأكدة، شرع المأذون ينقل كلمات لعمي ليردها على مسامع مازن، أغمضت عيني مستسلمة لشعوري بانتهاء كل شيء، لكن عمي لم يتمكن من ترديد الكلام كله بسبب أصوات صراخ للنساء علت من الخارج، فانتفض أمجد ليلقي نظرة نحو السلام وتبادلت إيلينا النظرات مع أمي بقلق، ثم... فوجئت باقتحام البيت من قبله ليدفع أمجد عن الباب، ويقف حائراً عاجزاً بعينين متورمتين من أثر البكاء، نهضت واقفة تكسوني نظرات التعجب لأهمس في ذهول:

" سيد هاني؟ ماذا تفعل هنا؟ ماذا تريد؟"

صرخ فجأة باكياً:

" توقفي! لا تتزوجي!.... ابني!.... ابني يزن!.. أصيب بحادث سير مروع بينما كان قادما إليك ليوقف الزواج!! إنه في المشفى بين الحياة والموت! وحيدي! وحيدي وقرّة عيني من الحياة!!" ثم سقط على ركبتيه أرضا يلطم رأسه ويبيكي بحرقة لم أشهد لها مثيلا قط حتى أنا لم أبك هكذا على موت والدي.

بدأ الوعي يهاجمني لأترجم كلماته التي شعرت بها تنهال علي صفعاً دون رحمة، فجلت بعيني في المكان، حتى استقرتا على إيلينا التي كانت مصدومة جدا وكأنها ستفقد الوعي، ثم تنبّهت إلى أن الكل كان مصدوماً وفقدوا القدرة على النطق، وجدت صوتي حينئذٍ وصرخت فجأة:

" أين هو؟ قل لي أين؟ خذني إليه الآن!!"

ساعده أجد على النهوض وسار به خارجاً نحو السلام، نظرت إلى مازن بعينين مرعوبتين باكيتين وقلت معتذرة:

" أنا آسفة!.. آسفة يا مازن!.. يجب أن أراه! لا أستطيع!"

وجريت خارجاً ألق بها لأترك الكل خلفي مشدوها حائراً مكسوراً الخاطر. ركبت مع والده في سيارة العائلة، وركب أجد بجانب السائق ليطمئن إلى عدم حصول مكروه لأبي يزن، فقد كان بين قوسين أو أدنى من مصارعة نوبة قلبية. كان يبكي بحرقة ويلطم فمه ويقول بين الفينة والأخرى:

" ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟ هذا ما صنعت يداي!"

أما أنا فكنت غارقة في عالم آخر أتوسل ألا يموت يزن وأتخيل الحياة دونه، فكسى السواد قلبي بشدة.

وصلنا المشفى فترجلت بسرعة أجري نحو الباب، وعندما دخلت صرخت بالمرضة عند مكتب الاستقبال أسألها عن مكان يزن، نظرت نحوي باستنكار غريب ولم أع بعد سبب نظراتها الغريبة، الكل كان ينظر إلي مدهوشاً، لم أنتظر معرفة سبب نظراتهم، همّ واحد كان منصبا في داخلي وقتها.

علمت منها أنه في قسم العمليات، ركضت بسرعة إلى غرفة العمليات فوجدت أمه تجلس بجانب باب كبير على المقاعد تبكي وتتوسل أن ينجو.

هرولت إليها فنظرت نحوي مشدوهة وقالت:

" ليان؟! ماذا جاء بك؟ هل غادرت حفل زفافك؟"

تطلعت إليها باستغراب من نظراتها الغريبة نحوي، ثم ألقيت نظرة على نفسي أخيراً لأدرك أنني ما زلت أرتدي فستان الزفاف الأبيض. لقد غادرت دون تفكير ملي بما فعلت، جئت ركضاً من أجل يزن ونسيت أنني كنت على وشك الزواج، جلست على المقاعد أفكر فيما فعلت بهازن. ثم هزرت رأسي لأخرج كل الأفكار وأركز على فكرة واحدة أن ينجو يزن فقط.

اتصل أجد بشادي الذي جاء من فوره ليصدم هو الآخر بمظهري المريع، جالسة في فستاني الأبيض على المقاعد بعينين ملطختين من آثار مساحيق التجميل التي أتلفتها دموعي، فكنت أبدو شبيهة بتلك العروس الميتة من إحدى الأفلام المتحركة.

لم أعبأ لمظهري المخيف على الإطلاق فقد كنت أصارع مشهداً أشد رعباً في قلبي، دعوت ورجوت لأن ينجو يزن مما يمر به الآن. شعرت بصدري يتمزق مع كل ثانية تمر دون طمأنة أحد لنا. كان شادي يستقبل مكالمات بين الفينة والأخرى، فهتمت من حديثه أنه يكلم إيلينا لتطمئن على يزن وتساله عني فألمحه يطالعني بحرص قبل أن يخفض نبرة صوته هامساً. وبعد ساعات شعرت بأنها أعوام خرج طيب أربعيني يزيل الكمامة عن فمه ويتقدم نحو السيد هاني وزوجته فنهضت من مكاني مسرعة لأسمع ما سيقوله، أخذ نفساً ونظر في عيني السيد هاني وقال بحذر:

" العملية كانت صعبة جداً قدمنا كل ما تمكنا من فعله له وتمكنا من إنقاذه لكنه ما زال في مرحلة الخطر هو الآن في غيبوبة لا ندري متى سيستيقظ أو... إن كان سيستيقظ، فنحن نرجو منكم الدعاء له والحفاظ على رباطة جأشكم وتقبل أي خبر سيصل إليكم وتذكروا أن الأعمار بيد الله ولا نملك الآن إلا الدعاء"

جثت رجلاي أرضا ولم أتمكن من الوقوف حرفيا، وانخرطت في مزيد من البكاء. طلب منا الطبيب المغادرة لننال قسطا من الراحة ونعود غدا للاطمئنان عليه، لكنني رفضت بشدة والتصقت بالأرض تحتي وعاندت الجميع في محاولتهم إقناعي في المغادرة، بكيت بشدة وأصررت على الرفض، أردت رؤيته لكن الزيارة لم تكن مسموحة وقتها.

قال شادي يحاول إقناعي:

" ليان مظهرك يلفت الأنظار قومي انهضي وغادري معنا لتصلحي هيئتك وتعودين غدا صباحا لرؤيته "

لم يحصل مني على رد فتبادل النظرات مع أمجد، ثم انقض نحوي الاثنان وأخذنا يرفعانني عن الأرض فحاولت دفعهما وركلهما حتى أحكم شادي علي بقبضته وحملني على كتفه غصبا قائلا:
" في كل الحالات سنلفت الأنظار "

صرخت وضربتته على ظهره بقبضتي يدي، وحاولت ركله في صدره وبطنه لكنه كان محكما وثاق ساقاي بشدة وسار بي غير مكترث بالضربات الموجهة لظهره.
عندما خرجنا كانت قواي قد خارت وتوقفت عن المقاومة، سمعت صوته يخاطب والدي يزن بقوله:

" سأوصلها أنا إلى البيت، لا تقلقي يا خالتي فهي في أيد أمينة "

مع أن ذهني كان مغيبا لحظتها إلا أن صوتها وهي توصيه بي وجد مكانا بين زحمة أفكار ليصل مسامعي، لكنني لم أكن أملك الطاقة حتى لأظهر استجابتي لأي أحد من حولي. وضعني على الكرسي الخلفي كأني جثة هامدة، ثم صعد مع أمجد إلى المقعدين الأماميين وانطلقا عائدين بي لموجهة مصيري.

إيلينا

لمست تغيراً لم يدم في معاملة السيدة انتصار معي، فكانت تتجنبني معظم الوقت، حتى أنها توقفت عن البحث عن عروس جديدة لابنها. لكن بعد مرور ما يقارب الشهر نستطيع أن نقول عادت حليلة إلى عاداتها القديمة.

بالنسبة لأحمد فكان شادي يتجنبه معظم الوقت وقضى تلك الفترة عند ذويه ولم يعد يأتي إلى القصر لرؤية ولديه إلا نادراً، وكانت مايا تتحاشاني حتى أنها أبعدت طفليها عني مما زاد من همي وضيقني، كنت أبادر أحياناً بتلطيف الجو معها لكن دون جدوى.

قدم أحمد إلى القصر ذات يوم وجلس في الصالة الكبيرة في انتظار طفليه ليأخذهما معه حتى يقضيا يومهما في بيت جدتهما، كنت أسقي نباتات الزينة وأهتم بها في ذلك الوقت، لمحت شادي ينزل السلم وعيناه مثبتتان بحزم على أحمد، ثم قرر التوجه نحوه مما ولد لدي شعوراً بالذعر فراقبت بحرص ما قد يقدم على فعله. توقف أمامه فنظر إليه أحمد بنظرات مشابهة ثم هاجمه شادي بقوله:

" أنت تعلم أن قلبي ما زال ممتعضاً من قصتك مع إيلينا غير مشاعري المجروحة على أختي "

تنهد أحمد وأعاد النظر في وجه شادي وقد لانت نظراته قليلاً ليحييه:

" بالنسبة لمايا فهي من أوصلتني إلى هذا الحال وأنت تفهم تماماً ما أعنيه، ولو سعت إلى الطلاق فلن أمانع، أنا تعبت يا شادي وكل ما أريده حياة هادئة بعيدة عن المشاكل، أنت تعرفني جيداً وتعلم كذلك أنني لست رجلاً صعب المراس، لكن الإنسان مهما كان طبعه فلصبره حدود.... وهذا هو السبب الذي جعلني أسعى خلف إيلينا... ولم أفعل أي شيء دون علمها كنت حريصاً على إبلاغ مايا بزواجي ثانية... أما إيلينا.. "

سكت قليلاً وهو يتفحص معالم شادي ثم قال:

" هذه البنت هي جوهرة لو كنت مكانك لحافظت عليها، لن أكذب وأقول لك أنني نسيتها لكنني تحطيت أخيراً مشاعري تجاهها وسلمت أنها ليست ولن تكون لي.... فهنيئاً لك بها فهي تحبك كثيراً

ومشاعرها تجاهك واضحة، وأنا سعيد جدا من أجلها لأنها لن تجد شخصا بمواصفات أفضل منك
ليستحق الحصول عليها"

احمر وجه شادي خجلا كأنه لم يتوقع كلام أجد المفاجئ له. وضع يده في جيب بنطاله وقام بدعك
رقبته بارتباك واضح متجنباً النظر في وجه أجد. ثم أنقذه هجوم التوأم على والديهما ليستقبلهما في
الأحضان قبلهما على رأسيهما ونهض ممسكا بيديهما ليتجه خارجا.
ألقي نظرة نحو شادي مبتسما له فبادله الآخر بابتسامة محرجة.

مر الوقت وبدأت أنشغل بتحضيرات زفاف أختي لأبحث عن شيء أرتديه لأخفي نفخة الحمل
التي بدأت أشعر بها تظهر أسفل بطني بسبب اقترابي من دخولي الشهر الرابع من الحمل. كان شادي
سعيدا بمظهر بطني ولا ينام إلا وهو يحتضني ويمسح يده عليه كأنه يتواصل روحيا مع طفله.
وبدأت مشاعري تتعمق أكثر تجاه شادي وبت كالمهلوفة له ولرؤيته.. حتى أنني صرت أراقبه أحيانا
دون أن أشعر، فبت أعرف ما يأكل وكيف يأكل وكيف يسرح شعره ويرتدي قميصه، كيف يجب
قهوته، طبعت ملاحظه في ذهني حتى وإن كنت مغمضة العينين، بابتسامته الساحرة، تكشيرته
المرعبة، مشيته الجذابة، وحركات عينيه ونظراتها الأخاذة. لا أدري كيف كنت عمياء عن جاذبيته
القاتلة، أم أنني كنت ألمحها وأمنع نفسي عن الغوص فيها حتى لا أفتتن به مثل باقي الفتيات؟ لكن
شخصيته الجذابة وهدوءه وغموض تفكيره جعل من الصعب على أي فتاة ألا تقع في حبه.
حتى معاملته معي تغيرت إلى شيء آخر، حينما كان يغير علي في السابق فقد أصبح أكثر غيرة وتملكا
الآن، وزادت مداعبته لي بكل أنواعها الوجدانية والحسية، وزاد اهتمامه بملابسي وما علي لبسه
وعدم ارتدائه، ومتى أتزين... وكثير اصطحابه لي معه إلى سهراته مع رجال الأعمال. لكن مع ذلك لم
يستطع إخفاء امتعاضه وضيقه على صديقه يزن وما يعانیه من انهيار عاطفي جراء اقتراب موعد
زفاف ليان، حتى أنه اعتذر لي عن عدم رغبته في حضور الزفاف ووعدني باصطحابي مع أختي من
الصالون إلى البيت، ورفع يده عن الباقي.

لم أستطع لومه فهذا أقل ما يمكنه فعله من أجل صاحبه ولو كان بيده لألغى الزفاف من أساسه.

جلست على الأريكة بجانب ديمة فهي الوحيدة التي استطعت اصطحابها معي إلى الزفاف، أما عمي هشام فكان مسافرا في رحلة عمل. كنا نجلس في ترقب وذعر شديد وكلما هممت باللحاق بهم إلى المشفى أوقفني عمي، فجلست أهاتف شادي بين الفينة والأخرى لأطمئن على يزن وأعرف وضعه في العملية وأسأله عن ليان وما تفعله، أوصيته بها خيرا عدة مرات. ثم جلست أطالع في وجوه الجميع من حولي.

مازن كان مبهورا وبدت التعاسة على وجهه، لم يبد عليه أثر للصدمة كأنه كان يعلم مسبقا بأن ليان قد تطير من بين يديه في أية لحظة، أمه من ناحية أخرى كانت تجلس بتعابير وجه لا توصف من صدمتها وكذلك والده الذي جاء من السفر للاحتفال بزفاف ابنه، وأخته كانت تنظر نحوي بحدة نظرة معاتبة.

أبعدت أنظاري عنهم فوقعت على أمي فشعرت أنها تكاد تصاب بنوبة أو سكتة قلبية، فاعتصر قلبي ألما، ثم نظرت نحو خالي وعمي اللذين كانا يشعران بالإحراج والضيق مما يجري حولهما، حزنت على عمي فهذه المرة يأتي سفرا من بلد آخر إلى هنا في سنة واحدة، وأنا أعلم أن مقدراته المادية ليست أهلا للسفر بكثرة.

أعدت الاتصال مرة أخرى بشادي لأطمئن إلى الوضع، فعلمت منه أنه في طريقه إلينا وأن يزن خرج سالما من العملية لكنه لم يتجاوز مرحلة الخطر وسيبقى تحت المراقبة.

وما هي إلا أقل من ساعة حتى سمعنا طرقا على الباب فأسرعت أمي لتفتحه ونجد أمجد خلفه، جال في عينيه في الغرفة بحثا عن صديقه حتى وقعت عيناه عليه فتحولت نظراته إلى الأسى يرثي حال صاحبه، ثم استأذن للدخول معلما أمي أن شادي سيصعد بعد لحظات حاملا ليان معه، اعتلى القلق وجه أمي لتسأل عن الخطب الذي حل بليان فتجنب إجابتها.

لمحت شادي فجأة يتقدم نحو الباب يحمل ليان على كتفه وتبدو في حال يرثي لها، اقترب من الأريكة موضع جلوسي حالما نهضت مشيرة إليه أن يضعها مكاني، فوضعها برفق وساعده ديمة في تعديل

جلستها، شعرت أن جسدها رخو كالعجين وعيناها شاخصتان في عالم آخر لم تكن تنظر إلى أي منا ولم تكن ترمش حتى، أصبت بالذعر من مظهرها فجرت أمني بسرعة إليها وجلست على الأرض مقابلها وأمسكت بكفي يديها تستصرخها أن ترد عليها، لكن بلا جدوى فقد غدت كالجسد البالي الذي فارق الحياة.

تحولت أنظار أمني نحو شادي باكية تسأله عم أصابها فقال أسفا:

" أصابها انهيار في المشفى وحملناها غصبا إلى السيارة لم تتقبل كلام الطبيب عن وضع يزن... أظن ..."

سكت برهة ثم نظر نحو مازن حذرا وقال بنبرة أسفة:

" أظن أنها تلوم نفسها على ما حصل له"

شعرت بعيني مازن على وشك هدر الدموع فعض على شفته ليكبت قهره، مد أمجد يده على كتفه يصبره فربت بدوره على يد صاحبه ثم هب واقفا وطلب من عائلته العودة إلى البيت لترك ليان ترتاح بعد ليلتها الحافلة، نظرت نحوه عائلته بضيق وأسف شديدين فهز رأسه يشعر بالحلق وكان أول المغادرين.

اقتربت نور من ليان وقالت بنبرة حانقة لها:

" كنت أعلم أنت ستحطمين قلب أخي، لماذا لم ترفضى عرضه بدل تكليفه السعي خلفك والوقوع في حبك أكثر؟ أنت غير معقولة!"

فنهرتها بقولي:

" نور هذا ليس وقت العتاب! ألا ترين حالها؟"

حدجتها ديمة بنبرة ساخطة:

" حب حياتها بين الحياة والموت وأنت تلومينها على تحطيم قلب أخيك! أخوك من تسبب في التعاسة لنفسه بجريه خلف فتاة لا تحبه ويعلم أنها عاشقة لغيره، فليكن هذا جزاؤه فالدنيا دوارة وكما تدين تدان!"

هبت فيها بقولها:

" بم تهذين يا هذه؟ "

أمسكت أمها مرفقها بحنق وقالت توبخها:

" تكلمت كثيرا يكفيك! الوضع الآن ليس مناسباً للعتاب امشي معي الآن "

ثم نظرت نحو أمي بإحراج وقالت:

" سامحينا يا سيده ماريا وغدا نتفاهم بكل المواضيع العالقة "

وغادرت هي وزوجها بعد تبادل التحية بإحراج مع الرجال المتواجدين.

نظرت نحو ديمة التي كانت محمرة من شدة غضبها، ماذا ألم بها هذه الأخرى؟ اقترب منها أجد

وقال لها:

" ديمة هيا بنا سأوصلك إلى القصر "

ثم نظر نحو خالي وعمي وعرض عليهما توصيلهما إلى وجهتهما فرفضتا حتى ألح عليهما شادي

بالمغادرة مع أجد حتى يُعطى المجال لليان بالراحة قليلاً.

فغادر الجميع وبقينا نحن الأربعة، استأذن شادي من أمي المبيت عندها الليلة فرحبت به بصدر

رحب، ثم طلبت منه أن يستريح في غرفتها ريثما تساعد ليان على تنظيف الفوضى الغارقة فيها، فاتجه

إلى غرفتها طوعاً وأغلق الباب خلفه.

ساعدنا ليان على الاستحمام وارتداء ملابسها وتفانيتها في تنظيف وجهها من آثار مساحيق التجميل

الملطخة بسبب البكاء، كانت بلا حياة طيلة الوقت، كدمية مسيرة بين أيدينا. حاولنا جاهداً أن

نكلمها لعلها تخرج من غمها وتتفاعل معنا قليلاً.

بقيت جالسة بجانبها حتى غفت عيناها ونامت، فعدت إلى شادي في الغرفة وعندما أحس بوجودي

مسح دموعه بسرعة فأثار دهشتي، أكان يبكي؟! اقتربت منه على الفراش وجلست إلى جانبه

ووضعت يدي على كتفه لأتأكد من كونه بخير فألقى رأسه في صدري واستسلم لبكاء مرير، فرق

قلبي له، أخذت أمسح على شعره وألقي على مسامعه كلمات تحمل الأمل لربما هدأ باله قليلاً، بعد

قمت من فراشي أصرخ كالمجنونة غير متقبلة لموته، لا أصدق أنه مات!! مات وتركني وحدي!
مات وأخذ قلبي معه.. أخذ كل إحساسي وعواطفني، وتركني مجردة من كل الأحاسيس... إلا الألم.
جريت نحو الباب أصرخ كالمجنونة فانقضت علي أمي تحاول تهدئتي، وسمعت صوت إيلينا تصرخ
بي لأهدأ، ثم شعرت بقبضة رجولية تحملني من وسطي وأنا أصارع إيلينا وأمي لأخرج من البيت،
فحملني رغما عني وألقاني على الأريكة لأخرس. جثت إيلينا على ركبتيها تبكي وتسأني عن الخطب
الذي ألم بي، فتحول صراخي إلى نحيب هستيري وأنا أردد:

" لا أصدق أنه مات، أرجوكم أعيدوه إلي!"

أمسكت أمي بوجهي وأدارته إليها واقتربت مني وقالت ببطء حتى أستوعب :

" ليان حبيبتي اهدئي يزن لم يمت كنت تحلمين، هذا مجرد كابوس، إنه على قيد الحياة"

نظرت إليها مصدومة معقودة اللسان مشلولة التفكير، حاولت معالجة كلامها ثم بدأت أنطق كمن
تعلم النطق جديدا:

" لم ... لم يمت؟! ... كابوس؟! ... كنت ... أحلم؟"

ثم وضعت يدي على فمي وأجهشت بالبكاء المرير وتوسلت قائلة:

" خذوني إليه أرجوكم!"

سمعت صوت شادي فجأة يخاطبني:

" ليس الآن يا ليان"

نظرت إليه فكان يتجنب النظر إلي وأكمل حديثه وهو ينظر نحو الأرض:

" الآن مبكر جدا ما زال الوقت فجرًا، أعدك حالما تشرق الشمس سأخذك إليه، هذا وعد"

نظرت إلى إيلينا فهزت رأسها لي توافقه، لكنني كرهت الفكرة برمتها، سحبني أمي نحو الغرفة
مجددا وهي تهدئني وتمسح على رأسي وتذكر اسم الله علي. ثم تنبعت إلى حقيقة تكشف شعري أمام
زوج أختي ففهمت سبب تجنبه النظر إلي فشعرت بالإحراج الشديد.

انتظرت بفارغ الصبر شروق الشمس وقمت وارتديت ملابسني وحجابي وجلست في غرفة المعيشة أنتظر استيقاظ الباقيين لأذهب إلى يزن.

تفاجأ الجميع بجلوسي في الغرفة أنتظرهم، فطلب شادي استخدام الحمام حتى يتحضر لاصطحابي إلى المشفى، وبينما أخذ شادي يرتب أموره طلبت من أمي أن أقابل مازن، ترددت كثيرا في السماح لي وحثتني على الصبر في مواجهته لكنني سبق وعقدت رأبي ولا مجال للتراجع.

قرعت الجرس مرتين حتى فتح لي أبوه الباب كان يبدو عليه آثار النعاس لكنه صعق لدى رؤيتي، سمح لي بالدخول ريثما يوقظ مازن لتواجهه. جاءتني أمه بملامح حزينة ثم جلست مقابلي وسألتنني عن حال يزن، هزرت كتفي بعدم معرفتي ومسحت دموعه خانت إحساسي وتصنعي القوة. أطل مازن فجأة أمامي بشعر أشعث ووجه متعب وهالات سوداء تحت عينيه، فعلمت من مظهره أنه لم ينم ليلته.

شعرت بغصة في قلبي مما أنا مقبلة على إخباره، جلس بجانب أمه يطالعني بعينين متورمتين تعيستين، فتحت فمي لأتكلم لكنني ترددت وجبت ثم أغمضت عيني وقلت بصوت متحشرج خافت:

" ساحني يا مازن! أنا لا أستحق شابا طيبا مثلك.... أنا لا أستطيع.... "

ثم انخرطت في البكاء ولم أستطع إكمال جملتي، نفخ بضيق وقال:

" لا بأس يا ليان! أنا أعلم.... كنت أحق في تفكيري بأني قد أنجح في احتلال مكان يزن في

قلبك.... لن أكون قاسيا عليك وأزيد من همك "

ثم نظر نحو أمه وأعاد نظره إلي وابتسم بحزن بينما انهمرت دموعه:

" أنت حرة الآن اعتبري ما بيننا انتهى، وأتمنى ليزن الشفاء العاجل، لطالما كان هو المقصود، لكن

كبرياءك وغروري غطى على الحقيقة "

نظرت نحوه مشدوهة ثم التفت نحو أمه فكانت تجهش بالبكاء، فزاد مراري وبكيت أكثر، حاول

أن يبتسم وسط دموعه من جديد وقال:

" أنا أتمنى لك السعادة يا ليان حقا! ولأنني أحبك بشدة سأتركك، فإذا عدت إلي فهذا لأنك لي وإذا لم تعودني فلأنك لم تكوني مقدره لي من الأساس "

لم أجد الكثير لأقول له فقد بهتني بطيب أخلاقه، اعتذرت من أمه ومنه مجددا ووعده ببرد كامل حقه فلم يكثر كثيرا للموضوع. غادرت الشقة وقلبي يعتصر ألما عليه وعلى معاناته بسببي. توجهت إلى مدخل العمارة فوجدت شادي في سيارته ينتظرنى فأسرت بالمشفى. جلسنا على المقاعد أمام الغرفة في انتظار السماح لنا بالدخول، تفاجأ والداه من قدومنا بوقت باكر كهذا، لكنهما لم يعلقا على الموضوع.

أمضينا وقتنا صامتين نطالع باب الغرفة بصبر نافد، وشعرت بين الحين والآخر بعيني أبيه ترحل نحوي تتفقدني فأثرت تجاهل نظراته، جئت لأطمئن على يزن لا لأفتعل المشاكل معه. وأخيرا أطل الطبيب علينا بعد مضي وقت طويل ليلغنا أن يزن تجاوز مرحلة الخطر ودعانا لنصلي من أجله ليستفيق من غيبوبته بأقصى سرعة، ثم طمأننا إلى أنه سيبقى تحت المراقبة حتى يستيقظ. وبعد رجاء طويل منا سمح لنا أخيرا بزيارته منبها علينا التزام الهدوء وعدم الانفعال حوله. ما إن دخلت حتى شعرت بقلبي ينزف إثر رؤيته موصولا بالأجهزة، مستسلما لآلامه... هزيلا ضعيفا. خطر ذاك التساؤل في بالي وأنا أنظر نحوه؛ هل هذا يزن القوي الصلب؟ هل هذا صاحب الجبروت والقبضة الحديدية؟ أهذا نفسه القادر على صرع عشر رجال ذوي عزم يستلقي على سرير المشفى غائبا.. واهنا؟

استصرخه قلبي ليستفيق، بينما أتقدم منه وأنظر إليه بتلهف من خلف والديه اللذين سبقاني إليه، كان أبوه يمسح على رأسه وأمه جلست إلى جواره تمسك كف يده تدعو له وتبكي بهدوء، ثم قبلت رأسه بحنو أمومي والتفتت نحوي وأشارت لي بيدها لأقترب، ترددت في البداية ثم نظرت نحو شادي الذي أومأ لي برأسه لأتحرك، فسرت نحوها.

وضعت يدها على ظهري تربت عليه واقتربت أكثر من السرير، وددت لو أمرر أصابعي في خصلات شعره الناعم لكنني جنبت ولم أجرؤ، بل بقيت واقفة مكاني أتفحصه بعيني بحزن عميق.

دخلت عالمي الخاص متجاهلة ما حولي وأنا أتأمل يزن وأتذكر كل ما مررت به معه من مشاعر ومواقف... حتى أنني لم أسمع كلامهم ولم أشعر بحركتهم، كنت واقفة كالصنم أتطلع إليه وأنتظر منه أن يرمش أو يحرك إصبعه فلم يفعل. طال وقوفي دون أن أنتبه لما حولي حتى شعرت بيد أمه تلامس كتفي لتقول لي:

"ليان! نادينا عليك مرارا! وقت الزيارة انتهى هيا بنا يا صغيرتي"

لم أستوعب ما قالت فوضعت يدها على ظهري تساعدني على الخروج، فسارت قدماي دون طوع مني ورأسي ملتفت إلى الخلف نحوه أراقبه حتى تم إغلاق الباب وعيناي متمسرتان عليه. سار شادي نحو المخرج ثم التفت إلي فوجدني واقفة عند الباب غير متزحزحة، عاد إلي وحثني على المسير، لكنني رفضت. تنهد بضيق وطلب مني ثانية أن أمضي معه، فرفضت مجددا وجلست على المقعد بجانب الباب طالبة منه أن يمضي ويتركني هنا فلم أشأ الرحيل، حاول أكثر من مرة كما وحثني أم يزن على المغادرة لأريح جسدي وأتناول شيئا لأجدد طاقتي وأعود فيها بعد، لكنني أصررت على الرفض ولم أترشح، حتى استسلم شادي لقراري ووعدي بالعودة لاحقا ليطمئن علي.

جلست القرفصاء على المقعد واحتضنت ساقي إلى صدري وأرحت رأسي على ركبتي، وبقيت جالسة كما أنا متجاهلة رنين هاتفي في كل مرة، أفكر فقط بيزن وأدعوه بالقيام سالما. فوجئت بخيال أحدهم يظللني، رفعت رأسي فوجدت السيد هاني أمامي كان يحمل معه كوبا ورقيا يتصاعد منه البخار. جلس إلى جانبي ومد لي بالكوب نحوي قائلا:

"أعلم أنك لم تأكلي شيئا منذ البارحة اشربي هذا فقد يمدك ببعض الطاقة"

تناولت الكوب منه وشكرته على مضمض بإحراج، شربت رشفة من المشروب فشعرت بالسكر بدأ يعيد إلي توازني، ساد صمت ثقيل بيننا ثم نفخ صدره بقوة وقال:

"هل تذكرين ما قلته لي قبل فترة عن كون يزن بعيد المنال عنك وأنت جريت خلف شيء أعظم

منك؟"

التفت إليه غير مدركة لمقصده من الحديث وأين يريد أن يصل بكلامه، تنحنح وهو ينظر أمامه وقال:

" الحقيقة هي .. أنك أنت بعيدة المنال عنه وهو الذي كان يجري خلف ما هو أعظم من حجمه " اعترت الدهشة قسماً وجهي ولم أجد ما أرد به عليه، التفت نحوي وفي عينيه كلام كثير وقال متحسراً:

" أفسدت حياة ابني بيدي مرة وها قد فعلتها ثانية بإبعاد النور الوحيد الذي تمسك به طيلة حياته " لانت نظراته القاسية وقال:

" هل أجد في قلبك مساحة لتسامحيني؟ "

ازدادت دهشتي وذهولي منه فأشحت وجهي عنه ونظرت في الفراغ أمامي ثم اعتذرت منه بقولي:
" عفوا سيدي أنا لا أستطيع التركيز الآن، لا أستطيع التفكير إلا بوضع يزن حالياً وعندما يستعيد وعيه وقتها سيكون لكل مقام مقال "

هز رأسه متقبلاً كلامي ثم نهض عن الكرسي واتجه نحو الباب وقال مشجعاً لي اللحاق به:
" انهضي أخذت إذنا لزيارته "

نهضت دون تفكير ولحقت به إلى داخل الغرفة لأعود أمام يزن أملاً عيني بوجهه الوسيم. جلست على الكرسي إلى جانبه ومددت يدي لأمسك بكف يده وعينا لا تفارقانه.
سمعت والده يخاطبني قائلاً:

" لا بد أنه أخبرك عن خياناتي السابقة لأمه.... لولا ذلك لما سكت عن السؤال عن أثر الحرق الذي في بطنه "

قلبت عيني بعدم راحة لكلامه ولم أجبه، فهز رأسه ثم أضاف:

" سأقول لك سرا ... سبب سعبي لطلاقك بشدة كان بسبب ماضي أبيك "

التفت نحوه أحده بنظرة ثابتة فأبى الآن ميت ولا داعي للحديث عنه بالسوء، فلوح بيديه ليعبد الأفكار الشيطانية عن رأسي وقال موضحاً:

" ليس احتقارا وإنما لرهاب أعانيه من تجار ومدمني المخدرات "

تحولت نظراتي فجأة إلى دهشة وحيرة وفضول، فقال مضيفا:

" يبدو أنه لم يطلعك على سره كاملا.... حسنا ما الفائدة من إخفائه؟ من حقا أن تعلمي بقية

القصة كما علم بدوره بتفاصيل ماضيك المظلم "

تركت يد زين واستدرت نحوه حيث كان يجلس على الأريكة تحت النافذة لأحول كامل انتباهي

إليه، فقال:

" بعد اختطاف ساندر له وتعذيبه.. تلك الخادمة التي كنت...تبا لي وقتها... قررت الانتقام منها...

فتوجهت إلى السيدة انتصار باكيا أرجوها المساعدة لعلمي بجبروتها ونفوذها فأشارت إلي بإعلام

زوجها عن خيانتها له وتلبس التهمة لشخص آخر غيري، ومن طمعي بالانتقام وافقت، لكن ما لم

أكن أعلمه لا أنا ولا انتصار هو كون الرجل تاجر مخدرات وله معارف كثيرون، عندما وصله الخبر

بحث عنها حتى وجد مخبأها ومن شدة ذعرها منه باحت له بكل شيء عن علاقتنا.... فكلف رجاله

من مدمني وتجار المخدرات باختطاف زين من المشفى حيث كان ما يزال يتعالج من آثار الحرق

ليحجزه في سرداب قديم....."

غطى عينيه بيديه متحسرا ثم قال وقد بدأ صوته يتغير ويثقل كأنه على وشك البكاء:

" ثم ذبح زوجته أمام عيني زين في سنه الصغيرة تلك.... رأى جريمة نكراء أمام عيني... ولم

يكتف بذلك بل.... قتل براءته وطفولته "

سكت مطولا بينما لم أفهم إلام يرمي، نظر إلي بعينين دامعتين وعقب:

" قام بالاعتداء على ابني! "

ثم بكى بكاء مريرا وضرب فخذه بيديه حسرة وألما بينما الصدمة اجتاحت كل كياني ولم أجد

كلماتي، شعرت بقلبي يُطعن بشدة وبحلقي يتورم، ولم أستطع أن أرمش أو أوقف دموعي التي

انهمرت بغزارة كمطر غزير هطل من السماء. لوهلة شعرت بروحي تطوف في الغرفة تبحث عن

تفسير لكل ما يدور من حولي. ثم قال ليعيد انتباهي إليه:

" وجدته رجال الشرطة عاريا معذباً مع جثة الخادمة في السرداب المظلم.... عرضته على أمهر الأطباء النفسيين سنين طالت، لم يتماثل للشفاء بالطريقة التي رغبتها بل أنه تربى على التمرد والعصيان، حاولت أن أكون صبوراً معه فأنا السبب في خلق هذا الكائن المتوحش في داخله.... أراد أن ينتقم لنفسه من كل حي يتنفس، كان يبحث عن مدمني المخدرات ليهشم وجوههم لعله يشفي غليله ولو بمقدار ضئيل، لكن ذلك لم يجد نفعاً... وجد شيئاً من سكون روحه في ممارسة الرياضة بعد تشجيع طبيبه له.... فأمنت له كل الظروف ليبنى جسده وشخصيته بالطريقة التي يريد، ثم تعرف على شادي... ذاك الفتى المهذب الكتوم الذي خطا معه خطوة بخطوة ليده على الطريق الصحيح... لولا شادي صراحة لكان.... لكان ضاع منا.... فهو من أرشده للخير وأرغمه على الالتزام بالصلاة، تعلم منه أن يحدد هدفاً لحياته يجعله يرغب في الاستمرار في العيش، فوجده دون أن يبحث... في لحظة عين... اتقدت شعلة من الحماس في داخله، وبرقت عيناه لأول مرة منذ عشرين سنة مضت... لمحننا تغيراً على حاله فجأة.. ذلك التغير علمت سببه متأخراً"

رفع بصره نحوي وقال ليفاجأني:

" سببه أنت "

الفصل الثامن والأربعون

سببه أنت!... وقع صدى هذه الحروف رن في أذني كقطرة ندى لامست وجه الماء في سكون الهواء. أنا؟! هذا التساؤل الذي خطر في بالي مستنكرة الأمر، فكيف لي أن أكون سببا في سعادة هذا الشاب المحطم بينما كل ما كابدته طيلة حياتي هو الدمار؟ ما الشيء المميز بي لينظر نحوي يزن بتلك الطريقة؟ لماذا أنا بالذات؟ لما لم يختر فتاة أقل تعقيدا مني؟ فتاة بريئة... مفعمة بالحياة والأمل... خالية من العيوب... فتاة تواجه الدنيا بتفاؤل؟.. مثل.. إيلينا!

التفت نحو السيد هاني بعد شرودي في كلامه وقلت بتساؤل جلي:

"لما أنا بالذات؟"

ابتسم وهو يمسح دموعه، هز كتفيه قائلا:

"صدقا لا أعلم!"

سحبت نفسا عميقا في داخلي ثم سألته:

"والمجرم ماذا حصل له؟"

تجنب النظر نحوي ونظر باتجاه النافذة وقال:

"قبضت الشرطة عليه بعد إصراري على البحث عنه"

ثم نهض وخطا نحو النافذة ببطء وأضاف بنبرة مخيفة:

"لكنني لم أنتظر حكم المحكمة عليه.... فدست رجالا يأخذون بثأر ابني منه.... وجدوه معلقا

في زنارته..... مقتولا"

سرت قشيرة رعب في أوصالي.... هذا الرجل تسبب في مقتل أحد!.... لكن من أنا لأحكم؟ فقد أردت بشدة انتزاع أحشاء مختطف إيلينا، وأنا متأكدة لو وقع بين يدي لما توانيت عن الثأر لها، لكن

هل يمكن أن يصل بي الحقد إلى قتل أحدهم؟ ثم تذكرت فجأة تهوري عند لقاء أبي ورغبتني في التخلص منه، فشعرت بالسوء من نفسي. الغضب آفة. يمكن أن يوصلنا إلى أفعال لا تحمد عقباها. أغمضت عيني وسألته بفضول:

" إذا كان حقاً يجنني لتلك الدرجة... فكيف أقنعت بالانفصال... عني؟ لماذا طلقني إذا كان متيماً بي هكذا؟ ألا أستحق توضيحاً على الأقل؟"

التفت نحوي ونظر إلي مطولاً ثم هربت نظراته نحو الأرض محاولاً إخفاء إحراجي، وضع يديه في جيب بنطاله القماشي ونفخ بضيق ثم قال:

" لن يعجبك ما سأقول.... هددته "

رفع بصره نحوي متردداً وقال :

" هددته بنشر الفضائح عنك وعن أمك، وتلفيق.... تلفيق أحداث قدرة عنك من ماضيك.. ما

حصل وما لم يحصل، طبعاً بمعاونة من انتصار فهي صاحبة نفوذ قوي "

لم أشأ أن أسأله عن الأفكار القدرة التي كان سينسبها إلي بالباطل فقد شعرت أنني فهمت ما

يكفيني، نما عندي شعور بالاشمئزاز ونظرت نحوه بحقد وقلت متألمة:

" كيف طاوعك قلبك على أذية ابنك الوحيد وإساءة معاملتي إلى هذه الدرجة؟ ماذا فعلت لك

حتى كرهتني بهذا الشكل؟ أنا أعلم أنني صعبة المراس وعصبية لكنني لم أجرؤ على معاملتك بقلة

احترام إلا بعد أن جررتني إلى ذلك "

مرر أصابعه في خصلات شعره الأشيب الناعم فأدركت وقتها من أين ورث يزن طبيعة شعره، تنهد

باستياء وقال:

" كنت أمل ارتباطه بفتاة من الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، خشيت أن تسعي خلفه من أجل

أمواله وأن تزيد من دماره... كما أن السيدة انتصار.... هي التي شجعتني على إنهاء هذا الزواج "

زفرت بضيق وشتمتها في سري، ثم سألتها عن علاقته بها فقال مفسراً:

" أعرفها منذ الصغر.. كانت جارتى... وكانت دائما تهرب لاجئة إلى بيتنا لتلعب معي حتى تبتعد عن مشاجرات ذويها الدائمة... كان والدها يسيء معاملتها بشدة ويضربها كثيرا، فقبلت بالزواج من هشام رغم صغر سنها هربا من حياتها ونشأتها، لكنها تأخرت بالإنجاب عدة سنين قبل أن ترزق بشادي "

شردت في كلامه ثم سألته:

" ما دمت تعرفها منذ الطفولة لماذا لم يتعرف ولدكما في سن صغيرة؟ أعني قلت لي أنها تعرفا إلى بعضهما بعد سنوات من علاجه النفسي "

ضحك مستهزئا وقال:

" ألم تسمعي ما قلت؟ لقد رزقت بابنها بعد سنين من الزواج! انتصار هذه عقدة حياتها شادي، عاملته طيلة حياته كغرض تملكه ولم تسمح له بتكوين الصداقات، كانت غيرتها عليه شديدة وخشيت أن يجب أحدا أكثر منها، كل الحب الذي حرمت منه في حياتها أرادت أن تعوضه به، حتى أنها حدثت من علاقته بأولاد عمه! أبعدت الكل عنه وأبعدته عن الكل، ومن شدة تملكها له تعلم في مرحلته الأساسية تعليما منزليا حتى لا يتعلق بالمعلمة التي سيتعلم عندها ولا يكون صداقات مع من تصفهم بأراذلة المجتمع..... تعرّفه على يزن كان من باب الصدفة عندما جمعتني علاقة عمل مع زوجها، وكان زوجها وقتها قد فتح عينيه على سوء تربيتها له فحاول إخراج ابنه من عزلته ليحتك بعالم الأعمال منذ الصغر.... تمكن شادي أخيرا أن يخرج من ظلال أمه ويكون حياته ودائرة معارفه بنفسه لكن تلك العقدة التي تولدت لديه بنظرته الدونية للآخرين بسبب أمه ظلت مرافقة له، فلم يشتهي قلبه امرأة قط حسب كلام يزن، فالكل من حوله ناقصات في نظره لا يملأن روحه، أخبرني مرة حين تعجبت من استنكاره من كل الفتيات الجميلات من حوله أنه لا يهتم بالجمال، بل أنه يسعى لجوهر نقي شبيه حينها بباء المطر، وكلما وقعت عينه على فتاة يصفها بالصحراء القاحلة، لم يهتد أحد إلى ذوقه قط، ولم يستطع أحد فهم ما يدور في خلده.. "

شعرت بقلبي يهوي بي، فهل يعقل أنه ينظر إلى إيلينا بنفس الطريقة؟ فهو لم يتزوجها رغبة منه بل لأن والده أصر عليه وكان مطيعا لرغبات والده فحسب، فوجدت نفسي أقول معقبة على أفكارى: " لقد تربي على الطاعة العمياء لوالديه، أليس كذلك؟"

رفع حاجبيه مستنكرا وقال:

" نعم تربي على الطاعة العمياء لما يقولانه له، فهو عبد مطيع في ما يختص بهما، يهتم لمشاعر أمه ويحترم أي شيء تقوله وإن اختلف معها في أمر فيكتفي بالسكوت. كان يقول ليزن رضا الوالدين من رضا الرب وغضبها من غضبه، لما كان يلح من معاملته الرديئة معنا، بالأخص أنا " شعرت أن رأسي يكاد ينفجر من كثرة ما عرفت اليوم، عالم الأغنياء هذا وعالم هؤلاء بالذات ليس بالعالم السهل للعيش فيه، فالحياة البسيطة التي ألفتها أفضل بالنسبة لي. وتعقيدات شادي أضفت مزيدا من الكآبة على قلبي، هل يمكن أن يطلق إيلينا ويذها إذا أمرته أمه بذلك؟ إن كان فعلا يطيعها طاعة عمياء هكذا فماذا سيمنعها عن ظلم أختي؟

غادرنا الغرفة فاتجه السيد هاني نحو المخرج ثم التفت نحوي قائلا:

" ألن تاتي؟ هيا سأوصلك إلى البيت "

هزرت رأسي رافضة، وآثرت البقاء مكاني، لم أرد أن أترك يزن، ما يزال الأمل في قلبي أن يستيقظ بين لحظة أو أخرى... تقدم نحوي وحاول حثي على المضي معه فرفضت بشدة، حتى قلت في النهاية:

" لا تقتل قلبي مرتين... عندما أطمئن عليه.... سأدعه في حاله أما الآن... لا أريد.... تركه "

أشحت بصري نحو الأرض وجلست على المقاعد متجاهلة وقوفه أمامي. تنهدت مستسلما ثم اتجه نحو المخرج ومضى، عندما تأكد من إصراري على عدم الرجوع.

رن هاتفي مجددا، نظرت إلى شاشته فوجدت المكالمة من إيلينا وقررت استقبالها هذه المرة، سألتني عن أحوال يزن ورجتني أن أعود إلى البيت لأرتاح، لكنني رفضت وآثرت البقاء وحاولت أمي

كذلك ثنيتي عن قرارتي لكنني كنت حازمة معهما، توصلت إيلينا ألا ترسل زوجها ليأخذني حتى لا أخرج به بالرفض.

مكثت على مقاعد الانتظار أعد الساعات، حتى أنني أدت فروضي في ذات المكان، شعرت بالجوع لكنني لم أكن أملك أية شهية للطعام، حل الليل وأنا أجلس تارة وأسير أخرى، حاولت بعض الممرضات إقناعي بالعودة إلى البيت وفي كل مرة كنت أرفض، في النهاية تدخل رئيس الممرضين في القسم ليأمرهم بتركي على راحتتي. عدت للجلوس على المقاعد وحديث السيد هاني لا يغادر مخيلتي، ولا أعرف كيف استسلمت للنوم.

استيقظت صباحاً فشعرت بألم في ظهري وكتفي بسبب طريقي الخاطئة في النوم، ثم تفاجأت بوشاح ملقى علي، من أين جاء ومن دثرني به؟ صافح أذني صوت مألوف حنون يخاطبني:

" صباح الخير يا ابنتي!"

رفعت بصري وأنا أحاول الاعتياد على ضوء الصباح المتسلل من النوافذ الجانبية في الممر، لأجد أم يزن واقفة إلى جانبي تحمل معها كويين ورقيين من القهوة وقطعة من الكعك المخبوز، مدت إلي كوباً مع قطعة الكعك، لأمد نفسي بالطاقة، ثم جلست إلى جانبي وقالت:

" تفاجأت بوجودك هنا، قيل لي أنك بت ليلتك على المقاعد... ليان حبيبتي لا ترهقي نفسك كثيراً هكذا يجب أن تكوني في كامل صحتك حتى تستقبلي يزن قوية حينما يفيق!"

ما أروع تفكيرها فهي تأمل في استيقاظه، بينما أنا يحوطني الظلام من كل ناحية لأشعر بالإحباط، ثم سألتها بخوف:

" هل تعتقدين أنه سيفيق؟"

التفت نحوي بنظرة متفائلة مما ذكرتني بإيلينا نوعاً ما وقالت بإيمان عميق:

" وكلته لله، ولن يخيب الله ظني، أنا أو من بذلك.... ربي أرحم به مني وسيعيده إلي سالماً وسيفيق، أعلم أن الأمر بحاجة إلى قليل من الصبر، وأنا صابرة وأدعو له في كل لحظة، لن يخيب ظني فلا تخشي شيئاً."

نظرت نحوي مبتسمة وقالت:

" يزن سيعود إلينا لدي إيمان عميق بذلك!"

كلماتها البسيطة زرعت في قلبي نوعا غير مألوف من الأمل والتفاؤل، فابتسمت بشكل آلي لها وشعرت أن غمامة الفزع بدأت تنقشع رويدا رويدا من قلبي.

حثتني على النهوض ورؤيته قليلا، دخلنا الغرفة بعد حصولها على إذن من الطبيب المختص بحالته. جلست إلى جانبه وقبّلته على جبينه وخديه وأخذت تمسح على شعره الذي نما قليلا وبدأت تتحدث معه بنبرتها الحنونة عله يسمعها في عقله الباطني ليستفيق، ثم حثتني على الحديث معه أيضا، وبعد محاولات منها أجبرتني على الاقتراب منه ومخاطبته، نظرت إليها بتوتر فقالت:

" اعتبريني غير موجودة وحدثه من قلبك، لو كان مستيقظا فماذا كنت لتقولي له؟"

وجهت نظري إليه وأمعت النظر في معالم وجهه المسالمة على غير ما عهدته منه، فهو بالأصل ماكر ساخر يجب إثارة أعصابي والتلاعب بمشاعري، ابتسمت عندما تذكرت بعض مواقف الطريفة كإرساله صورته لي قبل أن ترتبط، ومحاولته الجادة في الحصول علي بالرغم من رفضي له. وأخيرا تجرأت ومررت أصابعي في خصلات شعره وقلت معاتبته:

" شعرك بحاجة إلى التقصير.. ولحيتك أصبحت بحاجة إلى التهذيب!... مثل أخلاقك تماما... هل تذكر يوم تعارفنا؟ غرزت في قلبي إحساسا غير مألوف فعلمت أنك مميز من يومها.. لم يتمكن إنسان من اختراق حصوني كما فعلت أنت، لم أقل كلمة أحبك من قبل لأحد سواك... أريدك أن تعلم فقط أنني... انفصلت عن مازن... فقلبي محتجز كرهينة عند شاب غيره يدعى يزن"

اكتشفت في هذه المرحلة أنني أبكي دون وعي، انحنيت قريبا منه ولثمته بقبلة على جبينه فلامست دمعة مني خده وبللته، فهميئ إلي أن جفني عينيه أجفلتا، هل فعلا حصل ذلك؟ أم أنني كنت أتخيل؟ انتهى الوقت المقرر للزيارة وسارت بي أمه إلى البهو، وبعد جدال طال أقنعتني بالعودة إلى البيت كي أستريح وأجدد طاقتي. فاستسلمت أخيرا لها ربما لأنني أفرغت جزءا من غمي بمخاطبته.

أوصلتني بسيارة العائلة إلى البيت وحاولت دعوتها لشرب فنجان قهوة لكنها أصرت على الرفض،
لأحصل على الراحة.

عندما دخلت البيت فوجئت بإيلينا ما تزال موجودة فأكدت لي أنها لن تغادر حتى تطمئن إلى
استقرار وضعي، ثم أفنعتاني بتناول الطعام لما لمحتنا علي من آثار الهزال، حدثتني أمي عن مجيء أم
مازن إلى البيت في غيابي لإنهاء كل ما تبقى من مسائل عالقة، وأوصلت لي استيائها على مشاعر
ابنها، فزاد سخطي من نفسي.

جلست في غرفتي أقلب شاشة هاتفي فوجدت مكالمات فائتة عديدة من زميلاتي وصديقاتي
بالأخص مكالمات عدة من هناء فاتصلت بها لأسرد عليها ما حصل، تفاجأت بمعرفتها الخبر
وسألتني عن أحوالي ووضع يزن فشرحت لها الوضع بتفاصيله متجنباً الحديث الذي دار بيني وبين
والده، فقد ارتأيت أن يبقى ذلك الحديث سرا بيني وبينه لاحتوائه على الكثير من الأمور الخصوصية
التي لا تهم أحداً غيري وغير يزن.

أرغمت على التوجه إلى المدرسة في اليوم التالي بسبب إلغاء زواجي فما عاد ثمة من داع للمضي في
إجازة الزواج حسب ما وضعه المدير لي، فذهبت إلى العمل بالرغم من رغبتني في الذهاب إلى
المشفى لأطمئن على يزن.

.....

كانت أم يزن تجلس بجانبه تقرأ آيات من كتاب الله بصوت مسموع لتضفي على قلبها الاطمئنان
والأمل، وحتى يسمع ابنها القرآن في وعيه الباطني. فجأة بدأ جفنا عينه يجفان وحرك إصبعه
فانتبهت أمه إلى حركته المفاجئة، نهضت مقربة منه تتطلع إليه بذهول وبترقب شديدين حتى
شعرت أنها فقدت القدرة على الكلام.

حاول أن يفتح عينيه بصعوبة، وبجهد تحركت شفتاه الجافتان ليقول بصوت جاف هزيل:

".. ليان"

ليان

تجنبت الجميع في المدرسة وبالأخص مازن الذي بدا أنه يختنق بكثرة الاطمئنان على أحواله من السائلين حوله. في نهاية اليوم الدراسي خطفت قدماي هربا من رؤية أحد أو إجابة الاستفسارات العالقة في نظراتهم الفضولية، فالتقت عيناى به يخرج من مكتبه فشعر بالارتباك وأبعد بصره عني، فغم على قلبي أكثر.

عدت إلى البيت منهكة ولم أجد إيلينا فأبلغتني أمي عن خروجها مع شادي لحاجة لهما، ثم توجهت نحو غرفتي وألقيت جسدي لأنام فترة الظهر كاملة، بعد أن أطفأت هاتفي حتى لا يزعجني أحد. استيقظت على صوت طرق عنيف على باب البيت، فجلست أحاول تذكر ما يحصل حولي، رأيت باب الغرفة يفتح بسرعة وتفاجأت بأمي تجري نحوي، أمسكت بيدي وقالت قبل أن أستطيع الاستيعاب:

" ليان هذا والد يزن ينتظرك في الخارج ! يزن.. يزن.. أفاق!!"

انتفضت واقفة بسرعة قبل أن أفكر وهممت بالجري عنده لكنها أمسكت بيدي بسرعة لتوقفني وقالت معاتبة:

" ليان! ستخرجين أمامه هكذا يا ابنتي؟ غطي رأسك وارتدي شيئا ساترا!"

تفقدت نفسي فتذكرت أنني أرتدي منامة ربيعية تكشف ذراعي، فالتقطت بسرعة بنظالا وقميصا أسود وألقيت حجابا على رأسي وخرجت نحوه بتلهف مميت، كان وجهه متهللا سعيدا وبدا واضحا عليه آثار البكاء بشدة. أوصلنا معه في السيارة وقلبي لا يتوقف عن الخفقان بشدة وعقلي لا يستطيع استيعاب صدمتي بعد! سألقاه مستيقظا الآن إنه مستيقظ هل أحلم؟ إذا كان حلما لا أريد الاستيقاظ.

وصلنا المشفى فترجلت من السيارة قبل أن يتمكن السائق من إيقافها في المصنف، وهرولت دون تفكير إلى الغرفة التي كان فيها ففوجئت بها فارغة، أصابني الذهول والإحباط وتخبطت في طريقي وأنا لا أعلم أين أذهب، حتى لمحت أباه وأمي من بعيد يبحثان عني فجريت نحوهما بسرعة لأسأل

عنه، علمت منه أنهم غيروا غرفة الإنعاش إلى غرفة أخرى ليستريح وبسبب زوال الخطر عنه، فسرت خلفه نحو غرفته الجديدة حتى وصلنا الباب.

طلب مني والده أن ألتقط أنفاسي أولاً قبل الدخول، فأدركت أن تعابير وجهي خانتني لتظهر أحاسيسي المتلهفة للقياء، أخذت نفساً عميقاً وسمحت لأبيه وأمي بالدخول قبلي وسمعتها تهنته على سلامته ليجيئني صوته الضعيف محملاً بآثار الشوق يرد عليها، تجرأت وخطوت إلى الداخل فلمحته...

كان مستلقياً شبه مغمض، التقت أبصارنا فلانت ملامحه وأشرق وجهه واتسعت ابتسامته المرهقة، فخفق قلبي أكثر له وتسارعت نبضاته. مشيت على مهل خوفاً من إصابتي بسكتة على أثر رؤيته مستيقظاً، مديده لي لأتقدم أكثر وهو يلفظ بنفس ثقيل متعب:

" تعالي! "

لم أحتمل أكثر وجريت نحوه أذرف الدمع ودون تفكير احتضنت رأسه وألقيت رأسي في صدره أبكي. سمعت الطبيب بجانبه يوبخني لأبتعد عنه لكن يزن أشار له ليتوقف، ثم ربت على ظهري ورأسي وأنا أبكي بحرقة فظيعة وعلا صوت نحبي حتى بت أجهش في البكاء، ثم ضحك بخفة وقال:

" حمقاء! توقفي عن البكاء فلست ميتا "

رفعت رأسي أنظر إليه فمد يده نحوي وأخذ يمسح دموعي بأصابعه الحارة وهو يتسم لي ابتسامته الساحرة. احتضنت وجهه بكفي يدي وتفرست في ملامحه ثم قال هامساً:

" كم تبدين حلوة في هذه اللحظة، ولولا الجمهور الذي يشهد علينا الآن لالتهمت السكر عن شفتيك "

سمعت تنحنحاً يأتي من خلفي، لأتفاجأ بوجود إيلينا وشادي في الغرفة وهي تنظر نحونا نظرة معاتبة، منذ متى وهما هنا؟ هل كانا موجودين أصلاً؟ كانت أمه أيضاً في الغرفة فتنبهت أخيراً

لكلامه المخرج فأبعدت يدي عن وجهه وخطوت إلى الخلف بحياء، ثم قلت وعيناي موجهة نحو الأرض:

"حمدا لله على سلامتك"

ازدادت ابتسامته ثم قال:

"سلمت لؤلؤتي!"

شعرت بالخجل يكتنفي ولمحت إيلينا تضحك بصمت على لقبه لي فشزرتها بعيني. طمأننا الطبيب إلى استقرار وضعه وأشار إليه بالراحة ريثما يتماثل للشفاء فهو يعاني من كسور عدة في أجزاء جسمه خصوصا ساقيه وأكد على حصوله على علاج طبيعي فور التئام كسوره، ثم ألح علينا ألا نطيل عليه بالزيارة حتى يرتاح، فهمم الجميع بالمغادرة لكنه استوقفنا قائلا:

"أريد من ليان أن تبقى قليلا"

نظرت نحوه أمه بقلق وحاولت إقناعه بالحديث معي لاحقا، ليكون الوقت مناسباً لذلك، فرفض وأصر على بقائي. أفتنهم شادي بتلبية رغبة صاحبه وقادهم خارجا. علق أبصاره بي عندما بقينا وحدنا وقال:

"اقتربي"

خفق قلبي بشدة وترددت قليلا، فألح بقوله:

"هيا يا ليان، سأحسن التصرف أعدك!"

تحركت نحوه مطيعة وقد ازددت خجلا، أشار إلي لأجلس على طرف السرير ففعلت بحذر شديد، مد يده وأمسك بكف يدي وقربها من صدره وتساءل بجديّة:

"هل صحيح أنك انفصلت عن مازن؟"

أومأت موافقة دون كلام، فتنهد بارتياح وتساءل من جديد:

"والآن؟ ما مخططاتك؟"

أومأت بكتفيّ بعدم علم وقلت:

" لم أفكر في شيء بعد.. كان همي منصبا على ... رجوعك سالما "

أخذ يداعب أصابعي بيده ثم قال متوجسا:

" أخاف إن ماطلت أن أندم... هل ستقبلين بالعودة إلي لو عرضت عليك نفسي من جديد؟ "

التفت إليه وأطلت النظر في عينيه الزرقاوين المتعبتين وقلت بألم:

" لقد جرحتني عميقا! "

فقال وقد بدأ الدمع يتجمع في عينيه:

" أعلم! لهذا استحققت العقاب... انظري إلى حالي.... لن أتمكن من الصمود إذا أصررت على البعد

عني... تزوجيني يا لؤلؤتي "

خانت دموعي تصنعي الصلابة لأبكي أمامه بإحساس ملتهب فمد يده الأخرى نحو وجهي وبدأ

يداعب شفتي بإصبعه وهمس قائلا متوسلا من جديد:

" تزوجيني يا حبيبة قلبي "

ضعفت لمشاعري تجاهه وأمسكت بوجهه بكلتا يدي ورميت وجهي عليه أقبله بشغف على شفتيه،

كان مصدوما في البداية لكن سرعان ما بادلني القبلة بإحساس قوي هامسالي في أثناء تقبيله لي

بحرارة:

" أحبك! "

قبلته على خديه واتكأ جيني على جبينه، ثم قال مازحا:

" قولي لي أنك وافقت على عرضي، لا تضعيني القبلة سدى جاهدت تعبي حتى أشعر بطعم شفتيك

المسكرتين "

ضحكت على كلامه، وفرحت لعودته لطبيعته السمججة، ثم هزرت رأسي وقلت بصوت متحشرج

بالك:

" أنا موافقة! "

اتسعت ابتسامته من جديد وبكى بشدة وجذبني بوهن نحو صدره ليحتضنني فشعرت بشيء يستيقظ في قلبي فور تذكري شعوري الجميل بين أحضانه، لم أكن بعد أعني مقدار اشتياقي إليه حتى هذه اللحظة التي شعرت بذراعيه تضمانني نحوه بقوة وهو يكابد تعبته. هتفت بغير وعي مني وسط دموعي:

" أعشقتك أيها الغبي! "

إيلينا

تكفل شادي بتعويض مازن ماديا بسبب إلغائه الزفاف ومع إصرار مازن ألا يأخذ قرشا إلا أن شادي أصر على فعل الصواب. تكفل كذلك بمصاريف سفر عمي ذهابا وإيابا حتى تستقر الأوضاع ويتم عقد قران ليان من يزن من جديد.

صدمت من خالي الذي أعلن لي عن سداد ديوننا منذ فترة بعيدة، ناسيا إطلاعنا على الأمر بسبب كل ما عشناه من أحداث، وإصرار الدائنين على عدم ذكر صاحب الخير الذي قام بالتكفل بسد جميع الديون، لكن خالي أصر على أن يعلم فذكر له أحد الدائنين اسم الشركة التي تكفلت بالديون دون التطرق للأسماء، لتتفاجأ بأن ديوننا تم سدادها من شركة الفردوس، فكان علي مواجهة شادي لأتأكد إذا كان هو أم عمي من سعى بذلك.

قدم إلى الغرفة بعد نهار طويل من السعي... من العمل.. إلى المشفى، ليطمئن على يزن.. إلى صفقات عمل. فقررت أن الوقت الآن أنسب وقت لسؤاله.

كان مستلقيا على الأريكة يريح جسده قبل أن ينهض لتغيير ملابسه، فاقتربت منه وجلست على الطاولة الصغيرة أمام الأريكة، شردت كثيرا حتى أجد طريقة أفاتحه في الموضوع، ويبدو أنه شعر بشيء يختلج صدري فسألني عن الخطب، تشجعت أخيرا وسألته:

" هل أنت من تكفل بسداد ديوننا؟ "

نظر نحوي بحدة وقال:

" أي واحد فيهم جاء على ذكر اسمي؟ لقد نبهت إلى سرية الأمر!"

لوحث له بيدي نافية وقلت:

" لم يأت أحد على ذكر اسمك فقط شككت بالأمر.... متى فعلت ذلك ولماذا؟ وكيف عرفت؟

أعني أنا... لم أبح بأي شيء!"

رفع بصره نحوي ثم أغمض عينيه من جديد ليكمل راحته وقال:

" منذ بداية زواجنا.."

فوجئت بالرد فلم أتوقع ذلك صراحة فأعدت سؤالاً ملحاً:

" لماذا؟"

أجابني بضيق:

" العفو لا داعي للشكر"

احمر وجهي خجلاً وأخذت أعقد أصابعي وأعتذر منه، نهضت جالسا، تنهدت متعباً وأمسك بيدي

وأردف:

" الطبع يغلب التطبع، يبدو أنني لن أستطيع تخليصك من هذه العادة.."

قرب يدي من شفتيه وقبّل أصابعي، نظر في عيني وقال:

" هل يعقل لرجل في مثل ثرائي أن يسكت عن ديون زوجته وأهلها؟ لم أتربى على التخلي عن

واجبي تجاه من يخصني، أما كيف عرفت فهذا شأنك"

فأجبت بإحراج:

" لكنك كنت..... تكرهني وقتها"

ابتسم ساخراً ورفع حاجبيه وقال:

" بشهادة من؟"

ثم نهض باتجاه الحمام وتركني وسط حيرتي، لم أفهم ما عناه بكلامه أبداً لكنه ترك أثراً عميقاً في

داخلي.

كبر حجم بطني قليلا ولم أعد أستطيع ارتداء ملابسني ذاتها لأنها ستفصح مظهري، فاضطرت لشراء قمصان جديدة بحيث تكون متسعة من الوسط وتخفي بطني الصغيرة. أخذني شادي إلى الطبيبة لمراقب نمو الجنين فبشرتنا بحملي بصبي، لم يكن ذات أهمية بالنسبة لي جنس المولود، ما كان مهما لي فقط أن يكون بصحة جيدة، أما شادي فتقبل الموضوع بصدر رحب رغم رغبته بحملي بفتاة حتى يريها لتكون مثلي كما أوضح. فشعرت أكثر بتقبلي له، هل يعني ذلك أنه يحبني؟ شخصيته وبرودته لا تعطي الانطباع عن قابليته لتقبلي شعور الحب لأحد، حتى أنني أستغرب كثيرا محبته ليزن، ففي السابق حطم قلب فارس غير مكترث له، فكنت أظنه يعاني من السادية أو ما شابه.

تقريبه مني، حرصه علي، لمسائه لي تؤكد شكوكي بحبه الموجه إلي.. أو أنه يلامسني لمجرد متعته فقط، لا أدري! فهو لم يبوح لي يوما بكلمة (أحبك)، أنا فقط أرى أفعالا منه، ومع ذلك فهو رجل نبيل وقد لا تكون أفعاله نابعة من الحب بقدر نبعها من الاحترام؟

عدت إلى البيت في سيارة الشركة من جديد بسبب زيارة شادي ليزن في المشفى، تفاجأت بالسيدة انتصار تستقبل ضيوفا، كانت تجلس امرأة أنيقة على الأريكة الكبيرة وبجانبتها فتاة حسناء ذات شعر بني متموج وعينين عسليتين وبشرة صافية، كانت ترتدي فستانا أخضر اللون يكشف عن جمال ساقها ولها جسد جميل منحوت، بدأت أشعر بناقوس الخطر يدق في قلبي وبالغيرة تجتاح أوصالي. سرت حتى وصلت إليهن، عندما لمحنتي أمرتني أن ألقى التحية عليها ففعلت من باب الأدب، ثم قالت بكل وقاحة:

"أعرفك يا إيلينا إلى ضرتك الجديدة فأحسني معاملتها"

شحب وجهي بشدة ونظرت نحوها كالمغدورة ثم قلت متسائلة حتى أتأكد مما سمعت:

"نعم؟"

فأعادت كلامها لتضيف عليه:

" هذه الأنسة التي ستصبح السيدة، تدعى قمر، ستغدو زوجة لشادي، فقد اتفقنا على كل شيء ولم يتبق إلا الزفاف "

اصفر واخضر وجهي وتغيرت ألوانه أكثر من مرة وأنا أحاول استيعاب صدمتي فسألت ببلاهة مجددا:

" اتفقتم على ماذا؟ هل شادي يعلم بـ... "

فقاطعتني بقولها:

" طبعا يعلم! كان يرفض الفكرة بشدة مؤخرا حتى وقعت عيني على هذه الحسنة، وعندما رأى صورها فرح بها كثيرا وأبدى موافقته، هل نسي أن يخبرك؟ لا بد أنه انشغل بيزن! اتفقنا على المهر وأمور الزواج وكل شيء! ولأن المسكين كان منشغلا كثيرا في الآونة الأخيرة فقد سلمني زمام الأمور... طبعا ستبيت في الغرفة الغربية فهي أكبر غرفة في البيت ولا تخافي غرفتك ستبقى لك بناء على طلب شادي. "

شعرت برغبة في التقيؤ، لكن هذه المرة لم يكن السبب من الحمل، هممت بالابتعاد عنهن وسرت باتجاه المطبخ لألتقط أنفاسي ففوجئت بشادي يدخل البيت، نظر نحوي مبتسما لكن ابتسامته تلاشت عندما لمح ضيقي الظاهر على وجهي.

.....

استأذنت الأنسة قمر للذهاب إلى الحمام للتأكد من وضع مساحيق التجميل حتى تظهر بأبهى صورة أمام عريس الأحلام الذي طالما تمنته زوجها لها، ذهبت حيث أشارت إليها السيدة هالة لكنها لمحت طيفا من بعيد وسمعت همهمات غريبة، فالتجهدت نحو مصدر الأصوات في البهو الصغير وأخذت تراقب من خلف أحد الأعمدة.

إيلينا

تقدم مني شادي ومد يده ليلمس وجهي حتى يتأكد من الخطب الذي ألم بي فصفعت يده بعيدا مما أصابه بالذهول، نظرت نحوه بمقت وقلت:

" كيف طاوعك قلبك أن تفعل هذا بي؟ "

قطب حاجبيه مستغربا وسأل بنفاد صبر:

" إيلينا أنت تعلمين أنني متعب، فادخلي في صلب الموضوع لو سمحت "

هبيت به فجأة غير مكترثة لجرأة كلامي:

" أنت غشاش ولا تستحق أن تلمس ظفرا مني أو منه... كنت أعلم أنك تبحث عن ذات الجمال والجاه! وطبعا لا جاه لي، وجمالي بدأ يخفت بسبب ما أعانيه الآن من تغيرات هرمونية، قلت لنفسك

أريد جسدا رشيقا حتى أحصل على متعتي منه "

علت نبرته علي محتدا:

" عم تتكلمين هل بدأت تهدين؟ ما خطبك؟ "

صرخت به بدوري:

" أتكلم عن الأنسة قمر أو دعني أقول السيدة قمر! "

ضيق عينيه بحيرة وقال يحدث نفسه:

" من هذه؟ أشعر انني سمعت باسمها قبل الآن لكن أين؟ "

ضربته على صدره بقبضة يدي فتأوه موجوعا، وقلت باكية:

" لا تحاول تصنع الغباء! فقد اتفقتم على كل شيء من مهر ومتاع وشكرا لك على كرمك في تركي

أبقى في غرفتي! "

أمسك قبضة يدي التي ضربته بها وقال مهددا:

" إذا لم تهدئي وتشرحي لي ما ألم بك.. "

فقاطعته صارخة:

" ماذا؟ ستطلقني؟ ستصنع لي معروفا بذلك! اذهب وتزوجها واقض سعادتك معها، ودع إيلينا النكرة بعيدة عنك! أنا تعبت ولم يعد بي طاقة لأجاري تقلب أهوائك!"

رفع حاجبيه وسقط فمه ذهولا ثم قال:

" أتزوج من؟"

ثم سكت قليلا كأنه فهم الموضوع وأغمض عينيه وزفر بحنق، ثم مرر أصابعه في خصلات شعره الكستنائي ممتعضا وأظلمت عيناه الرماديتين بغضب وقال:

" هذه أمي لن تهدأ حتى تتسبب لي بنوبة قلبية!"

أمسك بيديّ بحزم ثم نظر في وجهي وقال بصوت قوي:

" اسمعي، هذه خرافات من أمي! وأيا ما هذرت به أمامك فهو كذب! أنا لن أتزوج يا إيلينا! لدي

بالفعل زوجة وأنتظر منها مولودي! فكيف لي أن أتزوج بأخرى يا حمقاء؟ عندما امتنعت عن

معاشرتك سابقا كنت أرفض فكرة الزواج بأخرى، والآن بعد أن كوّننا عالمنا السري الجميل تظنين

أنني سأتزوج عليك؟ مجنونة!"

سحبت إحدى يدي من قبضته ومسحت دموعي بها وقلت:

" أنت لن تتزوج؟ أكيد؟! إذا فعلتها أقسم أنك لن ترى ابنك وسأرحل إلى بلد آخر لا يعرفني فيه

أحد لأحرمك منه"

ابتسم ساخرا واقترب مني ووضع يده على بطني ونظر نحوه وقال يخاطب الطفل:

" أسمعت أمك المجنونة؟ تظن أنني أفكر بالارتباط بغيرها، غبية صحيح؟"

ابتسمت وسط دموعي على مزحته، ثم جذبني إلى صدره محتضنا، وقتها شعرنا بخيال أحدهم يظهر

من خلف أحد الأعمدة في الصالة... التفت كلانا مصدوما نحو العمود لنلمح الأنسة قمر تنظر

إلينا مشدوهة مذهولة كأنها نالت صفة على وجهها. استدارت بسرعة وركضت باتجاه الصالة،

أخذ منا الموضوع بضع ثوان لندرك فداحة الخطب فجرى شادي خلفها يناديها للتوقف وجريت

بدوري خلفه.

ما إن وصلنا حتى سمعتها تصرخ وتبكي لأمها:

"أريد العودة إلى البيت خذيني من هنا!!!"

هتف شادي فجأة ليهدئها:

"يا آنسة أرجوك اهدئي!"

نظرت أمها إليها مرتعبة على ابنتها وسألتها عن الخطب الذي ألم بها فبكت صارخة:

"زوجته حامل يا أمي!"

لطمت أمها صدرها ووجهت استفسارها للسيدة انتصار على شكل هجوم قبل أن يستوعب أحد شيئاً:

"كذبتم علينا؟! قلت لنا أن زوجته لم تكن شريفة حينما تزوجها وتم غشه فيها ومن كرم أخلاقه لم

يطلقها، ومع ذلك لا تسمح له بالاقتراب منها وتعامله بإجحاف وكل ما يهمها المال! أنت

أوضحت لي أن الحياة بينهما لا جدوى منها وأسرّ لك أنه سيطلقها كي يتزوج ابنتي... كل ذلك كان

كذبا؟ زوجته حامل!!!! كيف لها أن تحمل إذا لم يلمسها؟!!!"

شحب وجهي من جديد وتفاجأت بديمة ومايا تطلان من الطابق الثاني كأنهما قدمتا على صوت

صراخ الفتاة. شعرت بالدنيا تدور من حولي وحاولت الحفاظ على توازني، لكن شعور التقيؤ ازداد

لدي، فصرخت أمه غير مصدقة:

"بم تهذين يا حبيبتني؟ ابني لم يمسه نهائياً! هذه البائسة دون شرف!"

صنعت مايا فمها مصدومة وشهقت بصوت عال، أما أنا فأخذ العرق يتصبب مني فصرخت الفتاة

بدورها:

"سمعتها يتحدثان ويؤكد لها عدم رغبته بالزواج! قلت لنا أنه موافق وأوكلك بالتحدث في أمور

المهر والتجهيز للزفاف!!!"

نظرت أم الفتاة نحو السيدة انتصار بحنق وقالت محتدة:

"هل كلام ابنتي صحيح؟! ابنك يمارس حياته بشكل طبيعي معها؟!"

صرخت السيدة انتصار:

"كلا أبدا ابنة الحي الشرقي القذرة ليست حاملا من ابني لا بد أنها أقدمت على الفاحشة!!! مع من

أيتها الساقطة؟ ها؟ مع أمجد؟ أم مع فارس؟ أم يوجد رجل جديد في حياتك؟"

بكيته قهرا من اتهاماتها وقبل أن أفتح فمي صرخ شادي بصوت جليجل جدران القصر كاملة:

"هذا يكفي يا أمي كفى!!!! لم يلمسها أي منها! لم يلمسها بشر قط غيري!"

أجتم الجميع عن الكلام ليحل الذهول مقيما على وجوههم، ثم تأتأت وهي تحاول التقاط أنفاسها

المذعورة:

"بني هي ... ليست حاملا منك... صحيح؟؟ أنت لم تلمسها... ألم يكن ذلك اتفاقنا؟"

أغمض عينيه ودعك وجهه بيده ثم زجر باستياء وقال:

"لا أعرف كيف تفكرين! حقا! جمعني مع فتاة فاتنة في غرفة واحدة لأراقبها في نومها أو وهي

تسرح شعرها الحريري الذي يسلب العقول، أو عندما أراها تسجد لله في صلاتها فتهاجم غفلتي

وتشدني إليها بطيبتها وعفافها وطهرها و... حياتها! هطلت قطرات الغيث في غرفتي منذ أشهر

دون أن أستطيع أن أتلذذ بدفئها! حرمتني منها علما أنها حلالي! ولا تريدني لمشاعري أن تتحرك؟

لقد تعذبت فترة طويلة!! وتعبت حتى وصلت إلى نهاية مسدودة"

اتسعت دهشتها من كلامه، ثم نظر نحوها بحدة وأضاف:

"خدعتيني وقلت أنها مارست الفسق مع فارس، ثم اكتشفت أنها عذراء!! هل تعرفين شعوري

وقتها! عندما أكتشف أنني تزوجتها طاهرة؟ لم أقاوم بصراحة! سامحيني أنا رجل لي رغباتي ولست

آلة"

خانتها دموعها لتسكب من مقلتيها كجيش من الألم، ثم قالت بصوت متقطع مرير:

"منذ... منذ متى وهي.... حامل؟"

أجاب وهو يتفادى النظر إليها:

"إنها في الشهر الرابع الآن."

من شدة ذهولها لم تستطع الوقوف فترة طويلة فاتكأت على الأريكة وجلست كالمشلولة تحاول
استيعاب صدمتها، أما البقية فكنّ ملجومات من الصدمة. ثم أضاف ليفاجأ الجميع بمن فيهم أنا:
"بما أن الموضوع خرج للعلن وما عاد من داع لإخفاء الأسرار سأعترف لك بأمر آخر.... لم أرخص
لرغباتي إلا لسبب آخر... فقد رغبت بالزواج منها قبل عرض والدي الموضوع"
التفت نحوه وقد خطفني الدهول فالتقممتني عيناه اللامعتان، وقال مثبتاً نظراته علي:
"ذاك اليوم عندما دخلت هي مكتبي.. حائرة.. خائفة.. تعقد أصابعها بخوف، وترتدي عباءتها
البالية وشالها الأسود الذي يظهر بياض وجهها، بملامحها الخجولة الوقورة، دخلت قلبي وقتها...
رأيت فيها ما لم أراه في غيرها، أعجبت بها.. وزاد افتناني بها مع كل مرة ألقاها، حتى فاجأني ذاك
الأحمق فارس برغبته بالارتباط بها.... فغضبت وبغضته من لحظتها لأنني وقعت في حبها أولاً
وأردتها لي!"

شهقت أمه بقوة كأنها تلفظ أنفاسها فالتفت نحوها من جديد وقال:

"نعم أمي عندما زوجتني بها قبلت بداعي حبي لها"

الفصل التاسع والأربعون

ساد الصمت على الجميع بمن فيهم أنا، ما زال لكلماته صدى يرّ متقافزا بين الجدران، كان أول من تكلم والدة الأنسة قمر بسؤالها لتتأكد مما يجري حولها:

" دعني أفهم جيدا.... علاقتك بزوجتك جيدة؟ وهي حامل منك أنت؟.. وهي لم ... "

قبل أن تستطيع إكمال وابل أسئلتها أجابها وهو يوجه نظرات محتدة نحو أمه قائلاً:

" زوجتي عفيفة طاهرة وتربت على الأخلاق ولا عيب فيها، ونعم هي حامل بطفلي ... وكل

الالتهامات التي قذفتها بها أمي فهي باطلة لا صحة فيها"

نظرت المرأة نحو السيدة انتصار كمن خاب ظنها فيها وسألتهما بحنق:

" لماذا تشوهين سمعة الفتاة ما دامت شريفة كما يصفها ابنك؟"

فأجاب شادي عنها:

" لأنها جاءت من عائلة فقيرة ولا تنتمي لطبقتنا الاجتماعية، لهذا ازدرتها وعاملتها بفوقية"

هزت المرأة رأسها بعدم رضا وهتفت لابنتها لتمضي معها لتخرج من هنا وهي تنظر نحو السيدة

انتصار باحتقار وقالت:

" من لديها الجرأة في الخوض بعرض زوجة ابنها الوحيد، وقذفها بما ليس فيها وما لا يليق فهي امرأة

لا تؤمن على أعراض بنات العالم!"

أجهشت السيدة انتصار ببكاء مرير ثم وقفت بانفعال شديد لتصرخ بابنها متجاهلة كل من حولها:

" أنت خائن، خنت ثقتي بك!! تلك البائسة سحرتك كما سحرت والدك!!"

أجابها بنبرة هادئة لتغتاظ أكثر:

" نعم سحرتني... بطيب أخلاقها... بحيائها... أصحو في جوف الليل فأراها تصلي ركعتين لله!

تؤدي فروضها، تحافظ على وردها... لو أنك ربيت بناتك مثلها لما كانت مايا الآن تعاني في زواجها"

لمحت مايا من بعيد تشيح بصرها بإحراج وضيق، ثم تقدم نحوي فأعدت انتباهي إليه أمسك بيدي ونظر في عيني وقال:

" كنت أحلم.. بمن يرشد روعي إلى مسربها الصحيح.... لم أطمح لفتاة مولودة بملعقة ذهبية في فمها.. أحلامي بسيطة... أردت طهارة القلب فقط... فوجدت فيها الجمال والنقاء وطيب الأخلاق وأهم من كل هذا... الحياء!"

كست الحمرة كل وجهي ومن شدة ذهولي بكلامه لم أستطع الرد! من أين جاءت كل هذه المشاعر؟ كيف استطاع كتبها كل هذه الفترة؟ تزوجني وهو راغب بي؟ أحبني رغم تشويه أمه لصورتي؟ لهذا كان يتصرف أحيانا تصرفات غريبة أو يقول كلاما غير مفهوم؟... عادت بي ذاكرتي إلى حيث كنت عزباء وطلبني إلى مكتبه ليسألني عن علاقتي بفارس وتلك الجملة الغريبة التي نطق بها ولم أفهم مغزاها في ذلك الوقت حيث قال: (انظري جيدا في اختياراتك في الحياة قبل إقدامك على أي خطوة)

هل كان يعني أن أنتبه إليه لا لفارس؟ لماذا لم يواجهني صراحة بمشاعره بدل اللف والدوران؟ لماذا اختار أن يكابد كل هذا الضيق والقهر؟ أخرجتني السيدة انتصار من فقاعة أفكار بصوتها المجروح الباكي وقالت وهي تنظر نحوي بحقد:

" لن أعترف بهذا الطفل كحفيد لي أبدا!!!"

شعرت بكلماتها تتردد كالصدى في أذني، وغادرت متجهة نحو السلام تجري مبتعدة، سألت من عيني الدموع من كلامها الجارح لي، فتركت يد شادي واتجهت نحو الغرفة. بقي واقفا كالحائر لا يدري بمن يلحق، أمه أم أنا...

مررت من جانب مايا وديمة، فتجنبت مايا النظر إلي محرجة أما ديمة اقتربت مني وربتت على بطني والدمع في عينيها وقالت:

" ينمو طفل بديع هنا وتخفين ذلك عني؟ كم أنا سعيدة من أجلك!"

ابتسمت لها بصدق لكن ابتسامتي لم تدم فمصارحة السيدة انتصار بكره هذا الطفل لأنه ينمو داخلي خلق لدي شعورا بمرار أليم.

تركتها ودخلت غرفتي وجلست على الأريكة، فتح الباب الباب على مهل، وسمعت خطى وقع أقدام تقترب حتى وصل محاذاتي. جلس إلى جانبي صامتا، فقطعت الصمت بعد برهة أسأله:

" هل ... عنيت كلامك الذي بحت به قبل قليل؟"

أخرج أنفاسا مثقلة بتزفيرة متقطعة، ثم قال:

" أنت حقا إما غبية أو قليلة خبرة في الحياة."

عقدت أصابعي في ضيق و حرج، فاقترب مني أكثر، أمسك وجهي بكلتا يديه ليوجه أنظاري إليه ثم قال:

" لم أو من بالحب يوما، لكن وجودك في حياتي قلب كياني... لأول مرة سأنطق بهذه الكلمة طوال

ثمان وعشرين سنة مضت من عمري.. إيلينا أنا أحبك!"

تورد قلبي من أثر كلامه وتمعنت في ملامحه أكثر، ثم وجدت نفسي أردد دون وعي:

" وأنا أيضا أحبك يا شادي!"

ابتسم بود وقرب رأسه مني وقبلني على شفتي قبلة حارة بدأت بإذابة حواجزي وامتدت يداه

يتحسس خصري، ثم قطع القبلة وهمس قريبا مني:

" ردا على كلامك السابق في البهو فما زلت تتمتعين بإطلالة بديعة"

احمرت وجنتاي خجلا وضعت بين كلماتي، مسح على بطني بلمسة حريرية، ثم قال:

"في كل مرحلة من حملك سآزداد حبا ورغبة بك، في كل لحظة تمر على بطنك لتصبح أكبر سأعشق

إطلالتك، يكفيك شرفا أنك تقومين بأمانة عظيمة برعايتك لمخلوق يجيا بنبضات قلبك"

طوقت رقبتة بذراعِي ولثمت شفتيه بقبلة فاجأته، وسرعان ما أظهر قبوله لي فاحتضني مقبلا الدمع

على خدي، هامسا في أذني ألحان العشق اللامتناهي...

وقف يجفف شعره المبلل ريشاً أرثدي ملاسبي، اتفقنا أن يأخذني إلى بيت أمي لأبقى بعيدة عن أمه قليلاً حتى يعود عمي من السفر تجنباً لصب سخطها علي.
وصلت إلى بيت أمي لأزف لها ولأختي خبر حملي، استقبلتنا الخبر بصدمة أولاً، ثم بفرحة، ثم عتاب بسبب إخفائي الموضوع كل هذه الفترة، وأصررتا على الاحتفال بجو عائلي معاً على هذا الخبر السعيد.

علمت من ليان أن صحة يزن في تحسن مستمر وسيبدأ العلاج الطبيعي ابتداءً من نهاية الأسبوع القادم على أقل تقدير. وأعلنت أنه فور انتهاء علاجه سيتزوجان. كنت سعيدة جداً من أجلها، وسعدت أكثر عندما ذكرت أن مشاعر السيد هاني تغيرت نحوها وتحمس لعودتها لابنه، وأنه اعتذر إليها ووعداً بأن يعوضها جراً جرائمه بها.

.....

تفاجأ كل من في القصر بعودة السيد هشام من السفر، فهو لم يبلغ أحداً بموعد عودته، سألتها السيدة هالة وهي تحمل سترته بزته عنه:

"هل عدت لتوك من السفر يا سيدي؟"

تنهد متعباً ثم أجاب:

"كلا لقد مررت بيزن حتى أطمئن عليه، لو قيل لي منذ البداية عما حل به لعدت من فوري، حمد الله على سلامة حاله"

ثم أمر بتجهيز العشاء وتواجد الجميع على المائدة.

دخل إلى الغرفة بعدما استحم وغير ملابسه وجلس على كرسيه المعتاد، تأمل في وجوه الجالسين فاستشعر خطباً ما، التفت نحو شادي متسائلاً بقوله:

"هل إيلينا نائمة؟ اذهب وأيقظها وأعلمها بعودتي حتى تتناول العشاء معنا"

تبادل النظرات مع أخته ثم زفر بضيق قائلاً:

"إنها عند أمها"

ظهر الدهول على وجهه وقال:

"أليس موعد زيارتها لها نهاية الأسبوع؟"

حل الصمت على الجميع وساد جو مكهرب في المكان، فلم يشعر السيد هشام بالراحة، تفرس في وجوه الجميع ثم سألمهم بحدثة عم حصل في غيابه، كان أول من استسلم هي ديمة فقالت:

"إيلينا حامل! هي عند أمها لتتقل لها الخبر"

حدج شادي أخته بنظرة قاتلة بينما هي لم تعبأ له، أما السيد هشام فقد ألجمت الصدمة لسانه وتفكيره للحظات ليقول أخيرا:

"إيلينا حامل؟ حامل ... بحفيدي؟!"

سرعان ما تهلل وجهه سعيدا ونهض مسرعا نحو ابنه يحتضنه بقوة وهو يلومه على عدم إخباره بهذا الخبر فور وصوله، ثم أضاف:

"كم مر على حملها؟ يجب أن نأخذها إلى طبيبة ماهرة لتعتني بحملها جيدا أعيدوها إلى هنا لأحتفل بها"

أجابت ديمة وقد بدأت تشعر بالاستمتاع بتعذيب شادي وأمها قليلا:

"إنها في الشهر الرابع يا أبي"

شزرتها مايا هذه المرة، أما السيد هشام فقد شل تفكيره على أثر الصدمة، فنظر نحو ابنه مطولا وقال:

"لماذا أخفيتما الحمل كل هذه المدة؟"

أمسك بجسر أنفه بإصبعيه وأغلق عينيه متجنباً النظر في وجه أبيه قائلاً وقد وجد كذبة بسرعة:

"خشينا ألا يكتمل حملها في الثلاث شهور التي مضت بسبب كونه ضعيفا، فارتأينا الانتظار حتى

يثبت الحمل"

فتدخلت ديمة قائلة بتحد:

"لا ليس صحيحا، بل لأنكما خفتما من ردة فعل أمي!"

اصفر وجه السيدة انتصار رعبا وتغيرت ملامح السيد هشام، نظر شادي نحو أخته مهددا.
جلس السيد هشام مكانه من جديد ثم أمر برفع مائدة الطعام وقال وعيناه مسلطتان على زوجته:
" لن تناول العشاء إلا عند عودة إيلينا لنجتمع معا كعائلة.... شادي انطلق وأعد زوجتك إلى
البيت!"

نظر شادي نحوه مترددا فأعاد عليه الأمر ملحا ليحضرها، فنهض طائعا واتجه نحو الخارج ليعيد
إيلينا إلى البيت.

إيلينا

" لماذا يا بني؟ أبقها عندنا الليلة وغدا دعها تعود معك"

تساءلت أمي بينما تشعر بالامتعاض من عودتي إلى القصر وهي تحتفل بخبر حملي، فتدخلت أخيرا
بينها وطمأنتها إلى أنني سأزورها في نهاية الأسبوع لنحتفل سووية. وهكذا عدت إلى البيت برفقة
شادي.

استقبلني عمي في الأحضان وقبل رأسي باكيا، ودعاني بتعام الحمل وقيامي سالمة. جلست على مائدة
العشاء بينهم وأخذ يطرح علي أسئلة عن صحة الجنين ووزنه وجنسه وإذا ما كنت أعاني من أي
تعب أو ما شابه ثم قرر معلنا فجأة:

" ستركين العمل وتبقين في البيت، سأوفر لك سبل الاستجمام والراحة! المهم أن تريح نفسك
جيذا"

اعترضت بشدة في البداية حتى طغت كلمته علي ووعدني بأن يتكفل بمصاريف أمي كاملة، إن كان
هذا سبب تعلقني بالوظيفة، كان حازما في رده ولم يترك لي مجالا للمناقشة، فاستسلمت في النهاية
لرغبته كارهة، ثم خطرت سارة في بالي وصعب علي فراقها.
في صدد تناولنا للعشاء أعلنت مايا فجأة قرارها الجديد بدورها لتصعقنا جميعا بقولها:

" ابتداء من الغد سأنتقل إلى بيت أهل أجد"

أوقعت السيدة انتصار شوكتها من يدها مصعوقة بالخبر، أما البقية فران الصمت عليهم، قالت السيدة انتصار بشيء من الاختناق في نبرتها:

" ماذا قلت يا ابنتي؟ لماذا؟ "

نظرت مايا نحو أمها بأسف شديد وقالت:

" كلام شادي اليوم فتح عيني على كثير من الأخطاء في حياتي، وجريي خلف كلامك وتدخلاتك دمر حياتي الزوجية، كما كدت تدمرين حياة أخي... لذا اتصلت بأجد اليوم وأعلمته عن رغبتني في البدء من جديد لنعيد إلى حياتنا دفء العلاقة الزوجية التي خسرتها... أنا آسفة يا أمي هذا واجبي تجاه بيتي... زوجي وأولادي "

فقالت أمها معترضة:

" حسنا امكثي أسبوعا عندهم وأسبوعا عندي وهكذا "

هزت رأسها معترضة بشدة وقالت بحزم:

" ساحميني يا أمي! لا أستطيع! هكذا سيتشتت طفلاي أكثر! سأمكث عندهم حتى ينتهي إصلاح بيتنا "

انهمرت دموع السيدة انتصار من عينيها وبكت بصمت بينما شجع عمي ابنته بنبرة حزينة على فعل الصواب للحفاظ على زواجها، أما شادي فكان يطالع ما حوله بصمت وغموض كعادته، ثم نهضت ديمة قائلة بعنفوان:

" يا الله! بما أنها ليلة اعترافات وقرارات فسأعترف أنا بدوري! أنا سعيدة لأن عرس ليان تم إلغاؤه! فأنا أحب مازن منذ سبع سنين مضت! "

تشرذقت في الحساء وأخذت أسعل دون توقف حتى خشي علي شادي وعمي وانتفض الجميع حولي، ثم ما لبثت أن هدأت. نظر عمي وكذلك شادي نحو ديمة نظرات مشتتة ثم قال شادي بسخط:

" ماذا قلت يا قليلة التربية؟ "

أجابت وهي تتصنع الصلابة:

" نعم أحبه، عندما كنت أزور مايا في بيتها كنت أسعى لرؤيته ولو مرة "

نهض عمي بسرعة باتجاهها ليضربها فوقفت مايا أمامه تتوسله أن يهدأ، وانقضضت نحوها دون تفكير أحتضنها لأدراً عنها غضب أبيها وأخيها الذي أمسكت به أمه حينها هب كالمجنون ليأدب أخته.

خطفتهما بسرعة معي وجريت بها نحو غرفتها، ما إن أغلقت الباب وأوصدته حتى صرخت بها:
" ماذا أصابك أيتها المجنونة، ما هذا الهراء الذين كنت تبوحين به؟ "
فقال بحنق:

" مشاعري ليست هراء "

اقتربت منها وجلست بجانبها على السرير واعتذرت لها مبينة خوفاً عليها، نظرت من خلال النافذة وقالت:

" عندما رأيته لأول مرة كنت قد بدأت فترة مراهقتي كنت في الثالثة عشر، أعجبت به بمظهره الوسيم وخفة دمه وهو يمزح ويضحك مع أمجد عندما كانا يجتمعان معا في حديقة البيت بينما كنت أراقبها من نافذة المطبخ أتظاهر بمساعدة مايا في تحضير الضيافة.... كبرت وزاد تفكيري به وشاركت صديقاتي مشاعري تجاهه، فتحمسن لكوني أحب شابا أكبر سنا من زملائي من الطلبة الذكور، ثم شجعني على عرض مشاعري له، كنت في السابعة عشر حينها "
زمت شفيتها بضيق ثم قالت:

" تحينت الفرصة المناسبة لإخباره في إحدى زياراتي الكثيرة لبيت أختي، وذلك عند انشغال أمجد ومايا بطفليهما فاتجهت نحوه إلى مجلسه مع أمجد في الحديقة وبدأت بسؤاله عن الحال وهكذا.. كان خجولا يتجنب النظر في عيني... ثم عرضت عليه مشاعري نحوه.... أتعلمين ماذا فعل؟ "
خفق قلبي بانتظار بوحها ثم قالت بأسف:

" رفض رفض بسبب معاناة أمجد مع أمني وبسبب الفارق في العمر بيننا... شعرت بالسخط يومها وحطم قلبي. وتوقفت فجأة عن زيارة بيت أختي "

شعرت بالأسف نحوها أعلم أنني لم أجرب شعور الحب من طرف واحد لكن ليان جربته وكان مؤلماً جداً، رق قلبي لها وبدأت أواسيها، فمسحت دموعها وهي تبتسم قائلة:

" مرت ثلاث سنين على الحادث تخطيت جرحي تجاهه، ثم أنني شعرت بالنصر عند تحطيم قلبه من ليان فهذا جزاؤه!"

مسكينة وتفكيرها بسيط، أحياناً أشعر أنها طفلة! طلبت منها ألا تغادر الغرفة ريثما أهدئ غضب شادي عليها.

تركنتها ومضيت أبحث عن شادي فعلمت من السيدة هالة أنه في الصالة الرياضية، فنزلت إليه، وجدته هناك مستلقياً على آلة رفع الأثقال ويقوم برفعها ووجهه محمر، عندما استشعر وجودي نهض جالساً وأمسك بمنشفته ليمسح العرق عن وجهه ورقبته، ثم شتم أخته وهدد بتأديبها. طلبت منه أن يهدأ وينسى ما قالت فهي لم تقترف ذنباً ولم تواعد مازن حتى يؤدبها هو أو أبوه، ثم قلت له:

" لا يمكنك ضربها على مشاعرها فالمشاعر لا يتم التحكم بها! المهم أنها لم تتجه للطريق الخاطئ معه أو مع غيره.. بالعكس احمد الله أنها أحبت مازن وليس شخصاً غيره فهو شاب مهذب وحسن السلوك، ولن يفكر في استغلال فتاة مراهقة، لو كان غيره لاستغل مشاعرها"

نفخ بضيق ووضع يده على صدره وقال:

" هذه البنت ستسبب لي جلطة! عندي هموم الدنيا في كفة وديمة وطيشها المستمر في كفة! وتلك أمني لا يهتمها ما تفعله بأعراض الناس ولا تحسب حساباً أن لها ابنة وقد ترتد أفعالها بالسوء عليها!

هل تشعرين بمدى قلقي عليها؟"

ربت على كتفه لعله يهدأ قليلاً، لكنه كان منزعاً جداً فأثرت تركه يمارس تمارينه الرياضية لينفس غضبه من خلالها وجلست أراقبه من بعيد.

في صباح اليوم التالي نزلت إلى الطابق الأرضي لأتفقد النباتات وأسقيها فوجدت مايا تجلس في الصلاة وحوها الكثير من الحقائب، التقت نظراتنا ونهضت واقفة تواجهني. شعرت بالارتباك وهممت بالتراجع لكنها أوقفتني وطلبت مني أن أستمع إليها.

وقفت مكاني فاقتربت مني وقالت لي:

" كنت أنتظرك لم أشأ الرحيل دون أن أكلمك "

تحاشيت النظر إليها، سكتت قليلا ثم قالت:

" أنا آسفة على ما عانيته بسبب أُمي! لقد عانى منها أيضا طيلة السنين الأحد عشر التي عشناها سوياً "

رفعت بصري نحوها ثم أضافت:

" أنا لا أستطيع أن أبقى غاضبة منك فأنت لم يكن لك علم بزواجه حينها... لكن تخليك عنه - بينما

تطورت مشاعرك تجاهه - من أجلي يدل على عظمة قلبك ونقائك، ساحيني على ما عانيته بسببنا لم

أكن أعلم كم تعذبت في هذا البيت إلا مؤخرًا... أنت تستحقين الاحترام والتقدير والسعادة "

ارتسمت على شفيتها ابتسامة دافئة ومدت ذراعها لي فرميت نفسي بين أحضانها وبكيت

واستسلمت هي أيضا لدموعها، ثم نادى على ماسة وجاد من أعلى السلام قائلة:

" جاد! ماسة! هيا تعالا ودعا خالتكما إيلينا! "

خفق قلبي بشدة فقد مرت فترة طويلة على تجنبها التكلم معي، ثم ما لبثت أن لمحتها يجريان بسرعة

ينزلان السلام نحوي فكان جاد أول من وصل، وألقى نفسه في حجري يحتضنني وانضمت إليه

ماسة وأخذا يبكيان اشتياقا ثم تلفظت ماسة قائلة:

" نحن نحبك يا خالة إيلينا! "

فأجبتها على الفور:

" أحبكما أكثر يا صغيري! وأعدكما أن أزوركما دائما عندما تستقرون في بيتكم لتتسلوا مع هشام! "

نظرت نحوي مايا متسائلة فقال ابنها معاتباً:

" عيب يا خالة أن تنادي جدي باسمه هكذا"

فضحكت وقلت:

" لا يا أبله، بل ابني هشام!"

ضحكت ماسة وأشارت نحو أخيها بتشف واضح، أما مايا فابتسمت قائلة:

" هشام؟ ستسمين الطفل على اسم أبي؟"

ابتسمت بدفء لها وقلت والدموع تتجمع في عيني:

" أنت لا تعلمين كم يعني لي.... لم يؤازرنني أو يقف بجانبي شخص كما فعل، لذا نعم سأسمي ابني

تيمنا به عله يغدو مثله عندما يكبر"

احتضنتني من جديد وقبلتني على رأسي. ثم كلفت الخدم بحمل حقائبها وغادرت بعدما ودعت

جميع أفراد العائلة بالأخص أمها التي انهارت بكاء على فراق ابنتها.

مرت الأيام وبدأ يزن يتحسن بشكل ملحوظ وعزا الطبيب تحسنه المفاجئ إلى قوة إرادته أو حسب

ما وصفه يزن العلاج السحري (ليان)، وبدأ بجلسات العلاج الطبيعي، كانت ليان ترافقه إليها

معظم الأحيان. في هذه الأثناء كان عمي يجهز غرفة الطفل فأمر بطلائها باللون الأزرق وملائها

بأشكال لا تخصى من الألعاب والثياب والأثاث، كان كلما وقعت عينه على منتج للأطفال يتناعه

بسعادة غامرة، كبر بطني وبان حملي وشعرت بابتهاج الجميع من حولي خصوصا شادي... كنت

أتواصل مع سارة عن طريق الهاتف أو ألقاها في السوق.

مرت ثلاثة شهور وبدأت أشعر بثقل الحمل لدى دخولي الشهر السابع، لم أكن أعلم أن الحمل

متعب إلى هذا الحد. تعافى يزن بشكل نهائي وتقرر موعد زفافه بأختي ورغم رفضها بشدة إقامة

حفل صاحب بسبب وفاة والدي إلا أنه أصر على ذلك متبرما بأن أبي مات منذ ما يقرب التسع

شهور ولا بد لها أن تتخطى ألمها وتفرح بحياتها، كما وشجعها وشجعني أيضا على الدعاء والتصديق

عنه بدل الحسرة والبكاء عليه.

أقيم حفل زفافها في إحدى فنادق أبيه الفاخرة وجالت في ذاكرتي بعض اللحظات التي مرت من زفافها السابق حين لمحت شادي هناك ومراقبته المتواصلة لي في الحفل، مما زرع في قلبي الرعب منه، كنت أظنه يراقبني حتى يخيفني أو ليشعرنى بجبروته، لم أكن أعلم أنه كان معجبا بي وقتها إما بسبب غموضه أو نظرتي المتدنية لنفسى.

راقص يزن ليان بكل حب ورومانسية وتمايل معها وأراد حملها مرارا مع رفضها المتكرر خوفا على صحته من التدهور. كان سعيدا جدا بها أكبر من سعادتها هي، فحل اليقين على قلبي مقتنعا أنه يجبها أكثر من مشاعرها هي تجاهه. لم أشهد يوما حب رجل لامرأة كحب يزن لليان، فأخذت أتساءل إن كان شادي يحبني بالمقدار ذاته أم لا، فهو يختلف كثيرا عن يزن فبينما ذاك جريء ويظهر حبه بقوة، فإن شادي كتوم ويظهر مشاعره بطرقه الغامضة.

رقصت مع شادي عدة رقصات لكنه لم يسمح لي بالرقص كثيرا خوفا على صحتي، وكان ملازما لي في جلوسي ونهوضي، ثم تبينت السبب خلف تصرفاته الغيورة فبعض رجال الأعمال كانوا يتفحصونني بفضول، مما أثار في نفسي الحجل وحاولت قدر الإمكان أن أخبئ بروز بطني لأتجنب التعليقات المحرجة من الرجال.

عدت إلى البيت مرهقة من زفاف ليان الذي دام ساعات في وسط ليلة صيفية حارة، ونمت تلك الليلة دون أن أشعر كيف غفوت ومتى.

اشترى يزن شقة جديدة لأمي وسجلها باسمها. كانت قريبة من منطقة سكننا فسهل علينا زيارتها، كما تكفل بوظيفة لخالي ليعمل كحارس أمن في إحدى فنادق أبيه، كما أن شادي اشترى له شقة مقابلة لشقة أمي ردا له لمعرفه في التكفل بمصاريفنا وديوننا منذ الصغر.

كنت محرجة جدا من تصرف كليهما، فهما غير مجبرين على الإنفاق من أموالهما علينا بهذا الشكل، لكن إصرارهما وتدخل عمي والسيد هاني لإسكاتنا عن التدخل بقرارهما أجمنا، أصر السيد هاني متبرما بأن هذا أقل ما يمكنه فعله ليكفر عن أخطائه مع أختي والتسبب بالتعاسة لها.

قرر عمي هشام القيام برحلة جماعية واستئجار مزرعة للاستجمام وتغيير الروتين اليومي قبل انتهاء العطلة الصيفية وانشغال ليان والتوأم بالمدرسة وابنته بالجامعة. نالت فكرته إعجاب الجميع فاستأجر مزرعة في الشمال في إحدى الأماكن الجميلة الخضراء.

كانت المزرعة تحتوي قصرا ضخما واسطبلا للخيول، وبركة سباحة ضخمة خارجية وأخرى داخلية ومراجيح معلقة.

أعجبت بالمكان بشدة وفرحت أكثر بسبب اصطحاب عائلتي معنا، وزاد من بهجتي أيضا تحسن علاقة مايا مع أمجد وقدمهما إلى الرحلة أيضا برفقة التوأم.

استلقيت مع شادي على السرير فترة الظهيرة فالجو كان حارا في الخارج وآثرنا النوم لساعة حتى أرتاح من آثار السفر، كان ينام كالمعتاد وهو يحتضني ويضع كفه على بطني ليتواصل روحيا مع طفلنا هشام وكلما قام بركل يده يضحك بخفة ويقول:

" يبدو أنه سيشكل تحديا لي، فهو يغار عليك من الآن! لكن لن أسمح له بالظفر بك فسأبقى الرقم واحد في قلبك "

ضحكت بدوري وقلت مستهزئة به:

" ما أدراك أصلا أنك رقم واحد في قلبي؟ ربما أحب أحدا أكثر منك "

ابتسم متصنعا الانزعاج وأجاب:

" أنا أعلم ما أريد معرفته بغض النظر عن مزاحك السمج! "

فضحكت من جديد وقلت حتى لا أشكل غمة في قلبه:

" طبعا أحبك أنت أكثر من أي أحد آخر فأنت من أعاد إلي روحي التائهة "

شعرت بشفتيه تقبلان مؤخرة رأسي وبأنفاسه تداعب شعري ثم غفوت دون أن أشعر.

عندما اقترب المساء أرشدنا رجل، كان يعمل في المزرعة كمرشد، نحو الاسطبل لنرى الخيول بناء على إلحاح ديمة والتوأم.

كانت الخيول غاية في الجمال وشارك الطفلان في تنظيف أحدها وكان العامل هناك يرشدهما إلى الطريقة الصحيحة في التعامل مع الخيل. حتى أنني صدمت عندما رأيت السيدة انتصار تشارك في تنظيف الخيول، فبرر شادي قائلاً أنها كانت تملك خيلاً في صغرها قبل زواجها بعمي. لفت نظري أحد الخيول البيضاء كان خيلاً جميلاً أبيض اللون وعندما بدأت بالاقتراب منه صهل بشكل هستيري فانقض شادي نحوي ليسحبني إلى الخلف بعيداً عنه، فاقترب المرشد منا ليعيدنا من أمامه ثم قال محذراً:

" هذه الفرس لم يتم ترويضها بعد، رجاء ابقوا بعيدين عنها، إنها متمردة وصعبة المراس وما زلنا نعمل على ترويضها، لهذا قمنا بعزلها في الاسطبل بمفردها خشية أن تؤذي أحداً" نبه علي شادي ألا أقرب منها ثانية فوعده أن أبقى بعيدة، وعدنا أدراجنا نحو البركة الضخمة. تسلينا بوقتنا كثيراً وحضر عمي اللحم المشوي بمساعدة السيد هاني بينما أخذ الشبان يسبحون في البركة باستمتاع، لاحظت أن ليان تراقب يزن بنظرات مستمتعة كما كنت أفعل ذات الشيء نحو شادي، وكذلك مايا التي كانت تراقب أجد أيضاً فاطمأنت إلى عدم كوني الوحيدة التي تنظر نحو زوجها بإعجاب وهكذا، علمت أن تصر في طبعي وليس هوساً إلا إن كنا ثلاثتنا نشكو من خطب! ديمة من جهة أخرى كانت تلعب مع الطفلين حول المراجيح، أما أمي فكانت تجلس بين السيدة انتصار وأم يزن.

تناولنا العشاء حتى أئتمنا وشربنا العصير البارد وتناولنا الثلجات، سهرنا تحت ضوء القمر لساعات نتسامر ونضحك على مواقف مضحكة في حياة كل واحد فينا بالأخص على مواقف كان يذكرها يزن عن ملاحظته لليان سابقاً.

نمنا حتى الظهر وعندما استيقظت لم أجد شادي في الغرفة فتساءلت عن مكانه، التقطت هاتفني لأتصل به وأعرف مكانه فوجدت رسالة منه يطلب لقائي خلف القصر، استغربت من طلبه الغريب هذا، فقامت بالاتصال به فلم يجبني.

نزلت إلى الطابق الأرضي فوجدت أمي وأم يزن تشربان القهوة في المطبخ الذي كان مصمما على النظام الأمريكي فسألتهما عن مكان شادي فلم تعرفا وأبلغتاني بخروج الرجال من المكان لتأدية الصلاة في الجامع القريب، فأخذت أحدث نفسي أنه ربما عاد ويريدني في موضوع مهم خلف القصر.

خرجت وتوجهت إلى الواجهة المطلوبة ففوجئت بأن المكان خال وشادي ليس موجودا، إذن لم طلب مني لقاء هنا؟ بحثت جيدا مرة أخرى في المكان بين الأشجار وناديت باسمه مرارا لكن لم يتسجب لي.

فجأة شعرت بشيء غريب وسمعت صوتا مريبا. التفت من حولي حتى أصبح الصوت أكثر وضوحا، كان صوت أنفاس لاهثة لكنها لم تكن أنفاس إنسان، كانت ثقيلة جدا كصوت أنفاس الخيل.

التفت من حولي أبحث عن مصدر الصوت فصدمت برؤية ذات الفرس التي نبه علينا المرشد بالابتعاد عنها، وفوجئت بها تركض نحوي وهي تصهل بذعر بائن، حاولت أن أركض لكن خوفي شل حركتي ولم أتمكن من تحريك ساقي، لا أدري ماذا حصل فكل شيء حدث بسرعة.. كانت الفرس قد وصلت إلي ورفعت رجليها الأماميتين في الهواء فوق رأسي بينما صرخت بأعلى صوتي صراخا مدويا ووقعت على ظهري من شدة ذعري، فازدادت الفرس رعبا فداستني في بطني بقدمها لأشعر معها أن روحي تغادر جسدي ولم ألمح بعدها إلا السواد.

الفصل الخمسون

فتحت عيني فوقعت على سقف غير مألوف لدي، كنت أشعر بخدران في جسمي، التفتّ حولي لأفهم أين أنا محاولة تذكر ما حصل معي.

وجدت نفسي على سرير أبيض وأجهزة موصولة بجسدي، ثم لمحت شادي نائما وهو مسند ظهره على كرسي ما. حاولت أن أهتف باسمه لكن صوتي كان ضعيفا. ثم بدأ يفتح عينيه، حتى وقع بصره علي، فنهض بسرعة قافزا نحوي حتى أصبح بقربي، مسح على رأسي بحنو وقال:

" لا تخشي شيئا حبيبتي أنت بخير "

لمحت أثر احمرار في عينيه وتورما شديدا حول جفنيه، هل كان يبكي؟ لماذا؟ وأين أنا؟ وماذا حصل معي؟

قبلني على جبيني وبدأت الدموع تنهمر من عينيه ثم قال:

" لن أتأخر عليك سأنادي الطبيب "

لم أشأ أن يذهب ويتركني لكنني كنت ضعيفة أشعر بهزال في جسدي ولم أتمكن من النطق لمنعه من الذهاب.

كان الطبيب يفحصني برفقة الممرضة، بينما عيني مثبتة على شادي الواقف خلفها يحتضن جسده بذراعه ويغطي فمه بيده الثانية، يطالعنا بنظرات مختنقة كأننا شيئا بداخله قد مات.

بعد مضي بعض الوقت استطعت أخيرا الجلوس في السرير بمساعدة شادي، وساعدني على تناول شيء من الحساء الذي قدم إلي، نظرت نحو بطني الذي شعرت بأمر غريب به وبشيء من الألم، كنت أرتدي قميصا خاصا بالمرضى، رفعت القميص عن بطني فأسرع شادي ليوقفني متوسلا ألا أفعل، رفعت بصري إليه بذعر وسألت وقد تجمعت الدموع في عيني:

" ما الأمر؟ ماذا حصل بهشام؟ هل طفلي بخير؟ "

سكت متألماً وبدأ بالبكاء وهو يحتضنني، لماذا يبكي؟ ماذا حصل؟
دفعته عني ورفعت القميص رغماً عنه، فوجدت ضمادات حول بطني الذي شعرت بتقلص حجمه،
ثم صرخت به دون وعي:

" لماذا هذه الضمادات حول بطني؟! ماذا حصل؟ قل شيئاً مابك صامت؟!!!!"

احتضنني مجدداً يبكي فوق رأسي بحرقة وقال:

" أنا آسف يا حبيبتي! آسف!"

اختنقت بهوائياً ولم أقوى على التفكير بشيء فتصرفه لا يبشر بخير، وأملت جاهدة ألا يكون ظني
صحيحاً صارعت الغصة التي علقته في حلقي حتى سألته:

" هل الطفل..... هل حل به خطب؟ لا تقل أنه..... هل؟"

وأجهشت في بكاء مريع وأخذت أصيح ألماً وأنا أضع يدي على بطني وصرخت غير مصدقة:

" لا لا!! قل أنني لم أفقد طفلي! أرجوك قل لي أنه بخير!!! شادي قل شيئاً!!!"

انقض الطبيب مقتحماً الغرفة على صراخي المجنون وأبعد شادي عني وحاول جاهداً تهدئتي، بينما
كنت وسط ثورتي وصرخي الموجه للقلب، اجتمعت حولي الممرضات يساعده في تثيتي فحقنني
بإبرة مهدئة سرعان ما أخذت مفعولها ففقدت القدرة على مجازاة ما حولي وعدت الملح السواد من
جديد.....

عندما استيقظت من جديد تم عرضي على أخصائية نفسية ثم داعية وقورة، وأخذت تحثني على
الصبر والرضا بقضاء الله وتذكرني بأن الرضا بالقضاء هو علامة المؤمن الحق، ثم قدمت لي الخبر
المفجع الذي كنت أخشى أن تنطق به وضعت يدها على كتفي وقالت بحذر:

" الابتلاء هو امتحان ليظهر الصابر من القانط... احتسبي أجرك عند الله... الله ما أخذ وله ما

أعطى وإن العين لتدمع وإن القلب ليحزن لكن لا نقول إلا ما يرضي ربنا إنا لله وإنا إليه

راجعون.... ترحمي عليه... طير في الجنة سبقك ليرفع درجاتك، فكوني من الصابرات"

قلت بصوت ضعيف باك بحسرة وألم:

" الحمد لله! "

لم أكن أصدق ما يجري حولي ظننت أنني أحلم، ورجوت الله أن يكون حلما لأستيقظ، لكن الواقع أنني كنت أعيش كابوسا حقيقيا.... أجهضت طفلي!.... مات فلذة كبدي الذي لم أتمكن من حمله وتقبيله، مات بذرة الأمل في حياتي... لماذا حصل لي هذا؟ غطيت وجهي بيدي متألمة مفجوعة منهارة، وبكيت وبكيت لساعات طوال، لم أنقطع عن بكائي حتى بعد إقبال عائلتي إلي ومحاولتهم مؤازرتي على مصابي.

كنت أبكي في حضن أمي التي جلست على حافة السرير تواسيني باكية وليان جالسة على كرسي شادي تمسح على رأسي تصبرني وتذكر آيات الصبر أمامي. عمي من جهة أخرى كان واقفا عند النافذة يبكي بتحسر، وشادي يمسخ على ظهره يواسيه بينما هو من يحتاج إلى من يصبره، فشعرت وقتها معنى قهر الرجال. تم إعلامي بأن طفلي أخرج من رحمي بعملية قيصرية وأنه تم غسله ودفنه بكيت أكثر وطلبت زيارة قبره فوعدتني ليان باصطحابي إليه حالما أتعافى. أمرني الطبيب بالانتباه إلى صحتي وعدم إجهاد جسدي حتى لو بالأعمال الروتينية ودعاني إلى مراقبة الجرح من أثر العملية وإعلامه في حال ملاحظتي التهابا أو خراجا أو إذا فُتح الجرح. كما حثني على الصبر وعدم السماح لنفسني بالغرق في الحزن فترة طويلة. وحاول زرع الأمل في قلبي إلى أن ربي سيعوضني خيرا منه، وأنه ربما من الأفضل له أو لي أن أخسره الآن، لئلا أفجع به بعد وقت، وطلب مني الرضوخ لحكمة الله في تيسير حياتنا. بقيت في المشفى مدة أسبوع كامل ولم يغادر شادي أبدا إلا لتجديد طاقته والاستحمام صباحا، ثم يعود إلي ليقضي معي يوما كاملا.

سألته بعد أن هدأت نفسي من البكاء وبدأت أسلم أموري لله:

" لماذا طلبت مقابلي سابقا خلف القصر؟ "

كان شاردا وهو جالس على الكرسي ثم تنبه لسؤالي فقابلني بسؤاله:

" آسف! لم أفهم؟! "

قلت موضحة:

" في المزرعة لماذا أرسلت إلي رسالة لأقابلك خلف القصر؟ "

ازدادت نظرة الحيرة على وجهه وقال متسائلا:

" أنا لا أفهم شيئا يا إيلينا! أي رسالة؟ لم أرسل لك شيئا "

قلت بامتعاض قبل أن تتجمع الدموع في عيني من جديد:

" وصلتني رسالة منك تطلب رؤيتي خلف القصر في في ظهر ذلك اليوم الذي الذي

..... كانت تلك الفرس..... "

ثم استسلمت للبكاء من جديد، طال شروده قبل أن يجيب:

" إيلينا حبي! أنا لم أرسل لك رسالة! في الواقع ضاع مني هاتفني في الليلة السابقة وظننت أنني نسيتته

في الغرفة، وغاب عن ذهني أن أتفقده ثانية "

رفعت بصري إليه والدموع تنهمر على خديّ وحاولت أخذ نفس وقلت بألم:

" إذا لم تكن أنت فمن سيكون؟ "

ثم أجبت قبل أن أنتظر منه إجابة:

" إنها هي! نعم هي! يا رب! لم أعد أحتمل! ... لقد كرهته بشدة وأقسمت على ألا تعترف

به حفيدا لها..... هي قتلت ابني..... آآه هي!! كيف طاوعها قلبها... هذه المخلوق ليست ببشر "

انهرت مجددا وأنا أبكي بشدة، ووقف بدوره مصدوما مذهولا لا يستطيع استيعاب ما يدور

حوله..... فجلس على الكرسي وقد بدأت أشعر به يفقد صوابه حاول أن يتنفس مرات عدة

وهو يضع يده على صدره فخشيت أن يصاب بسكتة، راقبت ردود أفعاله بحرص.

نهض فجأة وشعرت بالألم على قسماات وجهه وغادر دون أن يكلمني، بقيت غارقة في أحزاني

تلاطمني أمواج أفكارني، فلم أستطع التفكير بما علي فعله وازداد ألمي جسديا ونفسيا....

.....

وصل شادي إلى البيت بعد قيادته المتهورة والتي كاد يتسبب فيها بحادث ليُصدم بوجود سيارات شرطة أمام القصر. اتجه إلى الداخل بسرعة يحاول تمالك أعصابه لئلا ينهار أكثر وعندما وصل وجد رجال الشرطة يكبلون أمه ويتجهون بها خارجا.

نظر مصدوما أمامه والتقت نظراته بنظرات أمه الباكية، حاول الاقتراب منهم ليفهم ما يدور فأمره بالابتعاد والتحدث مع محاميها وساروا بها بقسوة خارجا.

التفت من حوله حائرا تائها ليلقى والده يرقب كل ما يحصل بهدوء مزيف، وديمة تكبت صرخاتها وتبكي بينما السيدة هالة تمسك بها تهدؤها. شعر لوهلة بأنه أصيب بالصمم فلم يكن يسمع حوله إلا صافرات سيارات الشرطة وذهنه غائب عما يدور حوله.

علم لاحقا بعد أن بدأ يعود له وعيه بأن الشرطة اصطحبت أمه إلى السجن لُتُرفَع عليها قضية يتم اتهامها فيها بالتعرض لمحاولة قتل إيلينا وجنينها، على أثر تحقيق الشرطة في حادثة هجوم الخيل على إيلينا.

علم شادي من المحامي أن السيدة انتصار شوهدت بالقرب من الاسطبل قبل وقوع الحادثة بوقت قريب من قبل العامل الذي كان مسؤولا عن تنظيف الأحصنة والاعتناء بها.

قرر أن يذهب إلى السجن برفقة المحامي ليواجه أمه، وسمح لهما بزيارتها انفراديا للتحدث مع محاميها. عندما تم إدخالها إلى غرفة الزيارة فوجئت برؤية ابنها جالسا إلى جانب المحامي وفي عينيه الشرر.

جلست مقابلها بمظهرها البالي الذي لا يوحى بثرائها، ثم قالت بسرعة باكية قبل أن يهاجمها شادي بأي كلمة:

" أنا بريئة أقسم على ذلك!! أنا بريئة لم أفعل شيئا!!!"

وأجهشت بالبكاء المرير، فقال شادي مشمئزا:

" العبي غيرها أُمي! لست غيبا... سبق وحاولت إيذاء إيلينا والآن... لا أعلم ما القلب الذي تملكينه لتقتلي طفلي! ابن ابنك الوحيد! أهذه الدرجة تكرهين زوجتي؟! لتقدمي على قتل.... حفيدك؟"

بكت من جديد وقالت متوسلة:

" لم أفعل أقسم لم أفعل! .. أنا أعترف أنني سابقا دبرت لخطفها نعم أنت محق بذلك أنت محق لكن بعد مواجهتك لي سابقا أقسم أنني لم أفكر في إيذائها بعد ذلك!"
مسح وجهه بعدم تصديق وقال:

" حاولت تزويجي والتسبب بقهرها!! أم نسيت؟"
فأجابت بسرعة:

" بدنيا! لم أنوي إيذاءها بدنيا أقسم لك على ذلك!"

نظر إلى محاميها الذي كان يطالعه بنظرة مؤنبة فهو ظن أنه هنا ليحدد خطة الدفاع عنها لا اتهامها!
زفر شادي بضيق وضرب الطاولة بكف يده وقال مزجرا بغضب:

" كفي عن الكذب! يوجد شاهد على تواجدك في الاسطبل يا أُمي قبل وقوع الحادث!! كفي عن التلاعب بي فقد سئمت منك ومن حركاتك وتصرفاتك وأخلاقك غير السوية، يا ليتني لم أولد لأكون ابنا لامرأة مثلك! يا ليتني مت في بطنك كما مات ابني في أحشاء أمه قبل أن أحمله بيدي وأحتضنه إلى صدري"

ثم أجهش بالبكاء بحرقة، قتلت كلماته الجارحة إحساسها وحل الظلام على قلبها واستسلمت لبكائها بدورها قائلة:

" أنا أعلم أنك لا تصدقني ولن تصدقني"

فقاطعها بقوله:

" أنت أرسلت تلك الرسالة لها لتلتقاك خلف القصر من هاتفي! أليس ذلك صحيحا؟! توقفي عن الكذب والتهرب من قول الحقيقة فألا عيبك مكشوفة أمامي"

صرخت وقد أحست بأنها باتت محاصرة:

" نعم أنا أرسلت لها الرسالة! إنها أنا"

طرق الشرطي على الباب لينبهها إلى إخفاض نبرة صوتها المحتدة، نظرت نحو الأصفاد في يدها وقالت بصوت مرتجف:

" كنت أريد إخافتها فحسب وتهديدها لتبعد شقيقتها نظراتها المرعبة عني! أختها تلك زاد الجبروت في عينيها بعد رجوعها إلى يزن، أردت فقط ان أبقى لهيبيتي وجودا ليس إلا! لكن... طالت استجابتها لرسالتي ولم تأتي فأيقنت أنها ما زالت نائمة فاتجهت نحو الاسطبل لأتحدى قدراتي... ظننت أنني... أستطيع ترويض تلك الفرس.... بعد خبرتي الطويلة في التعامل مع الخيول... لم أظن أنها متمردة إلى هذه الدرجة!! هاجت بشكل مخيف وقفزت من فوق رأسي وهربت بعد أن حطمت باب الاسطبل فخفت منها وجريت هاربة لأنجو بحياتي، لم أكن أظن ان إيلينا ستأتي إلى المكان المنشود! ولم أخطط لتهاجمها الفرس!.... هذه هي الحقيقة يا شادي!!"

شعر شادي بقلبه يطعن مرارا... وبقيت كلماتها تتردد في ذهنه كالصدى، غلبته رغبة في التقيؤ وبدأت يدها ترتجفان وهو يحاول تغطية عينيه لكي لا ينظر نحوها أكثر، ثم نهض كالمجنون وغادر الغرفة هائما على وجهه. سار في الشارع غير مهتديا إلى وجهته وترك سيارته عند مركز الشرطة بلا وعي منه وهو غارق في عالم الصدمات المتتالية، وكأنها أوتادا جليدية تطعنه بشدة وتمزق قلبه، ثم شعر بثقل عميق في رأسه وبدأ يخيل إليه أنه يلمح سوادا حتى أغمي عليه في وسط الطريق.

إيلينا

طال غياب شادي وجلست أنتظره فترة طويلة، قدمت أمي وأختي إلى المشفى لتطمئنا علي. سألتها عن شادي فلم تعلم شيئا عنه، لكن ليان فاجأتني بخبر صاعق شعرت أنه فصلني عن الواقع للحظات، فقد نقلت إلي خبر إلقاء القبض على السيدة انتصار بتهمة قتل جنيني ومحاولة قتلي.

شحب وجهي لدى تأكدي من صحة شكوكي وغمّ على قلبي أكثر، وأدركت أنني توصلت إلى القرار الصحيح لا محالة.

رن هاتف ليان واستقبلت المكالمة من فورها وشعرت بتغير في استجابتها، ابتعدت خارجة وسمعت همهماتهن لكن لم أتبين ما قالت، إلا جملتها الأخيرة:

" لا تنس أن تطمئنني إلى وضعه! حسنا لن أقول لها "

لن تقول ماذا لمن؟ لي أنا؟ من هو الذي تريد الاطمئنان عليه؟ خفق قلبي رعبا، وعندما عادت قابلتها نظرات أمي المتسائلة فأشارت إليها أنها ستشرح لها لاحقا. فازداد حنقي وهاجمتها بقولي:

" هل شادي بخير؟ "

نظرت نحوي مصدومة كأنها لم تتوقع سؤالي، ثم حاولت تجنب النظر إلي وقالت:

" طبعاً بخير لا تقلقي "

فسألتها محتدة:

" إذا كان بخير فأين هو؟ "

لم تجبني فقلت وقد تغيرت نبرتي إلى الغضب:

" اتصلي به وقولي له أن يأتي فوراً! "

ازدادت تعابير وجهها اختناقاً ثم نهضت عن الكرسي واتجهت خارجاً دون أن أفهم ما يجري، فعلمت أن خطبا أصاب شادي، أصبت بنوبة هلع وأخذت أصرخ وأنادي عليها وحاولت أمي تهدئتي. قدمت الممرضات على صوتي المخيف وأنا أصرخ وحاولن تهدئتي، فصرخت بهن دون وعي:

" أحضروا زوجي!! أين هو؟ ماذا أصابه؟ أريد شادي!!! "

ثبنتني الممرضات غصبا وحاولت أمي تهدئتي أيضاً، فعادت إلي ليان مسرعة وقد وصل صوتي الباكي إلى مسامعها ترجوني أن أهدأ حتى صرخت بي:

" حسناً سأقول لك أين شادي، لكن اهدئي وعديني أن تسكتي ولا تنفعلي!!! "

حاولت التحكم بانفعالي وسكتت وأنا أتنفس بصعوبة وصدري يعلو ويهبط، نظرت في عيني تتفرس ردود أفعالي ثم قالت وهي تحاول انتقاء كلماتها بحذر:

" إنه بخير لا تخشي شيئاً... أصيب فقط بإغماء بسيطة وهو الآن في البيت ولم يسمحوا له بالمغادرة حتى يطمئنوا إلى وضعه، حالما يستجمع طاقته سيأتيك لا تقلقي "

تسارعت أنفاسي وأخذت أبكي بتعب وخوف:

" لا! ماذا جرى له؟ إذا أصيب هو أيضاً بمكروه فس... فسأناهار ... سأموت.. ليان "

اقتربت مني واحتضنتني إلى صدرها بقوة بعد أن تركتني الممرضات وأخذت تهديء من روعي قائلة:

" إنه بخير أنا أقول الحقيقة لا تخافي سيأتيك غدا صباحاً ليخرجك من المشفى، هو فقط متوعك قليلاً مما يدور حوله! أرجوك اصبري حتى الغد وسيعود هذا وعد... أمي ستبيت الليلة عندك لن تبقي بمفردك أعدك "

لم أستطع النوم وأنا أفكر بشادي وبات قلقي يزداد كل لحظة، نهضت عن سريري أثناء نوم أمي على الكرسي، واتكأت على العمود الذي يصلني بالدواء وحاولت أن أسير في الغرفة لأمرن رجلي ولعل الألم الذي يحيط ببطني يخف قليلاً، سرت وظهري منحني من شدة الألم، ولم أستمر في المشي فترة طويلة فسرعان ما خارت قواي وعدت أدراجي إلى السرير أصارع تعبتي حتى استطعت الاستلقاء عليه وحاولت النوم، لكن لم يجد سبيلاً إلى عيني.

حل الصباح وكنت قد غفوت فجراً دون أن أعني، سمعت في أثناء غفوتي صوتاً لهف له قلبي ففتحت عيني وتفاجأت بشادي فنهضت جالسة بسرعة وهتفت باسمه، كان يكلم أمي وعندما سمع صوتي أقبل مسرعاً ناحيتي وهو يقول:

" لا تجهدي نفسك! قومي ببطء وعلى مهل "

قالت أمي توجه كلامها إلينا:

" سأهاتف ليان لأطمئنها إلى خروجك الآن من المشفى.. سأعود بعد قليل "

استغللت غياب أمي فأمسكت بياقة شادي حتى أحول أنظاره إلي، فنظر نحوي بعينين متعبتين
وسألته:

" هل أنت بخير؟ سمعت أنك توعدت بشدة..."

أمسك بيدي ورفعتها عن ياقته وقبلها ثم قال:

" أنا بخير ما دمت أنت بخير "

نظرت أمامي ثم قلت فجأة:

" سمعت عم حل بأمك "

شحب وجه شادي شحوب الأموات وتجنب التعليق على كلامي، ثم أضفت قائلة:

" وجودي في حياتك تسبب لك ولي في التعاسة "

نظر نحوي متألماً ورفض اتهامي الصريح، لكنني قررت إكمال حديثي حتى لا أجن وأتراجع عن
قراري فقلت:

" استمرارنا معا لن يجلب إلا المزيد من البؤس لكلينا.... وأنا لن أستطيع العيش معك بعد ما

فعلته أمك بي وبابننا... وصلنا إلى طريق مسدود يا شادي "

قال حابسا أنفاسه بألم:

" إلام ترمين من كلامك؟ "

حاولت التحكم بدموعي حتى لا تنهمر وتفضح جبني ثم قلت:

" أريد الطلاق! "

سكت لبرهة كأنه يحاول استيعاب صدمته من قراري المفاجيء وشعرت في ملامحه كمن صفع على

خده بقوة فشلت أعصابه على أثر الضربة، ثم قال بصوت مختنق وقد خانته دموعه الملتهبة:

" لكن أنا أحبك! "

أجبتة وقد بدأت في البكاء بدوري:

" وأنا أحبك بشدة! كما ... كما لم أحب أحدا من قبل.... لكن أحيانا لا يكون الحب كافيا
للاستمرار..... شادي أنا تعبت واستسلمت أرجوك إذا كنت تحبني حبا صادقا فاتركني أرحل!"
شرد كثيرا بكلامي وران عليه الصمت بوجهه المذهول الباكي...

الفصل الحادي والخمسون والأخير

كانت خسارة إيلينا لطفلها من أصعب وأسوأ المراحل التي عشناها، كنا نطمئن عليها باستمرار طيلة فترة تواجدها في المشفى، وكان خالي وزوجته يزورانها أيضا معنا، لكنها لم تكن ترى أحدا أو تتفاعل معهم بدى لي أنها لم تعي وجودهما بالإضافة إلى أختي شادي.

كان كل من تلمحه أو تكلمه أنا أو شادي، نظرات عينيها كانت خاوية ولم أر فيها براءة إيلينا وصبرها على مشاق الحياة، لم أعد ألمح التفاؤل في روحها، وكوّنت لنفسها عالما تلجأ إليه بشرودها المتواصل.

حالما علمت بتحقيقات الشرطة عن طريق معارف يزن، سارعت برفع قضية على السيدة انتصار، أنسب إليها محاولة قتل شقيقتي وجريمة قتل جنينها، أقسمت على الانتقام ولن أتردد أو أتهاون معها.

ظننت أن شادي سيأتي متوسلا لأسقط التهم، لكن والشكر لله لم يناقشني في الموضوع عند علمه بذلك.

ثم جاء الخبر الصاعق الذي قتل آخر أمل لدينا، آخر رمق بالحلم بأن تتحسن أحوال أختي.... خبر طلاقها.

حاولت كثيرا معرفة سبب طلاقها منها لكنها لم تكن تستجيب، كأن إيلينا تحولت إلى مخلوق آخر، جسد خاو بلا روح، ثم علمت من يزن إصرارها على الطلاق حتى استسلم شادي لرغبتها فطلقها مكرها.

كان شادي يكابد ويعاني وحده ولم يسمح لأحد مشاركة آلامه، بل سافر في رحلة عمل حتى يتعد عن الجميع بمن فيهم يزن، لم يستهجن الأخير تصرفه ذلك مبررا لي بقوله:

" لظالما كان شادي هكذا، لا يفصح بسهولة عم يخلج صدره وحياته، هو كتوم منذ عرفته، أعلم تماما المعاناة التي يمر فيها وأعلم تماما أنه يعتصر ألما على فقد إيلينا أكثر من فقد ابنه حتى، لكنه لن يبوح بذلك.... لا أعرف كيف أصفه لك لكنه يتمتع بشخصية معقدة ليس من السهل فهم تصرفاته ما لم تعاشره وتعيشي معه أعمق أسراره كما فعلت أنا، لست بحاجة لتبرير منه لأنني أشعر بما يمر به "

رجوت أن تمر هذه الفترة على خير وتعود إيلينا إلى مرحها ويعود أملها وترتسم الابتسامة على شفرتها من جديد، وتجد سكنا لقلبها المعذب وروحها الميتة.

كنت أزورها بكثرة في بيت أمي وكذلك صديقتها سارة فور علمها بمستجدات حياة رفيقتها الغالية، وحاولت تقديم الدعم لها ما أمكن وتصبيرها وغرز التفاؤل في قلبها، وكنت أنام بعض الليالي إلى جانبها، حتى تفاجأت يوما بإعلانها قرار الرحيل عن هنا، لم أستوعب الصدمة في البداية وحاولت ثنيها عن قرارها لكنها كانت مصرة بشدة.

تفاجأت بكونها رتبت أمور رحيلها بمفردها، لظالما كانت هي المختبئة تحت جناحي وكنت أنا التي أطاردي في تفاصيل حياتنا الصعبة، كيف استطاعت الخروج وتحرير نفسها من قيودي عليها! كانت قد اتفقت مع شركة نقل لتقوم بنقل متاع البيت إلى وجهتها حيث رفضت بشدة إعلام أحد بها، حتى أمي التي كانت سترحل معها لا تدري أين ستعيش، وحرصت على التكتم بحرص حتى لا يصل أي خبر عنها لشادي ولا يستدل على مكانها.

كما أنها فاجأتني بإسقاط التهم عن السيدة انتصار! أثارت غيظي بتصرفها الغريب المخالف للمنطق فبررت لي تصرفها قائلة:

" لن أزيد هم هذه العائلة أكثر بسببي، كانوا يعيشون في وئام بعيدا عن المشاكل حتى اقتحمت

حياتهم "

فقلت معترضة:

" بل كانوا متدثرين بغطاء التمثيل ويتظاهرون بأنهم سعداء تحت جبروتها وطغيانها! أنت فقط ساعدتهم بكشف الغطاء عن حقيقتها الشيطانية!"

حاولت جاهدة إقناعها بالتراجع دون جدوى، وتنازلت عن حقها من القضية وأسقطت التهم عنها. لكن القاضي حكم عليها بالسجن حفاظا على الحق العام.

رحلت إيلينا، رحلت وتركت قلبي خاويا، تركتني وحدي، وغيرت رقم هاتفها وهاتف أمي ولم أسمع منها إلا نادرا فهي التي تتصل بي من رقم خاص لا يظهر هوية المتصل، وكل ذلك حتى لا يتسرب أي خبر عنها إلى شادي أو أفراد عائلته.

حاول السيد هشام معرفة أخبارها عن طريقي عدة مرات، لكنني لم أكن أحمل أي خبر له للأسف الشديد، فأنا حقا لا أعلم عنها شيئا.

علمت منه في زيارته الأخيرة لنا أن زوجته خرجت من السجن بكفالة، كان يبدو عليه الهم والحزن، وعيناه الخضراوان بهت لونهما، ولم ألمح تلك الإشرافة في وجهه، كنت قد علمت من يزن أن السيد هشام أغلق غرفة الطفل بمزلاج وأمر بهجرها وعدم ولوج أحد إليها وترك فيها كل ما جهزه للطفل لتبقى كل ذكرياته وآماله مهجورة.

علمت منه أيضا حين كان يذهب للتدرب مع شادي مقدار انهيار كل منهما والتعاسة التي حلت على سكان المنزل حتى الخدم، فقد كانت إيلينا محبوبة جدا في القصر وعطوفة على الخادومات وتساعدهن بصدر رحب. حتى ديمة دخلت عالما جديدا من العزلة واتخذت من السواد لباسا لها ونمطا لحياتها وألقت بكل ملابسها واكسسواراتها في القبو وقررت الحصول على مسكن جامعي حتى لا تعود إلى البيت، حيث لا شيء إلا الذكريات الأليمة والدمار.

عدت إلى الواقع لأتمعن في البؤس الواضح على معالم السيد هشام ثم قال محدثا عمي في جلستنا جميعا معه محاولين مؤازرته معلنا نهاية مشواره وصبره:

" لقد طلقت زوجتي للتو!"

ظهرت الصدمة جلية على وجوهنا، وحبست أنفاسنا ونحن لا ندري ما نقوله له، حاول عمي
تصيره بقوله:

" هل أنت متأكد من خطواتك هذه؟ بعد كل هذه السنين يا هشام؟ زواجك بها دام ... فترة
طويلة!"

ابتسم بحزن وقال:

" ما صبرني على تصرفاتها المقيتة هو الحصول على عائلة كريمة لأبنائي فلم أشأ لهم أن ينشؤوا في
أسرة مفككة، لكن لم يعد لدي مساحة لأصبر أو أغفر.... وبغض النظر عن حقيقة قتل حفيدي...
حتى لو كانت روايتها صحيحة... يكفيني أنها تسببت في حرمانى منه وقتلت روح ابني معها"
غطى عينيه بأصابعه بألم وحسرة وبكى ثم رجاني قائلاً:

" أرجوك يا ابنتي ليان إذا كنت تعلمين أي شيء عن إيلينا قولي لنا، فأنا لم أر شادي أبدا بهذا المقدار
من الحطام... من أراه أمامي ليس شادي بل شبح يسير بيننا! أريحي قلوبنا المعذبة وأخبرينا عن
مكانها"

ذرفت عيني الدموع ألما وتهت بين كلماتي، كيف سأجعله يصدق أنني حقا لا أعلم عنها شيئا؟ كيف
سأقنعه بذلك؟

إيلينا

استأجرت بيتا صغيرا بغرفتين وملحقاتها في إحدى الضواحي البعيدة، حتى لا يعلم أحد مكاني
ووجدت عملا في مدرسة محلية كمدرسة للغة الانجليزية، بدأ عملي مع بداية دوام الفصل الدراسي
الثاني، كان علي تعلم الكثير من مهام المدرسين كتصميم خطة فصلية وتحليل محتوى عدا عن الخطط
اليومية... الخ، وكان ذلك بالنسبة لي كالطلاسم غير مفهومة، قدمت لي بعض من الزميلات العون
والمساعدة.

حاولن كثيرا التعرف علي ومعرفة تفاصيل عني لكسر حاجز التعارف فلم أشف فضولهن إلا بإعلامهن حقيقة سكني مع أمي وحدنا، وأنني المعيل الرئيسي لها بينما أختي متزوجة في المدينة وأبي متوفٍ منذ قرابة السنة.

شعرت بتعاطف عدد منهن معي، لكن لم أشأ أن أعيش بينهن بشفقة فأظهرت أصلب ما لدي، المديرية من جهة أخرى كانت قاسية نوعا ما أو حازمة بشدة، ولا أستطيع لومها صراحة فأنا معلمة جديدة وتريد التأكد من تمكني من هذه الوظيفة. ما لم أكن أحيط به علما هو مقدار التعب والجهد المبذول في هذا العمل، فمهنة التعليم ليست سهلة كما يبدو للغالبية من الناس، وبالأخص عند العمل في المدارس الخاصة، الآن بحق شعرت بمعاناة ليان في وظيفتها. نقلت بعضا من أخباري لسارة متجنبه ذكر شيء عن وظيفتي وأعلمتها بشفائي التام من آثار العملية وعن استقرار حالي، ففاجأتني بحديثها حيث قالت:

" حصل معي موقف مرعب اليوم... استدعاني المدير إلى مكتبه!"

شعرت بدمي يجف في عروقي ثم سألتها عن سبب طلبه لها فقالت:

" أراد أن يعرف إذا كنت أعلم شيئا عنك أو عن مكانك لكنني لم أفده بأي معلومة... خشيت أن يطردي فقد رمقني بنظرات وحشية قاتلة وكشر عن أنيابه أمامي، أقسم أنني كدت أتبول في ملابسي من شدة الذعر!"

ثم تنهدت بأسى وشعرت بمقدار خوفها منه بعدها قالت تتوسلني:

" أرجوك يا إيلينا! فكري جيدا في مستقبلك؟ هل هذا ما تطمحين إليه؟ الهروب دائما؟ لماذا لا تعطينه فرصة للبدء من جديد؟"

قاطعتها بحدة قائلة:

" سارة! الموضوع منته بالنسبة لي فلا تزيدني الحديث في مواضيع تم طيها سابقا!"

فقالت محتدة بدورها:

" لو ترين وجهه المتألم! هذا لم يعد مديرنا الجذاب المثير... أعني هو ما زال جذابا لكن بطريقة مخيفة، حزينة.... مكتئبة! إيلينا إنه مدمر ولا يتعب نفسه حتى بإخفاء مشاعره المحطمة!"
بكيّت ألما وقلت متوسلة لها:

" كفى أرجوك! ألا يكفيني ما أعانيه؟ ساحيني يا سارة سأنهي المكالمة الآن!"

وقبل أن أعطيها مجالا للرد أنهيت المكالمة، بكيت بشدة متألمة متحسرة على كل ما مضى، لم يتبق لي شيء أسعى لأجله.. بت أعيش دون هدف ودون وجهة.... بلا أمل! خسرت ما أملك وخسرت دفء قلبي وإشراقة الأمل في حياتي ليحل محله الآن البرد والظلام! لم يبق لي شيء لأخسره فقدت معالم السعادة ولم أعد أشعر بطعمها وكل ما يتجرعه قلبي الآن هو المرار فقط.
مرت الأيام وكنت أعيش مع أمي كالضيف لا أحدثها بكثرة، ولا أسمح لها بنقل أي أخبار عنا لليان وأكلفها بالحديث المختصر معها لتطمئننا إلى أحوالنا، حتى أنني لم أعد أكلم ليان أو سارة، وانعزلت عن الجميع في عالم اكتئابي الخاص بي.

كان ملجئي الوحيد هو استقبالي للقبلة حيث كنت أبت بكل همومي لخالقي عله يهديني إلى سواء السبيل ويصلح حالي ويجبر كسري. علمني جدي ذات مرة أنه من اتخذ من الله ملجأ فلن يضل الطريق، وهذا ما جاهدت نفسي على فعله طيلة فترة انكساري وتجري لأحزاني.
زرت قبر طفلي عدة مرات بعد أن علمت مكانه، حرصت على زيارته وحدي دون أن أبوح لأمي عن وجهتي، وكنت أجلس بالساعات أبكيه وأترحم عليه وأدعو بالصبر والثبات على فقده.
وعندما كنت أعود إلى البيت كنت أعتزل بعيدا عن أمي لأكمل رثائي على حالي وشقائي. متجاهلة تساؤلها الدائم لي عن مكان غيابي.

حاولت إخراج الذكريات من مخيلتي وجاهدت على عدم التفكير في شادي وماضيّ معه، لكن شبحت الذكريات استطاع التسلل إلى قلبي، لأتذكر لقائي الأول به حينما وبخني واتهمني بالتقصير في العمل، إلى أن التقيت بوجهه الوسيم في القصر وكل لحظاتي الغريبة معه وما تبعها من أحداث حتى تزوجنا، ومواقفنا الحلوة والمرّة المتذبذبة، إلى أن وجدت المودة طريقها لتآلف بين روحينا وتربط

بينهما بخيط مرصع بالحب والعشق... نعم أحببت أمجد وأعجبت بفارس، لكنني لم أعشق أيا منهما كما عشقته هو، دخل عالمي الخاص وتخطى حواجزي وتعدى على دائرة الثقة الخاصة بي ليقتمها بحبه وغيرته المشتعلة... توغل عميقا في أحاسيسي فتملك كل خلية في جسدي. لكن الآن قُطع ذلك الخيط واشتعل قلبي حتى هتكته النيران، نيران حزني وكسري ليتحول إلى رماد مع ما حملة من ذكريات أمست بالنسبة لي حلما جميلا أفقت منه على واقع مر كئيب.

اقتربت السنة الدراسية من الانتهاء وبدأنا بعقد اختبارات نهائية للطلبة والعمل على منظومة العلامات. لم أشأ صراحة أن تبدأ العطلة الصيفية، لأن عملي هو ما نجح في إبعادي عن دائرة الجنون. فكان علي الآن التفكير في خطة بديلة أقضي فيها وقتي في العطلة الصيفية.. ربما لو اشتركت في نادٍ صيفي للتطوع أو في مركز تحفيظ للقرآن...

خرجت من حقل أفكاري على صوت زميلاتي حولي يتها مسن عن موضوع أثار فضولي، فسمعتهن يتحدثن عن مساهمة أحد رجال الأعمال في تنمية مقدرات المدرسة المادية كتبرع منه بعد ان اشترى جزءا من أسهمها، ثم بدأت إحداهن تتحدث قائلة بحماس:

" لقد لمحتة في المكتبة يطّلع على مرافقها، كان برفقة المديرة، يا رب لم ألمح رجلا بهذه الوسامة من قبل! كأنه ملاك نزل من السماء على هيئة بشر!"

فسألتها رفيقتها:

" هل هو كبير في العمر؟"

فأجابت متلهفة:

" كلا! بل في ريعان شبابه ربما أواخر العشرينيات أو أوائل الثلاثينيات... له عينان تخطفان

الأنفاس... رماديتان حادتان أخاذتان!"

فقال صديقتها:

" أشعلت رغبتني حتى أراه"

هنا شردت قليلا بارتياب، وحاولت إقناع نفسي أنني أبالغ في مخاوفي فقط، فشادي ليس الرجل الوحيد الذي يمتلك عينين رماديتين! لكنني لم أستطع كبح نفسي عن التدخل في حديثها وسؤالها: "عفوا! ما اسمه؟"

نظرتا إلي كلاهما، فشعرت بالخرج من عدم احترام حديثها الخاص، ومع ذلك أبدت الأولى تجاوبا مع سؤالني لترد علي بقولها:

"كأنني سمعت المديرة تقول له سيد..... مراد! هادي مراد علي ما أعتقد!"
فقلت بنبرة وجملة:

"تقصدين شادي مراد؟!"

لمعت عيناها وقالت:

"أجل شادي مراد! صحيح!"

شعرت كأنها سكبت في وجهي دلو ماء حارا! لا يمكن أن يكون كلامها صحيحا! تغيرت تعابير وجهي ليتملكها الذعر فبان ذلك جليا أمامهما، فحل عليهما الذهول من ردة فعلي ثم قالت الأخرى متسائلة بقلق:

"هل أنت بخير يا إيلينا؟"

انتبهت إلى أنني لم أرمش أبدا فشعرت بحرقه في عيني، ثم أشحت وجهي بعيدا عنها ولجأت إلى النافذة لألتقط أنفاسي فزاد القلق عليهما لتسألاني عم حل بي فجأة.

اتجهت مثل الصاعقة نحو أوراقتي وملفاتي وبدأت في توضيها حتى أغادر المدرسة بسرعة قبل أن يراني. لا يجب أن يعلم أنني أعمل هنا، إلا إذا كان يعلم من الأساس ولهذا جاء هنا! عند هذه الفكرة شهقت بقوة فأوقعت أغراضي أرضا.

انقضت نحوي زميلتاي تجمعان معي أوراقتي فهبت إحادهما بي بنبرة مرتفعة قليلا حتى تفهم ما ألم بي:

"ما بك كأنك تعرفت على شبح؟ قولي ما خطبك؟"

اغرورقت عيناى بالدموع وتمتمت بغير وعى منى:

" يجب أن أغانر لا أرىء أن ىرانى! لا لىب أن ىرانى!"

فتساءلت الثانية وقد بءا علبها الانزعاج من تصرى المفاجىء:

" لءاذا؟ هل تعرفىنه؟ ما الأمر؟"

اتجهت نحو الباب عقب جمع أغراضى فانقضتا نحو الباب وسبقتانى وهما مصرتان على معرفة ما ألم

بى، فهببت بهما فجأة لأسكت فضولهما وأستطىع مغاءرة المكان:

" إنه طلىقى!"

كست الصءمة وجهىها فاستغللت الفرصة وءفعتها بعىءا عن الباب واتجهت بسرعة لأخرج، ووقت على السلام أءاول التءكم فى أنفاسى ثم سرت على مهل لأءأكد من ءلو الممر وأنا أءتصن

كئبى وأوراقى إلى صءرى، ثم تسمرت قءماى عقب سماعى صوت المءىرة تقول:

" ارتء فى مكئبى لو سمءت!"

ولءتها تسىر فى الممر، التقت نظراتها الءاءة بنظراتى المرءبة، ثم ءءمء الدم فى أوصالى فجأة وتوقف الزمن عن الءوران ولم أءء أشعر أو أرى أءءا.. سمعت صءى صوتها ىترءء إلى أءنى تسألنى عن وجهتى، لكن لم ىكن إءراكى ىولبها اهءاما وعىناى معلقتان بءلك العىنن الرماءبئن اللئىن ظهر الءهول فىها وهما ءففءصان عىنى بءورهما لىءأكد مما رآه، شءءء قبضتى على كئبى نحو صءرى أكثر وهربت راجعة أءءفى ءلف السلام... لم أكن أراه لأعرف رءة فعله، لكننى سمعت المءىرة ءهءف له من ءءىء لىءبعها إلى الءاءل.

ءءء أءراجى نحو الطابق العلوى، وقبل أن أهم بالءوءة إلى ءرفة المءلمات سمعت ءمءات فى الممر ءءى ءبىنت بعض الءءل بىن مءموعة من زمىلائى:

- " وصدقتما أنه طلىقها؟ ءبئان!"

- " إءن بم ءصفن ءصرفاتها المفاجئة؟"

- " نعم لو رأىء الءهول الءى ءملكها"

- " يا سخيقتان! هي قالت ذلك لتخفي شيئاً آخر.. عفوا هل وضعها المادي وعملها في هذه المدرسة ولباسها البسيط يوحي إلى أي أحد ارتباطها برجل كهذا؟ يستطيع الحصول على سيدة البنات بمواصفاته وراثته!"
- " كلام ميار صحيح! ربما تعرفه بقصة أخرى ولم تشأ أن تقول، أصلا هي فتاة غامضة وشككت بها منذ البداية بأن لها أسراراً قدرتها"
- " مثل ماذا؟ إنها تبدو مسكينة وليست من النوع القدر!"
- " أعني ربما كانت تتسول منه أموالاً وخجلت من وجوده هنا حتى لا يفضحها!"
- أبدى اقتراح هذه المعلمة والتي عرفت أنها سهى من صوتها موافقة الجميع، فتقدمت نحوهن وتحنحت بصوت مسموع فشهنن مصدومات وظهر الخجل على وجه بعضهن بينما رمقتني أخريات بازدياء، فقررت تجاهل الجميع ومضيت أسير من بينهن أصارع قهري وضعفي حتى خرجت من المدرسة من الباب الخلفي دون اكتراث لمغادرتي دون الحصول على إذن.
- عدت إلى البيت غاضبة حانقة وما إن فتحت الباب حتى هاجمت أمي بصراخي المفاجيء:
- " هل قلت لليان شيئاً عن مكاننا؟ كيف طاوعتك نفسك؟"
- قابلتني بنظرة مشدووهة بهجومى المفاجيء وقالت:
- " ما بك يا صغيرتي؟ طبعا لم أبح بشيء لها!"
- فقاطعتها بصراخي مرة أخرى:
- " إذن ماذا أوصل شادي إلي؟! كيف عرف مكاني؟"
- لطمت خدها مصعوقة وقالت لتتأكد مما قلته:
- " ماذا تعنين بأن شادي علم بمكانك؟ أقسم لك بربي يا إيلينا لم أقل لأحد شيئاً! والله يا ابنتي لم أقل شيئاً!"
- جلست ألث غير مصدقة لما يدور حولي وبدأت ألطم صدغي بمرار وأقول:
- " يا رب! لم يحصل معي هذا؟ من أين عرف مكاني؟"

قصصت على أمي لقائي به، فحاولت إقناعي بافترضها أن مجيئه كان محض صدفة وشاءت الأقدار
لنلتقي مجدداً، لم يعجبني كلام أمي فقررت تركها بمفردها وعزلت نفسي من جديد في غرفتي،
لأحاول إخراجها من تفكيري وأفكر في طريقة للتعامل مع كل ما مررت به من أجل الغد.
عندما دخلت المدرسة لأسجل اسمي أعلمتني المساعدة عن رغبة المديرية في لقائي في مكتبها،
فاتجهت هناك من فوري أدعو الله ألا أراه هناك.

استأذنت للدخول وسمحت لي، كانت وحدها في المكتب فشعرت بالجليل الذي يضغط على صدري
يتزحزح قليلاً، ثم أمرتني بالتقدم نحوها، ففعلت بخوف بائن على ملامحي.

كان سبب استدعائها لي لتعابني على مغادرتي المفاجئة في الأمس دون إذن منها، منبهة علي أنها
ستغاضى هذه المرة وإذا تكرر تصر في ثانية ستقوم بتوقيعي على استجواب. لم أجادلها، اعتذرت منها
ووعدها بعدم تكرار فعلتي.

وعندما هممت بالمغادرة استوقفتني فجأة بقولها:

" آه صحيح! كفي أيضاً عن نشر الإشاعات المغلوطة في المدرسة مفهوم!"

كنت أعني قصدها على ضوء الغيبة التي سمعتها البارحة، هززت رأسي دون اعتراض ومضيت نحو
الطابق العلوي لأكمل بعضاً من مهامى الورقية متجاهلة نظرات المعلمات المحتدة والفضولية
نحوي.

اقتربت مني إحداهن وربتت على كتفي وقالت:

" تجاهلي وقاحتهم أنا وهنادي نصدقك"

أومأت برأسي دون أن أقول شيئاً، كان الضيق يعترى صدري وشعرت أنني ربما أنهار إذا تكلمت.
جاءنا إشعار مفاجئ بعقد اجتماع إداري عقب مغادرة الطلبة، فألححت على معرفة سبب الاجتماع
فوضحت لنا المساعدة رغبة المساهم الجديد في أسهم المدرسة في التعرف إلى طاقم العمل لأخذ
ملاحظات العاملين ويضع رغباتهم في الصورة. فشعرت بمغص يجتاحني وكنت على وشك التقيؤ.
فكرت في أسباب عدة لأتجنب حضور الاجتماع والتهرب من المدرسة لكنني لم أجد.

جاءت اللحظة الحاسمة وأمسى حضور الاجتماع شيئاً ضرورياً. اتجهنا جميعاً نحو قاعة المكتبة ليجتمع بنا هناك، كونها أكبر قاعة لنجتمع بها، حرصت على الجلوس في المقاعد الخلفية متجنباً نظرات بعض المعلمات المتعالية والمتغترسة نحوي، ألا يكفيني ما عانيته من تكبر انتصار علي؟! كيف علقت في براثن هؤلاء المتوحشات أيضاً؟ هل سألقى هذه الذئاب البشرية أينما هربت؟ أطلت المديرية فور تأكدها من حضور الجميع ثم أفسحت المجال قائلة:

" تفضل يا سيدي ... استرح على مقعدك أمام العاملين "

دخل شادي بخطواته الواثقة وبطول قامته وجسده القوي ليلفت الأنظار نحوه، وتمكن من دون جهد يذكر من أن يسلب خفقات من قلبي ويذكرني بمقدار حبي وافتناني به من جديد. سمعت همسات من حولي عن أناقته وجاذبيته. شعرت بالغيرة تتدفق لتنفجر داخلي فاحمر وجهي غضباً، لكنني تحكمت بانفعالاتي وجلست أكابد قهري.

ألقى التحية وهو يجوب بعينه بيننا بحثاً عن شيء ما أو أحد ما بالأحرى... ثم بدأ بالتعريف عن نفسه ورغبته في تحسين إمكانات المدرسة والرفع من مستواها. عرض بعض الأفكار، كتجهيز الصفوف جميعها بلوح ذكي للعرض وأجهزة حديثة للطلبة، وتحسين بعض مرافق المدرسة، ثم طلب منا اقتراح ما نريد من تعديلات.

غصت في داخل كرسي أكثر حتى لا تقع عيناه علي، اقترح البعض عليه تحسين التدفئة والتهوية في الغرف الصفية، وطالب معظم من العاملين برفع الأجور، فأبدى استعدادهم لعمل ما شاؤوا وللحسين من مستوى المدرسة.

تولت المديرية الحديث بعده مؤكدة على التزام الجميع بأخلاقيات المهنة والعمل بإخلاص، فالماديات وحدها لن ترفع من مستوى المدرسة إن لم يكدح المعلمون فيها بإخلاص. كنت أتابع كلام المديرية باهتمام، لأن كلامها الوجداني وجد معبراً ليجذب انتباهي، ولم أتنبه إلى عيني شادي اللتين نجحتا في اصطيادي بعد بحث طويل ليستقر نظره علي.

وعندما خرجت من فقاعة حديثها نظرت نحوه فإذا به يتفرس بملاحمي، فكساني الخجل ليتملكني ويحتاج كياني كاملا، فألقيت بصري على أصابعي المعقودة في حجري بارتباك واضح، ويبدو أن نظراته لفتت انتباه البعض من الزميلات فكن يرمقني بنظرات فضولية وأخرى قاتلة. لم ينتبه بدوره إلى المديرية وهي تهتف له، حتى أجفل على لمسها لكتفه ليعيرها انتباهه، فسألته محرجة من ردة فعله إذا كان يرغب في إضافة شيء، فاعتذر مؤكدا إنهاء حديثه.

شكرت المديرية الجميع معلنة انتهاء الاجتماع وطلبت منه أن يتجه معها نحو مكتبها، فنهض واقفا وسار إلى جانبها حتى وصل الباب... كان قلبي يخفق بشدة وجزء مني لم يشأ أن يذهب. لكنه توقف عن مسيره قبل خروجه من المكان، فسمعت المديرية تسأله عن الخطب.

رفعت بصري نحوه فرأيتة يحدق في البلاط أمامه شاردا في أفكاره، ثم رفع رأسه متنهدا والتفت نحوي، فهوى قلبي بين ساقبي، وقال موجهها كلامه إلي:

" أريدك في كلمتين، من بعد إذنك "

ثم سار متجها نحو مكتب المديرية ليسبقني، شعرت أنني أكاد أفقد الوعي! لا أريد مقابلته أو الحديث معه! ماذا أفعل؟ كيف أتصرف؟ لمحت أعين الجميع حولي تلتهمني، فمنها ما أصابها الفضول ومنها الدهول وأخرى حدجتني بنظرات نارية.

جاءت المساعدة تهتف لي أن أتجه نحو مكتب المديرية على الفور، وأخيرا تمكنت من تحريك ساقبي بصعوبة وسرت معها نحو مصيري الذي لم أفلح بالهروب منه.

كان جالسا على الأريكة بجانب مكتبها صامتا، تعلقه نظراته الغامضة والهادئة كما عهدته دوما. تقدمت إلى الداخل ووجهت سؤالي إلى المديرية لأسأله عن سبب استدعائي، فطلب مني شادي الجلوس، فاتجهت نحو الأريكة المقابلة له بعيدا عنه.

تفرس في ملاحمي جيدا وهو يراقب ملاحمي المرتعبة، ثم مسح بكفه على فمه ولحيته الصغيرة وقال متجاهلا تواجد المديرية بيننا:

" لماذا اختفيت كل هذه الفترة؟ "

فأجبتة بسؤال مغاير:

" كيف عرفت مكاني؟ "

هز رأسه مجيباً:

" لم أعرف! جئت هنا بمحض الصدفة بهدف توسيع مجال أعمالي وتقديم الأعمال الخيرية "

سكت ولم أبادي له ردة فعل، راودني إحساس بأن المديرية تجلس بعدم راحة بيننا وهي تراقب

الموضوع باهتمام، فازداد ارتباكى، ثم أردف:

" كيف جرحك؟ هل التأم؟ "

فأجبتة بامتعاض:

" أحدهما التأم والثاني لن يبرأ وسيرافقني إلى قبري "

فتنهذ بألم، ثم نظر نحو المديرية التي كانت مهتمة بحديثي وقال:

" سيدة فدوى هل تسمحين لي بدقيقتين؟ على انفراد؟ "

تنحنحت بإحراج وابتسمت له لتخفي خجلها ومضت خارجة من المكتب.

فنهض واقفا وأغلق الباب جيداً بعدما تركته خلفها شبه مفتوح، فدق ناقوس الخطر في قلبي، ثم

وضع يديه في جيب بنطاله القماشي واتجه نحوى بخطواته الواثقة واستقر واقفاً أمامي.

كنت جالسة أضع يدي على ركبتي بذعر شديد، استراح متكئاً على ركبته أمامي، وضع كفيه على

فخذي، فطلبت منه بأدب أن يرفع يديه عني فلم يستجب. تجرأت ورفعت بصري نحوه والتقت

نظراتي المحرجة بنظراته المتألمة، ثم همس قائلاً:

" يا لك من قاسية قلب! هانت عليك العشرة فابتعدت عني كل هذا الوقت؟! ألم تشتاقي إلي؟! "

أغمضت عيني أرجوه أن يبتعد عني، فشعرت بسخونة أنفاسه قريبة من وجهي أكثر، فتحت عيني

فوجدته شبه ملاصق لي، فتمتمت بخجل وقد اكتسى وجهي بلباس الحمرة:

" رجاء سيد شادي! نحن لم نعد متزوجين... أرجوك راع وضع مسافة بيننا "

وضع إصبعه على شفتي ليسكتني وقال بصوت مثقل حزين:

" اسكتي! لا أريد المزيد من مواعظك الجافة فهي تدمي قلبي أكثر! أريد فقط أن أشعر بحبك!
اشتقت إليك "

لمحت في عينيه دمعة يصارعها حتى لا تخرج. فرق قلبي قليلا، وحاولت الحصول على نفس لكن
الهواء حولي كان ثقيلا وشعرت أنني أكاد أختنق من انفعالاتي المتخبطة بين خجل ورغبة واشتياق
والم.

قرب رأسه أكثر مني ولا مست شفثاه شفثي برقة، أشحت وجهي بسرعة فأمسك به بكفيه وأعاد
حيثما كان فخرجت كلماتي تصده بحياء قاتل:
" سيد شادي رجاء طلب... "

ولم أتم جملي فقد أخرسني بانقضاض شفثيه علي ليقبلني في فمي بقوة ملتها شفثي بإحساس
ملتهب، وشعرت بطعم أنفاسه العذبة في جوفي فكانت قبلته كالخدران يسري في تفكيري لأتوقف
عن المقاومة للحظات. تمسك بوجهي بقوة أكبر وقضم شفثي بغيظ حتى ألمتني وأخذت أئن،
لحظتها أدركت فداحة ما نخوضه الآن فدفعته من صدره لأبعده.

تنحى مبتعدا ووقف على رجليه يمسح شفثيه، شعرت بألم شديد في شفثي ووضعت إصبعي عليها
فوجدتها تقطر دما، فنظرت نحوه معاتبه ليقول بنبرة متألمة:
" هذا جزاؤك لأنك رميتني وحرقت قلبي "

ثم جلس إلى جانبي دون استئذان، مد إصبعه يمسح شفثي بلطف، حتى جف الدم عنها، استغل
لحظة ضعفي نحوه فقبض على يدي ضاغطا على أصابعي، وهمس بتوسل شديد:

" إيلينا! أنا أحبك بجنون! عودي إلي لفتح صفحة جديدة من حياتنا! يكفينا عذابا!
سحبت يدي من قبضته ونهضت بسرعة أمسح دموعي، اتجهت بسرعة نحو الباب وأنا أعتذر منه
وخرجت بسرعة البرق متجهة نحو الطابق العلوي لأسحب أغراضي وأهرب من هنا، قابلت
بعض الفضوليين في طريقي لكنني قررت تجاهل الجميع.

حملت أغراضي أصم أذني عن أي سؤال أو تعليق، بينما عقلي الباطني يؤنّبني بشدة على غلظتي الفادحة معه! كيف سمحت له بتقبيلي دون وجود رباط شرعي بيننا؟! كيف رخصت له؟! الحب لا يغفر الخطايا، أنا فتاة ملتزمة أخاف الله ومشاعري لن تشفع لي حين ألقاه! شعرت بالسخط أكثر من نفسي.

اتجهت نحو الطابق السفلي. وقفت على باب مكتب المديرية متجاهلة له كلياً وقلت بسرعة دون أن أنتظر ردها:

" اسمحي لي سأغادر!"

وركضت خارجة بسرعة لكنني توقفت عند الباب الخارجي لساحة المدرسة بعدما سمعت صوته يستصرخني لأتوقف، أدركت أنه لحق بي لكنني لم ألتفت نحوه، قال بسرعة قبل أن أهم بالرحيل:

" لماذا تفعلين ذلك؟! لماذا تصرين على عنادك؟ أنسيت كل شيء هكذا بهذه السهولة؟"

التفت نحوه باكية وقلت:

" هل تمزح؟ لم أنس شيئاً أبداً، لذلك أسافر كل نهاية أسبوع لأزور قبره!... كل أسبوع! كيف لي أن

أنسى كل المر الذي تجرّعته؟! أرجوك اتركني في حالي، لم يعد في قلبي مجال آخر لأحتمل الألم أكثر!"

ثم جريت مبتعدة نحو موقف الحافلات دون أن ألتفت خلفي، أخفي دموعي وأصارعها حتى لا

تخونني في منتصف الطريق وألفت الأنظار نحوي. عدت إلى البيت وانكبت على أحضان أُمي

أبحث عن سكن لقلبي المجروح ونفسي المتألّمة، بكيت وقتاً طويلاً وهي تمسح على ظهري وتحاول

تهدئي لتفهم ما جرى لي.

لم أقل لها شيئاً لكنها فهمت وحدها أن الموضوع يخص شادي. لم يغمض لي جفن في تلك الليلة وأنا

أصارع أفكارٍ ومشاعري المتخبطة، حتى توصلت إلى قراري نهائياً ولا تراجع عنه.

وصلت مكتب المديرية في وقت مبكر وجلست أنتظر قدومها، وعندما وصلت تفاجأت بوجودي

هناك، وبدأت بسؤالٍ عن حالي وسبب تواجدي هنا وسبب مغادرتي البارحة، فقاطعتها بورقة قمت

بمدها أمامها اعتلتها نظرة دهشة، وسألته عن فحوى الورقة، أشرت إليها لتقرأها، فأبعدت نظراتها لتوجهها إليها، تغير لونها بعدما قامت بقراءتها، ثم رفعت بصرها إلى ثانية بحدة وسألت:

" لماذا ترغبن بالاستقالة؟ ماذا حل لك؟ ألم تصارحيني بحاجتك لهذه الوظيفة؟"

أجبتها بألم كبير:

" بلى، أنا بأمس الحاجة إلى وظيفة لكنني لن أستطيع العمل هنا مجددا"

قوست فمها وقد تغيرت نظراتها فجأة نحو شيء من الاهتمام والعطف، وأشارت إلي أن أجلس ثم تساءلت بفضول شديد قائلة:

" هل السبب هو السيد شادي؟ ماذا بينك وبينه؟"

أزدرمت ريقني بتوتر وقلت:

" لا شيء"

فتساءلت بإلحاح:

" هل هو فعلا طليقتك كما بحثت أمام زميلاتك؟"

قلبت عيني بضيق في حجري ثم أجبتها:

" سأنتظر منك توقيعك على الاستقالة واليوم سيكون يومي الأخير هنا"

ثم نهضت متوجهة نحو الساحة المدرسية لأشارك في الطابور الصباحي.

فوجئت في منتصف الإذاعة المدرسية بشادي يخرج نحو الساحة يوجه أنظاره الباردة نحو الجميع من حوله، وخلفه المديرية التي وقع نظرها علي لتراقب ردة فعلي باهتمام. وقع بصره علي، ثم أزاحه بعيدا برود مما خلق شعورا عاصفا بالبرد في قلبي. هل عاد إلى طبعه السابق؟ ربما غضب مني بسبب الأمس وتغيرت مشاعره نحوي... أيعقل أنه كرهني وشعر بالنفور مني؟

انتهت فقرات الإذاعة وبدأ الطلبة بالتوجه إلى صفوفهم لتقديم اختباراتهم، وبقي شادي واقفا بجانب الباب الذي يدخل منه الطلبة كأنه ينتظر مني المرور. لم أعد أفهم تصرفاته، ألم يرمقني بنظرة حادة قبل قليل؟

دخل الجميع ولم يتبق غيري، فهتفت لي المديرية بقولها:

"إيلينا هل ستبقين واقفة هنا؟ هيا إلى القاعات لمراقبة الطلبة في الاختبارات!"

أعادني صوتها إلى الواقع الحالي، فسرت على مهل بحذر حتى أصبحت على مقربة منه، ففاجأني بمد

ذراعه على الباب ليسد علي طريقي، رفعت إليه بصري بحذر فقال بحنق مع ابتسامة مغتظة:

"مزقت ورقة استقالتك! ستكملين المشوار هنا"

رمقته بنظرة حادة فأمال رأسه قليلا للجانب وقال:

"ألديك اعتراض؟"

تنفست بصعوبة ثم قلت ببرود:

"لو سمحت دعني أمر!"

أزاح يده عن الباب وراقبني بنظراته الحادة حتى اختفيت من أمامه، فشعرت بأن ساقِي لم تعودا

قادرتين على حملي فجلست على السلامم لألتقط انفاسي.

التزم شادي بالحضور يوما إلى المدرسة حتى بعد انتهاء اختبارات الطلبة وبدء العمل في الملفات

والشهادات والأمور الإدارية الأخرى، وأمسى يكتفي بمراقبتي دون التعرض لي أو الحديث معي.

أخيرا جاء اليوم الأخير للدوام قبل بدء العطلة الصيفية لي، في السابق كرهت فكرة الإجازة هذه أما

الآن فأنا أشعر بالراحة لقدومها، سأختفي أخيرا من حياته ثانية وأغيب عنه فترة لأتخلص من فورة

مشاعري تجاهه.

غادرت المدرسة وقد علمت بمغادرته قبلي، شعرت بشيء من الغيظ، وغضبت من نفسي لمشاعري

الغيبية، اتجهت نحو البيت أرسم في ذهني مخططا جديدا لخطواتي التالية من حياتي.

عندما وصلت وفتحت الباب، تجمدت للحظات... كيف لا وأنا أنظر في تلك العينين الرماديتين

وهما تتفحصانني بدقة!

كان شادي يجلس في الغرفة على الأريكة وعيناه مسلطتان علي كالصقر، ظننت أنني أتخيل من كثرة تفكيري به، أغمضت عيني وهزرت رأسي ونظرت جيدا أمامي فكان يراقبني باستمتاع جلي، ثم قال:

" أنا حقيقة لست خيالا "

شعرت بوجهي يحمّر خجلا، ثم التفت نحو أمي التي كانت تجلس إلى جانبه ورمقتها بنظرة معاتبة لتستقبلني بنظرة مؤنبة، وأشارت إلي أن أتقدم وأشارك الجلسة. اقتربت منها وجلست على الأريكة البعيدة عنه، تمنعت به قليلا مستغلة فرصة تحول نظراته عني، فوجدته قد هدّب لحيته قليلا فبرز لون عينيه أكثر، وشعره مسرح للخلف مع خصلة صغيرة من غرته حائرة على جبينه من الجانب قليلا تنتظر مني أن ألمسها وأعيدها ألى حيث رفيقاتها، فرسمته لي عيناى جذابا أكثر من المعتاد مما زاد من ارتباكي.

استأذنت أمي للذهاب إلى المطبخ وتركنا وحدنا، فهاجمته بسرعة بقولي:

" ماذا تفعل هنا؟ وكيف عرفت مسكني؟ "

تفحص غضبي المزيف ثم قال بصوته القوي الواثق:

" ليس صعبا اكتشاف مسكنك. وأنت تعلمين تماما لما أنا هنا... جئت لطلب يدك من أمك "

وضعت يدي على قلبي مصدومة، حاولت الرد عليه لكنه فاجأني بصراحتة، قلبت عيني في المكان بحيرة أبحث في قاموسي عن أي كلمة لأرد عليه فلم أجد، فقرر أن يتولى الحديث بنفسه فقال:

" القصر غدا مسكنا للأشباح في غيابك!... فأبي ينام في المكتب وديمة في مسكن الجامعة، كما أنها

سجلت في الدوام الصيفي حتى تبقى بعيدة عنا "

نظرت نحوه بحدة وسألته:

" وأمك؟! "

فقال رافعا حاجبيه مذهولا:

" ألم تقل لك ليان؟! "

أومأت رأسي وقلت:

" تقول لي ماذا؟ أنا لا أكلّمها إلا نادرا"

فتنهّد بصعوبة وقال:

" أبي طلقها فور خروجها من السجن"

فتحت عيني مصدومة بكلامه ثم أضاف:

" وهذا ليس كل شيء..... إيلينا.... أمي مريضة!"

احتضنت جسدي بذراعيّ وقلت:

" ماذا تعني بمريضة؟"

فقال متأسفا على حاله:

" إنها تحتضر.... تم تشخيصها بسرطان في الدم اكتشفته في مراحلها الأخيرة.... رفض أي أحد من

عائلي زيارتها..... لكن قلبي لم يحتمل... فهي أمي يا إيلينا..... وضعتها في جناح خاص في

المشفى الذي نتعالج فيه وبقيت أنا الوحيد أزورها وأطمئن عليها.... أعلم أنني خنتك لكنها

..أمي!"

تذكرت أبي فجأة وركضي إليه لأطمئن عليه بالرغم من كره ليان للفكرة، ثم حسرة ليان في عدم

توديعه، فلم أستطع لوم شادي على اهتمامه بأمه، فمهما آذنتني إلا أنها تبقى أمه في النهاية، سألته من

باب الأدب:

" كيف هي الآن؟"

أجاب مغمضا عينيه:

" لا أمل لنجاتها"

ثم فتح عينيه ينظر أمامه يصارع دموعه المتألّمة ثم قال:

" أرجوك يا إيلينا، لم أعد أستطيع العيش دونك! عودي إلي وأعيدني الحياة إلى القصر الكئيب هذا

قبل أن أفقد صوابي"

تجنبت النظر إليه وبدأت أذرف الدمع فأضاف:

" أنا أفهم أملك تماما، لا تنسي أن أملك من ألي! حتى أبي أمسى كالجثة التي تسير دون هدى! دعينا نتغلب على أحزاننا معا ونتساعد في إيجاد سعادتنا من جديد! أنا أحبك وأنت تحبينني! وردا على كلامك السابق الذي جرحني قبل أن تغادري مملكتي وتهجريني.... الحب كافٍ ... الحب هو الذي يعطيك القوة للاستمرار للحاق بأهدافك وتجديدها "

نهض عن الأريكة ووقف أمامي ومد يده لي فلم أفاعل معه، فانحنى والتقط يديّ بنفسه ورفعني لأهض واقفة وقال:

" سعادتي في يدك.. إما أن تلحقني بي قبل موعد مغادرة طائرتي أو تحطمي قلبي مرة أخرى، طائرتي ستغادر الساعة السادسة وإني لأرجو منك أن تتواجدني هناك قبل الموعد" ثم مسح على خدي بأصابعه وغادر الشقة، وتركني هائمة بقلبي المثقل بالمشاعر، أطلت علي أمني من باب المطبخ وقالت:

" في العادة لا أتدخل في قراراتك أنت وأختك لكن الآن علي أن أحثك على أن تجري خلفه لئلا يختفي من حياتك وتندمي يا ابنتي "

بكي من جديد وجلست على الأريكة حائرة بنفسي، فقررت أمني مهاتفة ليان أمامي، وقصت عليها كل شيء، أشعلت مكبر الصوت وطلبت منها محادثتي فقالت:

" إيلينا حبيبتي الصغيرة عهدتك دائما بقلب طيب متسامح مع الآخرين.... فكيف مع أقرب الأشخاص إليك؟ شادي لم يعد شادي المعهود.. إنه يتألم لا تنسي أن طفلك الذي خسرتيه هو طفله أيضا وخسره بسبب أمه وطيشها! ألا تشعرين بالثقل الذي يعانیه في قلبه؟ أنا لا أعلم حتى الآن كيف لم يمت بسكتة دماغية أو جلطة قلبية! وفوق كل هذا لا يجد من يداوي جرحه، فالكل حوله مجروح ومنشغل بجروحه!! إنه بحاجة إلى من يقف بجانبه، أتعلمين لولا وجود يزن معه لفقد المسكين عقله منذ زمن! إيلينا لا تنهوري في تفكيرك ولا تسمح لي لأحزانك أن تتهادى في ظلم نفسك وظلم شادي! لا ذنب له فيما يحصل فلا تعاقبيه! يكفيه ألما "

بكيت تأثرها من كلامها الذي كنت أعلم به في قرارة نفسي، لكنني مجروحة بشدة هل سأتمكن من نسيان كل شيء بهذه البساطة والعودة إليه؟
وعدتها أن أحتلي بنفسي وأصفي ذهني وأفكاري ومشاعري لأعلم كيف أتصرف.
بقيت جالسة مكاني طيلة اليوم أراقب الساعة وأحاول التفكير بعمق، حتى جاءت أمي وجلست إلى جانبي ثم قالت متسائلة:

" إيلينا الأمر أبسط مما تتخيلين، فقط أجيبي عن هذا الأسئلة بصدق، هل تحبين شادي؟"
فأجبتها بحسرة:

" طبعاً يا أمي أنا أعشقه أكثر من أي شيء آخر!"
فأضافت:

" إذن هل تلو مينه على موت طفلك وتعاستك؟"
فأجبتها بسرعة:

" طبعاً لا هو ليس له ذنب فيما حصل!"
فقالته مؤنبة:

" إذن لماذا تصرين على معاقبته؟ عندما كان والدك يضربني أو يضرب ليان، هل فكرت إحداها بالانتقام منك؟"

هزرت رأسي برفض فقالت موضحة:

" إذن لماذا تتقمن منه على إيذاء أمه؟! هي آذته أيضاً! ومع ذلك هو متمسك بك بشدة ويجبك بصدق، ابنتي كفي عن عنادك واجري خلف سعادتك فنحن لا نعلم ما تحبوه لنا الدنيا، ماذا لو مت وبقيت وحيدة؟ ستغدين ضيفة ثقيلة بين الأقارب حتى يزوجوك لأي كان! وأنت بيدك الآن أن تختاري من عشقه قلبك!"

غرست كلماتها نظرة مخيفة في قلبي نحو المستقبل، نظرت إليها وقلت متألمة:

" لا أريدك أن تموتي!"

فأجابتنني:

" كلنا سنموت يا صغيرتي، لم يكتب الخلود لأحد! لكن أريد أن أموت مرتاحة البال إلى سعادة طفلي، فهلا تكرمت باللحاق بالرجل المنشود لك؟ أرجوك إيلينا من أجلي ... من أجلنا.... من أجلك أنت!"

نظرت نحو الساعة فرأيتها تشارف الخامسة فذب الذعر في قلبي وخفت بشدة، فنهضت بسرعة وخرجت من البيت لأوقف سيارة أجرة وألحق بشادي نحو المطار بسرعة. كانت الطريق مزدحمة والسير واقفا، وبدأ صبري ينفد وأعصابي تلتف، ثم وصلت السيارة قريبة من المطار فدفعت الأجرة للسائق بسرعة وخرجت أركض بين السيارات الواقفة من الزحام حتى وصلت المطار. هرولت بسرعة متجهة نحو مقاعد الانتظار أبحث بين الوجوه عن شادي ثم لمحت الساعة فجأة لأجدها قاربت الساعة فأصابني ذهول شديد، عندها فقدت الأمل وانطفأت الشعلة التي كانت متقدة في قلبي وأنا مؤمنة تماما بخسارتي لشادي إلى الأبد هذه المرة، وقعت على ركبتي أبكي بشدة وأتخسر على حالي وغبائي.

قمت أجز ساقِي بعدما استسلمت لمصيري وعدت لأجد سيارة أخرى لتقلني إلى البيت، وعندما وصلت وفتحت الباب، استقبلتني أمي تسألني عم حصل معي، فانكبت على صدرها أبكي بحرقة وألم شديدين، جلست على الأريكة أنظر نحو الأرض بتحسر وهمهمت مع نفسي بصوت مسموع: " لم يتبق لي شيء أعيش من أجله"

استراحت أمي إلى جانبي ثم مسحت على ظهري وطلبت مني أن أغير ملابسي التي بقيت طيلة اليوم علي وأستحم حتى نجلس سووية لنفكر في خطواتنا التالية.

اتجهت نحو الغرفة وفتحت الباب، رفعت بصري وشعرت بقلبي يعود إلى الحياة من جديد، أسقطت حقيبتني من يدي، ورفعت كفي أغطي فمي بدهشة، كان جالسا على حافة النافذة ينظر نحوي بعينه الرماديتين اللامعتين وقال:

" أظننت أنني أقدر على فراقك؟ لن أعادر حتى تأتي معي فأنت التي اقتحمت أسوار قلبي وعلمتني كيف أحب "

التفت خلفي مصدومة لأقابل نظرات أمي الدامعة مبتسمة لي.

ثم نهض واقفا وفتح ذراعيه لي، وقال متوسلا:

" حبيبتي! قلبي ينزف! عاجليه! "

فجريت نحوه دون تفكير وألقيت بجسدي بين أحضانها أبكي بحرقه شديدة ثم طوقت رقبتها بذراعي ودفنت رأسي في صدره وقلت:

" أحبك يا شادي! "

احتضني أكثر إليه وقال:

" ليس بالقدر الذي عشقتك به... والآن... سأطلب منك ثانية، وأرجوك لا تغدري بي.. هلا قبلت بالزواج مني ثانية؟ سأكرم مقامك هذه المرة.. هذا عهد أمام الله "

رفعت رأسي عن صدره ونظرت في عينيه بحب ثم قال:

" هل أنت موافقة؟ "

ابتسمت بأمل بدأ يتجدد في قلبي قائلة:

" نعم موافقة! "

فسمعت أمي من خلفي تطلق الزغاريد فرحة وهي تبكي وتذرف الدموع.

عاد بنا شادي إلى المدينة بعد أن قمنا بإعادة كل متاع والدتي إلى شقتها التي اشتراها يزن سابقا، تركت المدرسة وقدمت استقالتي بعد أن انتشر فيها خبر خطبتي من رجل الأعمال الشهير شادي هشام مراد.

قرر أن يعقد قرانه علي في أقرب فرصة، عندما وصلت فوجئت بأن الكل ينتظرنني في المطار، أهله وأختي! وكان أولهم حماسا لرؤيتي عمي هشام فاستقبلني بالأحضان باكيا راجيا ألا أتركه ثانية. كما

أقبلت معه كل من مايا وديمة، فجاءتا لاستقبالي بالدموع والتهليلات، فوجئت بالتغير في لباس ديمة فأثار تساؤلي فضحكت ليان معلنة حداد ديمة على فقدي.

تقرر الزفاف في نهاية الشهر وقرر شادي إقامته في إحدى الفنادق التي يمتلكها والديزن وأوصى بتفصيل ثوب زفاف خاص بي مطرز الصدر والأكمام ومرصع بالجواهر.

طلبت منه لقاء أمه في المشفى فتردد كثيرا بالسماح لي بمقابلتها، لكنه استسلم لرغبتني في النهاية وأخذني إليها.

دخل غرفتها في المشفى قبلي ليعلمها برغبتني في لقائها وعندما أذن لي بالدخول ذهلت بمظهرها، فهذه ليست ذات الجبروت التي آذت الناس، وآذتني بالذات. كانت مستلقية في سريرها بين الحياة والموت هزيلة متعبة بوجه شاحب مليء بالتجاعيد ولم تستطع إخفاءها بمساحيق التجميل التي كانت تحرص على وضعها على وجهها دائما.

نظرت نحوها متجاهلة وجود شادي ثم قلت:

" آذيتني كثيرا، وتسببت في معاناتي وخسارة ابني... كنت أنانية بشكل لا يوصف... ربما من غيرتك على شادي أو لمرض نفسي تعانينه، لا أدري، لكن كل ما أعرفه أن الكره والحققد نار تلتهم صاحبها. وكرهي لك لن يعيد هشام إلى الحياة من جديد لذا أود أن أقول لك أنني... سأحتك "

ذرفت عيناها الدمع ثم أشارت إلي لأقترب، ففعلت، مدت يدها على كمامة الأكسجين لتبعدها، فحاول شادي منعها لكنها أشارت له أن يتركها على راحتها، فأذعن لها.

رفعت الكمامة عن فمها قليلا ثم قالت بعد صعوبة كبيرة:

" أنا أعترف... بأبني كنت... جبارة... لكن الموت... هادم الملذات.. يأتي ليذكرنا أننا مهما... تكبرنا... فإننا سنعود... من حيث أتينا... لكنني سأموت الآن... مرتاحة البال... ليس لأنك... سأحتيني فمن حقدك... أن تكرهيني... وأن تشتميني... وأن تدعي علي بالعقاب... راحتي سببها... أن ابني... سيرتبط بالفتاة التي... تستحقه... ولن يجد شادي... خيرا منك...
لآمنك.. عليه..."

ثم وضعت كمامة الأكسجين على وجهها لتحاول التقاط أنفاسها من جديد وأغمضت عينيها تستسلم لتعبها، بعد أن أجهدتها الكلام.

سار بي شادي خارجا وحاولت حثه على إجبار شقيقتيه على زيارتها لثلاثا عندما مثل ما حصل مع ليان، فوعدني بذلك.

حل موعد الزفاف المرتقب، وطلب شادي من الطاقم الطبي حضور أمه، فوعده بحضورها جزءا يسيرا من الحفل فقط لأن صحتها لن تسمح لها.

لبست فستاني الأبيض الجميل، ونظرت في المرأة أنفحص هيئتي كعروس من جديد، عانقت أمي وأختي متحمسة أكبح دموعي لثلاثا تفسد مساحيق التجميل، احتفل بي أقاربي في بيت أمي ريثما يصل شادي ويصحبني نحو الفندق.

أقبل شادي بعد انتظار طويل وسلمني خالي له، نظر إلي كالمهوف كأنه لا يصدق عودتي إليه، وصحبني معه في سيارته إلى حفلنا الضخم. كانت سعادي وقتها لا توصف..

سار كل شيء في الحفل كما تمنيت وشعرت فعلا أنني عروس هذه المرة. لمحت في الحفل، بينما كنت أرقص في أحضان شادي، كلا من ليان ويزن وهما يتراقصان بحب، ووقعت عينا على مايا تتمايل بخصرها بين يدي زوجها بود... وديمة ترقص مع التوأم بسعادة غامرة. حتى سارة أسعدتني بحضورها زفاني وفرحت لها كثيرا عند علمي بارتباطها بأحد الشبان من أقربائها.

ثم لمحت فارس من بعيد مع رشا، وعلمت أنها تزوجا منذ أربعة شهور مضت، كانت رشا تنظر إلي من بعيد مبتسمة ولوحت لي بسعادة، وقابلتها بالتلويح بالمثل.

تم إحضار أم شادي لربع ساعة فقط لترى ابنها يغدو سعيدا من جديد، بكى شادي كثيرا وهو يقبلها على رأسها بأسف، اقتربت منها ابتها وانخرطتا في البكاء، صارت حزني عليهما لثلاثا أبكي بدوري، أما عمي لم يقترب منها وآثر الجلوس بعيدا.

تقدم والديز نحوها والدموع تلمع في عينيه على حالها فصدمت منه، لم أعرف ما صلته بها حتى يهتم لأمرها. كان يمس لها شيئا وسط دموعه فهزت رأسها باكية بدورها.

أعيدت السيدة انتصار في سيارة المشفى بعد أن تعبت أكثر ولم تكمل الربع ساعة. كابد شادي لإعادة الحفل ومسح دموعه واقترب مني معذرا على إفساده للحفل، احتضنت وجهه براحة يدي وقبلته على أنفه فتزينت خدوده بحمرة الخجل من تقبيلي له علنا أمام الآخرين، ثم ضحك هامسا قريبا من أذني:

" أغار عليك من النفوس الضعيفة، لا تفعلها مجددا! إلا ... على انفراد"
نسجت ابتسامة محملة بألوان العشق، وعانقته بشدة فاستقبلني معانقا بهيام، راقصني تحت الأضواء الخافتة رقصتنا الرومانسية الخاصة، ثم همس في أذني لينعش إحساسي:
" ها قد وجدت سكنا لروحي التائهة"